تقديم

لماذا المدينة؟ ثم لماذا أثينا؟

تنطوي المدينة، أي مدينة، في الماضي كما في الحاضر، على كمٍّ غير قابل للقياس من الأسرار الكامنة في كل وحدة من وحداتها (البشرية أو العمرانية أو السكانية)، وخلافا لفضاء الريف المكشوف على أهله ومنازلهم وعلاقتهم فيما بينهم ومع بيئتهم، تبقى المدينة مجالا وفضاء خصبا للدراسة والفضول الذي لا يحد، أيًا كانت قواعد العيش فيها مقننة وموحشة، كأنها في ذلك تغرينا من الوهلة الأولى لندخل إليها ولا نعود نخرج منها - إلا نادرا - ليزداد بذلك الزحف البشري نحوها أكثر فأكثر، حتى لو كانت الحياة فيها موحشة وعطشى للحنان البشري الذي لا يمكن تعويضه بعمارات لامعة وأضواء مشعشعة، ولا بمخزون التجارب الإنسانية المشرقة والمريرة والمتراكمة تحت الأبنية الشاهقة وفوق الأرصفة العتيقة وفي جنبات الظلال الباهتة والزوايا المعتمة.

ومع كل هذه القواسم المشتركة يبقى أن لكل مدينة قصتها وأسرارها الخاصة وعاداتها وثقافتها وملامحها وجمالها وبشاعتها ومواصلاتها، ويبقى أنه كلما أمعنت المدينة في التاريخ وصمدت بإرادة ناسها وتجديد أشيائها وتحديث خدماتها تضخمت قيمة كنوزها وأخبارها، فهي باتت تختصر شيئا من كل الأزمنة وكل الحضارات وكل الأمكنة والثقافات التي تبدلت عليها وفيها، وصارت رمزا إنسانيا ينام ويحتضن معه ثروة معرفية هائلة من ماضي وحاضر هذا الكائن الاجتماعي المفكر الذي يمشي «على اثنين» على الأرض.

ولأن كل ثروة من هذا النوع تستحق أن نفرد لها محورا من «عالم الفكر» فإننا نباشر، بدءا من هذا العدد، نشر سلسلة محاور سيخصَّص كل منها لأمهات المدن

العالمية، مستهلين هذه السلسلة بأثينا، التي لا نسترجع معها فقط نموذجا لـ «مدينة - دولة» عريقة في التاريخ، ولا فقط علاقتها بمرحلة ولا بجغرافية ولا بلغة ولا بثقافة دون غيرها، بل نسترجع أيضا مكونا أساسيا من ذاكرة جمعية عالمية لها حيز في كل ذهن وذاكرة تعاقبا أو سيتعاقبان على الحياة البشرية، منذ أن عُرفت تلك الحاضرة «الساحرة» التي طبعت بداية، ولقرون كثيرة، الحضارة اليونانية، وعرفت الأوج والاستقرار والصراع والسقوط، وأثرت في الشرق - من خلال ترجمات العرب والمسلمين - قبل أن تكون لاحقا أساسا لحضارة الغرب، وكانت خير مثال على ولادة وارتقاء ثم انحطاط الكيانات والحضارات والدول.

في هذا العدد نستحضر أثينا ومعها إضاءات على كل أوجه الالتباس والغموض، هذا الغموض الذي يزيد الرغبة في العودة إليها كلما أمكن ذلك، مهما بلغت المجلدات والدراسات والموسوعات التي كتبت ومازال عن ذلك الكنز المعرفي. نستحضر أثينا التي لا شبيه لها في التاريخ، أو هذا ما وصلنا عن التاريخ القديم على الأقل: «المدينة - الدولة» التي ازدهرت فيها الأساطير والفلسفة وبدايات العلم (جنبا إلى جنب محاكمة الفلاسفة وطردهم وإعدامهم)، وتعايش فيها نظاما الديموقراطية والعبودية، وعرفت ذروة الاستقرار والسلم وملذات التقدم والانتصار وقسوة وبشاعة الحصار والهزيمة في الحرب.

ومع كل بحث ودراسة وتمحيص وتفصيل جديد من تفاصيلها يداعبنا فضول كشيف لعل مرده السعي إلى التأكد من مكانتها ومساهماتها في مسيرة البشرية اللاحقة، ومن حقيقة الصور الافتراضية التي حملناها في مخيلتنا عن أثينا وناسها وشوارعها وعاداتها وتقلبات أحوالها ونشوء دستورها ومحاورات وخلافات أهل الحكم والفكر والعلم فيها.

نخصص هذا العدد لأثينا لأنها، ومهما عُرف وكتب عنها إلى الآن، ستبقى بلا شك وجهة جاذبة لطلب المزيد عنها، مع ثقتنا بأن دراسات ومقالات هذا العدد سوف تساعد على شفاء غليلنا «العلمي» بتمثل تلك المدينة الرائعة بأبعادها المختلفة كأنها أمام ناظرينا، وهي في أقل الأحوال تساعدنا على اكتشاف كثير من الجديد في جو من الشغف المعرفي رفيع المستوى.

رئيس التحرير

مقدمة: المدينة.. تفاعل اجتماعي وإسهام حضاري

د. ناصر الدين سعيدوني (*)

ارتبطت نشأة المدينة باستقرار الإنسان، وعكس نموها وتطورها أسلوبه في العيش وطريقته في الحياة وعلاقته بالآخرين، فكانت مرآة صادقة لأوضاعه وقدراته، كما كانت المتحف الحي لتراثه وتجاربه. وهذا ما يجعل المدينة من خلال وظيفتها ونشاطها تتجاوز كونها مجالا عمرانيا وبيئة اجتماعية وموقعا للاستقرار والنشاط الاجتماعي، لتصبح كائنا اجتماعيا حيا متفاعلا، ومظهرا حضاريا معبرا تتحكم فيها شروط المكان وتؤثر فيها أحداث الزمان وتصوغها قدرات الإنسان، تنشأ وتنمو وتتطور إذا توافرت لها عوامل البقاء ومتطلبات الاستمرار.

وقد تضمحل المدينة أو تنقرض إذا انعدمت فيها المسببات النابعة من حاجة الإنسان إلى الأمن وميله إلى التواصل والعيش المشترك؛ فالمدينة بحكم واقعها البشري وبيئتها الاجتماعية ونشاطها الاقتصادي ومناخها الثقافي؛ هي البوتقة التي يتم فيها التآلف البشري والمجال الذي يقنن فيه الإنسان نشاطه الاقتصادي وعلاقاته الاجتماعية ويصوغ مفهومه المعرفي وذوقه الجمالي. وهذا ما يجعلها بحق المسرح الذي تُمارَس فيه الحياة، والصورة المعبرة عن قدرة الإنسان على تنظيم البقعة التي اختارها بمحض إرادته للعيش فيها مع الآخرين، وعمل على تطويرها لتصبح قادرة على تلبية حاجاته وتحقيق رغباته، وفق تعريف الجغرافي الفرنسي فيدال دولابلاش (Vidal de la Blache) للمدينة.

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الكويت.

فالمدينة من هذا المنظور تعتبر نقلة نوعية متميزة في الحضارة البشرية، فهي وفق تحليل الجغرافي الإنجليزي جوردن إيست (G. East) المظهر المعبر عن ثورة حضارية كبرى في مسيرة التطور البشري، تفصح بطريقة أو بأخرى عن كل شيء في الحياة المتطورة تقريبا، وتكرس في حياتنا المظهر الملموس للجانب الحضاري المنظم والمعبر عن إدراك الإنسان لمتطلبات الحياة الاجتماعية وشروطها، ولعل دلالة مقطع «دين» من لفظ المدينة في اللغة الآرامية يجعلها المكان الذي يسوده العدل.

إن الأهمية التي اكتسبتها المدينة في حياة الإنسان هي التي جعلتها موضع اهتمام الباحثين في العلوم الاجتماعية، ومحورا أساسيا في عدد من العلوم الإنسانية؛ فقد اهتم بها الجغرافيون وحاولوا وضع قوانين تحدد نشأتها وترصد التغيرات التي طرأت على النواة المكونة لها من خلال مواصفات موضعها (Site) وشروط موقعها (Situation)؛ والتعرف على صلاتها بظهيرها وتفاعلها مع وسطها الطبيعي والبشري بالاعتماد على تحليل موقعها (Situation)؛ وسايرهم في ذلك المختصون في علم العمارة والدارسون لمسائل العمران؛ فركزوا في مقاربتهم للمدينة على وضع المخططات الهندسية وتحليل التصورات الجمالية وتحديد المعطيات الفنية من حيث شكل ووظيفة واستعمال منشآتها ومرافقها ومسالكها وآفاق تطورها؛ في الوقت الذي غدا فيه النشاط الاقتصادي للمدينة من صميم اهتمامات علماء الاقتصاد، سواء من حيث طريقة استغلال الأرض وتكلفة البناءات أو تطور دخل الفرد ومستوى المعيشة؛ وجاراهم في ذلك علماء الاجتماع الذين تصدوا لدراسة المدينة انطلاقا من عادات وسلوك سكانها ومؤشرات العيش فيها من غنى وفقر وصلاح وفساد وأمن وخوف، وانعكاس ذلك على تمايز الطبقات وتحديد الجماعات العرقية والدينية واللغوية، وهم لا يختلفون في اهتمامهم بالمدينة عن معالجة علماء الديموجرافيا في دراستهم للواقع البشري في المدينة، من حيث نسبة الولادات والوفيات ومعدل النمو والتراجع ودوافع الهجرة والاستقرار.

إن هذه الاختصاصات وما ماثلها من المعارف التي تهتم بشؤون المدينة وتحاول تحليل واقعها ورسم آفاق تطورها تظل رؤاها قاصرة ونتائجها محدودة في غياب الخلفية التاريخية والمظهر الأثري والبعد الحضاري في نشأة المدينة وتطورها وتحولها إلى مجتمع حي مؤثر ومجال حضاري منتج، وهذا ما يجعل المدينة من صميم عمل كل من المؤرخ والأثري، فكلاهما يهيئ الأرضية لمجالات البحث الأخرى المتعلقة بالمدينة عن طريق استغلال الوثائق الأرشيفية وتحليل المعالم الأثرية والتعرف على مسببات ونتائج وانعكاسات الهجرات والحروب وواقع الأنظمة السياسية ودوافع الحركات الاجتماعية والنشاطات الاقتصادية في حياة المدينة، ولعل هذا ما يسبغ أهمية خاصة على الدراسات التي تتضمنها هذه الأعداد من مجلة «عالم الفكر» المخصصة لبعض المدن ذات التاريخ العريق والتراث الحضاري الأصيل، وفي مقدمتها مدن

أثينا والقدس وباريس، فهذه الدراسات توفر هذه الخلفية التاريخية وتقدم مقاربات تحليلية وعروضا نقدية لواقع المدينة وآفاق تطورها، وتعرف بأهميتها في تراث الإنسانية من خلال عينات نوعية؛ فأثينا مثلا نموذج للمدينة القديمة وتعبير عن ظاهرة الحضارة الإغريقية التي أشعت بعطائها على العالم الكلاسيكي بأفكارها الفلسفية وبتصوراتها الهندسية وقوانينها التنظيمية ومرافقها العمرانية؛ والقدس بماضيها المجيد وتاريخها الحافل تقدم مثالا حيا للمدينة العربية الإسلامية بتراثها المعماري وبعدها الروحي ومقاومتها الباسلة لمحاولات طمس هويتها وقطعها عن جذورها الحضارية العربية الإسلامية؛ ومدينة باريس بإسهامها الثقافي وإشعاعها الحضاري وتصوراتها المستقبلية تبرز لنا مكانة المدينة الأوروبية التي استطاعت أن تؤثر في حاضر المدينة المعاصرة.

ومادمنا بصدد تقديم هذه الأعداد التي خصصتها مجلة عالم الفكر لأمهات المدن العالمية، فسوف نقتصر على عرض الخطوط العامة لنشأة المدينة وعناصر تكوينها من حيث تطورها التاريخي وتأثيرها الاجتماعي وبعدها الحضاري، عسى أن توضح للقارئ الملامح العامة والخطوط الرئيسية التي تحدد وضع المدينة وأهميتها في حياة الإنسان في مختلف الأقطار والعصور.

ارتبط ظهور المدينة كمجموعة بشرية بتطور الزراعة ووفرة في إنتاج الغذاء، أمكن معها لعناصر بشرية تتميز بتعدد أفرادها وتباين أنسابها وأصولها واختلاف نشاطها التحول من استغلال الأرض إلى الاستقرار والتفرغ لممارسة مهن يدوية وصنع أدوات ضرورية تطلبتها حياته الجديدة، ما أحدث تطورا في أسلوب عيشهم وطريقة حياتهم وأوجد قواعد سلوكية معينة فرضتها الإقامة في مجال محدد، فكانت نشأة المدينة الأولى تعبيرا عن هذا التطور والتحول اللذين كانا استجابة للسلوك الإنساني الفطري في البحث عن الألفة والميل إلى التجمع، اللذين لم يُتمكّن من تحقيقهما عمليا في فترة التقاط الثمار أو ممارسة الصيد واحتمائه بالكهوف ثم التجائه إلى المأوى البسيط المكون من الأغصان والأوراق.

لقد كانت مسيرة الإنسان نحو مجتمع المدينة بطيئة وطويلة؛ ففي فترات موغلة في القدم - قد تعود إلى 20000 سنة ق.م. - ظهرت أول مستوطنة عرفها الشرق القديم في العام 9000 ق.م. تقريبا، فكان ذلك بمنزلة الثورة المدنية الأولى في حياة الإنسان التي تجاوز فيها مستوى غريزة الاستئثار ومعاداة الآخر إلى تفضيله الاستقرار بفعل إنتاجه لفائض من الطعام واستغلاله لبعض المعادن، فظهرت أولى المدن في منطقة الشرق الأوسط القديم في شكل تجمعات سكنية بسيطة وبطرق عشوائية فبالرجوع إلى علماء الآثار وإلى نتائج الحفريات يمكن اعتبار الألفية السابعة ق.م. البداية الحقيقية لهذا التحول الذي ارتبط بالتجمعات السكانية التي اكتسبت صفة المدينة، وهكذا ظهرت المدينة الأولى في سفوح هضبة

جارمو (Jarmo) في الفترة من 7000 - 6000 ق.م.، التي تعتبر منطقة انتقال طبيعي بين سهول وادي الرافدين وجبال زاجروس، وفق استنتاجات روبرت برايدوود (R. J. Braidwood)، ومنذ تلك الفترة المبكرة من حياة الإنسان التي أعقبت العصر البرونزي (9000 - 5000 ق.م.)، ارتبط مصير البشرية بظاهرة التحضر التي كانت بداية تشكل المجتمع المدني المكون من مجموعات متغايرة العناصر ومختلفة المشارب، وبداية التحولات الجذرية في حياة الإنسان، والتي اعتبرها جوردن تشايلد (Gordon Childe) ثورة حضرية (Urban Revolution).

وقد مهد هذا التطور لنمو القرى الزراعية ببلاد سومر ببوادي الرافدين (نحو 3500 ق.م.)، ووادي النيل (نحو 3000 ق.م.)، وحوض السند (نحو 2500 ق.م.)، فأصبحت المدينة مقرا للحكم المركزي الناشئ القائم على سلطة الحاكم ونفوذ الكاهن، ويقوم على تقسيم العمل، وتحديد مكانة الطبقة العليا صاحبة السلطة والطبقة الدنيا (من حرفيين وتجار وعبيد)، وكان في طليعة هذه المدن أور (Ur) وأوريدو (Eridou) ولاجاش (Lagash) وأوروك (Urük) وكيش (Kish) وسوسة (Susa) ببلاد الرافدين، وممفيس (Memphis) وطيبة (Thèbes) بمصر، وموهينو دارو (Moheno-Daro) وهارابا (Harappa) بوادي السند.

ولم تحل الألفية الأولى قبل الميلاد حتى اكتملت الخطوط العريضة لخريطة مدن الشرق القديم، وأصبحت المدينة مراكز سكانية مألوفة، فكانت مدينتا طيبة وبابل اللتان تعود نشأتهما إلى العام 2000 ق.م. تقريبا نموذجا لمدن العواصم القديمة، كما كانت بيبلوس (Byblos) مثالا لمدن البحر المتوسط الفينيقية التي مهدت بدورها لظهور المدن الإغريقية في الألفية الأولى قبل الميلاد، إثر اندثار الحضارة الميكينية (نحو 1000 ق.م.) نتيجة غزو القبائل الدورية لبلاد اليونان واجتياحها منطقة الأناضول المحاذية لبحر إيجة.

لقد كانت المدينة الإغريقية وسليلتها المدينة الرومانية مرحلة فاصلة في نشأة وتحديد معالم المدينة العمرانية ووظائفها السياسية والاجتماعية وخدماتها الثقافية، فارتبطت المدينة الإغريقية بحركات الهجرة والنزوح الجماعي، كما كان تطورها استجابة لمتطلبات الأمن ودوافع التجارة والحاجة إلى تأمين الغذاء، وبعد أن تم استيعاب العناصر الجديدة (الدورية) واندماجها مع العناصر القديمة (الآخية) من سكان اليونان (نحو 800 ق.م.)؛ ظهرت المدينة اليونانية على شكل مستوطنات من قبيل مدن أثينا (Athenae) وطيبة (Thèbes) وبلاطيا (Plataei) وبيزنطة (750ق.م.) وطروادة (نحو 1270 ق.م.)، فتحولت إلى كيانات صغيرة مستقلة بشؤونها تخضع لسلطة حكام يستمدون نفوذهم من طبقة النبلاء ؛ وهذا ما سمح في فترة لاحقة (800 - 600 ق.م.) بظهور نظام الدولة - المدينة ببلاد اليونان، الذي تولت فيه الطبقة الوسطى تسيير شؤون المدينة واتخذت من القانون أداة للتعامل داخل المجتمع، ومن الهيئات التمثيلية

وسيلة لممارسة السلطة (crates)باسم سكان المدينة (demos)، لتكرس في فترة لاحقة مفهوم الحكم الديموقراطي ومجتمع المواطنين الأحرار.

هذا وتقدم مدينة أثينا إلى دارس العمران وإلى الباحث في شؤون المدن نموذجا متكاملا للمجتمع الحضري ببلاد اليونان في ممارسة الطبقة الأرستقراطية السلطة بوساطة المواطنين المنتخبين (الأرفون) الذين تولوا شؤون أثينا بعد انتهاء الحكم الملكي (682 ق.م.) وحرصوا على تطبيق قوانين تنظيم التعامل داخل المجتمع الأثيني من قبيل قوانين دراكون (Dracon) (621 ق.م.)، وتشريعات صولون (Solon) (594 ق.م.)، وقوانين كليستيناس (Kleisthens) (503 - 502 ق.م.) وإجراءات سيستراتوس (Sistratos) (نحو 545 - 527 ق.م.)، فكانت هذه القوانين وتلك الأنظمة بمنزلة الروح المبدعة والقوة المحركة في مجتمع المدن اليونانية، الذي أصبح مركز إشعاع فكري وإبداع فني، واعتبرت مؤسسته المدنية مثالا لمجتمعات المدن الراقية في العالم القديم.

ومع انتهاء العصر الكلاسيكي ببلاد اليونان (5 - 4 ق.م.) اختل نظام المدينة وتراجع نفوذ الطبقة الأرستقراطية وظهر حكم الطغاة، فازدادت الهوة بين الأغنياء والفقراء، واضطربت الأوضاع الداخلية بفعل الصراع بين حلفي أثينا وإسبرطة (حرب البلوبونيز 431 - 371 ق.م.) وهذا ما مكن الملك فليب المقدوني (359 - 336 ق.م.) من إخضاع المدن اليونانية ومنها أثينا لسلطته، وسمح لابنه الإسكندر (336 - 323 ق.م.) فيما بعد بتجنيدها لتكوين إمبراطوريته المترامية الأطراف.

عرفت أثينا - كغيرها من المدن الإغريقية - مرحلتين متميزتين من تاريخها من حيث التخطيط العمراني: الأولى نمت فيها بشكل غير منتظم وفق الظروف السائدة والإمكانات المتاحة، فتطورت من معبد أقيم للإلهة أثينا على هضبة مسطحة في أعلاها تعرف بالأكروبوليس (Acropolis)، حيث أقيمت فيما بعد مبان عامة أهمها السوق العامة المعروفة بالآغورا ومعبد زيوس ومسرح دايونيساس ومعبد هناستس (تيسيوم) الذي كان يسع 15000 مشاهد، وانتشرت حولها المساكن في مساحة لا تتجاوز 1.25 كلم مربع، تتخللها طرق غير منتظمة ويحيط بها سور يشرف على الأراضي الزراعية المحيطة به، ومع ازدهارها في القرن الـ 5 ق.م. ناهز سكانها 40000 نسمة، ومع إضافة طبقتي العبيد والأجانب ارتفع عددهم الإجمالي إلى أكثر من 100 ألف نسمة، وقد وصلوا في بعض الفترات الاستثنائية إلى 150 أو 180ألف نسمة، وهذا ما أحدث اكتظاظا اضطر معه نحو نصف سكانها إلى الإقامة في الجهات القريبة منها.

أما المرحلة الثانية التي عرفت فيها المدينة اليونانية التنظيم العمراني والتخطيط الهندسي، فتعود إلى نهاية العصر الكلاسيكي (ق 4 ق.م.)، وقد اعتمد فيها الشكل المربع

أو المستطيل القائم على تنظيم شبكي يأخذ في الاعتبار توزيع المساكن وفق مهن السكان وطبقاتهم، وتنتظم حول شارعين رئيسيين أحدهما يتجه من الشمال إلى الجنوب، والآخر من الشرق إلى الغرب، ويشكل التقاؤهما مركز المدينة حيث توجد المرافق العامة من سوق عامة (الأغورا) ومعبد ومسرح والتي أصبحت مجال إبداع فني، من حيث معالجة حجارة البناء وتزيين الواجهات وتيجان الأعمدة؛ وقد كان هيبوداموس (Hippodamos) من مواطني ميليتوس بآسيا الصغرى (أواخر القرن الخامس قبل الميلاد) رائدا في تخطيط المدن اليونانية الحديثة مثل ميناء أثينا بيرايوس (Piraeus) ومدن المستعمرات الإغريقية بصقلية وجنوب إيطاليا وسواحل الأناضول الغربية، وقد عُمِّم هذا المخطط العمراني فيما بعد على المدن التي أنشأها الإسكندر وحلفاؤه في أقطار الشرق التي خضعت لهم قبل أن تفرض المدينة الرومانية هيمنتها على حوض البحر المتوسط.

وعلى الرغم من أن مدينة روما (أنشئت نحو 753 ق.م.)، فإنها ظلت المدينة الأم بالنسبة إلى الرومان بتأثيرها السياسي ونفوذها الثقافي، غير أن نموذج المدينة الإغريقية من حيث التخطيط الهندسي وتنظيم مرافق الحياة أصبح التقليد المتبع في عالم البحر المتوسط في إنشاء مدن المعسكرات (Castrum) بدوافع أمنية وضرورات اقتصادية في فترة السلام الروماني (Pax Romana)، في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، فلم تتغير سوى أسماء المرافق العامة، إذ حلت الساحة الرومانية (الفروم - Forum) محل الأغورا اليونانية، وأصبح الشارعان الرئيسيان يعرفان بالديكومانوس والكاردو (Decumanus/Cardo)، ليكون تقاطعهما مركز المدينة حيث يلتقي السكان ويتم تبادل السلع وممارسة النشاطات الثقافية والاجتماعية، وتنتشر المحلات التجارية، وتتوزع المنشآت العامة من معبد رئيسي وحمامات عامة ونافورات ومسرح ملعب رياضي (الأرينا - Arena).

ولكن فترات السلم الروماني القائمة على إقرار الأمن والنظام واحترام القوانين جعل المدينة الرومانية تتفوق على المدينة الإغريقية من حيث منشآتها وتنظيم إدارتها والارتقاء بمرافقها، فاكتمل فيها شكل المدينة القديمة التي نشأت بالشرق الأدنى، وتحددت معالمها العمرانية في العالم الهليني - الهلنستي لتكتمل وظائفها وتنتظم إدارتها مع بلوغ الإمبراطورية الرومانية أوج ازدهارها مع نهاية القرن الثالث الميلادي.

ومع تراجع الإمبراطورية الرومانية أمام هجمات الشعوب الجرمانية في الشمال، وضغط القبائل البدوية في الجنوب والشرق، بدأت المدن تنكمش ثم تضمحل، ولم يكد القرن الخامس الميلادي يحل حتى تحول عدد من المدن في العالم الروماني إلى مجرد قلاع، لا يزيد عدد سكانها على 400 شخص، ومحاطة بالأسوار ومدعمة بالخنادق، أزقتها ممرات ضيقة ومساكنها متراصة، وتفتقر إلى النظافة ووسائل الصرف الصحي والتهوية، تجتمع حول قصر

الحاكم المحصن والكنيسة حيث توجد مخازن الأقوات وأماكن تسمح بالتجاء سكان الريف إليها هربا من غارات وهجمات القبائل البربرية التي اجتاحت الولايات الرومانية، وبذلك دخلت أوروبا العصر الوسيط، الذي تميزت القرون الخمسة الأولى منه (ق 5 - 10 م) بانهيار مجتمع المدن وتحكم الكنيسة (الإكليروس) وسيطرة نظام الإقطاع القائم على استغلال ملاك الأرض (السادة) للفلاحين (الأقنان).

وهذا خلاف ما عرفته المدن التي فتحها أو أنشأها المسلمون، والتي صارت تمثل عالما حضاريا واحدا من ثغور الأندلس غربا وحتى تخوم الصين شرقا، ومن بلاد ما وراء النهر والقوقاز شمالا حتى بلاد النوبة وأرض غانا ومالي جنوبا. فقد عرف هذا المجال الواسع من العالم القديم نهضة عمرانية كان أساسها المدينة الإسلامية، بمميزاتها الدينية ومتطلباتها السياسية وحاجاتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، منها ما كان مدنا قديمة استعادت نشاطها مع الحكم الإسلامي، كدمشق والقدس والموصل وحلب وطرابلس الشام وبيروت وصنعاء والإسكندرية وطرابلس وتونس وقسنطينة وتلمسان وطنجة وإشبيلية وقرطبة وطليطلة وغرناطة، ومنها ما أقيم كمعسكرات متقدمة تؤمّن الدفاع عن الأقاليم المفتوحة كالبصرة والكوفة وواسط والفسطاط والقيروان، ومنها ما بني ليكون مراكز إدارية ومقرات حكم وعواصم دول كبغداد المنصور وسامراء المعتصم ورقادة الأغالبة ومهدية الفاطميين وتيهرت الرستميين وبجاية الحماديين وفاس الأدارسة وزهراء الناصر ومراكش المرابطين ومكناس العلويين وقونية السلاجقة، ومنها ما أصبح ملتقى العلماء والطلبة أو مراكز تجارة وتبادل أومحطات انتقال عن طريق البحر أو عبر الصحراء مثل سجلماسة وتومبوكتو وجيني وطشقند وبخارى ومرو وكابل، ومنها ما تحول إلى مراكز علمية ومزارات دينية ككربلاء والنجف وقم ومشهد.

فبالرجوع إلى كتب المسلمين في الجغرافيا ومصنفات البلدان والممالك والمسالك والنظم والأحكام، بدءا بابن حوقل والبكري وانتهاء بياقوت الحموي وابن خلدون يتأكد لنا أن المدينة أو الحاضرة الإسلامية باعتبارها وليدة التطور التاريخي للتراث العمراني للأقطار الإسلامية تعتبر حجر الزاوية في الحضارة الإسلامية والمحرك والدافع لعملية التحضر للمجتمعات الإسلامية، وهذا ما جعل عددا من دارسي العمران الإسلامي، ومنهم بيير جورج ودي فونتين، يرون أن الإسلام باعتباره عقيدة روحية وأسلوب عيش هو العامل المكون للمدن والمنشئ للحواضر بدرجة أكثر من أي حضارة أو دين آخر.

إن المدينة الإسلامية ظاهرة عمرانية ارتقى بواسطتها العمران البشري من حالة البداوة إلى سلوك الحضارة حيث تمارس الدولة سيادتها وفق مفهوم ابن خلدون، فالمدينة الإسلامية انطلاقا من النواة الأولى التي نمت حولها الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ومكة المكرمة،

وانتهاء بمدن الأطراف ومراكز الثغور، ظلت مرتبطة بالجانب الروحي والثقافي للحضارة الإسلامية، كما غدت من حيث وظائفها مجالا معرفيا وبيئة تمدن، وبوتقة للتحضر وفضاء لممارسة الشعائر الدينية، فالمسجد يشكل محور الحياة الروحية والثقافية، تقام فيه الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة ويجتمع فيه الناس في المواسم الدينية وتنعقد فيه مجامع العلم وحلقات الدروس وحفظ القرآن، وهم في كل ذلك تجمعهم أواصر الدين والتعاون على البر والتقوى، ويحتل المسجد عادة مركز المدينة، وبالقرب منه قصر الحاكم (القصبة أو المشور) الذي تجتمع فيه الدواوين وتحفظ به الخزينة وتلحق بمنشآته مساكن الحرس، وغير بعيد عنه تقام السوق الرئيسية التي تكتسب مع نمو المدينة صفة البازار في مدن المشرق والقيصرية بحواضر المغرب، تتفرع منها الأسواق المتخصصة في مختلف المهن والحرف والسلع تحت إشراف الأمناء ومراقبة النظار والمحتسب، بينما تتوزع المرافق العامة من مدارس وعيون وحمامات وأفران ومخازن وخانات على أحياء تضم مساكن تخترقها - بشكل عفوي - أزقة ملتوية ضيقة، بعضها غير سالك تكاد تنفتح نوافذها بعضها على بعض، يحدها السور وتتصل بالريف عن طريق أبواب تُراقب حركة القادمين والمغادرين للمدينة محافظة على أمن المدينة وراحة سكانها.

إن الإشكالية المحورية في دراسة عمران المدينة الإسلامية تتعلق بمسألتين: **الأولى** تتعلق بمظهرها العمراني، فمن حيث التكوين الاجتماعي فإن المدينة الإسلامية، خصوصا العربية منها، قد استوعبت النظام القبلي الذي يستند إلى روح الولاء للقبيلة والارتباط بالعشيرة، لكنها لم تستطع هضمه وتمثله، ما أثر في علاقاتها الاجتماعية وفي كيفية تنظيم عمرانها وتوزيع خدماتها ومرافقها، فالمدينة الإسلامية في مظهرها الأصيل ظلت منقسمة إلى أحياء وأرباع أو مناطق سكنية وفق تجمع العشائر وتوزيع القبائل، كل واحدة منها تشكل وحدة سكانية مستقلة بمسجدها، ومنفردة بمرافقها الأساسية، لا يربطها ببقية الوحدات السكنية أو الأحياء الأخرى سوى المسجد الجامع ومركز السلطة، ولا يشدها إلى النسيج الاجتماعي سوى السور الذي يحمي المدينة ويفصلها عن ظهيرها الريفي، وهذا ما حال دون اندماج السكان وتلاحمهم، ولم يسمح عبر فترات تاريخية طويلة بتشكل طبقة وسطى تكون قادرة على الحد من سوء تصرفات الحكام وحاشيتهم، ومؤهلة لظهور نظام مدني يراقب استهلاك الثروة ويمنع تبديدها، ويعمل من أجل إنتاجها وتطويرها، على غرار ما عرفته مدن عصر النهضة الأوروبية مع مستهل القرن الرابع عشر.

أما **المسألة الثانية** من إشكالية عمران المدينة الإسلامية، فتتعلق بغياب أو إهمال التخطيط العمراني المنظم والمقنن للمجال الحضري القائم على دمج الخدمات وتركيز المصالح، فعلى الرغم من اعتماد المخطط الدائري، عند إنشاء بعض المدن في المشرق، على غرار مخطط

بغداد، أو الرجوع إلى المخطط ذي الشكل المربع في تأسيس بعض حواضر بلاد المغرب ومصر، كما هي الحال في بناء القاهرة، فإن التصور العام للمدينة الإسلامية لم يول الأهمية التي تستوجبها متطلبات التنظيم العمراني المتعلقة بالشكل وبالمظهر الجمالي والتصميم الهندسي لاستغلال الحيز المكاني وتنظيمه وفق مواصفات المرافق العامة ومتطلبات الحياة الخاصة، فظلت الأزقة متعرجة وضيقة رغبة في توفير الظل وتجنب أشعة الشمس، أو محافظة على خصوصية الأسرة المسلمة المتحسسة من أنظار المتطفلين والمتحفظة من الانفتاح على الآخر في تعاملها، والملتزمة بقواعد الحشمة والتستر في سلوكها، خصوصا فيما يتعلق بمكانة المرأة في الحراك الاجتماعي ودورها في الحياة العامة، وقد تأصل هذا التوجه بفعل أحكام القضاء واستغلال الوقف وحيثيات النوازل وتصرفات المحتسب وصلاحيات القائمين على شؤون المدينة، التي سخرت من أجل المحافظة على انسجام الجماعة الإسلامية وعلى نمط عيشها في المدينة. كما تعزز بفعل العادات القبلية وشيوع نزعة التقشف والزهد أو الابتعاد عن مظاهر الإسراف خشية حسد المنافسين، وتجنبا لغرامات الحاكم وبطانته على من تظهر عليه مظاهر النعمة في مسلكه أو مسكنه. فأصبح السلوك العام لدى سكان المدينة الإسلامية لا يشجع على الأعمال الفنية المتعلقة بزخرفة البناء وزينة العمران، فهي في نظرهم شيء يتنافى مع القيم الروحية ويتناقض والحياة البسيطة المتواضعة، بل اعتبر كثير منهم اتساع العمران وفخامته شيئا مؤذنا بزواله.

إن المدينة الإسلامية، بمثل هذه الميول والتوجهات المخالفة لواقع المدينة اليونانية والرومانية، تكون قد ضحت بمظهرها الخارجي من أجل الاحتفاظ بخصوصيتها الاجتماعية وطريقتها في ممارسة حياتها الخاصة، وهذا ما جعلها برغم حيويتها الاجتماعية وأهميتها الاقتصادية ومكانتها الحضارية تظل دائما في حاجة إلى اللمسات الجمالية، خصوصا في مظاهرها العمرانية من قبيل الساحات العامة والحدائق الفسيحة والفضاءات الواسعة والشوارع المستقيمة وواجهات المعالم والمنشآت العمرانية، إذا استثنينا بعض المؤسسات الدينية التي عبرت عن توجهات بعض الحكام ولم تكن استجابة لمتطلبات العمران في المدينة.

بدأت المدينة الإسلامية في التراجع عندما فقدت تأثيرها كمجتمع حضري في ظهيرها، فبدأت تخضع لتأثير الحياة البدوية، «فتريفت» المدينة الإسلامية في غياب الطبقة الوسطى التي حال دون ظهورها استبداد الحكام وتواطؤ الحاشية المنتفعة وتبعية المؤسسات الدينية والتعليمية، فتوقفت الحياة في المدينة ونضب عطاء الحضارة الإسلامية في القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ودخل العالم الإسلامي في أزمة خطيرة نتلمس مظاهرها الداخلية في ضعف الحكم المركزي وارتباط السلطة بسلوك الاستبداد وبالميول العصبية وشيوع أسلوب الحياة البدوية وانغلاق الفكر وجمود العلاقات الاجتماعية والأنشطة الاقتصادية

وانتشار الأوبئة وتكرر المجاعات وتناقص السكان، كما نتعرف على مؤشراتها من خلال غارات المغول (هولاكو يدمر بغداد 1258م)، وهجمات الصليبيين على الشام ومصر (1096 - 1291م)، واجتياح النصارى لصقلية والأندلس وتهديدهم سواحل بلاد المغرب (سقوط طليطلة 1085م وغرناطة 1492م)، في الوقت الذي بدأت فيه أوروبا تنهض من سباتها وتحاول التحرر من قيود الإقطاع وتحكم الكنيسة منذ القرن الثاني عشر.

عرفت أوروبا مع نهاية العصر الوسيط (ق 13م) تطورا ملحوظا في أساليب الزراعة، وزيادة ملحوظة في عدد السكان، نتيجة تحسن الأوضاع المعيشية والصحية، فانتظمت أسواق المدن بفعل نشاط اتحادات الحرفيين المتحررة من الضوابط الإقطاعية، فتهيأت بذلك الظروف لنهضة أوروبا فساير نمو المدن تراجع الإقطاع وتدعم الحكم المركزي وشيوع استعمال البارود وبداية التطلع لاكتشاف الأقطار المجهولة والبلاد البعيدة، فلم تعد الضيعة في الريف مصدر الثروة، ولم يعد الفارس الإقطاعي المدعم بفرسانه صاحب السيادة، بل أصبحت التجارة وسيلة الغنى والبورجوازي القاطن بالمدينة صاحب النفوذ الحقيقي، يعتمد عليه الحاكم وتقوم أجهزة الدولة على خدماته. وهذا ما جعل النهضة الأوروبية ترتبط بنمو المدن وبنشاط الطبقة الوسطى، حيث اعتبرت النهضة ثمرة جهد هذه الطبقة (البورجوازية) المشكلة أساسا من التجار وأصحاب الحرف والمثقفين، والتي غدت بفضل نفوذها وثروتها وحاجة الحكام إليها بمنزلة المحرك الذي أنهى الإقطاع وحوَّل مركز الثقل إلى المدينة، فلم ينتصف القرن الرابع عشر إلا ومناطق شمال ووسط إيطاليا والأقاليم التي تتصل ببحر الشمال قد تحولت إلى فضاء حضري، انتشرت به المدن وعمت ظاهرة التحضر في مناطق شمال ووسط إيطاليا (مناطق لومبارديا وتوسكانيا وفينيسيا) لتشكل كومونات أو مدنا حرة من أهمها مدن البندقية، التي ناهز سكانها 100 ألف نسمة، وفلورنسه التي قدر سكانها بـ 90 ألف نسمة وجنوة وميلانو وبولونيا، كما انتظمت المدن التجارية المهمة في شمال أوروبا حول بحر البلطيق والشمال وفي مقدمتها مدن لندن وباريس وأمستردام وأنتروب وهامبورج وكولونيا وبازل وستراسبورج وغيرها. وبحلول القرن السادس عشر توسع عالم المدينة الأوروبية ليشمل بقية أقاليم أوروبا الوسطى والشرقية، ومع رقي مجتمع المدينة الأوروبية وترشيد الحكم بأوروبا في فترة لاحقة، تهيأ مجتمع المدينة الأوروبية للتحول من مجتمع الرعايا المسيرين والخاضعين إلى مجتمع المواطنين المسؤولين، كما دعا إليه مفكرو عصر التنوير وكرَّسته مبادئ الثورة الفرنسية (1789م).

ومع التطور المستمر للمجتمعات الحضرية الأوروبية، ورقي الذوق العام، ورغبة الحكام في إضفاء مظهر الأبهة والفخامة على منشآتهم، أصبحت الحاجة ماسة إلى البحث عن الجديد في فن العمارة، وهذا ما شجع - منذ القرن السابع عشر - على اعتماد أسلوب عمارة الباروك (Baroque)، الذي يركز على المسحة الجمالية وإزالة العوائق التي تعترض الشكل الهندسي

المتوازن في إنشاء الممرات العريضة والطرق المستقيمة المحاطة بالأشجار والمتصلة بالحدائق، بحيث يقتضي مخطط الباروك وجود مركز إشعاعي يشكل النقطة المركزية للمدينة على شكل نجم تلتقي فيه الطرق وتنتظم حوله المربعات السكنية، وتوزع من خلاله الفضاءات المخصصة للمنشآت الخاصة والمرافق العامة مثل قصر الملك والكنيسة والمدرسة والمسرح ودار البلدية وغيرها.

لكن هذا الأسلوب الهندسي حد من ديناميكية المدينة الأوروبية ولم يعد يتماشى مع الأوضاع التي أصبحت تعيشها أوروبا مع ظهور الثورة الصناعية، التي أصبحت ظاهرة مؤثرة وموجهة إلى المدن الأوروبية في أثناء القرن التاسع عشر، ما تطلب التخلي عن الأساليب الهندسية لعصر النهضة (ق. 16 و 15 م) ومفاهيم عصر الباروك (ق. 18 و 17 م) لمسايرة الانقلاب الحضري الذي أحدثه عدد من الاختراعات والأساليب الجديدة المتصلة بحياة الإنسان وفرضه استخدام الفحم والحديد على نطاق واسع باستعمال قوة البخار وتطوير وسائل المواصلات والإنتاج. فلم يعد النظام الشبكي تصورا عمليا لتنظيم عمران المدينة نظرا إلى النمو السريع للمدينة بفعل الزيادة السريعة للسكان وتدفق تيار الهجرة من الريف نحو المدينة للعمل في المصانع وقطاع الخدمات.

ومع دخول أوروبا الغربية والولايات المتحدة مرحلة الثورة الصناعية الثانية نتيجة التنظيم المتقن للعمل في المصانع والتوجه نحو التخصص في الإنتاج وتحكم رجال المال في الأعمال الصناعية منذ الربع الأول من القرن العشرين عرف العالم المتطور ما يعتبر الثورة الحضرية الثانية التي قد لا يماثلها، من حيث الأهمية والدلالات الحضارية، سوى ظهور المدينة الأولى في الشرق القديم، إذ سايرت المدينة بفعل التطور الصناعي عقب الحرب العالمية الأولى عملية التخصص المتسارعة وانتهى دور الورشات لتحل محلها المصانع الكبيرة، وأصبحت مصادر الطاقة ومناطق التصنيع ونقاط التبادل معالم رئيسية لخريطة العالم الحضرية، وتوسع عمران المدينة في شكل مجمعات سكنية كبيرة ضخمة وغير منتظمة، تخترقها الطرق وتنتشر بينها المصانع والورشات، التي غدت نقطة جذب لعالم الريف المنكمش، لما توفره من فرص العمل وامتصاص الفائض من الأيدي العاملة في الزراعة.

أصبحت عملية التحضر المتمثلة في عالم المدينة الحديثة ظاهرة عالمية ما فتئت تتوسع لتستوعب الوجود البشري، وهذا ما تؤكده الإحصاءات وتقره المعطيات الديموجرافية، فقد قدرت نسبة تزايد سكان المدن بالنسبة إلى الريف في النصف الأول من القرن التاسع عشر (1800 - 1850م) بـ 29.2%، لترتفع في النصف الثاني من القرن نفسه (1850 - 1900م) إلى 37.3%، ولتصل في النصف الأول من القرن العشرين (1900 - 1950م) إلى نسبة 49.3%، وهذا ما جعل عدد سكان المدن يتضاعف عدة مرات في فترات زمنية قصيرة نسبيا، ففي سنة 1900

قدر عدد سكان المدن بـ 22 مليونا، أي 3% من سكان العالم، وفي سنة 1950 ناهز عددهم 700مليون، أي 28% من مجموع البشرية، ليصلوا إلى 1350 مليونا سنة 1970. ولم يشذ العالم العربي الإسلامي عن هذا التوجه نحو نمو المدن على حساب الريف، فقد سجلت مدنه نموا كبيرا في فترات قصيرة، وأحسن مثال على ذلك مدينة الكويت التي تطور سكانها بالمقارنة مع مجمل سكان الكويت وفق النسب التالية: 60%سنة 1950 و88.6% سنة 1975، و95.5% سنة 2000.

ولعل أحسن مثال على النمو السريع والانتشار الواسع للمجال العمراني نجده في مدينة شيكاغو الأمريكية، التي قفز عدد سكانها في فترة نصف قرن فقط من 4000 (1840) إلى أكثر من مليون نسمة (1890). كما أن تزايد عدد المدن الكبرى وتحولها إلى مدن مليونية يعبران بوضوح عن تغلب ظاهرة التحضر بفعل نمو وتوسع المدينة الحديثة، ففي أواخر الثمانينيات من القرن العشرين بلغ عدد سكان المناطق الحضرية في العالم 2.25 مليار نسمة، وقدر عدد المدن التي يناهز عدد سكانها مائة ألف بـ 2300 مدينة، منها 225 يزيد عدد سكانها على مليون نسمة، وتأتي في طليعتها مدن عالم الجنوب النامي، منها مدن مكسيكو سيتي وريودي جانيرو وساو باولو وسانتياجو وبيونس آيرس وليما بأمريكا اللاتينية، ومنها بومباي وكالكوتا وكراتشي ودلهي بشبه القارة الهندية، ومنها شنغهاي وبكين وهونج كونج في الصين، ومنها طهران واسطنبول والقاهرة وبغداد ودمشق والدار البيضاء والجزائر بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

لقد كان لهذا النمو العضوي المتسارع للمدينة الحديثة الذي فرضته متطلبات الثورة الصناعية ونتج عن ظاهرة الهجرة إلى المدينة نتائج سلبية في عالم المدينة، ما لبث أن تفاقم ليهدد النسيج الاجتماعي وينذر بتدمير بيئتها الحضارية نظرا إلى الآثار السلبية الناتجة عن اكتظاظ الأحياء وعجز المرافق العامة عن تلبية مطالب السكان وظهور مشكلات البطالة والتلوث والضجيج والازدحام وانتشار الجريمة وانحراف الأحداث والدعارة والإدمان على المخدرات، وهذا ما جعل مستقبل المدينة المعاصرة مرهونا بالاستجابة لهذه التحديات والقدرة على حل المشاكل المترتبة عليها، خصوصا فيما يتعلق بقضية الإسكان ومسائل البيئة.

إن هوية المدينة الحديثة - كمجال عمراني - يوفر شروط حياة ميسورة ووسائل عيش ملائمة، وسكنا لائقا تتحدد على ضوء التحكم في نمو المدينة وحسن إدارتها وتطوير قطاع الخدمات، خصوصا ما يتعلق بالحاجات الضرورية والمواد الاستهلاكية، والحد من الهجرة إليها وتشجيع التوجه من المركز المكتظ إلى الضواحي، حيث تتوافر عادة شروط أفضل للإقامة والعمل والخدمات الاجتماعية والثقافية، مع العمل على ربط المدينة بظهيرها الريفي لفك الاختناق عنها، وبفعل هذا التوجه بدأت البلاد المتطورة بأوروبا وأمريكا الشمالية واليابان

ترسم ملامح مدينة المستقبل، من خلال برامج تنموية طموحة تتماشى ومقتضيات التحديث العمراني وما يتصل بها من مرافق صحية واعتناء بالبيئة وتحسين للمواصلات واستغلال معقول للمرافق العامة وللحيز الفضائي للمدينة، وترقية النشاط السياحي والثقافي وتطوير قطاع الخدمات الذي ناهزت نسبة العاملين فيه 57%، في حين أن النسبة على المستوى العالمي لم تتجاوز 31% (1990).

إن هذه النظرة الإجمالية لنشأة المدينة وتطورها تتطلب منا في ختام هذا العرض تسجيل بعض الملاحظات المتعلقة بالميزات الاجتماعية والخصائص الحضارية للمدينة، التي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

1 - إن التطور الحضاري والتقدم العلمي وحتى النمو الاقتصادي ارتبطت أساسا ببيئة المدينة باعتبارها حاضنة التحضر البشري، بل البوتقة الحضارية التي اختزنت مكتسبات الحياة الإنسانية واستوعبت النشاط الإنساني وصاغت شروط المكان ومتطلبات الأفراد، فهي المؤشر الحقيقي للرقي والحراك الحضاري، تتراجع الحضارة وقد تضمحل بتقهقرها واندثارها وترقى بنموها وازدهارها. وهذا ما جعل نمط الاستقرار في المدن انقلابا خطيرا في حياة الإنسان، تحول فيه من حالة البداوة إلى وضعية التحضر القائمة على روح التآلف والتعاون وعلى توفير متطلبات الغذاء والأمن.

2 - تعتبر المدينة الخزان الحي للإرث الحضاري للبشرية، وحصيلة تجربة تاريخية أفرزها جهد الإنسان في تحديد علاقته وتعامله مع الآخر، لا يمكن تحليل عناصرها من وجهة نظر جغرافية أو من خلال خلفية تاريخية أو مفهوم اجتماعي أو واقع ديموجرافي واقتصادي أو تصور عمراني، بل هي الحيز البشري والمجال الاجتماعي الذي يمارس فيه الفرد نشاطه، والبيئة التي يعبر فيها العنصر البشري عن قدرته على التحكم في وسطه وتسخيره لحاجاته.

3 - إن الفعل الإنساني يظل العامل الرئيسي في نشأة المدن وتطورها، فهو يعدل أو يثمن العوامل الطبيعية من حيث شروط المكان وطبيعة المناخ، وهو القادر على تحديد هوية المدينة ونظامها الاجتماعي والسياسي، وهذا ما يجعل المدينة تعبيرا عن قدرة الإنسان على الارتقاء بوسطه الاجتماعي ومجاله العمراني في إطار علاقات متوازنة تضمن حراكا حضاريا بين مختلف الجماعات والشرائح والطبقات التي تُكَوِّن البنية الاجتماعية للمدينة.

4 - إن المدينة تعبر عن قيم أخلاقية وأنماط سلوكية ومفاهيم سياسية، وتفصح عن وسائل وطرق اقتصادية وتظهر مستوى معيشيا ومعرفيا، ما يجعلها ظاهرة مركبة إن لم تكن معقدة، تختزن مكتسبات التجربة البشرية وتعبر عن مسيرة الإنسان نحو التطور والرقي. وهذا ما يجب معه اعتبار المدينة مجالا حيويا لممارسة الحياة والتعامل معها، فهي حاضنة التمدن ببعده

السلوكي ومظهره المادي على حد سواء. وهذا ما يجعلها بحق البوتقة الحضارية التي اختزنت مكتسبات الحياة الإنسانية وأصبحت النموذج الغالب في علاقة الإنسان بوسطه الاجتماعي.

5 - تحتل الطبقة الوسطى بالمدينة مكانا مميزا ومجالا محوريا، وتقوم بدور مصيري لأنها بحكم واقعها الاجتماعي ومستوى معيشتها ومعارفها وحيويتها تشكل العمود الفقري للمدينة، فهي تحفظ التوازن في مجتمع المدينة بين طبقات فقيرة أو محدودة الدخل، وبين فئات محظوظة تمتلك الثروة وتؤثر في السلطة، فضلا عن كون الطبقة الوسطى، بحكم موقعها الاجتماعي ومستواها الثقافي ومطالبها الاجتماعية، أكثر الشرائح السكانية قدرة على تثمين العمل والتشبث بالعدالة وتشجيع قيم الحرية والمساواة والإبداع ورفض النمطية والتقاليد التي تحول دون حركية المجتمع.

6 - إن أضمن أسلوب لتطوير المدينة العربية الإسلامية وجعلها تساير هذه الصيرورة العالمية التي فرضتها الثورة الصناعية وأوجدتها المستحدثات التكنولوجية، هو تجاوبها مع ظاهرة التحضر العالمية وتكيفها مع متطلبات الحياة العصرية واندماجها في شبكة العمران العالمي، وهذا لا يتأتى إلا بوضع تصور عقلاني في تخطيط وتطوير مرافقها ومظاهرها العمرانية، يأخذ بالأساليب العمرانية الحديثة ويحافظ على تراثها المعماري الذي يعبر عن الهوية الحضارية لأي مجتمع مدني.

المراجع

- أركون، محمد، مفهوم المدينة الفاضلة في الفكر العربي، بحث خاص (نشر ملخصه في أعمال المدينة العربية المذكورة ضمن قائمة المراجع المعتمدة).
- ابن خلدون، عبدالرحمن، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
- أبو عياش، عبدالإله أزمة المدينة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980.
- أبو صبحة، فايد عثمان، جغرافية المدن، دار وائل للطباعة والنشر، عمان (الأردن)، 2003.
- أبو عيانة، فتحي محمد، جغرافية العمران «دراسة تحليلية للقرية والمدينة»، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993.
- الأسدي، فوزي عبدالمجيد، جغرافية المدن والمراكز العمرانية، دار القلم، دبي (الإمارات العربية المتحدة)، 1990.
- إيست، جوردن، الجغرافيا توجه التاريخ، ترجمة جمال الدين الدناصوري، ط. 2، دار الحداثة، بيروت، 1982.
- التميمي، عبدالمالك خلف، الطبقة الوسطى في العالم العربي (نشر خاص)، الكويت، 2009.
- حمدان، جمال، جغرافية المدن، ط. 2، عالم الكتب، القاهرة، 1977.
- دوبلانهول، كزافييه، تاريخ أرض الإسلام (الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام)، ترجمة معاوية سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008.
- ريسلر، جاك، المدينة الإسلامية، طرابلس، 1994.
- سكيفل، فردناند، المجتمع الإيطالي في عصر النهضة، ترجمة عبدالرحمن زكي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1961.
- العبادي، أحمد مختار، الحياة الاقتصادية في المدينة العربية، مجلة عالم الفكر (الكويت) م. 11، عدد 1، سنة 1980.
- عباس حسين، عبدالرزاق، جغرافية المدن، مطبعة أسعد، بغداد، 1977.
- عدد خاص بالعمارة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 34، العدد 4، أبريل - يونيو 2006.
- عطوي، عبدالله، جغرافية المدن، الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت، 2001.
- غلاب، محمد السيد والجوهري، يسري، جغرافية الحضر «دراسة في تطور الحضر ومناهج البحث فيه»، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1991.
- فيبر، ماكس، المدينة، معناها وشروط قيامها، ترجمة رضوان السيد، ضمن مسألة المدينة والمدينة العربية، الفكر العربي، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، أكتوبر - نوفمبر 1982، العدد التاسع والعشرون - السنة الرابعة.
- لطفي، عبدالوهاب يحيى، اليونان، مقدمة في التاريخ الحضاري، دار النهضة العربية، بيروت، 1979.
- لمبار، موريس، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي، تعريب عبدالرحمن حميدة، دمشق، 1979.
- المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري، أعمال ندوة المدينة المنورة 28 فبراير - 5 مارس 1981، تحرير إسماعيل سراج الدين وسمير صادق، منشورات المعهد العربي لإنماء المدن، الرياض، مطبعة أرلانجتون - واشنطن، الولايات المتحدة.

- المصيلحي، فتحي محمد، تخطيط المدينة العربية بين الإطار النظري والواقع والمستقبل، مطبعة الراوي وشركاه، القاهرة، 1995.
- الموسوعة العربية العالمية، نشر مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، دمشق، مواد: المدينة - المدينة الإسلامية - تخطيط المدن - المجالوبوليس - المنطقة الحضرية الكبرى - المدينة الحرة - أثينا - القدس - باريس.
- وزيري، يحيى، العمران في منظور الإسلام، سلسلة روافد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 2008.
- وهبة، عبدالفتاح محمد، في جغرافية العمران، دار النهضة العربية، بيروت، 1977.
- Dickinson P., City and Region, London, 1964.
- Duby G., L'an mille, Éd. Julliard et Gallimard, Paris, 1973.
- Georges P., Précis de géographie urbaine, Paris, 1964.
- Johnson J., Urban Geography, London, 1964.
- Lavandan P., Géographie des villes, Paris, 1959.
- Lavedan H., Histoire de l'urbanisme, H. Laurens, Paris, 3 T., 1941-1952.
- Smailes A., The Geography of Towns, London, 1961.
- Vidal de la Blache, Introduction à la géographie humaine, Paris, 1926.

مقالة : أثينا والفلسفة

د. عزت قرني (*)

توطئة

ليس من هدف هذه الدراسة أن تقدم عرضا لتاريخ الفلسفة اليونانية، لا عموما ولا في فترة محددة منه، ولا التعريف بمذاهب فلاسفة اليونان كلهم أو بعضهم، بل موضوعنا هو «الفلسفة في أثينا»، أو بالأدق علاقة المدينة اليونانية الكبرى أثينا بهذه الظاهرة اليونانية، الكبرى أيضا، التي هي «الفلسفة اليونانية»، وإن كان إيفاء الموضوع حقه ومعرفة جذوره ومختلف جوانبه في شمول يتطلبان حديثا موجزا مناسبا عن نشأة ظاهرة الفلسفة عند اليونان وظروف ذلك وعوامله، وعن طبيعتها.

لأن الفلسفة التي ستعرفها أثينا ثم تنتجها أو تشارك في إنتاجها هي نفسها ما سبق أن نشأت نشأة قوية قبل ذلك بمائة وخمسين عاما، كما سيتطلب الأمر أيضا إشارات مقابلة عن أحوال أثينا وتطورها قبل اتصالها بالفلسفة وبعده. وهذه العلاقة بين أثينا والفلسفة، ولنقل كذلك: وبين الفلسفة وأثينا، علاقة مركبة معقدة متنوعة الأوجه، ولعل أعظم مظاهر هذا التعقد، «دراميةً» أو «تراجيديةً»، أن أثينا التي ستفتح أبوابها وصدرها، منذ العام 460 ق.م، للفلاسفة والمفكرين من جميع مدن اليونان، ثم تنتج اثنين من أهمهم، ثم تبقى العاصمة اليونانية الدائمة للفلسفة حتى العام 529م، هذه المدينة التي ستستقر على النظام الديموقراطي منذ التاريخ الأول نفسه تقريبا هي نفسها الدولة التي ستطرد من أراضيها فيلسوفا وعالما لأقوال قالها عن الشمس والقمر، والتي ستفعل الشيء نفسه بعد عشرين عاما مع أكبر السفسطائيين، وبعد ذلك بعشرة أعوام ونيف تقاضى أثينا هذه المرة

(*) أستاذ الفلسفة اليونانية بجامعة الكويت حاليا وبجامعة عين شمس المصرية سابقا.

من سيكون اسمه هو أشهرَ الأسماء في عالم الظاهرة الفلسفية اليونانية، سقراط، وستدينه وستحكم عليه بالإعدام وتنفذ الحكم فيه، ثم إنها هي التي ستلوح بمحاكمة ثالث أهم فلاسفة اليونان طرا، أرسطو، بعد ذلك بنحو ثمانين عاما، وتدفعه إلى مغادرتها دفعا. هذه الدراسة، إذن، هي قريبة من النوع الذي كان يقال له دراسات «علم اجتماع المعرفة»، إن صح تركيب هذه الكلمات معا، أو قل دراسة المعرفة والفكر ثقافيا، أي في إطار كل ثقافة ينتمي إليها نشاط المعرفة ونشاط الفكر. وهذا النوع قليلا جدا، بل نادرا، ما نجد أمثلة له مفصلة في الدراسات التي تعد بالآلاف في الغرب سنويا حول الفلسفة اليونانية، وإن كان يشار إليه أحيانا، وبما يشبه التلميح، من دون تفصيل منظم أو استيفاء. ونحن، في هذا الإطار «الثقافي» (نسبة إلى مفهوم «الثقافة» في «علم الإنسان»، وحيث «الثقافة» عندنا هي: الكل الذهني أساسا، شبه العضوي، الموجه للسلوك والتفكير والمشاعر والمقدرات للجماعة المنظمة أو لمجتمع ما، بحسب اتجاهات ومفضلات أساسية)، ننطلق من مسلمات يحسن أن نضعها في تحديد حتى ترى في وضوح:

أ- الفكر المنظم، والفلسفة (أو لنقل الآن: «مبحث التأصيل الفكري» أو «مبحث الأصوليات») هي أعلى أشكاله، هو جزء من الثقافة وليس منفصلا ولا مستقلا عنها، بل هو يتأثر بها جوهريا ليعود ليؤثر هو فيها، من حيث هو جزء من كل متفاعل المكونات.

ب - إذن، فلا فلسفة ولا تأصيل فكريا إلا في إطار الثقافة، كما أن لكل ثقافة، ولو كانت لقبيلة صغيرة في مكان ناء، فكرها المنظم الذي قد يظهر صريحا محددا، أو يظل ضمنيا، لكنه دائما قائم وحي وفاعل.

حـ - الثقافة ككل، ومنها الفكر المنظم، تتأثر بالضرورة، بل وتتحدد، بطبيعة التكوين الأصلي، في مختلف جوانبه، للجماعة المعينة المنشئة لها والمتحددة بها معا، وبالبيئة الطبيعية المحيطة، وبتطور أنشطة الجماعة وما يأتي عليها من أحداث ذات أهمية جمعية، وبالبيئة البشرية المحيطة بها من خارجها من البداية وعبر التطورات.

د - المفكر، والفيلسوف عند اليونان والغرب، ولنقل اليوم عندنا المفكر التأصيلي أو مفكر الأصوليات الباحث عن الأصول الفكرية، هو فرد، لكنه يقوم بنشاطه في إطار الثقافة المعنية التي ينتمي إليها، أو حتى تلك التي يروم المشاركة في تكوينها أو إنشائها إنشاء، كما أنه يفكر للجماعة ومن أجلها حتى عندما يعارضها (وهو ما سيحدث مع سقراط وأفلاطون خاصة). إن المفكر جزء من ثقافته ويعبر عنها ويمثلها، ويفكر لها ولمجتمعه، لكن إنتاجه يحمل علامات فرديته هو بجوار اصطباغه بأساسيات اتجاهات ثقافته.

تطبيقا لهذا كله، سوف نتحدث في البداية حديثا موجزا، كمدخل ضروري لتناول علاقة أثينا بالفلسفة، بأهم سمات الحضارة اليونانية ككل التي في إطارها ستظهر ظاهرة «الفلسفة» عندها، كما أننا سنربط الحديث عن فلسفة اليونان في أثينا وغيرها من المدن بالعديد من مظاهر

الثقافة اليونانية الأخرى، حتى إن القارئ سوف يصادف هنا كثيرا من أهم الأسماء [1] التي تميز الحضارة اليونانية، وبخاصة حتى القرن الثالث ق.م، وأحيانا بعده وحتى تاريخ 529م.

واهتداء بكل التحديدات التي ذكرناها في هذه التوطئة، ستُقسَّم هذه الدراسة على النحو التالي:

أولا: الفلسفة خارج أثينا

أ- عموميات.

ب - الحضارة اليونانية ككل كأرضية ضرورية لقيام الفلسفة اليونانية.

جـ - عوامل تكون ظاهرة «الفلسفة» عند اليونان.

د - لماذا ظهرت الفلسفة في أيونيا أولا؟

ثانيا: أثينا تستقبل الفلسفة

أ- الفلسفة الطبيعية.

ب - الحركة السفسطائية.

ثالثا: أثينا تنتج الفلسفة

أ- سقراط.

ب - أفلاطون.

جـ - أرسطو.

رابعا: أثينا عاصمة دائمة للفلسفة وتصدرها في العصر الهلينستي.

وأخيرا خاتمة ونظرة عامة.

أولا: الفلسفة خارج أثينا

أ- عموميات حول الفلسفة اليونانية

يحسن بنا أن نبدأ بتحديد بعض الأطر العامة التي نضع فيها ما نسميه بالفلسفة اليونانية. أما الإطار الزماني، فإنه يبدأ مع نحو عام 600 ق.م. للتقريب، وإلا فإن تاريخ 585 ق.م. يمكن اعتماده بداية رسمية، إذ في هذا العام «ازدهر»، بمعنى ذيوع الاسم والشهرة ورسوخ المكانة، أول من سيسمى من بعد ذلك باسم «الفيلسوف»، وهو طاليس من مِلَطْيَه، أهم مدن أيونيا، وهي المنطقة الواقعة على امتداد الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيا الصغرى أو شبه جزيرة «الأناضول»، من كلمة يونانية بمعنى «الشرق». وأما نهايتها أو إعلان وفاتها رسميا أيضا، فإنه تحديدا العام 529 للميلاد، حين أغلق الإمبراطور البيزنطي يوستنيان المدارس الفلسفية «الوثنية» التي ظلت باقية ومستمرة مفتوحة الأبواب في أثينا، وإن كانت آخر مظاهر قوتها، أي الفلسفة اليونانية، قد تجلت مع

الفيلسوف السكندري أفلوطين (205 - 270 للميلاد)، الذي استقرت به الإقامة في روما في الأعوام الخمسة والعشرين الأخيرة من حياته.

وزمانيا أيضا نقسم عصور الفلسفة اليونانية إلى ثلاثة عصور متمايزة، وإن لم تكن متقاربة من حيث المدد: فهناك عصر نشأتها، ويسمى أيضا بعصر الفلسفة الطبيعية أو بعصر ما قبل سقراط، وهو يمتد من العام 600 إلى العام 450 أو حتى إلى العام 430 ق.م، ثم عصر تمام نضجها، مع سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهم أول من عاش في أثينا في استقرار أو فيما يشبه الاستقرار، والاثنان الأولان منهم أثينيان بالمعنى الكامل، وهو يمتد من العام 450 أو العام 430، حيث التاريخ الثاني هو التاريخ الممكن «لازدهار» سقراط مع بلوغه سن الأربعين، حتى عام وفاة أرسطو 322 ق.م. ثم يمتد العصر الثالث بمفرده من هذا التاريخ الأخير، أو من العام 300 ق.م. للتقريب حتى العام 529م المذكور آنفا، أي نحو ثمانمائة وخمسين عاما، ولكنها لم تكد تشهد تجديدا فلسفيا بالمعنى الحق، وتظل أثينا في هذا العصر كله العاصمة الفلسفية الأولى، لكن الإسكندرية تنافسها بشدة، وكذلك روما. هذه هي سنوات «المنحنى» العمري للفلسفة اليونانية، وهو يحوي ما يزيد على ألف ومائة عام. أما الإطار المكاني، فإنه عظيم الامتداد والتنوع هو الآخر: فقد نشأت الفلسفة اليونانية أول ما نشأت، ليس على أرض اليونان نفسها، أو ما يسمى أحيانا بـ «اليونان القارية»، وهي المقابلة تقريبا لحدود دولة اليونان في أيامنا هذه، والواقعة في القسم الجنوبي من شبه جزيرة البلقان، بل على أرض آسيوية بحسب الجغرافيا، ولكنها صارت يونانية بالثقافة، قبل تاريخ 600 ق.م. ببضع مئات من السنين، ثلاث أو أربع، وهي منطقة أيونيا (وتقع اليوم داخل حدود الجمهورية التركية)، وعلى التحديد في أهم مدنها وأغناها في ذلك الوقت: ملطيه (وتكتب أيضا ملطيا، ويفضل كتابتها بالطاء على التاء). هذه هي الأطر الخارجية الأساسية لفهم حركة الفلسفة اليونانية: إطار المدة الزمنية الكلية، وإطار المنحنى العمري ثلاثي الأبعاد: ما بين النشأة وبلوغ القمة والانحدار باتجاه النهاية، والإطار المكاني.

ب - الحضارة اليونانية ككل كأرضية ضرورية لقيام الفلسفة عند اليونان

ولكن هناك إطارا آخر يطلعنا على أشياء عن الفلسفة اليونانية، من داخلها هذه المرة، هو الإطار الثقافي، أي إطار الحضارة اليونانية ككل، ولا نستطيع في هذا المقام تناول هذا الموضوع إلا في عجالة، ومن حيث التهيئة للحديث عن الفلسفة كجزء من الثقافة اليونانية، وفي أثينا، التي ستصير أهم مدنها ابتداء من العام 480 ق.م. بل ومركزها ابتداء من العام 450 ق.م. على الأخص.

(ولنلاحظ ابتداء أننا سوف نستخدم «حضارة» و«ثقافة» على نحو متبادل، وإن كانت الأولى أعم من الثانية التي تشير إلى الجوانب المعنوية على الخصوص).

تعود بداية ما سوف يسمى اصطلاحا بالحضارة اليونانية إلى نحو ما بين العامين 900 و800 ق.م، ولكنها ظهرت بفضل تراكم سكاني وثقافي وتاريخي من عناصر مختلفة[2]، ربما يعود إلى نحو العام 2000 ق.م، وأبرز عوامله الهجرات المتعددة المتوالية إلى بلاد اليونان، حيث كان يعيش سكان أصليون لا يكاد يمكن التعرف اليوم عليهم، وأهم هذه الهجرات تأثرت بالأخص بحضارة جزيرة كريت عظيمة الازدهار في الفترة من 2000 إلى 1450 ق.م. وهي هجرات أتت من قلب آسيا، بسبب عامل الجفاف الذي دفع بقبائل شبه متوحشة غربا طلبا للكلأ، ومن جهات أخرى بسبب الزلازل وما شابه، ثم كانت هناك هجرات أخرى يمكن أن نسميها بـ «الداخلية»، حيث يدفع الغزاة الجدد بمن يكون قد سبقهم على أرض اليونان القارية إلى خارجها، وبالأخص إلى جزر بحر إيجه وإلى الساحل الغربي لآسيا الصغرى، الذي سوف يتسمى «أيونيا» نسبة إلى مهاجرين إليه من القبائل «الأيونية» التي حلت باليونان، وأهل أثينا على صلة وثيقة بهؤلاء وربما يكونون منهم، ثم علينا أن نذكر أيضا الهجرة من اليونان إلى الجزر المحيطة جنوبا وغربا وإلى قبرص، بل وإلى سواحل البحر الأسود، كما سيشهد العصر التاريخي لليونان هجرات أصغر إلى شتى سواحل البحر المتوسط في شماله وغربه وجنوبه، وخصوصا إلى صقلية وجنوب إيطاليا [أو «كعبها» بحسب رسم شكلها على الخريطة). وهكذا، فإن الامتداد المكاني للحضارة وللثقافة اليونانية يشمل بلاد اليونان القارية وأيونيا وجزر البحر المتوسط، في شرقه ووسطه، وسواحله الشمالية والغربية والجنوبية (وعلى هذه الأخيرة كانت تقوم مثلا مستعمرة «قورنياء»، بالقرب من طرابلس الغرب حاليا، وأسست العام 630 ق.م. وسوف تنسب إليها مدرسة فلسفية لأحد أتباع سقراط، ومستعمرة «نقراطيس» في الشمال الغربي لمصر، وأسست العام 620 ق.م، لتكون مركزا يونانيا للتبادل التجاري مع مصر ولتصدير القمح منها بخاصة). وليس هذا التحديد بغير ما مغزى مهم: فالحق أن الحضارة اليونانية لا يمكن إلا أن توضع في إطار أوسع منها، وقد أثر فيها بالضرورة، وهو إطار البحر المتوسط عموما [3]، حيث أهم مراكزه الحضارية مصر وحضارات الساحل السوري وحضارة جزيرة كريت (وكذلك الحضارة الحيثية في شبه جزيرة الأناضول وبخاصة إلى الغرب منها) قبل انهيارها التدريجي، أي حضارة كريت، من 1500 إلى 1375 ق.م.

وإذا أردنا الآن أن نحدد بشديد الإيجاز، وعلى نحو هيكلي وشبه تجريدي، الخصائص العامة للثقافة اليونانية، فإننا ننطلق من تقرير مركَّز حول عموميات الحياة اليونانية القديمة: فقد كان اليونان مجموعة بشرية، ولا نقول «شعبا»، من البحارة والتجار، تعيش في منطقة يحيط بها البحر من كل جانب تقريبا (ويسهل ركوبه للوصول إلى مناطق حضارية موغلة في القدم للتجارة وغير ذلك)، على أرض تربتها غير مواتية للزراعة المكثفة، وفي مناطق جبلية وشبه جبلية غير متصلة بعضها وبعضٍ إلا قليلا، في ظل طقس معتدل يمتلئ بنور الشمس

معظم أيام السنة، مستخدمين لغة مشتركة خصبة المفردات يسهل تركيب الكلمات الجديدة فيها بوسيلة الضم أو اللصق. واعتمادا على عناصر هذا التقرير الكلي يمكننا أن نستنبط أبرز خصائص الذهن اليوناني، وهي التي نراها فيما يلي:

الانفتاح نحو المختلف ونحو الجديد، الاهتمام باللحظة الحاضرة وليس الماضي على نحو كبير، الحس العملي والانتباه إلى النتائج النافعة، قبول التغير والاستعداد له والتكيف معه، الاهتمام بهذا العالم (في مقابل عالم الغيب) والإعجاب بظواهره، قياس كل شيء، بما في ذلك الآلهة نفسها، بمقياس الإنسان الواقعي، الميل الأساسي نحو التسوية بين أفراد الجماعة نفسها، حب الاستقلال والاتجاه نحو التفرد والاختلاف، التفتح الذهني وحب الوضوح، عدم استقرار التقاليد المرعية طويلا، الاستعداد لبذل الجهد إلى حد الحماس الشديد، حب الكلام والنقاش (إلى حد اللجاجة أحيانا).

وتمتلئ كتب الحضارة والتاريخ بتفاصيل ما أخذه اليونان في بداية تكون حضارتهم من استعارات جوهرية من حضارة كريت ومن مصر ومن فينيقيا وغيرها، لكن الواقع كذلك أنهم توصلوا من بعد كل ما أخذوه، وهو مهم جدا، إلى إنتاج منتج جديد هو حضارة اليونان الجديدة حقا من حيث هي كل، وهذا الإنتاج ينسب إليهم هم مهما تكن الاستعارات (تماما كفلسفة أرسطو المنتج الجديد الذي ينسب إليه، مهما يكن من أمر ما أخذه عن أفلاطون وغيره)، لأنهم هضموها وعدلوا منها، وفي كل الأحوال فإنهم حوروها تحويرا جوهريا وأضافوا إليها من عندهم ما جعلها تندمج في تكوين جديد هو لهم هم، ينسب إليهم مهما تكن بعض أصوله الأولى. نقول هذا، ونحن في الوقت نفسه أبعد ما نكون عن التجميد المطلق لحضارة اليونان، أو لأي حضارة أخرى ولو كانت لنا، لأن كل الحضارات متساوية عندنا من حيث «القيمة»، وبالأخص في أعين أهلها، وإن اختلفت من حيث القوة والعمر والتأثير.

قلنا إن اليونان كانوا مجموعات صغيرة تعيش في مواقع متفرقة منذ بدء تاريخهم وحتى الثلث الأخير من القرن الرابع ق.م، أي بغير وحدة سياسية تربط بينهم، على نقيض تام لمصر التي إنما يبدأ تاريخها حقا بتوحيدها من أسوان إلى البحر ومن الصحراء الغربية إلى نهاية سيناء، ومع ذلك فقد توافرت لهم عوامل فعالة، لكن للوحدة الثقافية هذه المرة، وأهمها اللغة الواحدة، والشعور بالانتماء العرقي المشترك، وديانة مشتركة، ومؤسسات جامعة مشتركة من قبيل الاجتماع في الألعاب الأولمبية (منذ 776 ق.م). ولم تكن للمنافسات الرياضية فقط، بل للتعارف والتبادل الثقافي القوي، ومعابد دينية كبرى مشتركة، وعلى رأسها معبد دلفي للإله أبوللون Apollo، وأخيرا وليس آخرا نظام «دولة المدينة» من حيث طريقة الاجتماع المشترك وتنظيم الحكم، وفيه تكون كل مدينة دولة كاملة السيادة ولها كل مؤسسات الدولة الأساسية وأنشطتها، إلى غير ذلك من عوامل نماذج الشعور والسلوك في

قيادة المرء لحياته، أي ما نسميه «المقدَّرات» (أو «القيم»). والآن، فإن أكثر هذه العوامل التوحيدية تجمعت وتجسدت في إنتاج شخصية شاعر عبقري (مهما يكن الفصل في أمر وجوده التاريخي) أخرج قصيدتين طويلتين أو ملحمتين توضعان معا تحت اسمه، وقد تجمع حولهما كل اليونان وتربوا على شواهدهما وأصبحتا مرجعهما في كل شيء تقريبا، وبما في ذلك ديانتهم المشتركة، منذ البداية وحتى آخر شواهد ثقافتهم المستقلة قبل دخولهم في المسيحية. نعم، لقد عاش اليونان منذ نشأة ثقافتهم، حتى بلوغها أوجها في القرنين الخامس والرابع ق.م، في توتر خلاق بين بؤرتي الاختلاف والتشابه، وبين التفرق إلى حد التمزق والمجابهات الدامية بين المدن اليونانية والتوحد تحت رايات اللغة والعرق وهوميروس والديانة والألعاب الأولمبيتين، وغير ذلك، لهذا فإن بداية الانهيار للحضارة اليونانية هي نفسها نقطة توحد كل المدن اليونانية تحت إمرة سلطة سياسية واحدة، هي حكم الإسكندر الأكبر (356 ق.م. - يونيو 323 ق.م). وبعد أبيه، هؤلاء الحكام الجدد المقدونيون الذين أتوا من الأطراف الشمالية لبلاد اليونان القريبة من حدود «الهمجية»، حتى ليمكن أن نقول إن هذا التوحيد المقدوني بالقوة العسكرية، الذي حطم نظام «دولة المدينة» التقليدي، بما في هذا النظام من مفاهيم المواطنة والاستقلال والحرية والتسوية بين المواطنين والفخر بالاختلاف عن المدن الأخرى والاهتمام الدائم عند كل فرد «بالشيء العام» (وإن لم يكن هذا المصطلح يونانيا)، هذا التوحيد السياسي القسري لكأنه هو الذي كسر انطلاقة العبقرية اليونانية (في مقابل دروس تاريخ مصر: فهي قوية بالتوحد وضعيفة ومخضعة عند التفرق).

وإذ أشرنا من فورنا إلى أن الحكم المقدوني إنما أتى من «الأطراف» الشمالية، المجاورة للتجمعات السكانية غير اليونانية والقريبة من الهمجية قربا قويا، فإننا نضيف الآن هذه الإطلالة العامة الأخيرة على حركة الحضارة اليونانية: أنها حركة من الأطراف (أو الحواف) إلى المركز، ثم من المركز إلى الأطراف من جديد: فإذا تصورنا خريطة بلاد اليونان، وفي قلبها أثينا، داخل خريطة البحر المتوسط في مجمله، فإننا سنجد أن الثقافة اليونانية إنما تكونت أول ما تكونت في نفس أيونيا التي أنجبت أول الفلاسفة، لأن هوميروس الشاعر الموحد الحامل لأهم الموروث المشترك هو أيوني هو نفسه، إما من مدينة سميرنا في وسط الساحل الأيوني أو من جزيرة خيوس الكبيرة نسبيا والمقابلة في البحر لتلك المدينة، ولأن ازدهار أيونيا سبق ازدهار مدن اليونان القارية، كما أن بعضا من جزر الأطراف الغربية ومدنها، حتى جنوب إيطاليا وصقلية، شهدت بعض ما يؤسس للثقافة اليونانية العامة، لكن مع الغزو الفارسي لأيونيا وثورة مدنها عليه وتصدي أثينا ومدن أخرى، في اليونان القارية له، أي منذ نحو العام 500 ق.م. انتقلت الأولوية والازدهار من كل جوانبه إلى أثينا والمدن الأخرى التي تقع في اليونان القارية، أي في المركز، وذلك في الفترة الممتدة من

500 إلى 300 ق.م. أما حين جاء الغازي العالمي الإسكندر الأكبر فإنه بتأسيسه مدينة الإسكندرية وبحكم ما صارت إليه أمور البلاد التي غزاها، وبالأخص في مصر وسورية، فإن مركز الثقل والازدهار يعود من جديد إلى الأطراف الجنوبية والشرقية، للحضارة اليونانية، وتصبح الإسكندرية عاصمة اليونان الثقافية في مختلف المجالات وعاصمة عالمية في الوقت نفسه، وإن ظلت أثينا تحتفظ بمكانتها الأولى في الفلسفة على التخصيص.

وننهي هذه المقدمات عن الحضارة اليونانية في مجملها بتحديد الموقف من مسألة تظهر وتتوارى حينا بعد حين، لكنها لا تغيب حقا في كتابات الغربيين اليوم ومنذ مائتي عام: تلك هي مسألة ما سموه «المعجزة اليونانية» (ويقال «هليني» و«إغريقي» و«يوناني» بنفس المعنى)، ويقصدون بذلك:

أ- أن ما أنتجه اليونان هو على غير مثال.

ب - وأن كل ما صنعوه إنما صنعوه بأنفسهم ووحدهم ولم يأخذوا من غيرهم شيئا.

جـ - وأن هذا الذي صنعوه هو قمة بذاته لا تبارى ولا يعلو عليها شيء، بل هي تعلو على كل ما عداها. وقد بلغ هذا الادعاء أقصاه ما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الميلاديين، وقام من بين الغربيين أنفسهم، وبخاصة في الثلث الثاني من القرن العشرين الميلادي، من يفنده بالوقائع ويكشف الدوافع الانفعالية التي تقف وراءه [4]. ونحن نقول، ومن منطلق التأريخ العلمي وحده بحسب ما نقصد، أن ما صنعه اليونان شيء عظيم ويدل على عبقرية متميزة، نعم، ولكنه ليس «معجزة» تفوق الإنسان وتفوق غيرها.

ذلك أننا نرى أن التقرير الحق الوحيد في شأن الحضارات هو تساويها جميعا من حيث القدر والقيمة، لكنها تختلف في العديد من الأوجه، وبخاصة في الأوجه التي يمكن فيها المقارنة بين حضارة وأخرى، من قبيل تمام النمو وطول المدة ومكانة المنتجات وقوة التأثير وما أحدثته من خير أو شر إن لأهلها أو لغيرها، إلى غير ذلك. فالواقع الثابت الآن، عبر الاكتشافات والأبحاث، أن اليونان ورثوا عن حضارات البحر التوسط أشياء كثيرة وذات أهمية، هذا من جهة، وأن السمات التي دعت الغربيين إلى رفع اليونان فوق غيرهم من الحضارات القديمة، ومنها بالأخص الفردية واتباع ما سمي «بالعقل» وعدم الخضوع للدين، هذه السمات، وغيرها مما سيتميز به اليونان وبخاصة في مرحلة نضجهم، إنما تأتي من الظروف بأنواعها التي أنتجوا فيها حضارتهم: ظروف سكانية وبيئية وسياسية وغير ذلك، وهو ما سنرى تجسدات له حين نتحدث عن عوامل تهيئة ظهور الفلسفة وعن خصائصها العامة. إن الحضارة اليونانية حضارة بين حضارات، وهي حضارة عظيمة بين حضارات عظيمة، ولا يعرف التاريخ، ولن يعرف، حضارة هي أكثر أو أقل «قدرا» و«قيمة» من غيرها، وإن عرف ما هو أقوى أو أكثر إنتاجا أو أعظم تأثيرا أو أكثر شرا أو خيرا، وما إلى ذلك مما يمكن المقارنة ابتداء منه.

لقد ظهر هذا الادعاء الغربي في الوقت الذي أخذت فيه الحضارة الغربية تتجه إلى بلوغ قمتها، وهو عندنا نحو العام 1850م، ولما كان الغرب يرى، أو يحب أن يرى، أنه وريث اليونان، عن صواب كان هذا أم عن خطأ، وهو في رأينا عن خطأ بأكثر مما فيه من الصواب، ولما كان بلوغه قمة حضارته، وقد سيطر على الأرض وملك الرقاب ونهب كل الثروات واستغل سائر البشر، يدعوه إلى تمجيد ذاته، فإن تمجيد سلفه أي اليونان، ولندع جانبا الموقف من روما، إنما هو جزء من تمجيده لذاته انطلاقا مما سيسمى متأخرا «بالمركزية الأوروبية»، أي النظر إلى العالم وكأنه تابع لأوروبا واعتبار أنها وأبناءها مركز العالم وخلاصة كل شيء وتاجه، وكل ما غيرها ليس بشيء، أو هو دونها بكثير، حتى نصل أخيرا إلى سذاجة «نهاية التاريخ».

جـ - عوامل تكون ظاهرة «الفلسفة» عند اليونان

الفلسفة، كما سبق أن أشرنا، جزء من كل، الذي هو الثقافة اليونانية في مجملها، فلا عجب أن يتأثر الجزء بسائر جوانب الكل الذي ينتمي إليه، وعليه فإن الطريقة القديمة التي كانت تتوهم أن الأفكار تكون عالما قائما بذاته طريقة لا بد أن تُهجر، ولذلك فإننا سنحاول فيما يلي أن نربط ظهور الفلسفة إلى كل الجوانب الكبرى لثقافة اليونان وحضارتهم.

ومن الطبيعي أن نبدأ هذا الحديث بإيضاح المقصود من كلمة «فلسفة» عند اليونان عموما، وابتداء من انطلاقة ثقافتهم القوية منذ أول القرن السادس ق.م خصوصا. من المؤكد أن الفلاسفة الطبيعيين الأوائل، من الجيلين الأول والثاني وربما من الجيل الثالث، في أيونيا، لم يعرفوا كلمة «فيلسوف» (philosophos، ومن الآن فطالما فإننا نكتب الكلمات اليونانية بالحروف اللاتينية تسهيلا للطباعة)، ولا كلمة «فلسفة» (Philosophia)، لكن لعلهم تلقوا من الناس تسمية «الحكماء» جمع «حكيم» (Sophos)، بل الظاهر أن الكلمتين الأوليين هما من اختراع الفيلسوف فيثاغورس (ولد نحو عام 580 ق.م.) الذي ربما رأى أن ادعاء تملك العلم كاملا هو ادعاء غير جائز، وإنما كل ما يبتغيه الباحث عن طبيعة الأشياء هو أن يكون «محبا للعلم»، والعلم والحكمة هنا بمعنى واحد. ثم برزت كلمة رابعة هي «سوفيستيز» (Sophistês) من خلال القرن الخامس ق.م (499 - 400)، وإن تكن موجودة من قبل هذا، وهي تعني الخبير المتمكن في فن ما أو صنعة ما أو تخصص ما، سواء أكان الحدادة أم السياسة أم التعليم وغيرها، وسيختص بها، في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م. (450 - 400) جماعة من المعلمين المتخصصين في عدد من الفنون، أو «العلوم»، الإنسانية، وهم من سيسمون باسم «السفسطائيين».

والآن، ما المقصود «بالفلسفة» من البداية عند اليونان؟ إنها البحث عن حقيقة الأشياء، ويصبح الفيلسوف هو الباحث عن المعرفة الأكيدة، ومن ثم من فكر عليها مليا، وأصبح له رأي في شأن طبيعة الأشياء وجوهرها. هذا التقرير يصدق على مختلف فلاسفة اليونان، وإن كان

منهم من اهتم بالعالم أو اهتم بالبشر، ومن اهتم بالتوصل إلى صياغة نظرية تتسم بالاتساق مع نتائج بحوثه أو اهتم بتوجيه السلوك في المحل الأهم. لكن كلمة فلسفة اكتست من المعاني العدد الكبير، حتى أحاط الغموض بمعناها الحق، ولهذا يلجأ غير المتعمقين إلى الاكتفاء بظاهر الكلمة في ترجمة حرفية للجزءين اللذين تتكون منهما، فيقولون: «هي محبة الحكمة»، وهو حل لا يشفي غليلا في واقع الحال. وربما نضيف أن من جوهر الفلسفة، وابتداء من أول فلاسفة اليونان طاليس (ازدهر 585 ق.م)، الذي لم يُعْرف في أثناء حياته، لا هو ولا تلامذته أو أتباعه المباشرون، بهذا الاسم: «فيلسوف»، نقول: إن من جوهرها تعدي الظاهر إلى الحقيقي، والعابر إلى الثابت، والعارض إلى الجوهر، وتعدي الجزئيات من أجل الإحاطة بالكل، وهذا كله ليس بالاعتماد على الموروثات بأنواعها، بل باستعمال الفكر العقلاني الذي يثبت ويدعم ما يثبت بالبرهان أو بالحجة أو بالدليل على الأقل. ومن هذا كله اختلف الفيلسوف، ليس عن رجل الدين فقط، بل وعن الشاعر بالأخص، لأن الشعر لا يهتم بالحقيقة، بل يقصد إلى إنتاج المؤثر الجميل الممتع، وسيظل الشعر أبدا أعظم خصوم الفلسفة عند اليونان. إن الفلسفة تستهدف إنتاج الفهم بالكشف عن الحقيقي في إطار الكل، وباستعمال الفكر أو «العقل» أو الحجة (وهذه الكلمات الثلاث تقابلها في اليونانية كلمة Logos التي ربما كانت أهم كلمة فلسفية في القاموس اليوناني، ولها عشرات المعاني الأخرى)، والذي ينتج هذا كله هو فرد معين يتوجه به إلى الأفراد الآخرين وينطق به في لغة واضحة صريحة، وهذا التوجه قد يكون بقصد إيصال الرسالة المعرفية، وقد يكون بقصد التعليم. الفلسفة، إذن، عند اليوناني، بحث وكشف وتفسير وتعليم، وهي هداية أيضا عن بعض الفلاسفة، وهو ما يعود بنا إلى معنى «الحكمة»، الذي هو واحد من عشرات التعريفات التي قدمت «للفلسفة» عند اليونان.

ثم لا ننسى أن من وراء هذا كله جرأة وضع السؤال، والسؤال الكبير العويص بالفعل، والذي كان، منذ طاليس المذكور، وبعد تعدي تقرير «البحث عن الحقيقة» المتسم بالعمومية، كان: ما مبدأ الأشياء، وما أصلها؟ وكيف خرج كل شيء عن ذلك المبدأ وابتداء من ذلك الأصل؟ نعم، إن المبدأ هو الأهم، لأنه، عند اليونان، هو الثابت، فتصير الفلسفة بحثا عن الثابت من وراء المتغير، وبالعثور على المبادئ وتحديد الأصول يستطيع الفيلسوف اليوناني أن يحول فوضى الأشياء الكثيرة المختلفة التي نشاهدها في العالم إلى «نظام»، ولن نبتعد عن الحقيقة الحضارية العميقة حين ننبه إلى أن بحث الفلاسفة اليونان عن نظام العالم إنما كان تطبيقا نظريا، أو موازيا فكريا، لبحث المدن اليونانية عن التنظيم الأمثل لنظام الحكم داخل حدود كل منها: فمحاولة البحث عن النظام داخل المدينة واكبه وماثله ووازاه البحث عن النظام في العالم، ثم سيأتي البحث عن النظام داخل البشر مع قيام الفلسفة الأخلاقية عند سقراط (470 - 399 ق.م) بعد ذلك بأجيال. والإشارة إلى السؤال وأهميته الكبيرة تقابلها إشارة أخرى

إلى كون «الاندهاش» منطلقا لبحوث الفلسفة عند اليونان، وهو أمر أكده كل من أفلاطون وأرسطو [5].

وإذا أردنا أخيرا أن نحدد أهم «الاتجاهات» الفكرية، أو «الاعتقادات الأساسية»، والتي كثيرا ما لا توضع في وضوح وتقرير، التي وجهت اختيارات الفلسفة اليونانية والسبل التي انتهجتها، فإننا يمكن مع شيء من المجازفة، لأن في كل تعميم شيئا من مخاطرة، أن نذكر منها ما يلي: تفضيل النظام المغلق على النظام المفتوح، وبالتالي تفضيل المحدود على اللامحدود (وهو ما يقابل تفضيل الدائرة على الخط المستقيم)، وإعلاء السكون على الحركة، والثبات على التغير، والخلود والدوام على النشأة والتكون، ومفهوم أن الكمال لا يكون إلا على هيئة محددة، والاتجاه العام نحو اعتبار نموذج التفكير الرياضي قائداً للمعرفة الحقة (ومن هنا، مثلا، فإن القياس البرهاني الأرسطي نفسه إنما هو استنتاج واستنباط من مقدمات، كما في الرياضيات، وأرسطو نفسه يجعل علم الرياضيات أعلى قيمة وقدرا من علم الطبيعة أو «الفيزيقا»).

هذا عن أبرز المعاني التي كانت تقفز إلى ذهن اليوناني القديم عندما يسمع كلمتي «فيلوسوفيا» و«فيلوسوفُس»، فما أبرز العوامل التي أدت إلى، أو على الأقل ساعدت على، ظهور هذه الظاهرة الجديدة حقا التي هي «الفلسفة» عند اليونان؟ إن المسألة المهمة، والحديث فيها قد يطول، وتلك العوامل تتنوع بين عامة وخاصة، وإيجابية وسلبية، وطبيعية وبشرية، ولكننا سنقتصر على أهم المفيد من القول متحدثين على التوالي عن: عوامل سكانية، عوامل طبيعية، عوامل سياسية، ويرتبط بها نظام «دولة المدينة»، واقتصادية، عوامل دينية، عوامل ثقافية ومنها اللغوية والمعرفية، وأخيرا وليس آخرا عوامل ذهنية تميزت بها الجماعة اليونانية الجديدة على تاريخ حضارات البحر المتوسط ابتداء من نحو العام 900 ق.م.، وبالأخص من القرن السابع ق. م. (699 – 600) إلى ما بعده.

أما عن العوامل السكانية، فإن اليونان هم نتيجة لالتقاء روافد منوعة ومتتابعة من المهاجرين، وضعت بعضها فوق بعض وإلى جوار بعض في بوتقة الأرض المشتركة، وكان ما بينها من غزو وتحطيم وخضوع وسلام واتفاق وتنازع حينا بعد حين، أي أن ما يعرف باسم «الهلينيين»، أي اليونان، إنما هم نتيجة لقشرات سكانية، إن أمكن استخدام هذا المصطلح الجيولوجي، تراكمت وتفاعلت، منذ ما يقرب من الألف سابقا على بداية الحضارة اليونانية، وأخرجت منتجا بشريا جديدا بالفعل عَظُمت سماته بفعل التلقيح المتبادل. وسيستمر اليونان عبر كل تاريخهم وهم في حركة دائبة وتنقل مستمر بين مدينة وأخرى، جماعات تبني مستعمرات جديدة هنا أو هناك، وفرادى يتنقلون بين المدن اليونانية من أقصاها إلى أقصاها (ونرى في محاورات أفلاطون أمثلة غير مباشرة على زيارات من يونانيين من مدن مختلفة يطرقون أبواب أثينا لعلة أو لأخرى).

هذه الهجرات، وهذا التنوع السكاني سيؤدي في النهاية إلى بروز شكل من التفتح الذهني حيث يتواجد معا من كانوا مختلفين، وحيث لا قوة لتقاليد راسخة مرعية، فلا يكاد تكون هناك سيطرة لنموذج مُعد مسبقا (وهي الحال مع المصريين مثلا، ونكرر الإشارات إلى مصر مقارنين اليونان بها، لأن اليونان كانوا يضعونها دوما أمامهم بوصفها حالة فريدة تستحق الإعجاب والاحترام، لكنها مختلفة عنهم في نظمها وتقاليدها كثيرا).

بعد السكان، عاملا بشريا، تأتي الأرض والطقس كعوامل طبيعية لا نشك في تأثيرها القوي في تكوين «الذهن» اليوناني الذي سينتج الفلسفة. فأرض اليونان تكثر فيها المرتفعات بل الجبال، وتقل فيها كثيرا الأرض القابلة للزراعة، والبحر يحيط بها من كل جانب تقريبا، حتى ليقال إن أي نقطة في بلاد اليونان لا تبعد عن البحر إلا بما قد يقل كثيرا عن المائة كيلو متر. فماذا فعل هذا الوضع بهم؟ إن اليونان لم يعرفوا استقرار الزراعة، على عكس مصر دائما، بل كانوا، كما قلنا في البداية، بحارة وتجارا في المحل الأول والأهم، وكانوا يحملون خصوصا الزيتون وزيته والنبيذ والمصنوعات الفخارية والخزفية إلى بلاد شرقي المتوسط وجنوبه ووسطه، والبحار والتاجر كل منهما تلزمه الحركة وإدراك المتغيرات وملاحقة التطورات، فذهنه مرن ويتوقع الاختلاف في كل لحظة، فهو منفتح دوما على الغير، وكذلك على الأفكار المختلفة، وهو ما سيظهر مؤكدا في التنوع العجيب لأفكار فلاسفة اليونان المتعاصرين والمتعاقبين في اختلاف مدهش، حيث كل منهم يبدأ المسألة من بدايتها مرة بعد مرة.

وقد ألمحنا إلى عدم الاستقرار الزراعي، فساعد هذا على سهولة التحول عن تقاليد السابقين، على خلاف مصر كما قلنا. كذلك، فإننا لا نشك لحظة واحدة في أن الطقس المعتدل الذي تعرفه بلاد اليونان والشمس المشرقة التي تلبس كل السماء والأرض والبحر بالضوء المنير، لا نشك إن كان لهذا تأثيره الحاسم في الذهن اليوناني في اتجاهه نحو الوضوح وطلب الحسم، حتى أن الكلمة التي تدل على التأمل والدراسة عند الفلاسفة وغيرهم، وهي theôria، التي نجدها هي نفسها إلى اليوم في اللغات الأوروبية بمعنى «نظرية»، إنما جاءت من جذر العقل الذي كان يعني «ينظر» و«يلاحظ»، أي يدرك منظرا طبيعيا. (لنا أن نقارن طرق تفكير أمم أخرى تعيش في الغابات أو في أجواء ممطرة وغائمة).

ومع أهمية ما سبق، فإنه لا جدال في أن للعوامل السياسية أهمية كبرى في ظهور نشاط الفلسفة عند اليونان، وتليها في الأهمية العوامل الدينية، سلبا، ثم العوامل الثقافية، وإذا كانت العوالم الذهنية تحتل مكانة عالية في هذا المقام مع تلك السياسية، فإنها في الواقع تتأثر بكل العوامل المذكورة سابقا معا لتصبح بعد ذلك ذات كيان نوعي خاص بها.

إن اليونان كانوا جماعة قومية، نعم، لكنهم لم يشكلوا «وحدة قومية» أو «كيانا قوميا موحدا» طوال تاريخهم، وبخاصة في القرن الخامس ق.م الذي يشكل قمة مجدهم وتصبح أثينا في

نصفه الثاني زعيمة اليونان وعاصمتهم السياسية والاقتصادية والثقافية بغير منازع، حتى يأتي توحيدهم بقوة الغزو الشامل لجيوش الملك فيليب المقدوني أبي الإسكندر الأكبر، وذلك إثر معركة خايرونيا (22 أغسطس العام 338 ق.م.)، التي هزمت فيها القوات الأثينية (مع قوات حليفتها مدينة طيبة) نهائيا. لكن مع توحيد كل اليونان هكذا اختفى عامل من أكبر عوامل عظمة حضارتهم، ألا وهو عامل الحرية السياسية، ولا يوجد ما يمنع من اعتبار هذا العام البداية الحقيقية التي دق فيها جرس إنذار نهاية تألق اليونان عموما وأثينا خصوصا، وبدأت تظهر في الأفق بداية العصر «الهلينستي»، أي حضارة اليونان، وقد أخذت تنغمس شيئا فشيئا وبقوة تدريجية في ثقافات مصر والشرق، فانتهى عصر الإغريق الخلص وبدأ عصر «المتأغرقين»، ذلك أن هذا الغزو الآتي من أطراف الحدود الشمالية لبلاد اليونان، وعلى يد ملك كان يشكك بعضهم في أنه «يوناني» حقا، قضى على البؤرة المركزية التي انطلقت منها مختلف مظاهر الثقافة اليونانية: ألا وهي نظام «دولة المدينة».

وقد كانت كل مدينة يونانية (Polis) وحدة سياسية قائمة بذاتها تحكم نفسها بنفسها، ولها كل مظاهر الدولة من السلطة الحاكمة والقوانين حتى الجيش والسفراء وغير ذلك، وهذا النموذج طبق في سائر المدن اليونانية، التي يصل عددها إلى العشرات إن لم يكن المئات، إن في المدن الأصلية أو في مستعمرات كل مدينة التي تصبح هي نفسها مدنا مستقلة. ولا حاجة إلى تفصيل القول هنا في تطور نظام الحكم لدولة المدينة، لكن يمكن القول إجمالا إنه انتقل من الحكم الملكي إلى ذلك الأرستقراطي إلى ذلك الأوليجاركي (حكم القلة)، وأخيرا إلى نظام الديموقراطية، مرورا أحيانا بنظام «حكم الطغاة»، لكن المهم هو أن الأساس هو أن مواطني كل مدينة كانوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم. وكان من المعالم الكبرى المشتركة في كل مدينة يونانية: القلعة (الأكروبوليس) والساحة العامة (Agora) والمنطقة الريفية المحيطة بالمدينة والتابعة لها، لكن أهم ما في الأمر أن جوهر المدينة إنما هو مواطنوها، وهكذا مثلا، فإن أثينا إنما هي الأثينيون، لكن المقصود «بالمواطن» كان المواطن الحر، في مقابل العبيد من جهة، وكان عددهم لا يستهان به في كل مدينة للقيام بالأعمال الشاقة أو غير اللائقة بالمواطن الحر، و«الغرباء»، جمع «غريب»، من جهة أخرى، وهم اليونان الأحرار الذين ينتمون إلى مدن أخرى ويكون في زيارة، أو في إقامة، في مدينة مختلفة. (وهكذا مثلا، فإن سقراط في يوم إعدامه يظهر في محاورة أفلاطون الشهيرة «فيدون» متحاورا مع اثنين من «الغرباء» من مواطني مدينة طيبة).

وكان عدد المواطنين الأحرار في كل مدينة يتراوح بين مئات للمدن الصغيرة إلى بضعة آلاف قد تصل إلى العشرات، وتختلف التقديرات بين الباحثين اختلافا ليس بالقليل، وأحد أعلى هذه التقديرات أن عدد المواطنين الأحرار في أثينا في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م كان يتراوح حول 120 ألف نسمة، ثم يضاف إليهم المقيمون (Metics) والعبيد.

والآن ما أهمية نظام دولة المدينة هذا، وهو الذي يميز حسما التنظيم السياسي اليوناني عموما وفي عصور مجد اليونان خصوصا، ويختلف اختلافا تاما عن المقابل المصري القائم على الدولة متسعة الأرجاء مركزية الحكم في العاصمة بشكل كامل؟ إنه الإطار الذي ظهرت فيه فكرة الاستقلال، ومن استقلال المدينة عن المدن الأخرى إلى استقلال كل مواطن فرد عن أقرانه لا توجد إلا خطوة واحدة لتخطى، ومن فكرة الاستقلال إلى فكرة الحرية لا توجد أيضا إلا خطوات. الحرية: هذه الفكرة المركزية في حياة اليونان السياسية، ولنتذكر ما مر بنا منذ قليل من أن المقصود بالمواطن إنما هو «المواطن الحر»، وفي حياتهم الفكرية أيضا، وعلى أساس حرية التفكير ستقوم الفلسفة اليونانية، وستشتهر أثينا فوق كل المدن اليونانية في عصور ازدهارها بأنها مدينة الحرية.

ولا شك في أن نظام الحكم الديموقراطي هو أدعى إلى احترام الحرية، لأنه حكم الشعب بالشعب، لكن شعب كل مدينة إنما كان هو أفراد مواطنيها الأحرار. وبعد الاستقلال والحرية فإن نظام دولة المدينة سينتج المساواة بين المواطنين، بعد تطورات تاريخية متفاوتة بالطبع. وكل هذا يرسخ من قبول التنوع ومن الانفتاح الذهني ومن التسامح الفكري، مضافا إليه العامل الجغرافي بالإطلال على البحر من كل جهة، والاشتغال بالسفر بحرا وبالتجارة. ثم نضيف أخيرا عاملا مهما يؤدي إلى النتائج نفسها، وهو ضعف اتصال نظام الحكم، أيا ما كان، بالديانة اليونانية، وهي التي لم تعرف هي نفسها عقيدة ثابتة موحدة مفروضة، ولا طبقة متميزة ذات مصالح محددة من الكهنة، وكل هذا مرة أخرى، في مقابل النموذج المصري، الذي يسيطر فيه الدين على كل شيء، حتى ليصير الملك إلها وكبيرا للكهنة في الوقت نفسه. ثم يتوج نظام دولة المدينة اليوناني، وعلى امتداد النصف الأول من القرن الخامس ق.م (500 – 450)، بالانتصار على الخصم الأعتى والضد التام في كل شيء، ألا وهو نظام دولة فارس، التي كان اسم ملكها يكنى له بـ «الملك الكبير» وحسب، فها هي تلك المدن قليلة الشأن بالقياس إلى الدولة الفارسية واسعة الأرجاء ممتدة الممتلكات، والتي سيطرت على كل شرق آسيا على التقريب، وعلى مصر، وعلى شبة جزيرة الأناضول وعلى أيونيا اليونانية، ها هي، بينما تتطلع إلى القفز فوق البحر لتصل إلى السيطرة المادية بالاحتلال على مدن اليونان القارية وما حولها، ها هي تهزم شر هزيمة في موقعتين مهمتين، إحداهما برية في ماراثون (490 ق.م)، والأخرى بحرية في سالاميس (480 ق.م)، ويُقضى على فلول محاولاتها المتبقية نهائيا عام 450 ق.م. ربما لا نستطيع اليوم تصور أهمية هذا الانتصار لتلك المدن، بقيادة أثينا في واقع الأمر، وهي قليلة العدد والعدة، ولكنها متحفزة لحماية استقلالها وحريتها – انتصارها على الملك الكبير بجيوشه الجرارة وذهبه الذي بغير نهاية، والذي استطاع به حتى شراء بعض اليونان أنفسهم، وشراء كهنة معبد دلفي أنفسهم، أي معبد الإله أبوللون العظيم نفسه. فلما

انهزم الفرس كان ذلك إعلانا بانتصار الحرية والاستقلال وأيضا بانتصار الإنسان على الإله الذي انحاز إلى الفرس حين تنبأت الكاهنة المزعوم أنها تنطق باسمه بانتصارهم على اليونان. لهذا، وبعد مسيرة الفلسفة منذ نحو 600 ق.م. في ظل الحرية الفكرية والتعددية والاستقلال الذهني، سيكون عام 450 بداية العصر الذهبي حقا، ليس للفلسفة وحسب، بل ولكل الحضارة اليونانية في مختلف جوانبها، ولأثينا أيضا وعلى الخصوص.

لقد ألمحنا منذ قليل إلى جانب ذي صفة دينية فيما كنا بصدد الحديث عنه من التطور السياسي، لكن العامل الديني، بالسلب هذه المرة، سيكون له شأن في إتاحة الظروف المواتية لظهور الفلسفة ونمائها.

ذلك أن الديانة اليونانية الرسمية، أي ما يظهر عند هوميروس ثم عند الشاعر هزيود وغيرهما من آلهة وطقوس وشعائر، والتي اشتركت في اتباعها جميع المدن اليونانية، لم تكن ديانة مفصلة، وهي ديانة شعائر بأكثر منها ديانة اعتقادات، كما أنها ليست بديانة شرائع، فإذا أضفنا إلى هذا كله أنها لم تكن ذات كتاب مقدس موحد، وأن الشعراء كانوا هم، في النهاية، المتحدثين عن الآلهة، وأن كتابات هؤلاء الشعراء اختلفت فيما بينها حول ما تقوله عن كل إله وعن علاقات الآلهة فيما بينها، وأنه ليس من النادر أن يقيموا، بمن فيهم وأولهم هوميروس نفسه، بانتقاد بعض سلوك الآلهة، بل والاستهزاء بهم، وأن اليونان تصوروا آلهتهم على صورة بشرية تامة وفي كل شأن، ما عدا الموت: فالخلود هو الخاصية التي تنفرد بها الآلهة، وأنهم يتصرفون، فيما يقول الشعراء، كتصرف البشر، ما بين أمانة وخيانة، وعدل وظلم، إلى حد ارتكاب أفظع الجرائم بعضهم تجاه بعض، بما في ذلك الابن، وليكن زيوس مثلا الذي سيصير رب الأرباب عند اليونان، بإزاء أبيه كرونوس (الزمان)، نقول: إننا عندما نرى كل هذه السمات ندرك أن الديانة اليونانية شبه الشكلية وضعيفة المضمون، كانت ضعيفة التأثير، ليس في نظام الحكم ونظام الحياة الاجتماعية لليونان وحسب، بل وكذلك في تطور الفكر اليوناني أيضا. ولما كانت الديانة الرسمية اليونانية، وهي ديانة «آلهة الأولمبوس»، نسبة إلى قمة الجبل الذي قاد الخيالُ الشعراءَ إلى قول إن الآلهة تقيم فوق قمته العالية، نقول: لما كانت ضعيفة المضمون والتأثير، فإنها لم تشف غليل النفوس المستعدة للتجارب الدينية العميقة، لذلك فقد ظهرت ديانة غير رسمية، تخفّت بين طيات الأسرار، وجاءت على الأغلب من فينيقيا، أي أنها ذات أصل غير يوناني، وتقول بأن الجسد هو مصدر الشرور، وأن النفس، المتمايزة عنه في كل شيء، هي في سجن عند حلولها فيه، وهدفها هو التحرر من هذا السجن، الذي يتكرر في حيواتها المتعاقبة حين حلولها في جسد ثم في آخر، وهي بسبيلها إلى التطهر، فتنجح حينا وتفشل أحيانا، وهو ما يسمى بعقيدة «التناسخ»، حتى تجتهد أخيرا في التخلص من أرزاء الجسد فتطير إلى الأعالي لتلحق بمقام الآلهة الطاهر. هذا موجز سريع لأهم معالم الديانة

«الأورفية»، نسبة إلى «أورفيوس»، التي سيأخذ بها فيثاغورس وأتباعه، وسيتأثر بها سقراط وأفلاطون، بينما هي تعارض اتجاهين يونانيين خالصين: الأول تمجيد الجسد البشري تمجيدا عظيما، والثاني عدم الاعتقاد في بقاء الحياة بعد الموت، لأن ما يحيي الإنسان إنما هو محض «نَفَس»، وحين يحين الموت فإنه لا يكون، ولهذا فإن فكرة «النفس» التي ستظهر في محاورات أفلاطون هي فكرة جديدة حقا، و«غريبة» أيضا، على الثقافة اليونانية، وربما بلورها سقراط في أثناء أحاديثه وبعد تأملاته على ما وصل إليه في شأنها من أقوال الفيثاغوريين وغيرهم.

العوامل السابقة ربما ساعدت على ظهور الاتجاه نحو الانفتاح الذهني ونحو الحرية بخاصة، وهي اتجاهان مؤسسان لظهور الفلسفة عند اليونان، وسيبلغان أعظم شأو لهما في أثينا، إذا استثنينا سلوكها بإزاء سقراط وغيره من المفكرين، أما العوامل التي نتحدث عنها الآن، وهي ثقافية ولغوية ومعرفية، فإنها تؤدي على الخصوص إلى إبراز سمة الفردية والتفرد والتمايز وما يرتبط بها من سمات ذهنية ضرورية لقيام الفلسفة، وكلها، على كل حال، على اتصال أيضا بالعوامل السياسية والسكانية المشار إليها من قبل. والسؤال الآن هو: هل الفردية اكتشاف يوناني؟ نعم ولا: لا، لأن المصري، مثلا، اعتبر نفسه فردا بالمعنى الحق من حيث إن له «كا»، أو «نَفَس»، متفردة ومتميزة، وستعود إلى جسده إن هو ميزه تمييزا قاطعا بتحديد اسمه عليه بالكامل، غير أن المصري كفرد لم يكن له اعتبار في النظام السياسي في مصر القديمة. ونعم، الفردية اكتشاف يوناني، ومنذ قصائد هوميروس نفسه، لأنها نظرت إلى الإنسان فردا متميزا من شتى الجوانب، لكن في إطار العالم الأرضي، وسيكون اليوناني فردا في السياسة والمعاملات وفي التفكير أيضا، لكنه، وهنا نعود إلى النفي من جديد، الفرد الذي هو الرجل وليس المرأة، التي كانت في العادة بغير شأن ولا أهمية، حتى لا تكاد تخرج من بيت أبيها أو زوجها، على غير حال المرأة المصرية التي كانت ذات شأن عظيم حتى لتولت الملك مرات وشاركت في توجيه السياسة والحكم في شتى العصور أما أو أختا أو زوجة. (ولا ندخل هنا في حديث التمييز بين الفردية اليونانية والفردية الأوروبية الحديثة، فربما كانت الاختلافات بينهما أكثر من التشابهات). وقد ارتبط بالفردية في المجال السياسي المساواة فيه أيضا، بالتدريج بالطبع، وبخاصة في النظام الديموقراطي[6]. لقد كان المجتمع اليوناني ونظام الحكم في دولة المدينة حِملا خفيفا على الفرد اليوناني، بينما كان المجتمع المصري ودولته المركزية عبئا ثقيلا على المصري.

ولا نرى أنه سيكون من غير العدل التأكيد على أهمية العامل اللغوي في ظهور الفلسفة، لأن اللغة اليونانية، وقد تجردت تماما من استخدام الصور، كما في الخط الهيروغليفي المصري، واستخدمت رموزا خالصة هي «الألف باء» اليونانية، ومهما يكن من أمر استعارتها في هذا المجال من فينيقيا والأصول المصرية لكل ذلك، ودرجة هذه الاستعارة، نقول: إن طبيعة

اللغة اليونانية ساعدت التفكير اليوناني على التخلص من قيود التصوير المادي للمعاني، واتجه بذلك، وتدريجيا، نحو التجريد الخالص أو شبه الخالص، ابتداء من فيلسوف مثل بارمنيدس أو تلميذه زينون، في النصف الأول من القرن الخامس ق.م، أو عند أفلاطون في محاورة عجيبة سماها باسم «بارمنيدس» أيضا، وعند أرسطو بمنطقه الصوري، أي التجريدي الخالص. وقد سبق أن أشرنا إلى ثراء اليونانية بالمفردات وقدرتها على التحديد وإنتاج الوضوح في التعبير على نحو قاطع، تماما كما تظهر الأشياء تحت ضوء الشمس في بلاد البحر المتوسط. وقد شعر اليونان من البداية بإمكانيات لغتهم، لذلك فقد أغرموا بالكلام وبالنقاش إلى حد الولوع بالثرثرة وإلى حد اللجاجة عند الاختلاف، وهي سمات سينعاها عليهم الرومان أصدقاء العمل ومحبو الإيجاز في القول. هذا التعود على المناقشة، وعلى إظهار أوجه عدة للشيء نفسه، وما يتبع ذلك من ظهور الاختلاف وقبوله كأمر طبيعي، كل هذا هو من مساعدات ظهور التفلسف، ولا عجب بعد ذلك أن يكون كل تفكير سقراط على هيئة الحوار، إن مع الآخر أو مع الذات، وأن يكتب أفلاطون كل أعماله، على التقريب، على هيئة «المحاورات».

ويقترن الحديث عن حب الكلام والرغبة في النقاش عند اليونان بظاهرة مهمة ترتبط بشتى جوانب بيئة الحضارة اليونانية كلها، ألا وهي ظاهرة «الفراغ»: فالمواطن الحر هو من لا يعمل بيديه، وإن كانت له ممتلكات أو أعمال فهو إنما يقوم «بالإشراف» عليها، ويبقى أمامه باقي الوقت، أو كل الوقت، إلا إن كان في حرب أو سفر، «فراغا»، وكان من الطبيعي قضاء هذا الوقت الفراغ في الكلام وتبادل الأحاديث، ومن ثم في استجلاب المعرفة، حتى إن كلمة «فراغ» باليونانية (Skholê) ستكون هي أصل الكلمة التي ستدل على «المدرسة» في اللغات الأوروبية الحديثة. ولعل هذه الأمور كلها، اللغة والكلام والمناقشة والفراغ وطلب المعرفة، ومن ثم «التفلسف»، أن تظهر أعظم ما تظهر من سلوك سقراط في سوق أثينا أو ساحتها العامة وفي ملاعبها الرياضية وفي شوارعها وفيما حولها من مزارع، فضلا عن منازل أهلها وأغناهم على الخصوص، نقول إن سلوك سقراط يرتبط دائما إلى الفراغ، ولذلك فلا هم له إلا التحاور مع الجميع، شبابا وشيبة، مواطنين وغرباء. هذا التحاور، حول تعريف فضيلة أو أخرى، هو «التفلسف» السقراطي. (في مقابل فراغ المواطن اليوناني ونتائجه نشير، ما دمنا قد اخترنا أسلوب المقارنة مع أحوال مصر القديمة، إلى أن الفلاح المصري، عمادها، يعمل من الفجر في أرضه حتى المغيب، ويعود إلى مسكنه ليلتقم لقمتين فينام، ليعاود الدورة نفسها من جديد في اليوم التالي: فمتى سيفكر، وسوف يقال له في المدينة وفي المعابد: نحن نفكر لك!).

أخيرا، فإن الفلسفة عند اليونان ما قامت، وما كان لها أن تقوم، من دون نقل اليونان لشتى المعارف التي سبقتهم إليها أمم البحر المتوسط، وغيرها حتى وادي الرافدين، فهذا

التراكم الأساسي، الذي عرفه البحارة والتجار والمهندسون اليونان من البداية، هو ما هضمه اليونان ثم فكروا على ما أخذوه وعلى ما عثروا عليه بأنفسهم وانتهت إليه إبداعاتهم، فأنتجوا فلسفتهم.

ونأتي الآن إلى ما سميناه «العوامل الذهنية» في قيام الفلسفة عند اليونان، وهي بقدر تنوعها هي نفسها إلا أنها على اتصال وثيق بهذا العامل أو ذاك من العوامل التي عددنا فيما سبق، وهو أمر طبيعي لأن الكائن الإنساني، وكذلك كل ما هو إنساني، وحدة واحدة وكل متفاعل حتى وإن رُكِّب من أجزاء أو كانت له جوانب نحددها ونعددها من أجل غرض الدراسة، لكن الفهم السليم يقتضي إعادة تجميعها والانتباه إلى تداخلاتها وتفاعلاتها معا.

وقد كان اليونان القدماء، كما سبق أن أشرنا، يبدأون هم أنفسهم بعامل «الاندهاش» كعامل نحو ظهور النشاط المسمى بالتفلسف[7]. وهناك عامل آخر قريب، وربما كان وجها مختلفا للعامل السابق نفسه، وهو حب الاستطلاع الفريد الذي نجده عند اليونان القدماء، وهو مرتبط بالضرورة بظروف جغرافية بلاد اليونان وبنشاطهم البحري والتجاري وبتتالي الهجرات عليهم وبتراكم موروثات ومعارف من جهات شتى. ويتجسد الاندهاش وحب الاستطلاع في القدرة على وضع الأسئلة، وهي قدرة تختلف حولها حدة وإهمالا أدمغة البشر، وكذلك شخصياتهم القومية. وقد أشرنا إلى أن الفلسفة اليونانية بدأت مع سؤال: ما المبدأ؟ وربما لا يتميز اليونان دون بقية الحضارات المحيطة بهم بوضع سؤال المبدأ هذا، لأن الجميع تساءلوه، إنما ما تميز به اليونان، بمعنى الاختلاف من دون إضافة قيمة إيجابية أو سلبية، هو أن الذي أجاب عنه عند غيرهم، عند المصريين مثلا، هو الدين وكهنته، أما عن اليونان فإن أفرادا متميزين هم الذين وضعوه وغامروا بالعثور على إجابة عنه. وهنا ينبغي إيراد ملاحظتين: **الأولى**، أن الديانة اليونانية، ومصدرها الأول والأكبر هو شعر هوميروس كما أشرنا من قبل، لم تتناول هذا السؤال، وأحد أسباب ذلك ربما كان أن اليونان لم يكن يدخل في تصوراتهم عن العالم مطلقا فكرة «الخلق من عدم»، وهي فكرة ساميَّة ستظهر للمرة الأولى في الديانات السامية الثلاث الكبرى المعروفة، لكن اليونان يجهلونها تماما، إنما القائم عندهم أن العالم موجود منذ الأبد، لكنه كان على هيئة «خواء» أو «فوضى» (chaos)، ثم دخل عليه النظام، وعند تناول اليونان لمسألة نظام العالم هذا، فإنه يظهر بعد سؤال المبدأ سؤال الأصل، لأن النظام هو ما يوجد في أصل الأشياء، والمبدأ هو مادتها، أو جوهرها أو النسيج الذي ستصنع منه بدخول النظام عليه.

وهكذا، فإذا رأى القارئ أحدهم يتحدث عن «المخلوقات» عند اليونان، فليعلم أنه لا يدري شيئا حقا عن ثقافتهم وفكرهم، بل هو «يسقط» عليهم مفاهيم ستأتي بها أديان أخرى (وبالمناسبة فها هنا على التحديد قلب المشاكل التي واجهت من يسمون، خطأ في رأينا،

بـ«الفلاسفة الإسلاميين»: فهم ينقلون عن أفلاطون وأرسطو كلاما عن العالم الذي لم يُصنع، بل هو كائن منذ الأبد، إلى لغة القرآن الذي يقول بالضرورة بالخلق من عدم وموجهين كلامهم إلى أمة الإسلام).

الملاحظة الثانية تخص التأكيد على فكرة «المغامرة» نفسها، وأساسها المادي مرة أخرى هي التعامل مع البحر الكبير ومواجهة الأمواج والعواصف، والمثال الكبير مرة أخرى هو هوميروس في ملحمة «الأوديسه»، وهي سلمية غير حربية في مقابل «الإلياذة»، والتي تحكي مغامرات البطل أوديسيوس في عودته من طرواده إلى موطنه في أثينا، مغامرات ستطول سنين، لكنها تنتهي نهاية سعيدة بعودته إلى وطنه وداره وزوجته الأمينة المخلصة. ومن المفهوم أنه لا يقوم بالمغامرة إلا فرد، كما أنه لا يقوم بها إلا شاقا عصا الطاعة على سلطة ما من السلطات. وهذا عامل ذهني جديد ويرتبط أيضا بمعظم العوامل التي عددنا: فالفلسفة تفترض، مع الاستقلال والحرية والفردية، القدرة على الاختلاف مع السلطات القائمة بل ومعارضتها، وهكذا، فكما سيختلف الشاعر هزيود مع هوميروس في تصوير الأخير للآلهة تصويرا شائنا أحيانا، فإن طاليس، أول الفلاسفة، سيختلف مع سلطة الدين والموروثات حين يعلن آراءه عن المبدأ والأصل، كما سيختلف سقراط مع سلطة الدولة بأسرها حتى بثمن الموت، وأخيرا وليس آخرا فأمامنا اختلاف أرسطو تلميذ أفلاطون في أكاديميته في أثينا لمدة عشرين عاما عن مذاهب الأستاذ المبجل دائما، وسنراه يقول فيما يروى من مرويات: «أحب أفلاطون، وأحب الحق، ولكني أحب الحق فوق حبي لأفلاطون».

ثم كيف يكون كل هذا، وهنا نجد أنفسنا أمام عامل ذهني جديد، من دون أن يكون متوافرا، عند القائم بالمغامرة وصاحب السؤال والباحث عن إجابة، حماسٌ عظيم واستعداد لبذل الجهد أعظم؟ والحق، ومن دون الدخول في تفاصيل كثيرة، أن اليونان عموما تمتعوا بالحماس الشديد، وربما إلى حد الاندفاع المفرط أحيانا. وتجتمع كثير من العوامل المذكورة لتشكيل سمة جديدة للذهن اليوناني تؤهله لإنتاج طريق التفكير الجديد المسمى بالتفلسف: ذلك أن الاختلاف والفردية وحب النقاش يدفع إلى القيام بالانتقاد للآخرين، لكن في سماحة تتجسد جانبا في قبول انتقاد الآخر في الوقت نفسه، وهذه هي نفسها الحال بين المدن، وهي الحال بين المتقاضين أمام المحاكم، وهي حال أنكسماندريس تلميذ طاليس، وهو عبقرية في عصره، بإزاء أستاذه نفسه، ثم حال تلميذه هو بإزائه من جديد، وربما نجد مجمل هذه المظاهر في محاورة أفلاطون «المأدبة»، حيث يتوالى خمسة متحدثين يدلي كل منهم بحديث مختلف عن طبيعة الحب، ثم يأتي سقراط سادسهم ليدلي بكلام يختلف عنهم جميعا وينقُض حتى ما قُدم من أسس مشتركة فيما بينهم[8]. وعامل جديد عند اليونان جميعا ومرتبط أيضا بما سبق، وهو الثقة بالنفس التي تظهر عند مجموعهم، وهذه الثقة الذاتية ربما كانت دافعا نحو عامل

جديد مختلف من عوامل ظهور الفلسفة عندهم، وهو الميل إلى التفنن وطلب الإجادة، وإذا كان هذا الأمر موجودا بوفرة في كل ما تركه المصريون القدماء، فإن اليونان تميزوا عنهم، ولا نقول عليهم، بطلب الإجادة وطلب الجديد المختلف معا: إن كل فيلسوف، ولو من المدرسة الفكرية نفسها، يكون له من الآراء ما يختص به، ثم تختلف المدرسة عن المدرسة، وهكذا. ويقف من وراء هذا عامل ذهني مهم: إن الأساس عند اليوناني، على الأقل حتى عصر أرسطو والإسكندر، هو التفكير لا الاتباع، والاقتناع لا الطاعة والخضوع والانضواء، والفحص لا الحفظ ومحض التذكر.

ويظهر في خلال ذلك تزكية الحرية من جهة والتنوع من جهة أخرى، تماما كتنوع المدن فيما بينها، وكتنوع المناظر الطبيعية في بلاد اليونان ما بين الأرض والبحر، وبين الجبال وشيء من السهول، ومباني المدينة ومناظر الريف، إلى غير ذلك. ومع ذلك، وتطبيقا لمبدأ الحرية والاختلاف، فإن فيلسوفا مهما هو بارمنيدس (ازدهر نحو 470 ق.م.) سيقوم ليرفض كل تنوع وتعدد، بل وكل حركة وتغير في الطبيعة، ليقول: «الوجود موجود»، ويستنبط من هذه القضية أنه واحد ثابت. وهكذا رفض كل شيء وتحدى كل السلطات. إنه الاستثناء الذي يثبت القاعدة، قاعدة قبول اليونان للتنوع في الآراء كما في غيرها.

والكلام عن قبول الاختلاف يدفعنا إلى إدراك أعمق للمجال الفكري الذي كان يعيش فيه اليونان القدماء، عندما ندرك، كجانب مهم لكن خفي، شيئا ما من ذلك المجال، أن اليونان أدركوا كل شيء تقريبا على هيئة أضداد، ولهذا كثر في تعبيراتهم اللغوية وفي تكوين خطبهم استخدام الثنائيات، وأما في تفكيرهم فتظهر دائما معا أزواج من المتضادات، كما عند هيراقليطس مثلا، وسبق هنا أن ذكرنا بعضها عند كلامنا عن الاتجاهات المفضلة للتفكير اليوناني: فهو يؤثر الساكن على المتحرك، والثابت على المتغير، والمحدود على اللامحدود، إلى غير ذلك.

ونأتي الآن إلى عامل ذهني كثيرا ما تذكره كتب المقدمات إلى الفلسفة اليونانية، وعن حق، لكنه يحتاج إلى وضع مدقق له بعض الشيء: ذلك هو القول بأن اليونان اهتموا بالأمور النظرية ولأجل النظر وحسب، ويضاف مثالا على ذلك ذكر المعرفة الرياضية، حيث برع المصريون في الرياضيات المستخدمة في الإنشاءات وفي تنظيم الحسابات، لكن اليونان هم من قاموا بإنشاء علم الرياضيات النظري. والجزء الأول من ذلك التقرير، «اهتموا بالأمور النظرية»، صحيح، لكن الجزء الثاني ليس صوابا على إطلاقه: «ولأجل النظر وحسب»، فالحق أن المنفعة لم تكن غائبة عن أعين الفلاسفة والعلماء اليونان جميعا، ولو كانت على هيئة إنقاذ المدينة من الفساد أو تخليص النفس من سجن الانفعالات عند هؤلاء أو من سجن الجسد عند أولئك، إنما الصواب أنهم اهتموا بالأمور النظرية، من أجل الإجابة عن أسئلة محيرة، ولأجل النظر أولا،

لكن ليس مطلقا، فحتى سقراط يطلب المعرفة، لكنها المعرفة التي تؤسس للفضيلة، أي من إنتاج الصواب والفاعلية في السلوك. وقد نضيف سمة أخرى مرتبطة بما سبق: ذلك أن اليونان، منذ أوائل القرن السادس ق.م أخذوا في النظر إلى «الكل»، أي إلى مجمل الوجود، ثم في كل ميدان معين إلى مجمله من حيث هو كل، هذا بينما بقيت الحضارات الأخرى متفرقة الأنظار بين جزئيات أو بين ميادين جزئية. نعم، إن الفلسفة نظر في الكل، وهذا تجديد يوناني لا شك فيه، لكنهم لم يتوصلوا إلى هذا الترف بشكليه: الاهتمام بالنظر أولا والنظر إلى الكل وليس فقط إلى الجزئيات، إلا لأن الآخرين من الحضارات الأخرى، وعلى رأسها مصر، من حولهم، قاموا بذلك الجهد، ولو حدث وكان اليونان هم من بدأوا الحضارة من أول خطواتها، فلربما ما نظروا إلى الكل ولا سعوا إلى النظر من أجل النظر، بل ربما ما استطاعوا أن يفعلوا شيئا ذا بال، ولبقوا على حالة التوحش أو البدائية التي بقيت عليها كل أوروبا، وذلك لافتقارهم إلى الموارد بأنواعها، من بشر وثروات وظروف مناسبة، وهو ما حدث في مصر وسومر على التحديد، فلولا الحضارات السابقة على اليونان التي تراكمت عندها المعارف والعمليات والآلات والثروات لما ظهر اليونان ولما استطاعوا فعل شيء.

وينتج عن الاهتمام بالنظر أولا بروز شديد لمفهوم «الحقيقة»، وهو يظهر من البداية عند فلاسفة أيونيا على هيئة «البحث عن طبيعة الأشياء»، ثم يظهرمستقلا وباسم الحقيقة على نحو واضح منذ 450 ق.م على الخصوص، إن لم يكن قبل ذلك عند بارمنيدس بالفعل وغيره، عندما أنكر السفسطائيون وجود الحقيقة وإمكان اليقين، وقال سقراط بعكس ذلك: بأن الحقيقة موجودة، والمعرفة اليقينية ممكنة، وفي إثره سار أفلاطون وأرسطو. ويمكن لنا، إن شئنا، أن نفسر كلا الموقفين من الحقيقة واليقين، إنكارا وإثباتا، بواقع الحياة اليونانية إنْ فيما بين المدن بعضها وبعض، فمعظم الوقت هي في خلاف وفي حروب، وإنْ في داخل كل مدينة على حدة، باستثناء استقرار مدن نادرة مثل إسبرطة، حيث تنازع الأحزاب وتنافس الشخصيات البارزة على مقاعد الرئاسة والانقلابات المتواترة من حيث نظام الحكم داخل المدينة نفسها: فهؤلاء الذين ينفون وجود الحقيقة وإمكان اليقين يعبرون عن الأمر الواقع ويذعنون له و«يُنظِّرون» بما يناسبه، وأما المثبتون فإنهم يرفضون الواقع ويتطلعون إلى عالم الثبات، إن وجوديا في الحقيقة، وإن معرفيا في اليقين.

أخيرا، في هذا العرض السريع لعوامل ظهور الفلسفة عند اليونان، لا ينبغي أن ننسى دور وجود الشخصيات القوية التي ترتفع فوق أواسط الناس وأغمارهم وتضع لنفسها هدفا عاليا ورسالة صعبة، وتبذل في سبيل ذلك كل الحماس وكل الجهد. وبالفعل، فإن بلاد اليونان، بدءا من نحو عام 600 ق.م. سعدت بظهور شخصيات قوية في جميع مجالات الحضارة، وما قام هؤلاء إلا لأن الظروف والعوامل المختلفة التي أشرنا إلى أهمها قد ساعدتهم، لكن قوة

شخصياتهم ساعدت، في المقابل، تلك الظروف والعوامل على أن تكون منتجة وفعالة وأن تتجسد في إنشاءات عظيمة مادية ومعنوية في كل المجالات الحضارية.

د - لماذا ظهرت الفلسفة في أيونيا أولا؟

قلنا إن أول من سيسميه اليونان «فيلسوفا» هو طاليس (Thales)، من مدينة مِلْطِيَة، كبرى مدن منطقة أيونيا في عصره، وقد تبعه من المدينة نفسها تلميذان أو تابعان هما أنكسِماندريس (Anaximander)، ثم أنكسامينيس (Anaxamenes)، وقد قال الأول إن المبدأ الأول الذي تكونت منه كل الأشياء هو الماء، وقال الثاني إنه مبدأ غير محدد وإنما فيه شيء من كل شيء، ثم قال الثالث إنه الهواء، وهم يسمون معا «المدرسة الملطية»، وهي أولى المدارس الأيونية من جهة، وأولى مدارس «الفلسفة الطبيعية» من جهة أخرى، ويشتركون جميعا في القول بمبدأ واحد، فمذهبهم «واحدي» وليس «تعدديا» من حيث عدد المبادئ الأولى، كما يشتركون في أنهم اجتهدوا في إبداء حججهم العقلية على صواب ما يتقدمون به، كما انتقد الثاني والثالث كل منهما سابقه وأبدى دواعي عدم موافقته على ما تقدم به. ويهمنا الآن أن نجيب عن السؤال المطروح: لماذا في أيونيا أولا؟ والإجابة واضحة ميسرة: لأنها كانت منطقة المدن اليونانية الأكثر ازدهارا اقتصاديا وتقدما سياسيا من حيث تنظيم أسلوب الحكم فيها، ويعود ازدهارها إلى تجمع الثروات فيها أكثر من غيرها، نتيجة للنشاط التجاري الكبير مع موانئ شرقي البحر المتوسط وجنوبه بخاصة، فضلا عن المدن والجزر اليونانية الأخرى، وهذا النشاط نفسه أدى إلى اتساع صلات الأيونيين عامة، وسكان ملطيه خاصة، أكبر مدنهم في بداية القرن السادس ق.م، مع حضارات البحر المتوسط في مجموعها وشرقي شبه جزيرة آسيا الصغرى حتى بلاد الرافدين. هذه الاتصالات كانت تجارية وإنسانية، وكانت علمية ومعرفية أيضا، فيقال مثلا عن طاليس، وكان مهندسا، إنه نقل المعارف الرياضية والفلكية التي عند المصريين إلى اليونان. ومن الجدير بالذكر أن هناك علاقات وثيقة دائمة بين أثينا وكل أيونيا، لأن الأيونيين الأصليين الذين نزلوا إلى أرض اليونان القارية في أولى فترات الهجرات الأولى، وقد يكون ذلك في القرون الأولى من الألف الثانية ق.م في بعض الآراء، وسكنوا شمال شبه جزيرة البيلوبونيز، فيكون أصل الأثينيين هم الأيونيين الأولين، هؤلاء إذن وقعوا تحت ضغط الغزو المدمر للقبائل المهاجرة الجديدة، قبائل الدوريين (Dorians)، واضطروا، نحو عام 1000 ق.م، إلى عبور بحر إيجه شرقا واستقروا في المنطقة التي ستعرف باسمهم من بعد، ولهذا ستهتم أثينا سياسيا واقتصاديا دائما بعلاقاتها مع المدن الأيونية، وستهب لنجدتها عند الغزو الفارسي المنظم لأيونيا، فتقوم بسبب هذا الحرب الفارسية - اليونانية الكبرى التي ستمتد إجمالا لخمسين عاما بين 500 و450 ق.م. ومن أهم الفلاسفة الذين سيظهرون في أيونيا أيضا هيراقليطس الفيلسوف العظيم صاحب التأثير الممتد والمتجدد (حتى هيجل

وماركس الألمانيين في القرن التاسع عشر الميلادي في أوروبا)، ابن مدينة إفسوس التي أصبحت، بعد غزو قورش (Cyrus) ملك الفرس عام 454 ق.م. لمدينة ملطية، أصبحت أهم مدن أيونيا، وكانت دائما في منافسة مع ملطيه على كل حال.

وقد انتقلت الفلسفة من أيونيا إلى جنوب إيطاليا، وبجوارها جزيرة صقلية ذات الأهمية الدائمة، للمرة الأولى على يد أحد أبناء أيونيا، من جزيرة ساموس التي لا تبعد عن الساحل الأيوني إلا بأكثر قليلا من الكيلومترين، وهو فيثاغورس الشهير (نحو 570 - نحو 500 ق.م.)، الذي يبدو أنه نُفي من مدينته فسافر، حاملا معه في حقائبه مجمل المعرفة والآراء الأيونية حتى نحو عام 550 ق.م. على الأقل، لكنه قام بتحويل اتجاه الفلسفة الطبيعية إلى وجهة جديدة تماما ومختلفة كثيرا عن وجهات المدارس الفلسفية الأيونية جميعا، والتي اهتمت بتحديد المبدأ الأول على هيئة مادة ما، حيث قال فيثاغورس بهذا الفتح العظيم العبقري: إنما مبادئ الأشياء أعداد وأشكال هندسية، وهو رأي يعد استمرارا للأسس التي قامت عليها كل المنجزات المصرية البارزة في العمارة وغيرها. (يلاحظ أنه ينسب إلى معظم فلاسفة اليونان زيارة مصر، من طاليس حتى أفلاطون).

وهنا أيضا، في جنوب إيطاليا، حيث مستعمرات يونانية عديدة غنية، أي مدن جديدة أنشأها يونانيون هاجروا من مدنهم في أيونيا وجزر بحر إيجه واليونان القارية، إما منفيين وإما بأمر تلك المدن، وبلغ من أهميتها أن سمى اليونان تلك المنطقة باسم «اليونان الكبرى» (ولا أهمية في الوقت الذي نحن بصدده لا لإيطاليا، ولا لروما، التي كانت عند ذلك قرية شبه مهملة أو قرب ذلك)، نقول: هنا أيضا كان الازدهار السياسي والاقتصادي وروح الانفتاح الذهني أسبابا لظهور عدة مدارس فلسفية ما بين 550 ق.م. و470 ق.م. وكلها تندرج تحت الاسم العام: «الفلسفة الطبيعية»، وإن ميز بعض المؤرخين بين المجموعة الأيونية من جهة والمجموعة «الإيطالية» (وهذه التسمية نجدها عند أرسطو نفسه) من جهة أخرى، وإن كان يقصد بها أحيانا المدرسة الفيثاغورية بالأخص.

واستيفاءً لهذا الحديث حول مدارس الفلسفة الطبيعية في أيونيا وفي «اليونان الكبرى»، نعرض الآن سريعا لأهم الآراء التي ظهرت في هذا الإطار الذي يمتد زمنيا ما بين 600 ق.م. و450 ق.م.

وقد اعتاد المؤرخون، منذ قديم، أن يقدموا للحديث عن الفلاسفة الطبيعيين بالإشارة إلى مجموعة من «الحكماء السبعة» التي تقف كحلقة انفصال واتصال معا: انفصال عن الفكر التقليدي الذي تسيطر عليه أعمال القوى الإلهية والذي تحتويه قصائد الشعراء، واتصال مع بدايات الفلسفة بالمعنى الصحيح، حتى إن طاليس يوجد في قوائم الحكماء السبعة مع إعلانه أول الفلاسفة. وهناك تعدادات مختلفة لسبعتهم، لكن كل القوائم تجمع على اسمين على

الأقل: طاليس الملطي وسولون الأثيني (الذي ربما يعد بهذا أول مشاركة أثينية في ميدان الفكر اليوناني بالمعنى الواسع)، وتأتي أهمية هؤلاء «الحكماء» من أنهم وضعوا جانبا الاهتمام بأصول الآلهة وعلاقاتها فيما بينها، وخصوا السلوك العملي والخلقي باهتمامهم، ومن أنهم وضعوا لهذا الغرض حكما قصيرة يسهل حفظها من أجل هداية السلوك وتوجيه الخلق، ومنها: «لا تتكلم بأحسن مما فاه به والداك»، «لا تتسرع في اتخاذ الأصدقاء»، وبخاصة: «لا إفراط ولا تفريط»، وغير ذلك.

قلنا إن أول الفلاسفة الطبيعيين طاليس من مدينة ملطية في منطقة أيونيا (ازدهر عام 585 ق.م). وقد توصل، من خلال استقراء الطبيعة المحيطة وربما كذلك بما سمع عن أهمية المياه في تكون الكون عند المصريين، تقول إنه توصل إلى أن مبدأ كل شيء هو الماء، وأهمية هذا القول تقوم في أنه حاول البرهنة عليه بالوقائع الظاهرة، وأنه تعميم وتأصيل، وربما بالأخص في أنه لم يعتمد فيه على سلطة هوميروس أو هزيود أو غيرهما، أي على التقاليد، بل على فكره الخاص، ثم جاء تلميذه أو تابعه أنكسماندريس (ازدهر نحو 560 ق.م). واختلف مع الأستاذ وقدم البراهين على أن المبدأ ينبغي ألا يكون على هيئة معينة من المواد المعروفة، بل هو «اللامتعين» أو «اللا محدد» أو «الأبيرون» نقلا عن الكلمة اليونانية المقابلة، وذلك حتى يستطيع أن يُخرج كل شيء آخر محدد أو متعين، لكن ها هو تلميذه أو تابعه أو صاحبه هو نفسه الملطي الثالث أنكسامينيس (ازدهر نحو عام 540 ق.م.) ليختلف عن كل من مواطنيه السابقين على درب البحث عن أصول الكون، وليقول: إنما الهواء هو مبدأ كل الأشياء، وسوغ هذا التقرير أن الهواء هو المادة القادرة على النفاذ إلى كل شيء، كما قال إن الأشياء تنشأ بالتكاثف وتفنى بالتخلخل. إن المهم في هذا الابتداء الفلسفي، ولو بدا ساذجا، لكنه كان عظيما في عصره، هو أنه تم بالاستقلال عن أي سلطات إلا الفكر الإنساني، وأنه اتسم بالعمومية وحاول الوصول إلى مبادئ وأصول، كما أن اختلاف الثلاثة تجسيد لمبدأ حرية التفكير، والذي يقوم من ورائه استقلال كل فرد إنساني، كما أنه تجسيد أيضا أو قبول واقعي بتعددية الفكر، حيث المهم في النهاية هو تقديم التسويغ أو الدليل أو البرهان، وقد ظهر في أيونيا أيضا، لكن بعد بعض الوقت وفي مدينة إفسوس Ephesus التي ستصبح أهم مدن أيونيا وأغناها بعد وقوع ملطية تحت سيطرة الفرس، مفكر عميق هو هيراقليطس Heraclitus (ازدهر نحو 500 ق.م)، وقد قال بمادة هي أصل الأشياء جميعا مثل الملطيين، ورأى أنها النار، لكن الجديد حقا عنده هو قوله إن النار هي الوجه المتعين لمبدأ غير مادي هو «اللوجوس» (Logos)، أي «العقل» أو «القانون العام»، وهو أيضا نوع من الألوهية الأعلى، وهو الذي يحكم كل شيء وإليه يعود كل شيء، وهو الذي يفرض قانونه أن يكون كل شيء في تغير دائم، وأن يكون الصراع والحرب أب كل شيء، غير أنه يحكم أيضا، أي ذلك القانون الكوني والعام، أن

كل ما في العالم متآلف ومتناغم مع كل شيء (فكرة الانسجام العام، أو «الهارمونيا» بحسب الكلمة اليونانية): «يجهل الناس كيف يكون الشيء مختلفا ومتفقا مع نفسه، فالائتلاف يقوم على الشد والجذب بين الأضداد كالحال في القوس والقيثارة»(9).

وإذا انتقلنا الآن، مع بندول ساعة الثقافة اليونانية، من أيونيا في المشرق إلى جنوب إيطاليا (أو «اليونان الكبرى» كما سماها اليونان متأخرا فيما بعد) في المغرب من مدن الحضارة اليونانية، وجدنا عبقريا آخر هو فيثاغورس Pythagoras (ازدهر نحو 540 - 530 ق.م.)، هو نفسه أيوني الأصل، لكنه ترك موطنه لأسباب تتصل، على ما يبدو، بالصراع السياسي فيها، وسافر إلى مستعمرات جنوب إيطاليا اليونانية (ولنلاحظ عابرين، مرة أخرى، أن روما الآن ليس لها اسم يذكر، بل هي أقرب إلى القرية بغير ذكر)، وأقام في «كروتونا» مدرسة علمية وفلسفية ودينية وأخلاقية معا، ثم ستصبح كالحزب السياسي أيضا من بعد. وسيتواصل هذا الحزب إلى تولي الحكم في المدينة، لكنه، أي ذلك الحزب الفيثاغوري، وفيما بعد عصر المؤسس، حكم بالحديد والنار، محاولا - على ما يظهر - فرض أفكاره على الجميع، وانتهت الحال به إلى قيام ثورة عليه وعلى المدرسة الفيثاغورية التي أُحرق مقرها وقُتل من قتل من أتباعها وهرب من هرب.

فيثاغورس هذا قدم هو الآخر تصورا جديدا تماما بالقياس إلى اتجاهات الأيونيين الطبيعية: فقد قال إن أصول الأشياء ليست مادة ما، ولا شيئا متعينا، بل هي «الأعداد»، ويقصد بها الأعداد والأشكال الهندسية معا، وأن كل شيء يتكون بالتوافق (الهارمونيا) وبالتناسب بين عناصر عددية مختلفة أو حتى متضادة. ومن أخطر ما قامت به المدرسة الفيثاغورية والتي كانت «مدرسة» بالمعنى الدقيق، وأول نموذج يوناني لهذه المؤسسة العلمية والتربوية معا، أنها أخذت بآراء نحلة دينية سبق أن أشرنا إليها، وهي «الأورفية» أو «المذهب الأورفي» نسبة إلى أورفيوس Orpheus الشاعر الأسطوري أو شبه الأسطوري، وآراؤها الدينية ذات أصل فينيقي غالبا، ومركزها هو الفصل الحاسم بين النفس والجسم كالفصل بين الخير والشر، وعلى النفس «التطهر» من ارتباطها بالجسم من أجل «الخلاص» منه، حتى تضمن لنفسها البقاء إلى جوار الآلهة، وهي كلها آراء «غير يونانية» بالمعنى الدقيق للتعبير، وسيأخذ بها سقراط فيما يبدو وأفلاطون على اليقين، لأن الاتجاه اليوناني الأساسي والسائد هو الاهتمام بهذا العالم وبهذا الإنسان وبهذا الجسم الجميل (ولننظر إلى التماثيل اليونانية في العصر الكلاسيكي)، وبهذه الحياة، وليس بغيرها، فما كانت النفْس عند اليوناني المتوسط والتقليدي إلا مجرد «نفَس» يخرج من الجسم عند الموت، فيفنى، حتى نشر أفلاطون أفكاره الجديدة في «فيدون» على الخصوص، وهي كما سيتضح مما قلناه إنها «غير يونانية» على الدقة.

وفي جنوب إيطاليا أيضا سيظهر أعظم معارض ومناقض لهيراقليطس، وهو بارمنيدس Parmenides (ازدهر نحو 475 ق.م.)، الذي رفض القول بالتعدد والتغير، وقال بالواحد المطلق

الذي هو في ثبات دائم وفي سكون، فنفى بذلك الحركة والزمان والنشأة والفناء جميعا، وهذا كله انطلاقا من مبدأ بسيط قوي: «الوجود موجود، واللاوجود غير موجود»، ومنه استنبط كل فلسفته (والاستنباط هو منهج الرياضيات، والأغلب أن بارمنيدس كان على صلة قوية بالجماعة الفيثاغورية). وفي جزيرة صقلية المجاورة، سيظهر أنبادوقليس Empedocles (ازدهر نحو 450 ق.م.)، الذي سيقول بالعناصر الأربعة معا أصولا ومبادئ لكل شيء (التراب والماء والهواء والنار)، لكن كل واحد منها واحد ثابت لا يتغير، فهو قد جمع هكذا بين القول بالتعددية والقول بالواحدية والثبات، كما كانت له هو الآخر آراء دينية ذات طابع تصوفي بارز.

ثم نعود أخيرا من المغرب إلى المشرق اليوناني مع أنكساجوراس Anaxagoras (ازدهر نحو 460 ق.م.)، من كلازوميناي في أيونيا، الذي سيقول بالتعدد المطلق وبانقسام كل شيء إلى ما لا نهاية له، وأن كل شيء موجود في كل شيء، وأن أصول الأشياء هي بذور متميزة لكل شيء نعرفه، وهي تتداخل فيما بينها فتركب الأشياء وتتسمى بحسب البذرة الأغلب عليها، لكنه أضاف إلى ذلك إضافة مهمة، وهي أن هناك «عقلا» (Nous) يحكم كل شيء، وهو مصدر الحركة والنظام في الكون كله، ثم يظهر أيضا مذهب عظيم هو المذهب الذري الذي سيفصل القول فيه ثاني فلاسفته، وهو ديمقريطس Democritus (ازدهر نحو 420 ق.م.)، من أبديرا في منطقة تراقيا، والقريبة من أيونيا، حيث تقول الفلسفة الذرية إن أصول الأشياء هي ذرات لا تنقسم (Atomoi)، وهي لا نهاية لعددها، لكن لكل ذرة نفس خصائص «الموجودة» عند بارمنيدس، أي الوحدة والثبات، ومن حركتها واتصالها بعضها ببعض تتألف الأشياء وتتشأ وتتقسم وتفنى، وفي مواجهتها يوجد «الفراغ». وهذا المذهب أول مذهب مادي ميكانيكي تماما يظهر عند اليونان، وربما كان وحيدا في فئته عندهم، لأنه ينفي كل تأثير لـ «عقل» أو ما شابه على حركة الكون، ولهذا فإنه سيكون موضع هجوم شديد، وبالأخص من جانب أفلاطون.

ثانيا: أثينا تستقبل الفلسفة

القرن الخامس ق.م (499 - 400)، وابتداء من عام 480 ق.م. تحديدا، هو عصر مجد أثينا العظيم، وهي في منتصفه تستقبل الفلاسفة والسفسطائيين في الوقت نفسه الذي تزدهر فيه المدينة ثروة و«ديموقراطية» و«سيطرة» على كثير من المدن الأخرى، ويأخذ الشعر المسرحي فيها، إن في التراجيديا أو في الكوميديا، في الارتفاع إلى عنان السماء، وتزدان المدينة بأعلى صور الفن التشكيلي من عمارة ونحت وما شابه، إلى غير ذلك من مظاهر القوة العالية. وننبه من البداية إلى ضرورة التمييز بين «أثينا» المدينة و«أثينا» الإلهة الراعية للمدينة والتي سميت المدينة على اسمها، وقد كرس لها الأثينيون أعظم معابد الأكروبوليس (القلعة) في أثينا، والباقي إلى اليوم، وبه يتفاخر أبناؤها، وهو معبد «البارثينون» («معبد العذراء») كناية عن تلك

الإلهة)، الواقع على أعلى بقعة في الأكروبوليس، والذي صمم على النسق أو الطراز الدوري في أجمل صوره، وهناك إشارات إلى أن موقع أثينا كان مشغولا بشريا منذ عصور قديمة، وكذلك موقع الأكروبوليس فيها، ولا شك في أنها كانت مسكونة قبل بداية الحضارة اليونانية بكثير، وقد مر عليها في العصر اليوناني الحكم الملكي والأرستقراطي وحكم الطغاة، حتى استقرت بها الحال مع نظام الحكم الديموقراطي منذ العام 462 ق.م تحديدا، ويعود التطور الحقيقي المتصل لتنظيمها السياسي الذي يمكن تتبع آثاره إلى عهد سولون (نحو 640 - 560 ق.م.)، وهو سياسي من طبقة الأرستقراطية وقائد عسكري ومشرع قوانين، وجاء إلى الحكم وقيادة المدينة بعد فترة من الأزمات الشديدة بين الحكام الأرستقراطيين القساة والشعب الراغب في امتلاك السيطرة على السلطة والتشريع والاقتصاد. ومن أهم ما قام به سولون وضع البدايات الأولى الخجولة لنظام حكم ديموقراطي، ووضع تشريعات مكتوبة ملزمة للجميع في مواجهة تعسف القضاة الذين كانوا يقضون بغير نصوص ملزمة. وقد بدأ نجمه يلمع منذ عام 612 ق.م. وعين حاكما عام 594 ق.م، وعمره نحو الخمسين، وتمتع باحترام دائم ومن الجميع، كما أنه، كما سبق أن أشرنا، يعد ضمن مجموعة «الحكماء السبعة» المشهورة، وهم من جاءوا تمهيدا لقيام الفلسفة. ومهما يكن من تاريخ أثينا الداخلي خلال القرن السادس ق.م، فإن تاريخها كفاعل أساسي في الحياة اليونانية إنما يبدأ مع بداية القرن الخامس كما أشرنا، حين هبت لنصرة مدن أيونيا المهددة بالخضوع جميعا للاحتلال الفارسي، وتعرضت هي نفسها في عقر دارها للهجوم الفارسي بقيادة الملك داريوس Darius، الذي حطم أهم ما فيها، ومع ذلك فقد انتصر اليونان على الفرس بقيادة أثينا، التي تحملت معظم مصروفات الحرب، في معركتي ماراثون البرية (490 ق.م.) وبخاصة سالاميس البحرية (480 ق.م.)، ومع هذا الانتصار الحاسم تحددت مكانة أثينا كمدينة أولى بين مدن اليونان، ومهما يكن من أمر مواقف منافستها التقليدية الدائمة إسبرطة، التي كانت تعتبر قبل أثينا أعظم المدن اليونانية، وتجسدت هذه المكانة في «حلف ديلوس» بقيادتها (478 ق.م.)، والذي يقال إنها معه أصبحت عاصمة لإمبراطورية هي المتحكمة فيها سياسيا وعسكريا واقتصاديا وماليا. ثم أخذت الأمور تتحرك في داخل أثينا، حتى استقر النظام الديموقراطي في العام 462 ق.م.، كما قلنا، حين أعد بيريكليز، مع غيره، إصلاحا سياسيا وصل بالديموقراطية الأثينية إلى كمالها، فالمواطنون هم الذين يحكمون أنفسهم بأنفسهم، وفُتح باب تولي المناصب السياسية أمام الجميع من كل الطبقات، حيث يتم الاختيار بالانتخاب، كما أصبح التعيين في بعض المناصب يتم بالقرعة دفعا لأي تحيز ممكن، بل وتقرر دفع أجور مرتبة لقاء أداء الواجبات السياسية، لذلك اندفع الفقراء نحو القيام بتلك الواجبات، وصار هناك للجميع شكل مقابل للضمان الاجتماعي أو الحد الأدنى من الدخل تتكفل الدولة بدفعه لكل مواطن (حر بطبيعة الحال، أي مَنْ كان أثينيا من

حقه الانتخاب). لكن في العام نفسه 462 ق.م. هذا، رفضت إسبرطة عرضا للصداقة قدمه إليها حاكم أثينا في ذلك الوقت كيمون، فبدأت العداوة المفتوحة بين أثينا وإسبرطة منذ هذا التاريخ، وهي عداوة سيكون لها تأثيرها العظيم ليس فقط لقيام حروب متقطعة بينهما طوال الفترة التالية، وحتى العام 404 ق.م. عام انهزام أثينا الكلي بدخول قوات إسبرطة إليها، بل وكذلك لأنه وجد من بين المواطنين الأثينيين أنفسهم من يتعاطف مع إسبرطة [10]، أو على الأقل مع نظام الحكم فيها، وسيكون من هؤلاء سقراط، الذي كان قد ولد لثماني سنوات سابقة على 462 ق.م، وسيعدم بتناول السم بأمر القضاء الأثيني بعد خمس سنوات من عام 404 ق.م.

وقد كان من حظ بيريكليز Pericles (495 - 429 ق.م)، وربما من حقه أيضا أنه ترأس على تلك الإمبراطورية الأثينية فعليا من عام 448 ق.م إلى عام وفاته 429 ق.م. عام الطاعون الذي أصاب أثينا ومات منه بيريكليز نفسه، وإن كان تأثيره، أي بيريكليز، يمتد إلى ما قبل ذلك على نحو ما ألمحنا منذ قليل، حتى ليقال أحيانا، في شيء من التجوز، إن عصر مجد أثينا، وفي كل الجوانب، إنما هو «عصر بيريكليز». لقد قاد بيريكليز ليس فقط السياسة والتشريع والعلاقات الخارجية لأثينا، بل وكذلك سائر أوجه الثقافة الأثينية: فالمنشآت المعمارية التي تفخر بها أثينا منذ عصره وإلى اليوم، وإن أنهكت خزانة الدولة وخصوصا في فترة 440 - 430 ق.م. يعود معظمها إليه، بمساعدة مستشاره المعماري النحات الأثيني العظيم فيدياس Phidias (نحو 500 أو 490 – نحو 432 ق.م)، كما أنه كان صديقا وحاميا للفيلسوف أنكاجوراس، الأيوني الأصل، والذي جاء إلى أثينا في العام 460، وبقي بها حتى 430 ق.م. حين اضطر إلى الهرب، ربما بمساعدة بيريكليز، بعد قيام ادعاء عليه بأنه يقول إن الشمس والقمر حجران، كما أنه كان صديقا أيضا لسوفوكليز، أهم شعراء التراجيديا، ولهيرودوت، الأيوني الذي زار أثينا، والذي سيقال عنه إنه «أبوالتاريخ» وغيرهم، فلا عجب أن يلقب بـ «راعي الفنون والآداب والفكر». لقد كان بيريكليز سياسيا واسع الثقافة قوي الفكر وذا رؤية استراتيجية، كما كان أيضا خطيبا بارعا، ويحتفظ كتاب المؤرخ الأثيني العظيم ثوكيديدس «تاريخ حرب البيلوبونيز» بنص خطبة تأبينية ألقاها بيريكليز تأبينا للجنود الموتى بعد العام الأول من تلك الحرب، التي بدأت العام 431 ق.م. أو ينسبها إليه ذلك المؤرخ، وهي ذات بلاغة عالية وتحتوي على موجز لأهم أفكاره السياسية، وتعد من عيون النثر اليوناني الأتيكي [11]. وكان ثوكيديدس (نحو 462 - 395 ق.م.) يحترم بيريكليز، لكنه يقول إن أثينا في عهده كانت تحكم حكما ديموقراطيا بالاسم، بينما كانت تخضع لحكم «المواطن الأول»، أي بيريكليز، بالفعل.

والحق أن بيريكليز هو نفسه، على ما يبدو لنا، مفتاح قدوم الفلاسفة إلى أثينا، في إقامة ممتدة حينا، كما هي الحال مع أنكساجوراس، أو في زيارات تطول أو تقصر مع غيره. والتاريخ

الفاصل في هذا الصدد هو 460 ق.م. عام قدوم أنكساجوراس إلى أثينا، ولا توجد إشارات تدل على أن أثينا استقبلت فلاسفة، والمقصود دائما الفلاسفة الطبيعيون الذين يضعون سؤال المبدأ والأصل من أجل الوصول إلى تفسير العالم وظواهره، قبل هذا التاريخ. والسؤال الذي يتعين وضعه هنا، والذي لم نجد من يضعه بين أصحاب الدراسات الغربية التي اطلعنا عليها، هو هذا: ولمَ هذا التاريخ بالتحديد؟ ولمَ لم يأت فلاسفة من المدن الأخرى، أي من أيونيا ومن جنوب إيطاليا وصقلية حيث تركز ظهور الفلاسفة حتى ذلك الوقت، إلى أثينا قبل هذا التاريخ؟ نعم، لقد رأينا أن أثينا كانت ذات أهمية منذ أواخر القرن الساس ق.م، غير أنها لم تكن بذات ازدهار عظيم. لكن، وماذا بعد الانتصار الكبير ضد الفرس ذوي العدد والعدة في موقعة ماراثون عام 490 ق.م.؟ وبالأخص بعد الانتصار الحاسم والباهر في معركة سالاميس البحرية عام 480 ق.م.؟ إذا قيل إن الجيش الفارسي كان قد حطم المدينة تحطيما في 490 ق.م فانشغلت أثينا بإعادة البناء وتضميد الجراح مطمئنة إلى بقاء قوتها البحرية كاملة سليمة لم تمس، وهي التي بها ستتجح في إلحاق هزيمة مدوية بالفرس في البحر بعد ذلك بعشرة أعوام في 480 ق.م. فبعد هذا التاريخ الأخير، الذي يرى فيه كثرة من المؤرخين بداية «العصر الكلاسيكي» في الثقافة اليونانية، لم لم يأت الفلاسفة إليها؟ أو على الأقل لِمَ لا تصلنا أخبار عن ذلك، حتى لننتظر من 480 ق.م إلى 460 ق.م.؟ إن الفرض الذي نميل إليه، وبعد ملاحظة أن أثينا بعد 480 ق.م. وكما سبق أن أشرنا، قد أصبحت القوة الأولى عسكريا وسياسيا وتجاريا وثراء، هو أن العامل الجديد، حتى مع توافر الغنى والازدهار، إنما هو بروز شخصية بيريكليز على مسرح السياسة الأثينية بروزا واضحا منذ 462 ق.م. ويقينا عام 461 ق.م. بعد اغتيال إفيالتس Ephialtes ثم نفي كيمون Cimon في ذلك العام نفسه، حتى ليصبح، ابتداء من العام 451 ق.م، عام تقديمه إصلاحات جديدة راقت للشعب، أو بعيد ذلك بقليل، صاحب السيطرة الفعلية على السياسة الأثينية، وحتى عام موته 429 ق.م.

نعم، إن أثينا صاحبة المجد منذ العام 480 ق.م لم يأتها أحد من الفلاسفة، بحسب الكتابات القديمة التي وصلت إلينا دائما، إلا في عام 460 ق.م. والفرق عندنا يكمن، إذن، في شخصية بيريكليز التي ربما شجعت العقول الكبرى من الشرق إلى أثينا، في أيونيا، ومن الغرب منها، في «اليونان الكبرى»، على الوفود إليها، وكان أول الوافدين فيما يبدو دائما هو أنكساجوراس (500 - 428 ق.م.)، من مدينة كلازوميناي، في وسط الساحل الأيوني على التقريب وإلى الشمال من مدينة إفسوس، وذلك عام 460 ق.م. فيما تقول جمهرة المؤرخين، وإن قال بعض منهم بتاريخ 462 ق.م. نفسه وبعض آخر يرجع إلى عام 467 ق.م. وبعض ثالث إلى عام 480 ق.م. والأول هو الأرجح لأنه الأقرب إلى سن «الازدهار» التقليدي للفلاسفة، أي الأربعين عاما أو الخمسة والأربعين، فلو جاء وعمره عشرون عاما فما كان يمكن لأحد أن يرى فيه شخصا ذا

أهمية. (والحق أن من يريد الأخذ بتاريخ 480 ق.م. للقدوم إلى أثينا إنما يتابع ديوجينيز اللايرسي في ربطه بين زيارته لأثينا وهجوم كسرى Xerxes عام 480 عليها [12]، حتى ليقول بعضهم إنه إنما جاء معه، ويستطرد هؤلاء بالقول: إن طرده من أثينا بعد إقامته فيها كان من أسبابه، إلى جوار آرائه في الشمس والقمر، أنه كان ذا ميول فارسية: لكن كيف سمح له الأثينيون بالبقاء في مدينتهم ثلاثين عاما إذا كان قد جاء مع الفرس ومعاونا لهم؟ ومتى كان له أن يسيطر على العلم الأيوني السابق عليه، والذي سيقوم بنقله إلى أثينا تحديدا، إذا كان سيغادر أيونيا وعمره عشرون عاما فقط؟).

على أي حال، نقل أنكساجورس معه المعرفة الفلسفية والعلمية الأيونية، والتي تمثلت حتى عام 460 ق.م في أعضاء المدرسة الملطية الثلاثة: طاليس وأنكسماندريس وأنكسامينيس (الذين «ازدهروا» تباعا أعوام 585 و560 و540 ق.م.)، ويقال إنه كان تلميذا لأنكسامينيس،، ثم في هيراقليطس العظيم (ازدهر نحو عام 500 ق.م.)، والذي من المحتمل كثيرا أن أنكساجوراس التقاه واستمع إليه، لأن كلازوميناي، كما أشرنا، لا تبعد كثيرا عن إفسوس مدينة هيراقليطس، ونستطيع أن نتصور أن كثرة من الأثينيين استمعوا إليه خلال الثلاثين عاما التي قضاها في أثينا، مستمتعا فيما يبدو بإقامته، وربما كان منهم سقراط، لكن الشخصية المهمة ها هنا هي من جديد بيريكليز (الذي كان عمره عند قدوم أنكساجوراس خمسة وثلاثين عاما، فهو أصغر منه بخمسة أعوام)، الذي أصبح صديقا له، بل وكذلك متعلما منه (وديوجينيز اللايرسي يقول حرفيا: «تلميذه»: [13] Mathêtês أو «صاحبه»، أو «تابعه»: Disciple باللغات الأوروبية الحديثة). والطريف في هذا الصدد أن القدماء اعتبروا أن أنكساجوراس هو صاحب الفضل في رفع شأن بيريكليز، لا العكس، وعلى الرغم من أننا لا نعتقد في صحة هذا التقرير على إطلاقه، لأن بيريكليز كان كامل القوة سياسيا في عام قدوم أنكساجوراس إلى أثينا، وربما قام بدور «حاميه» بسبب صداقتهما على إثر ذلك، غير أننا لا نقاوم الرغبة في إثبات هذا النص من الكاتب الشهير بلوتارخوس Plutarch (120 - 46 ق.م.) الذي يصف فيه العلاقة بين الرجلين وتأثير الفيلسوف على السياسي: «أما الرجل الذي لازم بيريكليز وأضفى عليه ذلك الوقار الرائع الذي فاق جميع أساليب إغراء دعاة الفوضى وسما بخلقه حقا إلى أرفع درجات السمو، فهو أنكساجوراس من كلازوميناي... وكان بيريكليز معجبا بهذا الرجل إعجابا بالغا، ولما كان قد تشبع من الفلسفة العليا والتفكير الرفيع، فقد امتاز بروح تتحلى بالوقار وببيان رفيع خلو من كل قحة سوقية طائشة... وميزات كثيرة أخرى كانت تدهش مستمعيه كل الدهشة»، ويضيف عند كلامه عن خطابة بيريكليز إن هذا الأخير «كأنه كان يمزج ببيانه صباغ العلم الطبيعي مزجا حاذقا» [14]، ويقال أيضا إن بيريكليز استخدم تفسيرات أنكساجوراس العلمية استخداما ذكيا من أجل تهدئة ذعر أصاب جنود أسطول أثينا بسبب كسوف

الشمس [15]. وليس بيريكليز وحده من تعلم منه في أثينا وصار صديقا له، بل يقال كذلك إن الشاعر المسرحي التراجيدي العظيم يوريبيديز (485 - 406 ق.م.)، وهو التالي في الأهمية في التراجيديا بعد سوفوكليز (496 - 406 ق.م.)، وكلاهما أثيني، كان تلميذ أنكساجوراس، والمصدر هنا هو ديوجينيز اللايرسي من جديد [16]، ولعل اتجاه هذا الشاعر المفكر واهتمامه بوقائع الأمور قد تأثر بما عرفه عن العلم الطبيعي الأيوني. ولا شك أن طول إقامة أنكساجوراس في أثينا أتاحت له التعرف على أهم رجالها، ولا شك أن كثيرين أعجبوا به، وكان كتابه يباع في أثينا «بدراخمة» (والكلمة اليونانية أصل الكلمة العربية: «درهم») واحدة، وكان يمكن لكل من شاء أن يطلع عليه، والظاهر أن سقراط اطلع عليه [17]، وإن لم يكن من الممكن تحديد طبيعة معرفته الشخصية به، وهناك حكاية عن أن أحدهم سأله عما قد يكون هدف الفلسفة، فأجابه: «هو هدف قد يبدو لك غير معقول، إذا أنت توصلت إلى معرفته» [18]، قاصدا بيان أن الحقيقة مختلفة عن المظاهر. ويقال أيضا هذه المرة في شأن معرفته بالظواهر الجوية أنه حضر الألعاب الأولمبية التي كانت تقام في أولمبيا مرة كل أربع سنوات، وكانت مجمعا لكل اليونانيين من كل صوب، وقد دهش الناس لأنه أتى مرتديا رداء سميكا، لكن السماء أمطرت بعد قليل، فكان الوحيد الذي تحصن ضد المطر [19]. والآن لِمَ انقلب عليه بعض الأثينيين قرب نهاية إقامته في أثينا ورفع بعضهم ادعاء قضائيا عليه بتهمة إنكار الآلهة (حيث كان الدين من شأن الدولة اليونانية في كل المدن، وهذا فارق بين اليونان القديمة والغرب الحديث)؟ تذكر الروايات القديمة والتفسيرات الحديثة دافعين من حيث وقائع آراء أنكساجوراس: فهناك قوله إن «النوس Nous» (أي العقل)، هو الذي يحكم العالم، وقد فُسر هذا بأنه يعني نفي أن تكون الآلهة اليونانية هي التي تحكم الكون، ثم هناك قوله بأن الشمس والقمر إنما هما جسمان حجريان، وهو يعني أنهما ليسا كائنين حيين، وهي التهمة التي سيسارع مُتَّهِمُ سقراط بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما إلى إلصاقها بسقراط الذي سيقوم بنفيها عن نفسه وإرجاعها إلى أنكساجوراس مثبتا جهل المدعي أو سوء نيته [20]، بينما الحاصل أمامنا بعد كل شيء أنها كانت أمرا مشهورا ينسب عند العامة إلى الفلاسفة، أو «الحكماء» من دون تمييز. والرأي عندنا أن هذه الآراء الفلسفية والفلكية لا شك أنها كانت معروفة عند أنكساجوراس، إما منذ مجيئه إلى أثينا (نحو 460 ق.م.) أو بعد ذلك، فهي على ذلك ليست بالشيء الجديد الذي يطرأ وقت الادعاء (نحو 430 ق.م. أو قبيل ذلك)، فهي ليست إذن بالدافع الحقيقي، حتى وإن استخدمت بالفعل، وهو ما حدث، إنما الدوافع الحقيقية وراء اتهامه قضائيا تقف من وراء كل هذا وبأعمق منها وبأبعد عنها قليلا أيضا. أما الدافع الأعمق فهو أن جماعة الاتجاه المحافظ في أثينا، وهم موجودون دائما، وسيمثلهم في المسرح أهم شعراء الكوميديا الأثينيين أرستوفانيز، لايرضون عن انتشار اتجاه «التفكير الحر» بإزاء الدين

وبإزاء أي شيء، ومن يقول «الحر» يقول كذلك «المستقل» عن مختلف السلطات، ومن الطبيعي أن يكون هذا الموقف هو كذلك موقف العامة أو الجمهور بإزاء كل ما يصدر عن أولئك «الحكماء» الذين يقولون كلاما جديدا وغريبا، والذين سيرى فيهم سقراط، مرة أخرى، متهمه الأهم والأخطر [21] عند محاكمته هو عام 399 ق.م. وبهذا يمكن اعتبار محاكمة أنكساجوراس أول المحاكمات اليونانية بسبب «الفكر الحر» [22].

والآن، فلم اختار هؤلاء وأولئك شخص أنكساجوراس وعام 430 ق.م. بالتحديد لرفع الادعاء القضائي عليه؟ هنا نصل إلى الدافع الأبعد عن مسائل الفلك والدين، لكنه الدافع الحقيقي في رأينا، وإلى الموقف العام في أثينا في ذلك العام الأخير معا: فالذي يبدو لنا الأكثر جدارة بالتصديق هو أن اتهام الأثينيين لأنكساجوراس إنما كان موجها إلى «حاميه» و«صديقه» بيريكليز، وذلك في الوقت الذي تصاعد فيه عدم رضى الأثينيين عنه بسبب قيام الحرب الجديدة التي ستطول مع إسبرطة، والتي ستسمى اصطلاحا «حرب البيلوبونيز» (431 - 404 ق.م.)، مقترنة بالصعاب المالية للخزانة العامة بسبب إنفاقات بيريكليز المعمارية شديدة الطموح وعظيمة التكلفة معا على تزيين أثينا، وخصوصا في الأكروبوليس، إن الهجوم على أنكساجوراس إنما كان يقصد بيريكليز في الحقيقة. في ضوء هذا الافتراض نستطيع أن نفهم التفاصيل التي يهتم ديوجينيز اللايرسي بإيرادها حول محاكمة أنكساجوراس في أثينا في صفحة طويلة: فمنها قول بعضهم إن المدعي على أنكساجوراس إنما كان توكيديليز، السياسي خصم بيريكليز، وهو غير سميه المؤرخ المعروف، وأن الاتهامات لمَ تكن فقط بإنكار الآلهة، بل وكذلك بالتخابر مع الفرس، وأن الحكم عليه كان بالإعدام غيابيا، بينما يقول قول آخر إنه كان في السجن في أثينا في أثناء محاكمته، وأن بيريكليز توجه إلى الشعب في المحكمة سائلا أولا: هل من اعتراض للشعب على إدارته لشؤون الدولة خلال حياته؟ فلما كانت الإجابة بالنفي، عندئذ قال بيريكليز: «إذن، فإني تلميذ لأنكساجوراس، فلا تنصتوا إلى الافتراءات المقامة على الرجل فتحكموا عليه بالإعدام، بل استمعوا إلي وأطلقوا سراحه»، وهكذا تم إطلاق سراحه.

ومن المفهوم دائما أنه ينبغي التحوط بإزاء «الحكايات» التي يرويها كتاب التواريخ الهلينستيون، وعلى رأسهم ديوجينيز اللايرسي، لكن لا بد من محاولة التقاط ما قد تحمله من حقائق وإشارات ومغاز، المهم أن أنكساجوراس غادر أثينا، إما خفية وإما على نحو طبيعي على رؤوس الأشهاد، وأيا ما كانت نتيجة المحاكمة واتجه إلى الإقامة في مدينة لامبساكوس Lampsacos (مدينة أيونية إلى الشمال من موقع طروادة القديم)، لكنه توفي بعد عامين من مغادرته أثينا في 428 ق.م. أي بعد عام من وفاة بيريكليز نفسه.

لقد ترك أنكساجوراس أحسن الذكرى في نفوس معاصريه ومن جاء بعده من اليونان، ليس فقط لشمول نظرته واتزان أسلوبه «العلمي»، بل وكذلك لاجتهاداته الجديدة، وعلى رأسها قوله

«بالعقل» حاكما للعالم ومنظما له، وربما كان هذا الرأي هو أحد مصادر فكرة «الخير» عند أفلاطون الذي سيشير إليها في «فيدون»، ومن حيث علاقتها برأي أنكساجوراس تصريحا [23]، قبل تفصيل القول فيها بشكل مختلف ومستقل في «الجمهورية».

لقد كان أنكساجوراس «أول الغيث» في علاقة أثينا بالفلسفة [24]، حيث استقبلت بعد وصوله اثنين من أهم فلاسفة «اليونان الكبرى»، أي جنوب إيطاليا، واستقبلت بعد رحيله عنها، على الأغلب، واحدا من أعظم عقول الفكر اليوناني عموما، وربما غير هؤلاء الثلاثة أيضا. أما الأولان، فهما بارمنيدس المهيب (نحو 515 أو 500 - نحو 440 ق.م.)، وتلميذه المقرب زينون الإيلي، وكلاهما من المدرسة الإيلية، نسبة إلى مدينة إيليا، المستعمرة الواقعة على الشاطئ الغربي لجنوب إيطاليا، والتي أسسها نحو 540 ق.م بعض الأيونيين الهاربين من تهديد الفرس لأيونيا، فإن مصدرنا الوحيد عن زيارتهما لأثينا، المفترض أن تكون في نحو العام 450 أو ما ينيف على ذلك، هو أفلاطون في محاورته «بارمنيدس» باسم ذلك الفيلسوف بطل الواحدية المطلقة ونفى التعدد والكثرة، والقائل في جلال: «الوجود موجود، واللاوجود غير موجود»، وعلة تحديد 450 ق.م عاما تقريبيا للزيارة المفترضة هي أن سقراط يتناقش فيها مع زينون الإيلي المصاحب لبارمنيدس، بينما يتناقش متحاور آخر، باسم أرسطو، وهو سمي وحسب لتلميذ أفلاطون الأشهر الذي ربما دخل إلى الأكاديمية قريبا من وقت كتابة تلك المحاورة مع بارمنيدس نفسه، لكن سقراط ولد مؤكدا عام 470 ق.م. (أو فلنقل تدقيقا 470 - 469 ق.م. لأن السنوات اليونانية لا تتطابق بدقة مع سنوات التقويم الميلادي الجريجوري، وهكذا الحال مع سائر تواريخ الحضارة اليونانية)، فليس من المتصور أن يقود مناقشة شديدة الدقة مع مخترع «الجدل» الذي هو زينون وسنه أقل من العشرين، والمفترض أن تزيد. ولا نعرف بعد ذلك أي شيء عن أحداث تلك الزيارة لأثينا.

أما الزائر الآخر فهو ديمقريطس العبقري، من مدينة أبديرا الواقعة وسط الساحل الجنوبي لمنطقة تراقيا في شمال بلاد اليونان القارية، والقريبة بعض الشيء من أيونيا (ازدهر عام 435 ق.م.)، ولا نعرف شيئا عن زيارته لأثينا، عدا محض ذكرها عند ديوجينيز اللايرسي، إلا من نص قصير في الشذرة 116 من شذرات ديمقريطس، يقول إنه زار أثينا ولم يتعرف عليه أحد، والغالب أنه يشير بهذا إما إلى حب التخفي عنده وإما إلى تواضعه أو إلى الاثنين معا، والمعروف أن الحكايات تقول إن ديمقريطس قام بالعديد من الزيارات لمدن يونانية، كما يقال إنه زار مصر والبحر الأحمر (هكذا) وفارس وغير ذلك. لكن المهم في شأنه، والغريب أيضا، أن أفلاطون لا يذكره بالاسم في أي محاورة من محاوراته الكثيرة، بيد أنه ربما أشار إليه أحيانا بطريقة غير مباشرة بذكر آراء له، خصوصا أن ديمقريطس عاش حتى العام 370 ق.م. أي وسن أفلاطون تقترب من الستين، ولعل أفلاطون اعتبره منافسا يحسب حسابه،

خصوصا أن ديمقريطس ألف عشرات الرسائل، لكن لم تصلنا منها مع الأسف إلا شذرات (أي نصوص قصيرة مقتطعة من مؤلفات) محدودة العدد.

وفيما يخص الفيلسوف المتميز متعدد المواهب والاهتمامات أنبادوقليس (نحو 500 - 430 ق.م.) من مدينة أجريجنتوم المعروفة في جزيرة صقلية، فإننا لا نعرف إن كان قد زار أثينا أم لا، مع ملاحظة أنه كان ديموقراطيا متحمسا، كما أنه سافر بعد نفيه في جنوب إيطاليا وفي شبه جزيرة البيلوبونيز إلى الجنوب من أثينا، حيث توفي [25].

هذا فيما يخص آخر الكبار الثلاثة في الفلسفة الطبيعية من حيث اتصالهم، أو عدم اتصالهم، بأثينا، والمعلومات نادرة حول ما يكون قد حدث مع تلامذتهم هم أو الفلاسفة السابقين عليهم، فيما عدا أعضاء المدرسة الفيثاغورية الذين كثرت زيارات بعضهم، من أجيال مختلفة، لأثينا، وهو ما تشهد عليه محاورات لأفلاطون، أهمها «فيدون»، كما أنه من الجدير بالذكر أن أحد معلمي أفلاطون قبل التقائه بسقراط وربما بوقت ما كان من أتباع فلسفة هيراقليطس، وهو أقراطيلوس Cratylus، ولأفلاطون محاورة عن اللغة سماها باسمه.

هذا عن الفلاسفة الطبيعيين في صلاتهم بأثينا، لكن أثينا قام الناس فيها ولم يقعدوا أمام طوفان من زيارات طائفة ثانية من المفكرين والعلماء الذين - وإن لم يكونوا «فلاسفة» بالمعنى الدقيق، أي لا بالمعنى الطبيعي السابق ولا بالمعنى السقراطي التالي - اعتُبروا على حافة الفلسفة، أو كفلاسفة عند من يريد توسعة مفهوم الاصطلاح، حيث إن لبعضهم مشاركات تدخل في بعض ميادين الفلسفة، مثل نظرية المعرفة، بل ونظرية الوجود نفسها من وجه ما، ونظريات التربية والإنسان والحضارة والسياسة والقانون والأخلاق وغايات الحياة، فضلا عن كلام بعضهم في أصول اللغة والنحو والبلاغة والخطابة وطرق المجادلة، مع مشاركة كثيرين منهم في عمل التشريعات لهذه المدينة أو تلك، حتى إنهم أصبحوا موضوعا لدراسة لا سبيل إلى تجنبها في كل تاريخ للفلسفة اليونانية، في الغرب الحديث أو عندنا اليوم مشيا على السُّنة نفسها، وتؤلف كتب مفردة عنهم او عن بعض أفرادهم، وإن لم يسمُّوا، لا في القديم ولا في الحديث، «فلاسفة»، بل سُموا وتسمَّوا باسم Sophoi جمع Sophos، أي «عالم» أو لنقل «حكيم»، وهي الترجمة التقليدية غير الدقيقة عموما أو يكاد. هؤلاء هم «السفسطائيون»، جمع «سفسطائي» بالعربية المقابل لـ Sophistê's باليونانية، وهذه هي التسمية الثانية والأغلب عليهم والتي سموا أيضا وتسموا بها، وتعني الكلمة «المتخصص البارع المحيط بفن ما، أي بدراسة أو بممارسة ما». هذه التسمية العامة بعض الشيء، حيث كان يمكن ليوناني في عصر بيريكليز أن يقول عنه إنه Sophistes في فن السياسة، وعن فيدياس Phidias الشهير إنه كذلك في فن العمارة وفن النحت وهكذا، نقول إن هذه التسمية العامة أخذت في التخصص لتطبق على الأغلب عليهم وحدهم باعتبارهم «علماء معلمين» لمختلف الفنون التي تؤدي السيطرة

عليها إلى قدرة الفرد المتعلم عندهم على النجاح في حياته الخاصة وفي تلك العامة، أي الاجتماعية والسياسية بالأخص. وهكذا، فإنهم كانوا، بصفة عامة، معلمين لـ «الفضيلة»، المقابل العربي للكلمة اليونانية شديدة الخصوصية Aretê'، والتي كانت ترجمتها الأوروبية المعتادة هي Vitue وVirtu الأصل اللاتيني ذاته، حتى اقترح بعض الكتاب بالإنجليزية، منذ نحو خمسين عاما، التحول إلى لفظ Merit من دون فائدة كبيرة، فيما نظن، للدارس والقارئ الباحث عن «الفهم». والحق أن الكلمة العربية ليست بغير مسوغ، ليس فقط لأن الكلمة اليونانية تعني في بعض استخداماتها الاتجاه الخلقي المعبر عنه في الكلمة العربية، بل وكذلك لأن اللفظ اليوناني كان يعني في معناه الابتدائي والأساسي «حسن أداء الوظائف»، أي أن تكون بالغا درجة عالية في أداء وظيفة كذا، ومن هنا أن تبلغ «الفضل». أي الزيادة، بالقياس إلى الآخرين، فَتَفْضُل عليهم، وتكون «فاضلا»، هذا هو المقصود في قولنا إلى اليوم أحيانا: «هذا المدرس الفاضل»، هذا التخصص العام، «تعليم الفضيلة» [26]، هو الذي جعلهم يدرسون جميع ميادين المعرفة المتصلة بالإنسان، من تربية إلى لغة إلى خطابة إلى «موسيقى» (لكن بمعنى «الثقافة العامة») إلى الرياضيات أحيانا أو علم الفلك، حتى إن بعضهم، في الجيل الثاني أو الثالث منهم، ألف كتبا في فن الطبخ وفي الألعاب الرياضية وفي الأنساب، إلى غير ذلك.

وبصفة عامة، فإنه يمكن أن ينظر إليهم باعتبارهم دعاة «التخصص» في الإنسانيات عموما، وبداية ما يسمى اليوم «العلوم الإنسانية» بخاصة.

هذا عن التعريف العام بهم، لكن: كيف ظهروا؟ وما العوامل التي أدت إلى ظهورهم كضرورة ثقافية في هذا الوقت الذي أصبحوا فيه ظاهرة قومية بين كل مدن اليونان، وعلى رأسها وأولها أثينا؟ (للأسباب التي سنذكرها في مكانها).

لقد كان هناك في مقدمة العوامل المؤثرة في توجيه حركة العصر الذي نحن بسبيل الحديث عنه (450 - 400 ق.م.) تغييران ضخمان حدثا معا، وربما لم يكن مصادفة أن يأتي الثاني منهما على إثر الأول، أما العامل الأول والأضخم، ولعله الأهم مطلقا، فإنه انتصار اليونان الموزعين على مدن متناثرة بين اليونان القارية وجزر بحر إيجه ومنطقة أيونيا (ولندع الآن مدن المغرب المتوسطي في جنوب إيطاليا وصقلية وما حولهما من الشواطئ)، والضعاف نسبيا عددا وعدة وثروة، انتصارهم على أكبر قوة حربية وسياسية ومالية مسيطرة، العام 500 ق.م، على المشرق كله من مقرها الأصلي في فارس إلى شرقي البحر المتوسط كله من شماله في أيونيا إلى شرقه في سورية إلى جنوبه (حيث كان قمبيز الطاغية الشرير بحسب شهرته عند اليونان قد غزا مصر عام 525 ق.م. وأنهى حكمها المستقل نهائيا، حيث بقيت خاضعة لحكم الفرس مائتي عام، حتى جاء الإسكندر ليخرجها من حكم الفرس إلى حكم اليونان المقدونيين العام 332 ق.م.)، وقد ذكرنا أن الحرب الكبرى هذه، التي أراد الفرس بها،

بعد السيطرة على مدن أيونيا، أرادوا إخضاع مدن اليونان القارية نفسها واحتلالها، هذه الحرب بدأت عام 499 ق.م بثورة أيونية ضدهم، وكررنا الإشارة إلى الانتصارين اليونانيين الكبيرين، وبفضل أثينا إلى درجة كبيرة في ماراثون (490 ق.م.) وسالاميس (480 ق.م.)، لكن المعارك استمرت بعد ذلك، ولم يندحر الفرس نهائيا ورسميا إلا في منتصف القرن، مع «سلام كالياس» (450 ق.م.). لقد كان لهذا الانتصار دوي هائل بين اليونان الذين كانت «الحسابات» الصغيرة لا تؤهلهم له، حتى إن كاهنة معبد الإله أبوللون في دلفي كانت قد تنبأت بانتصار الفرس، وهو ما يعني أن بعض الآلهة اليونانية نفسها كانت معهم تناصرهم، وها هم ينهزمون وينتصر اليونان الممتلئون حماسة للدفاع عن حرياتهم والخبراء في شأن البحر والسفن الحربية: لقد امتلأ اليونان فخرا ووصلت إلى قمتها ثقتهم بأنفسهم، خصوصا في أثينا، حتى ليمكن أن نقول إن المغزى الثقافي الأكبر للانتصار غير المتوقع هو الثقة في «الإنسان»، «أعظم الكائنات»، كما سيقول سوفوكليز في مسرحية «أنتيجونا»، فهل نستغرب إذن، من بعد ذلك، أن يضعف سلطان الآلهة وسلطان الدين من ناحية، وأن تتحول الأذهان المفكرة من الاهتمام بالعالم والكون إلى الاهتمام بـ «الإنسان»؟ هذا المطلب الأخير جعل من الضروري ظهور جماعة تقوم بما يمليه وما يتطلبه هذا الوضع الجديد من وظائف: هذه الجماعة هي جماعة السفسطائيين.

ثم يأتي العامل الكبير الثاني من عوامل تحديد توجهات العصر، وهو عامل انتصار الديموقراطية الحاسم في أثينا واكتمال تنظيمها فيها عام 462 ق.م. وهو ما قدم البنية التحتية الضرورية لانتشار الحركة السفسطائية ولتأثيرها العظيم، والذي هو نفسه، ولو جانبيا، إحدى نتائج الانتصار على الفرس، لأن من حقق النصر إنما هم البشر وكل المحاربين، وليس فئة من الحكام والقواد الأرستقراطيين، وسرعان ما استطاع بيريكليز وضع الحزب الديموقراطي في مركز السيطرة على شؤون أثينا ابتداء من عام 462 ق.م. نفسه، ولما كانت أثينا هي قائدة كل اليونان فعليا، فضلا عن كونها زعيمة حلف ديلوس، فإن نظام الحكم الديموقراطي أخذ ينتشر ويترسخ في مدن أخرى وراء مدن، وإن بقيت إسبرطة دائما معقلا لنظام حكم الأقلية المتميزة.

إن أهم ما في نظام الحكم الديموقراطي ثقافيا هو أنه يقوم على المساواة بين كل المواطنين، وبالتالي فإنه تقوم في أساسه ثقة أساسية بقدرة الإنسان الفرد على الحكم بقوة ذهنه وعلى السلوك المناسب لمصالحه ولمصالح المدينة، فزادت الحريات وزاد الشعور بالفردية وبالكيان المستقل لكل فرد. وهذا كله هو الخلفية المناسبة لقيام السفسطائيين بعملهم ولانتشار حركتهم ولقوة تأثيرهم. لقد كان الانتصار على الفرس انتصارا للتعددية على الواحدية والمركزية، وللحرية على الاستبداد والطغيان، وللفردية على الجماعية، وللاستقلال وكرامة الفرد على

الخضوع والبقاء عددا مهملا في مجموع تتطلع عيونه إلى الفرد الأوحد صاحب الأمر في شأن كل شيء وعلى كل أحد. وما كانت الديموقراطية الأثينية بخاصة إلا حريةً وفردية واستقلالا وقبولا لواقعة الاختلاف والتعدد، كما كانت من بعد ذلك كله ونتيجة له، إتاحة لفرص الاشتراك في السلطة أمام الجميع ومساواة بين كل المواطنين (لكن ليس بين المواطنين والعبيد و«الغرباء»، ولا بين اليونان والأجناس الأخرى، فسيبقى اليونان طويلا عنصريين من هذه الناحية، بما في ذلك عند أفلاطون وأرسطو اللذين سيسعيان، كل من ناحيته، نحو تسويغ هذه الفروق وتلك، وإن طالب أفلاطون مثلا بمعاملة خاصة لمن يقع من اليونان أسرى حرب لمدن تعادي مدنهم، فيصيرون بهذا عبيدا هم أيضا [27]، وهو ما كاد يحدث له هو نفسه بعد إحدى أسفاره إلى صقلية، حين وضع على سفينة تنتمي إلى مدينة كانت في حرب مع أثينا، وأوشك أن يباع بيع العبيد، لولا أن أنقذه أحد معارفه من اليونان بشرائه).

وبينما ينتج عامل الانتصار على الفرس وعامل رسوخ الديموقراطية في أثينا وفي غيرها من المدن الحليفة، نتائجَهما، إن تزاوجا وتداخلا وإن انفرادا، ومن أهم هذه النتائج تمام قوة أثينا وظهورها الحاسم زعيمةً لليونان وعظيم ازدهارها في كل الميادين، خصوصا من حيث عظم ثروتها بفضل اتساع التجارة وزيادة صادراتها وتوليها خزانة حلف ديلوس، وضعف القوى المعادية لها، ولنظام الحكم الديموقراطي خارجها، وتراجع أصوات المحافظين على التقاليد داخلها، وكذلك تزايد اعتبار قوة الإنسان في مواجهة الآلهة اليونانية، كما سبق أن أشرنا، نقول بينما تنتج هذه النتائج العامة عن هذين العاملين الكبيرين، يظهر ظرف جديد متزامن معهما على التقريب، لكن في ميدان الفكر والمعرفة هذه المرة: ذلك أن الفلسفة الطبيعية تصل نحو عام 450 ق.م إلى أقصى مداها مع ظهور الفلسفة الذرية عند لوقيبوس (ازدهر نحو ذلك التاريخ)، وبالأخص عند ديمقريطس (460 - 357 ق.م.) من أبديرا في تراقيا، وهي أيضا مدينة بروتاجوراس السفسطائي الأكبر، حيث شهدت الفلسفة الطبيعية، خلال نحو مائة وخمسين عاما، ظهور أشد النظريات تنوعا حول أصل الكون ومبدئه، وهي أيضا شديدة الاختلاف إلى حد التناقض أحيانا فيما بينها، منذ طاليس وتابعيه في المدرسة الملطية إلى هيراقليطس، وكلهم من أيونيا، إلى فيثاغورس ومدرسته وبارمنيدس وزينون من إيليا وأنبادوقليس من صقلية، وكلهم من «اليونان الكبرى» وجنوبها، حتى أنكساجوراس، الذي هو من أيونيا من جديد ثم المدرسة الذرية المذكورة، لكن نذكر ألمع الأسماء وحسب، وكان الخلاف على أشده بين الاتجاه الواحدي في أيونيا والاتجاه التعددي في «اليونان الكبرى»، مع استثناء بارمنيدس وزينون، من جهة، والاتجاه الأيوني «الطبيعي» أو المادي عموما، مع شيء من وضع خاص لأنكساجوراس لقوله بـ «النوس» (Nous) أو العقل حاكما على الكون، والاتجاه الفيثاغوري «الرياضي» والتجريدي، من جهة أخرى.

لقد قيلت، كما رأينا، أكثر الفروض تنوعا في شأن أصول الكون، حتى ليمكن القول إن المعين قد نضب فلم يكد يبقى من جديد ليقال في إطار البحث في الكون، ثم إن هذه النظريات تعارضت بشدة فيما بينها، وتبادل بعضها الهجوم على بعض، خصوصا عند هيراقليطس وبارمنيدس اللذين وصلا إلى أقصى أشكال القول بالتعدد والتغير عند الأول وبالواحدية والثبات عند الثاني، حتى أخذ السؤال المهدِّد متعدد الأوجه في الظهور: فمن نصدق؟ ومن نتبع؟ وأين الحقيقة؟ وهل يمكن الوصول إلى يقين بشأن معرفة العالم الخارجي وظواهره؟ ثم يظهر سؤال آخر لعله كان أخطر عند اليونان المنتصرين في الحرب وفي السياسة: وهل لهذه الفلسفة الطبيعية، التي تبحث في الكون، من فوائد عملية؟ وكأن لسان الحال يقول: إنما نحن في حاجة إلى من يهدينا في حياتنا كبشر. كل هذا، ملاحظات وتساؤلات ومطالب، التقطه السفسطائيون وكذلك سقراط، كل من جانبه، ليظهر عصر جديد في الفلسفة، وهو ما نسميه باسم «الفلسفة الإنسانية»، لأن مدار البحث فيه هو أمور الإنسان، وهذا هو الموضوع الجامع بين السفسطائيين وسقراط، وهو المفرق بينهم جميعا وبين الفلسفة الطبيعية التي موضوعها مبدأ الكون أو مبادئه وأصول الأشياء وكيفية تكوُّن الظواهر في العالم الخارجي، إن اليونان ينتقلون هكذا من البحث في العالم الخارجي إلى البحث في العالم الداخلي، وكان أكبر مسرح لهذا البحث الجديد هو أثينا، وليس أيونيا ولا جنوب إيطاليا وصقلية. لقد انطلق بندول ساعة الفكر اليوناني من أيونيا غربا إلى «اليونان الكبرى» شرقا، ليستقر أخيرا في الوسط، في أثينا، منتقلا من الحواف والأطراف إلى المركز، وهو مركز جغرافي، تقريبا، ومركز سياسي وحربي وبشري واقتصادي كذلك.

لقد كان ظهور السفسطائيين، مع نحو 450 ق.م، أو حتى 460 ق.م فيما يخص حالة بروتاجوراس Protagoras أمرا «طبيعيا»، وربما كان أيضا «ضروريا»، حتى يمكن أن نقول إن العصر وثقافته تطلبا أن يظهر من يقوم بعدد من الوظائف، فقام السفسطائيون من أجل تلبية هذا المطلب. لقد أصبح المطلوب الآن، وعلى خلفية كل هذا الذي ذكرناه بالضرورة، خدمة الأفراد الواثقين بقدرات الإنسان والطموحين إلى الارتفاع على السلم الاجتماعي، وفي المدن ذات نظام الحكم الديموقراطي أولا، ثم خدمة المدينة نفسها في علاقاتها مع المدن الأخرى، بل وأحيانا من أجل إنشاء مدن جديدة ابتداء، ثم خدمة النظام الديموقراطي بالأخص، وهو مركز الحياة الأثينية كلها، ثم كذلك وبالأعم رفع المستوى المعرفي للجماهير التي كانت غفلا فيما سبق، وتحققت لها الآن فرصة الصعود على جميع المستويات، وهو ما يعني تطوير الثقافة الجامعة بين اليونان جميعا وتأسيسها من جديد، إن أمكن قول هذا. ومن أجل: 1 - خدمة الأفراد، سيقدم السفسطائيون: أ - تربية جديدة، ب - وعروضا لتحديد غايات الحياة، ج - وتأهيلا لامتلاك ناصية أدوات النجاح في العالم الجديد بعد الانتصار على الفرس وفي

إطار نظام الديموقراطية حيث المركز من حيث العمليات هو الانتخاب حينا وعملية القرعة حينا آخر، د - وكل ما سبق يتصل أو يدخل تحت عنوان جامع هو: حيازة الفضيلة. ومن أجل: 2 - خدمة المدينة والدولة، فإنهم سيقدمون: أ - أفكارا حول أسس التعاملات الاجتماعية والسياسية، ب - وسيقوم بعضهم بإنشاء تشريعات لمدن جديدة، ج - وسيقوم بعض منهم بمهمة السفارة من مدنهم الأصلية إلى مدن أخرى. أما من حيث: 3 - خدمة آلة، أو «دولاب»، النظام الديموقراطي تخصيصا، فإنهم سوف: أ - يهتمون بتأصيل مفاهيم الفردية والحرية والمساواة، ب - ويقدمون تعليما وتدريبا لإجادة الكلام وجذب الآخرين إلى الرأي المعين، فيصبحون معلمين لفن الخطابة، ومنشئين لعلم النحو وواضعي أسس البحث في البلاغة، وسيقدمون دروسا في إجادة المجادلة أو الجدل من أجل الانتصار على الخصم، وفي كل هذا هم يتناولون أطرافا أو أخرى من مفهوم «الإقناع» الضروري للنجاح في إطار التنظيم الديموقراطي للدولة والمجتمع. وأخيرا فإنهم قد خدموا: 4 - تطوير الثقافة اليونانية بعامة، أ - ليس فقط بتقديم نظام التربية الجديد الثوري والمختلف كثيرا عن نظام التربية اليوناني التقليدي، بل وكذلك: ب - بتأسيس عدد من التخصصات المعرفية الجديدة، حيث العصر هو أيضا عصر التخصص، وأبرز ما فيه خارج نطاق السفسطائيين هو ظهور فن الطب، أي تخصصه، على يد أبقراط Hippocrates العظيم ومدرسته، وهناك إشارات إلى أفكار توجد عند السفسطائيين وتعرض في مجموعة الكتب التي سميت باسم «المجموعة البقراطية»، ومنها ما هو بقلم الأستاذ نفسه أو ما هو من تحرير تلامذته، وسيكونون: ج - أكبر دعاة، نظرا وعملا، إلى الوحدة اليونانية العامة بين المدن ذات المصالح والاتجاهات المتباينة، وكذلك للسلام اليوناني الشامل عند بعضهم، كما سيكونون فعلا: د - أقوى عوامل التوحيد اللغوي (منتصرين عموما للهجة الأتيكية، وهي لهجة أثينا ومنطقتها أتيكا) والذهني والثقافي بين عموم اليونان، لأنهم كانوا معلمين متجولين بين كل المدن، وأحيانا ما كان بعضهم من قادة إدخال الجديد في طرق الكلام والتفكير وكذلك في الملبس، أو ما يسمى بـ «الموضة» (من Mode الفرنسية) أو «المودة»، أي طراز الملابس.

كل هذه المطالب والوظائف الجديدة ستؤدي إذن إلى تحول من الاهتمام بالطبيعة الخارجية إلى الاهتمام بالإنسان، وكذلك أيضا من الاهتمام بالمعرفة النظرية (وإن كان كثير من الفلاسفة الطبيعيين اهتموا بجانب النفع من جراء آرائهم ومعارفهم) إلى الاهتمام بالعمل، أي بالحياة البشرية منفعة وتحسينا، وسيقول السفسطائيون خاصة: و«نجاحا»، حيث يصبح «النجاح» معهم هو غاية للحياة، وسيكون مظهره الخارجي الثروة والمناصب والجاه الاجتماعي المكتسب، وسيختلف معهم سقراط أشد اختلاف حول هذا، وسيجعله اختلافا حول الاهتمام إما بجسم الإنسان أو بما سيسميه سقراط، وربما لأول مرة على مسرح الحياة الذهنية اليونانية العام، بـ «النفس» [28].

إن المركز العام لنشاط السفسطائيين هو «تكوين المواطن»، وعن هذا تنتج صلاتهم بالتربية وبالسياسة وبإنشاء التخصصات المعرفية الجديدة جميعا، لكن التربية والتعليم هما المحور الأبرز لنشاطهم [29]. وكما أشرنا فقد أحدثوا ثورة في نظام التربية اليوناني، حيث كانت العائلة هي التي تربي الصبي وتعطيه لمعلم في البيت، يقوم على تلقينه مبادئ اللغة عن طريق حفظ بعض النصوص المهمة، خصوصا لهوميروس، ومبادئ الحساب والهندسة، ثم يذهب إلى «الجمنازيوم»، أو قاعة الألعاب الرياضية، التي كثيرا ما تقوم بدور المدرسة أيضا، وهناك يساعد الأهلَ الأقاربُ والمواطنون على تنمية معارف الصبي وعلى تعليمه بوجه عام. وهكذا، فإن التربية التقليدية كانت عائلية أساسا ومبسطة وبغير أهداف محددة (وإن كان النموذج الإسبرطي أكثر تحديدا وتنظيما وتشددا واهتماما بجانب التعويد على التحمل الجسمي)، حتى جاء هؤلاء المعلمون الجدد، القادمون من مدن شتى، والذين يطوفون على مدن مختلفة تداوليا، لينتزعوا الصبي أو الشاب من أهله ومواطنيه، فيقوموا، وهم «الغرباء»، بتعليمه مبادئ «المواطنة»، وهو ما يقرب من التناقض في الألفاظ، كما لاحظ بعض أهالي العصر أنفسهم [30].

وإلى جوار تقديم المعارف الأساسية في اللغة والرياضيات والفلك أحيانا، وما يتصل بالتثقيف العام (الموسيقى)، وما إلى ذلك من أمور لا بد أن يلم بها الشاب المتعلم، كان السفسطائيون يهتمون بجانبين مهمين يتصلان بالحياة الاجتماعية عموما وبالحياة السياسية خصوصا: وهما فن إقامة الحجة من جهة، أي القدرة على التدليل على صواب هذه القضية أو خطأ تلك، وفن الخطابة، أي ترتيب الكلام المفصل حول موضوع ما بحيث يصل الخطيب إلى اقناع الجمهور المستمع، وهو، في الجمعيات السياسية على أشكالها وفي المحاكم الأثينية، يصل عدده إلى المئات، بصحة الموقف الذي يدافع عنه أو جدارته بالمنصب المعين أو دفاعه إن كان متهما أو دعواه إن كان مقدم الدعوى. وقد تخصص بعض السفسطائيين في فن الخطابة، لأهميته العظمى، حصرا، وعلى رأس هؤلاء جورجياس Gorgias (483 - 385 ق.م) صاحب الاسم الرنان والسمعة واسعة الانتشار والذي أخرج من التلاميذ المهمين في الحياة اليونانية الكثير (يقال إن منهم مثلا أنتستينيز تلميذ سقراط أيضا، والخطيب إيزوقراط). لكن أعظم السفسطائيين جميعا وأولهم وأكبرهم سنا وهو بروتاجوراس، يقول عن نفسه إنه معلم الفضيلة وحسب. ولعل القارئ يفضل أن يرى بنفسه كيف قدم هذا السفسطائي نفسه إلى مواطني أثينا حينما زارهم في جولة من جولاته، مقيما ضيفا في بيت من أغنى بيوتها، وكيف عرف مضمون تعليمه وأهدافه، وماذا يعني بتلك «الفضيلة»، وكيف يتميز عن الآخرين من السفسطائيين ذوي الشأن هم أيضا والذين كانوا حاضرين، وبالأخص منهم هيبياس Hippias وبروديقوس Prodicos، وفي هذه الحالة ليس أفضل من الرجوع إلى محاورة «بروتاجوراس» لأفلاطون، وفي نصفها الأول على الأخص.

ومن جهة أخرى، كان السفسطائيون، إلى جوار تعليم الشباب، يقدمون محاضرات شتى في الموضوعات التي تهم المواطنين البالغين، والتي تتناول تبسيط العلوم أو تذوق الشعر أو التدريب على استخدام الحيل الخطابية بأنواعها من أجل استمالة أي جمهور مستمع، ويرى بعض المؤرخين أنه كانت تدور مناقشات عامة «في أثناء تلك المحاضرات حول مسائل الدين والعلم والأخلاق والسياسة، ويدلنا صدى تلك المناقشات الذي سُمع رنينه مئات المرات على صفحات أدب العصر، خصوصا في المسرحيات التراجيدية والكوميدية، يدلنا على أن السفسطائيين نالوا استحسانا كبيرا. وإلى جانب هذا استفاد السفسطائيون من وجود العدد الكبير من اليونان في أثناء الاحتفالات اليونانية الكبرى في أولمبيا وغيرها من المدن، وانتهزوا فرصها ليكسبوا أسماع ممثلي كل المدن اليونانية. ولما كانت حياتهم، وهي حياة سفر، قد عودتهم التطلع إلى ما وراء الحدود الضيقة لكل مدينة، فإنهم دعوا الى قيام الوحدة القومية بين مدن اليونان، وكانوا حاملين لبذور الجامعة اليونانية العامة وناشرين لروحها»[31].

ونشير الآن سريعا إلى بعض السمات العامة المشتركة بين جماعة السفسطائيين وظواهر متصلة بهم. ونلاحظ أولا أنه لا يبدو أن منهم من أتى من أيونيا، ولا من أتى من شبه جزيرة البيلوبونيز، بل معظمهم أو كلهم، ما عدا واحدا، هم من أطراف العالم اليوناني وحوافه. وثانيا أنهم لم يكونوا «مدرسة» فكرية واحدة، بل لكل واحد منهم اتجاهات تخصه، لذلك فإنهم على الأدق مجموعة من المعلمين اشتركت في سمات قربت بعضهم من بعض. وثالثا أن الحركة السفسطائية استمرت على مدى جيلين أو ثلاثة، تقريبا من 460 أو 450 ق.م إلى نحو 380 ق.م فيما نظن، وأن السفسطائيين أصحاب الرؤى الفكرية بحق، وليس هؤلاء المعلمين وحسب، هم من الجيل الأول خاصة، وبعض قليل منهم من الجيل الثاني، ومن هؤلاء أنطيقون السفسطائي الأثيني الوحيد. أما الجيل الثالث منهم فقد انحط إلى درك استخدام ما يقرب من حيل الدجل والاحتيال الذهنيين (ونرى مثالا واضحا على هؤلاء في محاورة أفلاطون «أوثيمديموس Euthedemus»). ورابعا أنهم كانوا جميعا على إحساس واضح معلن بتميزهم وتفوقهم واختلافهم عن السابقين من الفلاسفة والشعراء وذوي المكانة الآخرين، كما أنهم كانوا واعين بغيرة أهل العصر منهم على الرغم من إعجاب الكثيرين، خصوصا الشباب، بهم، ولعل كل هذا أن يترجم فيما رأيناه من أن «الجيل الشاب، وهو المتطلع دوما نحو الجديد، كان يستقبل السفسطائيين بالحماس، بل كانوا قريبين من حملهم على الأكتاف»، ومن أنهم «نالوا استحسانا كبيرا». ونلاحظ خامسا أنهم أول من وضع أجرا لقاء نيل تعليمهم عند اليونان، الذين كانوا يتعلمون إما في منازلهم على أيدي أقربائهم أو على أيدي عبيد المنزل، وإما في الساحات العامة وقاعات الألعاب الرياضية، حيث كل المواطنين يمكن أن يعلموا أبناء كل المواطنين، وهم قد سوغوا هذا الأجر بأهمية ما يقدمونه وبنوعيته العالية وجدته والجهد الذي

يبذلونه ليكون مادة سائغة سهلة الهضم سريعة المفعول وقويته عند من يتلقاه منهم. أخيرا نشير إلى اتساع معارفهم إلى درجة الموسوعية.

والآن، لمَ كانت أثينا أكثر المدن اجتذابا لهم؟ إن الأسباب واضحة: فهناك أولا نظامها الديموقراطي الذي يسمح بنمو الفردية وبحرية الرأي، وهناك ثانيا تأثير شخصية بيريكليز واتجاهاته الفكرية هو نفسه، والتي أدت به إلى تشجيع قدوم السفسطائيين إلى أثينا، وأولهم بروتاجوراس نفسه الذي يبدو أنه كان يزور المدينة بين الفينة والفينة من عام 460 ق.م حتى عام 411 ق.م (الذي سنعود إليه)، وهناك ثالثا وفرة المناصب السياسية الداخلية والخارجية المتاحة أمام الأثينيين لإثبات قدرتهم على الوفاء بمتطلباتهم، وبالأخص نظرا إلى تعدد الأجهزة الديموقراطية في الداخل ولاحتياجات تنظيم شؤون «الإمبراطورية» (الصغيرة بعد كل شيء) الأثينية في الخارج، ثم هناك رابعا ازدياد الثروة عند عدد لا بأس به من المواطنين نظرا إلى نفوذ أثينا وزيادة الصادرات ونمو حركة التجارة، وهناك أخيرا وليس آخرا اهتمام الأثينيين، وعلى نحو ما نرى في محاورة بروتاجوراس لأفلاطون، اهتمامهم بالتربية وبتثقيف أنفسهم وأبنائهم. ونحن نجد أصداء في محاورات أفلاطون سواء لاهتمام السفسطائيين بأثينا أو لإقبال الأثينيين عليهم، بما لا يدع مجالا للشك في ذلك.

لقد كان السفسطائيون هم حقا مفكري عصر مجد أثينا في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م، وهم من أحدث حركة فكرية هائلة، ربما لا نستطيع إدراك كل أبعادها اليوم لعدم وصول القدر الأعظم من مؤلفاتهم إلينا، لكن أهميتها تقدر بطريقة غير مباشرة حيث نلاحظ عنف الثورة عليهم عند سقراط وعند أفلاطون، فهذا لا يكون إلا لجماعة ذات أهمية عظيمة. ولما كانت الدراسة الحالية، كما قلنا من البداية، لا تؤرخ - قصدا - لتاريخ الفلسفة والفكر عند اليونان مباشرة واستقصاء، فإننا نكتفي هنا بالإلماح إلى أهم أفكارهم بعدما تناولنا فيما سبق أوجه نشاطهم في أثينا وغيرها، وفي ميدان التعليم خاصة.

لقد أشرنا إلى أنهم اعتبروا أن موضوع البحث الجديد بالاهتمام حقا إنما هو الإنسان، ومن أجل منفعته، وليس لمحض المعرفة، وليس لمجرد المعرفة النظرية بالكون. لقد شعروا بقوة التغيرات التي حدثت خلال النصف الأول من القرن الخامس ق.م. (499 - 450)، وأدركوا حالة ضعف التقاليد جميعها وترنح بعضها، ومنها التقاليد الدينية، ولمن يريد أن يرى قوة التغييرات والضعف المتزايد للتقاليد من كل نوع، فإننا نقترح عليه أن يقارن بين أعظم ثلاثة في المسرح الشعري التراجيدي اليوناني، وهم جميعا أثينيون، أي أسخيلوس ثم سوفوكليز ثم يوريبيديز من حيث درجة الالتزام بالتقاليد أو التحرر منها، نزولا من أولهم حتى ثالثهم ذي الصلة القوية ببيريكليز وبالسفسطائيين، على الرغم من أن الثاني والثالث بينهما فارق أحد عشر عاما أو خمسة عشر فقط، بينما الأول أكبر من الثاني بثلاثين عاما. إلى جوار إدراك تغير أحوال

البشر، شهد السفسطائيون، ومن قبلهم أسلاف حضَّروا لهذا، على اختلاف أحوال الشعوب وتنوع الحياة البشرية، وهو ما جاءت «حكايات» هيرودوت Herodotus (490 - 425 ق.م) لتكون أعظم شاهد عليه، وعلى ادعاء كل شعب أنه الأفضل بين كل الشعوب، فظهر، من جراء كل هذا، شعور تبلور في فكرة قوية أصبحت تعميما على يد السفسطائيين: وهي أنه لا شيء في الحياة الإنسانية يكون مطلقا وثابتا واحدا، بل كل الأشياء نسبية إلى إنسان معين، وتمثل هذا المبدأ في القول الأشهر لبروتاجوراس: «الإنسان مقياس كل شيء»، والمقصود المهم هنا هو ما يتضمنه هذا التعميم سلبا: «وليس الآلهة». وهل هناك إلا خطوة واحدة بعد هذا من أجل نفي وجود الحقيقة ونفي إمكان اليقين معا، وفي مجالي الوجود والمعرفة على التوالي؟ لقد رأينا، من قبل، اختلاف الفلاسفة الطبيعيين وتعارضاتهم ومناقضة بعضهم لبعض، ثم تجرأ أحد السفسطائيين الكبار، وهو جورجياس، على ضرب كل قضاياهم هي الأخرى بعضها ببعض: لا يوجد شيء، وإذا وجد شيء فلا تمكن معرفته، وإذا أمكنتْ معرفته فإنه لا يمكن نقلها إلى الآخرين، وهكذا تتحطم الحقيقة ويتهدم إمكان المعرفة ويوضع موضع الشك إمكان التواصل البشري نفسه، فتصير النتيجة هي الفردية المطلقة، وكأن كل فرد جزيرة منعزلة عن جزر الأفراد الآخرين، تصير هي العلَم، ويتهدد هكذا وجود المدينة نفسها كتجمع اختياري لمواطنين من أجل الحياة معا. وينتج عن النسبية العامة وعن التشكك في أي يقين كان، إمكان تعدي كل القيم الموروثة، ويصبح الطريق ممهدا أمام هذا القول الخطير: «العدالة هي مصلحة الأقوى»، وهذا هو نفسه ما كان عليه لسان حال كل أهل الطموح بين مواطني أثينا وغيرها، الذين لا يهمهم إلا النجاح، ونجاحهم الشخصي، وليذهب كل شيء آخر إلى الجحيم، وأعظم مثال على ذلك، من حيث الأفراد، هو حالة القبيادس (Alcibiades) ربيب بيريكليز، الموهوب الذكي الغني الحسيب النسيب، وأعظم أشرار عصره يقينا، الذي يبلغ في أثينا أعلى المناصب ويصبح شهيرا، ويكون له أعظم تأثير في السياسة الأثينية، ثم يخونها ما بين إسبرطة والفرس. أما أعظم مثال على تحطم القيم وتحقير المقدرات من حيث المدن، فإنه معاملة أثينا، ممثَّلة في قائد حملتها ضد إحدى الجزر، وهي جزيرة ميلوس، التي كانت لا تود شيئا إلا أن تكون على الحياد بين أثينا وإسبرطة، معاملتها لها بغير احترام لأدنى متطلبات الإنسانية فضلا عن العدالة، وسنعود إلى هذه الحالة، التي يرويها المؤرخ ثوكيديدس، عند كلامنا عن أحوال العصر في الجزء المخصص لأفلاطون هنا.

وقد أدى كل هذا إلى وضع أسئلة جديدة ذات خطر: فالنظم والقيم وأقدار البشر، هل هي «طبيعية» أم «مكتسبة»؟ فنشأ التعارض الشهير عند السفسطائيين ما بين «الطبيعة» من جهة والقانون والتربية من جهة أخرى. وقد كان من الطبيعي تبعا لرفض أن تكون هناك حقيقة مطلقة، وتبعا للقول إن لكل شيء وجهين، وعليك إعلاء الوجه الذي يلائم مصالحك أنت،

أنه لا يوجد حكمٌ فصل يقضي بالحق، وبالتالي فإن «العقل» الذي تحدث عنه هيراقليطس وبارمنيدس وأنكساجوراس، بل والذريون أنفسهم، ابتعد عن مجال الاعتبار، وأصبحت أداة المعرفة هي الحواس، وبحسب ما تقوله لك في اللحظة المعينة، وفي هذا تطبيق جديد لمبدأ: «الإنسان مقياس كل شيء»، فما تدركه أنت الآن صادق تماما، إلى حد نفي إمكان الخطأ [32]. فماذا يبقى إذن عند الاتصال بالآخر؟ إنه الإقناع وتقديم «الرأي» المناسب على أحسن صوره وأحراها بالقبول، فنعود مرة أخرى إلى الخطابة وإلى استخدام الحجج المناسبة بحسب المصالح المعينة.

متى بدأ الانقلاب على السفسطائيين في المدن اليونانية عامة وفي أثينا بالأخص؟ ربما بدأ هذا منذ لحظة ظهورهم نفسها، لكن براعتهم واستخدامهم الذكي لطموحات الشباب في النجاح السريع وبأي ثمن، ونجاحهم في تقديم الجديد المفيد المناسب لأحوال العصر، كل هذا أدى إلى زيادة الطلب عليهم، وخصوصا في عهد بيريكليز، ولا نظن أن هذا الطلب ضعُف بعد ذلك، وعلى الرغم من الهجوم الشديد عليهم عند أرستوفانيز مثلا وفي مسرحية «السحب» خصوصا. ذلك أن هذا الشاعر جعل الشخصية المسماة «سقراط» في تلك المسرحية الكوميدية تحمل معا صفتين متعارضتين: فهو عالم طبيعي يقول بالهواء «إلها» له، كما أنه معلم بالأجر ومدير مدرسة، أي أنه سفسطائي، وهو يعلم تلاميذه كيف يرفعون من شأن القضية الضعيفة ويخفضون من شأن تلك القوية، كلما شاءوا وبحسب المصلحة [33]، ونظن من جانبنا أن انتقادات سقراط لهم في مجالسه، والتي يبقى أن نحدد متى بدأت هذه الانتقادات لم يكن لها تأثير ذو أهمية، فيما يبدو لنا، لأن تأثيرها لن يتم فعليا إلا بعد نشرها في محاورات أفلاطون (الذي ربما أخذ في نشرها ابتداء من نحو 390 ق.م)، لأن سقراط نفسه في عصره وأثناء حياته لم يكن موضع اتباع إلا من حفنة من الأفراد هم تلامذته والمعجبون به، بينما معظم الأثينيين موزعون بين متشكك في طبيعة آرائه، حتى ليمكن اعتباره عند بعضهم سفسطائيا، ومتفكه عليه لغرابة أطواره وغريب ملاحظاته. ويبدو على كل حال أن أول ضربة حقيقية وُجهت إلى السفسطائية كانت باتهام بروتاجوراس عام 411 ق.م، بأنه ينكر وجود الآلهة، ولعل ذلك اعتمد على عبارته الشهيرة: «فيما يخص الآلهة، فإني غير قادر على قول شيء، لا أنهم موجودون ولا أنهم غير موجودين: فعوامل كثيرة تحول دون هذه المعرفة، منها غموض الموضوع، ومنها كذلك قصر الحياة الإنسانية»، ويبدو أن هناك دعوى رُفعت ضده بالفعل، أو هُدد برفعها، فآثر بروتاجوراس السلامة، وغادر أثينا، وفي بعض الروايات أن المركب التي أقلته متجها إلى صقلية غرقت في البحر وغرق هو معها. ويذكر ديوجينيز اللايرسي أن الأثينيين هم الذين طردوه من مدينتهم، وأحرقوا كل ما وجد من كتبه عند المواطنين في المدينة، بعد أن أرسلوا في كل أنحائها منادين يطالبون بجمعها من كل من يحوزها في أثينا [34].

على كل حال، أخذ نشاط الجيل الثالث من السفسطائيين يضعف في الربع الأول من القرن الرابع ق.م. (399 - 375)، حيث كانوا من طبقة متدنية لم تجذب الأنظار ولم تستأهل الاحترام، خصوصا أن الظروف قد تغيرت جوهريا بعد انهزام أثينا المدوي أمام إسبرطة عام 404 ق.م. ولا يوجد صدى لنشاطهم أو حتى لاستمرار وجودهم بعد نحو عام 380 ق.م.

ثالثا: أثينا تنتج الفلسفة

أ - سقراط

ليس سقراط أول المفكرين أو الفلاسفة الذين تنجبهم أثينا بإطلاق، لأنه سبقه في ذلك اثنان من الأثينيين لا نعرف عنهما ولا عن آرائهما إلا القليل، لكنهما على كل حال ليسا من الطبقة الأولى، ولا ربما من الثانية، كل منهما في ميدانه، أما أول فيلسوف طبيعي تنجبه أثينا مطلقا، وهو الوحيد في ذلك الشأن أيضا، فإنه أرخيتاس Architas، الذي لا نعرف تاريخ مولده ولا وفاته، لكنه كان على الأرجح أكبر سنا من سقراط، ويقال أحيانا إن هذا الأخير تتلمذ عليه (ومع ملاحظة أن تعبير «التلمذ» هذا يمكن أن يتسع كثيرا ليعني في النهاية «الاستماع إلى كلام فلان»، وذلك في كل ما يخص الفلسفة اليونانية حتى الفترة التي نحن بصددها). وكان أرخيتاس نفسه واحدا من أتباع أنكساجوراس، الذي جاء إلى أثينا كما ذكرنا عام 460 ق.م، وإن لم يمنعه هذا من بعض اختلاف عن آراء الأستاذ حول علاقة العقل بالمادة، إذ قال باختلاطهما، وليس بانفصالهما، منذ البدء، كما يظهر عنده اهتمام خاص بمسائل الأوضاع الإنسانية، ويقال إنه هو الذي ميز بين الطبيعة من جهة والعرف أو القانون من جهة أخرى، وهو ما سيصبح واحدا من أبرز قضايا عصر السفسطائيين. أما الثاني فإنه أنطيفون Antiphon، وهو السفسطائي الأثيني الوحيد، وكان معاصرا لسقراط، ولا يأتي أفلاطون على ذكره مطلقا في محاوراته، وربما كان ذلك لأنه اعتبره غير جدير بالذكر (وفي المقابل فإن أفلاطون لا يذكر اسم ديمقريطس العظيم هو الآخر!). وقد اكتُشفت في العصر الحديث بردية في صحراء مدينة الفيوم المصرية، وكانت منتجعا استحسن الإقامة فيه يونان العصر البطلمي، وهي تحتوي على شذرة من كتاب له بعنوان «في الحقيقة»، ويتحدث فيها عن العدل والتعارض بين الطبيعة والقانون والمساواة بين البشر، مستنكرا تمييز اليونان أنفسهم عن البرابرة، تماما كتمييز نبلاء اليونان أنفسهم عن العامة، إلى غير ذلك. والمشكلة الكبرى هي أن بعض الكتاب في القديم وفي الحديث خلطوا بين أنطيفون السفسطائي هذا وأنطيفون آخر، وكان خطيبا من مدينة رامنوس (Rhamnus)، وعاش بين 480 و411 ق.م، ولكن يبدو أن الاثنين شخصيتان منفصلتان، لأن أنطيفون الخطيب كان محافظا ومعارضا للنظام الديموقراطي، على غير حال أنطيفون السفسطائي.

أما أكبر مفكر أثيني بالميلاد والمواطنة لأثينا، ومن حيث ما سيؤول إليه الأمر وليس بحسب واقع الحال عند معاصريه، في الفترة ما بين نحو 430 و399 ق.م، فإنه كان سقراط (470 - 399 ق.م). إن كل حياة سقراط وكل آرائه تتعلق تماما وبالكلية بأثينا، بما في ذلك موته، وبالأخص موته، وعلينا أن ندقق في المقصود بعبارة «أكبر مفكر أثيني»، فهو كذلك عند من؟ عند المعاصرين له؟ وعند الشعب في جملته أو عند الصفوة؟ أو عند حفنة من التلاميذ والأتباع المخلصين؟ وهو ما يعود إلى صياغة جديدة لذلك السؤال: أكان كذلك في حياته؟ أم اعتُبر هكذا بعد مماته؟ مع هذه الأسئلة نجد أنفسنا ومن البداية مع أهم سؤال وأصعب سؤال حول سقراط: هل نحن نعرف فعليا سقراط «الحقيقي»؟ ذلك أن المهاجمين له في حياته وبعد موته من أهل العصر لا يقلون عنفا وتطرفا عن المدافعين عنه والمثنين عليه إلى حد رفعه إلى ما يقرب من القداسة [35]. إن لدينا وثيقتين ظهرتا في حياة سقراط نفسها تدينانه: الأولى هي مسرحية «السحب» لأرستوفانيز، التي مثلت عام 423 ق.م، والتي تصوره معا فيلسوفا طبيعيا وسفسطائيا معلما ومفسدا للشباب بتعاليمه، وتنتهي بإحراق مدرسته. (وتاريخ هذه المسرحية ذو أهمية لأنه يتضمن أن سقراط الذي يوضع على المسرح يقابل شخصية عامة ومعروفة يضحك الجمهور بسبب المقابلة بين ما يراه على المسرح وما يعرفه عن سقراط في حياته الفعلية، ولما كان الشاعر ربما أعد لها قبل ذلك بعامين أو أكثر، فإننا يمكننا أن نرجع مطمئنين شيئا من الاطمئنان «ازدهار» سقراط، أي شهرته بين مواطنيه، إلى نحو عام 430 ق.م، وهو على كل حال عام بلوغه سن الأربعين). أما الوثيقة الثانية المؤكدة التي ظهرت في حياته أيضا فإنها نص الدعوى نفسه التي رفعها على سقراط عام 399 ق.م ثلاثة من المواطنين، وأهمهم أنيتوس (Anytus)، وهو سياسي من الحزب الديموقراطي ويمثل الصُنّاع أيضا، وثانيهم مليتوس (Meletus) ممثلا للشعراء، وثالثهم وأقلهم أهمية لوكون (Lycon) ممثلا للخطباء [36].

وهي تتهمه بثلاثتهم: إنكار آلهة المدينة، وابتداع آلهة جديدة غير آلهة الدولة، وإفساد الشباب. هاتان الوثيقتان مهمتان بسبب طابعهما «العام» المستنكر لآراء سقراط ولأنشطته: ذلك أن المسرحية لا شك كانت تمثل رأي قطاع مهم من الشعب الأثيني ومن المتعلمين من أهل المدينة ومن ذوي اليسار فيها المحافظين على التقاليد، وأما الدعوى فلأنها نالت موافقة المحكمة فأدين سقراط ثم حكم عليه بالإعدام، وتم تنفيذ الحكم. لكل هذا فإنها تدل حسما على عدم موافقة شعبية على ما يقوله ويفعله سقراط، نخرج من هذا الفحص السريع بنتيجة مهمة: هي أنه من الصعب أن نصدق أن أهل أثينا كانوا يقولون: «هذا هو سقراط مفكرنا»، أي الذي يعبر عنا ويمثلنا وننحاز نحن إلى آرائه، ومع ذلك يبقى على الأقل كونه بالضرورة مفكرا مهما في عصره وفي مدينته، لهذا السبب الواضح: أنه ما كان يمكن له أن يثير كل هذا الصخب من حوله وكل هذا الاعتراض عليه

إلا إذا كان يقول أشياء مهمة، لكنها تذهب ضد اتجاه العصر، وقد قلنا إن اتجاه العصر كان يمثله السفسطائيون.

وبناء على ما سبق، وللإجابة عن السؤال: هو كان مفكرا مهما ومقبولا في نظر من؟ فإننا نجد أن الإجابة القويمة هي أنه كان كذلك في نظر أتباعه القليلين جدا شديدي الإخلاص وتلامذته شديدي الإعجاب، ليس فقط بآرائه بل وكذلك بصفاته الخلقية والذهنية وبسلوكه عموما، وفي مقدمة هؤلاء أفلاطون Plato (427 – 347 ق.م) وإكسينوفون Xenophon (430 – 354 ق.م.)، إلى جوار عدد من التلامذة، معظمهم من مدن أخرى غير أثينا، سوف يؤسسون مدارس فلسفية كل منها تتبع جانبا أو آخر من فكر سقراط، فينشرون بهذا ذكره واحترامه، هؤلاء الأخيرون هم أصحاب «المدارس السقراطية الصغرى» أو حتى «صغار السقراطيين»، لكن السقراطي «الكبير» إنما هو أفلاطون، الذي سيكرس معظم محاوراته لتمجيد سقراط، حيث يظهره في أغلبها متحاورا رئيسيا مع آخر أو آخرين، وعارضا هنا أو هناك آراء لا يمكن نسبتها إلا إلى أفلاطون نفسه، مضحيا هكذا تضحية فنية بعدم إبراز اسمه هو، الذي لا يظهر في كل المحاورات إلا مرتين: مرة حاضرا، في «الدفاع» (38 ب)، ومرة غائبا في فيدون (Phaedo) (59 ب). إن أفلاطون، في اعتقادنا، هو الصانع الأهم لشهرة سقراط ومصدر تأثيره الدائم إلى اليوم في الغرب، وذلك لهذا السبب البسيط: إن سقراط لم يكتب شيئا، فلو حدث ولم يوجد من يهتم بالدفاع عنه كتابة لكان التاريخ قد نسيه تماما أو يكاد (أما سقراط الذي يظهر في كتب إكسينوفون، ذلك الرجل الطيب، فما كان له أن يثير ضجة ولا أن يحدث تأثيرا حقيقيا).

ولد سقراط لأب بناء أو نحات، أي في بيئة فقيرة ومتواضعة، ولكن يبدو أنه استطاع أن يواصل تعليم نفسه بنفسه، ومن غير شك فإنه اطلع على آراء الفلاسفة الطبيعيين حين اقترب من العشرين أو بلغها، لكن: هل أخذ بها لنفسه؟ وهل شارك في بحوث الطبيعيين؟ هذا أمر ممكن، لكن أفلاطون في «الدفاع» يجعل سقراط يقول إنه «غريب عن هذه المسائل كل الغربة» (**«الدفاع»**، 19 ج)، فهل كانت الآراء الطبيعية التي نسبها إليه أرستوفانيز في «السحب»، أو بالأدق التي أنطق بها لسان شخصيته فيها، مجرد اختراع فني أو كذب مسرحي من أجل الإضحاك؟ أم ربما تكون الحقيقة بين: أنه اهتم بأمور الفلسفة الطبيعية لفترة ما، ثم تخلى عن هذا الاهتمام بعدما اكتشف أنه لا يمكن الوصول إلى يقين بشأنها، وكما يقول هو في محاورة «الدفاع» في نفس النص المشار إليه آنفا؟ ولا بد أنه كان قد تعرف على أنكساجوراس في أثينا، ولا بد أنه كان على علاقة بالسفسطائيين الذين كانوا يجوبون أرجاء أثينا، كما غيرها من المدن اليونانية، منذ وصل سقراط إلى سن الوعي والاهتمام بالمسائل الفكرية. لكن: هل أصبح منهم أم أن الأمر اقتصر على مجرد الاختلاط والحديث في نفس ما يتحدثون عنه، وإن كان ذلك على طريقة لا يستطيع الأثيني العادي الحاضر لتلك الأحاديث أن يدرك أن

سقراط كان يختلف عن السفسطائيين وإن تحدث في الأمور نفسها التي انشغلوا بالحديث عنها؟ هنا أيضا يقول سقراط إنه ليس سفسطائيا على طريقة بروتاجوراس وصحبه، وهو الاتهام الذي وجهه إليه أرستوفانيز أيضا في المسرحية المذكورة نفسها، وذلك لأنه لا يُعلِّم أحدا، إنما هو يتحدث مع كل من يريد التحدث معه، وبالأخص لأنه لا يأخذ أجرا ممن يصاحبونه: «ليس من الحقيقة في شيء... ما قد تسمعونه من أنني أشتغل بتعليم الناس وأطلب منهم المال لقاء هذا» («**الدفاع**»، 19 د - هـ). في مقابل رفضه صفة الفيلسوف الطبيعي وصفة السفسطائي، فإن سقراط يقبل، ضمنا، صفة أو «سمعة» أنه «عالم» (Sophos) أو «حكيم»، ولكنه مع ذلك حكيم بحكمة خاصة جدا: لأنه يقول إنه لم يتوصل إلى إثبات أي معرفة كانت، وأن الحكيم الحقيقي إنما هو الإله، وبالتالي فإن من يتوصل بين البشر إلى أن حكمته ليست شيئا بالقياس إلى الحكمة الإلهية، أي المطلقة الكاملة اليقينية، يصبح ممكنا أن ندعوه «حكيما» («**الدفاع**»، 23 أ. ب). لهذا كله، فإن سقراط يعلن الجهل بكل شيء إلا بأنه يجهل، فهل له - والحال هكذا - أن يغامر بكتابة شيء؟ هذا هو تفسير أنه لم يكتب كتابا، بل ترك أحاديثه، وبالأخص نوع تساؤلاته وطريقة فحصه لنفسه وللغير. أما أسئلة سقراط، بحسب تصوير أفلاطون له دائما، فكانت حول طبيعة الفضائل: العدالة، الاعتدال، الشجاعة، الصداقة، وما أشبه. وهنا يقول أرسطو في شهادته حول سقراط، وهي الأجدر من كل غيرها بالاعتبار والتصديق، إن سقراط هو واضع سؤال «الماهية»، أي سؤال: «ما هو كذا؟»، وإنه طبَّقه حصرا على الأمور الأخلاقية، ومن هنا فإن سقراط هو مؤسس فلسفة الأخلاق. وأما الطريقة السقراطية في البحث فهي طريقة السؤال وتلقي الإجابة وفحصها بحسب معايير الاتساق الذاتي والاتفاق مع الوقائع وما إلى ذلك. كل هذا جميل، لكنه لا يكفي لتفسير عدم الرضى العام، وبخاصة بين قادة أثينا، عن سقراط ونشاطه، وهنا نضيف أن سقراط اعتبر نفسه مكلفا، أو «مبعوثا»، من جانب «الإله»، بفحص أهل أثينا، كلهم إن استطاع، من أجل استكشاف إن كانوا «يعرفون» حقا، أي يقينا، أم لا. وهكذا أخذ يذهب إلى أهم رجال المدينة: فهذا مثلا «أحد رجال السياسة، وقد جعلني فحصه... أحس بالتالي: ففي أثناء الحوار معه بدا لي أنه يبدو في نظر الكثيرين من الآخرين، وفي نظر نفسه هو على الخصوص، حكيما [أي: عالما]، أما في الحقيقة فإنه ليس بالحكيم. فحاولت إذن أن أبين له أنه يعتقد أنه حكيم لكنه ليس في الواقع كذلك، فكانت النتيجة أن حقد عليَّ هو وكثير من الحاضرين» («**الدفاع**»، 21 حـ - د)، ثم ذهب إلى آخر من السياسيين ثم غيره وغيره، «وكانت النتيجة أن حقد عليَّ هو الآخر وكثيرون غيره» (21 هـ). وبعد السياسيين ذهب إلى الشعراء، المسرحيين منهم والغنائيين، ووصل إلى هذه النتيجة: «أنهم لا يكتبون ما يكتبون على أساس من علم، بل بنوع معين من [الموهبة] الطبيعية وفي حالة من الإلهام» (22 ب - حـ). والنتيجة العامة هي نفسها: «هذه الاستقصاءات

تولدت عنها... أحقاد كثيرة عليَّ، ولكم هي مؤلمة وخطيرة، ومنها نشأ كثير من الافتراءات وتلك السمعة التي تقول إني حكيم» (22 هـ - 23 أ).

ثم حدث، من جراء هذه الاستقصاءات، ما هو أفدح: ذلك أن الذين كانوا يتحلقون من حول سقراط ومن يفحصهم من كبار رجال أثينا كانوا عددا من الأشخاص يتزايد باستمرار، ولكن كان منهم بالأخص الشباب: «فإن الشباب يلتفون حولي من أنفسهم، لأن لديهم وقت فراغ كبيرا، فهم من أغنى العائلات، وهؤلاء الشباب يستمتعون بالاستماع إليَّ فاحصا الناس، بل إن منهم كثيرين يقلدونني، ويحاولون بعد ذلك بدورهم فحص الآخرين» («الدفاع» 23 حـ). وحين نتذكر أن فحص سقراط للمتحاورين معه كان ينتهي بإثبات جهلهم في الواقع، بينما هم من كبار رجالات المدينة، فإن تقليد الشباب له يصبح أمرا شديد الوطأة على صفوة المجتمع بخاصة، ومن هنا كان اتهام سقراط «بإفساد الشباب»، أي بدفعهم إلى تقليده فتتحطم هكذا أسس مهمة للاستقرار الاجتماعي.

ويزداد الطين بلة حين ننتبه إلى أن سقراط لم يكن يكشف جهل رجال السياسة، مع غيرهم، وحسب، بل كان ينتقد نظام الحكم الديموقراطي نفسه. وأساس هذا الانتقاد هو فكرة «التخصص» التي قال بها هو والسفسطائيون سواء بسواء، لكنها عنده تؤدي إلى أخطر النتائج: أن أساس الديموقراطية، وهو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، أساس خاطئ، لأن الشعب ليس متخصصا في السياسة، وابتداء من هذا الخيط نفسه سينتهي الأمر بأفلاطون إلى رفع الشعار الجديد في محاورته العظمى «الجمهورية»: ليتحول الحكام إلى فلاسفة، وإلا فليتَولَّ الفلاسفة الحكم! في أثناء ذلك أصبح سقراط يظهر إعجابا أظهر وأظهر بنظام إسبرطة، العدو الصريح بعد 431 ق.م لأثينا، ولقوانينها[37]، وفي الوقت نفسه عمد بعض الأثينيين ممن كانوا يلتفون حوله، ومنهم ألقبيادس الشهير، إلى خيانة مصالح الدولة، كما كان بعض قادة مجموعة «الطغاة الثلاثين»، الذين حكموا أثينا على إثر الانتصار الإسبرطي عليها العام 404 في نهاية حرب البيلوبونيز، كانوا من أصدقائه، ومنهم بالأخص كريتياس قريب أفلاطون، فتجمعت بهذا عبر السنين اتهامات صريحة أو ضمنية بأنه خطر على الدولة الأثينية ذات النظام الديموقراطي، ثم تفاعلت معا وتركزت في الدعوى التي أقيمت ضده عام 399 ق.م. وانتهى الأمر بالتخلص منه وبعقابه العقاب النهائي. لكن هل تخلص منه الشعب الأثيني ونظامه الديموقراطي حقا؟ وهل كان إعدامه عقابا له حقا؟

فيما يخص «التخلص منه»، يبدو أن الشعب الأثيني لن يحقق ما استهدفه، بل سيحدث العكس تماما فيما يتنبأ به سقراط (وكان اليونان يعتقدون أن نبوءات من هم على وشك الموت تتحقق): «أنتم يا من أدنتموني... أقول لكم إنه سينزل عليكم عقاب فور أن يأتين الموت، عقاب أقسى - وحق زيوس - من ذلك الذي تفرضونه عليَّ بإعدامي. فأنتم تفعلون هذا الآن على أمل

ألا تعودوا مضطرين إلى وضع حياتكم موضع الفحص، هذا على حين أنني أقول لكم إن النتيجة ستكون مخالفة لهذا كثيرا: فسيكثر عدد الفاحصين لكم... وهم سيكونون أصعب وأصعب [مني] بقدر شبابهم، وسيكون غيظكم أعظم وأعظم»[38].

ومن الناحية التاريخية، أخذت كتب تلامذة سقراط تتوالى تمجيدا له وتحقيرا لمن حكموا بإدانته وإعدامه، وهي لم تتوقف خلال جيل كامل على الأقل، ليس فقط بسبب إخلاصهم للأستاذ، بل وكذلك لأن مؤلفات الجانب الآخر، خصوم سقراط ومُدينيه، استمرت هي الأخرى بعد موته، ونعرف منها مؤكدا رسالة أو كتيبا كتبه شخص اسمه بوليقراطيس Polycrates ونشره نحو عام 394 ق.م. فكان من جراء هذا أن عمد إكسينوفون إلى كتابة ذكرياته عن سقراط والتي وصلت إلينا، وهي تحت عنوان «المذكرات» Memorabilia. أما فيما يخص مسألة معاقبة الشعب الأثيني، وبالأحرى الحزب الديموقراطي الذي عاد بعد شهور من حكم «الطغاة الثلاثين» في عام 403 ق.م. وأخذ في «تصفية حساباته» مع كل «المتعاونين» مع إسبرطة و«المتعاطفين» معها، ومن هؤلاء المتعاطفين سقراط من غير شك، نقول فيما يخص معاقبة الشعب والحزب الديموقراطي لسقراط بإنهاء حياته (بشرب السم، كما نرى في محاورة «فيدون» لأفلاطون، التي هي إحدى أبرز عيون الفكر والأدب اليوناني كليهما في رأي جمهرة الباحثين)، فإنه يبدو أن توقعات رافعي الدعوى والموافقين على الإعدام لم تتحقق: ذلك أن كل الوقائع تؤكد، فيما نرى، أن أعظم هدية قُدمت إلى سقراط هي إعدامه، فلولا هذا الحدث الذي هز نفوس أتباعه هزًا لما هبوا إلى كتابة ما كتبوا من كتب عنه لاتزال تُقرأ إلى اليوم، وتطبع مكررا في طبعات شعبية في بلاد الحضارة الغربية بكل اللغات تقريبا. هذه النظرة تقابلها عند تلميذه المخلص إكسينوفون نظرة مماثلة، وإن تكن من منظور آخر: فالإعدام لسقراط، على نحو ما تقول رسالة «الدفاع» Apology لهذا الكاتب المؤرخ (وهي غير «الدفاع» لأفلاطون)، إنما هو أفضل حبل نجاة له من آلام المرض وعذابات الشيخوخة التي تنتظره وقد تعدى السبعين، حتى أن إكسينوفون لَيقول إن سقراط هو الذي استثار القضاة بترفعه وبتعاليه عليهم حتى اغتاظوا منه، فأصدروا الحكم بالإعدام، بدلا من النفي مثلا أو الغرامة، بعد الحكم بالإدانة[39].

لا شك في أن الحديث عن سقراط له مداخل وجوانب عديدة، ومنها مثلا بيان أهم اهتماماته ومواقفه الفكرية (البحث عن التعريف وعن الكلي، نظرية الأخلاق، مفهوما الخير والشر، وأولوية «تحسين النفس» و«العناية بها»، ونظرية النفس ذاتها التي نرى أنه هو أول من أشار إلى أهميتها في أثينا وعند اليونان خارج حدود المدرسة الفيثاغورية، إلى غير ذلك)، وتفصيل القول في منهجه الفلسفي، والحديث عن شخصه وألوان سلوكه التي كانت تصدم الكثيرين، وكذلك طبيعة أوجه الاتفاق والاختلاف بينه وبين السفسطائيين، وما إلى ذلك لكننا

اهتممنا هنا بما يتصل مباشرة بالعلاقة بينه وبين أثينا، التي تعلق بها كل التعلق، ورفض الهروب من السجن، وكان أمرا ممكنا متيسرا، وفضل تنفيذ أمر الإعدام عليه احتراما، فيما تقول محاورة «أقريطون» الصغيرة الدقيقة الجميلة لأفلاطون، لموافقته من البداية في حياته على طاعة «قوانين المدينة»، وهي عند سقراط «قلب المدينة» أو «نفسها»[40].

أخيرا يظهر وجه جديد لخطأ القرارات القضائية، والتي تقف وراءها مؤكدا مواقف سياسية من جانب الحزب الديموقراطي، في أثينا: ذلك أن مجد أثينا يأخذ في التراجع بدءا من 404 ق.م. وتفقد استقلالها تماما مع السيطرة المقدونية عليها (ابتداء من حوالي ستين عاما من بعد ذلك التاريخ)، لكنها مع ذلك تظل المدينة اليونانية الأعظم شهرة والأعظم احتراما، عند اليونان ثم عند الرومان وغيرهم، ليس بفضل ساستها، بل بفضل كتابها ومؤلفيها في مختلف الميادين، وخصوصا بفضل الفلاسفة الذين سيظهرون فيها أو يقيمون فيها مدارسهم الفلسفية، ومعظم المدارس الفلسفية في العصر الهلينستي ستقام على أسس من أفكار لسقراط، هذه المدارس الفلسفية سوف تعيش مئات السنين بعد ذلك وهي تدين بأسس لها قدمها سقراط، ذلك الذي أمرت أثينا الدولة بإعدامه، وذلك بدءا من تلميذه المباشر أفلاطون إلى تلميذ هذا أرسطو، وهو من أحفاد سقراط الفكريين بالتالي، حتى سائر مدارس العصر الهلينستي (ما عدا المدرسة الفيثاغورية الجديدة أو المحدثة) التي ستتأسس على أصول متنوعة من أفكار سقراط الغنية، وبذلك يسيطر سقراط على كل تاريخ الفلسفة اليونانية التالية على إعدامه، وحتى عام 529م.

إن الشخص نفسه الذي أرادت الدولة ونظامها السياسي إفناءه هو الذي سيضمن لأثينا دائم المجد، ونفس العقاب بالموت الذي ألحقته به سيكون هو ما ستُنتَج عنه حياة ثانية له تمتد عبر عصور وعصور، إن بين اليونان والرومان أو عند الحضارة الغربية.

ب - أفلاطون

نأتي الآن إلى ثاني أهم فيلسوفين أنتجتهما أثينا، وقد يكون هو الأهم واقعا، لأنه صانع بقاء شهرة الأول، سقراط، واستمرار تأثيره، ألا وهو أفلاطون.

ولد أفلاطون Plato (427 - 347 ق.م.) لأبوين أثينيين ينتمي الأب فيهما إلى كودرُس Codrus أحد ملوك أثينا الأقدمين بحسب الأقاويل المغلفة بالأساطير، ويرتفع نسب الأم إلى سلالة ينتمي إليها سولون المشرع العظيم، ويكون بهذا قد نشأ في بيت من البيوتات العريقة في أثينا، وتكون تربيته قد نُظمت حسب ما تكون عليه تنشئة أبناء الأرستقراطية الأثينية. وقد توفي أبوه وهو صبي، وتزوجت أمه من عمه، الذي كان، من قبل ميلاد أفلاطون، صديقا لبيريكليز ومناصرا له في السياسة. ولما كان من أقربائه المشتغلين بالسياسة، في صفوف الحزب الأرستقراطي في أثينا، كلٌّ من خاله خارميديس Charmides وقريب أمه لأبيها

كريتياس (Critias)، وكلاهما سيكون ضمن «الطغاة الثلاثين» المناصرين لإسبرطه والذين سيتولون الحكم بعد اندحار الجيوش الأثينية للنظام الديموقراطي أمامها عام 404 ق.م. لكنهما سوف يقتلان في نهاية تلك المقامرة المحزنة البائسة عام 403 بعد ثمانية شهور من الطغيان الدموي، نقول لما كانت الحال هكذا فإنه من المؤكد أن أفلاطون قد نشأ في جو سياسي قريب الصلة، ليس فقط من دهاليز السياسة «الأثينية»، بل وكذلك من كل ثقافتها، حيث نعرف، على سبيل المثال، أن كريتياس المذكور كان عالي الثقافة وكان صديقا لبروتاجوراس ولغيره من السفسطائيين. لهذا كله، فإن الشاب أفلاطون (وهو اسم الشهرة له، لأن اسمه الأصلي كان أرستُكليز على اسم جده، ثم سمي Platôn إما لأنه كان قوي الجسم، أو لاتساع مدى أسلوبه في الكتابة، أو لأنه كان عريض جبهة الوجه، وهو ما يظهر بالفعل في التماثيل النصفية التي وصلت إلينا عنه)[41] كان يُنتظر منه وله أن ينخرط في السياسة مدعوا إليها من المحيطين به، وكان هو يتطلع بالفعل إلى العمل السياسي وإلى الشعر المسرحي أيضا الذي يبدو أنه كانت له فيه بعض البدايات، حتى كانت الواقعة الأولى المهمة في حياته، وهو في العشرين من عمره، أي نحو عام 407 ق.م. حين التقى سقراط واستمع إليه، فقرر التعلق به ومصاحبته، وأحرق على إثر ذلك، فيما يقال، ما كان قد كتب من أشعار لكي يتفرغ للفلسفة، وإن استمر معه التطلع إلى العمل السياسي، حتى كانت الواقعتان الثانية والثالثة. أما الثانية فإنها واقعة ثلاثية الجوانب: هزيمة أثينا أمام إسبرطه، وتولي الطغاة الثلاثين الحكم ثمانية أشهر، وما قاموا به من فظائع، وأما الثالثة فكانت كالزلزال في وقعها على أفلاطون: إعدام سقراط عام 399 ق.م على يد أنصار الحزب الديموقراطي بعد عودتهم من المنفى، وإقدامهم بالتدريج على الانتقام من أنصار الطغاة الثلاثين وأنصار إسبرطه والحزب الأرستقراطي معا، وقد اعتبروا أن سقراط منهم، على الرغم من إنكاره هذا وإنكار أفلاطون معه. ولننظر إلى ما يقوله أفلاطون عن هاتين الواقعتين هو نفسه، وهو الذي كان يميل، بحكم انتماءاته وحكم تفكيره هو نفسه، وربما أيضا بتأثير من بعض أقربائه ومن سقراط نفسه، كان يميل إلى الحزب الأرستقراطي، فتوقع بالتالي خيرا من حكم الطغاة الثلاثين، ويبدو أن أقرباءه في هذه الطغمة عرضوا عليه العمل معهم، نقول: يقول أفلاطون في «الخطاب السابع» الشهير له، وبعد الإشارة إلى طموحه إلى الاشتغال بالسياسة في صباه، ثم إلى اشتراك اثنين من أقربائه المقربين، وهما كريتياس وخارميديس كما قلنا، وكلاهما يظهر في محاورة أفلاطون باسم الأخير منهما، في العصبة الأرستقراطية التي استولت على الحكم بعد هزيمة أثينا، بقيادة الحزب الديموقراطي، أمام إسبرطه، يقول: «ولم يكن عندي أي مبرر لأن أدهش [من قيام هذه المجموعة الأرستقراطية التي ستعرف باسم «الطغاة الثلاثين»]، فقد كنت أظن أن قصدهم كان تخليص الدولة من وضع ظالم وقيادتها على طريق العدل، وأنهم كانوا راغبين بالتالي

في تصريف الأمور بهذه الروح. لكل هذا أخذت أراقب تصرفاتهم، لكن سرعان ما رأيت أنهم جعلوا النظام السابق [الديموقراطي، أي حكم الكثرة أو الشعب] يبدو إلى جانبهم وكأنه عصر ذهبي حقيقة [لكثرة ألوان الظلم وسلوك العنف الذي اتبعوه]. وكان من بين ما حدث منهم أن سقراط، ذلك الشيخ الذي كنت أعزه، والذي لا أخجل من أن أقول إنه كان أعدل رجال ذلك العصر، سقراط هذا بعثوا به مع بعض المواطنين ليقودوا مواطنا آخر حتى يعدم، وذلك وسيلة منهم أن يجعلوا سقراط شريكا لهم، شاء أم لم يشأ، في أفعالهم. أما هو، فبدلا من إطاعتهم، فإنه فضل المخاطرة بتحمل أي شيء إلا أن يكون شريكا في أفعال مجرمة. أمام كل هذه الوقائع وأخرى غيرها وتماثلها خطورة، لم أستطع البقاء معهم أكثر من هذا، فابتعدت عن المساوئ التي كانوا يفعلون. وبعد ذلك بوقت غير طويل سقط هؤلاء الثلاثون»[42].

والحق أن شباب أفلاطون شهد جوانب مظلمة للحضارة اللامعة التي كانت تتلألأ قبل ميلاده وبعده، وهي جوانب الحرب المستمرة القاسية بين كثير من المدن اليونانية، وعلى رأسها أثينا وإسبرطه، والفساد السياسي في السلوك وفي المبادئ معا، وانهيار التقاليد التي كانت حتى ذلك الوقت موضع الاحترام وسند المجتمع اليوناني. أما الحرب، فقد استمرت عمليا طوال القرن الخامس ق.م، إن بين اليونان والفرس، أو بين معسكري أثينا وإسبرطه، أو حتى داخل حلف ديلوس نفسه بين أثينا وحليفاتها. وإذا كانت الحرب ضد الفرس قد قامت من أجل قيمة الحرية الغالية على اليونان، فإنه كان من الصعب تسويغ الحروب بين المدن اليونانية نفسها، وانتفى عنها كل دافع أخلاقي رفيع، وأصبح قانونها هو المصلحة لا العدل، وعمادها القوة لا الحق، حتى لقد أبيدت، سواء على يد أثينا أو على يد عدوتها أسبرطه، مدن بأكملها، وأُهلك كل قادر فيها على حمل السلاح، وبيع أطفالُها ونساؤها في أسواق العبيد. ومن أشد حالات الحرب قسوة ما أتى على جزيرة ميلوس Melos من جراء رغبتها في البقاء على الحياد بينما أصرت أثينا على أن تنحاز ميلوس إلى صفها هي ضد إسبرطة، خصوصا أنها صاحبة ميناء ممتاز، وتقع على طريق تجاري مهم، طريق كريت ومصر. فحاصرتها القوات الأثينية شهورا ثمانية واستولت عليها نتيجة للخيانة، والخيانة من علامات هذا العصر المتكررة، فأبادت كل الرجال وباعت النساء والأطفال. وقد أثبت مؤرخ هذه الحرب البيلوبونيزية، ثوكيديدس العظيم ما تبادله، أو ما كان يمكن أن يقوله، خطباء أثينا وميلوس قبل الحصار، ويهمنا هنا ما أعلنه الأثينيون من مبادئ تحدد سلوكهم: فهم يعتبرون أنهم لا يفعلون شيئا يعارض المبادئ الدينية ولا مبادئ البشر في تعاملاتهم، لأنهم يدركون أن الآلهة والبشر على السواء يطيعون في سلوكهم قانونا طبيعيا يدفعهم إلى السيطرة على الآخرين في كل مرة يكونون هم فيها الأقوياء، ولو كان أهل ميلوس في قوة أثينا لفعلوا ما تفعله هي، إذن فهي لا تخشى شيئا من غضب الآلهة أو استنكار البشر[43]. هذه هي قسوة الحرب، وهذا هو قانونها: قانون الأقوى.

والأخطر من ذلك أن هذا القانون أصبح أيضا مبدأ السلوك السياسي، وذلك بعد اطراح مبدأ العدالة جانبا، وهنا ننتقل إلى داخل المدينة اليونانية ذاتها لنجد أن فلسفة السلوك السياسي أصبحت تماثل فلسفة الحرب هذه. ولننظر إلى الكتاب الأول من محاورة «الجمهورية» لأفلاطون لنجد فيه تصويرا حيا لذلك على لسان شخصية عنيفة هي شخصية تراسيماخوس الذي يسخر من أقاويل سقراط حول العدل وارتباطه بالفضيلة والخير (336 ب. حـ)، ويتهمه باللف والدوران والثرثرة، لأن الحقيقة ها هي: العدل ليس إلا منفعة الأقوى (338 حـ - 341 أ)، وكل حكومة تقيم القوانين التي تناسب منفعة الحكام، وتعلن عدلا ما هو من مصلحتها وظلما يعاقب عليه ما يخالف هذه المصلحة (338 د. هـ). وإذا كان سقراط يظن أن راعي الغنم يرعاها لمصلحتها، فيا لسذاجته! إنما هو يعتني بها من أجل مصلحته هو، وكذلك الحاكم و«الرعية». وهكذا فإن العدل هو دائما مصلحة الأقوى، والأضعف هو الذي يدفع الثمن، والظلم هو ألا يعمل الضعيف من أجل منفعة الأقوى وسعادته (343 ب - د). وإذا قارن المرء بين الرجل العادل والرجل الظالم في كل ميادين النشاط فسيجد أن للأول المرتبة الأدنى وللآخر المرتبة الأعلى: فإذا اشترك عادل وظالم في تجارة فاز الثاني دائما، والظالم يدفع دوما ضرائب أقل مما يدفع العادل، وفي الوقت نفسه فإنه يتلقى فوائد أكثر بكثير مما يتلقى الآخر، وإذا اشترك العادل في إدارة أمور المدينة فإنه عادة ما يضطر إلى إهمال أموره الخاصة وإلى إغضاب أسرته وأصدقائه، أما الظالم فإنه يزيد من ثروته الشخصية إذا اشترك في سياسة المدينة ويثري معه أهله وصحابه. وهكذا فإن الظلم أنفع دائما لصاحبه والعدل مصدر مضرة، والظالم وحده هو القادر على قلب مصلحته لتكون العدل. ومثال الظلم هو الطاغية الذي يستولي عنوة على الحكم في المدينة ويقتل من يشاء وينهب ما يريد ويجعل الجميع خدما له. وهو الذي يقال عنه إنه الغني القوي السعيد: ذلك أن الناس تقدم ارتكاب الظلم على تحمله. والمرء يفضل أن يكون ظالما على أن يكون مظلوما (343 د، **وما بعدها**).

وواضح أن هذا المذهب، كما يلاحظ سقراط في الحوار (344 هـ)، وهو المتحدث باسم أفلاطون، إنما يضع كل حياة أهل المدينة موضع التساؤل: فهو يمتد من السياسة إلى الأخلاق، ويمس المدينة والفرد معا، خصوصا أنه يضع السؤال الخطير: ما الطريق إلى السعادة؟ هل هو الظلم كما يقول ثراسيماخوس، أم هو العدل؟ وهذا السؤال كان يضعه في الواقع كل أهل العصر، ونجد أصداء قوية له في الكتاب الثاني من نفس محاورة «الجمهورية»، وذلك على لسان جلوكون وأديانتوس، وهما أخوان لأفلاطون. فالأول يعرض على سقراط رأي أهل العصر الذي يميل إلى امتداح حياة الظلم وتفضيلها على حياة العدل، ويبدأ بالإشارة إلى أن أنواع الخيرات ثلاثة: خير يطلب لذاته وخير يطلب لذاته ولنتائجه معا وخير يطلب لنتائجه فقط، وأمثلة ذلك على التوالي المتعة والصحة والرياضة البدنية (357 د - هـ). وإذا كان سقراط يريد

أن يضع العدل في النوع الثاني، فإن الجمهور يضعه في النوع الثالث، فهو يطلب من أجل نتائجه وفوائده، ولكن المرء يحاول أن يتجنبه لذاته بسبب صعوبته (358 أ). ويمضي جلوكون ليعرض رأي الجمهور أو الرأي العام حول موضوع العدل مبتدئا بالمقصود منه وأصله، ثم مثنيا ببيان أن من يطبقونه لا يفعلون ذلك مختارين، ثم منتهيا بتفصيل أنهم محقون في ذلك، لأن حياة الظالم تفضل في الواقع حياة العادل[44].

ويهمنا هنا أن نشير إلى الانتقاد اللاذع الذي يوجهه أفلاطون، ومن قبله سقراط من غير شك، إلى بيريكليز نفسه، وقد تعرض لهذا في عدة أماكن من محاوراته، لكن أهمها من هذه الزاوية هي محاورة «جورجياس» القوية المتميزة. والسؤال الذي ينطلق منه أفلاطون هو: هل السياسيون الأثينيون، وسائر الخطباء الذين يصعدون منصة الجمعية الشعبية في أثينا صاحبة القرارات بالتصويت، هل يسعون بخطبهم إلى أن يجعلوا المواطنين يصيرون «أفضل» بقدر الإمكان، أم هم يسعون إلى تملق الجمهور، ويعاملونه هكذا وكأنه طفل، ويهملون المصلحة العامة من أجل الالتفات إلى مصالحهم الخاصة؟ (**«جورجياس»، 502 د - 503 أ، وللمحاورة ترجمة بالعربية**). إن أفلاطون يعتقد أن واجب السياسي هو أن يجعل «نفوس» المواطنين، تكتسب الفضيلة، سواء أراق هذا للمواطنين أم لم يرق: فهل فعل ذلك بيريكليز ومن سبقه من عظماء الساسة في أثينا؟ إنه يجد أنهم لم يفعلوا إلا إرضاء شهواتهم ومرضاة رغبات الجماهير أيا ما كانت، ولم يهتموا بجعل مواطنيهم يصيرون فضلاء (503 أ - حـ)، بل هو يتهم بيريكليز على الأخص بأن الأثينيين صاروا على يديه كسالى، جبناء، ثرثارين، لا تنتهي مطامعهم في اقتناء المال من الدولة، وذلك حيث إنه كان أول من رتب مكافأة عن أداء المواطنين للواجبات السياسية العامة، سواء في الحرب أو في القضاء وغير ذلك، بعد أن كان المواطنون يقومون بها بدافع من شعورهم المدني وحده (515 هـ). ثم ماذا كان جزاؤه على أيديهم؟ لقد أدانوه بتهمة السرقة، وكادوا يحكمون عليه بالإعدام! لقد جعلهم بيريكليز أسوأ مما كانوا عليه قبله ولم يجعلهم أفضل. وينتهي أفلاطون إلى هذا الحكم القاسي على السياسة الأثينية: «لم يحدث قط أن شهدت مدينتنا سياسيا صالحا» (516 هـ - 517 أ). إن الساسة التقليديين، في رأي أفلاطون، لم يعرفوا واجب العناية به، وهو «النفس»، ولا يعرفون واجبهم بإزاء مواطنيهم، والعلة الجذرية من وراء هذا كله هي أنهم غير مؤهلين للعمل السياسي، والتأهيل لا يكون إلا بشيء واحد بل بشيئين معا: المعرفة لمن كان لديه حسن الاستعداد[45].

إن حياة أفلاطون منذ بلوغه العشرين شاهدت التدهور المستمر لأحوال أثينا، وقد كان درس إعدام سقراط، إلى جوار تثبيته على قرار عدم الاشتراك في العمل السياسي في أثينا، بعد خيبة أمله في حكم الكثرة وفي حكم القلة معا، أي الحكم الديموقراطي والحكم الأرستقراطي، هو أنه لا جدوى من مجرد «الإصلاح» السياسي، بمعنى تغيير الدساتير،

أي نظم الحكم، بتعديلها أو ترميمها، إنما هو أصبح يدرك أن المطلوب هو إصلاح عميق يصل إلى حد التغيير الجذري لتصبح معه السياسة تربية أخلاقية للشعب، بقيادة الصفوة الفكرية، بحيث ارتبطت السياسة من الآن فطالعا عنده بالأخلاق وبالتربية، فهذه معا ثالوث لا ينفصم في فكره. إن هدف الوصول إلى نظام الحكم العادل الذي يوفر السعادة ويحقق الخير للمواطنين، هذا الهدف يتطلب إقامة تغيير كامل في نظام حكم، لا يقوم فقط على فصل الحكام عن المحكومين، وعلى ضرورة تخصص الحكام، وعلى ضرورة تربيتهم ضمانا لصلاحيتهم للحكم، بل وكذلك على هذا المطلب الأعلى: أن يتولى الفلاسفة الحكم، أو على الأقل أن يتحول الحكام إلى فلاسفة، وهم الذين يعرفون الحقيقة، ومعرفة الحقيقة أساس السلوك الصالح، وهذا تفريع مهم عن قضية سقراط الشهيرة: «الفضيلة، أي حسن أداء الوظائف، معرفة» وهم، أي الفلاسفة، الذين يعلمون حقيقة الخير، وهم المتخصصون حقا في السياسة وعلى نحو يحقق أهم مطلب سياسي: العدالة. وهذا هو في الواقع برنامج محاورة «الجمهورية» أهم محاورات أفلاطون. إن أفلاطون لم ينته إلى هذه النتائج، بشقيها السلبي والإيجابي، إلا بملاحظته أحوال مدينته وبتفكيره الدائب، وعلى خط سقراط، حولها، وليس أدل على قيام أثينا والعناية بها وبمواطنيها دائما في قلب اهتمامات أفلاطون شخصا ومفكرا أن أهم كتبه، وواحدا من أكبرها حجما، وهو من محاورة «الجمهورية»، تنطلق من التساؤل، في «كتابها» الأول، حول موضوع: كيف تنشأ المدينة، وتتخذ لنفسها موضوعا مركزيا هو تعريف العدالة، فتتحدث عن نظام الحكم وطبقات المجتمع ومراحل التربية، ثم هي لا تعرض لنظرية الوجود عنده، والمسماة بنظرية المثل، إلا في إطار عرض المقررات الدراسية التي سيدرسها من ثبت حسن قدراتهم وحسن استعدادهم لتولي أعمال الدفاع عن المدينة جنودا ثم أعمال الحكم العليا، أي السياسة، ثم تعرض من بعد ذلك لكل نظريات أفلاطون الأخرى، في هذه الفترة من حياته وهو قد بلغ الخمسين أو يتجه نحوها، في داخل هذا الإطار: تربية الحاكم الفيلسوف من أجل ضمان صلاح سياسة المدينة.

وهكذا تظهر أمامنا واقعة مهمة حول علاقة أفلاطون بالسياسة، ومن ثم علاقته بمدينة أثينا التي كان يفكر فيها دوما، ذلك أنه قرر عدم المشاركة في العمل السياسي في أثينا، وأن ينصب جهده على تقديم الأسس الفلسفية للنظرية السياسية القويمة. ومع ذلك، وحيث إن الاهتمام بالسياسة لم يفارقه يوما ما، كما يقول بعض المتخصصين في درسه، فإنه حاول تطبيق أفكاره الفلسفية السياسية مرة ومرتين وثلاثا، لكن خارج أثينا، وفي مدينة سرقصة (Syracuse) في جزيرة صقلية، حيث حاول تحويل ملكها، ثم ابنه بعد انتقال العرش إليه، إلى الفلسفة، وذلك في عامي 387 ق.م. ثم 367 ق.م. ثم حاول مساعدة أحد نبهاء الجزيرة وكان من أتباع فلسفة أفلاطون وصديقا حميما له، واسمه ديون (Dion)، بالسفر من أثينا

إلى صقلية من جديد عام 361 ق.م، بحرا بطبيعة الحال، ولنا أن نتصور صعوبات السفر بسفن تلك الأيام، لكنه لم ينجح مرة ثالثة. وحين عاد إلى أثينا، تفرغ نهائيا للتدريس ولكتابة كتبه، حتى وافته المنية عن ثمانين عاما، عاشها عزبا، على خلاف سقراط سلفه وأرسطو خلفه، عام 347 ق.م.

ومن أجل عرض خلاصة سريعة حول فلسفة أفلاطون، يتعين علينا أن نبدأ من بعض الملاحظات العامة الدالة وذات المغزى. إن أفلاطون ليس صاحب مذهب محدد من البداية، بل هو مفكر السؤال وإعادة الطرح وإعادة التناول: إنه صاحب المحاولات المتتالية حول كبريات المسائل التي شغل بها، وعبر فترات حياته الكبرى، في الشباب والنضج والشيخوخة. إن سقراط هو نقطة انطلاق أفلاطون، وفي وسط بحوثه محاولة العثور عن تعريفات الفضائل، أي الوصول إلى حقيقة المقدرات (أو القيم) اليونانية والجديرة بالأثيني بطريقة الفحص الحواري، إن بين شخصين أو في ذهن المرء مع نفسه سؤالا وجوابا. وحين اطلع أفلاطون على مذاهب الفلاسفة السابقين اعتنق اتجاه الفيثاغوريين بالاهتمام بالمجردات الرياضية في مقابل المواد المحسوسة المتغيرة أبدا والتي لا يمكن للذهن الإمساك بها لفرصها، ثم اعتنق رأي بارمنيدس أن الوجود الحقيقي هو ما تتوافر له صفتا الواحدية والثبات، ثم تفاعل كل هذا في ذهنه ليأخذ باتجاه مركزي سيظل ثابتا عليه طوال تجاربه الفكرية منذ نحو سن الأربعين، وهو القول بالثنائية أو الإثنينية (Dualism) الشاملة: فالوجود وجودان ثابت ومتغير، والعالم عالمان: عالم المحسوس وعالم المثل الثابتة ذات الطبيعة العقلية، والمعرفة معرفتان حسية وعقلية، والإنسان نفس وجسد، والشر يأتي من اتصال النفس الطاهرة بالجسد غير الطاهر الأرضي، إلى غير ذلك في مختلف الميادين. ولعل أشهر ما يعرف به أفلاطون هو ما يسمى «نظرية المثل» (Ideas أو Forms، باليونانية في المفرد: idea أو eidos)، والمفرد «المثال» يقصد به الكيان الواحد العقلي الثابت النموذجي لكل ما في اللغة من أسماء وصفات ولكل ما في العالم من أشياء وكائنات، فعالم المثل فيه مثال للإنسان وللعدالة وللبقرة...إلخ، وذلك على عكس حال أفراد الإنسان وأشكال الأفعال العادلة إلى غير ذلك، فهذه متعددة ومتغيرة وناقصة.

ونشير أخيرا إلى أمر ضمن لآراء أفلاطون مزيدا من الانتشار ومن التأثير معا: ذلك هو الشكل الذي وُضعت فيه آراؤه، وهو شكل المحاورة، فكأن أعمال أفلاطون الفلسفية مسرحيات فكرية، فهو لم ينس حبه القديم للشعر المسرحي، ولم يزل الفنان فيه حيا ينبض بالحياة إلى جوار الفيلسوف فيه، وإذا كان هذا الأخير هو الذي يسيطر في أعمال الشيخوخة، فإن محاورات أفلاطون في فترتي الشباب والنضج تعج بالحياة، وتُكسب عروضه فيها أسلوبا رائعا يعده مؤرخو الأدب من أهم أساليب التعبير اليوناني (الأتيكي) في العصر الكلاسيكي (للأدب هذه المرة لا لأثينا، وهو يمتد خلال القرنين الخامس والرابع معا قبل الميلاد)، حتى لتعد محاورة «فيدون» بالأخص قمة في الفلسفة وعينا من عيون الأدب اليوناني معا.

والآن، ماذا ترك أفلاطون لأثينا؟

لقد ترك، أولا، آثارا له تشهد على حبه الشديد لها، واهتمامه الدائم بإصلاح أحوالها العامة، أي بسياستها. ويكفي أن نقول في هذا الصدد إن أكبر كتابين له حجما، وهما «الجمهورية»، التي ربما ألفها وعمره نحو الخمسين، و«القوانين»، التي مات وهو لم يكملها، وعمره الثمانين، هما مؤلفان متصلان بالسياسة مباشرة، وإن كثيرا من محاورات الشباب له فيها إشارات وبحوث حول السياسة مباشرة هي الأخرى، ومنها «الدفاع» و«أقريطون» و«ألقبيادس»، وبخاصة «جورجياس» وغيرها، وإن محاورة مهمة من محاورات الشيخوخة عنوانها الصريح هو «السياسي»، بل إن ما سبق أن قلناه عن خلاصة تجربته وتأملاته في السياسة الأثينية إنما يعني أنه من الممكن تماما أن توضع النظرية السياسية كإطار عام لكل مباحث أفلاطون الفلسفية الأخرى، ومنها نظريته في الوجود وفي المعرفة وفي الأخلاق وغيرها، وهو ما يعود إلى القول إن أثينا هي المرجع الحقيقي لنشاط أفلاطون الفلسفي، تماما كما كانت مرجعا وهدفا النشاط أستاذه سقراط، الذي رأيناه يقول ويكرر: «أنا أعزكم أيها الأثينيون وأحبكم، لكن أطيع الإله أكثر مما أطيعكم، ومادام فيَّ نفس وكنت قادرا على ذلك، فلن أتوقف عن التفلسف وعن حثكم وموعظتكم» (**«الدفاع»**، 29 د).

ثم إن أفلاطون فعل لأثينا ما لم يفعله إلا - أحيانا أو قليلا - عظماء مسرحييها ومؤرخيها، ألا وهو تصوير ماضيها وحاضرها في أثناء حياته، بطريقة حية منوعة، من خلال ما جاء في مؤلفاته عنها، أمكنةً وناسا وأحداثا، وإن كان ذلك بطريق غير مباشر، ولكنه شديد التأثير في قراء محاوراته منذ أيامه إلى اليوم في الغرب وفي غير الغرب: ذلك أن كل محاورة أفلاطون لها محل للحوار، وهو دائما هذا المكان أو ذاك من مواقع أثينا المهمة أو المميزة، في أسواقها، وملاعبها ومحاكمها، وأبنيتها العامة، ومنازلها، حتى الريف المحيط بها، فكأن القارئ للمحاورات يجول في أرجاء أثينا، ويعيد بهذا إحياء ذكراها، بل يحيي إحياءً تلك المواقع.

ثم لا ننسى أن أفلاطون قد ترك لأثينا مؤسسة ستفخر بها على مر الزمان الطويل، ألا وهي مدرسته «الأكاديمية»، التي سيعتبرها الغرب أصلا من أصول جامعاته في عصريه الوسيط والحديث معا، والتي ستستمر تعمل وتفتح أبوابها للتدريس والبحث والكتابة، حينا بعد حين، حتى عام 529 ميلادية، أي أنها ستعيش أكثر قليلا من تسعمائة عام، وستكون مصدرا من مصادر تعظيم الرومان وغيرهم للمدينة وتكريمهم لها على أنحاء شتى إن في السلم أو في الحرب.

أخيرا، وليس آخرا، فإن أفلاطون ترك لأثينا شاهدا لا يبارى على عظمة أهلها في مجموعهم بإنجابهم هذه العبقرية الأفلاطونية التي أنتجت ما يسمى بالمذهب الأفلاطوني أو «الأفلاطونية» Platonism، والتي سيجري تأثيرها عبر اليونان والرومان إلى المسيحيين الأوائل

وإلى أفراد من الإسلاميين وإلى العصر المسيحي الوسيط في أوروبا وحتى الغرب إلى اليوم، ومنذ عصر نهضته الذي اهتم بـ «الأفلاطونية» اهتماما عظيما، مرورا بجماعة «أفلاطونيي كمبردج» في إنجلترا في القرن السابع عشر الميلادي، وإلى اليوم، حيث تعد المكتوبات عن أفلاطون ونظرياته بالمئات كل عام في اللغات الأوروبية وحدها. إن فلسفة أفلاطون هي لأثينا المصدر الأكيد إلى جوار فنونها، ومنها الأدب، وإنجازاتها الحضارية عموما وما شاركت به في تشكيل خريطة البحر المتوسط منذ أيامها إلى اليوم، هي المصدر الأكيد لشهرة أثينا ولتمجيدها. والحق أن المرة الوحيدة التي أنتجت فيها أثينا حقا إنتاجا فلسفيا بمعنى النصوص التي نضعها بين أيدينا، إنما كانت مع أفلاطون، لأن سقراط لم يكتب شيئا، وكما سبق القول فإنه لو لم يكن أفلاطون لامَّحت ذكرى كلمات سقراط الشفاهية خلال الأيام.

حـ - أرسطو

ونقول «المرة الوحيدة»، لأن الفيلسوف اليوناني الثاني العظيم أرسطو (384 - 322 ق.م)، لم يكن أثينيا، بل ولد في إستاجيرا (Stagira أو Stageira) (وتكتب أحيانا بالطاء، وعند بعضهم كذلك بالغين مكان الجيم)، وهي مدينة صغيرة من مدن مقاطعة خلقيدونيا، إلى الشرق من مقدونيا، وتطل على بحر إيجه، لأب طبيب في بلاط ملوك مقدونيا، لكنه جاء إلى أثينا في عمر الثامنة عشرة ليدخل إلى أكاديمية أفلاطون، مما يدل على شهرتها بين أرجاء بلاد اليونان كلها، وبقي فيها عشرين عاما، حتى وفاة أفلاطون عام 347 ق.م، ثم غادرها مدة اثنتي عشرة سنة، قضاها في التجوال بين بعض المدن اليونانية، ومنها ثلاث سنوات (342 - 339 ق.م) اشتغل فيها في عاصمة مقدونيا مربيا للإسكندر، حين كان وليا لعهد أبيه الملك فيليبوس. وقد عاد أرسطو ثانية إلى أثينا (عام 335 ق.م) على إثر السيطرة المقدونية على أثينا، وبقي فيها اثنتي عشرة سنة أيضا، أنشأ فيها مدرسته «اللوقيوم»، وسميت من بعد بـ «المدرسة المشائية»، وربما كان قد بدأ بتنظيمها في أثناء مرحلة تجواله في إحدى المدن، وأخذ في إنتاج أعظم كتبه، أو استكمال كتابة ما كان قد كتبه منها في مراحل سابقة، وفي تنظيم المدرسة التي كانت جامعة مصغرة بحق، حيث هي مكان للتدريس وللبحث المنظم الجماعي بإشراف الأستاذ، وبها مكتبة مهمة ومتحف طبيعي له قيمته، وكان يعاونه عدد ليس بالقليل من الباحثين المساعدين في العلوم الطبيعية وفي تلك الإنسانية معا، ومن إنتاجهم، على سبيل المثال، جَمْعُهم تحت قيادة أرسطو ما يزيد على الثلاثمائة دستور من دساتير المدن اليونانية كافة، لكن لم يصل إلينا، وبطريق المصادفة، إلا «دستور أثينا»، الذي عُثر عليه في طيات رمال الفيوم، بمصر، مكتوبا على البردي، وذلك عام 1891.

وما إن مات الإسكندر، أو قتل، عام 323 ق.م. حتى أراد الأثينيون الثورة على الحكم المقدوني، واعتبروا أرسطو ليس فقط صنيعة المقدونيين، بل وكذلك رمزا لهم، فأرادوا توجيه

الاتهام إليه، من جديد وبعد سقراط، بإنكار الآلهة، لكن أرسطو فضل الخروج من أثينا قائلا، على ما تقول حكايات العصر الهلينستي، ما معناه: «إنني لا أريد أن أجعل أثينا ترتكب الجرم نفسه في حق الفلسفة مرتين».

وقد قدم أرسطو فلسفة مختلفة اختلافا ملحوظا عن فلسفة أفلاطون، لأنهما كانا ذهنين مختلفين اختلافا بينا في اتجاهاتهما الأساسية، على الرغم من اتفاقهما حول أمور جوهرية ربما ترجع في معظمها إلى سقراط. فما يتفقان عليه أن العلم علم بالكلي universal، وليس بالجزئي، بالعام وليس بالمفردات، وأنه علم «بالجوهر» Substance، وبالتالي فإن مدار العلم هو التعريفات، وإن موضوع العلم لا بد أن يكون الثابت والواحد، وليس المتغير المتعدد. لكن أرسطو ذهن نظامي وتنظيمي، بينما أفلاطون يسيطر عليه الاتجاه نحو الاستغراق في فحص مسائل معينة لكي يصعد منها إلى رؤية عامة في صدد الموضوع المعين. وكان أرسطو يميل إلى استقراء وقائع الأمور قبل التنظير حولها، بينما أفلاطون ينطلق من الماهية Essence نحو تفسير الوقائع، ولهذا فبينما نجد أن العلم المفضل عند أفلاطون كان الرياضيات، فإن علم أرسطو المفضل إنما هو علم الأحياء خصوصا وعلم الطبيعة (الفيزيقا) عموما. أخيرا، فإن أفلاطون، الذي تأثر تأثرا قويا بالمدرسة الفيثاغورية ذات الاتجاه الرياضي، كان أيضا مثلها ذا اهتمامات دينية و«أخروية» (ما يتصل بما بعد الحياة)، وكان حسه الديني بل والتصوفي يظهر في بعض الفترات بارزا حادا، هذا بينما كان أرسطو، وهو نموذج العالم المدقق، أقرب بمزاجه الفكري إلى المدرسة الأيونية الطبيعية، فكان ذا توجه وضعي، وهو ما تشير إليه، ضمن أشياء أخرى، طريقة الفنان الإيطالي العظيم رافائيل Raphael، من عصر النهضة الأوروبية، في لوحته المسماة «مدرسة أثينا»، والتي تصور في الواقع أهم عظماء اليونان بعامة من البداية ومن أثينا ومن غيرها، طريقته في تصوير أفلاطون وأرسطو: فقد وضعهما أولا في منتصف اللوحة الضخمة، وكأن الفلسفة عنده، والعلم، هما قلب مآثر أثينا واليونان، ثم إنه ثانيا صورهما بحجم كبير نسبيا، لكن ما يهمنا هنا هو أننا نرى أفلاطون وقد صوره الفنان، إلى اليسار من منظور الرائي، رافعا ذراعه وأصابع يده تشير ناحية الأعلى، أي السماء وعالم المثل الأفلاطونية، بينما أرسطو، إلى اليمين من جهة نظر الرائي، ذراعه مستقيمة متعامدة على جسمه بينما يده اليسرى وأصابعها تشير إلى أسفل، إلى الأرض، أي هذا العالم الفعلي الذي نعيش فيه، وهو عند أرسطو الموضوع الفعلي لكل الفلسفة.

والحق أنه ربما كان مفتاح كل فلسفة أرسطو رفضه اتجاه الثنائية الأفلاطوني، إن في الوجود، فقال إن الموجود الحقيقي هو المكون من الصورة والمادة معا وعلى نحو الالتحام التام، وليس من «الصورة» Form وحدها، وهي التي تقابل «المثال» عند أفلاطون، وإن في موضوع النفس، فرفض ثنائيتها وتنافرها مع الجسد على نحو ما نجد في محاورة «فيدون» لأفلاطون،

وقال بواحدية الإنسان وبالاتحاد الذي لا ينفصم بين الجسم والنفس، فإن فني الجسم ماتت النفس، وهو ما ترتب عليه نفيه خلود النفس، إلى غير ذلك من باقي جوانب فلسفته. وقد أشرنا إلى سمة التنظيم في الفكر الأرسطي، لهذا فإنه يمكن فهم وتقديم الفلسفة الأرسطية على هيئة نظام، مهما يكن من تطور تفكيره ما بين مرحلة وأخرى من مراحله الثلاث: مرحلة الدراسة في الأكاديمية مع أفلاطون أستاذا، ومرحلة التنقل، ثم مرحلة الاستقرار الأخيرة في أثينا.

ومدخل النظام الأرسطي كله هو المنطق، وهو إبداع أرسطي خالص من لا شيء على التقريب، وأما أساسه فهو ما كان يسميه هو «الفلسفة الأولى»، والتي عرضها في عدد من الدراسات جُمعت معا من بعد موته بوقت طويل تحت اسم «الميتافيزيقا»، وأهم ما تقوم عليه هذه الفلسفة الأولى، أي الأساسية، خمسة مفاهيم: زوجا «الصورة» و«المادة»، حيث لكل شيء هيئة وتكوين وبنية وقانون من جهة، ومادة يتجسد فيها كل ذلك من جهة أخرى، وزوجا «الفعل» Act و«القوة» أو الإمكان Potentiality، حيث كل كيان وسلوك وحركة تكون أولا في حالة «ما بالقوة»، كما هو الأمر مع الطفل الذي هو بـ «القوة» أو الإمكان شاب بالغ، لكنه لا يصير كذلك فعليا، أي «بالفعل»، إلا عندما تدخل عليه صورة البلوغ، أي هيئته وتكوينه وخصائصه وبعد تحقق شروطه، وأما المفهوم الخامس الكبير، فهو مفهوم «الإله»، الذي هو مبدأ العالم، لكنه صورة محضة ليس فيها مادة ولا تختلط بمادة، فهو «عقل» خالص، ووجوده هو فكره، وهو لا يفكر إلا في ذاته، لأنه كمال وسعادة خالصة، ولو فكر فيما هو أدنى منه لفقد كماله وسعادته، ومن هنا فإن العالم كله معلق على المبدأ الأول، بينما هذا المبدأ لا يفكر ألبتة في العالم ولا يعتني به على أي نحو.

ولا نستطيع في هذا المقام التوسع في عرض ميادين فلسفة أرسطو الأخرى أكثر من ذلك، وهو يكفي لبيان بعض من أهم خواص الفلسفة الأرسطية، التي احتوت تفسير كل شيء عرض له كل الفلاسفة اليونان من قبله، ويمكن أن نقول في شأن ذلك على التقريب: «كل الصيد في جوف الفرا»، لكن أرسطو هضم كل ما سبقه واستخلص منه ما يستطيع قبوله ويجده سليما، ثم وضع كل شيء، مع إضافات عبقرية وتكوينية من ذهنه، في تكوين جديد تماما ومختلف كثيرا عما تحتويه فلسفة أفلاطون. وهذه الحال تسبب العجب دائما: فكيف يَخرج هذا الفيلسوف عظيم الأصالة من معطف فيلسوف هو نفسه كيان ضخم مؤثر؟ والواقع أن أرسطو يبدأ كثيرا من كتبه بإثبات انتقاداته الشديدة والمؤثرة لأهم مواقف أفلاطون واتجاهاته، وبالأخص «نظرية المثل» التي قال أرسطو عنها إنها «تشبيهات شعرية»، محتفظا مع ذلك بعظيم الاحترام لأفلاطون، وقائلا للمتعجب: «أحب الحق وأحب أفلاطون، لكني أحب الحق فوق حبي لأفلاطون».

وهكذا، فإن أرسطو قد قضى في أثينا، في مرحلة الطلب ثم في مرحلة الاستقرار والأستاذية، ما يزيد قليلا على نصف عمره، فهو على صلة قوية بها من غير شك من هذه الناحية، وهو ترك فيها، هو الآخر، مدرسة فلسفية وعلمية مزدهرة، ستزهو بها أثينا على مر الأيام أيضا.

رابعا: أثينا عاصمة دائمة للفلسفة اليونانية وتصدرها في العصر الهلينستي

بعد أرسطو لم تشهد الفلسفة اليونانية جديدا فلسفيا بالمعنى القوي للكلمة، وعلى الرغم من الازدهار العظيم لمدرستي أفلاطون وأرسطو وظهور مدارس فلسفية جديدة عظيمة الأهمية على امتداد الفترة المسماة بـ «العصر الهلينستي»، فإن مختلف هذه المدارس لم تقدم إبداعات بالمعنى الدقيق، بل عمدت إلى تفصيل القول في بعض مذاهب السابقين، من الطبيعيين أو من سقراط أو من أفلاطون أو من أرسطو، وبالجمع بين آراء منوعة لواحد ولآخر، واختلاق مذهب جديد من جراء هذا التجميع، وأيضا بالجمع بين آراء يونانية واتجاهات غير يونانية، وباختصار فإن العصر الهلينستي، فلسفيا، هو عصر توفيقات إلى حد التلفيق الصريح أحيانا. وقد سمي هذا العصر، في اللغات الأوروبية وحديثا، بـ «الهلينستي» Hellenistic لكي يقابل الصفة «هليني» Hellenic التي تعني «اليوناني» أو «الإغريقي» القح، وبهذا فإنه يعني عصر اختلاط بالعناصر المصرية والشرقية عامة، أي أن فيه أشياء يونانية وأخرى غير يونانية. ويختلف الكُتاب في امتداده الزمني: فمنهم من يجعله يمتد من موت الإسكندر (323 ق.م.) حتى وقوع مدن اليونان جميعا تحت الحماية الرومانية (146 ق.م.)، كما أن منهم من يجعله يمتد ليشمل العصر الروماني نفسه، بل وأحيانا ما تدل الصفة أيضا على الإنتاج المكتوب باليونانية غير المتأثر بالمسيحية، بعد انتشار المسيحية، وحتى عام 529م، عام غلق الإمبراطور البيزنطي يوستنيان المدارس الفلسفية في أثينا، لأنها تقول بالأفكار الوثنية، ولم يعد يحتملها النظام الحاكم المسيحي الأرثوذكسي. على كل حال، فإن العالم سوف يشهد، نحو ثلاثين عاما بعد ذلك التاريخ، مقدمات ميلاد حضارة جديدة قوية مختلفة.

وقد كانت أولى المدارس الفلسفية التي أنشئت في العصر الهلينستي في أثينا، وعلى أيدي غير الأثينيين، مدرسة أبيقور (306 ق.م) والمدرسة الرواقية على يد زينون الرواقي (300 ق.م.)، وهذه الأخيرة ستكون أهم مدارس العصر وأعظمها انتشارا خارج أثينا وأكثرها أتباعا وأقواها تأثيرا حتى في خلال العصر الروماني، حيث سيظهر مثلا إمبراطور روماني هو نفسه فيلسوف رواقي، وهو ماركوس أورليوس (121 - 180م.). وإلى جوار هاتين المدرستين الأوليين في ذلك العصر، ومع استمرار حياة الأكاديمية واللوقيوم ونشاطهما، سيظهر في أثينا ممثلون لمدارس أخرى فلسفية، منها المدرسة الفيثاغورية المحدثة أو الجديدة والمدرسة الأفلاطونية

المحدثة. ولعل من أهم أحداث هذا العصر التي تعيد صلات الفلسفة مع السياسة في أثينا «سفارة الفلاسفة» الشهيرة في عام 156 ق.م، حين أرسلت أثينا إلى روما رؤساء المدارس الكبرى الثلاث، الأكاديمية والمشائية والرواقية، لكي يدافعوا عن موقفها حول بعض الأحداث، وأحدث وصولهم هناك ضجة كبرى إذ التف الرومان حولهم معجبين، ونال كارنيادس Carneades على الخصوص، رئيس الأكاديمية وواحد من أهم الفلاسفة الشكاك (حيث كانت أكاديمية أفلاطون قد تحولت إلى هذا المذهب)، نال أعظم اهتمام وإعجاب، إذ ألقى محاضرتين في يومين متتاليين، في الأولى مدح العدالة باعتبارها فضيلة، وفي الثانية أنزلها إلى مرتبة أداة اتفاقية لتحقيق الاستقرار الاجتماعي.

وإذا كانت أثينا ستستمر اسما شهيرا محترما[46]، فإنه لم يبق لها إلا كونها عاصمة المدارس الفلسفية الكبرى، بعدما زالت عنها كل علامات القوة الأخرى، حتى من النواحي الثقافية غير الفلسفة: فقد ظهرت لها منافسة خطيرة، وهي الأخرى، يونانية قلبا وقالبا، تلك هي الإسكندرية، التي أسسها الإسكندر عام 331 ق.م، وأصبحت كبرى المراكز الثقافية اليونانية مع حكم سلالة الملك بطلميوس الأول، الذي كان من قواد الإسكندر ونال مصر مقاطعة يحكمها من بعد موته، ثم استقل بها وأصبحت لورثته «البطالمة» في العصر «البطلمي» نسبة إلى اسمه. فقد جذبت الإسكندرية أهم العلماء والشعراء واللغويين والجغرافيين والمؤرخين وغيرهم من اليونان، وأصبح «لمتحفها» ومكتبتها شهرة عظمى، فصارت هي العاصمة الثقافية لليونان، فيما خلا الفلسفة. لكن، حتى في الفلسفة فقد كان بها ممثلون لكل الاتجاهات الفلسفية، كما ظهرت فيها أبحاث ومدارس ذات أهمية، منها المدرسة الفلسفية اليهودية مع فيلون اليهودي Philo والمدرسة الأفلاطونية المحدثة مع أمونيوس ساكاس وأفلوطين Plotinus (205 - 270 م)، الذي سيتعلم في الإسكندرية، لكنه سوف يتخذ من روما مقرا لتعليمه ولإنتاج فلسفته (244 - 270م).

ومع مرور الزمن، أصبح الإنتاج الفلسفي، إن في أثينا أو في الإسكندرية، أو في غيرهما من مقار الثقافة اليونانية، ومنها ما كان في سورية، لا يكاد يتعدى كتب الملخصات والتواريخ والحكم والحكايات المجموعة، مع تميز عن هذا أو ذاك برأي جانبي في هذا الموضوع الصغير أو في ذلك الآخر. ومن أواخر الأسماء المهمة في الفلسفة ممن عاشوا في أثينا، وإن لم يكن أثينيا، بُرُقْلس (Proclus) (412 - 485 بعد الميلاد)، الذي كان عالما واسع العلم، كما كانت له إضافاته المهمة نوعا ما إلى مذهب الأفلاطونية المحدثة، وسيعرفه «المتأغرقون» في الحضارة الإسلامية باسمه وببعض ما قال.

يمكن أن نقول إن الفلسفة اليونانية عموما، وفي أثينا بالتالي، كانت قد دخلت دور الشيخوخة مع بداية العصر الهلينستي، وأخذ معين الإبداع، ولو كان جزئيا وفي الفروع، ينضب

فيها، لكن سيرها نحو الموت كان بطيئا، حتى لقد امتد إلى نحو منتصف القرن السادس الميلادي، وذلك بعد أن سمحت للعناصر الدينية والتصوفية، ومصادرها كانت مصرية وشرقية عموما، بغزوها حتى النخاع، وذلك بإعلاء قيمة المعرفة التي تأتي إما من الانجذاب الصوفي وإما من الوحي الديني، على قيمة الأداة التي أعلى من شأنها كل الفلاسفة اليونان من طاليس إلى أرسطو، وحتى عند أبيقور، وكذلك عند الرواقية، ألا وهي قيمة «العقل» Logos، هذه الكلمة (وهي تعني «الحجة» أيضا) التي يمكن اعتبارها خلاصة برنامج النظرة الفلسفية اليونانية كلها. ويرى المؤرخ الألماني لتاريخ الفلسفة اليونانية إتسلر Zeller أن هذا الهدم الذاتي لجوهر الفلسفة عند اليونان يعبر عنه قول برقلس الذي أسلفنا الإشارة إليه من فورنا، في إحدى ترانيمه إلى الآلهة الوثنية: «والآن دعني أهبط، أنا المنهك، إلى مرفأ التقوى الأمين».[47]

خاتمة ونظرة عامة

إن قانون الحياة الإنسانية، بل وكل حياة، أي قانون الميلاد والنشأة والصبا والبلوغ والنضج والكهولة والشيخوخة والموت لينطبق أيضا على كل ما ينتجه الإنسان، ومنه الثقافة، ومنها المعرفة والعلم والفكر، ومن الفكر الفلسفة اليونانية - أي نوع الفكر الذي يخص اليونان واليونان وحدهم - التي نشأت نحو 600 ق.م. خارج أثينا، لكنها، بعد أن تطورت، نضجت ووصلت إلى قمتها في أثينا، غير أنه، ومع نهاية نظام «دولة المدينة» السياسي، أخذت تدخل على تلك الظاهرة عوامل الضعف ثم التحلل، فأصابتها الشيخوخة في أثينا ثم في الإسكندرية ثم في روما، لتفقد بعد ذلك، وفي أثينا من جديد، في آخر مائتي عام لها أو أكثر، ماءَ الحياة شيئا فشيئا، حتى تموت أخيرا فيها بإقفال المدارس الفلسفية عام 529 للميلاد.

إن أثينا لم تنشأ فيها الفلسفة اليونانية لأن عوامل القوة الثقافية لم تكن قد توافرت لها بعد، وما إن كان ذلك، بعد انتصارها المدوي على الفرس كقائدة لليونان وما تلا هذا من نتائج، حتى استقبلتها ثم أضافت إليها أهم وأقوى إضافاتها ممثلة في ثالوث: سقراط وأفلاطون وأرسطو، حيث الثالث لم يكن أثينيا لكنه تعلم فيها عشرين عاما، وأقام بها في مجمل السنين ما يزيد بقليل على نصف عمره، ثم إنه يوناني، وهو ما يجعلنا ننبه إلى أن أثينا إنما أنتجت الفلسفة لأنها يونانية، والفلسفة اليونانية هي إنتاج كل اليونان من مشرقهم إلى مغربهم إلى أوسطهم في شمال البحر المتوسط، والنشاط الفلسفي في أثينا لم يقتصر على الأثينيين، بل اشترك فيه، منذ السفسطائيين وسقراط وتلامذته حتى النهاية، يونانيون من العديد من المدن الأخرى، ولهذا الاعتبار، فإننا اهتممنا بإيضاح عوامل ظهور الفلسفة وكيف ظهرت كنتيجة لحضارة اليونان ولثقافتهم ككل، ولأن في هذا، في النهاية، تفسيرا لظهورها من بعد أيونيا وجنوب إيطاليا وصقلية في أثينا نفسها.

لقد ظهر لنا أن الفكر لا يزدهر في ثقافة ما إلا مع ازدهار تلك الثقافة ككل، وحيث كان الازدهار الفلسفي كانت، غالبا، القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية والإنتاج العظيم في تنظيم المدن وفي الفنون التشكيلية وفي تلك اللغوية، وعلى رأسها عند اليونان الشعر والمسرح والخطابة، إلى جوار ازدهار حركة التأريخ على أشكال منوعة، إلى غير ذلك. وقد ظهر لنا من خلال الدراسة الحالية أن ازدهار الفلسفة عند اليونان عموما، وفي أثينا خصوصا، قد ارتبط بقوة الشعور بالفردية للشخص اليوناني وباستقلاله، وبخاصة في نظم الحكم الديموقراطية (وليس من المصادفة في شيء أن إسبرطة لم تنجب فلاسفة، لكي لا نتكلم إلا عن هذا الميدان)، ومعهما هذا الأساس الكبير في الاتجاهات الذهنية والسلوكية معا عند اليونانيين مقارنين أنفسهم بأمم مصر والشرق: إعلاء مقدَّر (أو قيمة) الحرية، الذي اعتبروه أهم ما يقدرون في الحياة الإنسانية. إن العصر الكلاسيكي في الثقافة اليونانية (خلال مجمل القرن الخامس ق.م، ونصفه الأخير على الأخص) إنما هو عصر دولة المدينة، وهنا ينطبق على المدينة كوحدة سياسية ما ينطبق على الفرد فردية واستقلالا وحرية، وكل هذا قضى عليه إخضاع الملك المقدوني جميعَ مدن اليونان وإنهاء نظام دولة المدينة، فكأن القلب المعنوي للثقافة اليونانية قد ضُرب في مقتل، فلا عجب من بعد ذلك أن يتوقف الإبداع الفلسفي خاصة والإبداع اليوناني عامة من بعد عام 323 ق.م، عام موت الإسكندر، وتَلَتْه بعام وفاة أرسطو، وظهر عصر التوفيق، ثم التلفيق بين آراء من مصادر شتى، ثم تُرك الاهتمام بالنظر الخالص، على الأقل كهدف أول ومنهجي، الذي ميز كل البحوث الفلسفية والعلمية عند فلاسفة اليونان منذ طاليس حتى أرسطو، فأصبح موضوع الفلسفة الهلينستية أخلاقيا وعمليا، وهو: كيف نعيش سعداء وكيف نجلب الخير لأنفسنا، والسلام. في كل هذا، وابتداء من عام 460 ق.م، كانت أثينا دائما في قلب النشاط الفلسفي اليوناني استقداما وتشجيعا وإنتاجا وتدريسا ودراسة، لكنها أثينا نفسها، أو قل بعض أنظمتها السياسية، التي أعدمت أول فيلسوف بالمعنى الحقيقي فيها، سقراط، والتي رفعت دعويين من قبل ذلك على أنكساجوراس وبروتاجوراس بتهمة عدم احترام الديانة الأولمبية، كما رفعت بعد سقراط أيضا التهمة نفسها على حفيده المذهبي أرسطو، وكلها إجراءات سياسية تظهر صعوبة ممارسة حرية الرأي وصعوبة المعايشة بين الفلسفة والسياسة معا. نعم، إن القادر على أعظم الأمور أحيانا ما يكون هو نفسه قادرا على أدناها.

الهوامش

1 سنكتب أسماء الأشخاص والمدن وغير ذلك، واضعين إلى جوارها غالبا الرسم المقابل الغالب لها في اللغة الإنجليزية، كما أننا سنضع بعض الكلمات اليونانية مكتوبة بالحروف اللاتينية، مع الإشارة إلى حالة المد هكذا: ê أو ô. أما المعايير التي اتبعناها في كتابة الأسماء اليونانية عموما، فهي كما يلي على ترتيب الأهمية:

أ - استخدام ما استقرت عليه كتابتها في مؤلفات الحضارة الإسلامية (مثلا «أفلاطون» وليس «بلاتون»).

ب - استخدام ما ذاع على أقلام كبار العلماء في العصر الحديث عندنا من الجيل الأول والثاني، حتى نحو 1960م، في تآليفهم أو في تراجمهم، إن عن اليونانية، وهي نادرة جدا، أو عن اللغات الأوروبية الحديثة.

حـ - اعتماد النطق اليوناني القديم أساسا، لكن بحسب ما يتناسب مع الأحرف العربية نطقا وكتابة (مثلا «إكسينوفون» وليس «كسينوفون»)، مع بعض الاستثناءات مراعاة للتناسب الصوتي (مثلا نكتب «ثوكيديدس» وليس «ثوكوديديس»، وهذا الاسم يكتب، بالمناسبة، في اللغات الأوروبية الكبرى، بحسب قاعدة تحويل حرف u اليوناني إلى حرف y :Thucydides وThucydide وغير ذلك). وقد اجتهدنا في كتابة حرف s اليوناني في نهاية الأسماء إما بالسين أو غالبا بالزاي. والواقع أن الكتب العربية المتناولة لليونان تظهر تباينا كبيرا في طرق كتابة الأسماء خاصة والكلمات اليونانية عامة، والواجب قيام جهة ذات كفاءة وسلطة وتأثير بتقديم أفضل الاقتراحات للتوحيد في ذلك الشأن.

2 انظر مثلا: سيد الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم...، ط 4، القاهرة، 1994م، ص 35 - 88، وكذلك ص 25 - 31.

3 لا يفوت المؤرخين الثقات الحديث عن هذا البعد الحضاري المهم، فانظر مثلا: جورج سارتون، «تاريخ العلم...»، الجزء الأول من الترجمة العربية، القاهرة، د.ت (نحو 1954م)، ص 227 - 286، ص 351 (وهذا الكتاب لايزال مفيدا جدا، وسارتون، البلجيكي الأصل، عالم من الطبقة الأولى، وكان يجيد العربية نفسها قراءة وكتابة)، ولطفي عبدالوهاب يحيى، «اليونان.. مقدمة في التاريخ الحضاري»، الإسكندرية، د.ت، ص 26 - 34 (هذا الكتاب يحتل مكانا في مقدمة الكتب التي كتبت بالعربية في موضوعه، دقة واصطلاحا وشمولا وعمقا).

4 من أهم من قال بتلك الدعوى John Burnet, Early Greek philosophy، ويشير إلى المصطلح باستخدام خاص مخفف كثيرا: سارتون في المرجع المشار إليه، ص 347، ويرد على تلك الدعوة، مثلا، المؤرخ السويسري فرنسي اللغة في كتاب صغير دقيق عنوانه «الفلسفة اليونانية»، ويوجد بالفرنسية في طبعات شعبية، وترجم إلى العربية في بيروت. وانظر أيضا كتابنا: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، ط 2، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الكويت، 2003، ص 6 و14 - 17.

5 عند أفلاطون في محاورة Theaetetus, 155d (وفي ترجمتنا: أفلاطون، «في العلم (محاورة ثياتيتوس)»، لجنة التأليف والترجمة والنشر بجامعة الكويت، الكويت، 2001م، ص 105 وعند أرسطو: Metaphysice, I, 2, 982b.

6 يقول إدوارد إتسلر، وهو واحد من أهم مؤرخي الفلسفة اليونانية في الغرب، وربما أكبرهم، حول تفاعل عوامل متنوعة لإنتاج نظام «دولة المدينة» على نحو ما استقرت عليه حالها عند اليونان: «جعل التحول التدريجي في نظام المبادلة التجارية إلى نظام استخدام النقود في المعاملات، جعل أرستقراطية ملاك الأراضي المتوارثة بمحض الميلاد تختفي شيئا فشيئا لتحل محلها طبقة من البورجوازية الثرية الطموحة. وقد كان الصراع بين الطبقتين شرسا وحادا، وكثيرا ما حدث في ظروف النزاع بين الشعب وطبقة النبلاء أن استطاع بعض الأفراد الأقوياء أن يفرض نفسه حاكما مطلقا، أو أن تثق الأطراف المتنازعة في شخص

عرف بمهارته وبعدله ليقوم هو بالفصل في النزاع. وأخيرا انتهت كل هذه العواصف السياسية والاجتماعية إلى الانتقال إلى حكم دستوري يغلب عليه إما الطابع الأوليجاركي (حكم الأقلية) أو الطابع الديموقراطي (حكم الشعب). وهكذا ظهر نظام «المدينة» اليونانية بالمعنى الدستوري: المدينة يسهر مواطنوها بلا كلل على الحفاظ على حريتهم ويحاولون باستمرار مد نطاق تلك الحرية بالمشاركة المتحمسة في الشؤون العامة».

Ed. Zeller, Outlines of the History of Greek philosophy, trans N.y, 1962, p.28.

7 انظر الهامش (5) مما سبق.

8 أفلاطون: Symposium (وبالفرنسية Le Banquet)، ولها ترجمة عربية في كتاب علي سامي النشار وزميليه، «المأدبة. أو في الحب لأفلاطون»، الإسكندرية، 1970م، وهو كتاب مفيد من حيث البحوث التي يحتويها، ما بين مترجمة ومؤلفة، لكن ترجمة نص أفلاطون فيه ليست بالدقيقة دائما، لأنها عن الفرنسية ومن وجهة نظر أدبية أو عامة، ونحن الآن بسبيل نشر ترجمة هذه المحاورة شديدة الطرافة عن النص اليوناني مع التقديم والتعليقات، كما هي الحال في ترجماتنا لأفلاطون التي سنشير إلى بعضها هنا.

9 كتابنا: «الفلسفة اليونانية...» المذكور، ص 46 (بترجمة أستاذنا أحمد فؤاد الأهواني في كتابه الرائد «فجر الفلسفة اليونانية»).

10 وهو ما يظهر من مسرحية أرستو فانيز «الطيور»، التي خلفيتها هي أحداث السياسة الأثينية في وقت عرضها (عام 414 ق.م).

11 Thucydides, 2. 35 - 46.

12 Diogenes Laertius, Lives..., Loeb ed., II. 7.

13 نفسه، 13 - II. 12.

14 سارتون، «تاريخ العلم»، الجزء الثاني، ص 40 - 41، مع تعديلات طفيفة على الترجمة.

15 Ed. Zeller, op. cit., P.80.

16 يقول ديوجينيز اللايرسي في كتابه المذكور فوق (10 وII) أيضا إن الشاعر المسرحي الأثيني المشهور يوريبيديز قال في مسرحيته Phaëthon إن الشمس كتلة ذهبية من الحجر.

17 انظر محاورة أفلاطون، «الدفاع» Apology 26d - e، وفي كتابنا «محاكمة سقراط»، ط 1، ص 138 (26 د - هـ) وحول اطلاع سقراط عليه: أفلاطون، «فيدون» (Phaedo)، 97c وما بعدها، وفي كتابنا: أفلاطون، «في خلود النفس. محاورة «فيدون»»، ط 2، ص (97 حـ) ويذكر ديوجينيز اللايرسي في كتابه المذكور إن كتاب أنكساجوراس هو أول كتاب توضع فيه تصاوير (II. 10).

18 انظر ترجمتنا لكتاب أولف جيجُن، «المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية»، القاهرة، 1976، ص 159 و167.

19 نفسه، ص 214.

20 أفلاطون، «الدفاع»، 26 د - هـ.

21 المصدر نفسه 18 د، و19 أ - ب، و29 حـ، وغيرها، ومقدمة «الدفاع» في كتاب «محاكمة سقراط»، المذكور، ص 86 - 87.

22 The Legacy of Greece, M.I. Finley, ed., Oxford, 1981, p. 215.

وحول الاتهامات وما حولها، سارتون، «تاريخ العلم» الجزء الثاني، ص 44 - 45. ونشير هنا إلى الفرق الكبير بين هذه الحالة وحالة حرق مقر المدرسة الفيثاغورية في كروتونا، حيث الدوافع في هذه الحالة الأخيرة سياسية وثأرية.

23 النص المذكور في هامش (17)، فوق.

24 مما يدل على أهمية زيارة هذا الفيلسوف لأثينا أن كتاب:

The Oxford Companion to Classical literature, M.C. Howatson, ed., Oxford 1989, p.609,

وضعها ضمن «الجدول الزمني» للأحداث التاريخية والثقافية الكبرى، الذي وضع في نهاية الكتاب قبل الخرائط، وإن كان يحدد تاريخها بعام 462 ق.م.

25 Diogenes Laertius, VIII, 67.

26 انظر عموما حول محاورة «بروتاجوراس» لأفلاطون.

27 «الجمهورية»، الكتاب الخامس، 469 ب - حـ.

28 انظر «الدفاع» لأفلاطون، 29 حـ - 30 ب، وفي مقدمة المحاورة في كتاب «محاكمة سقراط»، ص 115 - 114، وعن السياسة عند سقراط، ص 102 - 106.

29 انظر ما يقوله المؤرخ الألماني إدوارد إتسلر حولهم: «كان السفسطائيون يسافرون من مدينة إلى أخرى مدرسين متجولين، ويتقاضون أجورا عالية عن دروسهم (وكانت هذه حال الأطباء والفنانين التشكيليين والشعراء الذين كانوا يكتبون قصائد الانتصار حسب الطلب، وكذلك أيضا في وقت سابق شأن زينون الإيلي)، ولهذا فإنهم كانوا على وعي بالمخاطر التي يتعرضون لها حين يقومون بنزع الشباب من دائرة العائلة، وهي دائرة وثيقة ضيقة، لينقلوهم إلى مدارسهم حتى يتعلموا مذاهبهم التي كانت في أغلب الأحيان على أحد تعارض مع التقاليد المرعية العتيقة. ولكن الجيل الشاب، وهو المتطلع دوما نحو الجديد، كان يستقبل السفسطائيين بالحماس، بل كانوا قريبين من حملهم على الأكتاف، على ما يظهر من كلام أشد معارضي السفسطائيين. فلا شك إطلاقا في أنهم كانوا مؤسسي تربية الشباب تربية منظمة».

Ed.Zeller, Outlines of the History of Greek Philosopy, Trans. from the german, 9th printing N.Y., 1962, pp. 95 - 96.

وهذا الكتاب هو ملخص كتاب المؤلف الكبير في عدة مجلدات، الحاوي كل تاريخ الفلسفة اليونانية، الذي نشر ما بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين الميلاديين، وهو أكمل كتاب في موضوعه، ولايزال مرجعا إلى اليوم، لندرة الاكتشافات، أو غيابها عمليا، في ميدان نصوص موضوعها.

30 انظر محاورة «بروتاجوراس» لأفلاطون، 316 حـ - د، وهي مترجمة عن النص اليوناني مع مقدمات وشروح في كتابنا: (في السفسطائيين والتربية. محاورة «بروتاجوراس»)، ط 1، القاهرة، 1982م، وينظر فيه المقدمات عموما، وبخاصة ص 23 - 51، وفي المحاورة في مجملها إشارات مهمة إلى التربية القديمة وتلك الجديدة، وبخاصة ما بين 309أ - 328 هـ (في الكتاب المذكور ص 61- 103)، وأيضا في نص 338 هـ - 339 أ (ص 125).

31 Ed. Zeller, op. cit., pp 96 - 7.

وانظر عموما حول السفسطائيين في أثينا في عصر بيريكليز:

Jacqueline de Romilly, The Greek Sophists in Periclean Athens, trans. from the French, Oxford, 1992.

وبخاصة VII - IX وص 1 - 29.

32 انظر محاورة «ثياتيتوس» 151 هـ - 152 حـ، و160 حـ - د، وفي كتابنا: «أفلاطون، «في العلم...» ص 91 - 94 و123.

33 انظر بالعربية ترجمة هذه المسرحية عن اليوناني بقلم أحمد عتمان، في سلسلة «المسرح العالمي»، الكويت.

34 Diogenes Laertius, IX, 52.

وراجع أيضا كتاب «المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية» المذكور، ص 333 - 330 وحول زيارات بروتاجوراس إلى أثينا، راجع:

W.K.C. Guthrie, A history of Greek Philosophy Vol. III, Cambridge, 1993, P. 263, n.5.

35 راجع كتابنا «الفلسفة اليونانية..»، ص 105 - 119 حول «أسطورة سقراط» و«لغز سقراط».

36 «الدفاع» لأفلاطون، 23 هـ - 24 أ، وفي «محاكمة سقراط»، ص 132, وفي مقدمة المحاورة، ص 84 - 85.

37 أفلاطون، «أقريطون» (Crito)، 52 هـ، وفي «محاكمة سقراط»، ص 200.

38 «الدفاع» لأفلاطون، 39 حـ - د، وفي «محاكمة سقراط»، ص 161.

39 Xenophon, Apology, 1, 6, 8 - 9, 22, 27, 32.

40 «أقريطون»، 51 أ - حـ و53 أ.

41 Diogenes Laertius, III, 4.

42 أفلاطون، «الخطاب السابع»، 324 ب - 325 أ. وانظر في شأنه بالعربية: عبدالغفار مكاوي، «المنقذ. قراءة في قلب أفلاطون»، القاهرة، 1987م.

43 Thucydides, IV, 7.105.

44 «الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون»، ص 148 - 149.

45 نفسه، ص 164 - 165.

46 راجع مثلا: Oxford Companion..., pp. 73 - 74.

47 Ed.Zeller, Outlines..., p. 337.

عالم الفكر
العدد 2 المجلد 38 أكتوبر - ديسمبر 2009

الحياة الفكرية والثقافية في أثينا

د. محمد حمدي إبراهيم (*)

مقدمة: حضارة اليونان وعبقرية المكان

يتميز موقع بلاد اليونان الفريد بأنه يشغل منطقة تقع بين ثلاث قارات، هي: آسيا وأوروبا وأفريقيا، كما يتميز بأنه يطل على واحد من أقدم بحار العالم القديم وأهمها قاطبة، وأعني به البحر المتوسط Mare Mediterraneum الذي شهد مولد أقدم حضارات الدنيا.

وهذا الموقع هو الذي جعل بلاد اليونان نقطة تلاق للحضارات القديمة وموقع تلاقح بينها، كما أنه هو الذي أكسب حضارتها ذلك الطابع الفريد المتميز الذي اشتهرت به. ولا تقل جغرافية بلاد اليونان في التفرد عن موقعها العبقري: فالبحر يتغلغل في كل مكان ببلاد اليونان ويقسمها إلى يابس قاري وجزر يكاد لا يحصيها العد، كما أنه يفصل بين جزرها الكثيرة وأقاليمها التي يطل معظمها على البحر، بحيث لا يبعد أي مكان في بلاد اليونان عن شاطئ البحر مسافة تربو على الأربعين ميلا إلا فيما ندر.

ولكن بقدر ما فصل البحر بين أجزاء اليونان ومزق أوصالها بقدر ما وحد بينها بخواص مشتركة، ربما كانت تميز الحضارات اليونانية كلها بوجه عام والحضارة اليونانية بشكل خاص. فلم يكن اليوناني القديم يطيق الابتعاد عن البحر بحال من الأحوال، وعندما كان يحول أمر بينه وبين مرأى البحر كان يحس بكرب شديد وجزع لا مثيل له؛ وليس أدل على ذلك من أن العشرة آلاف محارب من الجنود المرتزقة الذين التحقوا بجيش الإمبراطور الفارسي قورش Kyros، قد شعروا بحزن عميق وخوف مريع عندما ظلوا فترة طويلة من الزمن يواصلون مسيرتهم في رحلة التصعيد anabasis داخل قارة آسيا حتى وصلوا إلى ساحل آسيا الصغرى

(*) أستاذ متفرغ بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب - جامعة القاهرة - مصر.

في خاتمة المطاف. وعندما لمحوا البحر بعد طول عناء هتفوا بصوت واحد فرحين: «البحر! البحر! Thalatta! Thalatta!»، ثم ألقوا بأنفسهم في مياهه والسعادة تغمرهم كأنهم يعانقون حبيبة بعد طول غياب.

ولم يكن البحر وحده هو العامل المؤثر الفعال في عبقرية بلاد اليونان، بل شاركته في التأثير أيضا سائر التضاريس الجغرافية، وأعني بها: الجبال والهضاب والتلال والروابي والسهول والوديان، كما رسخت من تأثيره كذلك الألوان المتباينة مثل زرقة السماء وخضرة السهول والبحر اللازوردي والصخور الداكنة والتكوينات الطبيعية البديعة. وكانت تلك السيمفونية الرائعة من الألوان والتضاريس التي تمتاز بالتنوع الفائق تمتع بصر اليوناني القديم وتدفعه إلى إطالة النظر لساعات ممتدة من دون كلل ولا ملل، وذلك وفقا للرواية التي أثرت عن الفيلسوف الشهير سقراط الذي ظل مستغرقا في تأمله شاردا مع أفكاره. أثناء مدة خدمته في الجيش وهو شاب. والذي انهمك في التطلع إلى جمال الطبيعة الخلاب من حوله، منذ مشرق الشمس في صباح أحد الأيام حتى مشرقها في اليوم التالي، من دون أن يتناول طعاما ولا شرابا ومن دون أن يريح بدنه أو يهفو للنعاس كما فعل سائر زملائه.

ولقد قسمت الجبال بلاد اليونان إلى أقاليم منفصلة يصعب الاتصال بينها، بل إنها مزقتها إربا بانتشارها في كل مكان، وهو الأمر الذي ساعد على وجود النظام الذي عرف باسم دولة المدينة polis، وهو نظام سياسي واجتماعي مميز للحضارة اليونانية القديمة التي كانت حضارة للدويلات poleis أو للكيانات الصغيرة. فلقد أدت العزلة القائمة بين السهول الواقعة بين الجبال إلى إيجاد تجانس ملموس بين سكان كل إقليم على حدة، بحيث غدا هذا الإقليم متمايزا على ما سواه: فمدينة أثينا - على سبيل المثال. كانت لها خصائص تجعلها مختلفة جد الاختلاف عن مدينة إسبرطة، ومدينة كورنثة كانت لها خصائص تميزها عن مدينة طيبة وهكذا. وكانت حضارة دولة المدينة تقوم على ركائز أساسية تبنى فوقها العلاقات الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية، وكان يأتي في طليعة هذه الركائز أو المقومات: الحرية eleu-thêria، والاستقلال الذاتي autonomia، والاكتفاء الاقتصادي autarkeia.

ولكن على الرغم من أن دولة المدينة كانت نظاما اجتماعيا يتيح الازدهار السريع ويؤدي إلى زيادة نبض الحياة وتسارع التطور، فإنها كانت في الوقت نفسه تجعل الحضارة القائمة فيها تبلغ سريعا مرحلة الشيخوخة وتصل إلى الذبول المحتوم. فلقد كانت هذه الحضارة بحكم الحتمية الجغرافية تحمل في طياتها بذور فنائها، نظرا إلى أن أي توسع في حدودها كان أمرا مقضيا عليه سلفا بالإحباط، حيث إن مثل هذا التوسع كان مقدرا له أن يصطدم بالجبال التي كانت تمثل أمامه عائقا طبيعيا لا سبيل إلى تجاوزه أو إزالته، أو بالبحر الذي كان يمثل مانعا مائيا من الصعب اجتيازه.

ولقد استفادت بلاد اليونان في تكوين حضارتها من جميع الحضارات المجاورة في آسيا وأفريقيا، وكذا من حضارة جزيرة كريت القريبة منها (وأعني بها الحضارة المينوية Minoan Civilization)، ومن حضارة جزيرة قبرص التي لا تبعد عنها مسافة طويلة. إذ نقلت العلوم من مصر وبابل وآشور، ونقلت الفن والمعمار من مصر وفينيقيا وكريت، ونقلت الدين من آسيا الصغرى ومن مصر، بل إن أبجدية اللغة اليونانية نفسها - كما تقول معظم الروايات - كانت هي الأبجدية الفينيقية التي حملها كادموس إلى بلاد اليونان. ثم مزجت الحضارة اليونانية عناصر هذه الحضارات كافة، وصاغت منها حضارة خاصة بها ذات نتاج متجانس متسق تحمل طابعا فريدا غير مسبوق، لا هو نظري صرف مغرق في التأمل، ولا هو عملي براجماتي على طول الخط؛ لا هو علمي يتصف بالجفاف ويفتقر إلى المرونة، ولا هو خيالي مغرق في ترهات الخيال. بل كان في مجمله نتاجا إنسانيا فلسفيا وفنيا يضرب بسهم وافر في مختلف المجالات باعتدال مدهش وتوازن يثير الإعجاب، ولا يتحيز لحساب اتجاه بعينه في حين يغمط حق الاتجاهات الأخرى.

فلقد كانت حضارة اليونان سباقة أكثر من سواها إلى جعل الفلسفة منهاج فكر نظريا، وكان ذلك عن طريق تحاشي تقليد حكمة الشرق التي تختزل جوهر الحياة في صورة ألفاظ ومقولات قد تصل إلى حد الابتسار، وعن طريق ابتكار النظريات الفلسفية التي تمثل موقف الإنسان إزاء الكون، والتي تبحث في الوجود والماهية وفي الطبيعة والأخلاق. وكذلك كان للفن النصيب الأوفر في معطيات الحضارة اليونانية القديمة، غير أن الفن اليوناني لم يجنح إلى المثالية بمثل ما جنح الفن المصري القديم، بل مال بشكل واضح إلى تصوير الواقع فضلا عن عنايته بالجماليات البصرية والهندسية؛ وكان شأنه في هذا الصدد شأن كل ما أبدعه العقل اليوناني في مجال الأدب سواء بسواء. أما العلوم، فلم تكن تحظى في بداية الأمر من الإغريق بالاهتمام الكافي، حيث إنها كانت تنضوي - في بواكير الحضارة اليونانية - تحت لواء الفلسفة، بيد أنها تمكنت إبان العصر الهيلنستي من الانفلات من ربقة الفلسفة وإسارها، وبالتالي قيض لها الازدهار والتقدم. وفي مجال الديانات لم يجد الإغريق غضاضة في الجمع بين أديان مختلفة نقلوها عن جميع الحضارات المجاورة لهم، غير أنهم انفردوا من بينها جميعا بظاهرة تصوير أربابهم على الصورة البشرية الخالصة anthropomorphismos.

أولا: الفكر اليوناني القديم

مما لا شك فيه أن الفلسفة كانت نتاجا إغريقيا خالصا في طبيعته، ولا يعني هذا بالطبع أن ننفي عن الحضارات الأخرى أنها كانت تحتوي في نتاجها على فكر فلسفي ذي قيمة مؤكدة، ولكن الفلسفة اليونانية كانت الركيزة التي ارتكزت عليها حضارة الإغريق في مختلف مجالاتها،

فضلا عن أنها لم تكن حكرا على طبقة بعينها أو على صفوة مختارة من الشعب، بل غدت في تناول معظم المواطنين سواء بسواء. وكانت الفلسفة اليونانية في مبدأ الأمر تقتفي خطى الفلسفات الشرقية بوجه عام، أي أنها كانت تبحث عن الخامة الأولى للوجود، وتحاول أن تهتدي إلى المادة الأولى المتجانسة التي خلق منها الكون قبل أن يتطور، سواء كانت هذه المادة هي التراب أو الماء أو الأثير أو النار أو الذرة.

لكن الفلسفة ما لبثت أن تحررت من هذا الطابع المنقول ووجدت ضالتها المنشودة في تركيبة جمعية فريدة قائمة على الدياليكتيكا dialektikê (الجدل الفلسفي أو توالد الأفكار)، وهي تركيبة تجمع الفكر النظري والفكر التطبيقي في آن، أو تجمع بين النظرية والتطبيق في منهج واحد. وكانت نقطة الانطلاق في هذا الصدد مبادئ الفلسفة السقراطية التي نقلت الفكر الفلسفي عند اليونان من البحث في مظاهر الطبيعة physis إلى البحث في السلوك الإنساني، ولهذا قيل إن سقراط كان أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، بمعنى أنه حول وجهة الفلسفة إلى دراسة الأخلاق.

أما العلوم، فقد كانت تأتي إبان العصر القديم في المرتبة الثانية من اهتمام الإغريق، حيث إنهم نقلوا الرياضيات عن مصر ووفد فلاسفتهم إلى معابدها لتلقي العلم، ابتداء من طاليس Thalês حتى أفلاطون Platôn، لكي ينهلوا من معارف مصر وعلومها ذات التاريخ العريق والتميز والتفرد. بيد أنهم ما لبثوا بعد فترة من الزمن أن استوعبوا النظريات الرياضية، ابتداء من فيثاغورث Pythagoras وانتهاء بكل من أرخميديس Archimêdês وأقليدس Eukleidês وبابوس Pappos السكندري وديوفانطوس Diophantos السكندري، أول من استخدم مبادئ علم الجبر في العالم القديم، وكان مصدر إلهام للعرب في تأسيس علم الجبر بوصفه فرعا مستقلا من فروع الرياضيات.

ثانيا: الرياضيات Mathêmatika

وتنسب الروايات اليونانية القديمة ابتكار الهندسة إلى المصريين القدماء حيث نقلها عنهم طاليس أو فيثاغورث، غير أن هذين العالمين كليهما لم يتركا مؤلفات مدونة يمكن أن تدفعنا إلى الجزم بصحة هذه الروايات. وأول دليل مادي على الأبحاث الرياضية يوجد في أعمال العالم الرياضي الفذ هيبوقراطيس Hippokratês من جزيرة خيوس الذي عاش في أواخر القرن الخامس ق.م. وبحث في الأشكال الرياضية مثل المربع والدائرة وتوصل إلى نظريات فذة. أما عالم الرياضيات يودوكسوس Eudoxos الذي ازدهر نحو العام 360 ق.م.، فقد نجح في صياغة نظرية عن التناسب تضم كلا من الأحجام التي يمكن قياسها والأحجام التي لا يمكن قياسها، فضلا عن أنه ابتكر طريقة للتعامل مع الحد أصبحت هي الطريقة المثلى عند اليونان للتعامل

مع المشكلات الخاصة بالكميات المتناهية في الصغر. ولقد واصل كل من إقليدس وأرخميديس البحث في هذا المجال الخاص بالكميات المتناهية في الصغر. وأكد أرخميديس أن علماء الرياضيات القدامى قد تمكنوا من البرهنة على أن الشكل الهرمي والمخروط عبارة عن ثلث حجم المنشور أو الأسطوانة كل على حدة، لو كانت القاعدة والارتفاع متساويين في كل منهما.

ولقد عرفنا من الموجز الذي أعده بروكلوس Proclus عن تاريخ الرياضيات اليونانية والذي نقله عنه يوديموس Eudêmos أسماء عديدة من أسماء علماء الرياضيات خلال القرن الرابع ق.م.؛ ويعتبر كتاب إقليديس المسمى العناصر Stoicheia (نحو العام 300 ق.م.) أول بحث بقي لنا في مجال الرياضيات، حيث إنه يعكس الصقل الذي تميزت به الهندسة المعاصرة آنذاك سواء في الشكل أو في المضمون، كما أنه يبرهن على استخدام مبادئ الجبر في علم الهندسة، ويدل على أن الإغريق في هذا العصر كانوا يعرفون الرياضيات البابلية على نحو متقدم. وتعد هندسة إقليديس هندسة سطوح وأحجام وتحتوي على عدد محدود من النظريات. ثم جاء من بعد ذلك عالم الرياضيات أبولونيوس من بيرجا الذي غير مسار الهندسة عن طريق التوسع في استخدام الرموز الجبرية وتطبيقاتها. أما زميله الأكبر منه أرخميديس فقد ابتكر فروعا أخرى للهندسة، منها الهندسة الاستاتيكية والهيدروستاتيكية. أما القرن الثالث ق.م. فكان قرنا حافلا بالإنجازات في مجال الهندسة وربطها بمجال علم الفلك، كما شهد اختراع المزولة وتطويرها، وإن كانت المزولة قد ظهرت في حقيقة الأمر إبان القرن الخامس ق.م. وأهم علماء الرياضيات في تلك الحقبة ديوفانطوس وبطلميوس وهيرون وفيثروفيوس وهيبارخوس، وهؤلاء جميعا ربطوا بين الرياضيات وبين علم الفلك. وهناك أيضا علماء أفذاذ من عصور متأخرة مثل ثيون ويوتوخيوس وبابوس.

ويعد ديوفانطوس (ازدهر خلال القرن الأول الميلادي) أول عالم رياضيات يوناني يتوسع في استخدام الرموز الجبرية في علم الحساب، ولقد ألف كتابا بعنوان الحساب Arithmêtika في ثلاثة عشر جزءا، لم يتبق منه سوى ستة أجزاء، كما ألف كتابا عن المنشور Porismata لم يصل إلينا. ويبدو من أعمال ديوفانطوس أنه تأثر بالرياضيات البابلية أكثر من تأثره بالرياضيات اليونانية، ولكنه مع ذلك يتميز بالابتكار والأصالة. وهو يتحدث في مقدمة كتابه «الحساب» عن أنواع الأعداد التي تنقسم عنده إلى آحاد monades ومضاعفاتها، والأعداد عنده إما مربعة أو مكعبة.... إلخ. كما أنه ابتكر رموزا تعني الناقص leipsis والزائد hyparxis؛ وهو يذكر لنا أن الناقص لو ضرب في زائد فإنه ينتج ناقصا، أما إذا ضرب الناقص في ناقص آخر فإنه ينتج زائدا.

أما أقليدس الذي ازدهر نحو العام 300 ق.م. وعاش إبان حكم العاهل بطلميوس الأول سوتير (306 - 283 ق.م.)، وكانت له مدرسة بمدينة الإسكندرية، فقد حظي بشهرة ذائعة

بفضل كتابه المسمى «العناصر» Stoicheia المدون في ثلاثة عشر جزءا: الأجزاء من 1 - 6 عن هندسة المسطحات، ومن 7 - 9 عن نظرية الأعداد، والجزء العاشر عن الأعداد الصماء، ومن 11 - 13 عن هندسة الجوامد. ولقد حل هذا الكتاب محل كتب علماء الرياضيات السابقين، من أمثال هيبوقراطيس من خيوس،ليون Leôn ويودوكسوس .Eudoxos ولقد استفاد أقليدس من أعمال سابقيه، ما في ذلك شك، ولكنه أضاف إليها الكثير من عندياته؛ ولقد اهتم به علماء الرياضيات المتأخرون واهتمت به العصور الوسطى وعصر النهضة وكذلك العلماء العرب مثل النيريزي. وأهم أعمال أقليدس الأخرى هي:

1- المعطيات : Didomena
2- عن تقسيم الأشكال الهندسية، وهذا الكتاب بقي فقط في ترجمته العربية.
3 - عن المنشور Porismata.
4 - المواضع الخاصة بالسطوح Topoi pros Epiphaneiâ.
5 - عن المخروط Kônika في أربعة أجزاء.
6 - الظواهر Phainomena، وهو عمل في نطاق علم الفلك، ويحتوي على 16- 18 مسألة في الهندسة الكروية.
7 - عن الكرة المتحركة.
8 - البصريات Optika.
9 - المرايا Katoptrika وانعكاسات الصورة عليها.
10- عن مبادئ الموسيقى.

وأما يودوكسوس من كنيدوس (من نحو العام 390 . إلى نحو العام 340 ق.م.)، فهو عالم يجمع بين التفقه في الرياضيات وفي الجغرافيا فضلا عن معرفته بالفلسفة عامة، وكان تلميذا لأرخيتاس Architas في الهندسة. زار مدينة أثينا والإسكندرية حيث درس الفلك في معابد مصرعلى يد كهنتها، ثم ارتحل من جديد إلى مدينة أثينا ليلقي هناك محاضرات في تخصصه وتعرف على أفلاطون ومات في سن الثانية والخمسين من عمره.

ولقد ابتكر نظرية التناسب في مجال الهندسة، وهي نظرية تستخدم في الأحجام التي يمكن قياسها وفي الأحجام التي يتعذر قياسها، كما طور منهج التعامل مع الحد (الذي سمي فيما بعد باسم منهج الاستنفاد) الذي أصبح المنهج المعياري لتفادي الأحجام المتناهية في الصغر في الرياضيات. وبالتالي استطاع أن يبرهن أن كلا من المخروط والشكل الهرمي يساوي ثلث حجم الأسطوانة والمنشور كل على حدة، إذا كان ارتفاعه وقاعدته متساويين.

أما في مجال علم الفلك فقد كان أول من صاغ منهجا رياضيا يفسر به الحركة الظاهرة للأجرام السماوية، ولقد ربط يودوكسوس الحركات المتوافقة للمدارات المشتركة في المركز

حول المحاور المختلفة بعبقرية فذة. كما استطاع أن يصف بطريقة عملية الكواكب مع إعطاء ملاحظات تتعلق بزمن أفولها وظهورها enoptron kai phainomenon، ولقد تأثر به الفلكي آراتوس Aratos في هذا الصدد. ولقد ألف يوددكوس أيضا كتابا بعنوان «الطواف حول الأرض Gês Periodos» في عدة أجزاء، وهو كتاب ينتمي إلى مجال الجغرافيا الرياضية والوصفية.

وأما أرخميديس (نحو العام 287 ق.م -212 ق.م.)، فهو عالم رياضيات ومخترع ذائع الصيت، ولد في مدينة سراقوصة بجزيرة صقلية، وكان أبوه عالم فلك يدعى فيدياس، ولقي نحبه إبان حصار الرومان لمدينته بزعامة القائد الروماني ماركيلوس. ويروى أنه زار مصر على الأرجح، حيث توجد مراسلات بينه وبين العالم الفلكي كونون Konôn، وعالم الجغرافيا إراتوسثينيس Eratosthenês، وهناك روايات كثيرة تنسب إليه فضل اختراع آلات عجيبة استخدمت لدرء خطر الحصار الروماني لمدينته، مثل المرآة العاكسة التي تحرق السفن وغيرها. كما نسب إليه فضل اختراع الطنبور Rochlias الذي استخدم في رفع المياه إلى الأماكن المرتفعة. وأرخميديس هو صاحب المقولة الشهيرة: «أعطني مكانا أقف عليه أحرك لك الأرض»، وذلك حينما نجح في ابتكار جهاز صغير حرك به سفينة ضخمة عجز مئات الرجال عن تحريكها لإنزالها إلى البحر. كما أنه صاحب الصيحة الشهيرة. وجدتها eurêka حينما نجح في التمييز بين التاج الذهبي الخالص والتاج الذهبي المخلوط عن طريق اكتشافه قانون الطفو أو نظرية الماء المزاغ.

ولقد أمر أرخميديس بأن يرسم فوق شاهد قبره أسطوانة تحتوي داخلها على كرة، وأن توضح نسبة حجم كل منهما إلى الأخرى بمقدار 3 إلى 2، وهو الاكتشاف الذي نجح في التوصل إليه وعده أعظم إنجاز له على الإطلاق.

ولقد ألف أرخميديس أعمالا بالغة الكثرة، من أهمها:

1- عن الكرة والأسطوانة.
2 - عن قياس الدائرة.
3 - عن الأشكال المخروطية والأشكال الكروية.
4 - عن الزنبركات.
5 - عن الموازنة في المسطحات أو عن مراكز الثقل في المسطحات.
6 - تربيع القطع المتكافئ.
7 - الساعة الرملية.
8 - منهج النظريات الميكانيكية.
9 - عن الأجسام الطافية.

ولقد بقيت له في الترجمات العربية الكتب التالية:

1 - كتاب القضايا الإضافية المساعدة.

2 - عن الشكل السباعي داخل الدائرة.

ولقد كان أرخميديس واحدا من أعظم علماء الرياضيات في العالم القديم، إن لم يكن أعظمهم قاطبة، إذ يعد عمله عن الأجسام الطافية عملا فذا لا نظير له في مجال الهندسة الهيدرواستاتيكية، وينطبق الوصف نفسه على إنجازاته في مجال الهندسة الاستاتيكية. ولقد فقدت أعماله في مجال علم الفلك، فيما عدا منهجه العبقري الذي توصل به إلى وصف محيط الشمس الظاهر المذكور في كتابه عن الساعة الرملية، وفيما عدا فقرة وصف فيها المسافات الواقعة بين الأجرام السماوية، وهي فقرة حفظها لنا هيبوليتوس. ولقد روى لنا بابوس أنه ألف كتابا عن تكوين الكواكب peri Sphairopoiias، ولكنه للأسف لم يصل إلينا شأنه شأن عدد من الكتب المهمة التي ورد ذكرها عند الفلكي بابوس.

وأما بابوس Pappos السكندري (ازدهر نحو العام 320 م) فهو عالم رياضيات متميز ذائع الصيت دون تعليقات على كتاب العناصر لأقليدس، رجع إليه بروكلوس واقتبس منه كثيرا من الفقرات، وكذا تعليقات على كتاب المجسطي Almagest لعالم الرياضيات بطلميوس، وتعليقات على كتاب المعطيات لأقليدس وعلى كتابي «الشكل الكروي المستوى Planisphaerium» و«المزولة Analema» لديودوروس. وفضلا عن ذلك فقد ألف كتابا بعنوان «وصف بقاع المعمورة Ghôrographia Oikoumenikê»، استفاد فيه من خريطة العالم التي رسمها العالم بطلميوس، ولكن أعظم أعماله على الإطلاق هو كتابه المسمى «المجموعة Synagôê» وهو كتاب مبسط عن علم الرياضيات، ولم يبق من هذا الكتاب سوى الأجزاء من الثالث حتى الثامن وقسط من الجزء الثاني. وهو كتاب مهم بكل المقاييس لأنه يقدم تقارير وافية عن الإنجازات اليونانية في مجال علم الرياضيات المتقدمة، وعن الأعمال التي دونها أتوليكوس Autolykos وغيره في مجال علم الفلك، وعما كتبه أقليدس في مجال البصريات والظواهر، ويشتمل على ما دونه أريسطارخوس الفلكي في مجال حجمي الشمس والقمر والمسافات القائمة بينهما، وعلى حلول متنوعة للمسائل الرياضية المختلفة، وعلى مباحث أرخميديس عن هندسة الجوامد والأقطار المتساوية والمقارنات بين السطوح والأحجام للأشكال الهندسية، وكذا على الأعمال ذات الطابع الميكانيكي النظري والتطبيقي لكل من أرخميديس وفيلون وهيرون وبابوس.

ثالثا: الفلك Astronomia

اعتاد الإغريق منذ العصور القديمة لحضارتهم أن يستخدموا ظهور نجوم بعينها وأفولها في حساب التقويم الفلكي، ولكن معرفتهم بعلم الفلك ذاته لم تتم إلا في العصر السابق على سقراط، حيث

عالم الفكر
العدد 2 المجلد 38 أكتوبر - ديسمبر 2009

تمكن الفلاسفة الطبيعيون من صياغة نظرياتهم عن الكون. وعلى الرغم من أن هذه النظريات كانت تتضمن قدرا من الحقائق فإنها كانت تأملية في الأغلب الأعم، مثال ذلك ما ذكره طاليس عن كسوف الشمس أو خسوف القمر. وخلال القرن الخامس ق.م. تمكن العلماء من تفسير كثير من المفاهيم التي كانت لازمة كأساس لعلم الفلك ونظرياته، ومن ذلك أن بارمينيديس Parmenidês توصل إلى الاعتقاد بكروية الأرض وإلى أن القمر يستمد نوره من الشمس. ولم يكتف إمبيدوقليس Empedoklês بترديد هذه الأقوال بل استنتج السبب الذي يؤدي إلي كسوف الشمس؛ ولقد اتفق معه أناكساجوراس Anaxagoras في الرأي. ولقد ركز علماء الفلك إبان القرن الخامس ق.م. على أن النجوم تظهر وتكتمل في مواعيد محددة، وتمكنوا من وصف الكواكب والأبراج السماوية ومعرفة دائرة البروج عن طريق البابليين؛ كذلك توصلوا إلى معرفة انقلاب الشمس الشتوي والصيفي والاعتدال الربيعي والخريفي ودورات القمر؛ وكان أهم عالم فلك في ذلك الصدد ميتون Metôn. ولقد وجهت هذه الجهود العلمية بصفة أساسية تجاه أغراض تطبيقية مثل معرفة التقويم الزمني، ومع ذلك ظل كثير من المعلومات عن الكواكب السيارة مجهولا. ثم استطاع ديموقريطوس Dêmokritos - وفقا لما رواه لنا سينيكا - أن يتوصل إلى أن هناك كواكب كثيرة العدد، ولكنه لم يتوصل إلى عددها ولا إلى أسمائها.

وينسب سينيكا إلى الفلكي يودوكسوس معرفة تحركات الكواكب السيارة، والحق أن يودوكسوس كان أول يوناني يتوصل إلى معرفة خمسة كواكب سيارة، كما كان أول عالم يتمكن من صياغة منهج علمي لعلم الفلك الرياضي في نطاق نظريته عن الأجسام الكروية ذات المركز المماثل، كذلك يخبرنا سينيكا بأن يودوكسوس قد استمد كثيرا من معلوماته من البابليين ومن المصريين.

ولقد استطاع الفلكي كاليبوس Kallippos تعديل نظرية يودوكسوس، وأقر أرسطو آراءه وما عدَّله كاليبوس وطوره ليجعل منها نظرية ميكانيكية فيزيقية تتعلق بالكواكب الجامدة.

أما خلال القرن الرابع ق. م. فقد تطورت مفاهيم علم الفلك على يد كل من أوتوليكوس Autolykos وأقليدس اللذين ربطا علم الفلك بالرياضيات، كما استطاع هيراقليدس Hêrakleidês من بونطوس صياغة نظرية جديدة عن الكواكب السيارة، وتوصل من خلالها إلى أن الأرض تدور حول محورها. ولقد تلقف الفلكي الأشهر أريسطارخوس Aristarchos من ساموس هذه الفكرة وضمنها في فرضيته عن مركزية الشمس في الكون (بدلا من مركزية الأرض وفق الاعتقاد القديم). ويعتبر عمل أريسطارخوس المسمى «عن أحجام الشمس والقمر وعن المسافات القائمة بينهما» عملا مبنيا على أساس رياضي أكثر منه عملا فلكيا خالصا.

وكان أريسطارخوس (الذي ازدهر خلال النصف الأول من القرن الثالث ق.م.)، تلميذا لاستراتون Stratôn المشائي (من لامبساكوس)، وهو صاحب الفرضية الشهيرة التي ينادي فيها بأن الشمس هي مركز الأرض، وأن النجوم الثابتة والشمس لا تتحرك، وأن الأرض تدور حول الشمس في مدار دائري، وأن الشمس تقع في وسط هذه الدائرة. كذلك ربط أريسطارخوس هذه الفرضية بالنظرية القائلة بأن الأرض تدور حول محورها كما سبق أن ذكرنا. وهو يبدأ كتابه المشار إليه أعلاه بست فرضيات، حيث يحتوي على 18 مسألة يربط فيها بين الهندسة والحسابات الرياضية، كما يحسب المسافة بين الأجرام السماوية على أسس رياضية، ولقد ظهرت تناقضات واختلافات جسيمة في حسابات أريسطارخوس، يرجع الخطأ في معظمها إلى خطأ في الافتراضات. ويقال إن أريسطارخوس قد اخترع المزولة المجوفة Skaphê، وإنه أضاف كسرا من اليوم إلى ما قدره كاليبوس من أن السنة تبلغ 365 يوما.

أما الفلكي ميتون Metôn الأثيني (القرن الخامس ق.م.)، فقد توصل إلى ملاحظة الانقلاب الصيفي للشمس في العام 432 ق.م.، ولكن كلا من هيبارخوس وبطلميوس قد شككا في آرائه وفي صحتها. وقد اقترح ميتون نظاما للأيام النسيء التي تضاف لتكملة السنة الشمسية لمدة مقدارها 19 عاما، وذلك لكي تتوافق السنة القمرية مع السنة الشمسية، وكانت هذه الدورة الفلكية الزمنية تشتمل على 235 شهرا قمريا (سبعة منها نسيء) وكذا على 6940 يوما، ثم أضاف ميتون دقيقتين إلى متوسط الشهر القمري؛ وجعل السنة الشمسية مكونة من 365 يوما (حاصل قسمة 6940 ÷ 19). وكان من رأيه أن القمر والشمس يتقدمان كل ست وسبعين سنة بواقع يوم واحد في الحساب الفلكي، ولكن كاليبوس صحح هذا الرأي بعد انصرام مائة عام على صدوره، وذلك بأن جمع أربع دوائر من دوائر ميتون وجعلها تنقص بمقدار يوم واحد، ثم وضعها في دائرة جديدة مكونة من ست وسبعين سنة أو ما مقداره 27.759 يوما. وكان الأثينيون في الواقع يسيرون وفق دورة فلكية زمنية قوامها 19 سنة = 235 شهرا، منها 110 شهور ناقصة، أي مكونة من 29 يوما؛ و125 شهرا تامة، أي مكونة من 30 يوما لكل شهر منها، ولكن ما اقترحه الفلكي ميتون لم يطبق في التقويم القمري الأثيني.

رابعا: الطب Iatoria :

بدأت ممارسة الطب في بلاد اليونان منذ العصور القديمة كما تبين لنا ملاحم هوميروس، وهناك إشارات عديدة إلى هذه الممارسة في الأعمال الأدبية، تتضمن الأمراض والأعراض والعدوى والأوبئة واستخدام التعاويذ والرقى والسحر والكهانة، كما كانت الطقوس والعبادات مرتبطة بجمع الأعشاب والعقاقير والأدوية. كذلك ارتبط الطب قديما بدرء الأرواح الشريرة ومداواة الأشخاص الذين أصيبوا بمس من الجنون، كما ارتبط الأرباب على اختلافهم بالقدرة على

الشفاء، كما يظهر جليا في عبادة الإله أسكليوبيوس إله الشفاء وإقبال المرضى على النوم في معبده التماسا للبرء من الأمراض.

ولكن علم الطب اليوناني تخلص تدريجيا من هذه المفاهيم البالية ومن السحر والخرافات، وبناء على ذلك فقد احتوى التراث الهيبوقراطي الطبي على مقالات ومباحث إكلينيكية وعلى مناقشات ومناهج علمية. وكان هذا التراث الطبي عبارة عن أعمال عديدة من مجموعات هيبوقراطيس Hippokrates وشذرات من الكتب العقلانية السابقة عليه، مثل كتب فيثاغورث وهيراقليطوس وإمبيدوقليس وأناكساجورس وديموقريطوس. وهناك شذرات أخرى تتعلق بالطب موجودة في أعمال أفلاطون وأرسطو وثيوفراسطوس، فضلا عن الشذرات المهمة التي بقيت من أعمال الفيزيقي ديوكليس Dioklês الذي كان معاصرا للفيلسوف أرسطو.

ولكن الطب لم يزدهر إلا في عصر الإسكندرية، وتشهد على ذلك الازدهار شذرات ضافية من أعمال الطبيبين هيروفيلوس Hêrophilos وإراسستراتوس Erasistratos، وكذلك القصيدتان اللتان نظمهما الشاعر السكندري نيكاندروس Nikandros عن العقاقير الشافية Thêriaka وأضداد السموم Alexiphermaka. وهناك أيضا الطبيب ذو الصيت الذائع كيلسوس Celsus الذي دوَّن كتابا بعنوان «عن المواد الطبية»، يتحدث فيه عن الأعشاب ذات المفعول الطبي؛ وكذلك ديوسكريديس Dioskridês الذي ألف كتابا بعنوان «عن المواد الطبية»؛ وكذا الطبيب سورانوس Soranus الذي ألف كتابا بعنوان «عن الكسور والضمادات» وكتابا آخر بعنوان «عن الولادة وآلام المخاض».

أما أعظم الأطباء قاطبة فهو جالينوس Galênos (129 - 199م)، الذي استوعب خلاصة الطب القديم واستمد معلوماته الطبية من جميع المدارس الطبية والمدارس الفلسفية خلال القرن الرابع ق.م.، وكان كاتبا غزير الإنتاج بشكل لافت للنظر.

ولقد توصل جالينوس في كتابه المسمى «استخدامات أعضاء الجسم البشري» إلى استنتاجات دعمت الفكر الطبي لمدة زمنية قوامها ألف وخمسمائة عام بعد رحيله. وهو يذهب في هذا العمل إلى أن أعضاء الجسم قد أحسن تكوينها بصورة جعلتها صالحة جدا لأداء وظائفها، وأنه لا يمكن تصور وجود ما هو أبدع منها تكوينا. ولقد سار جالينوس على هدى من مقولة أرسطو التي يعلن فيها أن «الطبيعة لم توجد شيئا عبثا أو بلا طائل»، وذلك ليبرر بها كمال تكوين أعضاء الجسم البشري بصورة لا نظير لها وأداءها لوظائفها على الوجه الأكمل. ولقد كانت رسالته المتعلقة بالغائية تشتمل في طياتها على الحلول المسبقة a priori للمشكلات الفيزيقية. إذ كان جالينوس واحدا من أهم المفسرين لهذه النظرية الغائية التي كانت تنادي بأن العالم يستحق الكشف عن أسراره من أجل التحقق من صحة هذه الفرضية في المقام الأول؛ وهذا هو ما قام جالينوس بعمله فعلا. ولقد تناسقت نظريات جالينوس تماما مع العقيدة

المسيحية، ولذا فإن أعماله ظلت تدرس على الدوام طوال حقبة العصور الوسطى وتظفر بالاحترام والتقدير دائما.

أما هيبوقراطيس من جزيرة قوص Kôs (469 - 399 ق.م.) فكان معاصرا للفيلسوف سقراط، وتبعا لما قاله أفلاطون فإن هيبوقراطيس قد أعلن أن الإنسان لا يمكنه أن يفهم طبيعة جزء من الجسم إلا إذا فهم طبيعة الكل، وهذا يعني أنه يجب على الإنسان أن يسأل ما إذا كان الجسم بسيطا أو مركبا متنوعا؛ وأيا كانت إجابته عن هذا السؤال فعليه أن يحدد ما هي قوة الجسم على فعل شيء أو الخضوع لتأثير شيء خارجي، وبالتالي فإن هيبوقراطيس يعتبر الجسم وجودا عضويا حيا. ولقد أسس هيبوقراطيس الممارسة الطبية على المعرفة الناتجة عن فهم الخصائص الجوهرية المتفرقة الخاصة بذلك الجزء من الكل وعلاقته بأنواع الكائنات الحية في الطبيعة، وهي علاقة دياليكتية وفق المصطلحات الأفلاطونية. ولقد شرح هيبوقراطيس الأمراض على أساس افتراضه أنه حينما لا يُهضم الطعام فإن الهواء ينبعث خلاله ويفرز من بقاياه ويهاجم الجسم ويحدث المرض.

وتعالج كتابات هيبوقراطيس جميع موضوعات الطب ابتداء من التشخيص وأعراض المرض ونظام التغذية والجراحة والأدوية (الفارماكولوجيا) والصحة والمرض. ويرجع التناقض القائم في كتابات هيبوقراطيس إلى التضارب في نسبتها إليه وإلى التشكيك في صحة نسب بعضها إليه إبان العصور القديمة؛ ولقد نُسبت إليه بوجه خاص المؤلفات الخاصة بالكسور على مدى العصور التالية، وذلك لأن هذه العصور اعتقدت أن هيبوقراطيس فيلسوف أو مجرد ممارس أو صاحب عقائد أو إمبيريقي أو شكاك أو يؤمن بصحة الأخلاط الأربعة المنبثقة عن نظرية التنفس، أو جراح أو عالم نظري.

ومن المرجح أن الأعمال التي بقيت لنا تحت اسم هيبوقراطيس ليست في الحقيقة من تأليفه، وذلك لأن محتوياتها تتسق مع الشواهد والمعارف السابقة على عصر الإسكندرية، وفضلا عن ذلك فليس هناك إجماع بين الباحثين أو اتفاق على أي منها، وبالتالي فإن من المحتمل أن أعمال هيبوقراطيس قد وصلت إلى مدينة الإسكندرية بوصفها بقايا التراث الطبي الذي راج إبان القرنين الخامس والرابع ق.م. وإن كان معظم هذه الأعمال مجهول المؤلف، كما هي الحال السائدة في العصور القديمة. وبناء على هذا فقد نسبها الباحثون اللغويون إلى هيبوقراطيس على أساس أنها تتعلق بالنظرية الهيبوقراطية إجمالا.

وجل ما يمكن قوله عن شخصية هيبوقراطيس هو أنه فيزيقي فُقدت أعماله ولكن منهجه ونظريته ظلا باقيين ومعروفين، وهو مؤسس مدرسة علمية للطب بالمعنى الأفلاطوني، وأن شهرته قد راجت بعد عصر أفلاطون، وأنه أصبح بالنسبة إلى قدامى الإغريق وإلى العصور الوسطى وعصر النهضة وإلينا في العصور الحديثة تجسيدا للفيزيقي المثالي.

وأما هيروفيلوس من خالقيدون فقد عاش في مدينة الإسكندرية خلال النصف الأول من القرن الثالث ق.م. وكان واحدا من رواد الفكر الفيزيقي، وظلت مدرسته الطبية مزدهرة حتى نهاية القرن الأول ق.م.، وترجع أهمية هيروفيلوس إلى أنه أكد أهمية التجربة وفضلها على التأمل والمنطق. ولقد انبرى هيروفيلوس لولوج ميدان التجربة بنفسه، واعتبر أن الصحة أساس لا غنى عنه لسعادة الجسم والعقل. وكان أعظم إنجاز له هو أبحاثه التشريحية القائمة على تشريح جثث الموتى، ويحتمل أنه دون في هذا الصدد مبحثا منهجيا عن الكبد والعين والأعضاء التناسلية. كذلك فقد اكتشف نبضات القلب وصاغ قانونا رياضيا لانقباض systole عضلة القلب وانبساطها diastolê وأهم من ذلك أنه أرجع أسباب الأمراض إلى الأخلاط، أما في طرق العلاج فقد اهتم بالتشخيص واستخدام العقاقير والأدوية بوفرة، كما اهتم بنظام الغذاء وممارسة الألعاب الرياضية، وآمن هيروفيلوس بأن المخ هو مركز الجهاز العصبي.

وأما إراسستراتوس من جزيرة كيوس Keos، فقد عاش في مدينة الإسكندرية إبان النصف الأول من القرن الثالث ق.م. وكان معاصرا لهيروفيلوس وهو فيزيقي بدوره وطبيب ظلت مدرسته الطبية مزدهرة حتى عصر جالينوس، وظلت كتبه مرجعا يطالعه الباحثون حتى القرن الرابع الميلادي، وكان إراسستراتوس فيلسوفا وباحثا قبل أن يكون طبيبا ممارسا، ووجد ضالته المنشودة في البحث العلمي الذي كان يشتمل على الخبرة التراكمية الكمية. ولقد تمكن إراسستراتوس من تكملة المفاهيم التي توصل إليها ديموقريطوس وتلاميذه في أبحاث الذرة، كما طور منهج إستراتون وأفكاره عن عدم امتداد الخلاء الخالي من الذرات، واعتقد - مثل أرسطو - أن الطبيعة لا توجد شيئا من فراغ أو عبثا. ولقد أدت دراساته التشريحية إلى إيجاد تفرقة واضحة بين الأعصاب الحسية والأعصاب الحركية، وبناء على تشريحه لجثث الموتى توصل إلى التغيرات التي تحدث في الجسم نتيجة إصابته بالمرض. وفي مجال علم الفيسيولوجيا (وظائف الأعضاء) درس إراسستراتوس نمو الجسم وعملية هضم الغذاء، وصاغ نظرية حول تدفق الدماء خلال الأوردة وحول التنفس ودورة الدم في الشرايين. وهو يرجع جميع الأمراض إلى سبب واحد هو التخمة plêthôra، وبمعنى آخر امتلاء الجسم بالطعام غير المهضوم جيدا، غير أنه لم يهمل الاختلافات القائمة بين الأمراض ولا حالة المريض، وركز بالنسبة إلى العلاج على نظام التغذية، وعارض بشدة فصد الأوردة والمطهرات أو المسهلات.

خامسا: الموسيقى Mousike

كانت الموسيقى تمثل جانبا مهما من جوانب حياة اليوناني القديم منذ أقدم العصور، ويظهر ذلك جليا في ملاحم هوميروس في الاحتفالات والأعياد والمسابقات الرياضية، حيث كان يُعزَف على

القيثارة kitharôdia وعلى الناي aulodia وتجرى المسابقات لاختيار أفضل العازفين. كذلك فقد كان الشعر الغنائي عند الإغريق يُنشَد بمصاحبة العزف على الآلات الموسيقية المختلفة، ومثله شعر الملاحم الذي برع المنشدون في ترتيله وإنشاده. كذلك كان تعليم الموسيقى والغناء والعزف على القيثارة جزءا من مناهج التعليم اليوناني القديم، ولقد دعا أتباع فيثاغورث إلى تعلم الموسيقى، لأن مؤسس مدرستهم (فيثاغورث) قد اكتشف أن توافق الوقفات الرئيسة symphoniai يمكن إظهاره عن طريق القيم العددية، وبذلك فإن النغمات الصادرة عن العزف تمثل قيما عددية مختلفة، أما أفلاطون فقد اعتبر أن الموسيقى فن لا يؤثر فقط في المشاعر بصفة وقتية ولكن تأثيره دائم في الشخصية، ويبدو هذا بوضوح في مناقشته لتعليم الموسيقى الذي يجب أن يتدرب عليه المواطن في مدينته الفاضلة، ولكنه رفض النغمات الحزينة والمخنثة التي كانت شائعة لدى الإيونين والليديين، وأبدى رضاه عن الموسيقى والدورية الفريجية التي تحاكي الشجاعة والإقدام واليقظة.

كذلك اعتبر أرسطو أن الموسيقى مهمة وناقش استخدامها في كتابه السياسة، ولكنه أباح الموسيقى بجميع أنواعها، ولم يتحفظ عن أي نوع منها مثلما فعل أفلاطون، واعتقد أنها تؤدي إلى الراحة والاسترخاء، وإن اعتقد أن النغمات والألحان عبارة عن محاكاة mimêmata للصفات الأخلاقية، وبالتالي فإن لها تأثيرها في النفس؛ وبناء على ذلك فإن الموسيقى الأخلاقية harmoniai êthikôtatai هي وحدها التي ينبغي أن تدخل في برنامج الدراسة. ولقد لام أرسطو أفلاطون لأنه سمح بإدخال الموسيقى الفريجية ولم يبد رضاه إلا عن الموسيقى الدورية التي اعتبرها الوسط الذهبي بالنسبة إلى الموسيقى عامة. أما أريسطوكسينوس -Aristoxenos وهو باحث في الموسيقى والهارمونية - فقد أشار إلى تأثير الموسيقى الأخلاقي المباشر في النفس، وأكد ذلك أتباع المدرسة الإبيقورية، فضلا عن تردد الأصداء نفسها في كتاب «عن الموسيقى» الذي دونه الباحث فيلوديموس Philodêmos (القرن الأول ق.م.). وعلى أي حال فقد ربط الإغريق دوما بين النغمات harmoniai والمشاعر والأحاسيس البشرية، وكذلك فقد كان هناك قانون في مدينة أرجوس يؤكد ضرورة الحفاظ على الموسيقى نقية.

وأقدم كتاب نظري عن الموسيقى من تأليف أريسطوكسينوس يحمل عنوان «المبادئ والعناصر» Archai kai Stoicheia، أي مبادئ الألحان وعناصرها، وهناك أجزاء من عمل منسوب إلى أرسطو بعنوان «المسائل Problêmata» تتعلق بالموسيقى وتحتوي على معارف ترجع إلى القرن الرابع ق.م.، وكذا عمل من أعمال إقليدس بعنوان «تقسيم آلات العزف ذات الوتر الواحد Katatomê Kanonos» يحتوي على مسائل رياضية خاصة بالموسيقى. ولدينا مقالة بعنوان «عن الموسيقى peri Mousikês» منسوبة خطأ إلى بلوطارخوس، وهي تحتوي على

معلومات مستمدة من أريسطوكسينوس، أما الكتب والمقالات التي دونت منذ القرون التالية للميلاد فهي أكثر من أن تحصى، ونذكر منها: «مدخل إلى الهارمونية Eisagôgê Harmonikê» وهو كتاب ألفه كليونيديس، Kleonidês وكتاب بعنوان «الرياضيات المفيدة في دراسة (أفلاطون) ta kata to Mathêmatikon Chrysima» وكتاب ألفه كلاوديوس بطلميوس بعنوان «الهارمونية Harmonika» في ثلاثة أجزاء، وكتاب بعنوان «الكتاب اليدوي في الهارمونية Harmonikon Encheiridion» ألفه نيقوماخوس من جيراسا، وكتاب بعنوان «مدخل إلى الهارمونية harmonikê Eisagôgê» ألفه جاودينتيوس Gaudentius، وكتاب بعنوان «عن الموسيقى» من تأليف أريستيديس كوينتليانوس إبان القرن الثالث الميلادي، وكتاب بعنوان «مدخل إلى الموسيقى» ألفه أليبيوس Alypius الذي يعد مرجعنا الأساسي عن النوتة الموسيقية اليونانية.

أما أرسطوكسينوس فقد ولد في مدينة تارنتوم في الفترة ما بين العام ٣٧٥ والعام٣٦٠ ق.م.، وهو فيلسوف ومنظر للموسيقى تلقى تعليمه في مبدأ الأمر على يد والده اسبينثاروس Spintharos وعلى يد لامبروس Lampros في إريتريا في خالكيس. وعندما سافر إلى أثينا أصبح تلميذا لاكسينوفيلوس Xenophilos البيثاجوري ثم تلميذا لأرسطو، ولقد ذاع صيته بين زملائه في مدرسة الليقيون Lykeion الأرسطية لدرجة أنه كان مرشحا لتولي رئاسة مدرسة أرسطو بعد موته، ولكن أرسطو رأى اختيار ثيوفراسطوس خليفة له. ويروي لنا معجم سودا (سويداس) أن أريسطوكسينوس قد انتقد ذاكرة أرسطو وروج روايات مفتراة عن سقراط، وزعم أن محاورة الجمهورية لأفلاطون منحولة ومنقولة عن بروتاجوراس.

ومن أعمال أريسطوكسينوس ذات الأهمية كتاب «المبادئ والعناصر» الذي سبق ذكره، والذي بقيت منه ثلاثة أجزاء بصفة جزئية، يدور الجزء الأول منها حول الغرض من تأليف الكتاب وحول وحدات الصوت والنبرة والأنغام والوقفات والسلم الموسيقى. أما الجزء الثاني فيغطي الموضوعات الرئيسة التي عُولجت في الجزء الأول، كما يحتوي على مفاتيح النغمات tonoi والتنغيم وتشكيل اللحن melopoiia، وأما الجزء الثالث فيحتوي على سبع وعشرين نظرية عن الربط المسموح به للوقفات الموسيقية وللآلات ذات الأوتار الأربعة في سلمها الموسيقى. وهذه الأجزاء الثلاثة لا تمنحنا نظرية كاملة للموسيقى، ولا تشكل كتابا كاملا بذاته، ومن المرجح أنها عبارة عما تبقى من مبحثين منفصلين، أحدهما بعنوان «المبادئ Archai» ويحتوي على الجزء الأول فقط، والثاني بعنوان «العناصر Stoicheia» ويحتوي على الجزأين الثاني والثالث، وربما عانت هذه الأجزاء من الحذف أو الدس الذي تم في عصور تالية.

وهناك أيضا كتاب آخر بعنوان «عناصر الإيقاع Rythmika Stoicheia» لم يبق منه سوى شذرة من الجزء الثاني، وتدور هذه الشذرة حول طبيعة الإيقاع التي يعرفها أريسطوكسينوس

بأنها ترتيب للوحدات الزمنية المعزوفة taxis aphôrismenê chronôn، كما تدور حول الوحدة الزمنية الأولى للإيقاع protos chronos، والتفعيلات وتقسيماتها بين الارتفاع arsis والقرار thesis والاختلافات القائمة بينها. وهناك أعمال أخرى لأريسطوكسينوس نذكر منها كتابا بعنوان «عن الموسيقى» في أربعة أجزاء على الأقل، وكتابا آخر بعنوان «عن الاستماع إلى الموسيقى peri Mousikês Akroaseôs»، وكتابا ثالثا بعنوان عن «مفاتيح النغمات peri Tonôn»، وكتابا رابعا بعنوان «عن آلات الناي والآلات الموسيقية peri Aulôn kai Or-ganôn»، وكتابا خامسا بعنوان «عن ثقوب الناي peri Aulôn Trêseôs»، وكتابا سادسا بعنوان «عن عازفي الناي peri Aulêtôn»، وكتابا سابعا بعنوان «عن شعراء التراجيديا peri Tragôdopoiôn»، وكتابا ثامنا بعنوان «عن الرقص في التراجيديا peri Tragikês OPrchêseôs».

وهناك أعمال أخرى لأريسطوكسينوس ذات طابع تاريخي، نذكر منها كتاب «سيرة حياة المشاهير من الرجال Bioi Andrôn»، وهو يتضمن سيرة حياة كل من فيثاغورث وأرخيتاس وسقراط وأفلاطون، وكتاب «مقولات فيثاغورث Pythagorika Apophaseis»، وكتاب «المقارنات Synkriseis»، وكتاب «قوانين التربية والتعليم Nomoi Paideutikoi»، وكتاب «قوانين السياسة Nomoi Politikoi» في ثمانية أجزاء تقريبا، وكتاب «تعليقات تاريخية Historika Hypomnêmata»، وكتاب «شروح مختصرة ta kata Brachy Hypomnêmata»، وكتاب «أمشاج من التعليقات Symmikta Hypomnêmata» في ستة عشر جزءا، وكتاب «ملاحظات متفرقة ta Sporadên»، وأخيرا كتاب «أمشاج من أحاديث منتدى الشراب Symmikta Sympotika».

ويعد إنجاز أريسطوكسينوس في مجال علم الهارمونية إنجازا متميزا بكل المقاييس ومختلفا عن إنجازات سابقيه في كثير من المواضع، وفضلا عن ذلك فقد أثرت أعماله تأثيرا كبيرا في كتاب القرون التالية، كما أثبت أنه تلميذ نجيب لأرسطو بفضل منهجه في التفسير عن طريق التعريفات والتقسيمات. وعلاوة على ذلك فقد كان أريسطوكسينوس مهتما أبلغ الاهتمام بالقيم الأخلاقية والتعليمية للموسيقى، وعلى عادة الفلاسفة المشائين فإن أريسطوكسينوس لم يحصر جهوده في مجال واحد بل شعب اهتماماته في ميادين كثيرة. ولقد أخبرنا شيشرون بأن أريسطوكسينوس قد اعتبر الروح هي نغمة الجسم الهارمونية.

المراجـــــع

J. L. E. Dreyen , A History of Astronomy from Thales to Kepler , U. S. A. (1953).
- T. L. Heath , Aristarchus of Samos , U.S.A. (1959).
- D. R. Dicks , Early Greek Astromomy to Aristotle , (1970).
- T. L. Heath , History of Greek Mathematics , New York (1956).
- O. Naugebauer , The Exact Sciences in Antiquity , U.S.A. (1957).
- Arturo Castiglioni , A History of Medicine , (1952).
- H. E. Singerist , A History of Medicine , (1961) .
- C. Sacks , The History of Musical Instruments , (1940).
- C. Sachs , The Rise of Music in the Ancient World , (1943) .
- A. G. Drachm?nn, The Mechanical Technology of Greek and Roman Antiquity, Copenhagen (1961) .
- Th . Reinach , La Musique grecque , Paris (1926) .

عالم الفكر
العدد 2 المجلد 38 أكتوبر - ديسمبر 2009

الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة

د. لطفي عبدالوهاب يحيى (*)

قد لا أبتعد كثيرا عن الصواب، إذا ذكرت أن الحديث عن الحياة الاجتماعية في أثينا في العصر القديم، يضعنا في مواجهة قضية مبدئية، ألا وهي: حدود الدائرة التي تنطبق عليها هذه التسمية.

وفي هذا المجال فإن عددا غير قليل من جوانب الحياة الأثينية في العصر المذكور يمكن أن يوصف بهذا الوصف، بل أكاد أقول إن الجوانب التي لا تدخل ضمن هذا الوصف هي الاستثناء من القاعدة. وربما كان السبب في هذا الوضع هو أن علم الاجتماع بمفهومه المعاصر، بكل ما صحب ظهوره من حماس، وبكل ما دخل أو أدخل فيه من تخصصات، لم يترك مجالا إلا وطرقه، سواء فيما يخص النشاط المادي أو النشاط الفكري، وذلك سعيا وراء ما قد يكون هناك من جوانب اجتماعية لهذا النشاط - وهو أمر لم يعد يقتصر على التعامل مع واقع المجتمعات الحديثة فقط، بل بدأ يشق طريقه إلى التعامل مع تاريخ المجتمعات القديمة منذ فترة غير قصيرة، وذلك تداخلا مع ما أصبح يعرف بتخصص التاريخ الاجتماعي.

وبغض النظر عما قد يكون هناك من مبالغة في إضفاء الصفة الاجتماعية على بعض جوانب الحياة في أثينا القديمة، فإن محاور الحياة الاجتماعية التي تخلو من المبالغة تظل أكثر مما يتحمله بحث واحد لا يمكن، بالضرورة، إلا أن يكون محدودا، ومن ثم فلا مناص من أن تكون الوقفة إزاء هذه المحاور ذات صفة انتقائية. ومن خلال هذه الوقفة الانتقائية فقد رأيت أن يكون حديثي حول ثلاثة من هذه المحاور التي كانت تدور حولها الحياة الاجتماعية الأثينية في العصر المذكور - وذلك من حيث إنها قد تكون أكثر من غيرها تأثيرا في هذا الجانب من الحياة في المجتمع الأثيني.

والمحور الأول الذي سأتناوله بالحديث هو التكوين الطبقي للمجتمع قيد الحديث (وما يتبع ذلك بالضرورة من العلاقة بين الطبقات)، على أساس أن التكوين الطبقي هو أوسع وأشمل

(*) أستاذ تاريخ الحضارة - جامعة الإسكندرية - مصر.

التكوينات التي يمكن أن ينقسم إليها المجتمع، ومن ثم فإن القضايا المتعلقة به هي أكثرها ارتباطا بالحياة الاجتماعية للأفراد، وهي التي تحدد موقعهم في المجتمع في أدق تفاصيل هذا الموقع، بدءا من حصول الفرد على ضرورات حياته اليومية التي تحقق له نوع الوجود الذي يمكن أن يتوصل إليه، وانتهاء بنيل مطالبه التي تتخطى ذلك والتي يمكن أن نصفها بأنها تحفظ عليه إنسانيته. والمحور الثاني الذي سأتناوله في هذا السياق هو العلاقة بين أفراد الأسرة، وذلك على أساس أن التكوين الأسري هو النواة الأولى للمجتمع، ومن ثم فإن الرابطة الأسرية تختصر شبكة الروابط التي تتخلل المجتمع بأكمله في نهاية الأمر. أما المحور الثالث فسوف أحاول أن أتخذ منه وسيلة للتعرف على مدى إبقاء الأثينيين على بعض قيمهم الأساسية أو تغيير موقفهم من هذه القيم إزاء الأزمات أو الأحداث الكبرى التي كان مجتمعهم يمر بها من حين إلى آخر. وأعني بذلك، بشكل خاص، المحافظة على القوانين السارية في المجتمع، كما أعني بشكل أكثر خصوصية، موقف المجتمع الأثيني القديم من قضية التدين أو نظرته إلى القوى الإلهية، لنرى وضع الأثينيين تجاه هذه المسألة التي كانت تشكل، في العصر القديم، القيمة الأكثر حضورا في المجتمع، ومن ثم الأكثر تأثيرا في الحياة الاجتماعية للأفراد، سواء أكان هذا التأثير تبجيلا وإكبارا أم كان على صورة أخرى غير ذلك.

وقبل أن أخوض في الحديث عن الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة، قد يكون من المناسب أن أشير في عجالة إلى نقطتين أو ثلاث. وإحدى هذه النقاط تتصل بتسمية المدينة قيد الحديث. وفي هذا الصدد فإن هذه التسمية كانت تتجاوز الحدود الجغرافية لهذه المدينة لتشمل شبه جزيرة أتيكا Attica التي كانت تضم أثينا والضواحي والقرى والموانئ الصغيرة التي تحيط بها وتتخذ منها مركزا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. كذلك فإنها، بهذه الحدود، لم تكن مجرد مدينة أو منطقة ضمن عدد آخر من المدن أو المناطق التي تشكل في مجموعها دولة تضمها جميعا. بل كانت، على الرغم من صغر حجمها، دولة (أو دويلة) قائمة بذاتها، أو «دولة - مدينة» polis وفق ما كان اليونان يفضلون أن يسموها، هي أو غيرها من الدويلات الأخرى التي انقسمت إليها بلاد اليونان في العصر القديم.

أما النقطة الثانية فهي أن جانب الحياة الاجتماعية في أثينا، برغم ما له من أهمية، لا يشكل جانبا مستقلا أو منفصلا عن غيره من الجوانب التي تشتمل عليها حياة المدينة، ولكنه يمثل دورا يتداخل، من حين إلى آخر، مع بقية الأدوار التي تمثلها الجوانب الأخرى للحياة في المجتمع، ومن ثم يجدر بنا أن نشير إلى مواطن التلاقي والارتباط مع هذه الجوانب كلما رأينا في ذلك ما يسهم في إلقاء قدر من الضوء على الموضوع قيد الحديث.

ثم تأتي أخيرا، وليس آخرا، مسألة التوقيت الذي تنسحب عليه هذه النقاط بالنسبة إلى المحاور الثلاثة للدراسة الحالية، وفي هذا الصدد ففيما يخص المحور الأول من محاور الحياة

الاجتماعية في أثينا القديمة، وهو التكوين الطبقي وما يتصل به من العلاقة بين الطبقات - فإن بوسعنا أن نقول إنه بدأ منذ فترة، وإن كانت غير محددة بالتدقيق، لكنها تقارب أواخر القرن السابع ق.م.، حين اشتد ساعد الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، وهم أصحاب الأراضي. أما عن نهاية هذا التوقيت فبوسعنا أن نضعها في السنوات الأخيرة من العقد الأخير في القرن السادس ق.م. - وهو توقيت شهد اكتمال الملامح الأساسية للتكوين الطبقي في أثينا - وهي ملامح تبلورت في الدستور الديموقراطي الذي حدد بنوده المشرع ورجل الدولة الأثيني كليسثنيس Cleisthenes، وهو الدستور الذي بدأ العمل به في 503 - 502 ق.م.

أما المحور الثاني الذي أتحدث فيه عن الأسرة، والمحور الثالث الذي أعالج فيه موقف الأثينيين من بعض القيم الأساسية في وقت الأزمات فيمتد توقيتهما عبر القرن الخامس ق.م. وحتى أوائل الثلث الأخير من القرن الرابع ق.م. وهو توقيت بدأت بعده أثينا، ومعها بقية بلاد اليونان، تفقد المعالم الأساسية لثقافة دولة المدينة، لتدخل في ثقافة جديدة وعصر جديد. وأختم الحديث عن مسألة التوقيت بملحوظة مؤداها أن الحياة الاجتماعية بطيئة التطور بطبيعتها، ومن ثم لا يجوز التعامل معها بطريقة حسابية أو رياضية محددة، ومن هنا فإنه يحسن بنا أن ندخل هذا الأمر في اعتبارنا كلما كان هناك متسع لذلك.

* * *

وأبدأ بالحديث عن المحور الأول من محاور الحياة الاجتماعية في المجتمع الأثيني القديم، وهو المحور الذي ارتأيت أن يدور موضوعه حول التكوين الطبقي والعلاقة بين الطبقات التي شهد هذا المجتمع تكوينها. وربما كان خير من يقدم لنا صورة متكاملة في هذا الصدد هو المفكر اليوناني أرسطو في كتابه عن «دستور الأثينيين». إن هذا المفكر يذكر لنا في بداية ما تبقى من هذا الكتاب لدى العثور عليه، ما يفيد بأنه يتحدث في هذا القسم منه عن العصر الذي كان فيه المجتمع الأثيني لايزال تحت حكم أصحاب الأراضي، وهو عصر كان فيه هذا المجتمع ينقسم إلى طبقتين أساسيتين هما: هذه الطبقة الحاكمة وطبقة العامة الذين كانوا يعملون في هذه الأراضي، فيقول: «... لقد كان هناك صراع طويل الأمد بين طبقة النبلاء وبين طبقة العامة، لأن الوضع السياسي كان ينتهج طريق الأقلية، وعلى وجه التخصيص فإن الفقراء هم وزوجاتهم وأولادهم كانوا أقنانا لدى الأغنياء (عبيد أرض لا يملكون حق مغادرتها).... وكانت الأراضي كلها في يد الأقلية»[1].

على أن التباين المادي لم يكن كلَّ ما أدى إلى الصراع المذكور بين الطبقتين، فقد واكبته جفوة ما لبثت أن تحولت إلى فجوة اجتماعية ربما كانت أعمق وأقسى من هذا التباين المادي ذاته، وفق ما نستطيع أن نستنتج من بعض ما ذكره المفكر قيد الحديث. وفي هذا السياق نجد أن أرسطو يعبر عن اهتمامه بالفجوة الاجتماعية المذكورة من حيث إنه، بعد أن يشير إلى قناة

(عبودية الأرض) لأول مرة، لا يلبث أن يشير إليها مرة أخرى في الفقرة ذاتها ثم مرة ثالثة في الفقرة التالية. وفي هذه المرة (الثالثة) يؤكد اهتمامه بهذه القضية الاجتماعية حيث يقول: «لقد كانت هذه القناة هي أشق الأمور على النفس وأكثرها استثارة للكراهية... لدى الأغلبية (من بين العاملين في أراضي الأغنياء)». ثم يستمر المفكراليوناني في حديثه عن طبقة العامة، ليختمه فيما يخص هذه النقطة بعبارة ربما كانت تشير، أكثر من غيرها، إلى موطن الداء، حين يشعر المرء بعدم الاعتراف بكيانه في المجتمع الذي ينتمي بحكم الواقع إليه. لقد كانت هذه العبارة التي ذكرها أرسطو والتي لخصت كل شيء في هذا الموقف - والإشارة هنا إلى أفراد طبقة العامة - هي أنهم «لم يكن لهم نصيب في أي شيء»[2].

وفي ثنايا هذا الوضع العام يورد أرسطو بعض التفاصيل التي تبين لنا صورة للحياة البشعة التي كان العامة يقاسون منها فنعرف، على سبيل المثال، أن النسبة التي كان أفراد طبقة العامة يحصلون عليها لقاء عملهم في أراضي الأغنياء، كانت سدس المحصول - ومن هنا كانت تطلق عليهم تسمية «أصحاب السدس» hectemoroi - وأن هذه النسبة كانت لا تكفي لتغطية الاحتياجات الأولية لهؤلاء الأفراد، وهو أمر نعرفه مما يذكره لنا أرسطو حين يقول في كتابه المذكور: إنهم كانوا يستدينون من أصحاب الأرض. كذلك نعرف أن هذه الديون كان تأمينها يقع على شخص المدين، فإذا قصَّر في الوفاء بها كان من حق صاحب الأرض أن يبيعه هو وزوجته وأولادهما في أسواق النخاسة. أما إذا أراد المدين أن ينجو بجلده من هذه النهاية المأساوية، فلم يكن أمامه إلا أن يفر خارج حدود أتيكا في منفى اختياري بوصفه أهون الشرين: فقدان موطن عزيز عليه أو فقدان إنسانيته ذاتها.

وفيما يخص تطور العلاقة بين الطبقات ضمن الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة، ربما كان في وسعنا أن نتتبع هذه العلاقة عبر ثلاث مراحل في غضون فترة لم تزد إلا قليلا على قرن من الزمان. وقد كانت البداية هي أن النبلاء الذين كانوا يملكون الأرض كانت بيدهم مقاليد الأمور في أثينا في جميع المواقع، بما في ذلك مجال الإشراف على القوانين التي كان أمرها يناط بمجلس من هؤلاء النبلاء[3]. على أن التسلط الذي اتسم به حكم هذه الطبقة وانحرافها الظاهر نحو خدمة أهوائها ومصالح أفرادها، أديا إلى سخط متزايد بين صفوف العامة، اضطرت معه الطبقة الحاكمة إلى تدوين القوانين. وقد عهد بهذه المهمة إلى مشرع اسمه دراكون.

وعلى الرغم من أن القونين التي سنها وتلك التي فسرها أو عدَّلها هذا المشرع في عام 621 ق.م. كانت لاتزال على قدر غير قليل من القسوة، كما أنها لم تعالج سوى جوانب محدودة من مشكلات العامة، فإنها تمثل، في رأيي، الخطوة الأولى في تطور العلاقات بين الطبقتين الرئيسيتين. فمن جهة أصبح التعامل مع الجرائم يتم على أساس أنها تشكل «اعتداء على

المجتمع»، بعد أن كان ينظر إليها حتى ذلك الوقت على أنها «إغضاب للآلهة» فقط، وهكذا بدأ دور القانون يبرز بوصفه أداة للتعامل داخل المجتمع الأثيني للمرة الأولى. ومن جهة أخرى فإن إصدار هذه القوانين كان في مصلحة الطبقة المحكومة من حيث إن هذه الطبقة بدأت تتعرف بالتدقيق والتحقيق على مواطئ أقدامها، ومن ثم تعرف من الآن فصاعدا أن العلاقة بينها وبين النظام القائم لا بد أن تحكمها وتضبطها قوانين تبين الحقوق وتوضح الحدود، وهكذا أصبحت الأمور مهيأة لأن يخطو المجتمع الأثيني الخطوة التالية على مسار ما يمكن أن نطلق عليه تسمية «الحراك الاجتماعي».

وفي واقع الأمر فإن بعض الظروف ساعدت على تحقيق تلك الخطوة التالية على ذلك المسار. وأحد هذه الظروف هو، في حد ذاته، أمر مفروض، ولكنه اكتسب اتجاها حادا في المجتمع الأثيني في ظل الوضع الطبقي المتأزم قيد الحديث. هذا الأمر هو الازدياد الطبيعي لعدد السكان بمرور الوقت، بينما لم يكن في الأرض الصالحة للزراعة، المحددة بالضرورة، فائض يتسع للأفواه الزائدة في المقابل. وقد ضاعفت الظروف الجغرافية من هذه الضائقة. وفي هذا السياق فإذا كانت بلاد اليونان وعرة في عمومها، فإن شبه جزيرة أتيكا من أكثرها وعورة. وقد سجل القدماء هذه الحقيقة في أكثر من موضع، ومن بينهم المؤرخ ثوكيديديس والجغرافي سترابون [4]. والظرف الجغرافي الثاني هو إطلال أتيكا على سطح مائي هادئ هائل، هو بحر إيجة الذي يقع بين بلاد اليونان وشبه جزيرة آسيا الصغرى والذي تنتشر فيه أعداد كبيرة من الجزر لتشكل ما يشبه الجسر الذي يصل أو يسهل الاتصال بين أثينا وشواطئ النصف الشرقي للبحر المتوسط. وقد كان من شأن هذا التكوين الجغرافي الآمن المشجع على التواصل أنه اجتذب سكان أتيكا إلى ارتياد هذه الشواطئ والتعامل التجاري معها منذ فترة مبكرة، لتعوض بذلك بعضا مما ضيقت به الطبيعة عليهم في مجال الزراعة.

وكان من الطبيعي أن يترتب على هذا الوضع ظهور طبقة جديدة، هي طبقة التجار الذين أخذوا يكتسبون وقعا ملموسا في المجتمع الأثيني يوما بعد يوم، عن طريق تزويد المجتمع بما هو في حاجة إليه آنذاك، وذلك باستيراد ما كان ينقص المجتمع من حبوب على وجه التخصيص - وهي سلعة أساسية كانت مطلوبة في المقام الأول في ذلك الوقت. وفي ضوء هذه الظروف لم يكن من المستغرب أن يسعى أفراد هذه الطبقة الصاعدة إلى تدعيم موقعهم بجميع الطرق حتى يضمنوا رعاية مصالحهم وتنميتها. كما كان في مقدور هذه الطبقة، التي أصبحت تسيطر على مورد أساسي من موارد الإنتاج، أن تساوم طبقة النبلاء الحاكمة، فيما يخص هذه المصالح وما يتصل بها من حقوق، مساومة الذي يقف على أرض صلبة، خصوصا مع استمرار الموقف العدائي لطبقة العامة بما يمثله من صراع دائم مع طبقة أصحاب الأراضي.

وأمام هذه الأوضاع التي كان من المتوقع، مع استمرارها، أن تزداد الأمور سوءا، احتد الخلاف بين طبقة العامة وطبقة النبلاء، وحين وصل إلى درجة العنف اتفق الطرفان (594 - 593 ق.م.) على أن يتخذا من سولون Solon - وهو شخصية مرموقة في المجتمع الأثيني آنذاك - حاكما للمدينة ووسيطا بينهما. ويبدو أن سولون كان الشخص المناسب لهذه المهمة، فعلى الرغم من أنه كان ينتمي إلى طبقة الأقلية الحاكمة فإنه كان من الجناح المعتدل لهذه الطبقة، وهم أصحاب الثروة المتوسطة، كذلك كان قد مارس التجارة بعض الوقت، كما كان لرحلاته الكثيرة أثر في سعة أفقه ومن ثم سداد رأيه، وإلى جانب ذلك كان على قدر وافر من حبه لمدينته وإشفاقه عليها من جراء ما أصابها نتيجة الصراع الطبقي المذكور، وهو أمر نستنتجه من قصيدة عن أثينا كان قد نظمها قبل اختياره وسيطا، حيث يقول في مطلعها[5]:

إني أرقب الأمور

ويملأ الحزن قلبي

حين أنظر إلى أعرق المدائن الأيونية

وهي تترنح وتتداعى أمام ناظري

وإزاء الوضع المتفجر الذي كان يمر به المجتمع الأثيني آنذاك، وضع سولون مجموعة من التشريعات بهدف التوفيق بين المصالح المتضاربة لطبقات هذا المجتمع. وقد انقسمت هذه التشريعات إلى قسمين رئيسيين: أحدهما نستطيع أن نربط بينه وبين الطبقة التجارية الصاعدة وما كانت تصبو إلى تحقيقه من متطلبات. وفيما يخص هذا القسم نجد سولون يربط في تشريعاته بين الحقوق السياسية (التشريعية والتنفيذية) وبين الثروة بوجه عام، بحيث يصبح مقدار الدخل السنوي للفرد، بغض النظر عن مصدر هذا الدخل سواء أكان من الأرض أو من التجارة، هو الأساس الذي يقوم عليه قدر تمتعه بهذه الحقوق - وهكذا تستطيع طبقة التجار أن تصل إلى حقوقها وأن تدافع عنها، بينما لا تخسر طبقة أصحاب الأراضي شيئا من الحقوق السياسية المذكورة.

أما القسم الثاني من التشريعات قيد الحديث، فقد كان يستهدف معالجة الوضع المتردي الذي كانت طبقة العامة تقاسي من جرائه على أيدي طبقة أصحاب الأراضي. وفي هذا الصدد فإن التشريع الذي قدمه سولون فيما يتصل بحياتهم الاجتماعية هو ما عرف تحت اسم «التخلص من العبء» seisachtheia. وبموجب هذا التشريع أُلغيت جميع الديون التي كان أفراد طبقة العامة يرزحون تحتها ويئنون من وطأتها، كما أُلغيت أهم النتائج المترتبة عليها، وهي فقدان المدين لما تبقى من حريته بشكل نهائي، إذ تضمن هذا التشريع تحريم اتخاذ شخص المدين (ومعه أسرته) ضمانا للوفاء بالدَّين على نحو ما مر بنا في مناسبة سابقة.

عالم الفكر
العدد 2 المجلد 38 أكتوبر - ديسمبر 2009

وعلى الرغم من إنجاز سولون هذه التشريعات، فإن الأخذ والرد والمساومة بين طرفي النزاع، توصلاً إلى هذا الإنجاز، لم تشكِّل مسارا مُعبَّدا. ونستمع هنا إلى أرسطو في كتابه الذي أسلفت الإشارة إليه، وعن أفراد الطبقات المذكورة وهم يقدمون اعتراضاتهم واحتجاجاتهم عندما دعاهم سولون إلى الاجتماع به. إن المفكر يحدثنا عن رغبة طبقة العامة في اقتسام أراضي طبقة النبلاء معهم، وعن اعتراض هؤلاء النبلاء على إلغاء الديون التي كانت لهم على العامة، كما يحدثنا عن عدم ترحيبهم بتحرير المدينين من ربقة العبودية. ونعرف كذلك من حديث هذا المفكر حرص سولون على موقف الحياد الذي ألزم نفسه به إزاء هذه القضية. وربما كان خيرما نقدمه للدلالة على هذا الموقف هو بعض المقاطع من قصيدتين أو ثلاث نظمها المشرع ذاته في هذا السياق. وعلى سبيل المثال فهو يتحدث عن الموقف في عمومه حين يقول في إحدى هذه القصائد (6):

لقد منحت العامة ما يكفيهم من التشريف والميزات
وأعطيتهم ما يستحقون من دون نقص أو زيادة
أما أولئك الذين كانت لهم المكانة
وكان لهم التميز من خلال الثروة
فأعطيتهم الاعتبار ذاته
وتحريت ألا يصيبهم أي أذى
لقد وقفت بثبات
ومددت درعي القوية أحمي بها الطرفين
ولم أسمح لأي منهما أن ينتصر على الآخر
إذا كان ذلك على حساب العدالة

وبخصوص أولئك الذين كانوا ينادون بإعادة تقسيم الأراضي لمصلحة طبقة العامة نجد سولون يقول في مقطع آخر (7):

إن أولئك الذين تجمعوا
وفي ذهنهم أن ينهبوا ما ليس من حقهم
قد بالغوا فيما كانوا يأملون
إن كلا منهم كان يتوقع الحصول على ثروة عريضة
... ...
لكن توقعاتهم كانت على غير أساس
إنهم غاضبون عليَّ الآن
وينظرون إليَّ شزرا كما لو كنت خصما لهم

ولكنهم ينبغي ألا يفعلوا ذلك

لأني، بفضل الآلهة، قد أنجزت ما وعدت به

وفي مقطع ثالث نجده يتحدث عن إلغاء الديون وعن أولئك الذين حلت بهم محنة العبودية من جراء الديون ثم تحرروا نتيجة لتشريع «التخلص من العبء». حيث يقول متسائلا[8]:

أي من الأهداف التي جمعت الشعب اليوم ليكون شاهدا عليها

قد تخليت عنه قبل أن يتم إنجازه؟!

لقد أرجعت أعدادا من الأثينيين

إلى أثينا، وطنهم،

بعد أن كانوا... قد بيعوا في الخارج بحق أو من غير حق

وآخرين كانوا قد فروا من موطنهم تحت وطأة الديون

كما أرجعت الحرية إلى أولئك الذين لم يغادروا الوطن

واستمروا في عبودية (الأرض) صاغرين

يرتعدون أمام أسيادهم

هذا عن سير الأمور فيما يخص العلاقة بين الطبقات الثلاث موضع الحديث حتى الآن. أما استكمال البناء الطبقي ومن ثم ما يتصل به من علاقات تصب في الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة، فقد كان أمرا مفروغا منه. ذلك أن ظهور طبقة التجار كان يستوجب، بالضرورة، ظهور طبقة أخرى مواكبة، أو تطوير ما كان قد ظهر من عناصرها: وهي طبقة متعددة الشرائح ومتعددة الخدمات. وأولى شرائح هذه الطبقة هي شريحة الحرفيين الذين يمدون التجار بما يلزمهم من سلع للمبادلة مع الخارج أو للاستهلاك الداخلي المتنامي مع زيادة عدد السكان. كذلك كان هناك صناع السفن وعمال توصيل السلع الذاهبة إلى الموانئ والقادمة منها وآخرون للشحن والتفريغ، والبحارة، إلى جانب شريحة كانت لها أهمية خاصة آنذاك، وهي فئة المدافعين أو المقاتلين الذين كان التجار يستجلبونهم للدفاع عن السفن المحملة بالبضائع ضد هجمات القراصنة الذين كان يغص بهم البحر المتوسط في العصر القديم.

وقد كان من المنتظر ومن الطبيعي أن تتزايد أعداد المنتمين إلى هذه الشرائح بازدياد النشاط التجاري. ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك فقط، وترتب على النشاط التجاري وضع آخر هو تزايد القدرة على المساومة الاجتماعية لدى العمال الزراعيين الذين انفتحت أمامهم فرص الاختيار بين العمالة الزراعية والعمالة أو الخدمات المتصلة بالتجارة. وفي هذا الوضع لم يكن من المستغرب أن تدرك هذه الطبقة الرابعة، مع الوقت، قيمة موقعها وقيمة الدور الذي تقوم به في المجتمع الأثيني المتطور الذي شهد ظهورها ونموها واستكمال علاقاتها مع بقية الطبقات، وهي العلاقات التي شكلت الإطار الرئيسي للحياة الاجتماعية قيد البحث.

وإذا كانت الطبقات الأربع، متمثلة فيما بينها من علاقات، هي التي حددت الإطار الرئيس الذي دارت بداخله الحياة الاجتماعية في المجتمع الأثيني القديم، فإن الأسرة وما كان يقوم بين أفرادها من روابط وعلاقات كانت تشكل نواة هذا المجتمع، من حيث إن هذه العلاقات كانت تختصر شبكة الروابط التي تتخلل المجتمع بأكمله. وفي الواقع فإن هذه المقولة إذا كانت تنطبق على المجتمعات بعامة، فإننا قد لا نبالغ كثيرا إذا قلنا إنها تنطبق على مجتمعات دول المدينة على وجه التخصيص، ومن ثم على أثينا التي تنتمي إلى هذا النوع من الدويلات. وذلك من حيث إن المساحة الصغيرة التي تشغلها من شأنها أن تبرز دور الأسرة أكثر مما تفعل ذلك الدول الكبيرة ذات المساحات المترامية التي تتداح بداخلها التكوينات التي تنقسم إليها، سواء أكان التكوين موضوع الحديث أسرة أم كان غير ذلك.

وفي ظل هذا الظرف يصبح من الطبيعي ومن المتوقع أن تتخذ الرابطة بين المجتمع والأسرة شكلا خاصا أو غير تقليدي على أقل تقدير. وبالفعل فإن الرابطة بين الأسرة والمجتمع قد اتخذت في أثينا القديمة الشكل الخاص الذي كان من شأنه أن يزيد من قيمة الدور المناط بها، وهو دفع التماسك بين الطرفين - الجزء والكل - إلى أقصى درجة ممكنة - وكانت الطريقة التي تم بها ذلك هي الربط بين التكوين الأسري وحق المواطنة الأثينية ذاتها. وهنا يذكر لنا أرسطو في كتابه الآنف الذكر أن بركليس، الزعيم الأثيني، قدم إلى مجلس الشعب الأثيني Ecclesia اقتراحا تمت الموافقة عليه يقتصر بمقتضاه التمتع بحق المواطنة على من كان من أب وأم أثينيين[9]. وكان ذلك في العام 451 ق.م.

وفي وسع الدارسين أن يقدموا أكثر من تفسير للاقتراح الذي طرحه بركليس والذي أخذ به مجلس الشعب[10]. وأحد هذه التفسيرات المطروحة في هذا السياق هو أن يكون الانتفاع بالميزات التي كانت تحصل عليها أثينا من الإمبراطورية الأثينية في صورة أو في أخرى مقصورا على الأثينيين الخالصين وحدهم دون غيرهم من مختلطي النسب من أثينا وغيرها. ونحن نستطيع في الواقع أن نتفهم هذا التفسير مما قاله أرسطو بالفعل، حيث تحدث عن هذه الخطوة حين ذكر في هذا السياق أنها جاءت «في أعقاب» تزايد أعداد المواطنين - وهو أمر لا يمكن أن نتبينه على حقيقته إلا إذا كان هذا التزايد سيؤثر سلبا في المواطنين. كذلك قد يكون هناك تفسير آخر يتصل بتوجيه الأثينيين نحو الإبقاء على نقاء عنصرهم، كما قد يكمن التفسير في ظرف أو في آخر غير هذين الظرفين. غير أن الأمر الأهم في كل الأحوال هو أن الأثينيين ارتأوا أن الربط بين الأسرة أو التكوين الأسري وحقوق المواطنة هو خير أساس يمكن أن تقوم عليه شخصية المجتمع الأثيني. وهكذا لم يكن مفهوم التكوين السياسي للدويلة هو «محصلة» الأفراد الذين كان يتكون منهم هذا المجتمع، أو «محصلة» الجماعات التي تمثل الطوائف والأطياف والمهن التي تتألف منها طبقاته، بل كانت دولة المدينة الأثينية تنقسم بشكل

متدرج ومتشعب إلى مجموعة انتماءات قرابية أو مكانية بحيث يرتبط كل مواطن، عن طريقها، بالمدينة في نهاية الأمر. وإذا كانت مدينة أثينا تشكل قمة هذه الانتماءات فقد كانت نقطة البدء في التدرج إليها هي الانتماء إلى الأسرة أو «أهل البيت» oikos، قبل الانتماء إلى الحي demos ثم العشيرة phratria أو phratra ثم القبيلة phyle، وصولا إلى انتماء القمة.

ونحن نلمس في الواقع قدرا ملحوظا من الاهتمام بالأسرة من خلال موقف الأثينيين من قضية الزواج (ومن ثم تكوين الأسرة)، وهو موقف نعرفه من خلال الشعر المسرحي الأثيني فيما يخص الجوانب المختلفة من هذه القضية، على أساس أن الأديب ابن مجتمعه ومن ثم فإن تجربته من تجربة مجتمعه. وأحد الجوانب التي نقلها لنا الشعر المسرحي الأثيني هو النشاط الواضح للخاطبات اللاتي كان الراغبون في الزواج يلجأون إليهن في محاولات من جانبهم للتعرف على زوجات مناسبات[11]. ويشير هذا الأمر - كما هو ظاهر - إلى جدية التفكير في موضوع الزواج، متمثلة في الحرص على إنجاح الحياة الزوجية التي هم مقدمون عليها.

ومن بين هذه الجوانب كذلك الاهتمام الشائع في المجتمع الأثيني بالمرحلة العمرية المناسبة للزواج لدى الرجال والنساء. وفي هذا الصدد يقدم لنا الشاعر الكوميدي الأثيني أرستوفانيس Aristophanes مشهدا من إحدى مسرحياته يصور فيه هذا المعنى بكل ما يواكبه من مشاعر تختلط فيها الآمال بالإحباطات، حيث يدور الحديث حول الموقف المذكور بين بطلة المسرحية وبين إحدى شخصياتها. وهنا تذكر الشخصية أن الرجال يتمتعون بالشباب بشكل مستمر، فترد عليها البطلة[12]:

نعم هذا صحيح وحق (الإله) زيوس
ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا
إن (الرجل) حتى لو عاد من المعركة
وقد اختلط سواد شعره بالمشيب
فإنه في وسعه أن يتزوج لو أراد
أما ربيع الأنوثة فهو قصير مثل عمر زهرتها
إذا أفلت مرة فلن يعود ثانية
ومهما انتظرنا مع ما لدينا من رقيات وتنبؤات
فلن يقدم على الاقتران بنا من يبغي الزواج

هذا ولم يقتصر الاهتمام بالسن المناسبة للزواج لدى كل من الذكور والإناث على الرأي العام الأثيني ممثلا فيما يعكسه الشعر المسرحي في هذا الصدد، بل شكل كذلك قضية لدى أهل الفكر الفلسفي. وهنا نجد دارسا معاصرا [13] يشير إلى أن الفيلسوفين أفلاطون وأرسطو تناولا هذا الشأن بالمناقشة والتحليل، وقدم كل منهما رأيه بما قدر أنه يمثل الوضع المناسب

في هذا الأمر. وأود أن أضيف في هذا المجال أن ما قاله هذان المفكران يشكل أكثر من مجرد الاهتمام العابر بالقضية موضوع الحديث، شأنه في ذلك شأن ما يحدث فيما يخص بعض القضايا قصيرة الأمد. بل كان يمثل توجها على قدر غير قليل من الاستمرار. وأذكّر في هذا الصدد بما هو معروف للجميع، وهو أن أفلاطون (نحو 429 - 347 ق.م.) كان أستاذا لأرسطو (384 - 322 ق.م.) ومن ثم فهما يمثلان جيلين متعاقبين استمر خلالهما الاهتمام الجاد بقضية السن المناسبة للزواج في المجتمع الأثيني.

وفي سياق الاهتمام بالتوجه نحو الزواج وما يتعلق به، هناك كذلك مسألة العرف أو القانون الذي يحدد صاحب الحق في قبول من يتقدم للزواج من الفتاة موضع الطلب. وهنا نجد أن الأب هو صاحب الحق وعلى الفتاة أن تقبل من يختاره من دون اعتراض. فإذا كان الأب قد توفي قبل المناسبة كان على الفتاة أن تتزوج أول أقاربها أو من يختاره أول أقاربها، وفي الحالتين لا بد من الحصول على موافقة القضاء[14].

وتثبيتا للصفة الاجتماعية للزواج وارتباطها بحقوق المواطنة فقد حرص الأثينيون على «إشهار» هذا الحدث عن طريق إقامة حفل زفاف gamelia يحضره أفراد العائلتين وأبناء العشيرة والأصدقاء، وهو حضور يبدو أنه كان يميل إلى الكثافة إذا أدخلنا في الاعتبار الطقوس التي كانت تغري بحضور المدعوين إلى الحفل، ومن ثم يضاعف من وقعه. وفي هذا الصدد فقد كانت الطقوس المذكورة تتضمن وجبة شهية وأناشيد مثيرة للرغبة الجسدية وتتويجا بأوراق الغار للعروسين وتطييبهما بالعطور وتقديم كعكة زواج لهما يأكلان منها معا، وتقديم الحلوى بوفرة إلى الحضور، وتنتهي بطقس ختامي تشترك فيه أم العروس وأم العريس هو حمل مشعل إلى غرفة الزفاف وإيقاده هناك تمهيدا لدخول العروسين [15].

وزيادة في تقدير أهمية الزواج (ومن ثم ارتباطه بحقوق المواطنة) فقد أضفى عليه الأثينيون صفة القداسة، عن طريق الربط بينه وبين عالم الآلهة، وهو أمر يشير إليه أرستوفانيس في مسرحية أخرى من مسرحياته، في إشارة إلى الإلهة هيرا Hera زوجة الإله زيوس Zeus رب الأرباب اليونانية، وهنا نجد الشاعر المسرحي يضع على لسان الجوقة خطابا يربط فيه بين هذه الإلهة وبين الزواج الذي كانت هي راعية له، وينهي هذا الخطاب بوصف لهذه الإلهة بأنها هي «التي تحفظ مفاتيح عقود الزواج» [16].

ثم أختتم هذه الشواهد على اهتمام الأثينيين بقضية الزواج (وما يتبعه، بالضرورة، من الاهتمام بالأسرة) بشاهد يتصل بالقانون الأثيني. وهنا نجد أن القانون كان يجيز للزوج أن يقتل في التو واللحظة الشخص الذي كان يضبطه في حالة تلبس بالتعامل الجنسي مع زوجته [17] ولنا أن نفترض أن مثل هذا القانون كان يشكل رادعا لمن يحاول العبث باستقرار الأسرة الأثينية، وذلك من حيث إنه يشير إلى الحفاظ على تماسك الأسرة إلى حد كبير. ولكن

الأمر لا يتوقف، في رأيي، عند مجرد الردع على المستوى الفردي أو حتى على المستوى الاجتماعي، بل يتخطى ذلك إلى مستوى ثالث يتصل بالعلاقة بين الفرد والدولة من حيث إنه يوحد بين المصلحة المشتركة بين الطرفين، الوطن من جانب وحق المواطنة من الجانب الآخر، ومن ثم يدعم انتماء الفرد للدولة عن طريق الأسرة.

كان هذا، إذن، هو مدى إيجابية الاهتمام بأمر الأسرة لدى الأثينيين بوصفها «قضية»، فكان الأمر على هذا النحو على «أرض الواقع». هنا تواجهنا مشكلة الخلط بين ما كان يقال وبين ما كان موجودا في حقيقة الأمر. وفي هذا السياق فإن الحديث عن الجوانب السلبية في شخصية المرأة، خصوصا فيما يتصل بالعبث بالاستقامة في الحياة الأسرية، كان أمرا واردا عند الكتاب بقدر أو بآخر. وهكذا نستمع من أرستوفانيس إلى أوصاف هؤلاء النساء في مجال الخيانة الزوجية والحيل الكثيرة التي يعمدن إليها في هذا المجال، وعن القوادات والمدمنات على الشراب وعن المتحدثات في مواضيع تافهة، وغيرهن من المنحرفات[18]. ولنستمع، في هذا الصدد، إلى إحدى النساء وهي تتحدث، ضمن مقطوعة طويلة، عن بعض ما اعتبرته من الصفات الدائمة للنساء في حياتهن الزوجية، ولو أن المناسبة كانت تنطوي على الخلط بين الجد والإضحاك، حيث تقول في وصفهن[19]:

ومازلن ينكدن على الأزواج مثل أيام زمان
ويسربن العشاق إلى المنازل مثل أيام زمان
ويتسوقن لأنفسهن أشياء صغيرة
خلسة مثل أيام زمان
ويتمتعن بالنبيذ الصرف مثل أيام زمان

ولنحاول الآن أن نتبين حقيقة الأمر في هذا المجال. إن مثل هذه الصفات كانت موجودة من دون شك لأن الشاعر المسرحي (كما أسلفت) ابن مجتمعه من جهة، ولأنه، من جهة أخرى، يفقد مصداقيته لدى المشاهدين إذا تحدث عن موقف غير موجود أو غير معروف. ولكن تبقى المبالغة مع ذلك واردة، بل قد لا أخطئ كثيرا إذا ذكرت أن المبالغة مطلوبة لأكثر من سبب. وأحد هذه الأسباب هو أن المبالغة تشكل وسيلة تأكيد المواقف لدى الذين يتعاملون مع المسرح. وهي كذلك الطريقة المتبعة للفت أنظار المشاهدين إلى ما يريد الكاتب أن يوصله إليهم، وكذلك لاستخراج ضحكاتهم على المفارقة التي يتضمنها الموقف، خصوصا في المسرحيات الكوميدية. والسبب الآخر للمبالغة هو أن موضوع العلاقة الجنسية خارج نطاق الأسرة كان في الماضي (ولايزال في الحاضر) موضوعا جذابا لكتاب المسرحية الكوميدية، وهو أمر يتطلب منهم قدرا من التضخيم للمواقف كيفا أو كما أو في الجانبين معا.

كان هذا عن موقف المجتمع إزاء السلبيات التي يمكن أن تعتري دور الزوجة في الأسرة الأثينية. ويبقى بعد ذلك الحديث عن الصفات السلبية، أو التي يفترض أن تكون سلبية، والتي

يمكن أن تلحق بدور الزوج والأبناء، وهما الركنان المتبقيان في مجال الأسرة، إلى جانب الركن الذي يشكله دور المرأة. والذي يشد الانتباه في هذا الصدد هو أن الأمر قيد الحديث لم يكن يتخذ مرجعية واحدة بالنسبة إلى التصرف الواحد لدى كل من الرجل والمرأة في كل الحالات. وعلى سبيل المثال فإن التعامل الجنسي خارج نطاق الزوجية كان ينظر إليه، في حالة المرأة، على أنه خيانة زوجية توضع موضع التشنيع، حتى إذا لم نكن نتحدث عما يترتب عليها من المحاسبة القانونية أو الأسرية، كما كان الشعراء المسرحيون يتخذون منها مادة للتندر والفكاهة السوداء.

أما في حالة الرجل المتزوج فقد كان الأمر مختلفا: فنحن لا نسمع في الحالة ذاتها تشنيعا اجتماعيا يلحق بالزوج، وتكاد المسرحيات التي وصلت إلينا تكون خلوا من الحديث عن مثل هذه الحالات إلا في مناسبات لا تكاد تدخل في الحسبان[20]. أما حين يتناول الحديث أمرا يدخل في هذا النطاق (فيما يخص الرجل) في مناسبة تتجاوز التلميح أو التفاهم الصامت لتدخل في دائرة الحق المعلن الثابت الذي لا يحتمل التهاون أو التشكيك في شأنه حتى أمام التحكيم القضائي، حين كان الحديث يتناول مثل هذا الأمر، فقد كانت مرجعيته تختلف كل الاختلاف عما كان عليه الوضع في حالة المرأة. والحالة التي أشير إليها في هذا السياق جاءت ضمن مرافعة كتبها الخطيب السياسي ديموسثنيس Demosthenes لأحد عملائه لكي يلقيها في المحكمة أمام القضاة، وفيها نجد الحديث يأخذ المسار التالي بشكل مباشر[21]: «إننا (نحن الرجال) نتخذ بنات الهوى بهدف المتعة، ونتخذ الخليلات للعناية اليومية بأشخاصنا، أما الزوجات فإننا نتخذهن لينجبن منا أبناء شرعيين، وليكن وصيات (حارسات) أمينات على بيوتنا».

ويتضح من هذا التصنيف، ومن ظروف المرافعة أن الخدمات التي كانت تقدمها هذه النوعيات الثلاث من النساء إلى الرجال هي خدمات متكاملة ولا تستلزم الفصل بينها، كما يتضح منه أن هذه الخدمات تشكل أمرا معترفا به بصورة لا تحتمل المواربة من حيث إنه يقدم مباشرة وعلانية أمام القضاء. ولكن إذا كان هذا الوضع معترفا به (أو غير مُعترَض عليه) في جملته قانونيا، فهل كان الاعتراف به ساريا بالوضوح ذاته من الناحية الاجتماعية؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن تكون قاطعة أو على الأقل مباشرة؛ لأن هذا الوضع له وجهان: أحدهما يمثله ما هو مفترض، والآخر يمثله ما كان ساريا على أرض الواقع، وفيما بين الوجهين هناك قدر غير قليل من التداخل.

وفي هذا الصدد ربما كان من اللازم قبل الإجابة المطلوبة أن تُستبعد إحدى الصفات الثلاث التي ذكر ديموسثنيس، من باب التعميم، أن الرجال يتعاملون مع النساء من خلالها - وهي صفة بنات الهوى. وسبب هذا الاستبعاد هو أن هذه الصفة لا علاقة لها بتكوين الأسرة

من الأساس، ومن ثم لا تدخل ضمن موضوع حديثنا من بداية الأمر. وهكذا تتبقى لدينا الصفتان الأخريان: الزوجة والخليلة. وإذا كانت صفة الزوجة، بداهة، هي الصفة المشروعة بحكم طبيعة الأشياء، فلا يتبقى أمامنا سوى صفة الخليلة موضعا لاختلاف المواقف من الناحية الاجتماعية، فهل كان اتخاذ الزوج خليلة له إلى جانب زوجته، أو حتى من دون زوجة على الإطلاق، هل كان ذلك أمرا مقبولا بشكل كامل في المجتمع الأثيني؟

وفي صدد الإجابة عن هذا التساؤل يبدو كأن الأمر عرضة للخلاف في الرأي من حيث المبدأ بين شريحة وأخرى في المجتمع الأثيني، بدليل الدعاوى التي كانت تقام أمام القضاء للفصل فيها في مسائل تتصل بهذا الشأن. ومع ذلك فإن الشيء الثابت في هذا الموضوع هو أن الموقف منه كان من الممكن أن يتحدد وفق الظروف التي تطرح نفسها على الساحة، وأنه كان من الممكن أن يتغير وفق تغير الظروف. ولست هنا في سبيل الحديث عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، ولكن بغض النظر عن هذه الأسباب فربما كان في الإشارة إلى حالة شهيرة من حالات اتخاذ الخليلات ما يصور لنا بعض الظروف التي أحاطت بالوضع قيد الحديث. والحالة التي أشير إليها في هذا السياق هي حالة الزعيم الأثيني بركليس Pericles وخليلته أسباسيا Aspasia [22].

لقد أتت هذه المرأة إلى أثينا من إحدى المدن اليونانية، وقامت بينها وبين بركليس علاقة عاطفية كان من نتائجها أن طلق هذا الزعيم زوجته (بين 450 و 443 ق.م.)، ولسبب أو لآخر آثر أن يعيش مع أسباسيا بوصفها خليلة (وليس بوصفها زوجة) له. وهنا نجد أعداءه السياسيين يتخذون من هذا الوضع ذريعة لشن هجوم على أسباسيا. وعلى الرغم مما اشتهرت به هذه السيدة من نشاط ثقافي أدى إلى تقدير كبير لها في أوساط المثقفين في المجتمع الأثيني، خصوصا بين تلاميذ الفيلسوف الأثيني سقراط Socrates، فإن هؤلاء الأعداء السياسيين أعادوا الهجوم عليها في وقت لاحق كانت فيه زعامة بركليس تمر بفترة من الهبوط في زمن انتشار الطاعون بالمدينة (نحو 330 ق.م.). وفي هذه المرة قدموها إلى المحاكمة بتهمة «عدم الالتزام بالتقوى»، ولكنها برئت من الاتهام بعد أن دافع عنها بركليس بنفسه. هذا وقد أنجبت أسباسيا ابنا من الزعيم الأثيني ومُنحَ هذا الابن الشرعية بعد وفاة أبيه في العام 429 ق.م.، وكان محروما من هذه الشرعية لأن أمه (أسباسيا) كانت خليلة وليست زوجة لأبيه، ولأن القانون الأثيني كان يشترط أن يكون الأب والأم من مولد أثيني حتى يتمتع ابنهما بالشرعية المطلوبة.

وبعد الحديث عن الصفات السيئة في الزوجات والصفات السيئة أو بالأحرى موضع الاختلاف في الرأي فيما يخص الأزواج، تبقى كلمة عن صفة سيئة للركن الثالث للأسرة، وهو الركن الذي يمثله الأبناء: وهي المعاملة السيئة من جانب هؤلاء الأبناء لآبائهم من حين إلى آخر،

ذلك أن هذه المعاملة كان من الممكن أن تصل في بعض الأحيان إلى درجة بالغة من الخشونة، وهو أمر يظل في وسعنا أن نستنتجه مما قاله أحد الشخوص في إحدى مسرحيات أرستوفانيس، حتى لو أخذنا كلامه على سبيل المبالغة حين قال: «إن الأبناء يخنقون آباءهم»، مشيرا بذلك إلى ما كان يحدث في المجتمع الأثيني في الفترة التي عاشها وعايشها الشاعر[23].

وأصل في نهاية الحديث عن الأسرة في أثينا القديمة إلى حيث نستكمل صفاتها بعرض سريع لمحاسن أركانها الثلاثة بعد أن تحدثت عن مساوئها. وهنا نجد أن الأمور تشير إلى حد كبير إلى ما يؤدي إلى استقرار الأسرة. ففيما يخص المرأة في هذا الصدد، فإن دورها الذي كانت تفخر به هو أنها تقوم على شؤون البيت خير قيام. فهي التي تبذل هنا وتقتصد هناك وترعى أمور الأسرة[24]. وهي التي تغزل الصوف وتصبغه وتحمص الشعير وتخبز فطير الجبن اللذيذ وتحضر الوجبات وغير ذلك[25].

أما بخصوص الرجل بوصفه زوجا وأبا فهو الذي يزود الأسرة بالدخل، حتى لو اضطر (في حالة الأسر الفقيرة) إلى أن يمتهن حرفة ضئيلة المردود مثل حرفة البحارة[26]، أو إلى أن يقوم بعمل قد تأباه النفس في الظروف العادية، مثل شهادة الزور لقاء أجر لمصلحة طرف أو آخر من المختصمين أمام المحاكم، أو أن يمارس في الخفاء عملا يمقته المجتمع مثل الوشاية sycophantia ببعض المواطنين لحساب المسؤولين[27]، أو أن يعتمد على ما لا يصح الاعتماد عليه كبديل عن الحرفة الثابتة بوصفها مصدرا للدخل الذي ينفق منه على أسرته، مثل الاعتماد على المكافأة الضئيلة التي كان المواطن يحصل عليها لقاء حضوره جلسة من جلسات مجلس الشعب[28].

على أن تزويد الرجل أسرته، قدر استطاعته، بالدخل اللازم لتغطية احتياجاتها لم يكن كل ما كان يقوم به إزاءها. وفي هذا الصدد فإن لدينا قدرا غير قليل من الشواهد التي تشير إلى إحاطة الرجل أسرته بقدر ملحوظ وملموس من الرعاية العاطفية، فهنا الزوج الذي يشكو من الحياة الموحشة ووجبات الطعام التي لا طعم لها في غياب زوجته[29]. وهناك الزوج الذي أفرج عنه بعد فترة من السجن فلا يفكر إلا في الإسراع إلى منزله حيث زوجته وأولاده[30]، وكذلك الزوج الذي يفكر في مستقبل يتمتع فيه بالثروة والسعادة مع زوجته وأولاده[31]، وذلك الذي يقوم في ظلام الليل ليعد الدواء لزوجته المتألمة[32].

وتبقى كلمة أخيرة فيما يخص موقف الأبناء، ثالث أركان الأسرة بعد الزوج والزوجة. وفي هذا الصدد حقيقة قد مر بنا أنه كان من الوارد أن يعامل الأبناء آباءهم معاملة فيها قدر من الأذى، غير أنه يبدو أن هذا لم يكن هو الأمر السائد في المجتمع الأثيني، بل قد يكون من قبيل المبالغة لدى أرستوفانيس، الشاعر المسرحي الذي أورد ذلك في إحدى مسرحياته على نحو ما أسلفت، خصوصا إذا أدخلنا في اعتبارنا ما سبق أن أشرت إليه من أن المبالغة وتضخيم الأمور

هما طريقة الكاتب أو الشاعر المسرحي الكوميدي في محاولة لفت الأنظار الى ما يريد التنبيه إليه. وربما يؤيد ما أذهب إليه في هذا السياق أن لدينا قدرا من الأمثلة يشير إلى أن مجرد التهديد بإيذاء الآباء أو الأمهات كان كفيلا بشعور الابن بالإثم إلى حد كبير. بل إن لدينا مثلا على محاولة إسعاد الآباء - مهما كانت المحاولة غريبة في نوعها - نجد فيها ابنا يدبر لأبيه الذي تقدم في السن خليلة توفر له بعض الدفء في خريف عمره [33].

* * *

وأنتقل الآن إلى المحور الثالث من محاور الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة الذي يدور حول مدى تمسك الأثينيين ببعض قيمهم الأساسية، وأعني بذلك على وجه التخصيص مدى حفاظهم على قوانينهم ومدى الإبقاء على موقفهم من آلهتهم، وذلك في مواجهة الأزمات أو الأحداث الكبرى التي كان مجتمعهم يمر بها من حين إلى آخر. وقد سبق أن ذكرت في بداية هذا الحديث أن قيمة الدين كانت من أكثر القيم حضورا في حياة المجتمعات عموما في العصر القديم، إن لم تكن أكثرها على الإطلاق. وربما كان من المناسب الآن أن أضيف ملحوظة أخرى في هذا السياق قبل أن أتحدث عن المجتمع الأثيني، وهي أن مفهوم العلاقة بين جميع اليونان وآلهتهم كانت لها خاصية تختلف عن المفهوم الذي كان سائدا في هذا الصدد لدى المجتمعات الأخرى أو لدى أغلبها. فبينما كانت تلك المجتمعات تنظر إلى آلهتها على أنها قوى مثالية مسيطرة، وما تقضي به هو القدَر الذي لا بديل ولا راد له، كان المجتمع اليوناني، بما في ذلك المجتمع الأثيني، بالضرورة، ينظر إلى المسألة من منظور آخر.

هنا كان المجتمع اليوناني ينظر إلى العلاقة المذكورة على أنها عقد أو صفقة بين طرفين يقوم كل منهما بدوره تجاه الآخر: الآلهة تحمي البشر، في مقابل ذلك يقدم البشر القرابين والطقوس والشعائر للآلهة. أما غير ذلك فالطرفان سواء في صفاتهم إلا في شيء واحد هو خلود الآلهة من دون البشر. بل إن الآلهة لا تختلف عن البشر حتى في مسألة الخضوع للقَدَر الذي يسري على الطرفين، وحتى في النقائص ونقاط الضعف التي يتساوى فيها كل منهما. وفي هذا الأمر الأخير نجد مثالا على الخيانة الزوجية لدى الآلهة من جانب أفروديتي إلهة الحب التي تخون زوجها الأعرج هيفايستوس مع عشيقها آريس إله الحرب. كذلك نجد مثلا على الشذوذ الجنسي لدى الإله زيوس رب الأرباب اليونانية، حيث عثر على تمثال من تماثيله محفوظ الآن في المتحف الوطني في أثينا، والتمثال يصور لنا هذا الإله وهو يحمل الصبي جانيميديس وفي يده الديك الذي قدمه إليه الإله، هدية المحب إلى محبوبه، وفق ممارسات اليونان.

وفي ضوء هذا التصور للمفهوم اليوناني، فيما يخص العلاقة بين المجتمع والآلهة، وهو المفهوم الذي يجعل من هذه العلاقة عقدا أو صفقة بين طرفين، يصبح من الطبيعي أن تتغير موازين المعادلة إذا تغيرت الظروف المطروحة على الساحة لسبب أو لآخر يتمثل في حدث

أو في آخر. وقد شهدت أثينا في العصر القديم عددا من الأحداث الكبرى التي تركت أثرها في الحياة الاجتماعية، ومن ثم في نظرة المجتمع الأثيني إلى الآلهة. على أن هذه الأحداث لم تكن جميعها أحداثا تعرضت لها أثينا وحدها، بل كان بعضها أثينيا صرفا، بينما كان وضعها في البعض الآخر، مهما كان حجمه، مشاركا لوضع غيرها من المدن اليونانية. وفي هذا الصدد فقد رأيت من الأنسب أن أستشهد على المسألة قيد النقاش بحدثين كبيرين أكثر التصاقا بأثينا وحدها، وشملت آثارهما الحياة الاجتماعية في أثينا على وجه الخصوص. وكان من بين ما تأثر في هذا الجانب من جوانب الحياة هو موقف الأثينيين إزاء آلهتهم.

وأحد هذين الحدثين الكبيرين هو الطاعون الذي ضرب المجتمع الأثيني في العام 330 ق.م. والذي وصفه لنا المؤرخ الأثيني ثوكيديديس بقدر وافٍ من التفصيل يبين لنا الأبعاد الكارثية الذي اتخذها هذا الحدث. وربما كان من المفيد في هذا الصدد أن نتعرف على مختصر لهذا الوصف حتى ندرك حجم هذه الأبعاد وطبيعتها، ومن ثم يصبح في وسعنا أن نربط بينها وبين التغير الذي تركته على الموقف قيد الحديث. ويبدأ المؤرخ حديثه في هذا السياق بإعطاء فكرة عامة عن بدايات الطاعون ووطأته غير العادية، فيقول[34]: حقيقة إن هذا المرض أصاب أماكن أخرى، ولكن ليس بهذا الانتشار، وليس بهذا القدر من التدمير للحياة الإنسانية. وقد ضاعف من وقعه أن الأطباء الموجودين بالمدينة لم يكونوا على معرفة سابقة بطبيعته وتفاصيله، ومن ثم لم يستطيعوا التعامل معه. كذلك ساعد على الإضعاف من معنويات الأثينيين أن تضرعهم للآلهة في المعابد وأماكن النبوءات كان من دون جدوى فيما يخص هذا الأمر. وتحت هذه الظروف ومع ارتفاع عدد الضحايا صار الطاعون، وما يتصل به، هو حديث كل الناس، سواء من بينهم الممارسون للطب أو الناس العاديون، ولنا أن نتصور كم المبالغات وما يواكبها من خوف ويأس، وهو ما يمكن أن نستنتجه من وصف المؤرخ أن كل من كان يخوض في هذا الموضوع كان يدلي بحديثه وفق رأيه الشخصي.

ثم يتحدث ثوكيديديس عن أعراض الطاعون بوصف مطول[35] ساعده عليه من دون شك ما يذكره في هذا الشأن من أنه هو نفسه أصيب بالمرض وعايش أولئك الذين تعرضوا له. وهكذا يتحدث عن درجة الحرارة التي يصاب بها المريض والالتهابات والقرح والبثور التي يتعرض لها الجلد وحالات القيء وحالات العطش الشديد الذي لا يرويه تعاطي الماء بل يزيده اشتدادا، وحالة النسيان التي يمر بها المريض والتي لا يميز خلالها حتى أصدقاءه. وفي هذا السياق لا ينسى المؤرخ وصف الحالة النفسية لمن تعرض للطاعون، فيذكر ما كان يلم بهم من جزع واستسلام يفقدانهم القدرة على المقاومة، ما أدى إلى الموت بشكل كاسح ومتكاثر[36].

ثم ينتقل المؤرخ إلى وصف الإهمال والخلط الذي كان يتعرض له الموتى (في الطقوس المتبعة في هذه الحالة) من جانب أولئك الذين كانوا لايزالون على قيد الحياة. ذلك أن

هؤلاء الأخيرين أصابهم الارتباك والتشويش أمام هول الكارثة، فلم يعد في مقدورهم أن يتبعوا الطقوس السائدة فيما يخص دفن الموتى. وهكذا كانوا يدفنون موتاهم كيفما كان يتيسر لكل منهم (37).

هذا، ويذكر لنا ثوكيديديس أن أمر الطاعون لم يقتصر على المرض والموت وما يتصل بهما، بل امتد ليشمل جوانب أخرى تتصل بموقف الأثينيين من حياتهم اليومية، والقيم التي تحكم سلوكهم وتصرفهم إزاء المجتمع. وهكذا نراه يتحدث عن ظاهرة عدم الالتزام بالقانون، وهي الظاهرة التي سادت المدينة لأول مرة على أثر اكتساح الطاعون لها. وهنا يذكر المؤرخ أن الناس كانوا قبل هذا الظرف يعمدون إلى المداراة فيتظاهرون بأنهم لم يكونوا يستهدفون فيما يقومون به من تجاهل القانون مجرد المتعة، أما الآن فقد أصبحوا أكثر جرأة واستهتارا بعد أن لمسوا بأنفسهم تقلب الظروف وأن كل شيء، سواء في مجال المتعة أو الثروة قد أضحى متغيرا وعابرا وزائلا.

وفي ظل هذا الوضع كان من المنتظر ومن الطبيعي أن يؤدي عدم الالتزام بالقانون إلى عدم الالتزام بالتدين وما يدعو إليه من خشية الآلهة. وهذا هو ما حدث بالفعل، فقد ذكر ثوكيديديس أنه لا الخوف من الآلهة ولا الخوف من القانون أديا إلى كبح جماح غير الملتزمين، وذلك لأنهم رأوا أن مصير الجميع هو الهلاك، ومن ثم فالنتيجة واحدة، سواء في حالة تقوى الآلهة أو في حالة انعدام هذه التقوى (38).

وأنتقل الآن إلى ثاني الحدثين الكبيرين اللذين قدرت أنهما تركا أثرهما في الحياة الاجتماعية لدى الأثينيين بوجه خاص، ومن ثم في نظرتهم إلى آلهتهم وموقفهم إزاءها. وأعني بهذا الحدث: الصراع بين أثينة وإسبرطة الذي عرف باسم «الحروب» البلوبونيزية إذا نظرنا إليه من حيث تعدد مراحل الالتحام العسكري بين الخصمين، أو تحت اسم «الحرب» البلوبونيزية إذا نظرنا إلى الصراع من منظور الأثر السلبي الواحد المستمر في أثينا، سواء في أثناء فترات الالتحام العسكري، أو خلال فترات السلم المعلن التي كانت، من حيث الواقع، أقرب إلى فترات من الهدنة المسلحة منها إلى أي شيء آخر.

وبغض النظر عن هذه التسمية أو تلك، فقد كانت فترة الصراع الموسوم تشكل فترة معاناة مستمرة للمجتمع الأثيني، سواء من حيث مساره أو من حيث نتيجته. وفي هذا الصدد فإن «الحروب» أو «الحرب» المذكورة كانت على قدر غير عادي من الضراوة من حيث إنها لم تقتصر على استخدام سلاح واحد أيا كان نوعه، بل اعتمدت على ثلاثة أنواع من الأسلحة: فإلى جانب المجابهة العسكرية التقليدية، استخدمت أسبرطة سلاحين آخرين أرى أنهما ليسا أقل من السلاح العسكري بأي حال، إن لم يفوقاه شراسة في بعض الأحوال: أحدهما هو الضربات الاقتصادية المتتالية التي كانت تكيلها إلى أثينا، وذلك بتخريب المحصول الزراعي

الأثيني قبل أن ينضج. أما السلاح الآخر فهو تشويه السمعة السياسية الأثينية، خصوصا لدى حلفائها، بما يؤدي إلى حرمان أثينا من مساندة هؤلاء الحلفاء إذا ما احتاجت إلى هذه المساندة في مجال الصراع المذكور.

وإذا كان في وسعنا أن نصف هذا المسار بأنه كان فترة معاناة مستمرة امتدت عبر ما يزيد على عقدين ونصف من الزمان (431 - 404 ق.م.)، فإن نهايتها شكلت مزيدا من هذه المعاناة، فقد شهدت هذه النهاية هزيمة منكرة بالنسبة إلى أثينا كان أسوأ ما فيها تدمير الأسطول الأثيني عن بكرة أبيه. ذلك أن هذا الأسطول كان هو الذي يدعم السيطرة الأثينية على بحر إيجة، ومن ثم يحرس الطرق البحرية المؤدية إلى شواطئ النصف الشرقي للبحر المتوسط حيث المجال الأكبر للتعامل التجاري الأثيني، وعلى وجه التحديد فيما يخص استيراد قسم أساسي من القمح الذي تحتاج إليه أثينا لتموين مجتمعها بخبزه اليومي. هذا ولم تتوقف المعاناة المذكورة عند انتهاء الحرب بل استمرت بعدها لفترة غير قصيرة - وهو أمر نستنتجه من التاريخ الذى عرضت فيه إحدى مسرحيات أرستوفانيس (388 ق.م.)، وهي مسرحية «بلوتوس» (التي لايزال يتحدث فيها عن حاجة المجتمع إلى الإصلاح) بعد نهاية الحرب بما يقرب من عقدين من الزمان.

وقد نتج هذا الوضع عن عدد من النتائج فيما يخص الحياة الاجتماعية الأثينية، أدت في نهاية الأمر إلى تغيير نظرة الأثينيين إلى الآلهة. ومن بين هذه النتائج التناقض الطبقي الكبير الذي كان لايزال يسود أثينا بعد الهزيمة بعقد ونصف العقد من السنين - وهو ما تشير إليه مسرحية «النساء في البرلمان» لأرستوفانيس التي عرضت في العام 391 ق.م. ولنستمع في هذا الصدد إلى بطلة هذه المسرحية وهي تصف حدة التناقض الطبقي المذكور حين تقول[39]:

الذي يعيش في غنى وسعادة

بينما يعيش الآخر في فقر وبؤس

الذي يملك أراضي واسعة للفلاحة

بينما لا يملك الآخر ما يكفي لحفر قبره

الذي لديه جمع وافر من العبيد

وآخر ليس لديه تابع واحد

وتؤكد البطلة المذكورة هذا المعنى بصيغة أخرى حين تتحدث عن انتشار السرقة بالإكراه[40] ويضطر فيها المسروق إلى الدفاع عن نفسه بعصاه. ومع ذلك فهي سرقات تشير بوضوح إلى فقر شديد، مثل سرقة عباءة لايزال صاحبها متلفعا بها! هذا بينما نجد إشارة في مشهد آخر[41] إلى شخص يضطر إلى رهن أثاث منزله (لتغطية ضرورات الحياة)، وهو أمر يبدو أنه كان عاديا ومتكررا في أثينا حيث يذكر الشاعر اسم صاحب محل الرهونات في المدينة وهو هيرون (هارون)!

هذا، ولم يكن التناقض الطبقي الكبير هو كل ما ترتب على الحروب البلوبونيزية من نتائج، بل كانت هناك، إلى جانبه، نتائج أخرى تقترب إحداها، مرة أخرى، من تغيير نظرة الأثينيين إلى آلهتهم. وأشير هنا إلى انعدام الثقة بين المواطن والدولة متمثلة في قوانينها. والنتيجة المذكورة تتجسد في مشهد من مشاهد المسرحية ذاتها. وفي هذا المشهد نجد اثنين من المواطنين يتجادلان بشأن مصداقية القوانين. وهنا نجد أحد هذين المواطنين يريد تنفيذ قانون جديد سنّته الدولة أخيرا فيسخر منه الآخر واصفا إياه بالبلاهة مرة وبالحماقة مرة أخرى، وبالغباء وعدم الحكمة مرة ثالثة، أما عن نفسه فإنه يعلن أنه لن ينفذ هذا القانون إلا إذا رأى بعيني رأسه نتيجة صادقة لما يدعو إليه[42]، وكأنما يريد أن يثبت كلامه بدليل عملي، يستشهد هذا المواطن الساخر على كلامه بشأن عدم مصداقية الدولة بما تقوم به الآلهة فيقول[43]:

لقد اعتدنا أن نأخذ من دون أن نعطي
مثلنا مثل الآلهة
انظر إليها (إلى تماثيلها) وهي تمد أيديها
إننا نصلي لها ونتوسل إليها كي ترزقنا بما نحبه
ولكنها تظل مادة أيديها بأكف مفتوحة
كي تثبت أن فكرتها
إنما هي الأخذ من دون العطاء

خاتمة

تشكل الخطوط الرئيسية لهذا الحديث ثلاثة محاور متكاملة يمكن أن يشملها الموضوع قيد الدراسة. وأول هذه المحاور هو التكوين الطبقي للمجتمع الأثيني القديم. وفي بداية المسار الذي اتخذه هذا التكوين نشهد طبقتين متصارعتين بشكل يكاد يكون مستمرا، إحداهما هي طبقة أصحاب الأراضي وهم الأقلية الحاكمة من حيث سيطرتهم على المورد الرئيسي للإنتاج. والثانية هي الطبقة العامة الذين كانوا يعملون في هذه الأراضي تحت ظروف تفتقر إلى أدنى الحقوق الإنسانية. وكانت الخطوة الأولى في تطور العلاقة بين الطبقتين هي تشريع اضطرت إلى تبنيه الطبقة الحاكمة ينص على تدوين القوانين، ومن ثم أصبحت الطبقة المحكومة تملك نقطة ارتكاز رئيسية في أي مساومة اجتماعية مع الطبقة المذكورة.

وقد واكب هذا الأمر تطور آخر نتج عن الزيادة الطبيعية في عدد السكان مع بقاء رقعة الأرض الصالحة للزراعة على ما هي عليه بالضرورة، ومن ثم لم يعد ما تملكه طبقة أصحاب الأراضي كافيا لتغطية كل ما يحتاج إليه المجتمع. وهكذا اتسع المجال لظهور طبقة ثالثة تستكمل عن طريق التجارة ما عجزت عن تغطيته طبقة أصحاب الأراضي. وفي ظل هذا

الوضع كان من الطبيعي أن تعمل طبقة التجار الصاعدة على رعاية مصالحها المتنامية في مواجهة الطبقة الحاكمة عن طريق الحصول على حقوق سياسية تتيح لها هذه الرعاية.

وإزاء هذه الأزمة الطبقية الثلاثية الأطراف كان لا بد من التوصل إلى مصالحة اجتماعية تجنب البلاد مغبة تطاحن بلا حدود. وقد تمت هذه المصالحة من خلال اتفاق الطبقات الثلاث على وساطة المشرع سولون الذي وضع تشريعا من شقين: أحدهما يعطي طبقة العامة حقوقها المبدئية والآخر يجعل من قدر الدخل السنوي (وليس الأرض بالضرورة) أساسا لقدر الحقوق السياسية التي يتمتع بها المواطن.

ثم نأتي إلى طبقة رابعة تكونت أو استكملت تكوينها على أساس تلبية حاجات المجتمع في مجال التصدير والاستيراد في الوضع الجديد الذي شهد صعود طبقة التجار. وكانت شرائح هذه الطبقة من الحرفيين الذين يمدون التجار بالسلع اللازمة للمقايضة، ومن الملاحين وعمال الشحن والتفريغ وعمال النقل والمجالات المماثلة، وباتخاذ هذه الطبقة الرابعة لوضعها إلى جانب الطبقات الأخرى يكون المجتمع الأثيني قد اكتمل تكوينه الطبقي في العصر القديم.

والمحور الثاني للحياة الاجتماعية في أثينا القديمة هو الأسرة، على أساس أن الأسرة هي نواة المجتمع وأنها، بهذه الصفة تختصر شبكة الروابط التي تتخلل المجتمع بأكمله. وقد ساعد على ظهور دور الأسرة بوجه خاص في المجتمع الأثيني أن أثينا كانت تتبع، من حيث تكوينها السياسي، نظام دولة المدينة حيث تتكون الدولة من مدينة واحدة وما يحيط بها من ضواحي وقرى وموانئ، وهو تكوين يتبعه بالضرورة تكوين جغرافي صغير المساحة يسهل فيه بروز دور الأسرة بوصفه وسيطا بين الفرد والمجتمع.

وقد اتضح ذلك في أثينا من خلال أمرين: أولهما أن الرابطة بين الأسرة والمجتمع اتخذت شكلا غير تقليدي (منذ أواسط القرن الخامس ق.م) اقتصر فيه حق المواطنة على من كان من أب وأم أثينيين، استبعادا لكل من لم يكن مرتبطا بهذا الانتساب الأثيني الخالص.

الأمر الثاني في هذا الصدد هو تسليط الضوء بصورة تلفت الانتباه إلى كل ما من شأنه أن يؤكد إنجاح الزواج ومن ثم إنجاح دور الأسرة في المجتمع: مثل قضية السن المناسبة للزواج في حالتي المرأة والرجل، ومثل إضفاء القداسة على الزواج يجعل زوجة كبير الآلهة اليونانية راعية لعقود الزواج، ومثل اهتمام القانون الأثيني بصورة خاصة بالحفاظ على استقرار الحياة الزوجية في مواجهة محاولات العبث بالاستقامة الزوجية في الأسرة الأثينية. وفي هذا السياق فإن القانون الأثيني قد اعترف بحق الزوج في اتخاذ خليلة إلى جانب زوجته (أو من دون زوجته) غير أن قبول المجتمع هذا الوضع كان يحيط به قدر غير قليل من التأرجح الذي تفرضه الظروف القائمة على أرض الواقع.

وإذا كان المجتمع الأثيني القديم لم يختلف عن المجتمعات الأخرى فيما يخص الرعاية الأسرية التقليدية المادية من حيث توفير الزوج للدخل اللازم لمعيشة الأسرة، ومن حيث تدبير الزوجة لأمور بيت الزوجية، فإن نوعا آخر من الرعاية الأسرية تبرزه المصادر الأثينية، وهو ما يمكن أن نسميه الرعاية العاطفية، سواء من جانب الزوج أو الزوجة أو الأبناء، وهو أمر نلمسه في أكثر من موقف في عدد غير قليل من هذه المصادر.

وأصل أخيرا إلى المحور الثالث من محاور الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة، وهو مدى تمسك الأثينيين بقيمهم إزاء الأزمات والأحداث الكبرى التي تلم بمجتمعهم. وفي هذا السياق ربما كان الدين من أبرز القيم التي تمس الحياة اليومية للمجتمعات بوجه عام، خصوصا في العصر القديم، ومن ثم فإن الحديث عنه يعتبر مقياسا حقيقيا لصلابة المحور قيد الحديث. وفي هذا الصدد فقد كانت نظرة الأثينيين (هم وبقية اليونان) تختلف عن النظرة العامة في المجتمعات الأخرى. ففي هذه المجتمعات كان ينظر إلى الآلهة على أنها قوى مثالية وأن ما تقضي به هو القدر الذي لا رادّ له ولا بديل منه. أما لدى الأثينيين (وبقية اليونان) فإن العلاقة بين الآلهة والبشر كان ينظر إليها على أنها صفقة بين طرفين: آلهة تحمي البشر، وفي مقابل ذلك بشر يقيمون لها المعابد ويقدمون القرابين والطقوس والشعائر.

أما في غير ذلك (وباستثناء صفة واحدة وهي صفة الخلود التي انفردت بها الآلهة من دون البشر) فهم سواء في صفاتهم، حميدة كانت أو ذميمة، بما في ذلك الخيانة الزوجية والكذب والخداع والشذوذ الجنسي وسلاطة اللسان وغيرها.

وقد كان هذا الذي حدث حين تعرضت أثينا لأزمتين كبيرتين: إحداهما يشكلها الطاعون الذي ضرب هذا المجتمع في العام 330 ق.م، والأخرى هي الحروب البلوبونيزية التي خاضتها البلاد وانتهت بهزيمة أثينية مروعة في العام 404 ق.م. لقد كانت نتيجة هاتين الأزمتين فقدان الثقة في الآلهة، ووصفها بأن صفتها الأساسية هي الأخذ من دون العطاء.

الهوامش

Aristotle, Athenai?n Politeia, LCL (Loeb Classical Library), London, 1970, II, 2. 1
ibid., II, 2-3. 2
ibid., III, 1-5. 3
Thucycides, Historiai, LCL, London, 1969, I, II. 4
Strabo, LCL, London, 1966, VIII, 1-2.
Aristotle, op.cit.,V,2. 5
ibid., XII, 1. 6
ibid., XII, 3. 7
ibid., XII, 4. 8
ibid., XXVI, 3. 9
Lacey,W.K., The Family in Classical Greece, Cornell University Press, Ithaca, New York, 1984, p.100. 10
Aristophanes, Nephelai, LCL, London, 1996, 141. 11
idem, Lysistrata, LCL, London, 1996, 593ff. 12
Lacey, op.cit., 106-107. 13
Ehrenberg, Victor, The People of Aristophanes,.Basil Blackwell, Oxford, 1951, p. 193. 14
ibid., op.cit., 194. 15
Aristophanes, Thesmophoriazusae, LCL, London, 1996, 973 - 76. 16
Ehrenberg, op.cit., p. 196. 17
Aristophanes, Thesm., 336f., 387, 467ff., 559f. 18
idem, Ecclesiazusai, LCL, 1996, 224ff. 19
ibid., 624, ff. 20
Demosthenes, LCL, London, 1988, LIX, 122. 21
Cantarella, Eva, Pandora's Daughters, Johns Hopkins University Press. Baltimore and London, 1987, pp. 53-5. 22
Aristophanes, op.cit., 638-9. 23
ibid., 598f. 24
ibid, 88, 215. 25
ibid., 38. 26
ibid., 452. 27
ibid., 379 ff. 28
idem, Lysistrata, 865. 29
idem, Thesm., 1021, 1205f. 30
idem, Ploutos, 250, 613f. 31

idem, Thesm., 486. 32
idem, Sphékes, 738ff. 33
Thucydides, Historiai, 47. 34
ibid., 49. 35
ibid., 51. 36
ibid., 52. 37
ibid., 53. 38
Aristophanes, Ecclesiazusai, 591-93. 39
ibid., 542-48 40
ibid., 755-57. 41
ibid., 762-72. 42
ibid., 778-38. 43

السياسة الأثينية في القرن الخامس ق. م. بين الازدهار والانكسار (*)

د. محمد السيد محمد عبدالغني (**)

1- مقدمة تاريخية

ينسب المؤرخ الأثيني ثوكيديديس في مؤلفه التاريخي عن الحروب البيلوبونيزية بين أثينا وإسبرطة (الكتاب الثاني - فقرة 15) توحد وتجمع السكان Synoikismos في إقليم أتيكا ببلاد اليونان، واتخاذ «أثينا» عاصمة لذلك الإقليم وبناء قلعة أو قصر له سور على قمة الأكروبول هناك إلى عهد الملك الأثيني الأسطوري ثيسيوس نحو القرن الثالث عشر ق.م.، إبان عصر الحضارة الموكينية.

(*) لعل أبرز مرجع عن الفترة الأرخية في بلاد اليونان (700 - 480 ق.م.) هو كتاب:
O. Murray, Early Greece (2nd ed., Stanford, 1993)

إذ يغطي تلك الفترة في مسح شامل ممتاز.

أما المصدر الرئيسي الذي يغطي أحداث تاريخ أثينا في القرن السادس ق.م. فهو «دستور الأثينيين» المنسوب إلى الكاتب والمفكر الموسوعي أرسطوطاليس الذي ترجمه إلى العربية طه حسين تحت عنوان «نظام الأثينيين»، ومن الطريف أن هذا الكتاب المهم كان مفقودا ووردت إشارات إليه في مصادر أخرى إلى أن عثر عليه - لحسن الحظ، على لفافة بردية مكتوبة باليونانية في مصر في العام 1890 ونشرت من جانب المتحف البريطاني في العام 1891. وتتكون هذه الوثيقة من 69 فقرة: تتناول الفقرات (1 - 41) تاريخ الدستور والنظام السياسي الأثيني منذ ما قبل بداية القرن السادس ق.م. حتى استعادة الحكم الديموقراطي والإطاحة بحكومة الطغاة الثلاثين في أواخر القرن الخامس ق.م. بعد نهاية الحرب البيلوبونيزية بهزيمة أثينا. أما الفقرات الأخيرة (42 - 69) فتقدم عرضا مفيدا للغاية عن العمل على صياغة الدستور الأثيني في عصر أرسطوطاليس (384 - 322 ق.م.). ويبدو أن هذا المؤلَّف لأرسطو - الذي عُثر على نسخة منه في تلك الوثيقة البردية المصرية - قد كُتب في أثينا ما بين ثلاثينيات وعشرينيات القرن الرابع ق.م. ولهذا المصدر تراجم إنجليزية عدة لعل آخرها العام 1984:
Aristotle, The Athenian Constitution (New York 1984; trans. P.J. Rhodes).

(**) رئيس قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - مصر.

وقد كان يحتفل في أثينا بهذا الحدث وبطله ثيسيوس على أنه حدث تاريخي يحظى باحتفال سنوي.

ومما يُروى عن تلك الفترة المبكرة أن أثينا كانت في القرن الثاني عشر ق.م. على درجة من القوة جعلتها تتصدى للغزاة الدوريين وتطردهم من أتيكا إلى الجنوب. كما يُروى أن ملكهم - آنذاك - المدعو كودروس قد ضحى بنفسه لينقذ وطنه من الغزاة الدوريين[1]، وأن الأثينيين لم يجدوا من يستحق الجلوس على العرش الملكي من بعده، وألغوا نظام الحكم الملكي، وجعلوا ابنه ميدون أول «الأراخنة» (الحكام) في النظام الجديد [2].

ويروي الأثينيون بفخر عن تلك الفترة المبكرة أنهم كانوا نقطة انطلاق الهجرات اليونانية من بلادهم الأصلية إلى منطقة «أيونية» على الساحل الغربي الوسط لآسيا الصغرى عبر بحر إيجه. ويفاخر الأثينيون من العصر الكلاسيكي (خصوصا في القرن الخامس ق.م) بأنهم «من نبت أرضهم» autochthones، أي أنهم أبناء وطنهم ولم يفدوا إليه ويستقروا به من مكان آخر، في إشارة ذات مغزى إلى أصول الإسبرطيين الذين كانوا في الأصل من الغزاة الدوريين القادمين من الشمال.

وتثبت الأدلة الأثرية أن إقليم أتيكا وعاصمته أثينا كان عامرا بالسكان بصورة متواصلة طيلة «العصر المظلم» (من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن ق.م. في بلاد اليونان) الذي أعقب الغزو الدوري. أما عن النظام السياسي الذي ساد بلاد اليونان قبل الغزو الدوري فقد كان النظام الملكي. وقد ألمحنا إلى أن الملكية قد سقطت في أثينا بمقتل الملك كودروس في أثناء تصديه للغزاة الدوريين. أما عن نظام الحكم الذي أعقب الملكية من بعده فهو نظام «الحكم الأرستقراطي»[3] أو «حكم الصفوة من الأشراف» من ذوي النسب العريق من كبار ملاك الأراضي. وقد كان هؤلاء يحكمون أثينا من خلال مجلس منهم يُسمى «الأريوباجوس» ويختارون ثلاثة من بينهم يتولون زمام الحكم كل عام ويُطلق عليهم «أراخنة» (بمعنى «حكام»، ومفردها «أرخون» Archon)، وقد ظل الأمر كذلك حتى العام 632 ق.م. حين حاول أحد أشراف أثينا ويُدعى كيلون أن يقلد صهره «ثياجنيس» طاغية مدينة «ميجارا»، ويصبح هو الآخر طاغية على أثينا. ولكن أُحبطت هذه المحاولة وفر كيلون وأخوه ليحتمي بصهره في ميجارا، ولكن الأثينيين- بزعامة الأرخون الحاكم آنذاك ميجاكليس - قتلوا أنصار «كيلون» على الرغم من لجوئهم إلى معبد الربة أثينا ومذبحها فوق الأكروبول، وهو ما جلب اللعنة على ذلك الأرخون وعائلته فيما بعد. (**ثوكيديديس - الكتاب الأول - الفقرة 126**).

ولكن بعيدا عن حادثة كيلون كان المجتمع الأثيني - خلال القرن السابع ق.م - يعاني أوضاعا مضطربة واحتقانا كبيرا نتيجة أوضاع وظروف سياسية واقتصادية واجتماعية كثيرة. ففي القاع كانت أحوال الناس الاقتصادية تزداد تدهورا في ظل اتساع شريحة الفقراء من

الأثينيين. هذه الشريحة الكبرى من الفقراء صارت تحت رحمة الأغنياء من الأشراف وغيرهم من الأثرياء الجدد ممن كوَّنوا ثرواتهم من التجارة.

«وكان يُطلق على فقراء أثينا من المزارعين الأجراء لقب «الاتباع» أو «السدسيون» لأنهم كانوا يزرعون حقول الأغنياء مقابل حصولهم على سدس ما تغله الأرض من محصول. وكانت الأراضي كافة في أيدي فئة قليلة، وإذا ما أخفق الفقراء في دفع إيجاراتهم كانوا - هم وأولادهم - عرضة للاحتجاز والرهن. وكانت القروض كافة تتم بضمان الشخص (جسد المدين) حتى زمن سولون الذي كان أول بطل للشعب. وكان من أكثر جوانب ذلك المجتمع قسوة ومرارة لجموع الناس مسألة الرق (العبودية) على الرغم من سخطهم لأسباب أخرى كذلك. ويمكن القول إن الفقراء لم يكن لهم حظ المشاركة في أي شيء».

(أرسطوطاليس: دستور الأثينيين، الفقرة الثانية)

إلى جانب ذلك الوضع الملتهب في القاع كان هناك صراع في القمة قد طرأ، ولا يقل ضراوة عن صراع القاع. فقد برزت على سطح المجتمع الأثيني فئة قليلة من الأثرياء - من غير الأشراف - ممن كوَّنوا ثرواتهم من التجارة. هذه الفئة أرادت المشاركة في المناصب والحياة السياسية، لكن أصولهم غير الأرستقراطية حالت دون ذلك، ما أصابهم بحالة من التذمر والسخط. وربما استغل كيلون في محاولته قلب نظام الحكم تلك الأوضاع المضطربة في قمة وقاع المجتمع الأثيني، ولكن يبدو أن شبهة التدخل الخارجي من جانب ثياجنيس طاغية ميجارا قد وقفت حجر عثرة أمام إنجاح تلك المحاولة الانقلابية.

وعلى الرغم من كل شيء فإن أوضاع المجتمع الأثيني - خلال النصف الثاني من القرن السابع ق.م. - كانت تنذر بالخطر وكانت نيرانها متأججة تحت الرماد، ولعل شرارة محاولة كيلون كانت أولى إرهاصات ذلك الخطر. هذه الأوضاع المعوجة كانت في حاجة إلى محاولات إصلاحية مُلحة لتقويمها وإعادة التوازن إليها. وقد استجاب الأثينيون لذلك التحدي وأتوا بمصلح فوضوه صلاحية وضع قوانين جدية تضبط إيقاع المجتمع وتردع الخارجين على القانون. هذا المصلح الجديد دراكون وضع مجموعة قانونية رادعة قاسية جعلت من عقوبة الإعدام عقابا لأي خروج أو انتهاك للقانون، حتى لقد قيل - على سبيل المبالغة - إنها كُتبت بالدم![4]. لكن مردود هذه القوانين التي وضعها دراكون العام 621 ق.م. لم يكن ناجحا ولم تتحسن الأحوال في قليل أو كثير، ربما لأن قوانين دراكون قد اكتفت بالقضاء على أعراض المرض من دون أن تعالج أسبابه ودواعيه! وحتى على المستوى الخارجي لقيت أثينا هزيمة على يد ميجارا بعد قوانين دراكون وفقدت جزيرة سلاميس لمصلحة ميجارا، وحظر القانون على أي أثيني فتح هذا الملف الشائك وإلا كان مصيره الإعدام!

ولما لم تضع قوانين دراكون أي حلول للمشكلات المتفاقمة التي تزداد تعقيدا والتي أشرنا إليها أعلاه، فقد عدنا إلى المربع الأول وأضحت الحاجة مُلحة إلى مصلح حقيقي يعالج مكمن الداء لا أعراضه، ذلك هو سولون!

ففي أوائل القرن السادس اختار أشراف أثينا Eupatridai أحدهم - وهو سولون - من المشهود لهم بالحكمة ورجاحة العقل ليصل إلى حل وسط بينهم وبين فقراء أثينا المتذمرين. وقد اجتهد سولون ما وسعه الاجتهاد لكي ينزع فتيل تلك الأزمة العاصفة قبل أن تطيح بالجميع. وكان أول ما فعله سولون غداة انتخابه أرخونا العام 593/594 ق.م. هو أن استصدر قانونا يضمن عدم التلاعب بحرية المواطن الأثيني تحت أي ظرف، إذ ألغى جميع الديون التي كانت بضمان الشخص أو الأرض (وهو القانون المشهور بقانون «إزاحة الأعباء» Seisachtheia)، وتحريم ومنع جميع القروض المستقبلية بضمان الأشخاص (أي بضمان جسد المدين الذي كان يجوز بيعه واسترقاقه من قبل). وبذلك تمكن كل الأثينيين الذين بيعوا في أسواق الرقيق - خارج أثينا أو داخلها - وفاء لديونهم، وكذلك من فروا من أثينا لتجنب هذا المصير تمكنوا من العودة إلى وطنهم بسلام مع ضمان ألا يتعرضوا لذلك المصير المؤلم من بعد. كما يُعزى إلى سولون بعض الإجراءات الاقتصادية التي تحافظ على ثروات أثينا لأهلها، مثل حظر تصدير أي حاصلات أثينية باستثناء الزيتون (المتوافر بكثرة)، وكذلك بعض الإجراءات التي تعمل على تعزيز الاقتصاد الأثيني مثل منح المواطنة الأثينية للمهاجرين إلى أثينا من ذوي الخبرة والمهارة في الصناعات والحرف، وإدخال عملة أتيكية محلية ونظام أثيني في الموازين والمكاييل والمعايير.

أما على مستوى مشكلة الحكم في القمة بين الأشراف والأثرياء الجدد من غير الأشراف فقد كان الحل الذي وضعه سولون يصب في خانة الفئة الأخيرة. إذ جعل معيار الاختيار لشغل الوظائف العليا في الدولة هو الثروة، من دون أن يكون أصحاب الثروة - بالضرورة - من الأشراف. هذا النظام (التيموقراطي Timocrateia القائم على أساس مقدار ثروة الشخص النقدية والعينية) جعل ترشيح الأشخاص لشغل مناصب الدولة مرتبطا بمقدار ما لديهم من ثروة دون النظر إلى أنسابهم وأصولهم.

وهكذا فإن الفئة القليلة من الأثرياء من الأشراف أو غيرهم أصبحت تتحكم - بعد قوانين سولون - في أمور السياسة والحكم في أثينا. وهكذا تحول نظام الحكم بعد إصلاحات سولون من نظام حكم «أرستقراطي» يتحكم فيه الأشراف إلى نظام «حكم الأقلية» Oligarcheia من الأثرياء أشرافا كانوا أو غير أشراف. وبذلك انكسر احتكار الأشراف لمناصب السلطة العليا في أثينا، وكذلك للمجلس التشريعي الأعلى «الأريوباجوس» الذي أصبح يضم - قبل وبعد تشريعات سولون- أصحاب المناصب العليا السابقين، الذين صارت من بينهم - الآن-

شخصيات من غير الأشراف. كما أضاف سولون ملمحا ديموقراطيا إلى إصلاحاته حين جعل الجمعية الشعبية تضم جميع المواطنين الأثينيين الذكور فوق سن الثامنة عشرة بغض النظر عن مقدار ثروتهم، وإن جعل «مجلس الأربعمائة» - مائة ينتخبون من كل قبيلة من القبائل الأربع كل عام - يضع جدول أعمال الجمعية الشعبية حتى لا تنفلت مناقشاتها. ومن الملامح الديموقراطية كذلك في تشريعاته محاكم المحلفين التي كان المواطنون يستأنفون أمامها من أحكام كبار الموظفين. مثل هذه المحاكم كان يُطلق عليها محاكم هيليايا Heliaia، وكان يسمح لجميع المواطنين الأثينيين بالمشاركة فيها دون قيود من نصاب مالي أو نسب شريف.

وعلى الرغم من أن سولون قد أوصى بأن تتاح لقوانينه[5] فرصة كافية للتطبيق قبل الحكم لها أو عليها فإن كتابا لاحقين يروون أنه قد أمضى عشر سنوات - بعد أن وضع قوانينه - في حال سفر وترحال زار خلالها مصر وقبرص وليديا وأماكن أخرى، وعاد ليجد وطنه أثينا في حالة من الصراع والشقاق الأهلي، وعمّر بعد ذلك بضع سنين. وقد كان ذلك أمرا متوقعا، فالفقراء من الأثينيين لم يرضوا كل الرضا عن تشريعات سولون - على الرغم مما تحقق لهم من مكاسب لا تُنكر - بل لعلهم استاءوا كثيرا من عدم قيام سولون بإعادة توزيع الأرض الزراعية بين جموع الأثينيين بحيث يكون للفقراء منها نصيب أكبر، أما الأشراف فقد كان غضبهم من تشريعات سولون مضاعفا: فها هو قد أعفى الفقراء من جميع ديونهم التي كانت بضمان الشخص أو أرضه، وكل ذلك على حساب أموال الأثرياء الذين كان جلهم من الأشراف، ومن جهة أخرى ألغى احتكار الأشراف - على الرغم من كونه منهم - للمناصب العليا في الدولة وأشرك معهم الأثرياء الجدد.

من هنا عاد الاضطراب يسود أثينا والحنق يعم أهلها، وانتهز هذه الظروف مغامر كبير يُدعى بيزستراتوس[6]، فبعد سنوات من الصراع الحزبي بين الأثينيين عقب فشل تشريعات سولون وانقسام الأثينيين إلى ثلاثة أحزاب هي: (1)أهل السهل من الأثرياء. (2) أهل الساحل من الملاحين والتجار. (3) أهل الجبل من الرعاة والمزارعين الفقراء، انحاز بيزستراتوس إلى هذا الحزب الأخير الذي يشكل أغلبية عددية - على الرغم من كونه من الأشراف - وذلك بحكم جوار أرض أبيه بأراضي هذه الفئة في المنطقة الجبلية شرق أتيكا. وقد برز بيزستراتوس على الساحة السياسية نحو العام 565 ق.م. حين أحرز انتصارا على الميجاريين - بصفته الأرخون العسكري آنذاك - واحتل أكبر موانيهم. وفي العام 561 ق.م. زعم بيزستراتوس لأنصاره من الشعبيين أن خصومه السياسيين قد اعتدوا عليه مما جعل أنصاره يعينون له حراسا شخصيين مسلحين بالهراوات. وقد استغل بيزستراتوس حراسه الشخصيين في الاستيلاء على الأكروبول وتنصيب نفسه «طاغية» على أثينا بالقوة، لكن خصومه السياسيين من زعماء حزب السهل وحزب الساحل لم يدعوه يهنأ بهذا الوضع وسرعان

ما طردوه إلى المنفى. وفي أثناء وجوده في المنفى تحالف بيزستراتوس مع زعيم حزب الساحل ميجاكليس وعقدا صفقة يتزوج بيزستراتوس بمقتضاها من أبنة ميجاكليس نظير أن يسمح له ميجاكليس بالعودة إلى الحكم كطاغية في أثينا، ودبرا خدعة لعودته بأن تشبهت سيدة بالربة أثينة وعادت مع بيزستراتوس في عربته على أنها الربة أثينة تعيد بيزستراتوس لمدينتها. وقد انطلت هذه الخدعة على الأثينيين على الرغم من ذكائهم، وهو ما أثار سخرية وتقريع هيرودوت لهم وهو يروي تلك الحادثة المؤرخة في العام 551 ق.م. تقريبا.

(هيرودوت: الكتاب الأول، الفقرة 60)

ولكن بيزستراتوس لم يف بوعده مع ميجاكليس حين رفض أن يكون له ذرية من ابنة ميجاكليس (بصفتها من ذرية آل الكمايون الملعونة بعد حادثة قتل أعوان كيلون على أعتاب المذبح المقدس العام 632 ق.م.)، وهو الأمر الذي أثار حفيظة أبيها ميجاكليس الذي طرد بيزستراتوس ثانية إلى المنفى حتى العام 596 ق.م. حيث عاد ظافرا وانتصر على خصومه السياسيين بقوة السلاح وظل يحكم أثينا كطاغية حتى وفاته العام 527 ق.م.

لكن بيزستراتوس لم يكن ذلك الطاغية المتعسف بل كان رجل دولة ومسؤولا من الطراز الأول توخى العدل وأنعش أحوال أثينا وعمل على ازدهارها على مختلف الصعد. وقد حرص على تطبيق دستور سولون - الذي كان قريبا لبيزستراتوس من جهة أمه - على أن يكون الأراخنة الحكام من أنصار وأعوان بيزستراتوس. ودعم سياسته الخارجية بالدخول في تحالفات سياسة بارعة مع جيرانه، وأرسل مستوطنين أثينيين لإقامة مستوطنات أثينية شمال بحر إيجة وعند مداخل البحر الأسود ويُروى عن بيزستراتوس أنه كان حاكما معتدلا خيِّرا مع مواطنيه الأثينيين، إذ يُقال إنه فرض ضريبة على أملاك المواطنين (ضريبة عقارية) كانت عوائدها تستخدم في تزويد فقراء المواطنين بإمكانات تجنبهم هموم القروض والديون وتمكن المزارعين الفقراء من تطوير وتحسين أراضيهم. كما أقام من أموال هذه الضرائب مباني ومنشآت عامة كثيرة عادت بالفائدة على جموع المواطنين وزينت المدينة. وفي عهده ازدهرت تجارة أثينا الخارجية وازدادت زيادة هائلة ووصل النبيذ والزيت والفخار الأثيني إلى جميع البلدان المجاورة. كما شجع بيزستراتوس - وأولاده من بعده - الفن والأدب بجميع أشكالهما: إذ وجهت الدعوة - على سبيل المثال - إلى أدباء مثل سيمونيديس من جزيرة كيوس وأناكريون من جزيرة تيوس لزيارة أثينا. كما أن الأعياد الكبرى للربة أثينة (باناثينايا) احتفل بها سنويا على نطاق واسع اعتبارا من العام 566 ق.م. وأُضيفت إليها السباقات والمنافسات الرياضية والموسيقية والشعرية. ويُعزى إلى بيزستراتوس كذلك تجميع ملاحم هوميروس - التي كانت متناثرة وشفهية من قبله - في نسخها الكتابية وقراءة أجزاء منها على الملأ في الاحتفالات الأثينية على يد الشعراء الجوالين. كما ينسب إليه فضل إدخال احتفالات الأعياد الديونيسية الكبرى في أثينا في العام 534 ق.م. وتشجيع عبادة الربة ديميتر في إليوسيس من ضواحي أثينا[7].

وعلى الرغم من الانتعاش والازدهار اللذين تمتعت بهما أثينا في ظل عهد بيزستراتوس فإن الحال لم تبق على المنوال نفسه في ظل حكم ولديه بعد وفاته العام 527 ق.م. فحين توفي بيزستراتوس خلفه في الحكم ولداه هيبياس وهيبارخوس وحكما معا طاغيتين، ولكن العائلات الأثينية القوية لم تكن لتتسامح بسهولة مع مسألة وراثة الحكم هذه من جانب ابني بيزستراتوس، لاسيما أنهما لم يكونا مخولين من المدينة وراثة أبيهما، على الرغم من أنهما سارا على دربه وانتهجا نهجه وإن لم يكونا على جاذبيته وحسن سياسته نفسها. بل إن الأخ الأصغر هيبارخوس لم يكن يحظى بشعبية بين الأثينيين لفرط صلفه وغروره الأرعن، كما أن أحد أبناء السفاح من بيزستراتوس - وهو هيجسستراتوس طاغية سيجيون - كان يدين بالولاء للفرس. بل زاد الطين بلة أن هيبياس وطّد علاقته بالفرس أكثر فأكثر حين زوج ابنته أرخيديكي من طاغية مدينة لامباسكوس (في شمال غربي آسيا الصغرى) التي كانت تحت السيطرة الفارسية .

ونتيجة لكل هذه المقدمات وقعت حادثة شخصية كانت القشة التي قصمت ظهر البعير في حكم أبناء بيزستراتوس. هذه الحادثة التي وقعت في العام 514 ق.م. تمثلت في أن هيبارخوس أهان شقيقة أحد الشباب الأثيني ويُدعى «هارموديوس» ومنعها من حضور أعياد الـ «باناثينايا» عن ذلك العام. وقد اعتبر هارموديوس ذلك الأمر إهانة موجهة إلى عائلته، فاتفق مع عشيقة أريستوجيتون على اغتيال هيبياس وهيبارخوس ابني بيزستراتوس ثأرا لتلك الإهانة. وقد أفلحا في اغتيال هيبارخوس وقتل هارموديوس على الفور، في حين توفي أريستيوجيتون لاحقا من جراء التعذيب. ومنذ تلك اللحظة تحول هيبياس[8] إلى حاكم شكاك سيطرت عليه الهواجس ولجأ إلى نفي خصومه السياسيين وأعدم غيرهم. وعلى الرغم من الصداقة التي كانت تربط إسبرطة بطغاة أثينا على عهد بيزستراتوس وأولاده فإن نبوءة وحي الإله أبوللون في ديلفي كانت ترد على أي قادم من إسبرطة لاستشارة الوحي في أي أمر ردا مكررا هو «عليكم بتحرير أثينا أولا». ونتيجة لذلك تغير موقف إسبرطة من طغاة أثينا وتمثل - كما يقول هيرودوت - في الرأي القائل: «إن أوامر الإله أجدر بالاهتمام من علاقات البشر». وهكذا ساعدت إسبرطة أثينا في طرد الطاغية هيبياس من أثينا ونفيه خارجها على مدى محاولتين في العامين 511 و 510 ق.م. فشلت في الأولى ونجحت في الثانية.

2 - أثينا على مشارف القرن الخامس ق.م. وفي بداياته (510 - 490ق.م.)

بعد رحيل هيبياس بن بيزستراتوس عن أثينا - غير مأسوف عليه - وبعد سقوط فترة حكم الطغاة في أثينا عاد نظام الحكم الأثيني إلى سابق عهده قبل فترة الطغاة، أي عادت تشريعات سولون التي يتولى الحكم بمقتضاها تسعة أراخنة (حكام) سنويا (ثلاثة أراخنة رئيسيون + 6 أراخنة مساعدون مهمتهم

تدوين القوانين Thesmothetai). وقد برزت على ساحة الأحداث آنذاك شخصية مؤثرة تنتمي إلى عائلة «الكمايون» التي سبق أن صدر عليها حكم باللعنة والنفي حين قتل أرخون منها (ميجاكليس) في العام 632 ق.م. أعوان كيلون على عتبات المذبح المقدس كما أسلفنا. تلك الشخصية البارزة من هذه العائلة - التي كانت تستغل وصمة اللعنة عليها لتصفية حسابات سياسية مصلحية معها من آن إلى آخر - هي شخصية كليسثينيس Cleisthenes. وعلى الرغم من أن إسبرطة - بزعامة ملكها كليومينيس الأول - هي من أدى الدور الأبرز في طرد الطاغية هيبياس في العام 510 ق.م. كانت أكثر تحمسا لشخصية أرستقراطية أخرى هي إيزاجوراس فإن جموع الأثينيين وقفت - في أغلبها - في صف كليسثينيس برغم أنف إسبرطة وملكها، ونجحت في تنصيبه أرخونا في العام 507 ق.م. ويرجع سبب حماس الأثينيين لكليسثينيس إلى أنه وعدهم - إذا ما تولى الحكم - بإصلاحات سياسية جذرية تصب في مصلحة أغلبية الشعب.

ويعتبر كليسثينيس هو المؤسس الحقيقي للديموقراطية (حكم الشعب Demokrateia من demos بمعنى «شعب» و kratos بمعنى «سلطة» أو «حكم»)، على الرغم من بعض ملامح الحكم الديموقراطي في دستور سولون الـ «تيموقراطي» (القائم على مقدار الثروة) كما أسلفنا.

ولبيان أسباب ومبررات إطلاق هذا الحكم من أن كليسثينيس هو الرائد والمؤسس الحقيقي للديموقراطية الأثينية لا بد من التعرض - في إيجاز - لأبرز إصلاحاته السياسية في هذا الصدد على النحو الآتي:

- كان النظام السياسي في أثينا - قبل حكم الطغاة - إما على أساس طبقي تهيمن عليه عائلات قوية من «الأشراف» (الأرستقراطية / الصفوة)، وإما على أساس مقدار الثروة، سواء كانت تلك الثروة في يد الأشراف أو الأثرياء الجدد، وهو ما يعرف بنظام «حكم الأقلية» أو «الأوليجاركية». فجاء كليسثينيس ليفتح مجال السلطة والحكم أمام شرائح المجتمع كافة - بمعايير وضوابط مختلفة - ويكسر احتكار «النسب العريق» أو «الثروة» للحكم.

- من أجل تحقيق ذلك أعاد كليسثينيس تفكيك وتركيب البنية الاجتماعية الأثينية بحيث لا تصبح رابطة الدم والقرابة والعصبية القبلية القديمة من بين معايير تقسيم السلطة في أثينا. لقد أحل محل ذلك النظام القبلي القديم نظاما وتقسيما جديدين يعتمدان على توزيع جغرافي وإداري يراعي التوازن والمساواة بين وحدات هذا التقسيم الجديد. ولتوضيح ذلك التنظير نأتي لتطبيقه على الواقع الأثيني من خلال إصلاحات كليسثينيس: لقد كانت أثينا قبل إصلاحات كليسثينيس تنقسم إلى أربع قبائل phylai أيونية، ويجمع بين أفراد القبيلة صلة القرابة والدم والجوار الجغرافي - إلى حد ما - على الرغم من التفاوت المادي والطبقي فيما بينهم. وعلى ذلك كان المجلس الاستشاري الأثيني الذي أقامه سولون Boule ليضع جدول أعمال الجمعية الشعبية الأثينية يتألف من أربعمائة عضو يختارهم بالقرعة سنويا، على أن يمثل كل قبيلة من القبائل القديمة مائة عضو.

أما النظام الجديد الذي اقترحه - ونفذه - كليستينيس فقد قام على تقسيم مناطق أثينا وأتيكا كافة إلى ثلاثين «حيا» démoi موزعة - بالتساوي - على مناطق إقليم أتيكا الثلاث (السهل - الساحل - الجبل) بواقع عشرة أحياء في كل منطقة. ومن مجموع هذه الأحياء الثلاثين الموزعة بين السهل والساحل والجبل كوّن عشر قبائل على أساس جديد لا علاقة له بصلة الدم والقرابة والجوار الجغرافي. فقد أصبحت كل قبيلة من القبائل «الإدارية» الجديدة تضم ثلاثة أحياء بالتساوي في مناطق السهل والساحل والجبل، ولذلك أصبح يُطلق على الحي demos مُسمى آخر هو «الثلث» trittyes؛ لأن كل حي أصبح يُشكل «ثلث» قبيلة من القبائل الجديدة، أيا كان موقعه[9]. وعلى أساس هذا التقسيم الإداري الجديد لقبائل أثينا العشر تغير تشكيل مجلس الأربعمائة القديم الذي وضعه سولون Boulé ليتشكل هذا المجلس الاستشاري - في ثوبه الجديد - من خمسمائة عضو[10]، بحيث يمثل كل قبيلة من القبائل العشر الجديدة خمسون عضوا. وكان اختيار هؤلاء الخمسين من كل قبيلة عن طريق القرعة سنويا، على أن يكونوا من المواطنين الأحرار الذكور (لم تكن المواطنة تضم النساء ولا الأطفال ولا العبيد) ممن هم فوق سن الثلاثين، وعلى ألا ينال مواطن هذا الشرف أكثر من مرتين على مدى حياته. وكانت القبائل العشر تتناوب رئاسة المجلس على مدار العام بحيث تترأسه كل قبيلة لمدة 36يوما تقريبا بصورة متساوية. وكانت أبرز مهام ذلك المجلس - فضلا على وضع جدول أعمال الجمعية الشعبية Ecclesia - متابعة ومراقبة أنشطة وأداء كبار شاغلي المناصب، والقيام ببعض المهمات الإدارية، سواء من خلال جلساته أو اللجان المنبثقة عنها.

- أما عضوية الجمعية الشعبية[11] فقد ظلت متاحة لجميع المواطنين الأحرار الذكور فوق سن الثامنة عشرة، ولهم جميع حقوق المناقشة والتصويت ووضع قرارات الجمعية موضع التنفيذ. وكانت هذه الجمعية تنعقد أربعين مرة في السنة في دوراتها العادية - مع السماح بانعقاد استثنائي إضافي عند الضرورة - على تل بنيكس Pnyx في أثينا، إلى الغرب قليلا من قمة الأكروبوليس. وكان يرأس اجتماعات هذه الجمعية رئيس مجلس البولي (الخمسمائة) الذي كان يختار بالقرعة يوم الانعقاد من بين أعضاء القبيلة التي تترأس المجلس. وكان التصويت على القرارات يجري من خلال الأغلبية برفع الأيدي. وكانت الجمعية الشعبية تتخذ أخطر القرارات وأهمها، سواء فيما يتعلق باستصدار المراسيم Psephismata المتصلة بجميع جوانب الحكم، مثل الشؤون الخارجية والميزانية والعمليات العسكرية البرية والبحرية، واختيار القادة العسكريين strategoi، وتزويد الدولة بإمدادات الحبوب، كما كانت الجمعية الشعبية تقوم بدور المحكمة القضائية العليا في الجرائم العامة الكبرى التي تهدد أمن وسلامة الدولة. وكانت مناقشة مثل تلك الأمور والوصول إلى قرارات فيها يتم بمقتضى جدول الأعمال المُعد سلفا من جانب مجلس الخمسمائة، ولم يكن يُسمح

لأي عضو (مواطن) بإضافة أي موضوع غير تلك الموضوعات المدرجة سلفا في جدول الأعمال، وذلك لتجنب أي قرارات مفاجئة وغير مدروسة.

- وهكذا نرى أن النظام القبلي الإداري المُعدَّل الذي وضعه كليسثينيس قد ألغى المصالح القبلية القديمة (القائمة على رابطة القربى والدم) والتحزبات العائلية الضيقة، وألزم الجميع بالعمل لمصلحة الوطن ككل لا مصلحة العشيرة والقربى. كما أنه وسع قاعدة المواطنة حين منح تلك المواطنة لكثيرين من المقيمين الأحرار من غير الأثينيين metoikoi، وكذلك للعتقاء (من تحرروا من الرق). كما أن هذا النظام الذي منح صلاحيات كبيرة لعموم الشعب - بغض النظر عن أنسابهم أو ثرواتهم - في اتخاذ القرارات المصيرية للدولة من خلال الجمعية الشعبية (الإكليزيا) ومجلس الخمسمائة أرسى قاعدة من التوازن والمساواة بين القبائل الجديدة في الحقوق والواجبات. فقد كانت كل قبيلة تساهم في الجيش الأثيني - على سبيل المثال - بفوج من المشاة وسرب من الفرسان عند الحاجة.

- الأمر الوحيد الذي يبدو أن كليسثينيس قد أبقى عليه من النظام القديم هو أنه جعل المناصب العليا[12] (الأراخنة الحكام والمشرفين على خزانة الدولة) من بين الأثرياء ممن يحوزون نصابا أو دخلا (ماليا أو عينيا) يجعلهم من بين أفراد الطبقتين الأولى والثانية - بمعيار الثروة - وفق قوانين سولون في بداية القرن السادس ق.م. (الطبقة الأولى ممن يزيد دخلهم السنوي على 500 معيار من القمح medemnos، والطبقة الثانية ممن يتراوح دخل الفرد السنوي فيها بين 300 وأقل من 500 معيار). ومن المرجح أن السبب في ذلك أن تلك المناصب الشرفية التنفيذية كانت تستلزم أناسا من الأثرياء لا ينشغلون عن مهامهم الجسام بالبحث عن لقمة العيش وأعباء الحياة المادية.

- ولما كانت أهم آليات عمل النظام الجديد هي الجمعية الشعبية التي تصدر أهم وأخطر المراسيم التي تحكم جوانب الحياة كافة في الدولة فقد احتاط كليسثينيس - مثلما فعل سولون من قبل - حين جعل المجلس الاستشاري (مجلس البولي / مجلس الخمسمائة) بأعضائه الأقل عددا وسنهم التي لا تقل عن الثلاثين وبالتالي - ربما - خبرتهم الأكبر يعدون جدول أعمال منضبطا ومُحكما بما سيعرض على الجمعية الشعبية من أمور؛ وهو إجراء احترازي حتى لا تترك أمور الدولة بين أيدي العامة بلا ضابط ولا رابط مما قد يؤدي إلى فوضى تشريعية.

- ولكن يبدو أن هذا الإجراء الوقائي وحده لم يكن يمثل كوابح كافية تحول دوما دون انفلات مشاعر وعواطف العامة في اتجاه شخص معين قد يدغدغ عواطفهم أو يمنيهم - بالحق أو بالباطل - بأمور بعينها فيلتفون حوله وتعود تجربة حكم الطغاة من جديد، ولم تكن تجربة بيزستراتوس وأولاده بعيدة! فها هو هيبياس لايزال لاجئا في بلاط الملك الفارسي داريوس - عدو الإغريق - بعد طرده من أثينا العام 510 ق.م. أي قبل ثلاث سنوات فقط!

لذلك ومن أجل الحيلولة دون عودة أي طاغية آخر قد يثب على الديموقراطية الوليدة وينشب مخالبه في جسدها الرقيق ويقضي عليها اسْتنَّ كليسثينيس قانون «النفي السياسي» ostracism (13).

يتمثل هذا القانون الذي يُطلق عليه باليونانية ostrakismos في أن الجمعية الشعبية عليها أن تقرر كل عام ما إذا كانت ستطبق إجراء «النفي السياسي» على أحد في ذلك العام أم أنه ليس هناك داع لذلك. فإذا أجمع ستة آلاف مواطن أثيني على الأقل على ضرورة اللجوء إلى ذلك الإجراء تجْتمع الجمعية الشعبية في جلسة خاصة لهذا الغرض. في هذه الجلسة يقوم كل مواطن من الحاضرين بكتابة اسم الشخص الذي يعتقد أنه يشكل خطرا على سلامة وأمن الدولة على «شقفة من الفخار» ostrakon (ومن هنا اتخذ هذا الإجراء مسماه). والشخص الذي يتكرر اسمه على أكبر عدد من شقف الفخار (بأكبر عدد من الأصوات) يُنفى من أثينا لمدة عشر سنوات لإبعاد خطره عن المدينة، ولكن دون أن تسقط عنه المواطنة الأثينية ودون أن تصادر أملاكه. وكانت الحالة الأولى التي طبق فيها قانون «النفي السياسي» في العام 487 ق.م. على أحد أقارب الطاغية السابق هيبياس، وطُبق على حالات كثيرة على مدى القرن الخامس ق.م.، وأُسيء تطبيقه في بعض الحالات، وربما كانت آخر حالات تطبيقه في العام 417 ق.م.

هذه كانت أهم ملامح النظام الديموقراطي الذي أرسى قواعده ذلك المُصلح الشهير كليسثينيس الذي يُعد رائد ومؤسس الديموقراطية الأثينية الحقيقي. لقد ظلت إصلاحات كليسثينيس هي الأساس الذي ارتكزت عليه الديموقراطية الأثينية طوال القرن الخامس ق.م. مع بعض تعديلات غير جوهرية - من حين إلى آخر - على ذلك البناء الراسخ، وهو ما سوف نتناوله في حينه.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن الديموقراطية الأثينية الوليدة سرعان ما أثبتت شجاعتها وبثت روحا من الحماسة والانتماء الشديد للوطن أثينا، تجلت في موقف عصيب، إذ لم ترضخ إسبرطة لهذا الوضع الجديد المناوئ لمصالحها بعد صعود نجم كليسثينيس على حساب ربيبها إيزاجوراس. وقد طلب هذا الأخير من كليومينيس ملك إسبرطة أن يعود بقواته ليطيح بكليسثينيس وينصِّبه مكانه، واستجاب كليومينيس وأتى معه بقوة إسبرطية صغيرة لهذا الغرض ونفى سبعمائة أسرة أثينية وفرَّ معهم كليسثينيس. لكن جموع العامة من الأثينيين تصدت لإيزاجوراس وحليفه كليومينيس وحاصرتهما فوق الأكروبول لمدة يومين مع ثورة هادرة للعوام خارج البوابات. وفي اليوم الثالث استسلم كليومينيس وإيزاجوراس وتخليا عن كل أصدقائهما في مقابل السماح لهما بالمرور الآمن صوب إسبرطة.

وحين أثارت إسبرطة شركاءها في حلف البيلوبونيز ضد أثينا ونسقت مع كل من طيبة وخالكيس لشن هجوم ثلاثي على أثينا من ثلاثة محاور في آن واحد في العام 506 ق.م.

فشلت هذه الخطة وحالف النصر الأثينيين. فقد اكتشفت كورنثة - من أعضاء حلف البيلوبونيز الذي تتزعمه أثينا - نية إسبرطة في تنصيب إيزاجوراس طاغية على أثينا، وهو ما ترفضه كورنثة وبقية أعضاء حلف البيلوبونيز، ما جعلها تتخلى عن إسبرطة وترغمها على التخلي عن خطتها في مهاجمة أثينا. وهنا تصدت أثينا لطرفي المحور الآخرين: طيبة وخالكيس بجرأة وبسالة ومعنويات عالية وألحقوا بهما هزيمة فادحة. وفي العام التالي (العام 505 ق.م.) أسقط كليومينيس إيزاجوراس من حساباته ودعا إليه هيبياس - آخر طغاة أثينا الذي سبق له هو أن أسقطه قبل خمسة أعوام - ووعده بأن يعيده إلى سدة الحكم. ولكن كورنثة خذلت إسبرطة ثانية وتكرر المشهد السابق وانحل جيش البيلوبونيز وعاد أدراجه من دون أن يهاجم أثينا. لكن طيبة أرادت أن تثأر لنفسها من أثينا عن هزيمتها في العام السابق دون مساعدة من إسبرطة. وتكرر المشهد كذلك، إذ اندحر جيشها وفني عن بكرة أبيه على يد الأثينيين الشجعان، وهو نصر أثار دهشة كل الإغريق.

وهنا يعلق هيرودوت على هذا النصر ويربطه بقيمة الديموقراطية وما تبثه في النفوس من عزيمة وشجاعة فيقول:

«وهكذا مضى الأثينيون من قوة إلى مزيد من القوة، وبرهنوا - إن كانت هناك حاجة إلى برهان - على مدى نبل المساواة أمام القانون ليس في مجال واحد فقط، بل في المجالات كافة. فحين كانوا يرزحون تحت حكم الطغاة لم يحرزوا نجاحا في الحرب يفضلون به أيا من جيرانهم، أما وقد انزاح عن كاهلهم هذا النير فقد أثبتوا أنهم أفضل محاربي العالم قاطبة، وهذا يُبرز بجلاء أنهم ما داموا كانوا خاضعين لأمر السلطة فإنهم يتهربون من أداء واجبهم في الميدان عمدا، تماما كما يتهرب العبيد من العمل من أجل سادتهم، ولكن حين يفوزون بالحرية فإن كلا منهم يتحمس للأمر على أنه قضيته الشخصية».

(هيرودوت: الكتاب الخامس، الفقرة 78)

وعلى الرغم من أن كليسثينيس لم يظهر في المصادر بعد العام 507 ق.م. بصورة واضحة - إذ ربما توفي بعد ذلك - لكن من الواضح أن الأثينيين قد كرموه وعرفوا قدره، إذ يُروى أنه دُفن في جنازة عامة مهيبة في «الكيرمايكوس» (التي صارت مدفنا عاما لأثينا في الجزء الشمالي الغربي من الأكروبول).

ولكن على الرغم من هذه الصورة المضيئة للديموقراطية الأثينية المبكرة فقد وقع الأثينيون - في تلك الفترة - في خطأ جسيم يُعد كبوة لجواد جامح. إذ يروي هيرودوت أن الأثينيين - بعد طرد ودحر كليومينيس ملك إسبرطة العام 506 ق.م. - طلبوا عقد تحالف مع الملك الفارسي من خلال ممثله وواليه على آسيا الصغرى المقيم في سارديس، ويُورد هيرودوت التفاصيل كالآتي:

«لقد كان الأثينيون على يقين من أنهم كانوا آنذاك في حالة حرب مع كليومينيس وإسبرطة. ولكي يدعموا موقفهم أرسلوا ممثلين عنهم إلى ساردیس على أمل عقد تحالف مع بلاد فارس. وعندما وصلوا إلى هناك وسلموا رسالتهم سأل أرتافرنيس بن هيستاسبيس، الوالي، عمن يكون هؤلاء الأثينيون الذين يسعون إلى عقد تحالف مع فارس وفي أي جزء من العالم يقطنون. وعندما تلقى الجواب أوجز قضية الفرس في كلمات معدودة حين أبدى ملاحظة مفادها أنه إذا أبرز الأثينيون ما يفيد خضوعهم، من خلال تقديم هدية معتادة من تراب أثينا ومائها، فسوف يعقد الملك داريوس حلفا معهم، وإلا كان من الأفضل لهم العودة لوطنهم. ولما كان المندوبون (السفراء الأثينيون) تواقين إلى إبرام تلك الاتفاقية فقد تصرفوا بمبادرة شخصية منهم وقبلوا شروط أرتافرنيس، وهو ما عرضهم للوم وتعنيف شديدين إثر عودتهم إلى أثينا».

(هيرودوت: الكتاب الخامس، الفقرة 73)

وهكذا دفع الخوف من إسبرطة السفراء الأثينيين إلى الخضوع الإرادي للفرس. ومثل هذا الخضوع الرمزي للملك الفارسي داريوس كان - في عرف الفرس - خضوعا نهائيا ودائما، وكان التراجع عنه يلزم الملك الفارسي بمعاقبة المتمردين بكل أنواع العقاب. ويبدو أن الأثينيين لم يكونوا يدرون بالمأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه ولكنهم سوف يكتشفون ذلك بعد قليل.

الفرس والإغريق في آسيا الصغرى [14]

نذهب الآن إلى جانب آخر من العالم اليوناني له علاقة وثيقة منذ القدم - بُعيد الغزو الدوري لبلاد اليونان في القرن الحادي عشر ق.م. - بأثينا وأتيكا وغيرهما من مناطق بلاد اليونان إلى الشمال وإلى الجنوب. نقصد بهذا الجانب الآخر المدن اليونانية الواقعة على ساحل آسيا الصغرى والجزر المقابلة لها في بحر إيجة بسكانها من الإغريق، وهي مستوطنات ومدن يونانية تكونت نتيجة الهجرات اليونانية من الوطن الأم نحو الشرق عبر بحر إيجة، نتيجة لغزو الدوريين لوطنهم الأم. وفي بداية القرن السابع ق.م. نشأت مملكة قوية وثرية في قلب المنطقة الغربية من آسيا هي مملكة «ليديا»[15] التي أقامها أول ملوكها المدعو جيجيس (الذي حكم بين العامين 685 ق.م. تقريبا و 657 ق.م.). وقد أخضع هذا الملك المدن اليونانية على ساحل آسيا الصغرى لسلطانه، وظلت تلك المدن على حالها من الخضوع لسلطان ملوك ليديا ودفع ضريبة (جباية) مالية لها حتى حكم آخر ملوك تلك الدولة كرويسوس (560 - 546 ق.م.). ولكن هذا الخضوع من جانب الإغريق لمملكة ليديا كان خضوعا رمزيا يتمثل في دفع الضريبة السنوية مع احتفاظهم بقدر وافر من الحرية والحكم الذاتي - لاسيما في ظل حكم كرويسوس الذي كان يقدِّر الحضارة اليونانية، ويعرف فضلها - كما ازدهرت تجارتهم بسبب تبنيهم اختراع العملة النقدية في التجارة، وهو اختراع ليدي أحدث طفرة كبيرة في التجارة بدلا من نظام المقايضة القديم.

نأتي الآن إلى علاقة ليديا ببعض ممالك وإمبراطوريات الشرق الأدنى القديم. إن بداية الاحتكام الجاد والحقيقي لـ «ليديا» مع تلك الإمبراطوريات يمكن أن يؤرَّخ ببدايات القرن السادس ق.م. حين اصطدمت دولة الميديين[16] بمملكة ليديا. ففي أواخر القرن السابع انقلب الميديون والبابليون - من رعايا الإمبراطورية الأشورية الكبرى في بلاد الرافدين والمناطق المجاورة - على تلك الإمبراطورية الأشورية الكبرى وأطاحوا بها وأسقطوا عاصمتها نينوى في العام 612 ق.م. وتحولت السيادة إلى «الميديين». وقد أصبح الميديون أقوى شعوب تلك المنطقة من العالم تحت حكم ملكيها كياكساريس وأستياجيس (585 - 549 ق.م.)، ووصل نفوذهما إلى مشارف آسيا الصغرى غربا، وأصبح نهر هاليس في شرق آسيا الصغرى يمثل حدا فاصلا بين مملكة الميديين ومملكة ليديا بعد معركة بين الطرفين في العام 585 ق.م.

ولكن قُدِّر لمملكتي الميديين والليديين أن تسقطا في منتصف القرن السادس ق.م. تقريبا تحت وطأة قوة صاعدة من رعايا الميديين وأبناء عمومتهم، وهؤلاء هم الفرس الأخمينيون من سكان مناطق الجبال الإيرانية الواقعة إلى الشمال الشرقي من الخليج الفارسي. ففي العام 549 ق.م. أطاح أحد أمراء ذلك البيت الفارسي، وهو قورش الأكبر، بدولة الميديين وأسقط عاصمتهم إيكباتانا (همدان فيما بعد). وبعد ذلك بثلاث سنوات فقط وسَّع قورش الأكبر نفوذه غربا حتى آسيا الصغرى وأسقط مملكة ليديا وملكها كرويسوس في العام 546 ق.م. وكذلك بقية المدن اليونانية الواقعة على ساحل آسيا الصغرى التي كانت خاضعة لنفوذ الليديين من قبل. ولكن خضوع إغريق آسيا الصغرى للفرس لم يكن خضوعا شكليا أو رمزيا مثلما كان الأمر مع الليديين، إذ صار محتما على المدن اليونانية في آسيا الصغرى كافة دفع الجزية (الضريبة) للملك الفارسي، وأن تمده بقوات عسكرية من أبنائها وأن تعيِّن على رأس الحكم فيها «طغاة» يقبل بهم ويرضى عنهم الملك الفارسي.

وحين اعتلى العرش الفارسي الملك «داريوس الأكبر» في العام 521 ق.م. بعد وفاة قمبيز بن قورش الأكبر بدأ على الفور - وحتى قبل أن تستقر له الأمور تماما على عرش فارس - في تنفيذ خططه التوسعية الطموحة لإمبراطوريته، خصوصا جهة الغرب. ففي العام 521 ق.م. تقريبا استولى داريوس على جزيرة ساموس اليونانية الغنية في بحر إيجة التي كان يحكمها من قبل الطاغية المشهور بوليكراتيس الذي سبق أن لقي حتفه في العام 523 ق.م. حين خدعه الحاكم (الوالي) الفارسي على آسيا الصغرى وأسره وصلبه على صخرة في لهيب الشمس الحارقة. وفي العام 514 ق.م. أراد داريوس أن يمد نفوذه نحو الشمال والغرب إلى أبعد من آسيا الصغرى ليؤدب قبائل السيكوثيين البربرية (في موقع أوكرانيا الحالية). وسار داريوس بحملته الكبرى عدة أشهر في تلك المناطق القاسية إلى الغرب من ساحل البحر الأسود من دون جدوى، إذ إن قبائل السيكوثيين لم تمنحه الفرصة لخوض معركة نظامية ضدهم،

بل اتبعت معه أساليب كر وفر أرهقته كثيرا. وحين تناقصت إمداداته وقرر الانسحاب قبل أن يحقق هدفه تحول السيكوثيون من الدفاع إلى الهجوم، وأوعزوا إلى طغاة المدن اليونانية في آسيا الصغرى بالتخلي عنه وخيانته في لحظة ملائمة لكي تحصل مدنهم على حريتها من ربقة الحكم الفارسي. ولكن أحد هؤلاء الطغاة - هيستيايوس طاغية مدينة ميليتوس - أوعز إلى بقية رفاقه من طغاة المدن اليونانية الأخرى بأن بقاءهم على عروشهم مرهون بوجود الملك الفارسي ودعمه، وأنه في حال سقوط الأخير فستنهار عروشهم هم كذلك لمصلحة شعوب مدنهم وللحكم الديموقراطي. ومع اقتناع طغاة المدن اليونانية في آسيا الصغرى بمنطق هيستيايوس بقيت تلك المدن ترزح تحت حكم هؤلاء الطغاة وتئن تحت وطأة السيادة الفارسية.

لكن صبر تلك المدن اليونانية لم يستمر طويلا، ففي العام 500 ق.م. ثار المطالبون بالحكم الشعبي (الديموقراطي) في جزيرة ناكسوس في قلب بحر إيجة واستولوا على حكم الجزيرة الغنية وطردوا حكامها السابقين من الأوليجاركيين أعوان الفرس. وقد فرَّ هؤلاء الحكام إلى مدينة ميليتوس واحتموا بطاغيتها أريستارجوراس ابن شقيق هيستيايوس - الذي أصبح آنذاك (هيستيايوس) مستشارا للملك الفارسي في بلاطه في سوسة رغما عنه - وطلبوا منه أن يعيدهم إلى جزيرتهم. وإزاء فشل أريستاجوراس في تحقيق تلك المهمة وخشيته من انتقام الفرس منه أصبح في حيرة من أمره، ولكن حسمت تردده رسالة سرية وصلته من عمه هيستيايوس - وهو في بلاط فارس - تحثه على الثورة على الفرس. وهكذا بدأت الثورة الأيونية[17] على الحكم الفارسي من ميليتوس العام 499 ق.م. مع بداية القرن الخامس.

في هذه الأجواء التي تحمل رياح التغيير سلَّم أريستاجوراس حكم ميليتوس وسلطاته كطاغية إلى مواطنيه وساعد بقية المدن الأيونية على الإطاحة بطغاتها. ولما كان أريستاجوراس يخشى انتقام الفرس منه ومن ميليتوس على ما قام به من خطوة جريئة فقد يمم شطر الغرب نحو الوطن الأم - بلاد اليونان - يطلب العون في هذه المحنة. لكن إسبرطة خذلته وأصمت أذنيها عن مساعدته متعللة بأسباب واهية، أما أثينا - بديموقراطيتها الوليدة مع إصلاحات كليسثينيس - فقد أرسلت إلى الثائرين الأيونيين عشرين سفينة، كما أرسلت مدينة إريتريا في جزيرة يوبويا القريبة من أتيكا خمس سفن أخرى. وكان تعليق هيرودوت على إرسال تلك السفن للثوار قوله: «إن هذه السفن كانت بداية الشرور للإغريق والبرابرة».

وقد تلاحقت أحداث الثورة الأيونية بعد ذلك، فقد أحرق الثائرون الأيونيون سارديس (عاصمة مملكة ليديا سابقا ومقر الحكم الفارسي في آسيا الصغرى)، وامتد الشغب حتى قبرص. وحاول الفرس قمع التمرد بكل شدة وعنف. وعاد الأثينيون إلى وطنهم لشكهم في عدم كفاءة ومقدرة الأيونيين. وبدأ داريوس في إعداد جيش ضخم ينهي به الأمر.

وبدأ بعض الأيونيين يعضون بنان الندم على مشاركتهم في الثورة ضد قوة ضخمة لا قبل لهم بها، وقد فرَّ أريستاجوراس من ميليتوس إلى شمال بحر إيجة ثم لقي حتفه على يد الفرس وبخدعة منهم. كما لحقه عمه هيستيايوس الذي انقلب على الفرس وحاول العودة إلى ميليتوس، لكن مواطنيه طردوه - كطاغية سابق - ولقي حتفه على يد الفرس وهو يمارس أعمال القرصنة.

وفي العام 494 ق.م. سحق الفرس أسطولا يونانيا عند «لادي» قرب ميليتوس، ثم أحرقوا ميليتوس نفسها - بوصفها مركز الثورة - بقسوة بالغة ودمروا معابدها ورحَّلوا من تبقى من رجالها إلى بلاد فارس على بعد ألفي ميل. وفي ربيع العام التالي (493 ق.م.) دمر الجيش الفارسي بقية المدن الأيونية - عدا ساموس - وقام بمجزرة بين شبابها وبتحويل أجمل فتيانها إلى خصيان، وبناتها إلى سبايا في بلاد فارس وباع من تبقى في أسواق النخاسة.

وعلى الرغم من كل تلك الأهوال التي ارتكبها الفرس - وفق وصف هيرودوت - فإنهم أقاموا في المدن الأيونية أنظمة ديموقراطية بدلا من طغاتها السابقين، وأنشأوا محاكم محلية تقضي على أعمال الفوضى والخروج على القانون، لكن تلك المدن لم تعد مطلقا بعد ذلك إلى سابق عهدها من الازدهار الاقتصادي والثقافي.

لكن داريوس لم ينس مطلقا الدور الذي لعبته كل من أثينا وإريتريا في الثورة الأيونية. ولذلك أزمع على الانتقام منهما - لاسيما أثينا - ومن بقية الإغريق في أقرب فرصة ممكنة.

3 - حرب الفرس على الإغريق في بلاد اليونان 490 - 479 ق.م. والدور القيادي لأثينا

في العام 492 ق.م. أرسل الملك الفارسي داريوس صهره ماردونيوس إلى شمال بحر إيجة ومعه أسطول، وأعلن عزمه على معاقبة أثينا وإريتريا لدعمهما الثورة الأيونية على الفرس. واخضع ماردونيوس في طريقه جميع المدن اليونانية أو معظمها. لكن هذه الحملة البحرية صادفت حظا عاثرا إذ هبت عليها عاصفة هائلة أغرقت نحو 300 (ثلاثمائة) سفينة وما يزيد على 20000 (عشرين ألف) شخص بالقرب من رأس آثوس (النتوء الشرقي من نتوءات شبه جزيرة خالكيديكي شمال بحر إيجة)، إذ غرق البعض من هؤلاء ومزقت الصخور بعضهم إربا والتهمت وحوش البحر من تبقى (**هيرودوت: 44/6**)، لكن هذه الكارثة لم تثن داريوس عن عزمه في إخضاع مدن اليونان، فأرسل سفراءه إلى تلك المدن يطلبون من كل مدينة حفنة من ثراها وبعضا من مائها (رمزا للخضوع). وقد استجابت كثير من المدن ورضخت لطلب الفرس (**هيرودوت: 48/6 - 49**)، ولكن أثينا - التي سبق أن أزاحت عن كاهلها هذا العار عندما ساندت الثورة الأيونية - أكدت بقوة رفضها هذه السيادة الفارسية ولهجة الاستعلاء حين أعدمت سفراء داريوس، على الرغم من تنافي ذلك مع

التقاليد المقدسة! كما أن إسبرطة اتخذت موقفا مماثلا حين طلبت من السفراء الفرس أن يأخذوا هم بأنفسهم ما يريدون من ثرى إسبرطة ومياهها ثم ألقوا بهم في غياهب إحدى الآبار رأسا على عقب! (هيرودوت: 133/7).

هذه المواقف لم تزد الفرس إلا إصرارا على موقفهم وعنادا فوق عنادهم، ففي صيف العام 490 ق.م. أرسل داريوس قوة مؤلفة من نحو ثلاثين ألف رجل عبر بحر إيجة مباشرة - لتجنب عواصفه الشمالية - تحت الرايات الفارسية، واصطحب هذه القوة هيبياس طاغية أثينا الأسبق الذي كان داريوس يعتزم إعادته إلى حكم أثينا. وقد توقف الأسطول الفارسي في ناكسوس - التي كانت السبب في اشتعال الثورة الأيونية في العام 499 ق.م. - وجعل منها أرضا محروقة. ومن بعدها يمموا شطر جزيرة ديلوس المقدسة واحتلوها، ووصلوا بعد بضعة أيام إلى إريتريا في جزيرة يوبويا - على بعد أميال قليلة من أثينا - ودخلوها بعد سبعة أيام من القتال الضاري بمساعدة خونة من أهلها باعوها للفرس. وانتقم الفرس من إريتريا شر انتقام فجرَّدوا معابدها من محتوياتها وأحرقوا تلك المعابد انتقاما لتدمير معابد سارديس من قبل، وحملوا معهم كل سكان المدينة أسرى بناء على أوامر داريوس (هيرودوت: 100/6 - 101).

وها هو الدور قد حلَّ للانتقام من أثينا، فقد أبحر الفرس نحو سواحلها وهبطوا في 8 سبتمبر في العام 490 ق.م. في سهل «ماراثون». ووفقا لإصلاحات كليثينيس كان الأثينيون يختارون كل عام عشرة قادة strategoi، واحد عن كل قبيلة من القبائل العشر الجديدة، وكانوا يتناوبون القيادة معا. وكان الدور في القيادة آنذاك على واحد منهم يُدعى ملتياديس. وقد أمر ملتياديس بأن تحمل قوات المشاة الأثينية الثقيلة hoplites كل ما تيسر لها من أطعمة وتتوجه مباشرة إلى ماراثون. وأرسل القادة الأثينيون أحد العدّائين (فيديبيديس) إلى إسبرطة ليطلب منها تقديم العون لأثينا في هذا الموقف العصيب بعد أن سويت إريتريا بالأرض. لكن الإسبرطيين خذلوا أثينا في هذا الموقف المصيري وتعللوا بأن طقوسهم الدينية لا تسمح لهم بإرسال قواتهم لميدان المعركة قبل اكتمال القمر (أي بعد نحو أسبوع من وصول فيديبيديس). لكن هذا الخذلان من جانب إسبرطة عوضه قليلا موقف شهم من جانب مدينة صغيرة على الحدود الشمالية لإقليم أتيكا تدعى بلاتيا أسرعت بإرسال ألف من مشاتها لمساندة أثينا في ظروفها الحرجة، ردا لجميل أثينا التي سبق أن دافعت عنها أمام غريمتها مدينة طيبة. وبذلك تكوَّن الجيش الأثيني من تسعة آلاف من المشاة الثقال إلى جانب ألف من بلاتيا فيصبح المجموع عشرة آلاف في مقابل ثلاثين ألفا من الفرس كما أسلفنا. وكان الأرخون العسكري الأثيني عن ذلك العام يُدعى كليماخوس وتحت إمرته القادة العشرة الذين كان ملتياديس أحدهم.

وحين علم القادة الأثينيون يوم 11 سبتمبر - بعد عودة فيديبيديس من إسبرطة - بالأنباء الصاعقة عن عدم إمكان إسبرطة المشاركة في المعركة انتاب هؤلاء القادة ذعر وهلع وانقسموا

على أنفسهم حول قرار خوض المعركة، خمسة منهم يقترحون العودة إلى أثينا من دون قتال (لعدم التكافؤ) ومواجهة الحصار هناك، والخمسة الآخرون (منهم ملتياديس) يقترحون خوض المعركة، وبقي الصوت المرجح للأرخون العسكري كليماخوس الذي حسم الأمر لمصلحة خوض المعركة (ربما بإيعاز من ملتياديس). وعلى الرغم من ذلك ظل التردد سيد الموقف ولم يصل إلى درجة الحسم إلا حين آل أمر قيادة القادة العشرة (بالتناوب) إلى ملتياديس فجر يوم 17 سبتمبر. وكان ملتياديس قد وضع خطة القتال ورتب أوضاع الأثينيين والبلاتيين وخاض معركة شرسة بقواته وبمعنويات عالية رغم قلة أعدادهم، فالمعركة مصيرية: معركة حياة أو موت! وقد قاتل الأثينيون قتالا بطوليا وحققوا نصرا كبيرا غير متوقع لقي فيه 6400 (ستة آلاف وأربعمائة) من الفرس حتفهم مقابل 192 فقط من الأثينيين - وفق قول هيرودوت - كان من بينهم الأرخون العسكري كليماخوس.

ولكن الفرس تمكنوا من إعادة بقية قواتهم - بعد أن استوعبوا الصدمة المذهلة - إلى السفن بعد أن فقدوا سبع سفن فقط. وكان الفرس يأملون من ذلك أن يلتفوا بسرعة حول ساحل أتيكا حتى يصلوا إلى أثينا ويستولوا عليها - بمساعدة بعض أعوانهم من الخونة - قبل أن يعود إليها الجيش الذي أحرز النصر في ماراثون. وقد فطن القادة الأثينيون إلى ذلك فأسرعوا بالعودة إلى أثينا عبر الدروب الوعرة - على الرغم مما بهم من إرهاق، وقطعوا تلك المسافة بين ماراثون وأثينا - 26 ميلا - في ذلك اليوم القائظ! وتحسبا لأي دعاية مضادة أو إشاعات هدامة أرسل هؤلاء القادة أمام الجيش العدّاء الشهم فيديبيديس - الذي سبق له أن قطع المسافة بين أثينا وإسبرطة (140ميلا) في ثلاثة أيام (280 ميلا ذهابا وإيابا) - ليزف بشرى النصر على الفرس إلى مواطنيه في أثينا ويطالبهم بالصمود ويبلغهم بأن جيشهم المظفر في الطريق. وقد أنجز فيديبيديس مهمته التاريخية في ساعتين اثنتين! لكن كان الإرهاق والإعياء قد وصلا به إلى منتهاهما فأعلن أخبار النصر المظفر وترنح في السوق العامة (الأجورا) وتهاوى ولفظ أنفاسه الأخيرة ... ومن وحي فيديبيديس والمسافة التي قطعها بين ماراثون وأثينا (26 ميلا في ساعتين) أدخل منظمو الألعاب الأولمبية الحديثة (منذ العام 1896) سباق الجري (الماراثون) بين المتنافسين بنفس المسافة.

المهم أن الفرس حين التفوا بسفنهم ووصلوا قبالة أثينا فوجئوا بأن الجيش الأثيني الذي ألحق بهم الهزيمة في ماراثون قد عاد إلى أثينا بتلك السرعة ويستعد لمجابهتهم من جديد، وكانت تلك مفاجأة أخرى قاسية قلبت الخطط والحسابات الفارسية. وتشاور القادة الفرس فيما هم فاعلون واستقر قرارهم على رأي مفاده العودة بقواتهم إلى آسيا وترك أثينا وشأنها إلى حين.

أما عن موقف إسبرطة فإنها - بعد أن اكتمل القمر - أرسلوا ألفين من قواتهم صوب أثينا. وقد قطع هؤلاء المسافة في ثلاثة أيام، ولما كانت المعركة قد انتهت بانتصار أثينا فقد ذهبوا

إلى ميدان المعركة في ماراثون ليلقوا نظرة على جثث القتلى من الفرس. وبعد أن شاهدوا ذلك امتدحوا الأثينيين على حسن أدائهم وعادوا إلى وطنهم.

وهكذا تحملت أثينا وحدها - في الأغلب - عبء مواجهة الهجوم الفارسي على بلاد اليونان وأحبطته بقيادة جسورة من قائد هو ملتيادس، على حد وصف هيرودوت... في مواجهة مشهودة... حظيت بشهرة هائلة... في «ماراثون»[18]. لقد كانت موقعة ماراثون مصدر فخار للأثينيين: إذ يروى عن أيسخيلوس الشاعر المسرحي التراجيدي الأثيني المرموق من أوائل القرن الخامس ق.م. أن شُوهد قبره قد كتب عليه أن مجده وفخاره الوحيد هو أنه شارك في تلك الموقعة. كما أن الشاعر الكوميدي الأثيني الشهير أريستوفانيس من أواخر ذلك القرن يشير بعد نحو ستين عاما من المعركة إلى «محاربي ماراثون» على أنهم يجسدون فضائل الصلابة والثبات التي كان يتحلى بها محاربو أثينا القدماء (**أريستوفانيس - مسرحية الأخارنيون - سطر 181**). وحتى في الاتجاهات الفكرية الحديثة يرى مؤرخون ومفكرون أوروبيون أن موقعة ماراثون قد أنقذت القارة الأوروبية من غزو فارسي محتمل.

المواجهة الكبرى بين الفرس والإغريق (480 - 479 ق.م)

على الرغم من أن هزيمة الفرس في ماراثون في العام 490 ق.م. كانت تُعد بالنسبة إلى داريوس انتكاسة بسيطة لإمبراطورية هائلة - إذ لم تتجاوز خسائر الفرس البشرية فيها ثلث من لقوا حتفهم في عاصفة ثاسوس في العام 492 - فإن داريوس بدا مصمما على استعادة هيبة الإمبراطورية والانتقام من الإغريق في أقرب فرصة ممكنة. ولم يضع داريوس وقتا في حشد جيش كبير وأسطول حربي ومؤن وإمدادات أكثر كثيرا من ذي قبل استعدادا لغزو شامل لبلاد اليونان. هذا الحشد الفارسي الهائل شاركت فيه كل ولايات الإمبراطورية الفارسية على مدى ثلاث سنوات بعد ماراثون. وتعالت صيحات الحرب وقعقعة السلاح في كل أرجاء آسيا.

(هيرودوت - الكتاب السابع - الفقرة الأولى)

ولكن ظروفا تدخلت لمصلحة الإغريق والأثينيين وحالت دون تنفيذ هذه الحملة الكبرى. أبرز هذه الظروف هي اندلاع الثورة في مصر ضد حكم الفرس في تلك الفترة ثم وفاة الملك داريوس العام 486 ق.م.، وبعد ذلك ثارت بابل. وإزاء هذه الأوضاع المضطربة في الإمبراطورية الفارسية تفرغ كسركيس Xerxes (خليفة داريوس وابنه) لقمع تلك الثورات لبعض الوقت من دون أن ينسى مطلقا ثأر أبيه الذي لم يتحقق بعد من الإغريق. وبعد أن أخمد كسركيس تلك الثورات ومع مطلع العام 483 ق.م. فتح - بإيعاز من ماردونيوس، أحد أبرز مساعديه ومساعدي أبيه من قبل - ملف الإغريق. وفي هذه المرة كان كسركيس يهدف إلى كسر شوكة الإغريق كافة وتشتيت شملهم في جميع أوطانهم، لاسيما في بلاد اليونان وفي صقلية وجنوب إيطاليا غربا. ولتحقيق ذلك الغرض أرسل سفارة إلى القرطاجيين في شمال أفريقيا لينسق

معهم لشن هجوم متزامن على الإغريق: كسركيس على بلاد اليونان، والقرطاجيون على إغريق صقلية وإيطاليا. وقد وافق القرطاجيون على القيام بذلك الدور وحشدوا - على مدى ثلاث سنوات - ثلاثمائة ألف من المشاة ومائتي سفينة، وجمعوا ذلك الحشد من جندهم وجند حلفائهم ومرتزقتهم من أرجاء البحر المتوسط.

(ديودور الصقلي - المكتبة التاريخية - الكتاب الحادي عشر - فقرة 1)

وهكذا بدأت نذر الحرب على اليونان في الإفصاح عن نفسها، وتلبدت سماء اليونان بسحب عاصفة تنبئ عن مواجهة عنيفة. وفي الجانب الإغريقي فإن الأحداث الماضية - سواء على مستوى الثورة الأيونية أو موقعة ماراثون - أثبتت إيجابية وفعالية دور أثينا حين يجد الجد وتقاعس إسبرطة عن القيام بدورها المأمول من خلال مبررات ضعيفة. ومع ذلك فإن إسبرطة رقم مهم في معادلة الصراع الإغريقي الفارسي لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال، لاسيما أمام جحافل الفرس الهائلة كما سنرى، إذ يخبرنا هيرودوت بأن كسركيس قد حشد ما يزيد على خمسة ملايين جندي (5,283,200)، إضافة إلى الخصيان والطهاة وبنات الهوى! وكان عدد القوات البرية وحدها من هذه القوة الإجمالية للفرس مليونا وسبعمائة ألف (**هيرودوت 60/7**). وعلى الرغم من المبالغة الواضحة من جانب هيرودوت بشأن أعداد الفرس - إذ يرجح المؤرخون الحديثون أن إجمالي قوات الفرس كان نحو نصف مليون جندي أو أقل من ذلك - فإنه كان أضخم جيش عرفه العالم القديم. كما كان الفرس متفوقين في أسطولهم البحري الكبير الذي أمدهم به رعاياهم من الفينيقيين والمصريين والقبارصة وكيليكيا وليكيا في جنوب آسيا الصغرى، وكذلك من الدوريين والأيونيين على الساحل الغربي لآسيا الصغرى ومن بونتوس شمال آسيا الصغرى، وقد بلغ مجموع مساهمات هؤلاء من السفن للأسطول الفارسي 1207 سفن من السفن ثلاثية الصفوف من المجاديف tri-remes (**هيرودوت: 89/7 - 95**).

وكان أول رد فعل يوناني أمام هذه الحشود الفارسية الضخمة قد بدأ من أثينا ولعبت المصادفة دورا كبيرا في هذا الأمر! ذلك أن الدولة الأثينية كانت قد أجَّرت مناجم الفضة في أتيكا لمقاولين خصوصيين، وفي العام 283 أو 282 ق.م. أسعد الحظ أثينا بكشف كبير من الفضة وبأرباح غير متوقعة بلغت مائة تالنت من الفضة، وهو مبلغ ضخم آنذاك! (التالنت يساوي 6000 دراخمة فضية، أي بإجمالي 600 ألف دراخمة). «وقد اقترح الأثينيون أن يوزع عليهم هذا الفائض بواقع عشر دراخمات لكل فرد، ولكن ثمستوكليس أقنعهم بالإقلاع عن هذه الفكرة وأن ينفق هذا المبلغ على بناء مائتي سفينة حربية - بدلا من توزيعه على الناس - وذلك للإفادة منها في الحرب مع جزيرة إيجينة. إن اندلاع هذه الحرب في ذلك التوقيت أنقذ بلاد اليونان، لأن ذلك أجبر أثينا على أن تصبح قوة بحرية. وفي حقيقة الأمر فإن المائتي سفينة لم

تستخدم للغرض الذي بُنيت من أجله، بل كانت متاحة لدى الإغريق وقت الحاجة إليها (**هيرودوت: 144/7**).

والآن نعود لنلقي الضوء على شخصية ثمستوكليس[19] ودوره البارز في الحرب مع الفرس. ينتمي ثمستوكليس إلى قبيلة أثينية عريقة، وإن كان من أم غير أثينية. وقد انتُخب أرخونا حاكما (مدنيا) لأول مرة في العام 493 ق.م.، كما كان القائد الممثل لقبيلته (الإدارية) لأول مرة في العام 490 ق.م. وفي أثناء أرخونيته الأولى طوَّر بيرايوس تطويرا أوليا لكي تصبح ميناء لأثينا. وعلى الرغم من مناوراته وألاعيبه السياسية - بعد صعود اسمه في سماء السياسة الأثينية - التي أسفرت عن إلحاق عقوبة «النفي السياسي» ببعض السياسيين الأثينيين البارزين مثل كسانثيبوس (والد الزعيم الأثيني الأشهر فيما بعد بيريكليس) في العام 484 ق.م. وأريستيديس «العادل» في العام 482 ق.م. -جبتحريض من ثمستوكليس - فإن المؤرخ الأثيني الكبير ثوكيديديس أبدى إعجابه به لبعد نظره واعتبره واحدا من أعظم أبناء جيله في الحصافة والحكمة وحسن التدبير (**ثوكيديديس: 138/1**).

رأينا كيف أقنع ثمستوكليس الأثينيين في العام 483/482 ق.م. بتخصيص عوائد مناجم الفضة الأتيكية (منجم لاوريون) لبناء أسطول من مائتي سفينة حربية بدلا من سبعين فقط، وذلك استعدادا لحرب متوقعة مع جزيرة إيجينة المجاورة، وهو الأسطول الذي سوف يُدَّخر للحرب مع الفرس. وفي تلك الحرب سيتولى ثمستوكليس منصبا مهما كقائد يمثل قبيلته وكقائد عام للأسطول الأثيني في معركة «سلاميس» الشهيرة في العام 480 ق.م. (ستأتي لاحقا). تلك كانت استعدادات أثينا تحسبا للحرب مع الفرس - في واقع الأمر - التي كانت إرهاصاتها واضحة، أما إسبرطة فإنها لم تتحرك تحركا جديا لمجابهة هذا الخطر الداهم إلا بعد أن وصل الملك الفارسي كسركسيس إلى سارديس - عاصمة ولاية آسيا الصغرى - في نوفمبر العام 481 ق.م. لمتابعة الحملة الفارسية والإشراف عليها فعليا، حينذاك دعت إسبرطة الإغريق لرفع لواء المقاومة، واستجابت لذلك النداء إحدى وثلاثون مدينة فقط. وعلى الرغم من العداوات والخلافات التي كانت قائمة بين أثينا وإسبرطة - عدوة الديموقراطية الأثينية - فإن أثينا قبلت بأن تتزعم إسبرطة التحالف الإغريقي الذي سيتصدى للعدوان الفارسي! في المؤتمر الذي انعقد لذلك الغرض عند برزخ كورنثة في خريف العام 481 ق.م.

أما من جانب الفرس فإن خطتهم قامت على ترويع الإغريق بذلك الجيش الضخم الهائل الذي سبقت الإشارة إليه، وإجبارهم على الاستسلام والخضوع من دون قتال. واستكمالا لهذه الخطة في ترويع الإغريق جلب كسركسيس في حملته مهندسين عسكريين للقيام بأعمال إنشائية ضخمة تيسر خطة سير الحملة في بلاد اليونان من شمالها إلى جنوبها. إذ أقام هؤلاء جسرا بريا يربط بين ضفتي مضيق الدردنيل الشرقية والغربية لنقل القوات البرية الفارسية

الضخمة من خلاله، كما شقوا قناة في شبه جزيرة «آثوس» تمر من خلالها سفن الحملة حتى لا تتكرر مأساة الريح العاتية التي دمرت عددا كبيرا من سفن ماردونيوس وقواته العام 492 ق.م. وبالفعل أثرت تلك الحشود الضخمة في معنويات مدن إغريقية كثيرة فأرسلت إلى الفرس رمز خضوعها من تراب وماء تلك المدن.

وفي العام 480 ق.م. أجرى كسركسيس مراجعة أخيرة لقواته عند أبيدوس (على الشاطئ الشرقي للدردنيل) ثم جعلها تعبر إلى الضفة الأخرى (الغربية) لمضيق الدردنيل في أوروبا، كما انطلق معها الأسطول الفارسي في التوقيت نفسه في حشود ضخمة هائلة أضاف إليها هيرودوت من مبالغاته الشيء الكثير كما أسلفنا. وهكذا أصبح الخطر الفارسي على أعتاب بلاد الإغريق من جهة الشمال، وها هو في سبيله للزحف جنوبا في طوفان عاصف يهدد مصير الإغريق ووجودهم. وأمام هذا التهديد الجدِّي عقد التحالف اليوناني مؤتمره الثاني في ربيع العام 480 ق.م. لوضع خطة للمقاومة. وفي هذا المؤتمر أدرك الإغريق عدم جدوى المقاومة في منطقة وادي تيمبي في تساليا في شمال شرق اليونان لوجود أكثر من طريق بديل يمكن أن يسلكه الجيش الفارسي هناك، لذلك عدلوا عن هذه الخطة وقرروا أن تبدأ المقاومة والاستعداد إلى الجنوب من تساليا عند مضيق جبلي يُعرف بمضيق ثيرموبيلاي، وهو محصور بين الجبال غربا وخليج يُعرف بخليج ماليا شرقا. وترتب على ذلك أن خضعت تساليا للفرس من دون قتال. ووضع الإغريق عند هذا المضيق قوة تقدر بنحو أربعة آلاف من القوات الإغريقية الحليفة على رأسها قوة صغيرة من ثلاثمائة جندي إسبرطي بزعامة ملكهم ليونيداس احتلت هذا المضيق الاستراتيجي المؤدي إلى الجنوب وأغلقته أمام جحافل الفرس، كما كان الأسطول اليوناني على مقربة في مياه خليج ماليا عند نقطة تسمى أرتميسيون. وقد ظلت القوة الإغريقية عند مضيق ثيرموبيلاي وحوله تصد جحافل الجيش الفارسي في بسالة منقطعة النظير - بقيادة الملك الإسبرطي ليوانيداس - لمدة أسبوع كامل وألحقت بالفرس خسائر فادحة. (**هيرودوت: 210/7 - 212**). ولكن أحد الخونة من الإغريق من أهل المنطقة دل الفرس على طريق جبلي بديل مكّنهم من الالتفاف حول القوة الإغريقية وجعل الفناء هو المصير المحتوم للقوة الإغريقية الصغيرة. وعندما أدرك ليونيداس ذلك المصير صرف بقية القوة الإغريقية من الميدان - باستثناء سبعمائة من مدينة صغيرة تُدعى ثيسبياي رفضوا مغادرة الميدان - وتبقى ليونيداس وجنده الإسبرطيون الثلاثمائة الذين قاتلوا قتالا بطوليا رائعا - على الرغم من الموقف العصيب والمصير المحتوم - وقد فنوا عن بكرة أبيهم ومعهم مليكهم. ويفصِّل لنا هيرودوت بطولتهم الخارقة ويقرر أنه يعرف أسماءهم جميعا كأبطال يستحقون التخليد (**هيرودوت: ... - 225**) كما أن الشاعر اليوناني سيمونيديس قد خلَّد ذكراهم في مرثية قصيرة في صورة شاهد قبر، إذ يقول على لسانهم:

«أيا عابر السبيل: أبلغ الإسبرطيين أننا ها هنا راقدون ممتثلون لأوامرهم»

في الوقت ذاته كان الأسطول الفارسي يزحف جنوبا بمحاذاة الساحل الشرقي لبلاد اليونان حتى وصل إلى أرتميسيون عند الطرف الشمالي لجزيرة يوبويا، حيث تمركز الأسطول اليوناني قبالة موقع ثيرموبيلاي تقريبا. ولكن الأسطول الفارسي لحقت به خسائر كبيرة من جراء العواصف والأنواء، وعندما التقى الأسطولان احتفظ الإغريق بزمام المبادرة لمدة يومين ولكنهم تلقوا ضربات موجعة في اليوم الثالث، كما كان الفرس يخططون لنصب مصيدة لهم بإرسال جزء من أسطولهم للالتفاف حول الجزيرة من الجنوب. أمام هذا الموقف الحرج وبعد سماع أنباء هزيمة ثيرموبيلاي الحزينة انسحب الأسطول الإغريقي - بعد مناوشات والتحامات غير حاسمة مع الفرس - وتوجه إلى جزيرة سلاميس بعد أن لحقت به خسائر في الاشتباكات السابقة.

وبذلك أصبح طريق الفرس مفتوحا إلى أتيكا وعاصمتها أثينا. وكان كهنة وحي الإله أبوللون في ديلفي - أشهر أماكن العرافة وأقدسها في بلاد اليونان - قد أطلقوا نبوءة للأثينيين في هذا الموقف العصيب في صورة نصيحة غامضة تقول: «ضعوا ثقتكم بأسواركم الخشبية». هذه النبوءة فهمها ثمستوكليس - قائد الأسطول الأثيني والقائد الشهير - على أنها تعني الثقة بالأسطول. لذلك استخدم الأسطول في ترحيل وتهجير أغلب أهل أثينا من المدنيين إلى الجزر والمناطق القريبة من أتيكا في جزر سلاميس وإيجينة ومدينة ترويزين، وهي كلها مناطق تقع إلى الغرب من أثينا، تنفيذا لنبوءة أخرى من وحي ديلفي! وهكذا دخل الفرس أثينا - بمساعدة ومؤازرة فرسان طيبة الإغريق الذين تحالفوا مع الفرس - واستولوا على المدينة الخالية من سكانها إلا من مشرفي الخزانة وبعض الكهنة والكاهنات فوق تل الأكروبول ومعابده المقدسة. وقد أجهز الفرس على كل هؤلاء وأحرقوا مباني ومعابد الأكروبول وجعلوا المدينة - التي كانت عامرة - أطلالا تنعى من بناها!

أما عن خطة المعركة القادمة فقد رأى الإسبرطيون بزعامة قائدهم وقائد الأسطول اليوناني يوريبياديس Eurybiades أن الأجدى في مواجهة الفرس هو حشد القوات البرية وبناء الاستحكامات الدفاعية عند برزخ كورنثة - وهو ذلك العنق الموصل بين شبه جزيرة البيلوبونيز في شمالها الشرقي وبقية بلاد اليونان إلى الشمال - والتصدي للفرس القادمين من الشمال. لكن ثمستوكليس - قائد الأسطول الأثيني - كان له رأي آخر ألح على عِظم فائدته للإغريق وحاول بكل جهده أن يقنع به يوريبياديس وأفلح في ذلك إذ صاح فيه قائلا: «في هذه الحرب تعتمد الأمور كلها على الأسطول، وإني لأتوسل إليك أن تأخذ بنصيحتي (مشورتي)» (هيرودوت: 62/8). وفي الجانب الفارسي فإن أرتميسيا - حاكمة منطقة كاريا في آسيا الصغرى ومن أتباع الملك الفارسي وكانت إلى جواره في حملته العام 480 - أشارت على

كسركسيس بأنه ليس هناك ما يدعوه إلى خوض معركة بحرية عند سلاميس، وأنه يكفيه أن يبحر حتى برزخ كورنثة وسوف يأتي إليه الإغريق فيحاربهم وفق خطته هو وتكون له اليد العليا. وفي الجانب اليوناني تردد يوريبياديس مرة أخرى بعدما انتقده القادة الإغريق لنزوله على رأي ثمستوكليس واعتزامه خوض الحرب من سلاميس. ولما رأى ثمستوكليس الأمر وقد كاد يفلت من يده على هذا النحو بعث برسالة خادعة مع أحد العبيد إلى كسركسيس مفادها أن الإغريق خائفون ومرتعدون منه وأنهم سيحاولون الهرب والإفلات من قبضته، وأن عليه ألا يدعهم يفلتون من بين أصابعه وأن يضيِّق عليهم الخناق حيثما هم (عند سلاميس). كما أوعز إلى الملك بأن الإغريق منقسمون على أنفسهم وأنه سيجد من بينهم أعوان له (**هيرودوت: 8 / 75**). وابتلع الملك الفارسي الطعم وأسرع بسفنه وأسطوله إلى حيث تقع جزيرة سلاميس وظل يراقب بنفسه تطورات المعركة - التي تصورها نزهة سيصطاد فيها الإغريق المذعورين - وإذ به يكتشف فخا رهيبا رسمه له بعناية الداهية ثمستوكليس! إذ اندفعت السفن الفارسية في الممرات الضيقة بين جزيرة سلاميس واليابسة في أتيكا - وكان عدد السفن الإغريقية 380 والسفن الفارسية ضعفها - فانحشرت السفن الفارسية في تلك المضايق ولم تعد تتمتع بحرية الحركة، أما السفن اليونانية فقد تظاهرت بالفرار، ولكنه كان تكتيكا القصد منه الالتفاف حول سفن الفرس وتوجيه ضربات عنيفة إليها، وانتصر الإغريق في سلاميس نصرا مؤزرا بعد ملحمة بطولية وخطة رائعة محكمة أعدها ونفذها ثمستوكليس الأثيني. وقد خلَّد الكاتب المسرحي الأثيني أريسخيلوس ذكرى هذا النصر - الذي شارك فيه في ميدان المعركة - في مسرحيته التاريخية «الفرس» بعد ثماني سنوات من المعركة التي دارت رحاها في شهر سبتمبر من العام 480 ق.م.

(**للتفاصيل الكاملة انظر: هيرودوت: 8/70 - 95، وانظر كذلك: ديودور الصقلي: 11/16 - 19، بلوتارخ: «ثمستوكليس» 12 - 15**).

هكذا أدت أثينا الدور الأبرز في الانتصار على الفرس في تلك الموقعة المصيرية - على الرغم من القيادة الاسمية الإسبرطية للتحالف الإغريقي. ولا ننسى أنها (أثينا) - منذ البداية - كانت صاحبة الدور الأكبر في تدعيم ومؤازرة الثورة الأيونية على الحكم الفارسي في آسيا الصغرى في بدايات القرن الخامس ق.م. كما أنها تصدت ببسالة لجحافل الفرس في ماراثون العام 490 وأحرزت عليهم نصرا غير متوقع لعدم التكافؤ بين القوتين. أما إسبرطة فقد رأينا الحجج والأعذار والمراوغات حتى ماراثون، والتردد والتحفظ قبل سلاميس وفي أثنائها ... لكن تبقى حسنتهم البارزة هي صمودهم البطولي وثباتهم حتى الموت مع مليكهم في ثيرموبيلاي.

والآن نعود إلى سير الأحداث بعد سلاميس إذ انسحب الملك كسركسيس على الفور إلى آسيا الصغرى ومعه جزء من أسطوله، في حين تولى الجزء الآخر مما تبقى من الأسطول

الفارسي حماية مضايق الهليليسبونت (الدردنيل) في أقصى شمال شرق اليونان وحماية الجسور التي سبق أن شُيدت على هذا المضيق. وقد انسحبت مع الملك أرتميسيا - ملكة هاليكارناسوس في كاريا - وأبلت بلاء حسنا في الإفلات من سفن الإغريق التي تعقبتها، بل نجحت في إغراق إحداها. ويقول هيرودوت (8 / 88) إن الملك كسركسيس قال في تلك المناسبة: «لقد انقلب رجالي نساء وتحولت نسائي رجالا»!

أما بقية قوة الفرس البرية فقد تركها كسركسيس تحت قيادة ماردونيوس لتقضي الشتاء في إقليم تساليا شمال شرق اليونان - بعد أن انسحبت من أثينا وإقليم أتيكا - استعدادا لخوض معركة برية فاصلة ضد الإغريق حين تسنح الفرصة. وقد حاول ماردونيوس مرتين التفاوض على إبرام صلح منفرد مع أثينا ولكن محاولاته باءت بالفشل، فعاد إلى سياسة الهجوم. وكانت قوات ماردونيوس متفوقة في سلاح الفرسان على الإغريق. لقد كان رد أثينا على محاولات الصلح المنفرد مع ماردونيوس - قائد القوات الفارسية - صاعقا وحماسيا جدا وفق ما ورد عند (**هيرودوت: 8 / 144**):

«إن كل ذهب العالم والأرض لا يساوي أن نأخذه ثمنا للانضمام إلى عدونا جميعا وإخضاع بلاد اليونان. وهناك أسباب كثيرة ضاغطة تحول بيننا وبين الإقدام على ذلك حتى إن رغبنا: أولها وأعظمها هو حرق معابدنا وتماثيل آلهتنا، التي أضحت الآن رمادا وحطاما. إن واجبنا الإلزامي هو الانتقام من هذا الانتهاك للمحرمات بكل ما أوتينا من قوة، لا أن نصافح اليد التي اقترفت ذلك الإثم. ثم إن هناك الأمة اليونانية التي يجمعها الدم واللغة، والمعابد والطقوس، والعادات المشتركة؛ فإذا ما خانت أثينا كل ذلك فإنه سيكون بئس الصنيع. لذا نريدك أن تعلم - إن كنت لا تعلم - أنه مادام بقي على قيد الحياة أثيني واحد فلن نعقد سلاما مع كسركسيس».

ولكن لما كان ماردونيوس لايزال يمتلك قوات ضخمة في تساليا فإنه عاد في ربيع العام 479 ق.م. وأحرق أثينا للمرة الثانية. وفي الوقت ذاته كانت إسبرطة تحصن برزخ كورنثة وحده لحماية البيلوبونيز، على الرغم من استغاثة أثينا بها لنجدتها دون جدوى! ولكن إسبرطة أرسلت بعد ذلك جيشا تحت قيادة باوزنياس - الوصي على عرش ملك إسبرطة الطفل ابن ليونيداس - لمجابهة الجيش الفارسي. وحين علم ماردونيوس بسير الجيوش اليونانية نحو الشمال قفل عائدا إلى بؤوتيا (شمال أتيكا) حيث الموقع الملائم لفرسانه. وتمركزت قوات الإغريق عند سفوح بعض المرتفعات بالقرب من بلاتيا على أمل أن تعيق التربة الخشنة تحركات فرسان ماردونيوس. وقد حشد الإغريق هناك أكبر جيش جمعته المدن اليونانية ويُقدر بأربعين ألفا من المشاة الثقيلة وسبعين ألفا من المشاة الخفاف وعدد قليل من الفرسان (نقطة ضعف الإغريق). وقد تردد الجانبان الإغريقي والفارسي في المبادرة بالهجوم بسبب

نبوءة أفادت بأن المُدافع سوف يفوز أما المُهاجم فسوف يخسر. وبعد سبعة أيام من هذه الحالة ضغط الفرس بفرسانهم على قوات الإغريق وأحكموا حولها الحصار ومنعوا عنها المؤن والإمدادات. وبعد مرور عشرة أيام التحم الجمعان وأبلى الإغريق - ولاسيما الإسبرطيون والأثينيون - بلاء حسنا تحت قيادة باوزنياس في معركة حامية الوطيس عند بلاتيا انتصر فيها الإغريق واندحر الفرس وقتل قائدهم ماردونيوس. وعلى الرغم من مبالغات هيرودوت في أعداد الجيش الفارسي وتحفظنا عنها فإنها تعطي - على الأقل - مؤشرا لحجم الهزيمة التي لحقت بالفرس في تلك المعركة. فهو يقول «لقد كانوا (يقصد قوات الفرس) فريسة سهلة للإغريق حتى أنه من بين ثلاثمائة ألف رجل (مع استثناء الأربعين ألفا الذين فروا مع أرتبازوس) لم يتبق ثلاثة آلاف. أما خسائر الإسبرطيين في المعركة فقد بلغت 91 قتيلا، وفقدت تيجيا (إحدى مدن البيلوبونيز) 16، كما فقد الأثينيون 52 قتيلا (**هيرودوت: الكتاب التاسع - فقرة 70**).

وفي التوقيت نفسه كانت تجري معركة أخرى - بحرية - بين الإغريق والفرس على ساحل آسيا الصغرى عند رأس تُدعى ميكالي بالقرب من جزيرة ساموس. إذ أوعز إغريق ساموس إلى الأسطول الإغريقي المرابط قرب جزيرة ديلوس المقدسة بأن جميع إغريق أيونية (على ساحل آسيا الصغرى) على استعداد للتخلي عن الفرس والخلاص من السيطرة الفارسية، وأنه ما عليهم إلا المجيء إلى ساموس وهزيمة قطع الأسطول الفارسي القليلة الموجودة هناك. وحين بلغ الفرس ذلك انسحبوا إلى لسان من اليابسة في البحر قرب ساموس يطلق عليه ميكالي، وأرسوا مراكبهم على الشاطئ وأقاموا سورا محصنا حولهم. كما أرسى الإغريق سفنهم على الشاطئ ونزلوا منها وتعقبوا قوات الفرس إلى معسكرها الحصين وطالبوا بني جلدتهم من الأيونيين بالتخلي عن الفرس والارتداد عليهم. ولما كان الفرس قد شكوا في أمر حلفائهم الأيونيين فقد سرحوهم وانطلقوا وحدهم لملاقاة الإغريق. وقد بدأ الأثينيون الالتحام بالفرس لأنهم كانوا يريدون ان يُنسب إليهم فضل ذلك اليوم لا إلى الإسبرطيين! كما يذكر (**هيرودوت: 102/9 - 104**) وقد بذلوا كل ما في وسعهم وألحقوا - هم ومن معهم من إغريق كورنثة وسيكيون وترويزين - بالفرس خسائر فادحة، وأجبروا حلفاء الفرس على الفرار، وظل الفرس يحاربون في جماعات متفرقة في قتال يائس أمام سيل متدفق من الإغريق اجتاحوا السور المحصن وأحدثوا به ثغرات. وفي ظل هذا الموقف وصلت قوات إسبرطة لتُكمل ما تبقى من المهمة، وهو يسير. وقد تكبد الإغريق في ذلك اليوم خسائر غير قليلة، ولكن ثباتهم وقتالهم الضاري وانقلاب الأيونيين على الفرس وتضليلهم والإيقاع بهم لمصلحة بني جلدتهم، كل ذلك حسم الموقعة لمصلحة الإغريق. ويرى هيرودوت أن ذلك اليوم يعتبر بمنزلة الثورة الأيونية الثانية على الحكم الفارسي.

وهكذا فإن ذلك النصر الصعب في ميكالي قد اجتث آخر قوة فارسية حية في بحر إيجة ومنح الأيونيين حريتهم. وهكذا انتهت الحروب الفارسية الكبرى ضد الإغريق في أوائل القرن الخامس ق.م. بانتصارات مؤزرة للإغريق على حساب الإمبراطورية الفارسية الضخمة. هذه الانتصارات لعبت فيها القوة والإرادة الأثينية الدور الأبرز على الرغم من القيادة الاسمية لإسبرطة.

4 - حلف ديلوس والخمسينية الذهبية لأثينا (479 - 431 ق.م.)

مرحلة الازدهار:

يطلق المؤرخون الحديثون على الفترة الزمنية بين نهاية الحرب الكبرى بين الفرس واليونان في العام 479 ق.م. وبين اندلاع الحرب بين أكبر مدينتين يونانيتين متنافستين (أثينا وإسبرطة) - والمعروفة بالحروب البيلوبونيزية - في العام 431 ق.م. فترة الخمسين عاما (Pentekontaetia باليونانية) كتعريف لتلك الفترة التي تقارب هذه المدة.

وقد وصف المؤرخ الأثيني الأشهر ثوكيديديس هذه الفترة في مؤلفه الضخم عن تاريخ الحروب البيلوبونيزية (الكتاب الأول / 89 - 118)، وإن لم يطلق عليها تلك التسمية. وفي خلال هذه الفترة كوَّنت أثينا إمبراطوريتها المتمثلة في «حلف ديلوس» الذي تزعمته وازدهرت أوضاعها السياسية، وأنتجت خلال هذه المدة أخلد وأعظم أعمالها الفنية والأدبية. وفي أغلب أوقات تلك الحقبة تزعم أثينا الزعيم ورجل الدولة بيريكليس، وبرز فيها كُتّاب المسرح التراجيدي الأثيني العظماء أيسخيلوس و(النصف الأول من فترة إبداع) سوفوكليس ويوربيديس، كما ظهر الفيلسوف أناكساجوراس والسوفسطائي بروتاجوراس، والفنانون بوليجنوتوس وفيدياس. وقد بُني معبد البارثينون في تلك الفترة، كما بدأ ظهور وتطور كل من سقراط وثوكيديديس وأريستوفانيس. ويصوِّر ثوكيديديس الزعيم بيريكليس وهو يصف أثينا في عصره على أنها «مدرسة بلاد الإغريق». وفي تلك الفترة نفسها ظهرت في مناطق أخرى من بلاد اليونان أسماء لامعة مثل بندار وباخيليديس وهيرودوت وبارمينيديس وزينون وأمبيدوكليس وبوليكليتوس.

لكن دعنا هنا نقتصر على أثينا (موضوع هذا العدد) وأن نقصر هذا الجزء على التطور السياسي في أثينا - داخليا وخارجيا - خلال تلك الفترة اتساقا مع موضوع المقال، وعلى اعتبار أن الجوانب الأخرى من فن وأدب وفلسفة وفكر وتاريخ وعلم سوف تعالج في موضوعات مستقلة.

رأينا في العرض السابق عن الحروب الفارسية كيف تزعمت إسبرطة - زعيمة حلف البيلوبونيز في جنوب بلاد اليونان وأقوى قوة برية في بلاد اليونان - قوى التحالف اليوناني

من المدن الإحدى والثلاثين التي ساهمت في الحرب. كما رأينا أنه على الرغم من قبول أثينا هذه الزعامة الإسبرطية للحلف اليوناني فإن دور أثينا الفعلي في القتال قد تفوق على دور إسبرطة، وإن كانت إسبرطة قد أبلت بلاء حسنا في بعض المواقع مثل «ثيرموبيلاي» و«بلاتيا». وعلى أثر الانتصار الإغريقي التاريخي على الفرس في مجمل تلك الحروب الفارسية عمت الإغريق فرحة طاغية بهذا النصر العظيم الذي حرر الإغريق من ربقة الهيمنة الفارسية ووجه ضربة موجعة لإمبراطورية كبيرة وأجبرها على التراجع والانسحاب. وحين هدأت موجة الفرح العارمة «راحت السكرة وجاءت الفكرة»... وظنت إسبرطة أن الأمور سوف تعود إلى سابق عهدها قبل الحرب... أي أن تظل إسبرطة هي القوة العسكرية والسياسية الكبرى في بلاد اليونان. ومن هذا المنطلق حاولت إسبرطة إقناع أثينا بأنه ليس هناك داع لقيام أثينا ببناء أسوار جديدة حول أثينا بعد أن دمر الفرس المدينة قبل وبعد معركة سلاميس، إذ أوعزت إسبرطة إلى أثينا بأنها كفيلة بحمايتها. ولكن هيهات! فأثينا قد شعرت بأهميتها وقيمة الدور الكبير الذي مارسته في الحروب الفارسية، فصممت على الاحتفاظ بكيانها المستقبل وتبوؤ مكانها المرموق بين الإغريق، وأن يتم ذلك في صمت ومن دون أن تثير حفيظة شقيقتها الكبرى اللدودة إسبرطة. وقد أدى هذا الدور باقتدار ثمستوكليس - السياسي الأثيني الداهية وبطل معركة سلاميس الشهيرة - الذي أطال أمد المفاوضات مع إسبرطة حول أمور شتى، وظل هناك في الوقت الذي كان يتم فيه بناء السور في سرية بالغة حتى تم المطلوب! فعاد إلى أثينا بعد أن زرع بذور الشك بين المدينتين.

بعد أن أصاب الإحباط إسبرطة من موقف ثمستوكليس اتجهت إلى الساحل الأيوني وإغريق آسيا الصغرى الذين كانوا في حاجة إلى أسطول كبير من بلاد اليونان يحميهم من بطش وانتقام الفرس. ولكن لما كان أسطول الإغريق في أثناء الحروب الفارسية وبعدها تهيمن عليه القوة البحرية الأثينية، ولما كانت إسبرطة لا ترغب في إعطاء مثل هذا الدور لأثينا ولا تريدها أن تشاطرها الزعامة فقد قدمت للأيونيين مقترحا بديلا غريبا! إذ عرضت عليهم أن يعودوا من وطنهم البديل - الذي نشأت وترعرعت فيه أجيال وأجيال منهم - إلى وطنهم الأم بلاد اليونان الأصلية. وكان من البدهي أن يرفض الأيونيون هذا المقترح العجيب إذ كيف يهجرون مواطنهم وأرضهم الخصيبة ... كلا سيبقون حيث هم وسيحتاجون إلى حماية أسطول.

واستمرت إسبرطة في محاولاتها الإمساك بتلابيب الزعامة اليونانية التي بدأت في الإفلات منها كما بدا في الأفق.م.ن هنا حاولت إسبرطة أن تحتفظ بسيطرتها على أسطول الإغريق المتحد الذي حارب الفرس والذي كان يتولى قيادته العامة - في أثناء الحرب مع الفرس في العامين 480 و479 ق.م. - القائد الإسبرطي يوريبياديس. وقد تولى هذه المسؤولية

عام 478 ق.م. القائد الإسبرطي باوزنياس - بطل معركة بلاتايا - وتمكن من طرد الفرس من جزيرة قبرص ثم أبحر إلى شمال بحر إيجة ومنه إلى بحر مرمرة، حيث استولى على بيزنطة في الشمال منه والتي تحرس البوابة الشرقية من مضيق البوسفور المؤدي إلى مدخل البحر الأسود. ولكن صلف وغرور باوزنياس استفز وأثار بقية الإغريق، هذا فضلا عن استعداده لخيانة وطنه: إذ يُروى أنه كتب إلى الملك الفارسي كسركسيس يعرض عليه خيانة مواطنيه وبني جلدته الإغريق في مقابل الزواج من ابنة الملك الفارسي وتولي منصب ساتراب (والٍ على إحدى الولايات الفارسية). ولما تيقنت هيئة الإيفورية[20] الإسبرطية من خيانة باوزنياس أصدرت حكما بإعدامه لكنه اعتصم بأحد المعابد. وعلى الرغم من ذلك ظل محاصرا داخل المعبد حتى هلك من الجوع بداخله! وأرسلت إسبرطة قائدا بديلا من باوزنياس، ولكن الأيونيين رفضوا التعامل مع أي قائد إسبرطي آخر.

هكذا لم يحقق الإسبرطيون هدفهم في السيطرة والقيادة على الأسطول اليوناني في بحر إيجة وعادوا أدراجهم ولم يرسلوا بعد ذلك قادة إسبرطيين خارج حدودهم لفترات طويلة مخافة أن تفسدهم إقامتهم خارج الحدود كما فعلت مع باوزنياس. وفي الوقت ذاته لم يشأ الإسبرطيون تحميل أنفسهم عبء إكمال الحرب ضد الفرس، واعتبروا الأثينيين مؤهلين لذلك تماما، لاسيما أن علاقاتهما كانت لاتزال ودية حتى ذلك الحين. لذلك اضطلعت أثينا بقيادة الأسطول، وفرح الحلفاء لقيام أثينا بهذا الدور نظرا إلى كراهية أثينا للفرس. هكذا صوَّر ثوكيديديس الأمر **(الكتاب الأول - الفقرات 95 - 96)**، ولكن الوضع - في تقديري - أن إسبرطة أذعنت لمتطلبات الأمر الواقع الذي يرفض قيادتها العسكرية الجافة التي تصل - أحيانا - إلى حد الصلف، ولم تشأ أن تفقد - صراحة - مزيدا من الحلفاء فقدانا مطلقا لاسيما أثينا، وإن بدأت نيران الغيرة من شعبيتها بين الإغريق تتأجج. ولعل ما يؤكد ذلك الطرح أن هيئة الإيفورية - التي حكمت بإعدام القائد الإسبرطي باوزنياس - هي نفسها التي زعمت أن ثمستوكليس الأثيني كان - هو أيضا - يتآمر مع الفرس، ووافق الأثينيون على العثور عليه وقتله! خصوصا أن مناورات ثمستوكليس وخطاباته الدبلوماسية السرية للإيقاع بالفرس في العام 480 ق.م. اتخذت دليلا ضده ... وأمام هذا الوضع الشائك والمأزق الرهيب الذي وجد ثمستوكليس نفسه فيه حين أصبح بين شقي الرحى - أثينا وإسبرطة - لم يجد بدا من اللجوء إلى أعدائه القدامى الفرس - بعد ترحال طويل ونفي سياسي إلى أرجوس بعد بضع سنوات من الحرب وإدانته بإيعاز من إسبرطة حيث مرَّ غربا إلى إبيروس وجزيرة كوركيرا ثم شرقا إلى مقدونيا ثم شمال بحر إيجة إلى آسيا الصغرى - وخلال هذه الفترة صدر ضده حكم غيابي بالإعدام. وقد أكرم الفرس وفادته وعينوه واليا لهم في آسيا الصغرى في ولاية ماجنسيا على نهر الماندر في عهد الملك الفارسي أرتاكسركسيس الأول اعتبارا من العام 465 ق.م. وحتى وفاته!

هكذا أكلت الحرب اليونانية - الفارسية بعض أبطالها! وهكذا أكلت الديموقراطية الأثينية بعض رجالاتها العظام!... وهكذا تشفت إسبرطة وانتقمت من الزعيم الأثيني الذي خدعها وأقام السور حول أثينا ودعّم ميناءها بيرايوس... بل وأوحت إلى الجميع أن الخيانة لم تكن فقط في قادة إسبرطة (باوزنياس)، فها هو زعيم أثيني كبير ثبتت عليه - من وجهة نظرهم - الخيانة مع الفرس وأدين ونُفي وصدر عليه حكم بالإعدام... وارتمى - في نهاية المطاف - في أحضان الأعداء.

نعود الآن إلى الموقف بين أثينا التي رحب الأيونيون بزعامتها للأسطول الذي سيتكفل بحمايتهم وبين تلك المدن اليونانية على ساحل آسيا الصغرى وفي جزر بحر إيجة. عقب انتهاء الحروب الفارسية مباشرة رأى زعماء أثينا البارزون(*) أن الفرصة مواتية لتكوين وقيادة تحالف كبير يضم مدن وجزر بحر إيجة والسواحل المطلة عليه والاستفادة من أسطوله البحري في التصدي لأي عدوان فارسي محتمل من جهة، ولحماية طرق التجارة البحرية الأثينية من جهة أخرى. فقد كانت أثينا تعتمد في ذلك الحين على واردات القمح من مناطق شمال البحر الأسود (في أوكرانيا والقرم حاليا)، وكانت حماية طرق استيراد القمح قضية محورية في أثينا خلال القرن الخامس ق.م. ولما اختمرت الفكرة وتبلورت لدى أثينا وهذه المدن والجزر الحليفة اجتمعت تلك الأطراف في جزيرة ديلوس المقدسة لدى الإغريق وطرح أريستيديس «العادل» خطته في شن الحرب على الفرس والتصدي لمخططاتهم المقبلة. وكان فحوى هذه الخطة أنه نظرا إلى تعذر قيام أي مدينة بمفردها ببناء أسطول كبير وقوي وجب على جميع تلك الأطراف المشاركة في بناء ذلك الأسطول المشترك. واقترح أن تشارك المدن الكبرى في هذا التحالف المزمع - وعلى رأسها أثينا - بسفنها ومحاربيها، وأن تشارك المدن الأصغر بحصص مالية محددة وفق إمكانات كل عضو. وقد اتسمت تلك الخطة بالعدل ومراعاة ظروف كل أطرافها الذين استفادوا جميعا من ذلك الوضع. فالمدن والجزر الصغرى اشترت أمنها وسلامتها بمساهمات مالية بسيطة، والمدن الكبرى دعّمت قوتها البحرية بمزيد من السفن والعتاد. ومن الجدير الإشارة إلى أن الجميع قد ارتضوا أن يضع خطة الحلف المقترح الزعيم الأثيني «أريستيديس» لأنه كان مضرب المثل في العدل والحكمة والبعد عن الهوى [21]. لذلك نزل المجتمعون على رأيه واتفقوا على قيام حلف ديلوس [22]، واتفقوا على أن تتولى أثينا زعامته.

(*) ثمستوكليس، قبل أن تشرع إسبرطة في ملاحقته وتوجيه تهمة الخيانة إليه وهم خصم ثمستوكليس وهو أريستيديس العادل الذي أوعز ثمستوكليس إلى العامة بنفيه سياسيا في العام 482 ق.م. وعاد إلى أثينا في العام 480 بمقتضى العفو العام بمناسبة الحروب الفارسية التي شارك فيها وكيمون ابن ملتياديس، بطل المرحلة القادمة وابن بطل معركة ماراثون ملتياديس.

ولكن من هو الزعيم الأثيني الذي سيتولى مهمات قيادة «حلف ديلوس»؟ لقد بدأت سمعة ثمستوكليس تتعرض - بعد ذلك بقليل - لكثير من اللغط والشائعات والاتهامات بالخيانة لمصلحة الفرس - كما رأينا - حتى انتهى الأمر بنفيه سياسيا بعد سنوات، بل والحكم غيابيا بإعدامه، وما ترتب على ذلك من ارتمائه في أحضان الفرس. أما أريستيديس «العادل» فيبدو أنه كان المخطط الاستراتيجي للحلف والمروِّج لأفكاره وإقناع بقية الأعضاء والحلفاء بجدواه الكبيرة، وهو ما أسفر عن إجماع الأعضاء على زعامة أثينا للحلف. ولكن بعد ذلك تضاءل دور أريستيديس وبرز دور ذلك الشاب «كيمون بن ملتياديس»[23] بوصفه زعيم لحلف ديلوس وقائدا فعليا له. من هو كيمون هذا؟ كيمون هو ابن ملتياديس - بطل معركة ماراثون الشهير - وقد ولد في العام 510 ق.م. من أم من إقليم طراقيا. ويروى أنه قد ورث عن أهل أمه الطراقيين بعضا من صفاتهم الجسمانية والذهنية: إذ كان فارع الطول، أشعث الشعر، بطيء الفهم، متحمسا مندفعا. وقد صعد نجمه في أواخر الحروب الفارسية وبعدها. فقد اختير في العام 478 واحدا من القادة strategoi الأثينيين العشرة - واحد عن كل قبيلة - ثم تقلد ذلك المنصب كثيرا بعد ذلك. وقد أدى كيمون دورا كبيرا في مساعدة أريستيديس على كسب ولاء الإغريق في آسيا الصغرى والجزر لمصلحة أثينا أكثر من إسبرطة. وفي الفترة من العام 476 حتى 463 ق.م. تولى كيمون قيادة كل عمليات حلف ديلوس العسكرية تقريبا. وانصبت خطة كيمون على تعقب وملاحقة الفرس في جميع أنحاء بحر إيجة وطردهم منها والحصول على أكبر قدر ممكن من الغنائم. ولكن لم تكن أي مدينة تنعم بحماية ذلك الأسطول إلا إذا دفعت حصتها في الحلف. وشيئا فشيئا بدأ هذا التحالف يتحول من حلف إلى إمبراطورية أثينية مفروضة على الحلفاء الذين صاروا خاضعين للنفوذ الأثيني ولا يستطيعون التململ أو الانسحاب من «الحلف». ففي العام 467 ق.م. حاولت جزيرة ناكسوس الانسحاب من الحلف ولكن كيمون أجبرها على التراجع والاستمرار على الوفاء بنصيبها وحصتها في الحلف بالقوة... وكانت هذه أول سابقة على تحول أعضاء الحلف من شركاء إلى أتباع. وتوالت بعد ذلك محاولات من بعض الأعضاء للانسلاخ من الحلف ولكن هيهات ... إذ كان البعض يفشلون في دفع كامل حصتهم المالية في الحلف أو تزويد الحلف بالعدد المنصوص عليه من السفن أو رفض المشاركة بأي سفن على الإطلاق، في حين كانت أثينا تصر على تنفيذ تلك الالتزامات بكل دقة وتستخدم جميع أساليب الضغط والوعيد. كما كانت تمارس المهمات القتالية بنفسها مع عزوف من أغلب الأعضاء عن ذلك والاكتفاء بدفع حصصهم المالية لأثينا لتقوية الأسطول. كل ذلك زاد من قوة أثينا وجبروتها مع بقية أعضاء الحلف، ومكّنها من إخضاع المتمردين منهم بسهولة. (**ثوكيديديس - الكتاب الأول / 98 - 99**).

متغير آخر دخل على الحلف - بمرور الوقت - وحوّله إلى إمبراطورية أثينية كبرى، وتمثل هذا المتغير في نقل خزانة الحلف من جزيرة ديلوس المقدسة (مقر اجتماعات الحلف) في بحر

إيجة إلى أثينا في العام 454 ق.م. بعد فشل الحملة البحرية الكبرى التي أرسلها الحلف إلى دلتا مصر لمساعدة المصريين في ثورتهم الثانية ضد الفرس، فشلا ذريعا. فكما أسلفنا كانت المدن والجزر الكبرى الأعضاء في الحلف - مثل خيوس وساموس وليسبوس وثاسوس - تساهم بأعداد من السفن سنويا، في حين كانت أغلبية أعضاء الحلف (البالغ عددهم نحو 200 مدينة وجزيرة) تقدم حصصا ومساهمات مالية بلغت نحو 460 تالنت من الفضة سنويا في التقدير الأولي الذي وضعه أريستيديس لميزانية الحلف عند نشأته. وكان مقر خزانة الحلف في جزيرة ديلوس، وكان «المشرفون على خزانة الحلف» hellenotamiae عشرة من الأثينيين. وحين نُقلت خزانة الحلف من ديلوس إلى أثينا في العام 454 ق.م. كانت المدن الكبرى في الحلف - التي كانت تقدم سفنا إلى الحلف - قد تحولت إلى دفع مساهمات مالية، وبالتالي ازدادت ميزانية الحلف زيادة كبيرة وأصبحت تحت التصرف الكامل لأثينا! وبذلك أصبح تحت تصرف أثينا أسطول بحري حربي كبير تخضع به من يخرج على إرادتها، وثروة طائلة من أموال الحلف باتت تنفق على ازدهار أثينا ورفاهيتها الكبيرة التي بلغت أقصى مداها - في جميع الميادين - آنذاك. وكانت مساهمات أعضاء الحلف تصل إلى أثينا في ربيع كل عام مع احتفالات الديونيسيا الكبرى (نسبة إلى الإله ديونيسوس رب الخمر والإخصاب عند الإغريق).

الخلاصة أن الحلف تحول فعليا إلى تحالف يخضع للسيطرة الكاملة من جانب أثينا (إذ فرضت أثينا على جميع أعضاء الحلف - في إحدى المراحل - أن يستخدموا العملة الأثينية والمكاييل والموازين الأثينية، وأن يُفصل في قضاياهم المهمة في المحاكم الأثينية)، وهو تحول أضفى على أثينا قوة وهيبة وسلطانا وأنعش خزانتها بصورة هائلة وجعلها تعيش أزهى فتراتها - ربما في تاريخها القديم بأكمله!

أما عن منجزات حلف ديلوس تحت قيادة كيمون - التي أعطته مبررات وجوده وشرعية استمراره - فقد تمثلت في عدة منجزات بارزة. ففي بادئ الأمر تم تعقب وطرد الحاميات الفارسية من طراقيا والخرسونيس في شمال بحر إيجة بقوة واقتدار، وبُسطت السيطرة اليونانية على سواحل آسيا الصغرى الغربية والجنوبية. وفي العام 475 ق.م. غزا كيمون جزيرة سكيروس في بحر إيجة وطرد منها القراصنة وأقام بها مستوطنة وأعاد منها إلى أثينا رفات البطل الأثيني الأسطوري ثيسيوس التي كان يعتقد أنها مدفونة هناك. ولكن أبرز منجزات كيمون خلال قيادته لقوات الحلف هو انتصاره الساحق برا وبحرا - على القوات الفارسية عند مصب نهر يوريميدون - جنوب آسيا الصغرى في منطقة بامفيليا على الساحل الجنوبي الأوسط - وهو انتصار أبعد شبح النفوذ الفارسي من بحر إيجة والساحل الغربي لآسيا الصغرى، بل والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى لمسافة كبيرة نحو الشرق... ذلك النصر الكبير حدث في العام 466 ق.م.

ومن جهة أخرى أعاد كيمون بعض الأعضاء المارقين الذين حاولوا الخروج من الحلف إلى حظيرة الطاعة للحلف (أو بالأحرى لأثينا) مثل جزيرة ناكسوس العام 467 ق.م. كما أسلفنا. وبعد انتصار يوريميدون الكبير في العام 466 ق.م. تمردت على أثينا وعلى الحلف في العام 465 ق.م. جزيرة ثاسوس الغنية شمال بحر إيجة بسبب نزاع بينها وبين أثينا على الأسواق والمناجم. وكان رد فعل أثينا على ذلك التمرد هو أن أرسلت الأسطول ليضرب حصارا حول ثاسوس، وهو حصار استمر لمدة عامين وانتهى بإخضاع الجزيرة المتمردة. وقد استفز حصار أثينا لثاسوس إسبرطة لدرجة أنها قررت غزو أتيكا لكي تجبر أثينا على رفع حصارها عن ثاسوس، وكادت إسبرطة تنفذ ذلك لولا أن زلزالا قويا ضربها بعد ذلك التصويت مباشرة وقتل كثيرين من الإسبرطيين ... وعلى الرغم من ذلك فقد كان كيمون من فئة السياسيين الأثينيين الأرستقراطيين ذوي الميول الإسبرطية ويؤمنون بضرورة التعاون مع إسبرطة، وتعاطف معها في ذلك الموقف بصورة مهينة لكبرياء أثينا كان من نتيجتها نفيه سياسيا في العام 461 ق.م.! كما سنرى بعد قليل.

أثينا في ظل زعامة بيريكليس(24)

سيطر على المشهد السياسي الأثيني خلال عقدي السبعينيات ومعظم الستينيات من القرن الخامس ق.م. رجال ينتمون إلى عائلات أرستقراطية ذات تفكير محافظ - بعد تشويه سمعة ثمستوكليس الديموقراطي ونفيه - وكان أبرزهم أريستيديس العادل وكيمون بن ملتياديس. بعد عودة كيمون إلى أثينا بعد إخضاع ثاسوس وإعادتها لحظيرة الطاعة الأثينية لاحقه بيريكليس وغيره من أنصار الديموقراطية بدعوى قضائية لإخفاقه في اتخاذ إجراءات أكثر صرامة أثناء حصاره لثاسوس ولكن تمت تبرئة ساحته من ذلك الاتهام. ومن الغريب أن كيمون أقنع الأثينيين في العام التالي 462 ق.م. بالسماح له بالذهاب إلى إسبرطة على رأس جيش لمساعدة الإسبرطيين في قمع تمرد العبيد الإسبرطيين (الهيلوطيين) وسكان المناطق المحيطة Perioikoi من المقيمين الأجانب الأحرار غير المواطنين الذين ثاروا على سادتهم من المواطنين الإسبرطيين بعد زلزال العام 464 ق.م. ولكن حين وصل كيمون بجيشه لمعاونتهم أبدى الإسبرطيون تشككهم وعدم ثقتهم بنوايا الأثينيين ودوافعهم وصرفوا كيمون وجيشه من حيث أتى... في صفعة بالغة الإهانة لكبرياء الأثينيين! ولذلك حكم الأثينيون على كيمون بالنفي السياسي لمدة عشرة أعوام العام 461 ق.م.

بعد اختفاء كيمون من الساحة السياسية الأثينية وانحسار دور أريستيديس «العادل» كانت رياح التغيير قد باتت مواتية لأنصار التيار الديموقراطي في أثينا، وكانت ارهاصات تلك الرياح قد بدأت إثر عودة كيمون من حصار ثاسوس العام 463 ق.م. كما رأينا. وكان من أبرز رجالات التيار الديموقراطي الذين بدأ نجمهم في الصعود آنذاك إفيالتيس وشاب يُدعى بيريكليس -

ابن كسانثيبوس الذي تسبب ثمستوكليس في نفيه سياسيا العام 484 ق.م. وقد أدرك هؤلاء السياسيون الديموقراطيون أن كيمون - بعد عودته من ثاسوس وبعد فضيحة طرده من إسبرطة هو وجيشه الأثيني - قد فقد بوصلة التواصل مع المزاج الأثيني العام، لذلك سهل عليهم نفيه وطرح أفكارهم المنادية بمزيد من الديموقراطية على جموع الأثينيين. ففي العام 461 نفسه استطاع إفيالتيس إقناع الجمعية الشعبية بنقل سلطات وصلاحيات جوهرية ومؤثرة كان لايزال يتمتع بها مجلس الأريوباجوس إلى الجمعية الشعبية. ولما كان مجلس الأريوباجوس يضم صفوة الأرستقراطية من الأراخنة السابقين الذين كانت عضويتهم فيه مدى الحياة فقد كان ذلك الإجراء صفعة قوية لسلطات الأرستقراطيين المحافظين وانتصارا آخر وتوسيعا للديموقراطية، وهو ما جلب على إفيالتيس نقمة أنصار كيمون - الذي كان قد ذهب للمنفى - وأدى إلى اغتياله بعد ذلك بقليل! وربما كان لهذا العنف وإراقة دماء إفيالتيس من جانب أنصار الحزب الأرستقراطي ما يبرره - من وجهة نظرهم - لأنه حوَّل هذه القلعة الأرستقراطية المهيبة - على الرغم من فقدانها بعض صلاحياتها في إصلاحات سولون ثم كليسثنيس - إلى مجرد هيئة شرفية ليس لها أي دخل بالسياسة بل مجرد محكمة جنائية لجرائم القتل وهيئة لإدارك الملاك المقدسة للمعابد!

في هذا الجو المتوتر برزت زعامة شابة قوية تتمثل في الزعيم الديموقراطي الشاب بيريكليس، لقد استطاع بيريكليس الإمساك بزمام الأمور بقوة على مدى ما يزيد على ثلاثين عاما منذ العام 460 ق.م. حتى وفاته العام 429 ق.م. واكتسب حظوة كبيرة لدى مواطنيه الأثينيين وعمَّق الديموقراطية الأثينية مفهوما وشعارا وممارسة. ويكفي للتدليل على تمسك الأثينيين به كزعيم مُلهم أنهم كثيرا ما كانوا ينتخبونه قائدا strategos لقبيلته ولبقية قادة القبائل الأثينية طوال تلك الفترة. وإذا كان كيمون قد بدأ سياسة إخضاع أعضاء حلف ديلوس بالقوة ومنع تمردهم على الحلف (وعلى أثينا) فإن بيريكليس هو الذي جعل من هذا الحلف إمبراطورية تدين لأثينا بالولاء المطلق وتأتمر بأوامرها وتندمج فيها اندماج الأطراف بالقلب. ففي عهده كانت مدن الحلف بمنزلة ولايات أثينية تتمتع بحكم ذاتي محكوم بضوابط أثينية وتدفع نصابها المالي في الحلف - الذي انتقلت خزائنه إلى أثينا - مقابل ضمان أمنها وسلامتها من خلال أسطول الحلف (أسطول أثينا). وفي حالة تمرد أي من أعضاء الحلف على هذا الوضع كانت أثينا تسارع بقمع أشكال التمرد بعنف وردع مثلما حدث مع ساموس العامين 440 - 439 ق.م. وكانت تضطلع بنفسها بالإدارة القانونية والمالية لتلك المناطق وترسل إليها الحاميات والموظفين وتصادر أراضيها لمصلحة الأثينيين. لقد أنعشت أموال الحلف التي تدفقت على أثينا كالسيل الاقتصاد الأثيني فازدهرت كل أوجه الحياة في أثينا كما أسلفنا.

هذا عن حلف ديلوس، ولكن ماذا عن سياسة أثينا تجاه إسبرطة خلال فترة حكم بيريكليس؟ لقد دلت الشواهد التي رأيناها عن مواقف إسبرطة - بعد النهاية المظفرة للحروب الفارسية لمصلحة الإغريق - كم كانت تتوق لتولي سُدة الزعامة على الإغريق جميعا، وكم حاولت تحقيق ذلك بسبل شتى. لكنها أخفقت في ذلك وجرت الرياح بما تشتهي السفن الأثينية! وهو ما ولّد مرارة في حلق الإسبرطيين تجاه أثينا وشكوكا في نواياها، وهي مشاعر حاولت أن تخفيها بقناع من الدبلوماسية النسبية، ولكنها تفجرت في الأزمة الأخيرة التي تسببت في نفي الأثينيين لكيمون العام 461 ق.م.

كان القادة الديموقراطيون الجدد في أثينا يدركون - حتى قبل نفي كيمون - أن إسبرطة خصم منافس لأثينا ولا تضمر لها إلا الشر، في حين كان كيمون يرى - بعاطفية وربما بسذاجة سياسية - أن إسبرطة هي الساعد الأيمن لأثينا وينبغي الوقوف معها وقت الشدائد. هذه المواقف المتباينة بين التيارين السياسيّين الأثينيّين - الديموقراطي والأرستقراطي - تجلت بوضوح العام 464 ق.م. عقب الزلزال الذي ضرب إسبرطة وطلب الإسبرطيون مد يد العون لهم في محنتهم. ويسجل بلوتارخوس تلك المواقف على النحو الآتي:

«اعترض إفيالتيس على الطلب وحث الأثينيين على ألا يُقدموا على إنقاذ أو إصلاح مدينة كانت خصما ومنافسا لهم وإنما عليهم أن يدعوا كبرياء إسبرطة تدوسه الأقدام. أما كيمون فقد قدَّم مصالح إسبرطة على عظمة بلاده ونموها وأقنع الأثينيين بإرسال قوة كبيرة من المشاة الثقيلة لمساعدتها. ويسجل إيون (مؤرخ معاصر للحدث من جزيرة خيوس) العبارة الفعلية التي استخدمها كيمون والتي كان لها أكبر الأثر في استمالة الشعب (لموقفه) إذ توسل إلى الناس «ألا يسمحوا أن تسير بلاد اليونان عرجاء كسيحة أو أن تُحرم مدينتهم (أثينا) من رفيق الدرب»».

(سيرة كيمون - فقرة رقم 16)

ولكن ها هي الأحداث تثبت صواب وجهة نظر إفيالتيس وخطأ وسذاجة كيمون الذي دفع الثمن غاليا ولقي جزاء سنمار! ولكن على الرغم من ذلك لم يكن في وسع أثينا أن تجابه إسبرطة في ميدان معركة برية أو تحرز عليها انتصارا. ولذلك عوَّلت أثينا على اكتساب حلفاء جدد في بلاد اليونان ذاتها (بعيدا عن إمبراطورية حلف ديلوس البحرية) وذلك لكي تحد من نفوذ وفعالية حلف البيلوبونيز الذي تتزعمه إسبرطة، وبذلك تقلص من نفوذ الأخيرة. وكان تركيز أثينا ينصب على تطويق أهم حلفاء إسبرطة في شبه جزيرة البيلوبونيز وفي حلف البيلوبونيز وهي مدينة كورنثة. وقد أدت سياسة أثينا في هذا الصدد إلى قيام تحالف بري - طوعا أو كرها - بينها وبين بعض المدن والجزر المجاورة. فبحلول العام 457 ق.م. انضمت كل من أرجوس (إلى الجنوب من كورنثة) وميجارا (شمال كورنثة) طوعا إلى أثينا، كما اضطرت جزيرة إيجينة ومدن بؤوتيا - إلى الشمال الغربي من أتيكا - إلى الخضوع لأثينا؛ بذلك ضاق

الخناق على كورنثة واستحكمت العقدة. ولكن كورنثة لم تستسلم لهذا الحصار الأثيني المضروب حولها من كل جانب، فانتهزت فرصة انهماك الجيوش الأثينية في القيام بمهمات قتالية خارج الوطن في شرق البحر المتوسط وأغارت على إقليم أتيكا. وفي هذه المناسبة أثبت أهل أثينا مدى استعدادهم للتضحية من أجل وطنهم: إذ خرج رجال أثينا - شيبا وشبانا صغارا - وهبّوا للدفاع عن وطنهم وألحقوا بالكورنثيين هزيمة مهينة مُذلة. (**ثوكيديديس - الكتاب الأول / 105 - 106**).

وعلى الرغم من كل هذه النجاحات التي حققتها أثينا في مجال السياسة الخارجية فإنه يبدو أن نشوة الانتصارات قد أسكرتها إلى حد ما وجعلتها تفتح على نفسها جبهات عديدة جلبت عليها بعض الانتكاسات والانكسارات النسبية. ففي سعي أثينا الدؤوب لتعقب وملاحقة الفرس أينما سنحت الفرصة استغلت اندلاع ثورة ضد الفرس في مصر اعتبارا من العام 460 ق.م. وأرسلت أثينا نحو مائتي سفينة لمساعدة الثورة المصرية ونجحوا في ذلك أول الأمر. لكن أمد الحرب والثورة على الفرس امتد وطال لمدة ست سنوات تمكن الفرس في نهايتها من إخماد الثورة وألحقوا هزيمة قاسية بالأسطول الأثيني (دمروا معظمه، بل إنهم دمروا كذلك القوة الإضافية المكونة من خمسين سفينة التي أرسلها الأثينيون لتدعيم الأسطول من دون أن يعلموا بمصيره) (**ثوكيديديس - الكتاب الأول / 109 - 110**) كل ذلك تم العام 454 ق.م. وترتب عليه نقل خزائن حلف ديلوس من جزيرة ديلوس المقدسة إلى أثينا مخافة أن يستغل الفرس الضعف الذي حل بالأسطول الأثيني نتيجة لتلك الكارثة ويستولوا على خزائن الحلف من ديلوس. وبعد تلك الهزيمة بثلاث سنوات عاد كيمون من منفاه السياسي العام 451 وتوجه مباشرة لمحاربة الفرس في جزيرة قبرص من أجل استعادتها منهم، وانتصر عليهم لكنه لقي حتفه هناك. كما أن كيمون - قبل وفاته - أبرم هدنة بين أثينا وإسبرطة لمدة خمس سنوات (451 - 446). هذه الأحداث العام 451 خففت نسبيا من وقع هزيمة الأسطول الأثيني وتدميره على يد الفرس في مصر، ووضعت نهاية فعلية (هي وصلح كالياس[25] - صهر كيمون - الذي أبرمه بين أثينا والفرس بعد عام من وفاة كيمون أي العام (450 أو 449) للصراع الأثيني - الفارسي حتى العام 413 ق.م. كما أن الهدنة مع إسبرطة خففت كذلك - إلى حد ما - من توتر الحرب الباردة بين الطرفين التي نشبت بين الطرفين وأنصارهما عقب تولي بيريكليس زمام الأمور في أثينا وبناء الأسوار الكبرى التي تربط أثينا بميناءي أتيكا فاليرون وبيرايوس.

ولكن أثينا تعرضت لبعض الهزات الأخرى في علاقاتها بالمدن اليونانية المجاورة التي سبق لها أن فرضت سيطرتها عليها. فقد تمردت عليها مدن بؤوتيا إلى الشمال العام 447 ق.م. وانتصرت عليها في موقعة كورونيا، وبذلك تخلصت بؤوتيا من الهيمنة الأثينية التي دامت عشر سنوات تقريبا. وفي العام 446 تمردت عليها جزيرة يوبويا المجاورة وذات الأهمية

الحيوية للاتصالات الأثينية الخارجية وأحد المصادر الرئيسية لإمداد أثينا بالحبوب، وفي الوقت نفسه هاجمت ميجارا أثينا واستعدت إسبرطة لغزوها. وهنا تحرك الزعيم بيريكليس بسرعة لمواجهة الموقف وغزا يوبويا مرة أخرى قبل أن تتدخل إسبرطة، وفي أواخر ذلك العام 446 تفاوض بيريكليس على عقد صلح مع إسبرطة أطلق عليه «صلح الأعوام الثلاثين»[26]. وبمقتضى ذلك الاتفاق تنازلت أثينا عن توسعاتها السابقة في بلاد اليونان الأصلية في البر وكأنما هي تعترف لإسبرطة - ضمنا - بأنها القوة الكبرى داخل بلاد اليونان، وفي ذات الوقت ضمنت هذه الاتفاقية استمرار نفوذ أثينا وهيمنتها على إمبراطوريتها البحرية من خلال حلف ديلوس. وبناء على ذلك فإنه حين تمردت إحدى جزر الحلف - جزيرة ساموس العضو المؤثر في الحلف - وحاولت الانشقاق عن الحلف العام 440 ذهب الزعيم بيريكليس بنفسه لإخضاعها واستغرق منه هذا الأمر ثمانية أشهر كاملة بين العامين 440 و 439 اضطرت الجزيرة بعدها إلى الاستسلام وهدم أسوارها وتقديم رهائن وتسليم سفنها لأثينا ودفع تعويض لأثينا - على دفعات - عن المبالغ التي أنفقتها على الحصار. (**ثوكيديديس - الكتاب الأول / 116 - 117**).

ومما يُذكر لبيريكليس كذلك بصدد السياسة الخارجية أنه كان قد قدَّم اقتراحا بعقد مؤتمر يضم كافة الإغريق في أوائل الأربعينيات من القرن الخامس ق.م.، ولكن هذا الاقتراح لم يسفر عن شيء ملموس بسبب معارضة إسبرطة. وربما كانت تلك محاولة من جانب بيريكليس لتحويل حلف ديلوس إلى جامعة يونانية تضم الإغريق كافة تحت زعامة أثينا بعد أن انتهى دور حلف ديلوس فيما يخص الحرب على الفرس. كما مارس بيريكليس دورا رائدا في نشر مستوطنات أثينية خارج حدود بلاد اليونان أو على تخومها البعيدة ومن أبرزها مستوطنة «ثوري» في جنوب إيطاليا التي أُسست في العام 443 ومستوطنة أمفيبوليس في جنوب طراقيا على نهر ستريمون العام 437، وبذلك نشر النفوذ الأثيني في أصقاع بعيدة وجعل لأثينا دورا في الاستيطان الخارجي لم تمارسه من قبل.

هذا ما كان من أمر السياسة الخارجية الأثينية خلال الخمسينية الذهبية ومن بينها سنوات حكم الزعيم بيريكليس. ولكن ماذا عن أوضاع أثينا الداخلية في ظل حكم بيريكليس؟

أشرنا إلى النهضة الأثينية الكبرى في مجالات العمارة والفن والأدب والفكر وكافة مجالات الحياة الاجتماعية في الفترة ما بين نهاية الحروب الفارسية وبداية الحروب البيلوبونيزية - وهي جوانب ليس مجالها هذا البحث - ومن المؤكد أن تلك النهضة قد استفادت كثيرا من أموال وخزائن حلف ديلوس. لكننا الآن بصدد الحديث عن الدفعة والزخم الذي أعطاه بيريكليس لمسيرة الديموقراطية الأثينية والحقوق السياسية الداخلية لمواطني أثينا. لكي يشجع بيريكليس مواطني أثينا - لاسيما الفقراء منهم - على ممارسة حقوقهم السياسية وتفعيل دورهم أمر

بصرف مكافآت رمزية لهم عن حضورهم جلسات المحاكم كمحلفين. وفي العام 451 أوعز بيريكليس إلى الجمعية الشعبية (الإكليزيا) إصدار قانون يقصر المواطنة الأثينية على من ولد لأبوين من مواطني أثينا من دون غيرهم. هذه الأمور - فضلا عن سحر الزعامة الذي تمتع به بيريكليس - عمقت انتماء الأثينيين لوطنهم وإدراكهم لقيمة هويتهم واستعدادهم للتضحية بكل غال من أجله - كما رأينا في انتصار المواطنين الأثينيين العزَّل على القوات الكورنثية التي هاجمت أتيكا مستغلة غياب الجيوش الأثينية التي كانت تحارب في مصر ضد الفرس وكذلك كان بعضها يحاصر إيجينة، وكان انتصارا رائعا بحق لمواطني أثينا ومخزيا ومهينا للكورنثيين.

ومن الجدير بالإشارة والتنويه أن روح المواطنة الفعالة الإيجابية التي شهدها عصر بيريكليس لم تكن نتيجة فقط للنظام الديموقراطي الذي تبلور بصورة تراكمية منذ وضع كليسثيس ركائزه الأساسية العام 507 ق.م.، بل استلهمت كذلك قبسا كبيرا من روح بيريكليس الزعيم الوطني المخلص الغيور الذي أبدى ثوكيديدكيس - المؤرخ الحصيف الموضوعي - إعجابا جما بشخصيته وقيادته. لقد كان بيريكليس زعامة قوية منزهة عن الهوى والإفساد، وقورة متحفظة في الأقوال والسلوك. وكان دائم الاختلاط بأهل الفكر والثقافة من معاصريه من أمثال فيدياس وأناكساجوراس وسوفوكليس وهيرودوت. ومما يروى عن نزاهته ويؤكد مدى شعبيته الجارفة في آن واحد أن إحدى زعامات الحزب الأرستقراطي في أثينا ويُدعى ثوكيديديس بن ميليسياس - وهو من أقارب أو أصهار كيمون ووريثه في زعامة الحزب الأرستقراطي والعدو اللدود لبيريكليس - قد هاجم بيريكليس لإنفاقه أموال حلف ديلوس ومخصصاته المالية على أعمال البناء والعمارة في أثينا. ونتيجة لذلك الهجوم على بيريكليس أصدر الأثينيون في الجمعية الشعبية قرارا بنفيه نفيا سياسيا العام 443 ق.م.

لعل خير ختام لهذا الجزء من المقال هو أن نورد شهادة المؤرخ الأثيني الأشهر ثوكيديديس حول شخصية وزعامة بيريكليس:

«لقد قال بيريكليس إن أثينا سوف تنتصر (في الحروب البيلوبونيزية) إذا ما انتظرت الفرصة الملائمة واعتنت بقوتها البحرية، وإذا ما تجنبت محاولة توسيع إمبراطوريتها وهي في حالة الحرب، وإذا لم تغامر بعمل يعرِّض المدينة للخطر...

إن بيريكليس - من منطلق وضعه وذكائه واستقامته المشهودة - كان يحترم حرية الشعب ويستطيع السيطرة عليه في آن واحد. لقد كان هو الذي يقود الشعب وليس العكس، ونظرا إلى أنه لم يكن يسعى مطلقا إلى السلطة من أجل أي دافع منحرف فإنه لم يكن في حاجة إلى تملق الناس؛ لقد كان يحظى - في واقع الأمر - باحترام بالغ حتى أنه كان في وسعه أن يحدثهم مغاضبا وأن يعارضهم الرأي. وفي الحقيقة فإنه حين كان يستشعر أنهم قد أفرطوا في الثقة بالنفس كان يعيدهم إلى دائرة الإحساس بالمخاطر المحدقة بهم، وحين كان يرى أنهم

محبطون متخاذلون من دون سبب مقبول كان يبث فيهم الثقة بأنفسهم. وهكذا فإن السلطة كانت - في هذا الجو من الديموقراطية الإسمية - في أيدي المواطن الأول في واقع الأمر»!

(ثوكيديديس - الكتاب الثاني - فقرة 65)

والخلاصة أن بيريكليس - سواء كان يدري أو لا يدري - اختزل الديموقراطية الأثينية في شخصه وفي سحر زعامته التي أسرت قلوب وعقول الأثينيين، ولم يستطع أي زعيم أثيني آخر أن يطاوله أو يدانيه في هذه الزعامة - لا من قبله ولا من بعده.

5 - الحروب البيلوبونيزية (27) بين أثينا وإسبرطة (431 - 404 ق.م.) (انكسار أثينا):

رأينا على مدى العرض السابق ذلك التنافس المحموم بين أثينا وإسبرطة (28) على زعامة بلاد اليونان على مدى فترة طويلة بعد انتهاء الحروب الفارسية. كما رأينا أن أثينا حققت إنجازات كثيرة وعاشت مرحلة من الازدهار والتوسع - على الرغم من عراقيل إسبرطة في هذا الصدد وعلى الرغم من بعض الانتكاسات الطفيفة لمسيرة أثينا الموفقة. كل ذلك تجلى في مواقف وردود أفعال انتقامية ضد البعض من زعماء أثينا كما حدث في الكيد لثمستوكليس الذي غرر بهم في مواقف عدة، وفي مواقف محبطة وخاذلة حتى لمن تعاطف معهم من زعماء أثينا مثل كيمون كما رأينا. وحين وصل بيريكليس إلى سُدة الزعامة ومثَّل التيار الديموقراطي القوي المعارض - صراحة - لسياسات إسبرطة والمتشكك في نواياها كشفت إسبرطة - بدورها - عن مكنونات نواياها ضد أثينا وبدأت تتحرك فعليا لإحباط توسعات وطموحات أثينا في بلاد اليونان. إن الفترة الأولى من حكم الزعيم بيريكليس قد شهدت تلك التحركات الإسبرطية المناوئة لأثينا حتى أن تلك الفترة (460 - 446 ق.م.) يُطلق عليها - تجاوزا - «الحرب البيلوبونيزية الأولى» أو «الحرب الباردة» بين المدينتين الزعيمتين، والتي كادت تتحول إلى حرب ساخنة لولا أن تمكن كيمون - بعد عودته من المنفى - من إبرام صلح بين الطرفين العام 451 لمدة خمسة أعوام. وحين أوشكت مدة هذا الصلح على الانتهاء في العام 446 ق.م. كادت إسبرطة تتحين الفرصة للانقضاض على أثينا حين ألمت بها كبوة تمرد مدن بؤوتيا ثم جزيرة يوبويا عليها في العامين 447 و446 ق.م. ولكن هزيمة أثينا في موقعة كورونيا في العام 447وتخليها - نتيجة لذلك - عن سيادتها على إقليم بؤوتيا من جهة، ثم تدخل بيريكليس في الوقت المناسب في العام 446 لإبرام صلح الأعوام الثلاثين بين أثينا وإسبرطة في حال دون اندلاع الحرب بين المدينتين، أو بالأحرى أجلها إلى حين. إن هذا الصلح قد حقق غرضا مزدوجا: إذ أرضى غرور إسبرطة وأعاد إليها مركزها القديم في زعامة بلاد اليونان الأصلية (على اليابسة)، بعد انسحاب أثينا من بعض مناطق نفوذها، كما أنه أطلق يد أثينا في إمبراطوريتها التي تكونت بعد الحروب الفارسية، حلف ديلوس.

ولكن على الرغم من ذلك تبقى نيران الغيرة والتطلع إلى الزعامة (المطلقة) للإغريق كامنة في نفوس الإسبرطيين تتحين الفرصة المناسبة للانطلاق وتحقيق الهدف. وهكذا ظلت النار كامنة تحت الرماد بين الطرفين - ولاسيما الطرف الإسبرطي - تنتظر «الذريعة» الملائمة للاندلاع! وها هي قد انهالت الذرائع التي أتاحت لإسبرطة تحقيق بغيتها، وكان ذلك في الفترة ما بين 433 و431 ق.م.

ففي العام 433 ق.م. حدث خلاف بين مدينة كورنثة وإحدى مستوطناتها القديمة في شمال غرب بلاد اليونان، وهي جزيرة كوركيرا (كورفو الحالية) قبالة ساحل إيبيروس غرب اليونان. وكان سبب هذا الخلاف هو أن مدينة إيبيدامنوس - وهي مستوطنة أقامتها كوركيرا بدورها على الساحل الألباني حاليا - تمردت على المدينة الأم كوركيرا العام 435 ق.م. وأمام هذا الموقف طلبت كوركيرا العون من مدينتها الأم كورنثة في القضاء على تمرد إيبيدامنوس، وحتى العام 433 ق.م. لم تصل أي معونات من كورنثة إلى كوركيرا، ما اضطر الأخيرة إلى طلب العون من أثينا التي استجابت لنجدة كوركيرا، هذا الموقف أدى إلى اندلاع اشتباك بين السفن الأثينية التي أرسلت لمساعدة كوركيرا وبين السفن التي أرسلتها كورنثة لمساعدة إيبيدامنوس - نكاية في كوركيرا التي تخطتها وطلبت عون أثينا - ولكن المعركة لم تكن حاسمة لمصلحة أي من الطرفين، بل كانت إيذانا ببدء الحرب بين الطرفين. وما زاد من تدهور الموقف بين الطرفين (أثينا وكورنثة) أن مدينة بوتيديا (وهي أيضا مستوطنة كورنثية قديمة في شمال بحر إيجة وأصبحت أحد أعضاء حلف ديلوس بزعامة أثينا) قد تمردت على أثينا في العام 432 ق.م. فحاصرتها أثينا واحتجزت بعض الزائرين الكورنثيين بداخلها، كما أن أثينا بدأت تنتهك استقلالية جزيرة إيجينة. واختلفت كذلك مع ميجارا على حدودهما المشتركة فأقنع بيريكليس الجمعية الشعبية بإصدار قرار يفرض الحظر على الميجاريين ويمنعهم من دخول جميع الموانئ التي تسيطر عليها أثينا. ونظرا إلى كثرة سكانها وقلة مواردها واعتمادها على التجارة في جلب غذائها تعرضت ميجارا لمجاعة كبيرة تندر بها الأثينيون! وآلت إسبرطة على نفسها ألا تدع ميجارا في هذا الوضع المذري وألا تقع تحت سيطرة أثينا.

كل هذه الأحداث المتلاحقة كانت ذرائع ملائمة لإسبرطة للتحرش بأثينا وشن الحرب عليها. لذلك طلبت إسبرطة من أثينا - بصفة أساسية وبصورة واضحة لا لبس فيها - أن تلغي الحظر الذي فرضته على ميجارا وما سُمِّي «مرسوم ميجارا» إن كانت تريد تجنب الحرب مع إسبرطة. كما طلبت منها رفع الحصار عن بوتيديا وأن تنفي عائلة آل الكمايون التي حلت بها اللعنة منذ واقعة كيلون قبل نحو قرنين - ومنها بيريكليس الذي يتحدر منها - من أثينا! ولما لم تستجب أثينا لمطالب وشروط إسبرطة ... اندلعت الحروب البيلوبونيزية في العام 431 ق.م.

وأبرز وأهم مصدر نستقي منه معلوماتنا عن تلك الحرب الضروس هو المؤرخ الأثيني الأشهر ثوكيديديس [29] رائد الموضوعية العلمية في كتابة التاريخ، ليس في أثينا وبلاد اليونان فقط، بل ربما في العالم القديم قاطبة! وسأعطي نبذة مختصرة جدا عن المؤلِّف وعن أهمية موضوعه في تاريخ بلاد اليونان والعالم القديم، كما رآها هو. أما عن المؤرخ ثوكيديديس فيكتسب أهميته الكبرى بوصفه مصدرا لموضوعنا من كونه قد عاصر الحروب البيلوبونيزية وشاهدها، بل شارك فيها كأحد القادة الأثينيين، فنحن إذن أمام شاهد معاصر، بل ومشارك في هذا الحدث التاريخي. كل هذا يتيح لنا فرصة ذهبية للاقتراب من حقيقة الأحداث، لاسيما أن موضوعية ثوكيديديس ومنهجيته الصارمة في كتابة التاريخ لايكاد يختلف عليهما اثنان. وأكبر دليل على ذلك أنه تحدث عن واقعة إخفاقه في إنقاذ مدينة أمفيبوليس - شمال شرق بلاد اليونان في إقليم طراقيا والتي كانت من أنصار أثينا ومستوطنة لها منذ العام 437 ق.م. - من هجوم القائد الإسبرطي براسيداس في العام 424 ق.م. بمنتهى الحيدة والموضوعية. وبرغم أن ذلك الإخفاق قد تسبب في نفيه عن أثينا مدة عشرين عاما حتى انتهاء الحرب فإن ذلك لم يترك في نفسه مرارة ولا حنقا، بل تحدث عن مسؤوليته في سقوط أمفيبوليس بحيادية تامة وبضمير الغائب لا المتكلم. (**ثوكيديديس - الكتاب الرابع - الفقرة رقم 106**). ونظرا إلى أن ثوكيديديس كان ميسور الحال، وكانت عائلته تمتلك مناجم فضة في إقليم طراقيا، فإنه لم يعان الفاقة خلال نفيه من أثينا، بل لقد أتاح له ذلك فرصة السفر والترحال في بلاد اليونان للحصول على معلومات وثيقة عن موضوعه، وكذلك للنظر إلى الأمر بصورة مجردة وشاملة وليس بنظرة ضيقة. وعلى الرغم من أن ثوكيديديس قد توفي نحو العام 400 ق.م. - أي بعد نهاية الحرب ببضع سنوات - فإن ما كتبه عن تاريخ الحروب البيلوبونيزية (431 - 404 ق.م.) لم يصل بالحدث إلى منتهاه وخاتمته، بل وصل بالأحداث وتحليلها حتى العام 411 ق.م. وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على تأنيه ودقته وتوخيه الحذر والموضوعية في رصد وتحليل الأمور لا مجرد سردها من دون تمحيص.

ولعل السبب في ذلك أن ثوكيديديس كان يدرك إدراكا تاما أهمية وقيمة ما يُكتب ويُسجل للأجيال القادمة، وأهمية الحدث الجلل في مسيرة التاريخ اليوناني القديم إذ يقول (**الكتاب الأول - الفقرة الأولى: 1 - 2**):

«لقد كتب ثوكيديديس الأثيني تاريخ الحرب التي نشبت بين أثينا وإسبرطة مبتدئا سرد الموضوع منذ البداية المبكرة لاندلاع الحرب، وذلك عن يقين بأنها ستكون حربا عظمى وأنها تستحق الكتابة عنها أكثر من أي من الحروب التي وقعت في الماضي. وكان الأساس الذي استند إليه يقيني هذا هو أن الطرفين كانا في قمة قوتهما واستعدادهما، كما أني رأيت بقية العالم اليوناني وهو ملتزم تجاه هذا الطرف أو ذاك؛ بل وحتى أولئك الذين لم يكونوا قد ارتبطوا بالأمر ارتباطا مباشرا كانوا يتدبرون أمرهم بشأن المواقف التي سيتخذونها لاحقا.

وقد مثلت هذه الحرب أكبر قلق واضطراب ألمَّ بتاريخ الإغريق، كما ترك أثره كذلك في جزء كبير من العالم غير اليوناني، بل وفي الحقيقة - ربما جاز لي القول - في البشرية بأسرها (في معظمها)».

كما يشير ثوكيديديس في موضع آخر في مقدمته في الكتاب الأول (**نهاية الفقرة 22**) إلى عبارة ذات مغزى خطير، تشير بوضوح إلى مؤرخ من العيار الثقيل ذي منهجية صارمة لا تحفل بالإمتاع للقارئ بقدر ما تسعى إلى الحقيقة التاريخية قدر المستطاع، إذ يقول:

«وربما كان غياب الأساطير القصصية من سردي يجعله أقل إمتاعا للسامعين، ولكن كل من يبغي التوصل إلى رؤية واضحة لما وقع أو سوف يقع من أحداث يوما ما - بالقياس إلى قانون الاحتمالية البشرية - بطريقة مشابهة سوف يجد في ما ذكرته من وقائع نفعا، وهذا حسبي، فقد وُضع هذا التاريخ ليكون ملكا للناس في كل العصور لا ليحصد جائزة الإشادة فور سماعه».

والآن وبعد أن أدركنا خلفيات تلك الحرب ودوافعها - الحقيقية والظاهرية - وأهميتها وقيمة مؤرِّخها نطل إطلالة سريعة على أبرز مراحلها وأهم أحداثها وأبطالها من الجانبين. في العام 431 ق.م. حين بدأت الحرب كانت أثينا متفوقة في أسطولها وقوتها البحرية، في حين تفوقت إسبرطة في قواتها البرية من المشاة الثقيلة. ولذلك ارتكزت خطة أثينا على عدم الدخول في معركة برية ضد إسبرطة، مع الاحتماء خلف أسوار مدينة أثينا والأسوار الكبرى التي كانت تحمي ميناءيها فاليرون وبيرايوس من هجمات إسبرطة وحلف البيلوبونيز البرية. كما حرصت أثينا على الحفاظ على أسطولها البحري - مصدر قوتها - لتدك به إسبرطة وحلفاءها حين تحين الظروف والفرصة المناسبة؛ كل ذلك كان بإيعاز من الزعيم بيريكليس. وعلى الجانب الآخر كانت إسبرطة تحاول بكل السبل توريط وجر أثينا إلى موقعة برية حاسمة تضمن النصر فيها من خلال تفوقها البري ومساندة أعضاء حلف البيلوبونيز الذي تتولى هي قيادته.

عموما فإن حرب البيلوبونيز امتدت على مدى سبعة وعشرين عاما (431 - 404 ق.م.) وانقسمت إلى ثلاث مراحل رئيسية كالآتي:

1- **الحرب الأرخيدامية** (431 - 421 ق.م.) نسبة إلى الملك الإسبرطي أرخيداموس الذي دأب على غزو إقليم أتيكا كل صيف في تلك الفترة بقواته البرية.

2- المرحلة الثانية (421 - 413 ق.م.) المعروفة بـ «**صلح نيكياس**» والتي تبدأ بمعاهدة تفاوض عليها مع الإسبرطيين وأنجزها القائد والسياسي الأثيني نيكياس، وتنتهي بهزيمة أثينا في سيراكيوز على الساحل الشرقي من صقلية في العام 413 ق.م.

3 - المرحلة الثالثة الأخيرة المسماة «**الحرب الأيونية**» لأن معظم أحداثها ومواقعها تمت على - أو قبالة - الساحل الأيوني على ساحل آسيا الصغرى، وقد امتدت من 412 إلى 404 ق.م.

فإذا ما تناولنا المرحلة الأولى لنرى أبرز ملامحها في عجالة سريعة وجدنا أن قوات إسبرطة وحلف البيلوبونيز البرية القوية والكبيرة العدد كانت تغزو أراضي أتيكا وتخربها فتجد الريف الأتيكي مهجورا خلال فترة الهجوم في فصل الصيف حيث يحتمي سكانه خلف الأسوار المحيطة بمدينة أثينا وموانيها. وبعد أن ينتهي هذا الهجوم الصيفي الذي يستمر قرابة الشهر يعود السكان إلى قراهم المخربة، واستمر هذا الوضع على مدى السنوات الست الأولى من الحرب. كل ذلك كان محاولة مستميتة من جانب إسبرطة لجر أثينا إلى معركة برية فاصلة ولكن من دون جدوى، فقد اقترح بيريكليس على الأثينيين خطة بسيطة من شقين: الأول هو البقاء خلف الأسوار وجعل المدن الخاضعة للسيطرة الأثينية تدفع حصتها السنوية للأسطول الأثيني، وأن تستخدم هذا الأسطول في حماية إمدادات القمح الخارجية المستوردة للمدينة التي ترزح تحت الحصار. والثاني هو الإغارة على سواحل العدو والاستيلاء على بعض الجزر القريبة من البر كقواعد للانطلاق منها ومواصلة الضغط على الأعداء. وهكذا نظرت أثينا إلى الحرب مع إسبرطة على أنها حرب استنزاف لقدرات الأخيرة حتى ترهقها وتجبرها على التراجع في نهاية المطاف من دون أن تخوض معها معركة حاسمة تتوق إليها إسبرطة، ولكن من دون جدوى.

ظلت الأمور على تلك الوتيرة وإن تخللتها بعض الأحداث الكبيرة ذات التأثير في مجريات تلك الحرب ومعنويات المحاربين من الطرفين. ففي العام 430 ق.م. ضرب أثينا وباء مدمر تفشى في المدينة وقضى على ما يقرب من ربع سكانها ويزيد، ربما نتيجة تزاحم وتكدس السكان خلف أسوار المدينة. وقد كان من ضحايا هذا الوباء الزعيم الأثيني الكبير بيريكليس الذي أصيب بالطاعون وتوفي في العام التالي 429 ق.م.! وكانت هذه صدمة كبرى لأثينا رأى فيها ثوكيديديس بذرة هزيمة أثينا: «إذ انتهج خلفاؤه سياسة مضادة تماما لسياسته، وفي الأمور الأخرى التي لا علاقة لها بالحرب أدى الطموح الشخصي والمغنم الفردي إلى سياسات مؤذية وسيئة بالنسبة إلى الأثينيين أنفسهم وكذلك لحلفائهم. وفي حالة نجاح مثل هذه السياسات فإنها كانت تصب في مصلحة أفراد بعينهم وتضاف إلى رصيدهم، وفي حالة فشلها كانت تضعف من القدرات الحربية للدولة ... إن خلفاء بيريكليس الذين كانوا على قدم المساواة بعضهم مع بعض والذين كان كل واحد فيهم يهدف إلى شغل موقع الزعامة تبنوا أساليب ديماجوجية أسفرت عن فقدانهم السيطرة على المجرى الفعلي للأمور (**الكتاب الثاني - فقرة 7/65 ، 10**).

بموت بيريكليس فقدت أثينا الرجل الوحيد الذي استطاع أن يجمع الأثينيين كافة على كلمة سواء، أو بالأحرى يفرض سياسة واحدة عليهم. ولكن إذا كانت إسبرطة قد خرَّبت المزارع الأتيكية وزرعت الهلع والذعر في نفوس سكان أتيكا على مدى سنوات من بداية الحرب فإن

أثينا حققت في هذه المرحلة الأولى من الحرب عددا من الإنجازات بفضل أسطولها البحري. لعل أبرز تلك الإنجازات إجبار بوتيديا - المستوطنة الكورنثية القديمة في شمال بحر إيجة - على الاستسلام والخضوع لها في العام 430 ق.م. والانتصاران البحريان اللذان حققهما القائد الأثيني فورميو عند ناوباكتوس عند المدخل الشمالي الغربي لخليج كورنثة في العام 429 ق.م. وسحق تمرد جزيرة ليسبوس على حلف ديلوس في العامين 427/428 ق.م. وانتصار القائد الأثيني ديموسثينيس في العام 426 ق.م. على قوات البيلوبونيز في أمفيلوخيا شمال غرب اليونان. ولكن الإنجاز الرئيسي لأثينا كان في العام 425 ق.م. حين استولت على بيلوس التي تقع على الساحل الغربي لميسينيا في شبه جزيرة البيلوبونيز وقتلت وأسرت 420 من قوات المشاة الثقيلة الإسبرطية في جزيرة أسفاكتيريا المقابلة لبيلوس. هذا الانتصار أعطى أثينا قاعدة أمامية وموطئ قدم في قلب أرض العدو. بعد ذلك بدأت إسبرطة تقلع عن غاراتها السنوية على مزارع وريف أتيكا وتقدم عروضا تنم عن نيتها للصلح والسلام.

وقبل أن نعرف رد فعل أثينا على إشارات الصلح الصادرة من إسبرطة ينبغي أن نتعرف على الساسة الأثينيين الجدد بعد موت بيريكليس والاتجاهات السياسية التي تبنوها - خصوصا إزاء الحرب مع إسبرطة. أول هؤلاء السياسيين الأثينيين هو كليون Cleon، وهو ابن دباغ جلود ثري من أثينا وديموقراطي متطرف شن هجوما على سياسة بيريكليس في العامين 431 و430 ق.م. وبعد موت بيريكليس في العام 429 ق.م. خلفه كليون كأكثر السياسيين نفوذا وتأثيرا. ومما يدل على مدى تطرفه وعنفه أنه اقترح إصدار قرارين من الإكليزيا بإعدام كل رجال متيليني في جزيرة ليسبوس التي تمردت على أثينا وقمعت أثينا تمردها بالقوة في العام 427 ق.م. ولكن هذا القرار أُلغي بعد صدوره بيوم واحد - ربما لقسوته المفرطة. لقد كان كليون يحبذ اتباع أسلوب القسوة المفرطة مع العدو بعد كل انتصار مادام ذلك يعود بالمجد والقوة والثروة على الأثينيين وعليه شخصيا - لقد كان زعيما ديماجوجيا [30] انحرف بالديموقراطية عن مسارها وبدأ يلعب على وتر عواطف العامة من دون النظر إلى العواقب! فبعد انتصار أثينا في بيلوس في العام 425 ق.م. وانتزاعها تلك النقطة كقاعدة أمامية لم يكتف كليون بذلك بل استولى - بمساعدة القائد ديموسثينيس - على جزيرة إسفاكتيريا المقابلة بعد قتل وأسر نحو 420 إسبرطيا، وعاد ومعه الأسرى الإسبرطيون إلى أثينا خلال عشرين يوما. وقد أكسبه ذلك الأمر شعبية كبيرة بين عوام الأثينيين، لاسيما بعد أن رفع لهم مكافأة حضور جلسات المحلفين في المحاكم الأثينية من 2 إلى 3 أوبول. ولذلك اتخذ موقفا حادا ومتشددا حين رفض إيماءات وإشارات إسبرطة إلى التهدئة والصلح بعد هزيمتها في بيلوس وإسفاكتيريا في العام 425 ق.م.

السياسي الأثيني الآخر الذي برز بعد وفاة الزعيم بيريكليس هو نيكياس، وكان سياسيا معارضا لأفكار وأطروحات كليون، إذ اتسم بالاعتدال والوسطية ولم يكن يحبذ النزعة

العدوانية التوسعية لغُلاة الديموقراطيين، وكان يميل إلى تحقيق السلام مع إسبرطة بأسرع ما يمكن. وقد كان نيكياس من أغنى أثرياء أثينا، وكان يمتلك عددا كبيرا من العبيد من أرباب الحرف الصناعية. وكان موضع إعجاب العقلاء من معاصريه - ومن بينهم المؤرخ ثوكيديديس - وذلك لاستقامته وسلوكياته الفاضلة.

بعد أن رفض كليون يد إسبرطة الممدودة بالسلام في العام 425 ق.م. وانساقت وراءه جموع الأثينيين أنقذ القائد الإسبرطي اللامع براسيداس ميجارا من الوقوع في قبضة الأثينيين، واستمال إلى جانبه عددا من مدن طراقيا في شمال شرق اليونان، ثم استولى في العام 424 ق.م. على أمفيبوليس بالقوة - وهو ما أدى إلى نفي المؤرخ ثوكيديديس الذي أخفق في إنقاذها كما أسلفنا. وفي العام 422 ق.م. قاد كليون حملة لإنقاذ أمفيبوليس واستعادتها من الإسبرطيين ودخل في معركة ضد الإسبرطيين، لكنه هُزم وقُتل، وجُرح براسيداس جراحا خطيرة مات على أثرها هو الآخر. وهكذا أُزيح الخصمان الرئيسيان المناوئان للسلام على الجانبين (كليون وبراسيداس اللذان أطلق عليهما أريستوفانيس في مسرحيته «السلام» لقب «مدقات الحرب») وأصبح الطريق ممهدا لعقد صلح بين الطرفين، وهو ما تم في العام421 ق.م. فيما سُمي «صلح نيكياس». هذا الصلح الذي أبرمه السياسي الأثيني المعتدل نيكياس اعتبر نصرا لأثينا التي ظلت محتفظة بإمبراطوريتها البحرية سليمة، في حين انقسم أعداء أثينا من حلف البيلوبونيز على أنفسهم، ورفضت كل من كورنثة وبؤوتيا التوقيع على الصلح.

لكن صلح نيكياس لم يعمِّر طويلا بين الجانبين بسبب حدوث متغيرات جديدة قادت إلى استئناف المرحلة الثانية من الحرب، فقد برز على الساحة السياسية الأثينية آنذاك زعيم ديموقراطي شاب من غُلاة الديموقراطيين ذوي النزعة التوسعية الطموحة - على الرغم من نشأته الأرستقراطية - وهو السياسي الأثيني الكبياديس[31] الذي نشأ في كنف الزعيم بيريكليس، وصيه بعد وفاة أبيه، وكان أحد أتباع ومريدي الفيلسوف سقراط. وقد انتخب الكبياديس قائدا strategos عن قبيلته في سن مبكرة (نحو الثلاثين) في العام 420 ق.م. بعد أن أصبح ملء السمع والبصر بوصفه زعيما للديموقراطيين المتطرفين. وقد أسهم تكوينه الحزبي والعقائدي هذا في الإطاحة بصلح نيكياس وتحويله - بعد وقت قصير - إلى حبر على ورق لا قيمة له. فقد أغرى تفكك وعدم تماسك حلف البيلوبونيز الأثينيين - تحت تأثير ونفوذ الكبياديس - إلى الدخول في تحالف مع بعض مناطق شبه جزيرة البيلوبونيز مثل أرجوس (التي لم تشارك إسبرطة خلال حربها الأرخيدامية على حقول ومزارع أتيكا، وكانت في حالة حياد مع إسبرطة بمقتضى معاهدة انتهت العام 421 ق.م.) وكذلك مع إيليس ومانتينيا. هاجمت مدن هذا التحالف إيبيداوروس في شمال شرق البيلوبونيز ثم تقدمت غربا فجنوبا نحو تيجيا وتحركت إسبرطة لمواجهتهم، وألحقت بمدن التحالف هذه هزيمة كبرى في موقعة

مانتينيا في العام 418 ق.م.، وانسحبت أرجوس من ذلك التحالف وعادت إلى عزلتها من جديد. وفي العام 416 ق.م. هاجمت أثينا جزيرة ميلوس - جنوب شرق البيلوبونيز - ودمرتها على الرغم من أنها كانت على الحياد وإن كانت أقرب إلى الصداقة مع إسبرطة. وقد كان هذا آخر الأحداث في فترة السلام أو الصلح «المزعزع/المهزوز» كما وصف ثوكيديديس صلح نيكياس.

ثم تبدأ بعد ذلك فترة أخرى من تلك المرحلة الثانية تتسم بمغامرة شاقة نحو الغرب قام بها الأثينيون - بإيعاز من الزعيم الديموقراطي الكبياديس - وهي تلك المغامرة المعروفة بـ «الحملة الصقلية» في العام 415 ق.م. فقد حث الكبياديس الأثينيين على القيام بحملة إلى جزيرة صقلية لكبح جماح قوة مدينة سيراكيوز - المستوطنة التي أقامتها كورنثة على الساحل الجنوبي الشرقي من جزيرة صقلية في العام 733 ق.م. - المتنامية من جهة، وللحصول على موطئ قدم في صقلية وفرض سيطرة أثينا الكاملة على البحر من جهة أخرى. وعلى الرغم من معارضة السياسي المسالم نيكياس لهذه الحملة فإن وجهة نظر الكبياديس هي التي انتصرت، بل واختير نيكياس كأحد قادة الحملة الثلاثة مع كل من الكبياديس ولاماخوس! ولكن في أثناء الإعداد للحملة صحا الأثينيون ذات صباح على مفاجأة مثيرة ومؤلمة في آن واحد ليجدوا أن كل التماثيل النصفية للإله هيرميس(*) المنتشرة في طرقات أثينا قد حُطِّمت أو شوِّهت. وقد اعتبر هذا الحدث نذير شؤم على الحملة المتجهة إلى صقلية، وأشارت أصابع الريبة والاتهام إلى الكبياديس، باعتباره ضالعا في هذا الانتهاك لحرمة الآلهة، بل واتهم كذلك - فيما بعد - بالتجديف بحق الأسرار الإليوسية الخاصة بعبادة ديميتر، ربة الأرض والحصاد. وعلى الرغم من هذه الاتهامات والظنون التي حامت حول الكبياديس - والتي ربما دبرها له خصومه السياسيون - فإنه قد سُمح له بالاشتراك في قيادة الحملة إلى صقلية على أن يستدعى للتحقيق والرد على الاتهامات فيما بعد.

وسرعان ما استُدعي الكبياديس للتحقيق في تلك الاتهامات، لكنه هرب إلى إسبرطة! وعند وصول الأسطول الأثيني إلى صقلية لم يجد الترحيب المتوقع أو المأمول من جانب عدد من المدن اليونانية المناوئة لسيراكيوز هناك: فهم وإن كانوا يخشون سيراكيوز فإن تخوفهم من الأثينيين كان أشد وأعظم! وأهدر نيكياس المتردد وقتا ثمينا وهو يجول حول شواطئ صقلية في محاولة لاكتساب حلفاء ضد سيراكيوز من دون جدوى، ولم ينفذ خطة لاماخوس الناجحة بمهاجمة سيراكيوز مباشرة - قبل أن تأخذ حذرها - ومداهمتها واجتياحها. أما الكبياديس

(*) تماثيل نصفية خاصة بالإله هيرميس (رسول آلهة الأولمب وحامي الطرقات) كانت توضع في طرقات أثينا وميادينها العامة فوق أعمدة حجرية مربعة الشكل، وكانت هذه الأعمدة التي تحمل تماثيل هيرميس تستخدم كعلامات إرشادية لحدود الطرق والتقاطعات وعلى جوانب الطرقات، وقد اكتسبت قداسة من وجود تمثال الإله عليها.

الذي فرَّ إلى إسبرطة فقد حُكم عليه في أثينا - غيابيا - بالإعدام، واستُقبل في إسبرطة استقبالا حافلا! وكان لجوء الكبياديس إلى إسبرطة أمرا خطيرا على أمن أثينا من جهة، وعلى سلامة حملتها البحرية إلى صقلية من جهة أخرى. فقد أوعز إلى الإسبرطيين القيام بتحصين تل ديكيليا - على بعد اثني عشر ميلا إلى الشمال من أثينا - وإقامة حامية هناك، وهو ما فعلته إسبرطة وأجبرت من خلاله آلاف الأثينيين من مزارعي المنطقة القريبة إلى الانسحاب بصفة دائمة داخل أسوار أثينا. ومن ناحية حملة أثينا البحرية على صقلية حث الكبياديس الإسبرطيين على إرسال قائدهم البحري النشيط جيليبوس لمساندة سيراكيوز.

بناء على التطورات السابقة فإن وضع الحملة الأثينية على صقلية يحرج كثيرا، خصوصا بعد أن قُتل القائد الثاني للحملة لاماخوس وتركت القيادة منفردة لنيكياس - المعارض من قبل للحملة والمتردد في تنفيذ العمليات في أثناء الحملة! أمام هذه النُذر وإثر وصول القائد الإسبرطي البارز جيليبوس إلى سيراكيوز شعر الأثينيون بالقلق وأرسلوا قوة تعزيز للحملة بقيادة ديموسثنيس. لكن على الرغم من ذلك انتهت الحملة في العام 413 ق.م. بهزيمة كبيرة للأسطول والجيش الأثيني وإرهاق الميزانية الأثينية. أما عن القائد المتبقي من القادة الأصليين للحملة - نيكياس - فكان قد مرض بصورة حرجة، وعلى الرغم من وصول قوة التعزيز بقيادة «ديموسثنيس» فكانت الحملة لاتزال تعاني صعوبات جمة خطيرة، ما أدى إلى تلك الهزيمة الكبيرة واستسلام نيكياس وديموسثنيس وإعدامهما. كما استسلم سبعة آلاف ممن تبقوا على قيد الحياة من الأثينيين اليائسين وسيقوا بصورة مهينة للعمل في محاجر عميقة خارج سيراكيوز. ويبدو أن فشل تلك الحملة الأثينية على صقلية يُعزى بدرجة كبيرة إلى القيادة غير الحازمة لنيكياس.

وهكذا انتهت المرحلة الثانية من الحروب البيلوبونيزية بفشل ذريع للقيادة الأثينية تمثل في كارثة حملة «صقلية»[32]، والهزيمة المريرة هناك، وانفراط عقد قيادة الحملة بمقتل اثنين من قادتها (نيكياس ولاماخوس) وفرار الثالث (الكبياديس - صاحب فكرة الحملة) إلى إسبرطة وتقديم معلومات قيمة لها أضرت ضررا بالغا بمصالح وطنه أثينا داخليا وخارجيا.

الآن نعود إلى الكبياديس في إسبرطة الذي سيتعاون مع إسبرطة في الفترة المبكرة من المرحلة الثالثة للحروب البيلوبونيزية (412 - 404 ق.م.). بعد الاستقبال الحافل الذي لقيه الكبياديس في إسبرطة والنصائح القيمة التي أسداها إلى الإسبرطيين - كما أسلفنا - على حساب وطنه أثينا ذهب إلى أيونية التي على الساحل الغربي لآسيا الصغرى في العام 412 ق.م. ومعه أسطول إسبرطي صغير وأشعل ثورة هناك على أثينا بدأت في جزيرة خيوس ثم امتدت على نطاق أوسع. وردا على ذلك الوضع الخطير بين حلفاء أثينا - وبعد انهيار الأسطول الأثيني في حملة صقلية الفاشلة - لجأ الأثينيون إلى فتح رصيدهم السري من

الغطاء النقدي الذي كان القانون الأثيني يحظر الاقتراب منه ويعاقب من يُقدم على ذلك بالإعدام! في هذه الظروف الحالكة كان لا بد من فتح هذا الرصيد السري المقدر بألف تالنت لبناء أسطول جديد. ولما لم يكن لدى إسبرطة أسطول كبير ولم يكن في وسع سيراكيوز أن تقدم لها يد العون في هذا الصدد لجأت إسبرطة - في مواجهة شقيقتها أثينا - إلى عدو الإغريق القديم (الفرس) الذين كانوا كامنين داخل آسيا الصغرى يتحينون فرصة ذهبية لضرب الإغريق والثأر منهم والعودة إلى الانقضاض على الساحل الأيوني غرب آسيا الصغرى الذي أفلت من أيديهم بعد الحروب الفارسية وصار ضمن الإمبراطورية الأثينية. لذلك حين طلبت إسبرطة عون الفرس المادي لبناء أسطول كبير لها وافق الملك الفارسي داريوس الثاني على ذلك بشرط واحد وهو - أن تسلم إسبرطة الساحل الأيوني للفرس... ووافقت إسبرطة! وعادت فارس إلى وضعها القديم في أيونية قبل العام 480 ق.م. من دون أن تفقد جنديا واحدا!

ودخل الكبياديس على خط المفاوضات الإسبرطية - الفارسية وجلب لإسبرطة بعضا من ذهب الفرس. لكن الإسبرطيين انتابهم الشك في إخلاص الكبياديس لهم، لاسيما حين اكتشف الملك الإسبرطي آجيس وجود علاقة محرمة بين الكبياديس وبين زوجته، وهو ما أجبر الكبياديس على الفرار واللجوء إلى الفرس! ومن المفارقات الغريبة أن الأثينيين قد تملكهم القلق من تنامي العلاقات الإسبرطية - الفارسية التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى قطع إمدادات القمح الآتية من البحر الأسود إلى أثينا. ولكي يفشلوا هذا التحالف أو يخففوا من أثره على الأقل حاول الأثينيون - بدورهم - التقرب من الملك الفارسي! ورأى زعماء الارستقراطية الأثينية أن الملك الفارسي قد يُدعِّم أثينا إذا ما كانت على رأسها حكومة أقلية يتفاوض ويتعامل معها بدلا من أن يتعامل مع الدهماء (الديموقراطيين)! وهكذا تكونت في أثينا في العام 411 ق.م. حكومة أقلية فيما سُمي «حكم الأربعمائة» من أجل عيون الفرس، وظنا منهم أن ذلك الوضع ربما يرضي إسبرطة كذلك فتتقدم بشروط صلح وسلام أفضل للأثينيين ... ولكن لم يتحقق هذا ولا ذاك!

من خلال مفاوضاته مع الوالي الفارسي (الساتراب) على آسيا الصغرى تيسافرنيس أدرك الكبياديس أن الفرس لم يكونوا يؤيدون لا قضية إسبرطة ولا أثينا فيما يبدو، ولا يعنيهم مصالح أي من الطرفين بل مصالحهم هم وحدهم. لذلك كان الكبياديس يأمل في العودة إلى أثينا ويتوق إلى ذلك، واستغل الوضع الجديد في أثينا لمحاولة تحقيق مأربه. فقد توجه قائد الأسطول الأثيني في بحر إيجة (والمتمركز عند جزيرة ساموس) ويُدعى بيساندر إلى أثينا في العام 411 ق.م. وكان من بين القادة الذين اغتالوا الزعماء الديموقراطيين وأقاموا «حكومة الأربعمائة» الأوليجاركية الفاشلة. وقد تمرد بحارة الأسطول الأثيني في ساموس على هذا

الوضع وأعلنوا من أنفسهم حكومة ديموقراطية في المنفى، وقد أراد هؤلاء العودة إلى أثينا لاسترداد الحكم الديموقراطي، ولكنهم خشوا أن تستغل إسبرطة الفرصة وتقطع - بأسطولها الحديث التكوين بتمويل فارسي - إمدادات القمح عن أثينا، لذلك ظلوا في ساموس حيث هم. وهناك التقى بهم الكبياديس بعد عودته من فارس وأقنعهم بالبقاء في ساموس وانتخابه بوصفه واحدا من قادة الأسطول! وأمام تردد إسبرطة في تدعيم حكومة الأربعمائة في أثينا تحرك الديموقراطيون في أثينا بسرعة وأطاحوا بحكومة الأقلية هذه، واستدعوا الكبياديس للعودة إلى وطنه بصفة رسمية. وحين حاول الأسطول الإسبرطي في بحر إيجة التحرك شمالا لغلق مضيق الدردنيل (الهيليسبونت) انتصر عليهم الأسطول الأثيني المتمركز في ساموس في معركة رهيبة، وبذلك استعادت أثينا زمام المبادرة من جديد... كل ذلك حدث في العام 411 ق.م. (**نهاية رواية ثوكيديديس**) [33].

ولكن الصراع بين إسبرطة وأثينا كان لايزال قائما على قدم وساق، وكان هدفه غلق مضيق الدردنيل من جانب الأسطول الإسبرطي لقطع إمدادات القمح من البحر الأسود عن أثينا وتجويعها. ففي العام 410 ق.م. بعثت إسبرطة بأسطول جديد لغلق المضيق، ولكن تمكن الكبياديس - بعد مغامرات جامحة - من قيادة الأثينيين إلى تحطيم الأسطول الإسبرطي الجديد حتى أن قائد الأسطول الإسبرطي بعث برسالة يائسة إلى وطنه يقول فيها: «لقد فقدنا السفن، وقُتل مينداروس (القائد السابق للأسطول)، والرجال يتضورون جوعا... ولا أدري ماذا أفعل». هكذا أعاد الكبياديس ذاكرة الانتصارات الكبيرة إلى أثينا... ولم يكن أمام إسبرطة من استراتيجية سوى انتظار التدخل الفارسي - لاسيما بعد أن انسحبت قطع أسطول سيراكيوز التي كانت تساندها وعادت لظروف داخلية في صقلية. وبعد تلك المعركة بدأت أثينا تستعيد - ببطء - حلفاءها الذين تمردوا عليها من قبل. وفي العام 407 ق.م. عاد الكبياديس إلى ثرى وطنه أثينا - ذلك الوطن الذي خانه الكبياديس، ذلك الوطن الذي تنكر بدوره لألكبياديس - واستُقبل عند عودته استقبال الأبطال!

هذه العودة الميمونة لألكبياديس إلى وطنه لم تستمر طويلا... دوام الحال من المحال! ففي العام التالي 406 ق.م. تمكن القائد الإسبرطي القوي ليساندر من مواصلة جهوده لاستمالة حلفاء أثينا في بحر إيجة ثانية، بل وأحرز نصرا محدودا على الأسطول الأثيني هناك، مستغلا غياب الكبياديس في مهمة لابتزاز الأموال من أجل دفع رواتب بحارته. وهنا قرر الكبياديس أن العودة إلى أثينا تحمل نُذر الخطر عليه لذلك فرَّ إلى قلعة كان قد بناها قرب مضيق الدردنيل! وفي الوقت ذاته تلقت إسبرطة مزيدا من الدعم المالي والذهب من الفرس بعد العلاقات الوطيدة التي ربطت بين الملك الفارسي وابنه قورش الثاني من جهة والقائد الإسبرطي ليساندر وأجيسيلاوس الأخ غير الشقيق لأجيس ملك إسبرطة من جهة اخرى. هذه

الإمدادات المالية جعلت الأسطول الإسبرطي يتفوق على الأسطول الأثيني في العدد والعتاد. وقد بذلت أثينا قصارى جهدها وصهرت بعضا من تماثيلها الذهبية لتعويض نقص الأموال وتمكنت من بناء 110 سفن جديدة، ووعدت بمنح الحرية لأي عبد يستطيع المشاركة كمجدِّف في الأسطول... وحققت أثينا انتصارا باهرا على الأسطول الإسبرطي في يوليو من العام 406 ق.م. في موقعة أرجينوساي - وهي جزر قريبة من مضيق الدردنيل بين جزيرة ليسبوس واليابسة المقابلة - التي كانت أكبر معركة بحرية في التاريخ اليوناني، وأعظم انتصار بحري أحرزته أثينا. في هذه المعركة دمر الأثينيون ثلثي الأسطول الإسبرطي وقتلوا قائده (لم يكن ليساندر هو قائد الأسطول الإسبرطي في تلك المعركة بسبب ظروف تناوب القيادة).

أمام هذا النصر المظفر انتاب القنوط إسبرطة من إمكان إحراز نصر جديد على أثينا وعرضوا على الأثينيين الصلح والسلام، ولكن الأثينيين تسرعوا برفض ذلك العرض ظنا منهم أن إسبرطة لن تتمكن من تعويض الخسائر الرهيبة التي مُنيت بها في أرجينوساي. لكن الفرس كان لهم رأي آخر: إذ وقفوا إلى جانب إسبرطة بكل إمكاناتهم المادية ومكنوها من بناء أسطول جديد وأعادوا ليساندر إلى قيادته، بل وجعلوه مسؤولا عن الولايات الغربية للفرس. وعليه أبحر ليساندر في أواخر العام 405 ق.م. نحو مضيق الهيليسبونت (الدردنيل) واستولى على قاعدة عمليات جيدة في مدينة لامباسكوس على الساحل الشرقي للمضيق، في حين اتخذ الأثينيون قاعدة لأسطولهم في منطقة تدعى «أيجوسبوتامي» على الساحل الغربي لذلك المضيق قبالة لامباسكوس، ولكن لم يكن بها طعام ولا ماء. ولما كانت قلعة الكبياديس بالقرب من أيجوسبوتامي فقد حذر القادة الأثينيين من أن موقعهم كان مكشوفا، لكنهم صدوه وسفهوا رأيه. ولكن صدق حدس الكبياديس واستطاع ليساندر بعد بضعة أيام اجتياح المعسكر الأثيني واستولى على 171 سفينة أثينية وهي راسية على الشاطئ وألقى القبض على ثلاثة آلاف أثيني وكان التيار يجرفهم وهم محملون بالمؤن. وولى القادة الأثينيون المنهزمون وجههم شطر فارس وقد انتابهم الرعب من مصيرهم المفزع لو عادوا إلى أثينا، ففضلوا الارتماء في أحضاء الفرس! هكذا لقيت أثينا هزيمة مروعة بنهاية الحروب البيلوبونيزية.

ويصف المؤرخ كسينوفون(*) (الذي ربما كان في أثينا آنذاك) حالة المدينة حين سمع الناس بمأساة «أيجوسبوتامي» فيقول: «لم يكن لديهم (الأثينيين) لا سفن، ولا حلفاء، ولا طعام؛ ولم يكونوا يدرون ماذا هم فاعلون! ولم يكن في وسعهم أن يروا مستقبلا لأنفسهم سوى أن يذوقوا من الكأس المُرة نفسها التي جرَّعوها لغيرهم من أهل الدويلات الصغيرة الذين جاروا عليهم لا ليعاقبوهم على جريرة ارتكبوها، ولكن من منطلق صلف وغرور القوة، ولا لسبب إلا أنهم (أهل تلك المدن) كانوا حلفاء لإسبرطة. لذلك استمروا (الأثينيون) في الصمود، وأعادوا

(*) انظر الحاشية رقم ٣٣ .

الحقوق السياسية إلى كل من حرموهم منها. وعلى الرغم من أن الموت كان يفتك بأعداد من الناس في المدينة فلم يكن هناك حديث عن السلام».

(Xenophon, Hellenica 2.2.10)

وبعد ذلك في ديسمبر من العام 405 ق.م. كان اليأس قد أطبق على الأثينيين وأصبح شبح الموت فوق رؤوسهم، في ظل الحصار الخانق الذي فرضه عليهم القائد الإسبرطي المنتصر ليساندر - فبعثوا بسفير ومبعوث عنهم يُدعى ثيرامينيس إلى القائد ليساندر. وقد بلغ الغضب والغيظ والغل من أثينا كل مبلغ من جانب كورنثة وطيبة (حليفتا إسبرطة) حتى أنهما طلبا تدميرها نهائيا وقتل جميع رجالها وبيع نسائها وأطفالها في أسواق النخاسة. ولكن ليساندر لم يستجب لهم لأنه كان يوقن بأن بقاء أثينا ضعيفة أجدى بكثير من تدميرها تماما، لكي تظل عنصر توازن أمام طموحات كل من كورنثة وطيبة. وامتد أمد مفاوضات ثيرامينيس مع ليساندر مدة ثلاثة أشهر، وحصل على أفضل ما يستطيع أن يحصل عليه مفاوض تجرعت مدينته مرارة هزيمة ثقيلة، وتتضور جوعا. إذ وافق الأثينيون على الانضمام إلى التحالف الإسبرطي!، وتدمير الأسواق الكبرى وتحصينات ميناء بيرايوس، وإعادة المنفيين من الأوليجاركيين، وتسليم كل سفن المدينة عدا اثنتي عشرة.

بعد هذا الاستسلام المهين عيَّن ليساندر في أثينا مجلسا يحكم المدينة يتألف من ثلاثين من الطبقة الغنية الأوليجاركية حكم أثينا بالرعب والقهر والحديد والنار، وكانوا متعطشين للدماء واغتالوا خلال فترة حكمهم القصيرة على مدى العام (404 - 403 ق.م.) ألفا وخمسمائة من خصومهم الشخصيين، وكانت حكومة الثلاثين - أو الطغاة الثلاثين كما أطلق عليهم الأثينيون - تدين بالولاء المطلق لإسبرطة وليساندر إلى أن فاض الكيل بأنصار الديموقراطية الأثينية فتمكنوا من الإطاحة بهم وبحكمهم - بمباركة من ملكي إسبرطة اللذين بدأ القلق يساورهما من زيادة نفوذ ليساندر في أثينا!

هكذا عادت إلى أثينا في العام 403 ق.م. ديموقراطية عرجاء - تحت حراب إسبرطة المنتصرة وفي ظل وجود طابور خامس من أنصار الطغاة الثلاثين وإسبرطة - وهي ديموقراطية شكلية لم تسمن أو تغن من جوع، ولم تعد إلى أثينا كرامتها السليبة وهيبتها المفقودة.

لقد هوت أثينا درجات وصعدت إلى القمة منافستها العتيدة العنيدة... إسبرطة ... إلى حين ... إذ ستظهر على مدى القرن الرابع ق.م. قوى جديدة صاعدة ... مثل طيبة ... ثم مقدونيا.

هذا منطق التاريخ ... الأيام دول

«ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع».

الهوامش

1 Pherecydes, Fragmente der griechischen Historiker (ed. By F. Jacoby) 3F 143; Hellanicus ibid. 4F. 125; cf. Lycurgus, Against Leocrates 84-87.

2 Aristotle, Athenaion Politeia (The Athenian Constitution), 3.3.

3 M.T.W. Arnheim, Aristocracy in Greek Society, 1977.

4 R.S. Stroud, Drakon's Law on Homicide, 1968; M. Gagarin, Drakon and Early Athenian Homicide Law (1981).

5 Idem, The "axones and kyrbeis" of Drakon and Solon (University of California Publications in Classical Studies 19, 1979).

6 A. Andrewes, The Greek Tyrants, 1956; Herodotus I. 59-64; Thucydides 6.54-55; Arist., Ath. Pol. 13-17. See also A. Andrewes, CAH 32.3 (1982).

7 H. Shapiro, Art and Cult under the Tyrants in Athens, 1989.

8 Thucydides 1.20.2; 6.54.1, 55.1; 6.59.

9 J.S. Trail, Demes and Trittys: Epigraphical and Topographical Studies in the Organization of Attica, 1986; D. Whitehead, The Demes of Attica 508/7-ca.250 B.C., 1986.

10 P.J. Rhodes, The Athenian Boule, 1972.

11 M.H. Hansen, The Athenian Assembly, 1987.

12 R. Develin, Athenian Officials 684-21 B.C., 1989.

13 R. Thomsen, The Origin of Ostracism, 1972; E. Vanderpool, "Ostracism at Athens", Lectures in Memory of L.T. Semple 2, 1973.

14 من المراجع القيمة التي رصدت تلك العلاقة بين الفرس والإغريق منذ بداياتها مع شرح تفصيلي للحروب الفارسية اليونانية والعلاقة بين الطرفين كتاب:

A.R. Burn, Persia and the Greeks (2nd ed., London 1984)

ويضم الكتاب ملحقا ممتازا أعده David Lewis عن الشواهد والقرائن الخاصة بالجانب الفارسي. أما المصدر اليوناني الرئيسي عن تلك العلاقات بين الطرفين والحروب الطاحنة بينهما في بدايات القرن الخامس ق.م. فهو بلا شك «تاريخ» هيرودوت:

Herodotus, The Histories (New York, rev. ed. 1996; translated by Aubrey de Selincourt).

وسوف نستشهد به كثيرا في الحديث عن تلك العلاقات، لاسيما في النصف الأول من القرن الخامس ق.م.

15 G.M.A. Hanfman and W.E. Mierse, Sardis from Prehistoric to Roman Times, 1983.

16 I.M. Diakonov, Cambridge History of Iran 2.36-148, "Media".

17 Herodotus, books 5-6.

18 للمزيد من التفاصيل عن معركة ماراثون: مقدمتها وأحداثها وموقف الأطراف المختلفة آنذاك، انظر:

Herodotus 6. 106-107, 111-120.

19 A.J. Podlecki, The Life of Themistocles, 1975; K.J. Lenardon, The Saga of Themistocles, 1978.

20 هيئة الإيفورية في إسبرطة القديمة هي هيئة مكونة من خمسة من كبار حكماء إسبرطة وأصحاب الخبرة والرأي فيها. وكان ينتخبون من قِبل كل مواطني إسبرطة في انتخاب سنوي لهذا الغرض. وكانت صلاحيات

هذه الهيئة كبيرة ومؤثرة: إذ كانت لديهم صلاحية ممارسة الرقابة العامة على سلوكيات ملوك إسبرطة، إذ كان يرافق الملك في حملاته دوما اثنان من هيئة الإيفورية. وفي كل شهر كان الملكان من جهة وأعضاء هيئة الإيفورية من جهة أخرى يتبادلان حلف اليمين: إذ يقسم الملكان على الحفاظ على الدستور الإسبرطي ويقسم أعضاء هيئة الإيفورية على تأييد ومناصرة الملوك. وبلغ من أهمية هيئة الإيفورية أن كل عام كان يُسمى باسم أكبر أعضاء هذه الهيئة سنا. كما كان أعضاء هيئة الإيفورية يمارسون رقابة عامة على كل جوانب الإدارة الإسبرطية، كما كان لهم بعض الصلاحيات القضائية، وكان بإمكانهم إصدار أحكام بحبس الملك أو فرض غرامة عليه، وسحب القادة من ميادين القتال والتفاوض بشأن المعاهدات مع الدول والمدن الأخرى. وكانوا يفرضون على جميع المواطنين الالتزام الصارم بأحكام القانون.

لمزيد من التفاصيل حول هذه الهيئة الإسبرطية المهمة انظر:

W. den Boer, Laconian Studies (1954), pp. 197ff.; W.D. Westtake, in Greek, Roman and Byzantine Studies (GRBS), 1976, pp. 343-52; P. Cartkedge, in Journal of Hellenic Studies (JHS), 1978, pp. 25-37.

21 يروي كاتب السير بلوتارخوس في عرضه لحياة ذلك الزعيم الأثيني في مؤلفه «السير الموازية» Bioi Paralleloi طرفة عن مدى عدالة واستقامة أريستيديس، وهي قصة ذات دلالة بالغة في هذا الصدد. إذ يقول بلوتارخوس إنه حين كان يجري التصويت على إجراء «النفي السياسي» (ostrakismas) في العام 483 ق.م. - وهو العام الذي تقرر فيه نفي أريستيديس من أثينا - طلب أحد العامة الأثينيين من أريستيديس - من دون أن يعرفه - أن يكتب اسم «أريستيديس» على شقفة الفخار الخاصة به (بذلك الشخص) على أنه الشخص الخطر الذي يجب نفيه! (كان ذلك المواطن الأثيني أميا لا يكتب ولذلك طلب من أريستيديس الكتابة له). وعندئذ سأله أريستيديس: هل تعرف أريستيديس هذا وهل أساء إليك وإلى المدينة في شيء؟ فرد المواطن: كلا، ولكني مللت من كثرة ما سمعت اسمه مقترنا بصفة «العادل»! وقد لبى أريستيديس رغبته وكتب اسمه على الشقفة! وتعرض للنفي.

22 Meiggs, Russel, The Athenian Empire, Oxford, 1972

وهو مؤلف يضم تحليلا دقيقا للموضوع يرتكز على مادة غزيرة من النقوش، وفيه تفاصيل إضافية وإن كانت بعض مادته في حاجة إلى تحديث بسبب التفسيرات اللاحقة لتأريخ بعضها.

23 انظر سيرة حياة «كيمون» لمؤلف «السير الموازية» بلوتارخ من أواخر القرن الأول الميلادي وأوائل الثاني... انظر من المراجع:

W.R. Connor, Theopompus and Fifth Century Athens, 1968; E. Badian, From Plataea to Potidaea, 1993, Chapters 1-2.

24 انظر في المصادر:

- «تاريخ» ثوكيديديس: الكتابان الأول والثاني، حيث ذكر باستفاضة كثيرا مما يتعلق بشخصية بيريكليس ومواقفه وخطبه وأساليبه في القيادة.
- بلوتارخوس (سيرة بيريكليس «السير الموازية») الكتاب الخامس.
- ومن المراجع انظر:

W.R. Connor, The New Politicians of Fifth Century, Athens, 1971; K.J. Dover, The Greeks and their Legacy, 1988, pp. 135-58.

25 D.M. Lewis, Cambridge Ancient History (CAH)52, 1992, pp. 121-27; E. Badian, From Plataea to

Potidaea, 1993, Ch. 1. Both give extensive earlier literature.

26 G.E.M. de Ste. Croix, The Origins of the Peloponnesian War, 1972 & app. 1; E. Badian, op. cit., ch. 4.

27 G.E.M. de Ste. Croix, op. cit; D. Kagan, The Outbreak of the Peloponnesian War, New York, 1969; _________, The Peloponnesian War, New York, 2003;

ومن المصادر انظر أهم المصادر:

Thucydides, The Peloponnesian War, in 8 books in Loeb classical Library, translated by C. Forster Smith; Diodorus of Sicily, The History, book 12 and 13 in the Library of History V (Loeb classical Library, tr. C.H. Oldfather).

28 A. Powell, Athens and Sparta, London, 1989.

29 W.R. Connor, Thucydides, Princeton, 1984; R. Strassler, (ed.), The Landmark Thucydides, New York, 1996.

30 انظر: ثوكيديديس - الكتاب الثالث - فقرة 6/36 حيث يصف كليون بأنه «أعنف المواطنين» - الكتاب الرابع - فقرة 3/21 حيث يصف مدى شعبية ونفوذ وتأثير كليون بين الجماهير.

انظر كذلك: أريستوفانيس - مسرحية «الفرسان» التي تصور مدى ديماجوجية كليون وعنفه وأسلوبه الخطابي القوي المتمر المتحفز ولهجته العامية السوقية.

31 انظر: - ثوكيديديس / الكتب 5 - 8 عن تفاصيل أعمال وشخصية الكبياديس.

وكذلك بلوتارخوس في السيرة التفصيلية التي أوردها عن حياة وأعمال الكبياديس.

32 يصوِّر ثوكيديديس مدى فداحة خسارة الأثينيين في هذه الكارثة الصقلية إذ يقول: «كان هذا الأمر هو أكبر حدث وقع خلال هذه الحرب، وفي تقديري فإنه أكبر حدث عرفناه في تاريخ اليونان، فهو بالنسبة إلى المنتصرين يُعد أبرز وألمع النجاحات، وبالنسبة إلى المهزومين أشد الهزائم مأساوية: فقد كانت معاناتهم هائلة كما كانت خسائرهم كاملة وتامة، إذ دُمر الجيش والأسطول وعاد (إلى أثينا) عدد قليل جدا من كثيرين. هكذا انتهت الأحداث في صقلية».

(الكتاب السابع / فقرة 87).

33 وصل ثوكيديديس بمؤلفه عن حرب البيلوبونيز حتى العام 411 ق.م. ولكن بقية أحداث تلك الحرب أكملها المؤرخ الأثيني كسينوفون في مؤلفه «تاريخ اليونان» (Hellenica) لكن لغة كسينوفون وأسلوبه وتحليله كانت أقل بكثير من حيث التميز والإجادة عن ثوكيديديس أبرز مؤرخ يوناني ورائد الموضوعية العلمية في كتابة التاريخ وفي التحليل والنقد للأحداث.

اقتصاديات أثينا

د. مصطفى العبادي (*)

تقديم

شهد الفكر التاريخي منذ القرن الثامن عشر تطورا مطردا واكب القفزات العملاقة التي عرفتها الحركة العلمية الحديثة. وكان من أهم مراحل التطور في الدراسات التاريخية ما حدث خلال القرن العشرين الذي شهد اتجاهين متلاحقين، ولعلهما متكاملين.

الاتجاه الأول هو الذي عرف باسم التاريخ الاجتماعي والاقتصادي الذي ازدهر في النصف الأول من القرن العشرين؛ ثم أعقبه في النصف الثاني من القرن اتجاه غلب عليه اسم الاجتماع التاريخي والاقتصاد التاريخي. وينحصر الاختلاف بينهما في المنهج المستخدم في كل منهما. فالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي يغلب عليه استخدام منهج البحث العلمي التاريخي في أرقى مستوياته، مع التركيز على الجانبين الاجتماعي والاقتصادي في حين وجدنا دراسة الاجتماع التاريخي والاقتصاد التاريخي يغلب عليهما اختلاف المنهج[1] بمعنى أن دارس الاجتماع التاريخي يستخدم منهج علم الاجتماع، وكذلك دارس الاقتصاد التاريخي يتجه إلى تطبيق مناهج علم الاقتصاد في فهم وتحليل الأحوال والظروف الاقتصادية التي يواجهها المجتمع في عصر معين. ونحن نعرف أن مناهج علم الاقتصاد السائدة تعتمد مزيدا من نظريات وأساليب علم الرياضة، وخاصة الإحصاء ووسائل تحليلها، وتكنولوجيا المعلومات المالية وظروف السوق والإنتاج وطبقات المجتمع وتوزيعها ونحو ذلك.

ونحن نعرف أيضا أن هذه المناهج المستحدثة لم تكن مطبقة، وربما لم تكن ممكنة إلى زمن قريب جدا - على الرغم من وفرة المعلومات - وعلى وجه التحديد قبل عصر الكمبيوتر. فما بالك إذا حاولناها في عصور سابقة قديمة، لم تكن في الأعم الأغلب تحرص على مجرد

(*) أستاذ الحضارة اليونانية والرومانية - جامعة الإسكندرية - مصر.

تسجيل المعلومات أو البيانات الاقتصادية؛ ولم تكن تحرص على دراسة اقتصادياتها كما حرصت على تسجيل أخبار السياسة والدين والحروب والظواهر الفلكية والطبيعية، إلا ما بلغ منها حد الكوارث الكبرى من أوبئة ومجاعات ونحوها، التي كثيرا ما فسروها تفسيرا دينيا سهلا ومألوفا.

دراسة الاقتصاد القديم

على الرغم من هذه العقبات التي تواجه الباحث الحديث في تاريخ الاقتصاد القديم، فإن نسبة غير قليلة من المؤرخين المعاصرين، ومنذ بداية الستينيات من القرن العشرين على وجه التحديد، لم يترددوا في اقتحام هذا المجال الصعب. وعلى الرغم من إدراكهم أننا قد لا نصل إلى معرفة الحقيقة الكاملة، فإنهم كانوا على ثقة بأن عملهم هذا وفق قواعد المناهج العلمية الحديثة سوف يلقي مزيدا من الضوء على جانب معتم في أحوال المجتمع، مما يساعد على فهم أوضح ومعرفة أفضل لحركة التاريخ بالنسبة إلى حقبة تاريخية معينة.

من أجل تحقيق هذه الغاية وجدنا هؤلاء المؤرخين الجُدُد يعيدون قراءة المصادر التاريخية قراءة جديدة غير مسبوقة، فهم لا يحرصون على مجرد تجميع الأخبار وتتبع الأعلام ومقارنة الروايات ونقدها نقدا شديدا للوصول أو الاقتراب من معرفة الحقيقة التاريخية، ولكنهم يتجهون إلى تجميع ما ورد في المصادر من أرقام إحصائية، وأنواع السلع وأسعارها، وتتبع منشئها ومسارات شحنها، وغلات الأرض ومحاصيلها وإنتاجية الأرض في كل حالة؛ وكذلك الأشخاص الذين يقومون بذلك كله وانتماءاتهم الاجتماعية والسياسية كلما أمكن. بالإضافة إلى تتبع المتغيرات التي تطرأ على ذلك كله من زمن إلى آخر، أو نتيجة لحدث معين أو سبب لتغيرات في التشريع أو السياسة والمجتمع وخصوصا ظاهرة الحراك الاجتماعي نتيجة لمتغيرات الأحوال المالية والاقتصادية(2)!

وقد وجدنا نتيجة لهذا الأسلوب والمنهج الجديد أن زاد الاهتمام بإعادة دراسة الوثائق؛ سواء كانت الوثائق المتمثلة في النقوش الكتابية (inscriptions) أو المخربشات العفوية (graffiti) أو ما كتب على شقف الفخار (ostraka)، أو وثائق أوراق البردي ورقوق الجلد ونحوها. كما طبقوا منهج قراءة الوثائق على النقود أو العملات التاريخية وما يُصوَّر أو يُكتب عليها؛ ودراسة المعادن التي تصنع منها ونسبة ما فيها من ذهب أو فضة أو برونز. كذلك الأمر بالنسبة إلى المؤلفات الأدبية من كتابات المؤرخين والجغرافيين والفلاسفة، أو كتب الطب والفلك والنبات والحيوان وأعمال الشعراء، ونحو ذلك مما وصل من العالم القديم. ويمكننا أيضا أن نضيف إلى هذا كله، الأعمال الفنية والشواهد الأثرية التي كثيرا ما انعكست عليها أو تمثلت فيها قيمة اقتصادية أو دلالة اجتماعية وسياسية. لقد أصبحت الآن هذه المصادر جميعها تُقرأ وتخضع للتحليل والمقارنة والمقابلة كما تُقرأ الوثائق وتحلل. من ذلك كله نرى

أننا أمام جيل من مؤرخي الاقتصاد أو الاجتماع التاريخي يختلف في أساليب قراءته وتفكيره ومنهجه عن أساليب الأجيال السابقة.

وكما يحدث كثيرا بين الدارسين في شتى مجالات العلوم، نجد الباحثين في نطاق معرفي معين يختلفون من حيث المنظور الذي يغلب على موقفهم العلمي. وقد حدث شيء من هذا القبيل في مجال الاقتصاد القديم بالنسبة إلى اليونان والرومان بصفة خاصة. ولم يكن التباين أو التعارض ملحوظا في بداية الأمر؛ على نحو ما تمثل في تصور روستوفتزف Rostovtzeff - بطريقة عفوية تماما، على سبيل البيان والتقريب - حين شبّه بعض مراحل التطور الاقتصادي عند اليونان والرومان قديما ببعض مراحل التطور في تحول أوروبا من العصر الوسيط إلى عصر النهضة وما صاحبه من الانتشار التجاري العالمي وما أعقب ذلك من تطور سريع في المجتمعات الأوروبية. وعلى ذلك يكون الاختلاف بين التطور الاقتصادي الحديث والقديم هو في الكمِّ فقط وليس من حيث النوع(3).

ولكن روستوفتزف يكاد يتناقض مع هذا الموقف، ويدخل في دائرة مفرغة من تساؤلات، لا يجد إجابة عنها. مثل قوله: لماذا توقف ذلك التقدم المُبهر للرأسمالية (القديمة)؟ لماذا لم يتم اختراع الآلة الميكانيكية؟ لماذا لم تحقق نظم العمل تطورها الكامل؟ لماذا لم يمكن القضاء على القُوى الكامنة في الاقتصاد البدائي؟ لقد كانت تتضاءل تدريجيا؛ لماذا لم تختف كلية؟ إن القول بأنها كانت أكثر تمكنا من حيث الكّم مما هو حادث في زماننا هذا، لا يفيد في تفسير الظاهرة الأساسية ذاتها(4).

بعبارة أخرى، إن السؤال المحوري هو معرفة أسباب فشل العالم القديم في أن يخطو الخطوة الأخيرة ويصبح اقتصادا حديثا كامل النمو. هذا التساؤل ذاته شغل علماء اقتصاد آخرين في مطلع القرن العشرين أيضا، من أمثال ماكس ڤيبر Max Weber عالم الاقتصاد السياسي الشهير. فعلى الرغم من أن شهرته العلمية والعالمية ترجع إلى دراساته الرائدة في تفسير تطور ونمو الاقتصاد الأوروبي الحديث، فإن ثقافته ارتكزت على أساس من دراسة الاقتصاد القديم أيضا. ففي دراسة له بعنوان «الأسس الاجتماعية لاضمحلال الحضارة القديمة» يؤكد في عبارة أدبية ذات مغزى واضح: إن الشغف بقصة ما يكون أكثرقوة عندما يشعرالجمهور «إن القصة تتحدث عنك de te fibula narratur» وعندما يختم راوي القصة أحداثها ببيان العبرة منها discite moniti ولكن ما يضيفه ڤيبر بعد هذه الحكمة فيما يتعلق بنهاية العالم القديم، يمس صميم موضوعنا، إذ يقول: من المؤسف أن الدراسة التي أقدمها لا تقع في نطاق هذه الفئة المحظوظة من الكتابة. فما يمكن أن نتعلمه منها قد يكون قليلا، وربما لا شيء بالنسبة إلى واقع مشاكلنا القائمة التي هي من طبيعة مختلفة تماما(5).

بعد أن فصل ماكس فيبر بين طبيعة الاقتصادين القديم والحديث، تفرغ لتفسير ظاهرة التطور الفريد الذي حققه الاقتصاد الحديث. فوجد أن التجارة أدت دورا حاسما في نشأة وتكوين «المدينة» في نهاية العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة، باعتبارها كيانا سياسيا واجتماعيا مستقلا، وأن الانفصال بين حياة المدينة وحياة الريف عندئذ ساعد على نمو عقلية متميزة تأخذ بمبدأ عقلانية اتخاذ القرار، وتدرك قيمة تراكم الثروة، مما أدى إلى نشأة طبقة جديدة من الرجال وضعت ذلك موضع التنفيذ من خلال أوجه نشاطهم الاستثماري. إن متطلبات التجارة والعقلية الاقتصادية في ذلك الوقت هي التي دفعت الانتشار الأوروبي في فترة الكشوف الجغرافية بحثا عن مصادر جديدة لسلع جديدة وأقل سعرا، وسعيا بدرجة متزايدة وراء أسواق جديدة لمنتجات أوروبا. هذه التطورات هي الدعامة التي انبعثت منها الثورة الصناعية(6).

كان هذا هو الموقف في النصف الأول من القرن العشرين، ثم كانت ثورة «التاريخ الجديد» في النصف الثاني على نحو ما ذكرنا. ولكن حدث خلال العقدين السابع والثامن من ذلك القرن، أن نشبت معركة مذهبية اصطبغت بالحدة أحيانا، حول مفهوم وطبيعة الاقتصاد القديم ومدى إمكان مقارنته بما حدث من تطور في الاقتصاد الأوروبي الحديث. فوجدنا الآراء تنقسم إلى نظريتين: إحداهما تأثرت بما ذهب إليه ماكس فيبر من أن الاقتصاد القديم ذو طبيعة مختلفه عن الاقتصاد الحديث. وعرف أتباع هذه النظرية اصطلاحا باسم «أصحاب نظرية البداءة primitivism & primitivists». في حين أن النظرية الأخرى تأثرت بأسلوب تفكير روستوفتزف في أن الاقتصاد القديم اختلف فقط في درجة تطوره وليس في طبيعته عن الاقتصاد الحديث، وعرفوا باسم «أصحاب نظرية الحداثة modernism & modernis-ers/modernists».

كان من رواد هذه المعركة م. ا. فنلي M. I. Finley الذي كان شديد التأثر بتفكير ماكس فيبر، وأضاف فكرة زادت الموقف تعقيدا، إذ اقترح أنه ليس هناك اقتصاد منفصل separate في اليوناني القديم؛ بمعنى أن الاقتصاد كان مندمجا embedded في المجتمع. وبناء على ذلك - في رأي فنلي - لا يمكن اخضاع الاقتصاد اليوناني القديم لمناهج الاقتصاد الحديث، ولا بد من إحداث مناهج وفروض جديدة لفهمه. وأطلق على هذه الفكرة اصطلاح «الكيان المستقل بذاته substantivism»(7). وهو بذلك حوَّل محور الخلاف في الرأي من المقابلة بين عنصري البداءة والحداثة، إلى الخلاف بين عنصري الكيان المستقل والمظهر الشكلي formalism بمعنى أن الاختلاف بين القديم والحديث ظاهري في الشكل فقط، وهو ما ذهب إليه ماير Meyer(8).

في إطار هذه المصطلحات، وحرصا على شيء من التبسيط والوضوح، نقول إن الانقسام في الرأي استمر ثنائيا بصفة عامة، بمعنى أن أصحاب نظرية البداءة يأخذون أيضا بفكرة

الكيان المستقل، وأصحاب نظرية الحداثة يأخذون بنظرية المظهر الشكلي. وتجنبا لمزيد من التفصيل بالنسبة إلى عناصر الخلاف بين الجانبين، نجد أن هناك اتفاقا عاما بين الفئتين على أن العالم القديم كان أساسا مجتمعا زراعيا يعتمد اقتصاده على ملكية الأرض وزراعتها. أما محور الخلاف في الواقع يكاد ينحصر في أن أصحاب نظرية البداءة يميلون

إلى التركيز على دراسة «كيف مارس اقتصادهم الكثرة الغالبة من الإغريق وهم الزراعيون الذين يقدرون بنسبة 98% من السكان؟» في حين أن أصحاب نظرية الحداثة يركزون بالمقابل على دراسة الفئة الأقل أي 2% وهم أهل التجارة ومن يتبعهم الذين كان نشاطهم الاقتصادي على المستويين الإقليمي والعالمي هو المصدر الوحيد أو الأساسي لثروتهم [9].

مهما يكن من أمر، فإن هذه المعركة لم يقدر لها الاستمرار وهدأت حدتها منذ بداية التسعينيات من القرن الماضي، كما أن عائدها على دراسات التاريخ القديم كان محدودا لغلبة الطابع التنظيري على الجانبين. وقد لخص كارتلدج Cartledge هذا الموقف في عبارة حاسمة حين قال: «يبدو أن الموقف العقائدي ideology هو حيث بدأ فنلي، وحيث انتهى»[10]. وفسر الموقف كله بضرورة التسليم منذ البداية بأن عدم امكانية أيّ من الجانبين بيان ما يلزم بيانه، هو أحد الأسباب التي أدت إلى طول استمرار تلك المواجهة، إلى درجة الإعياء[11]. كما وجدنا باحثا آخر يعلن أنه قد آن الأوان أن نتحول بعيدا عن هذه المناظرة التي كادت تصيب دراسة التاريخ بالهزال. ومن أجل أن نبعث في دراسة التاريخ مزيدا من الحيوية والانتعاش، علينا أن نتعمق بحث المعالم الكبرى الأصيلة في التجربتين التاريخيتين اليونانية والرومانية اللتين تنتميان إلى عالم ما قبل الثورة الصناعية وعالم الرأسمالية، لكونها معالم متميزة بذاتها عن تجارب كثير من الشعوب الأخرى القديمة والوسيطة[12]. هذا هو الاتجاه السائد الآن الذي يؤكد على استقصاء وتعميق بحث شتى مجالات التاريخ القديم. ولعل مظهر التجديد المستمر فيه هو إثارة أسئلة جديدة تقود إلى رؤى جديدة وفهم أفضل لحقيقة التجربة الإنسانية المعقدة، والمتمثلة في كل حقبة من حقب التاريخ.

اقتصاديات أثينا قديما

إذا ما انتقلنا من التعميم إلى التخصيص، فقد يبدو من الوهلة الأولى أن دراسة مدينة معينة مثل أثينا أكثر صعوبة من دراسة مجتمع أكثر شمولا مثل بلاد اليونان. وهو ما قد يصدق على بعض المدن اليونانية الأخرى، مثل كورنثة أو طيبة أو حتى اسبرطة أو دولة مقدونيا في أقصى الشمال. ولكن الموقف مختلف بالنسبة إلى أثينا بالذات؛ ومن دون الدخول في تفصيلات كثيرة، فمن المعروف أن بلاد اليونان لم تعرف الوحدة السياسية الشاملة طيلة تاريخها القديم قبل العصر الروماني. فبسبب ظروف تضاريسها الجبلية المنتشرة، وتباين انتماءات عناصرها السكانية، انقسمت اليونان إلى بيئات

معزولة بعضها عن بعض. وبسبب الحواجز الجبلية كان الاتصال أو الانتقال بينها برًا شديد الصعوبة فاتجهوا دائما إلى ركوب البحر، وكونت كل منها دويلة مكتملة مستقلة، عرفت كل منها اصطلاحا باسم دولة المدينة (polis)؛ وكان لكل دويلة أو (پوليس) - كبرت أو صغرت - مواطنتها ودستورها أو نظامها السياسي والإداري وجيشها وسياستها الداخلية والخارجية الخاصة بها. وكانت أثينا (وكذلك اسبرطة) من أكثر هذه الدويلات اتساعا، من حيث مساحة الأرض وكثرة السكان. وقد تميزت أثينا بأهمية الموقع وسهولة الانفتاح على البحر شرقا وجنوبا. ونظرا إلى ما عرفته من رخاء اقتصادي وتطور سياسي وازدهار ثقافي طيلة العصر الكلاسيكي، أي فيما بين 800 - 300 ق.م. تقريبا، كانت أثينا أهم مركز حضاري وثقافي في بلاد اليونان بأسرها. نتج عن ذلك أن معظم روائع الإبداع العقلي اليوناني الذي وصلنا، جاء من أثينا وحدها: في التاريخ والأدب والشعروالفلسفة... وكان من نتيجة ذلك أننا نعرف عن أثينا أكثر مما نعرف عن أي مدينة يونانية أخرى، وهو ما يعبر عنه المؤرخ هوبر Hopper في قوله «المشكلة عند تناول موضوع الإنتاج والتبادل التجاري في اليونان خلال العصر الكلاسيكي هي أننا نعرف قليلا عن المدن الأخرى بعكس أثينا، التي استأثرت بالرواية التاريخية»[13]. كما سيتضح أيضا من الدراسة التي نعرض لها فيما يلي.

على الرغم مما ذكرناه من قبل أن المؤرخين والمؤلفين القدماء لم يكونوا عادة يهتمون بالجوانب الاقتصادية، فإن بعضا منهم لم يغفلوا الجانب الاقتصادي؛ وعلى سبيل المثال نذكر الشاعر هيسيود والمؤرخين هيرودوت وكسينوفون، ومن الفلاسفة أفلاطون وأرسطو. ومن دون التطرق إلى تفصيلات سيرد ذكرها في ثنايا الدراسة، فإننا نقتصر هنا على إشارات عامة تعكس شيئا من ملامح فكر كل منهم في الاقتصاد على بساطته الشديدة أحيانا. فنجد الشاعر هيسيود الذي لم يكن أثينيا، يسجل ظاهرة عامة في بلاد اليونان خلال القرن السابع، وهي ظاهرة نزوح كثيرين إلى الهجرة إلى خارج اليونان وتأسيس المستوطنات على ساحلي البحرين الأسود والمتوسط، على الرغم من أنه يُرجع هذه الظاهرة إلى «ظلم القضاة... وتعدي الأقوياء على حقوق الضعفاء». السبب في هذا التفسير السطحي أن هيسيود نفسه - سواء صدقا أو خيالا - قاسى من تعدّي أخيه الأكبر على نصيبه في الميراث، وحين تقدم إلى القضاء لم ينصفه القضاة[14].

كما يلاحظ هيرودوت فترة الانتعاش الاقتصادي التي عاشتها أثينا وحلفاؤها خلال فترة نصف قرن في أعقاب الانتصار على الفرس (480 - 431 ق.م.)، وذلك نتيجة للأسلاب التي غنموها من الفرس، وبعد تكوين حلف ديلوس الذي تحول إلى امبراطورية أثينية، عادت الايرادات من الحلفاء على الأثينيين بالبذخ وبالرخاء[15].

وإذا انتقلنا إلى الفلاسفة، نلاحظ أن أفلاطون في عرضه لبناء جمهوريته، يؤكد الأساس الاقتصادي لها وهو ما يتضح في قوله:

«تنشأ دولة المدينة (Polis) لأننا منفردون لا نستكفي، كل بنفسه، لأن لكل واحد منا احتياجات متعددة. وبسبب كثرة حاجاتنا، فنحن بحاجة إلى أفراد كثيرين لتحقيق ذلك. ومن ثَمَّ لزم قيام مجتمع من كثير من الأفراد ليتعاونوا ويساعد بعضهم البعض فيما هم بحاجة إليه...، وينشأ من مجموع هؤلاء السكان ما نُسميه الدولة. ويتبادل السكان المنافع - أخذا وعطاء - لأن في ذلك مصلحتهم»[16].

ونجد شيئا شبيها بهذا المعنى عند أرسطو في شرح عبارته الشهيرة «الإنسان بطبعه كائن مدني» فيقول: «ذلك أنه لا يمكنه الحياة منفردا، لذلك كانت الدولة (Polis) ضرورية لتصبح حياته ممكنه»[17]. وهو قول في جوهره مماثل لما ذهب إليه أفلاطون.

هناك نقطة أخرى تتعلق بالفكر الاقتصادي والسياسي معا، يختلف بشأنها الفيلسوفان. فنرى في جمهورية أفلاطون، يلزم أن يتفانى الحكام - أو فلاسفة الدولة المُثلى - في النهوض بأعباء الحكم بإخلاص وتجرد كاملين، لا يداخلهما أي نزعة من الأنانية أو المصلحة الشخصية. من أجل أن يتحقق ذلك على أكمل وجه، يجب أن تغيب الملكية الشخصية من حياتهم؛ وتُخصص لهم ملكية عامة مشتركة. وكذلك يُحرَّم عليهم استخدام الذهب والفضة. والسبب في هذا كله أن أفلاطون يرى في غريزة التملك والرغبة في التربح إغراء شديدا قد يعرضان مصلحة الدولة للضرر[18]. على النقيض من ذلك نجد أرسطو يقرر ضرورة أن تكون الملكية ملكية شخصية، بشرط أن تستخدم من أجل المصلحة العامة. وواجب المُشرع أن يعمل على أن يغرس في الناس هذه النزعة نحو الخير[19]. على أن أفلاطون يُعدِّل قليلا من موقفه في مرحلة لاحقة في كتاب القوانين ويقترح أن يكون الحد الأقصى لعدد المواطنين هو 5040، وأن يُمنح كل مواطن ملكية قطعة محددة من الأرض لا يجوز التصرف فيها. وإذا لم يُنجب المواطن، يمكن تدارك الموقف عن طريق التبني[20].

من بين مجالات الاقتصاد التي أثارت اهتمام المفكرين قديما، وما زالت تثيره إلى الآن، هو موضوع النقود والمال. وقد كان لأرسطو أفكاره في هذا المجال التي تتميز بالجِدّة والطرافة في عصره[21]. فهو يقول إن النقود ضرورية، لأن المعاملات داخل المجتمع لا يمكن أن تتم من دون وجود وسيلة للتبادل (التجاري) أو مقياس لقيمة الأشياء. وهو يميز بوضوح بين المال والثروة؛ فعلى الرغم من أن المال ضروري فإنه ليس كائنا طبيعيا، مثل ثمار الأرض. فالنقود لا تلد، وهي شيء ميت لا حياة فيه، ونفعه فقط باعتباره وسيلة للتبادل التجاري وليس لشيء آخر. لذلك كان الربا بحق مكروها، لأنه يزيد ثروتنا بالمال ذاته، وليس عن طريق استخدامه في الغرض الذي من أجله وجد أصلا، وهو أنه وسيلة للتبادل التجاري[22].

هذه بعض الأفكار والنظريات التي تدل على أن الاقتصاد شَغل رجال الفكر في اليونان قديما. وسوف نعود فيما بعد إلى معالجة جوانب منها من حيث الممارسة والتطبيق في مراحل التاريخ الأثيني.

التضاريس والظروف الطبيعية

كان الإقليم الذي تقع فيه أثينا يعرف باسم أتيكا، يمثل شبه جزيرة في الجنوب الشرقي من بلاد اليونان. وقد استطاعت أثينا أن تستفيد من الطبيعة الجغرافية لإقليمها إلى أقصى حد. فالإقليم بحكم موقعه يتجه شرقا إلى بحر ايجه، ويوجد على ساحله الغربي ميناءان طبيعيان لهما شهرتهما، وهما بيرية وفاليرون. ونظرا إلى وقوعهما على الساحل الغربي لشبه جزيرة أتيكا، كان الميناءان يتمتعان بحماية طبيعية من العواصف العنيفة الآتية من ناحية الشمال والشمال الشرقي في فصلي الخريف والشتاء. كما ينتشر في بحر إيجه في اتجاه الشرق عدد كبير من الجزر الصغيرة والمتوسطة، التي تكاد تُكوِّن جسرا يصل بين الميناءين ومنطقة إيونيا على ساحل آسيا الصغرى الغربي.

ويتمتع إقليم أتيكا بمناخ البحر المتوسط المعتدل والمنتظم عادة، فمواسم رياحه منتظمة وخصوصا في فصل الصيف، حين تهب الرياح الشمالية اللطيفة التي عرفت باسم الرياح الإتيسية (Etesian) فكانت رياحا مواتية تدفع سفنهم من اليونان إلى كريت وإلى مصر. ومنها تعود مرورا بسواحل سورية وقبرص ثم بمحاذاة ساحل آسيا الصغرى الجنوبي إلى اليونان[23].

ومن ناحية البر، تنفصل عن أقليم بيوتيا (Beotia) من ناحية الشمال بسلسلة من الجبال متوسطة الارتفاع ولكن يسهل اختراقها. ومن ناحية الغرب نجد جزيرة إيجينا في خليج سارونيك Saronic Gulf وتكاد تصل أتيكا بشبه جزيرة البلوبونيز في جنوب اليونان، والتي تقع فيها دولة إسبرطة العدو التقليدي لأثينا.

أما من حيث الثروة الطبيعية، فلم تكن وفيرة، ولكنها كافية لحياة عدد غير قليل من السكان. فهناك مساحات من الوديان الخصيبة نسبيا، ممتدة بين سلاسل الجبال والتلال؛ وكان أشدها خصوبة وادي إليوسيس Eleusis. والتربة ممتازة في معظم أرجائها لزراعة أشجار الزيتون والكروم بوفرة تكفي الاستهلاك المحلي وتدعم جزءا كبيرا من التجارة الخارجية عن طريق تصدير كميات كبيرة من الزيوت والخمور الممتازة. وهناك مساحات أقل تصلح لزراعة الغلال من قمح وشعير، ولكنها لا تكفي الاستهلاك المحلي، ومن ثم الاعتماد على الاستيراد كما سنبين فيما بعد. وتنمو على الجبال الأعشاب وأشجار الأخشاب التي كانت تمد السكان بمادة طبيعية مكنتهم من صناعة السفن وركوب البحر. وفيما يتعلق بالمعادن فقد وجدت فيها مناجم معدني الفضة والرصاص؛ ولكن لم يوجد الحديد والنحاس. كذلك وجدت طبقات من الطمي أمدتهم بمادة ممتازة لصناعة الفخار الجيد. كما أمدتهم الجبال القريبة بأنواع ممتازة من أحجار الرخام والحجر الجيري الذي استخدموه في إقامة المباني والمنشآت الرائعة التي اشتهرت بها أثينا[24].

ساعدت هذه الظروف الطبيعية مجتمعة إقليم أتيكا على تحقيق الوحدة السياسية تحت زعامة أثينا، التي أصبحت عاصمة ومقرا للإدارة والحكم. وتنسب الروايات التاريخية القديمة

تحقيق الوحدة السياسية إلى شخصية، يغلب عليها الطابع الأسطوري، وهو الملك ثيسيوس الذي يرجعونه إلى نحو ما قبل القرن الثالث عشر ق.م.[25] ولكن الدراسات الحديثة ترجح أن الوحدة السياسية لأتيكا لم تتم دفعة واحدة، ولكن تدريجيا وعلى أكثر من مرحلة، ربما كان آخرها في القرن الثامن ق.م.[26] وما أن تحققت الوحدة السياسية للإقليم بأسره، أصبحت دولة أثينا أهم قوة سياسية بين مجموعة المدن الأيونية التي كانت أثينا قد ساعدتها على الهجرة والاستيطان على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، بحكم انتمائهم جميعا إلى مجموعة سكانية واحدة، عرفت بالعنصر الأيوني. كما أصبحت فيما بعد، طيلة القرن الخامس ق.م. القوة السياسية الأولى في مواجهة دولة إسبرطة، التي تزعمت بالمقابل عنصر الدوريين الذين تركزت جموعهم في شبه جزيرة البلوبونيز. فكانت إسبرطة أهم قوة عسكرية برية في مواجهة أثينا التي كانت تمتلك أقوى أسطول حربي في اليونان[27].

السكان

لعل من المناسب هنا أن نذكر كلمة موجزة عن السكان؛ فمن المعروف أن بلاد اليونان عامة كانت ولاتزال - من حيث إمكاناتها الزراعية - دولة فقيرة نسبيا، وكانت دائما تعتمد على الاستيراد لتغطية احتياجات السكان من الغلال. بسبب هذا الوضع، كانت المدن اليونانية في خوف دائم من زيادة السكان. فهذا هو الشاعر هيسيود (نحو 700 ق.م.)[28] ينصح رب الأسرة بإنجاب ابن واحد حتى تنمو ثروة الأسرة؛ على الرغم من أنه يدرك أن الإله زيوس قادر على أن يرزق كثرة الأولاد[29]. وحينما تضيق الأرض ويزداد أعداد السكان، تطل معالم الأزمة، ويدب الخلاف بين الناس، بسبب ضيق العيش. وهذا هو هيسيود يصور ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، فإما العنف وإما الهجرة[30] وقد اشتهر اليونانيون بالهجرة دائما، قديما وحديثا.

بالنسبة إلى أثينا، فنتيجة لضيق مساحة الأرض الزراعية، وغلبة زراعة أشجار الزيتون والكروم على أرضها، وقلة مساحة التربة الصالحة لزراعة القمح والغلال، كان اعتماد الأثينيين على استيراد هذه الغلات. ولكن خفف من شعورهم بضيق العيش، اتجاههم منذ عصر مبكر إلى الملاحة والتجارة الخارجية في مناطق البحر الأسود والبحر المتوسط، وخصوصا الغنية بانتاج الغلال. وعلى الرغم من ذلك فقد ظل مسيطرا عليهم نوع من الخوف من نقص الغلال في فترات الأزمات وظروف الحروب. ومن ثم وجدنا المفكرين من أمثال أفلاطون وأرسطو ينصحون بضرورة التمسك بمبدأ تحديد أعداد المواطنين والسكان. فأفلاطون في كتاب «القوانين»[31] يحدد عدد المواطنين الذكور بعدد 5040 مواطنا. كذلك يعلن أرسطو أن أسوأ النظم الديموقراطية هي التي تكثر فيها أعداد المواطنين[32]. ومع ذلك يجب أن نتذكر أن كلا من هذين الفيلسوفين كان خصما للديموقراطية، غير أن أرسطو كان أكثر ميلا إلى الاعتدال، وأفلاطون كان أكثر تطرفا في خصومته. ومما يوضح هذا الموقف أن الرقم الذي اقترحه

أفلاطون كحد أقصى لعدد المواطنين وهو 5040، يكاد يتفق مع عدد المواطنين الذي حددته حكومة حزب الأقلية الأوليجرخي الذي تآمر وانقلب على الديموقراطية العام 411 وحدد عدد المواطنين المتمتعين بالحقوق السياسية بعدد 5000 مواطن الذين يتوافر لديهم حد أدنى من ملكية الأرض، من أصل ما يزيد على 30,000 مواطن متمتعين بالحقوق السياسية كاملة تحت الديموقراطية[33].

إذا تحولنا من النظريات الفلسفية والنزعات السياسية المتطرفة وبحثنا عن أرقام إحصائية وردت في مصادرنا القديمة، فهناك عدد منها، ولكن نظرا إلى ما يشوبها من غموض أو قصور أحيانا، اختلفت آراء الدارسين حول مقدار مصداقيتها. فهناك مثلا ما أورده الكاتب أثينايوس[34] (نحو 200م) نقلا عن كاتب سابق يسمى كتيسيكلس Ktesikles بشأن إحصاء أجراه ديميتريوس الفاليري حاكم أثينا (317 - 307 ق.م.). الأرقام التي أوردها هي 21,000 مواطن؛ 10,000 أجانب مقيمون؛ 400,000 من العبيد. ويضيف أثينايوس أيضا مدعيا النقل عن تيمايوس الفيثاغوري، والفيلسوف أرسطو، أنه وجد في جزيرة إيجينا 470,000 من العبيد، وفي مدينة كورنثة 460,000 عبد. ومظهر المبالغة الشديدة واضح في أرقام العبيد، مما جعل الدارسين المحدثين يرفضون صحة جميع الأرقام التي أوردها هنا أثينايوس، خصوصا أن سترابون[35] وصف جزيرة إيجينا المواجهة في البحر لإقليم أتيكا، بصغر الحجم وأنها جبلية وصخرية. وإذا ما علمنا أن عدد سكانها في الآونة الحديثة أقل من 10,000 نسمة فإن الرقم الذي أورده أثينايوس بالنسبة إلى العبيد، يعتبر مستحيلا[36].

هناك إحصاءات من نوع آخر، قد تكون أكثر دلالة. في عبارة مشهورة للخطيب والسياسي الأثيني ديموسثيس قالها في 338 ق.م[37]. إن أثينا «استوردت من بونتوس Pontus (على البحر الأسود) 400,000 ميديمنوس من الغلال (أي القمح)[38]، وإن هذه الكمية تعادل ما تستورده أثينا من سائر البلاد الأخرى». ويضيف ديموسثيس «أنه يمكن التحقق من صحة ذلك من سجلات الجمارك في ميناء بيريه». إذا ما قبلنا مصداقية الأرقام التي يذكرها ديموسثيس[39] فيكون جملة ما استوردته أثينا العام 338 يبلغ 800,000 ميديمنوس. يمكننا أن نضيف إلى هذه الغلال المستوردة بيانات أخرى وردت في نقش على جانب كبير من الأهمية يرجع إلى العام 329 ق.م. يتضمن سجلا إحصائيا بما حصَّله معبد الربتين ديميتر، ربة الغلال، وابنتها بيرسيفوني في بلدة إليوزيس المجاورة لأثينا[40]. ذلك أن هذا المعبد كان يجبي ضريبة سنوية على محاصيل الغلال التي تزرع في إقليم أتيكا بنسبة 1/600 من الشعير و1/1200 من القمح. وبجمع مقادير ما تم تحصيله في هذا النقش، يمكننا أن نستنتج مجمل محصول أتيكا من الغلال في ذلك العام، الذي يبلغ 402,512 ميدمنوس من القمح والشعير (تفصيلها 39,112 ميدمنوس قمحا، و363,400 ميدمنوس شعيرا)[41]. فإذا ما علمنا أن فترة

330 - 325 ق.م. كانت فترة محاصيل ضعيفة في إقليم أتيكا[42]، فيمكننا أن نقدر أن متوسط محصول الغلال في سنة عادية لا يزيد على 600,000 ميديمنوس من القمح والشعير معا[43]. وعلى ذلك يكون متوسط استهلاك أهل أتيكا سنويا من الغلال نحو 1,400,000 ميديمنوس.

فإذا قبلنا ما يفترضه بعض الدارسين، أن متوسط استهلاك الفرد من الغلال هو 6 ميديمنوسات في السنة، فإن ذلك يعني أن عدد سكان أتيكا في نهاية القرن الرابع نحو 233,000 نسمة، شاملة جميع الفئات[44]. ولكن لا بد أن ندرك أن هذا الرقم تقريبي بدرجة عالية، لأن هناك عدة عوامل نجهلها؛ فنحن نجهل تماما عدد الدواب والحيوانات وطبيعة غذائها؛ كما أننا نغفل نسبة النساء والأطفال الذين يفترض أن حاجتهم من الغذاء أقل من الرجال عادة. ولكن تبقى حقيقة واضحة أن مقدار ما كانت تنتجه أتيكا محليا من الغلال كان أقل من نصف ما تحتاجه سنويا، ومعنى هذا أن أثينا كانت بصفة دائمة تعتمد اعتمادا كبيرا على استيراد الغلال، الأمر الذي جعلها معرضة لاحتمالات السوق العالمي ومخاطره، وخصوصا في ظروف الأزمات والمجاعات.

ويمكننا أن نقدم هنا مثالا من الفترة التي تتحدث عنها الإحصاءات السابقة، وذلك فيما بين 331 و324 ق.م. حين حدثت مجاعة شملت بلاد اليونان[45]. يُحدثنا كتاب «الاقتصاد» المنسوب إلى أرسطو[46] كيف استطاع كليومينيس من نقراطس بمصر، الذي عينه الإسكندر مسؤولا عن الشؤون المالية في مصر (331 - 323)، أن يحتكر تصدير القمح، وأن يتلاعب بأسعاره. في تقديمه للفصل الخاص بسياسة كليومينيس، يذكر مؤلف كتاب «الاقتصاد»، أن ذلك حدث في الوقت الذي وقعت فيه مجاعة شديدة في شتى البلاد، بينما كان محصول القمح في مصر معتدلا. بسبب ذلك كان سعر التصدير عشر دراخمات للكيل الواحد (ميدمنوس)، وهو أكثر من ضعف متوسط السعرفي أوقات الرخاء. وقد استطاع كليومينيس أن يشتري المحصول من المنتجين بهذا السعر وأن يحتكر تصديره، وباعه في اليونان بسعر 32 دراخمة للكيل الواحد (ميديمنوس).

وقد نتساءل، كيف استطاع كليومينيس أن يتحكم ويفرض هذا السعر المرتفع في بلاد اليونان؟ من حسن الحظ أن لدينا خطبة تنسب إلى الخطيب الأثيني الأشهر ديموسثيس، وتتضمن شرحا للأساليب التي اتبعها كليومينيس في ممارسة تجارته العالمية من الإسكندرية[47].

كُتبت هذه الخطبة (نحو العام 322) «ضد ديونيسودوروس Dionysidorus» أحد سماسرة كليومينيس، في قضية أقيمت ضده في أثينا. وفيها نجد شرحا - عدوانيا بالضرورة - كيف استطاع هذا المحتكر الفذ أن يُكوِّن شبكة هائلة من الوكلاء والسماسرة في موانئ البحر المتوسط التي تهمه، وأن هؤلاء كانوا يزودونه بأحوال السوق في الخارج، وأنهم كانوا يتعاقدون باسمه لتوريد القمح وغيره؟ ولعل من المناسب أن نقتبس هنا العبارات التي تصف سياسة كليومينيس[48].

«هؤلاء الرجال هم عملاء وأعوان كليومينيس، الحاكم السابق لمصر، والذي منذ أن تولى الحكم هناك، ألحق ضررا كبيرا بأثينا وسائر اليونان، عن طريق شرائه القمح كله وبيعه ثانيا، وتحديد سعره كما يشاء. ولإحكام خطته، كان يتخير أعوانا له يعملون على هذا النحو: بعضهم يبعثون بالسلع من مصر، وآخرون يُبحرون بها في سفنهم، بينما يقيم آخرون في أثينا لتوزيع البضاعة، ثم يحدث أن يرسل هؤلاء الذين يقيمون في أثينا برسائل إلى الوكلاء الآخرين يحيطونهم علما بحال السوق، بحيث إذا كان السعر مرتفعا في أثينا أحضروا القمح إليها؛ أما إذا انخفض السعر فيها، ذهبوا بالقمح إلى ميناء آخر. هذا هو السبب الرئيسي في ارتفاع سعر القمح، بفضل هذه المراسلات وتلك المؤامرات!».

يتضح من هذا النص مقدار أهمية قمح مصر لأثينا خاصة واليونان عامة، بحيث أن من يسيطر على تصدير القمح المصري، كان يتحكم في تحديد سعره في اليونان. وما من شك أن هذه التجارة كانت تحقق أرباحا هائلة لمن يمارسونها. ولدينا شاهد من الشعر لا يخلو من دلالة، وهو ما ورد في إحدى قصائد الشاعر الغنائي باخيليدس Bacchylides الذي كتب في مطلع القرن الخامس حين ارتفع نجم أثينا السياسي على رأس إمبراطورية من جزر ومدن بحر إيجه، وأصبحت تؤدي دورا قياديا في التجارة العالمية. وقد عثر على مجموعة من أعماله في بردية تم اكتشافها العام 1896 في بلدة القوصية بصعيد مصر. وفي إحدى هذه القصائد يصور باخيليدس أحلام رجل لعبت الخمر بلبه، فيتخيل:

«وكأن منزله يزخر بالذهب والعاج،
وكأنه يمتلك سفنا مشحونة قمحا
تسري على صفحة البحر المتلألئة،
حاملة له الثروة العريضة من مصر.
هكذا يحلم قلب الفتى عندما تشعشع الخمر برأسه»(49).

سلعة أخرى اختصت بها مصر واحتكرت إنتاجها وتصديرها في التاريخ القديم، وهي أوراق البردي التي اعتُبِرت أفضل وأسهل مادة للكتابة، وكانت المجتمعات المتحضرة في حاجة مستمرة لاستيرادها لشتىَّ أغراض الكتابة وخصوصا في بعض دول حوض البحر المتوسط منذ القرن السابع على الأرجح. ومن المؤكد الآن أن استخدام أوراق البردي صار معروفا وربما مألوفا أيضا مع ارتقاء نظم الإدارة ونمو مظاهر الثقافة والتحضر منذ القرن السادس ق.م.، في اليونان عامة وفي أثينا على وجه الخصوص حين أسست بها مكتبة عامة ودار للسجلات الرسمية زمن بيزستراتوس (560 - 527 ق.م.)،

ومن بعده بوليكراتيس (540 - 522 ق.م.) في جزيرة ساموس(50). ونظرا إلى عدم وجود منافسة لمصر في إنتاج البردي وتصديره فإن سعر ورق البردي في اليونان كان يعتبر مرتفعا

بالنسبة إلى أجرالعامل (يقدر أجر العامل الفني بقدر دراخما واحدة في اليوم). ومن حسن الحظ أن عددا من النقوش الكتابية أمدتنا بأسعار البردي في اليونان. وقد أفادت دراسة لتغير أسعار البردي التي وردت في هذه النقوش فيما بين القرنين الخامس والثاني ق.م.، أن البردي كان متوافرا واستعماله شائعا في اليونان[51]. ويتضح من هذه الدراسة أن السعر كان مستقرا بصفة عامة للورقة الواحدة بين 1 و12/3 دراخمة، وأحيانا ارتفع السعر إلى دراخمتين. ولكن نجد حالة نادرة استثنائية العام 267 حين ارتفع السعر فجأة إلى عشر دراخمات للورقة الواحدة. ولا نعرف السبب الحقيقي لهذا الارتفاع المفاجئ، سوى أنه في العام 267 - 266 نشبت حرب بين اتحاد المدن اليونانية وأنتجونس ملك مقدونيا للتخلص من سيطرته. ونعلم أن أثينا طلبت المساعدة العسكرية من الملك بطلميوس الثاني، ولكنه لم يفعل، وانتصر أنتجونس وتوطد سلطانه في اليونان[52].

ولكن هناك موقفا آخر من منتصف القرن الرابع ق.م. يظهر لنا تأثر الأسعار بأحداث السياسة والحرب؛ وهو يتمثل في خطاب كتبه الفيلسوف سبيوسبّوس Speusippus إلى الملك فيليب المقدوني، وفيه نقرأ عبارة نادرة تسجل العلاقة بين أحداث السياسة وأثرها في الأحوال الاقتصادية. إذ نجد الفيلسوف يعتذر في ختام خطابه إلى الملك عن عدم توافر الورق اللازم ليكتب كل ما يريده بشأن تحقيق الوحدة في العالم اليوناني التي كان يدعو إليها الملك، ويضيف قوله: «إلى هذا الحد أصبح الورق نادرا منذ أن احتل الملك الفارسي مصر». (العام 343 - 342)[53] هذه العبارة التي ختم بها الفيلسوف خطابه إلى الملك تفسر حال السوق، وكيف يمكن أن يرتفع السعر إلى عشر دراخمات، وهو سعر لا يتحمله فيلسوف متوسط الحال على الرغم من شدة حاجته إلى الورق.

ولنا أن نتساءل كيف كانت أثينا تدفع قيمة ما كانت تستورده من مصر، من قمح وبردي وكتان وغيرها من سلع كانت مصر تستورد خاماتها من أفريقيا وجنوب غرب آسيا وخاصة البخور والتوابل والأعشاب الطبية والعاج والأبنوس والأحجار الكريمة. ونحن نعرف أن تجارة الصادر والوارد قديما كانت تتم على أساس المقايضة أو السعر بالكامل، وهو ما كان يحدث. وقد سبق أن ذكرنا أن أثينا كانت قادرة على أن تُصدر إلى مصر خامات تلزمها مثل الأخشاب أو المنسوجات الصوفية أو خامات أخرى تعتبر كمالية مثل زيت الزيتون وأنواع النبيذ الممتازة. ونظرا إلى أن مصر كانت تكاد تكتفي بما تنتجه من مواد غذائية ومنسوجات، غير أنها كانت في حاجة إلى استيراد الأخشاب بصفة خاصة، وهو لا يعادل قيمة ما تُصدِّره إلى أثينا من القمح والبردي فقط، خلاف سلع غالية أخرى. لذلك كانت أثينا تدفع فرق القيمة من معدن الفضة الذي وُجدت مناجم غنية منه في أتيكا، وصنعت منه نقودها الفضية المشهورة، والتي كانت مصر في أشد الحاجة إليها. ومما يؤكد ذلك كثرة ما تم العثور عليه من النقود الأثينية في مصر طوال القرنين الخامس والرابع[54].

تجارب الأثينيين الاقتصادية وتطورهم السياسي

حاولنا في القسم السابق من دراستنا أن نعرض لظروف إقليم أتيكا الطبيعية ومقوِّماته الاقتصادية، الإيجابية منها والسلبية. وقد رأينا أن مدينة أثينا قادت الإقليم على مراحل في الانتقال من الانقسام والتوزع إلى الوحدة السياسية. وعلى الرغم من سلبيات الإقليم الاقتصادية، استطاعت أثينا أن تجعل منه قوة سياسية واقتصادية يُحْسب حسابها داخل اليونان وخارجه طوال ثلاثة قرون تقريبا (- 335 600 ق.م.). أما كيف تحقق ذلك، فقد كان نتيجة الأسلوب الذي تعامل به الأثينيون مع ما واجههم من أزمات معقدة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا. وسوف نحاول الآن أن نستعرض أهم المواقف التي تؤكد أن التحول التاريخي كثيرا ما يمر بأزمات تلتحم فيها عناصر الاقتصاد والاجتماع والسياسة. وبقدر وضوح الرؤية وصدق المقصد يكون الاهتداء إلى الحل الأفضل والممكن؛ وكثيرا ما يكون العامل الاقتصادي هو المحرك للعمل السياسي.

فترة نشأة دولة المدينة

يكتنف الغموض فترة الانتقال من عصر البرونز إلى عصر الحديد والقرون الثلاثة التالية بعد ذلك (1100 - 700 ق.م.)، وهي فترة اصطبغت بالعنف والفوضى في منطقة شرق البحر المتوسط، وذلك لأنها فترة اقترنت بتحركات بشرية جماعية وهجرات مدمرة في البر والبحر[55]. فنسمع عن غارات «شعوب البحر» من أجناس متعددة تهاجم السواحل للنهب والسلب أو الاستيطان كلما أمكنهم ذلك. وفي البر داخل اليونان نسمع عن هجرات متتابعة من قبائل عرفت باسم الدوريين، يزحفون من الشمال (1130 - 1000 ق.م.). وبسبب العنف والتدمير الذي أنزلوه بكثير من البقاع، أشاعوا الذعر في نفوس الأهالي في الأماكن التي مروا بها، ودفعوهم إلى الهجرة، حتى استقروا أخيرا في شبه جزيرة البلوبونيز (أو المورة) بعد أن طردوا كثيرا من سكانها، ومنها أيضا إلى جزيرة كريت.

لم يحدث أن هوجمت أتيكا أثناء المرحلة الأولى من الغزوات، لذلك أصبحت ملاذا للمهاجرين من بقاع أخرى. ولكن حدث أثناء زحف الدوريين إلى البلوبونيز عبر برزخ ميجارا وكورنثا، أن حاولت عناصر منهم مهاجمة أتيكا، ولكن تمكن الأثينيون من التصدي لهم ومنعهم عند الحدود (حوالي 1050). إن قدرة الأثينيين على مقاومة هذه الموجة الأخيرة من الدوريين يقوم دليلا على أن أثينا كانت قد أصبحت أكثر قوة وأفضل تنظيما وقيادة من سائر بقاع اليونان التي انهارت أمام زحف الدوريين. وفعلا عمَّت معظم اليونان حال من الفوضى وعدم الاستقرار، واضطر كثير من الأهالي إلى الالتجاء إلى أماكن أكثر أمنا. واتجهت الموجة الأولى من المهاجرين من وسط اليونان، ويعرفون باسم الأيوليين، عبر بحر إيجة إلى القسم الشمالي من الساحل الغربي لآسيا الصغرى، وأصبحت تسمى باسم «أيوليا Aeolia». ثم كانت الهجرة

الثانية وأكثرهم من الإيونيين الذين فروا من البلوبونيز أمام الغزو الدوري، ولجأوا إلى أتيكا التي كانت قد نجت من الدوريين. ولم تلبث أثينا أن ضاقت بهم مع آخرين كانوا قد سبقوهم، فنظمت لهم هجرة استقرت أعداد منهم في بعض جزر بحر إيجه ولكن أكثرهم اتجه إلى القسم الأوسط من الساحل الغربي لآسيا الصغرى؛ وأصبحت المنطقة التي استقروا بها تُعرف باسم «إيونيا Ionia»[56] وهكذا نشأت رابطة قوية بين أثينا والمدن الإيونية سيكون لها نتائج تاريخية فيما بعد. ثم تحركت موجة ثالثة من الهجرة، من الدوريين أنفسهم تحت ضغط هجراتهم المتأخرة واستقروا في الجزء الجنوبي من الساحل الغربي لآسيا الصغرى.

يمكننا أن نتصور تلك الفترة القاسية وشدَّة ما مرَّت به اليونان من الاضطراب والمحن، مع انعدام السلطة المنظمة في كثير من الأحيان. ويعلق المؤرخ الأثيني ثوكوديدس على تلك الفترة وكيف انتهت، بهذه العبارة:

«مرَّ زمن طويل قبل أن تعرف اليونان (Hellas) ثانية حياة الاستقرار وتتخلص نهائيا من حياة النقلة والهجرة المستمرة. عندئذ شرعت في إرسال المستوطنات خارجها. فمن ناحية أقامت أثينا مستوطنات إيونيا ومعظم الجزر في بحر إيجة وحوله؛ بينما نجد البلوبونيز خاصة وأماكن أخرى من اليونان، يقيمون مستوطنات في أجزاء من إيطاليا وصقلية»[57]. ويصور ثوكوديدس هذا الموقف أيضا تصويرا ذكيا واضحا، وكيف تميزت أثينا عن غيرها من بقاع اليونان، فيقول:

«حيثما كانت التربة أكثر خصوبة، كان احتمال تغيّر السكان أكثر حدوثا... لأن سهولة اكتفاء الأفراد بمساحات صغيرة، ساعد على التفرد والاستقلال عمن جاورهم، وعدم قيام وحدات سياسية كبيرة؛ ولذلك يكونون أكثر جذبا لمطامع الغزاة الأجانب. ومن الطريف أن نستشهد هنا بمثال أتيكا، التي بسبب فقر تربتها، لم تعان من الانقسام والتشرذم السياسي، وظل يسكنها دائما سكانها الأصليون. في الواقع هذا مثال مهم لنظرتي، أنه بسبب الهجرات في البقاع الأخرى لم يكن النمو مطردا. فعندما طُرد الناس من أوطانهم في اليونان نتيجة للحروب أو القلاقل السياسية، لاذت العناصر الأكثر قوة للاحتماء في أثينا، لكونها مجتمعا مُستقرّا، ثم أصبحوا مواطنين. وسرعان ما ازداد حجم السكان عن ذي قبل؛ ونتج عن ذلك أن أتيكا لم تتسع للزيادة السكانية، وأرسلت مستوطنات إلى إيونيا»[58].

نتبين من العرض السابق أن تلك الفترة التي عاصرت غزوات الدوريين وما أعقبها ونتج عنها، تُمثّل نقلة كبرى بكل المقاييس في تاريخ اليونان. فبعد تلك الهزَّة العنيفة التي أحدثها الغزو الدوري، عكف سكان كل إقليم من أقاليم اليونان على إعادة تنظيم أحوالهم بما يتفق ويتواءم مع ظروفهم الجديدة اجتماعيا واقتصاديا. ونظرا إلى اختفاء الكتابة القديمة تماما، لم يصلنا فيما بين القرنين الحادي عشر والثامن ق.م. أي نوع من الكتابة، باستثناء روايات شفهية

توارثتها الأجيال واحتفظ بأطراف منها الشعراء والإخباريون. ومع عودة ظهور فن كتابة جديدة، أخذها اليونانيون عن الفينيقيين[59] نجد أنفسنا أمام خريطة جديدة تماما تختلف عن عالم هوميروس القديم سياسيا واجتماعيا واقتصاديا. فبدلا من «الممالك» القديمة الهومرية، نجد دويلات من نوع مختلف عرفت باسم «دولة المدينة» (باليونانية اصطلاحا Polis)[60] كما سبقت الإشارة. ومن الواضح أن هذا التطور في شكل الدولة، اقترن بنظام الحياة الاجتماعية التي كان عمادها عددا من العائلات «الأرستقراطية»[61] القوية والعريقة، التي سبقت إلى الاستئثار بأكبر مساحة من الأرض الخصيبة في الوديان؛ بينما استقر الأهالي العاديون في الأرض الأقل خصوبة في أطراف الوديان وأسفل سفوح الجبال، أو يعملون في فلاحة الأرض عند الأسر الغنية.

ويبدو أن الكيان السياسي الجديد الذي نطلق عليه اصطلاحا «دولة المدينة» أثبت نجاحا منفردا في اليونان، وقدرة فذة على التطور والرقي الحضاري بسرعة ملحوظة. فلم يقنع اليونانيون عامة بالاستمرار في الحياة في ظل نظام سياسي واحد، وكانت لديهم الجرأة على خوض تجربة نظمهم السياسية، على نحو لم نر له مثيلا في العالم من قبل. فعلى الرغم من أن تكويناتهم الاجتماعية قامت أصلا على النظام البدائي القبلي، فإنهم سرعان ما تجاوزوا القبيلة إلى النظام الملكي، وعرفوا الوحدة السياسية في ظل النظام الملكي الذي كان مألوفا في النظم السابقة[62]. ولكن يبدو بعد فشل النظام الملكي في مواجهة غزوات الدوريين، تمكنت العائلات الأرستقراطية أن تتخلص من سلطة الملك، وأن تقيم نظاما جديدا يستأثرون فيه بالسلطة مكان الملك. وهم في ذلك يعتمدون على أمرين: النسب العريق أو الشريف، وعلى قيمة ما يقدمونه لمجتمعهم من فضل وخدمة وعطاء[63]. ويبدو أن فترة الأرستقراطية هي التي تمكنت فيها أثينا من مقاومة الغزو الدوري (نحو 1050) والقيام بتنظيم الهجرة الكبرى إلى الجزر في بحر إيجه وإيونيا على ساحل آسيا الصغرى، كما سبق بيانه. وقد ساعد هذا الانتشار الإيوني على مزيد من النشاط التجاري وخصوصا في البحر المتوسط. وانعكس ذلك على المجتمع الأثيني والأيونيين بنمو طبقة جديدة من رجال الصناعة والتجارة خلال القرنين الثامن والسابع ق.م. وهو ما حدث أيضا في مجتمعات أخرى مثل مدينة كورنثة التي اتجه نشاطها التجاري غربا في إيطاليا وصقلية. وبسبب ما حققته الطبقة الجديدة من نمو وثراء، كثيرا ما شاركها أفراد من الأسر الأرستقراطية، كما حدث تزاوج وترابط بين الفئتين. وهكذا نشأت طبقة جديدة من أثرياء النسب والأرض وأثرياء المال. وتدريجيا تسبب ترابط المصالح أن اتسعت الطبقة الحاكمة، وتغيّرالمصطلح السياسي من «الأرستقراطية» إلى «حكم الأقلية Oligarchia»[64].

ومن الطريف أن الدليل الأثري يعكس ماديا ما حدث في أثينا من تطورات؛ ويتمثل هذا الدليل المادي فيما تخلف من تلك الحقبة من فخار. فنجد صانع الفخار الأثيني يتجاوب

مع ما يحدث في الحياة العامة من تطور وما يطرأ عليها من تغيير. فإذا به يغيِّر ويطور أنماط وزخرفة الأوعية الفخارية تبعا لتلك المتغيرات. فمع بداية عصر الحديد في القرنين الحادي عشر والعاشر يظهر نوع من الأوعية الكبيرة (amphora) ذات زخرفة بسيطة عرفت اصطلاحا باسم الأسلوب «الهندسي المبكر proto-geometric»، الذي يصل إلى أرقى مستوياته نحو العام 1000 ق.م. وهو يتسم برسم خطوط متوازية تدور حول الوعاء، ويتصل بها أهِلَّة أعلاها أو أسفلها؛ ويتميز هذا الأسلوب بالتناسق بين الزخرفة وشكل الوعاء، مع إحساس مرهف بالنِّسبة التي تحقق الجمال. وسرعان ما انتشر هذا الفن الأثيني المتميز في أنحاء بحر إيجه، وذلك بطبيعة الحال في فترة الهجرات الإيونية وما أعقبها مباشرة. فليس هناك شك في أن رواد تلك الهجرات الذين حملوا معهم أحيانا ذلك الفخار، هم الإيونيون الذين هاجروا من أثينا؛ فهم الذين فتحوا طرق الملاحة أمام الأثينيين وسائر اليونان. وما من شك أيضا في أن هذا النجاح الذي حققه الإيونيون، يرجع قبل كل شيء إلى القوة البحرية والقيادة الرشيدة التي استطاعت أثينا أن تقدمها لهم. وفيما بين القرنين العاشر والثامن تطور الأسلوب «الهندسي المبكر» إلى أسلوب أكثر تطورا، عُرف بالأسلوب «الهندسي Geomrtric». وهنا نجد الفنان الأثيني أكثر حرصا على تغطية سطح الوعاء كله تقريبا بأشكال هندسية مختلفة. ثم بدأت تظهر في ثنايا الفن الهندسي أشكال حيوانات صغيرة الحجم، ثم سفن وعربات، أو بشر في أوضاع قتالية عدة، أو مشاهد جنائزية[65]. يعكس هذا التطور في مجال الفن شيئا من اعتزاز صانع الفخار الأثيني بما حققه وطنه من ازدهار في ذلك الوقت المبكر في ظل دولة المدينة.

نمتلك دليلا أثريا على انتشار الفخار الأتيكي في ركاب تجارة أثينا، يتمثل في مجموعة كبيرة من الأمفورات عرفت باسم «أمفورات SOS» نسبة إلى الزخرفة أو الرموز التي رسمت على عنق كثير منها. وهي أوعية كبيرة الحجم يكسو معظم البدن لون داكن به حزوز أعلى الكتف، يغلب عليها البساطة وعدم الاتقان، كانت مستخدمة فيما بين نهاية القرن الثامن حتى منتصف القرن السادس ق. م. وقد عثر على بقاياها في عدد كبير من المواقع حول البحر المتوسط وما وراءه، مثل كريت، قبرص، إيطاليا، صقلية، إسبانيا وغيرها. وبتحليل الطينة التي صنعت منها هذه الأمفورات تأكد أن معظمها جاء أصلا من أتيكا. من الواضح أن هذه الأوعية استخدمت في تصدير زيت الزيتون بكميات كبيرة طوال القرن السابع قبل الميلاد على الخصوص؛ ويبدو أن تناقص وجودها خلال النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد - على الرغم من تشريعات سولون المشجعة على تصدير زيت الزيتون - يمكن تفسيره بزيادة إنتاج الزيت محليا في المستوطنات اليونانية التي أسست حول حوض البحر المتوسط، مما انعكس سلبا على صادرات أثينا[66].

وصاحب هذا التطور أمران مستجدان آخران أحدثا ثورة في مجال التجارة الخارجية، مما مكّن الإغريق عامة والأثينيين خاصة من أن يمسكوا بزمام التجارة العالمية، مزاحمين بذلك الفينيقيين. الأمر الأول، هو اختراع العملة لتكون لأول مرة وسيلة تحدد بها قيمة السلعة بدلا من نظام المقايضة السابق. وكانت بداية هذا الاختراع في دولة «ليديا» في آسيا الصغرى نحو منتصف القرن الثامن، حيث صنعوا نقودهم من معدن البلاتين، الغالي والنادر. وسرعان ما تلقف جيرانهم تجار المدن الإيونية الاختراع الجديد، وكذلك بعض المدن التجارية داخل بلاد اليونان مثل جزيرة إيجينا Aegina وكورنثة وأثينا الذين صنعوا نقودهم من معدن الفضة ذي القيمة المناسبة، والذي وجدت مناجمه في أقاليمهم. وكان لانتشار استخدام العملات أو النقود وسيلة للمعاملات التجارية والمالية فعل السحر في مضاعفة نشاط التجارة العالمية.

الأمر الثاني الذي اقترن بهذا التحول الثوري في التجارة العالمية، هو أننا وجدنا مستوطنات المهاجرين السابقين وخصوصا إيونيا وبعض المدن اليونانية التجارية، ترسل مزيدا من المستوطنات الجديدة إلى سواحل البحر الأسود وسواحل البحر المتوسط. فمن الملاحظ أنه بدءا من منتصف القرن الثامن أقام الإغريق مستوطنات في إيطاليا، صقلية، جنوب فرنسا، شمال غرب إسبانيا، شمال إفريقيا، شمال بحر إيجة، البحر الأسود. وفي تقدير أحد الباحثين أنه أمكن إحصاء نحو من ثلاثين مدينة تأكد تأسيسها في مصادرنا الأدبية فيما بين 730- 680 قبل الميلاد[67]. ومن أمثلة هذه المستوطنات الجديدة مدينة نوقراطيس Naucratis في غرب الدلتا بمصر، ومدينة قورينة Cyrenae في برقة بليبيا، ومدينة مارسيليا Marssilia في جنوب فرنسا حاليا[68]. ونلاحظ أن مواقع هذه المستوطنات وغيرها قد اختيرت بعناية بالغة لتخدم أغراض التجارة اليونانية ومتطلبات السوق المحلية في اليونان؛ ومن أهم هذه المتطلبات استيراد القمح والغلال كما يتضح من إحدى الخطب المنسوبة لديموسثنيس الخطيب والسياسي الأثيني الأشهر (الذي سبقت الإشارة إليه)[69].

كان لهذه التطورات نتائج بعيدة الأثر في أحوال المجتمع في عدد من المدن اليونانية التي شاركت في تلك الثورة الاقتصادية ومن بينها أثينا بطبيعة الحال. من بين هذه النتائج أن تضاعف حجم التجارة العالمية في أيدي اليونانيين. كما صاحب نمو هذه التجارة نموٌّ كبير في بعض الصناعات، ومن أهمها زيادة هائلة في صناعة السفن وتطورها لتلبي احتياجات التجارة. وهكذا نمت فئة مُلاّك السفن وصناعها الذين زادوا طبقة الرأسماليين الجدد عددا وقوّة. وبالإضافة إلى نمو الصناعة، زادت أعداد العبيد الذين قامت الأعمال الشاقة مثل الصناعات الكبرى على أيديهم، مزاحمين في ذلك العمال الأحرار. كما استُخدم العبيد خاصة في أعمال الملاحة والتجديف، وكذلك في أعمال المحاجر والمناجم التي زاد استغلالها مع زيادة

الحاجة إلى استخراج معدن الفضة من مناجمه الغنية في أتيكا (أشهرها منجم لوريون Laurion)[70]. وذلك لتغطية حاجة التجارة من النقود.

كان لهذه التطورات الكبرى في عالم التجارة والصناعة آثار بعيدة على الطبقات الاجتماعية من ناحية، والبناء السياسي للدولة من ناحية أخرى. وقد بلغت هذه المتغيرات حد الأزمة مع ذروة الثورة الاقتصادية في نهاية القرن السابع ق.م.. وقد لخص المؤرخ الأثيني ثوكوديدس هذا الموقف في عبارة بليغة، إذ يقول:

«مع زيادة استقرار الأحوال في اليونان، وزيادة الحرص على اقتناء المال... زاد حجم الإيراد العام، ومعه راجت صناعة السفن، كما اتجهوا أكثر وأكثر إلى ركوب البحر»[71].

تقترن في هذه العبارة المقتضبة ألفاظ «اقتناء المال» و«زيادة الإيراد العام» مع «صناعة السفن» و«ركوب البحر». هذه لغة جديدة على التجربة الإنسانية، وذلك بسبب استحداث عنصر جديد في الاقتصاد العالمي، وهو اختراع النقود وانتشار استخدامها باعتبارها أفضل وأسهل وسيلة لشتى المعاملات التجارية والمالية. وقد نتج عن ذلك ظهور ما يمكن أن يسمى «رأس المال»، فلأول مرة أصبح من الممكن أن يختزن الإنسان «ثروة من المال» من عام إلى عام، وإلى أعوام كثيرة من دون أن يخشى عليها من التلف أو المرض والآفات. قبل ذلك كانت ملكية الأرض مع ما عليها من ماشية هي أقوى أنواع الملكية، وهو مازال ثابتا في اعتقاد كثير من الناس حتى الآن. ولكن أرسطو كان أكثر إدراكا لأهمية المتغيرات التي جَدَّت في عالم الاقتصاد التي أشرنا إليها، فنجده ينتقد من يقصر مفهوم الثروة على ملكية الأرض، لأن الثروة في رأيه، «قد تقوم بجانب الأرض، في العبيد والماشية والمال، وغير ذلك من المنقولات»[72].

هذه العبارة تتفق وتُكمل تصوير الموقف الذي وصفه ثوكوديدس قبله، كما رأينا في العبارة المشار إليها من قبل. فكل من ثوكوديدس وأرسطو يتحدث عن المتغيرات التي طرأت على الحياة الاقتصادية في النصف الثاني من القرن السابع ق.م. وهي فترة التحول من الاقتصاد الطبيعي إلى اقتصاد المال الذي يقوم على أساس النقود المعدنية. هذا التحول، كانت له نتائج متباينة شديدة الخطورة على الأوضاع الاجتماعية. فبقدر ما أفادت منه طبقة الأغنياء من القلة الحاكمة (oligarchia) انعكس الموقف سلبا على الطبقات الأقل ثراء والأكثر فقرا الذين كانوا يتمثلون في صغار ملاك الأرض والمزارعين المستأجرين. فأخذ هؤلاء المزارعون من الفئتين يعانون من عبء مزدوج، الأول من ارتفاع الأسعار الذي اقترن بالرواج التجاري من ناحية، وعبء نقص المحاصيل في سنوات قلة الأمطار أو الجفاف من ناحية أخرى.

فإذا حدث وواجه صغار المزارعين موسما أو مواسم من المحاصيل الضعيفة، وهو أمر محتمل الحدوث، فإنهم يجدون العائد من تلك المحاصيل الضعيفة لا يفي بمتطلبات حياة أسرهم. لذلك يجد المزارع نفسه مضطرا إلى الاستدانة من أحد الأغنياء أو كبار ملاك

الأرض. فإذا علمنا أن قانون الديون في ذلك الوقت كان بالغ القسوة، لأن القرض كان يتم بضمان الأرض، إذا كان المدين يمتلك أرضا وإذا كان معدما ولا يمتلك أرضا، يقترض بضمان شخصه، وأسرته إذا لزم الأمر. فإذا علمنا أن القوانين في ذلك الوقت - أي حتى القرن السابع ق. م. لم تكن مسجلة أو مُعلنة وإنما يحفظها رؤساء الأسر الكبيرة في صدورهم عُرفا من جيل إلى جيل وكان منهم الحكام والقضاة؛ وتصدر الأحكام على أساس العُرف المتوارث. وحين تصدر الأحكام على أساس العُرف، كثيرا ما تختلف باختلاف طبائع الأفراد. في ظل هذه الظروف نجد النزعات الطبقية أكثر تأججا، وأشد حدّة وتأثيرا في أفكار الأفراد وأحكامهم. وما من شك أن أفلاطون يصف مثل هذا الموقف أكثر من مرة، فنجده يقول[73]:

«في ذلك العصر المبكر، لم تكن القوانين المكتوبة معروفة، وكان الناس يمارسون حياتهم بناء على ما هو مألوف، ووفق العُرف المتوارث من أسلافهم؛ ومعرفة القانون - بمعنى المبادئ التقليدية العامة التي على أساسها تصدر الأحكام في المنازعات أو ما خالف المألوف أو تقدر الجزاءات وفق السوابق المماثلة - كانت امتيازا واحتكارا للأرستقراطية. فالإدارة كلها كانت بأيدي أفرادٍ من طبقة غيورة من الأسر النبيلة والغنية؛ يمارسون مسؤولياتهم على نحو لا يكادون يحيدون عنه، وهو أن يحقق مصالحهم الشخصية، ومصالح طبقتهم».

وفي موقع آخر من «الجمهورية» ينتقد أفلاطون، حكم الأقلية الأوليجاركية نقدا لاذعا، فيتحدث «عن عدم انضباط الأوليجاركيين في السعي إلى تحقيق مآربهم في الثراء إلى أقصى ما يمكنهم. فمن الواضح أن حب المال وضبط النفس صفتان لا تجتمعان في أي مجتمع»[74].

صولون والأزمة الاقتصادية

في هذه الظروف تورط كثيرون من متوسطي الحال أحيانا والمزارعين في اقتراض الديون من الأغنياء، وعجزوا عن رد ديونهم، ومنهم من فقدوا ما كان لهم من أرض صغيرة، وآخرون أتعس حظا، فقدوا حريتهم وتحولوا إلى الرق. وفي العام 600 تقريبا تأزم الموقف بسبب حدة الانقسام الطبقي وأصبح ينذر بخطر يهدد باشتعال ثورة شاملة. ولم يقتصر هذا الوضع على أثينا، ولكن كان شائعا في عدد من المدن التجارية؛ وفي كثير منها تمكن أحد الزعماء السياسيين الطموحين في السلطة والحكم من تزعم طبقة المستضعفين من العامة، وقاد ثورة واستأثر بالحكم لنفسه، وهو ما عُرف عند اليونان القدماء باسم tyrannus وتترجمها عادة بكلمة «طاغية»[75].

ولكن أثينا، كان لها مسارٌ مختلف نوعا ما. ومن حسن الحظ أننا نمتلك الآن وثيقة تاريخية على أكبر جانب من الأهمية وهو كتاب لأرسطو بعنوان «دستور الأثينيين». هذا الكتاب كان قد فُقد تماما ولم يصلنا ضمن أعمال أرسطو؛ ولكن في العام 1890 أمكن العثور على هذا الكتاب شبه كامل على أوراق البردي في مدينة البهنسا بصعيد مصر. هذا الاكتشاف غيَّر

كثيرا من معلوماتنا عن تاريخ أثينا السياسي، كما أضاف معلومات دقيقة عن الدستور الأثيني الممارس في عصر أرسطو نفسه أى في القرن الرابع ق.م. وسوف يلاحظ القارئ أننا سوف نعتمد عليه كثيرا في ثنايا هذه الدراسة[76]. نجد في هذا العمل فقرة مشهورة[77]، يصور فيها أرسطو الموقف في نهاية القرن السابع على النحو التالي:

«كان هناك صراع داخل المدينة لمدة طويلة بين النبلاء وعامة الشعب. فقد كان النظام السياسي أوليجارخيا في كل شيء، خصوصا أن الفقراء وزوجاتهم وأولادهم كانوا مُستعبدين للأغنياء، وكانوا من فئتين يُطلق على فئة «أتباع» (pelatai)، وعلى فئة سُدسيون (hektemoroi) لأنهم كانوا يدفعون هذا القدر (1/6 المحصول) إيجارا عن الأرض التي يفلحونها للأغنياء، حيث كانت الأرض كلها بيد الأقلية. فإذا حدث وعجزوا عن دفع الإيجار يصبحون هم وأولادهم عبيدا، إذ كانت الديون بضمان أشخاص المدينين إلى زمن صولون، وهو أول من صار زعيما للشعب. على ذلك كان أسوأ وأقسى ما في النظام السياسي فيما يتعلق بأكثرية الشعب هو مسألة استعبادهم. هذا فضلا عن أنهم كانوا ساخطين على كل شيء، إذ يمكن القول إنهم لم يكن لهم نصيب في شيء».

يُعتبر هذا النص في كتاب «دستور الأثينيين» من أشهر النصوص في تاريخ أثينا القديمة، لأنه يصف موقفا خطيرا كاد يهدد كيان الدولة. ورغم وضوح الموقف القانوني الخاص بالديون، فمازال الموقف يشوبه شيء من غموض حول المقصود بكلمتي بيلاتاي pelatai وهكتيموروي hektemoroi الكلمة الأولى تُفيد نوعا من التبَعيَّة بمعنى من يعيش ويخدم صاحب الضياع الكبيرة مقابل رزقه وحمايته وأسرته (وهو شبيه بكلمة clientes اللاتينية والموالي العربية). أما الكلمة الثانية، هكتيموروي التي ترجمتها «السُّدْسيون» فأكثر صعوبة لأن منشأهم غير واضح ذلك أن وجودهم تركز في أتيكا وفي بعض الجزر المجاورة التي خضعت لأثينا بعض الوقت[78]. كما أنهم لم يكونوا مستأجرين أحرارا عاديين، ولكنهم كانوا واقعين تحت التزام في علاقتهم بالأغنياء أصحاب الأرض (كما يتضح من نص أرسطو). وربما كان منشأ فئة السُدسيين أصلا، أنهم كانوا مُلاك أرض، وفي ظروف التحولات الاقتصادية اضطروا إلى الاستدانة بضمان الأرض، وحين عجزوا عن سداد الدين، استولى الدائن على الأرض المرهونة واضطر المدين إلى التعاقد مع الدائن على زراعة الأرض مقابل دفع سُدْس المحصول. فإذا عجز عن دفع قيمة السُدس في سنوات الجفاف، أصبح مهددا بأن يصير هو وأسرته عبيدا للمالك الغني[79]. مما يؤيد هذا التفسير أن فئة السُدسيين (hektemoroi)، اختفى وجودها بعد أن ألغى صولون الديون بضمان الأشخاص، كما سيرد فيما بعد.

كذلك كان هناك اختلاف بين الباحثين حول مدلول كلمة (hektemoroi) التي معناها السدسيون، وسبب هذا الخلاف أن بعض المصادر القديمة فسرها بمعنى أنهم يدفعون

السدس، إيجارا للمالك[80] بينما فسرها آخرون بمعنى أن المزارع كان يتقاضى «سدس» المحصول أجرا مقابل فلاحة الأرض ويدفع للمالك 6/5 المحصول[81] ومن الواضح أن التفسير الأول هو الأصوب، والشائع الآن بين الدارسين[82].

هذا الموقف الذى وصفه أرسطو، ازداد حدَّة في أثينا خلال الثلاثين سنة الأخيرة من القرن السابع، إلى درجة أصبحت تهدد بالانفجار. وتمت فعلا محاولات للتصدي للأزمة بأساليب مختلفة. الأولى حين حاول أحد شباب النبلاء الطموحين، يسمى كيلون Kylon - مستعينا بحاكم طاغية في منطقة ميجارا (المجاورة لأثينا) - أن يستغل الانقسام الطبقي ويقيم نفسه طاغية في أثينا. ولكن حدث أن تصدى له النبلاء وحشدوا جماعة من أهل الريف المسلحين، وقضوا على محاولته بالقوة في العام 632. تكشف هذه الحادثة وما أحاطها عن حالة التوتر وعدم الاستقرار، كما تكشف عن موقف عام بين كثير من الأثينيين ضد حكم الطاغية[83].

يبدو أن محاولة كيلون - على الرغم من فشلها - حركت مخاوف إدارة النبلاء إلى ضرورة اتخاذ إجراء بهدف امتصاص سخط العامة. ونظرا إلى أن من دواعي السخط العام - كما سبق أن ذكرنا في أشعار هيسيود وفيما سجله أفلاطون - هو عدم تسجيل القوانين، مما جعل العامة لا يطمئنون إلى أحكام القضاة[84]. لذلك قرر النبلاء في عام 621 اختيار واحد منهم يسمى دراكون، مهمته الأساسية تسجيل القوانين المستخدمة مع إعادة صياغتها أو تعديل بعضها، وهو ما يشير إليه أرسطو صراحة بأن دراكون «وضع قوانين إضافة إلى الدستور القائم»[85]. ولعل ما قيل من اشتهار قوانينه بالقسوة البالغة لا يعكس موقف دراكون بقدر ما يعكس الدستور القائم وقت توليه المسؤولية[86]. وذلك لأن كثيرا من الجرائم كان جزاؤها الإعدام، حتى أنه قيل أن دراكون سُئل ذات مرة، لماذا أكثر من عقوبة الإعدام، فردَّ قائلا «لأن بعض الجرائم الصغيرة يستحق مرتكبها الإعدام، أما الجرائم الكبرى فلم أجد لها جزاء أشد». ولكن لا ينبغي أخذ هذه النوادر مأخذ الجد. لأننا يجب أن ندرك أولا أن مهمة دراكون الأساسية كانت مراجعة القوانين وكان طبيعة القوانين القائمة تميل إلى العنف والقسوة بهدف الردع لا الإصلاح. ولم يكن هذا مقصورا على أثينا فقط، ولكنه كان شائعا في بدايات التشريع في التاريخ القديم كله، ولعل خير مثال لذلك ما نجده في قوانين حمورابي. ومما يؤكد براءة دراكون من تهمة القسوة أن نص القانون الوحيد من وضعه والذي بقي لنا في نقش من العام 409 والخاص بجريمة القتل، نجده يُفرق بين القتل العمد والقتل الخطأ. ففي الحالة الأولى نجد الإعدام جزاء لجريمة القتل العمد؛ أما القتل الخطأ فجزاؤه النفي، مع جواز العفو كلية بعد اجراءات قانونية محددة، ورد تفصيلها في النقش المذكور[87]. هذا التمييز بين أنواع الجريمة ذات الطبيعة الواحدة، يعكس فكرا قانونيا متطورا وينفي عن دراكون صفة القسوة المطلقة[88].

لذلك كان من نتائج تسجيل القوانين أنها أكدت شرعية ما كان يشكو منه العامة من ظلم القضاة. وهكذا ازداد الموقف تأزما، واشتد الصراع بين العامة وطبقة النبلاء الحاكمة والمتحكمة (الأوليجاركيين)، حتى أوشك الموقف على الانفجار وفق تصوير أرسطو السابق ذكره في بداية كتابه «الدستور الأثيني». وتجنبا لاحتمال الثورة والانفجار، مما يمكن أن يستغله أحد السياسيين الطموحين ويقيم نفسه طاغية أمكن أن يتفق الطرفان المتصارعان على اختيار صولون ليكون «حَكَما وحاكما» العام 594 - 593، كما منحوه تفويضا باستحداث وإضافة ما يراه لازما من قوانين لإنقاذ الدولة[89].

صولون ورفع العبء عن المستضعفين

يصور أرسطو الموقف في أثينا الذي واجهه صولون في عبارة مقتضبة قوية، فيقول:

«كانت الكثرة مستعبدة للأقلية، وتصدى الشعب للأغنياء، واحتدم الصراع، ووقف كل جانب بالمرصاد للآخر»[90]. وقد نتساءل، لماذا أجمع الأثينيون على اختيار صولون وفوضوا أمر الدولة إليه؟ ويقدم أرسطو توضيحا لذلك، فيقول مُعرِّفا بشخص صولون: «إنه من حيث نسبه وأسرته كان من أكثرهم رفعة؛ ومن حيث الثراء وإمكاناته المادية، ينتمي إلى الطبقة الوسطى... وكان ينحو باللائمة على الأغنياء في أنهم السبب في الصراع المحتدم»[91]. من المواقف السياسية العامة التي أظهرت رجاحة تفكير صولون، دوره المؤثر في إقناع الأثينيين بضرورة الاستيلاء على جزيرة سلاميس الواقعة في الخليج المواجه لساحل أتيكا الغربي العام 610، وكانت تنازعها ميجارا Megarsa في الاستئثار بتلك الجزيرة، وبذلك تهدد حرية ملاحة الأثينيين في ذلك الخليج. بعد ذلك بثلاث سنوات قام صولون بدور مماثل في توجيه سياسة أثينا نحو الاستيلاء على موقع سيجيون Segeion في منطقة طروادة، إلى الشمال من ساحل آسيا الصغرى. وسوف يكون لهذين الموقعين تأثير كبير على نمو تجارة أثينا في المستقبل. فالاستيلاء على سلاميس سوف يفسح المجال لزيادة نصيبها في تجارة البحر المتوسط؛ بينما سيجيون ستمكن أثينا من الاستئثار بنصيب الأسد في تجارة البحر الأسود، المصدر الغني بإنتاج الغلال كما سبق أن ذكرنا[92].

هذه المواقف تكشف عن حس مرهف وخبرة مباشرة بمصالح أثينا في مجال التجارة العالمية، ومن المؤكد أن صولون كان وثيق الصلة بتلك التجارة وهو ما يؤكده نشاطه في هذا المجال، ورحلاته الملاحية قبل قيامه بإصلاحاته التشريعية وبعدها. فقد ذكر هو نفسه في بعض أشعاره، كما ورد أيضا عند أرسطو وبلوتارخس وديوجينيس اللائرتي، علاقات صولون التجارية والشخصية والمعرفية مع الساحل الغربي لآسيا الصغرى وقبرص ومصر وربما سورية[93].

لهذه الأسباب مجتمعة، احتل صولون مكانة رفيعة بين الأثينيين، كما اشتهر بالحكمة ورجاحة العقل؛ لذلك اتجهت إليه الأنظار ليعمل على إنقاذ الوطن من المحنة المعقدة والانقسام

الحاد بين الحزبين المتنازعين. وقد أدرك صولون أن السبب الحقيقي للأزمة هو الوضع الاقتصادي والاجتماعي أولا وقبل كل شيء، ثم هناك جانب آخر واجب الإصلاح وهو إدخال تعديلات مهمة على عناصر أساسية في النظام السياسي للدولة. وسوف أقصر تناولي هنا على الجانب الاقتصادي، وأحيل القارئ إلى المقال الخاص بالجانب السياسي في هذا العدد.

وفعلا نجد صولون في مجالي الاقتصاد والاجتماع يُقدم على إصدار قوانين ثورية وجذرية، في حين كانت إصلاحاته في مجال النظم السياسية - على أهميتها وخطورتها - أكثر اعتدالا. كما أنه بدأ بإصدار قوانينه الاقتصادية قبل أن يتحول إلى علاج الوضع السياسي. فنجد أرسطو يؤكد أنه بمجرد أن نُصِّب في السلطة أصدر قانونا مهما يعتبر نقطة تحول في تاريخ الشعب الأثيني، وصفه أرسطو بأن صولون بهذا القانون «حرر الشعب، وذلك أنه حرَّم الديون بضمان شخص المدين في الحاضر والمستقبل». وأعقب ذلك مباشرة إصدار قوانين إسقاط أو إلغاء جميع الديون الخاصة والعامة، وهو الإجراء الذي أصبح يسمى «رفع العبء seisacheia» بمعنى أنهم تخففوا من العبء الذي كان يثقل كاهلهم[94].

وما من شك في أن صدور هذين القانونين كان صدمة عنيفة لكثير من النبلاء والأغنياء، فأخذوا يتقولون على صولون ويسيئون إليه، بأن بعض أصدقائه كانوا على علم مسبق بالقانون، فاقترضوا أموالا واشتروا أراضي واسعة، ولما ألغيت الديون أصبحوا من الأغنياء. ولكن أرسطو يستنكر هذه الإشاعات بذكر أقوال المؤيدين لصولون من حزب الشعب، «بأن رجلا في حكمة واعتدال صولون لا يمكن أن يأتي مثل هذه الأفعال، وقد كان بمقدوره - لو شاء - أن يستأثر بالسلطة ويخضع الجميع لسلطانه، ويقيم نفسه طاغية. ولذلك يرفض هو (أرسطو) تلك الإشاعات رفضا مطلقا»[95].

ولنا أن نقول إن مجرد قبول النبلاء والأقلية الحاكمة (أوليجاركيا) على كثرة ما خسروه من أرض وأموال نتيجة لتلك التشريعات، يدل على شدّة خطورة الموقف. بمعنى أنهم كانوا أمام اختيارات صعبة ومؤلمة، وهي إما خسارة أموال الديون والأراضي التي كانت مرهونة لهم، وإما مواجهة ثورة من الشعب عارمة من الذين كانوا يطالبون بمصادرة جميع الأرض الزراعية وإعادة تقسيمها بالمساواة بين جميع المواطنين وهو ما يذكره صولون نفسه في إحدى قصائده التي أوردها أرسطو[96]. لكل هذه الاعتبارات، يرى أرسطو أن قانون تحريم الديون بضمان شخص المدين، أكثر تشريعات صولون ديموقراطية[97]. كما أن قانون إلغاء الديون الخاصة والعامة كان مكمِّلا للتشريع الأول، لأنه حقق بهما هدفين حيويين هما ضمان حرية الإنسان الأثيني وتحرير كثير من الأرض الزراعية التي كانت رهنا لدى الأغنياء ضمانا لاسترداد ديونهم. فكان يقام على مثل تلك الأرض لوح أو عمود من الحجر horos لبيان أنها في حيازة الدائنين. هكذا، بإلغاء الديون الخاصة والعامة، استرد جميع المدينين أرضهم التي كانت

«مسترقة» للدائنين الأغنياء، وفق وصف صولون لها(98). ومما يؤكد شمولية هذا التشريع، أنه لم يقتصر على تحرير الأثينيين الذين فقدوا حريتهم الشخصية وصاروا عبيدا داخل أثينا، ولكنه حرص على أن يتتبع الأثينيين الذين كانوا قد صاروا عبيدا بسبب الديون داخل أثينا ثم بيعوا خارجها، أو أولئك الذين واجهوا محنة العجز عن رد الديون فلاذوا بالفرار من الدولة إلى بلاد أخرى. تتبع صولون هؤلاء، وأعلن حريتهم وأرسل في استرجاعهم مقابل تعويض أسيادهم عما لحقهم من خسارة في المال. وقد نتساءل كيف تمكن صولون من تحصيل تلك الأموال الطائلة؟ الاحتمال الأرجح أنه جمعها من الأغنياء وكبار التجار أو ربما كان لبعضهم أرض مرهونة وسقط عنها الرهن بعد قانون إلغاء الديون. فإذا صح هذا الرأي، فإنه يؤكد مدى خطورة الموقف، وأنه كان ينذر بثورة شاملة، لأن كثيرين من الذين بيعوا عبيدا أو فروا خارج أثينا، كان لهم أسرهم وأقاربهم في قرى الريف، وكانوا ساخطين ومتحفزين للثورة إذا سنحت الفرصة. لذلك لم يكن غريبا أن نجد صولون يسجل هذا الموقف في إحدى قصائده، مفتخرا بما أنجزه باسم إنقاذ الوطن. ولعل من المناسب هنا أن نقتطف أبياتا من هذه القصيدة التي لا تخلو من طرافة:

«هل من غاية حَشَدْتُ الشعبَ من أجلها
تقاعستُ قبل إنجازها؟
ليكن خير شاهد لي أمام محكمة الزمن
تلك الأرض السوداء،
الأمُ العظمى للآلهة الأولمبية.
فقد أزحتُ عن وجهها لوحات الرهن horoi
التي كانت تُكبلها في كل مكان.
كانت من قبل مُسْترقَةً، والآن حرة.
لقد رددتُ أثينيين كانوا قد غُلبوا على أمرهم،
فلاذوا بالفرار تحت وطأة قَهر الدَيْن،
فما عادوا يتحدثون اللغة الأتيكيَة،
نظرا إلى طول ترحالهم.
كما رددتُ أحرارا هنا في أرض الوطن،
أولئك الذين خضعوا لنير العبودية،
ترتعدُ فرائصُهم أمام سادتهم...»(99)

ومن الجدير بالإضافة هنا أن تشريعات صولون فيما يتعلق بإلغاء الديون كان لها ردود فعل اجتماعية وسياسية بعيدة الأثر؛ ذلك أن المواطنين الأثينيين كانوا ينقسمون إلى أربع طبقات

أو فئات وفق أحوالهم المادية من ممتلكات أو دخل سنوي، على النحو التالي:

1 - **الطبقة الأولى** «الخمسمائة ميديمنوس» الذين يملكون أرضا أو يحققون دخلا قيمته 500 ميديمنوس من القمح أو ما يعادله على الأقل.

2 - **الطبقة الثانية** «الفرسان» الذين يملكون أرضا أو يحققون دخلا سنويا قيمته 300 ميديمنوس أو ما يعادله على الأقل، ويقولون إن هذا هو الدخل الذي يمكّن صاحبه أن يمتلك فرسا (لأغراض الحرب) ولذلك هو «فارس».

3 - **الطبقة الثالثة** سُميت «زيوجيتاي Zeugetai» الذين يحققون دخلا سنويا قيمته 200 ميديمنوس أو ما يعادله على الأقل. وأصل المعنى مساحة من الأرض يكفي لحرثها محراث يجره زوج من الدواب zeugos.

4 - **الطبقة الرابعة** تسمى ثيتيس Thetès، وهم الذين يحققون دخلا أقل مما سبق، وهم الفقراء.

هذا التقسيم الطبقي على هذا النحو يرجع إلى فترة حكم الأقلية الأوليجاركيين، وكان قد سجله دراكون. ولفهم السبب في وجوده، يجب أن ندرك أن المناصب والأعباء العامة في خدمة الدولة لم تكن مأجورة، بمعنى أن من يتولى منصبا أو يؤدي خدمة عامة لم يكن يتقاضى أجرا أو مقابلا ماديا من الدولة، ولكن يتحملها القادرون ماديا باعتبارها خدمة عامة للوطن. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الخدمة العسكرية، لم يكن هناك جيش نظامي مهمته الحرب وحماية الوطن، ولكن كل مواطن قادر فوق سن الثامنة عشرة يتحول إلى جندي كلما دعت ظروف الحرب. لذلك لزم أن يحدد دخل كل مواطن ومعرفة قدرته على تسليح نفسه وبأي نوع من السلاح. ونلحظ هذا المعنى في اسم طبقة الفرسان، لأن امتلاك فرس لأغراض الحرب، يتطلب قدرة مالية معينة. وكذلك الزيوجيتاي، كانوا مؤهلين لتسليح أنفسهم في فرق الجيش من المشاة بتخصصاتهم المختلفة مثل المشاة الثقال hoplites أو المشاة الخفاف، أو الرماة ونحوهم. وبالنسبة إلى الطبقة العليا ذوي 500 ميديمنوس فكان منهم الحكام archontes وقادة الجيوش strategoi ومن يسهمون في بناء الأساطيل الحربية أو الحصون. أما الطبقة الدنيا فلم يكن لهم دور عسكري في الحرب، ولذلك لم تكن لهم في الواقع حقوق سياسية، ويتمتعون فقط بالحقوق المدنية للمواطنين.

هكذا ربط الفكر السياسي الأوليجاركي في ذلك العهد المبكر قبل صولون بين دخل المواطن السنوي وقدرته على الخدمة العسكرية وتولي المسؤوليات السياسية المختلفة. ونظرا إلى أن الفقراء فئة الثيتيس ليس لديهم القدرة على تسليح أنفسهم، فلم يكونوا جنودا في الحرب ويترتب على ذلك ألا يكون لهم نصيب في الحياة السياسية. ولم يكن غريبا أن يضيقوا بهذا الوضع كل الضيق، إذ كانوا يشعرون بأنهم بغير عملهم لا تقوم للدولة قائمة في سلم أو في

حرب. فهم الزراع والصناع والبناة المشيدون، وفي الحرب يقدمون خدمات للجنود المحاربين التي من دونها لا تستطيع الدولة الاستمرار والقتال. علاجا لهذا الوضع رأى صولون في مجال الإصلاح السياسي أن يزيد السلطة التشريعية (الإكليزيا) Ekklesia أهمية في الحياة السياسية في أثينا، وذلك بأن جعل أعضاءها يضمون جميع المواطنين الأثينيين بلا استثناء. لذلك رأى لزاما عليه بعد أن حررهم من خطر العجز الاقتصادي، أن يصدر قانونا يقضي بدخول جميع الثيتيس أعضاء في الإكليزيا على قدم المساواة مع سائر الطبقات الأخرى. وفي مقابل منحهم هذا الحق أصبح عليهم التزام المشاركة في العمل العسكري وقت الحرب كمحاربين «مشاة خفاف التسليح» أو نحو ذلك في الأسطول أيضا. هكذا أصبح أعضاء طبقة الثيتيس مواطنين كاملي الأهلية سياسيا ومدنيا[100].

وفي مجال الاقتصاد، أيضا، أدخل صولون تعديلا على نظام العملة الأثينية بأن جعل وحدة العملة المسماة «مينا mina» تنقسم إلى 100 دراخمة بدلا من 70 دراخمة؛ وجعل وحدة العملة السائدة قيمتها دراخمتان. يكشف هذا التعديل عن خبرة صولون في أسواق التجارة العالمية ونظم العملات السائدة فيها. فوفق نظام العملة الأثينية السابق، كانت تجارة أثينا تكاد تنحصر في أسواق البحر الأسود وشرق البحر المتوسط. ولكن بعد التعديل الذي استحدثه سوف تصبح نقود أثينا منافسة لعملة جزيرة إيجينا وكورنثة[101].

كذلك أدخل صولون تعديلات على نظام المكاييل يتفق مع تعديلات نظام العملة، وأكثر ملاءمة للنظم السائدة في الأسواق العالمية. وتشجيعا وتنشيطا للحياة الصناعية في أثينا، أصدر تشريعات تفرض على آباء الأسر أن يُعلموا أولادهم حِرفا صناعية[102].

وتمشيا مع هذا الاتجاه، يذكر المؤرخ بلوتارخ أن صولون رأى منح المواطنة الأثينية لفئة الأجانب المقيمين في أثينا وكانوا من أنشط العناصر في الحياة الصناعية بصفة خاصة. ولكن يبدو أن هذا التشريع لم يُقدَّر له البَقاء[103].

من بين تشريعات صولون ذات الأهمية الاقتصادية، أنه حرصا منه على استقرار السوق المحلية في أسعار بعض السلع الغذائية في أعقاب إصدار قوانين الديون، اتخذ قرارا بمنع تصدير بعض المنتجات الزراعية وخصوصا القمح، مع استثناء زيت الزيتون الذي كانت هناك وفرة منه في أتيكا. وفي مقابل تصدير زيت الزيتون يُستورد القمح والشعير، وكلاهما غلتان أساسيتان تعاني أتيكا من شدّة الحاجة إليهما[104].

وربما جاء تشجيع صولون في تصدير الزيت في وقت بدأت أثينا تواجه فيه منافسة من المستوطنات اليونانية بإنتاجها الزيت محليا في البحر المتوسط[105]. يتبين من هذا العرض السابق أن صولون كان بطبيعته يميل إلى الاعتدال، حريصا كل الحرص على علاج الأزمة التي كلّف بالتصدي لها. وقد أدرك بخبرته وحصافة رأيه أن للأزمة جانبين: أحدهما اقتصادي

واجتماعي مُلح وخطير، والآخر سياسي ويلزم تناوله بحذر، بعيدا عن التطرف الثوري. وقد رأى أن علاج الجانبين لا يتحقق إلا على حساب الطبقة الحاكمة من الأغنياء (الأوليجاركيين) وهكذا أغضب هؤلاء الأغنياء الذين ناصبوه العداء. وكذلك كانت حاله بالنسبة إلى طبقة الشعب (الثيتيس) الذين كانوا يتطلعون إلى إجراءات أكثر تطرفا مما ذهب إليه صولون. فقد كان منهم من يطالب بإعادة تقسيم الأرض كلها بين المواطنين كافة، وهو ما لم يفعله صولون، لذلك لم يقنعوا بما تحقق لهم وراحوا يطالبون بمزيد. وهكذا تجدد الصراع بين الطبقتين، وبعد أن أنهى ولايته القانونية باعتباره أرخونا لمدة سنة واحدة، قرر مغادرة أثينا والارتحال لزيارة مصر بهدف التجارة من ناحية ومشاهدة البلاد من ناحية أخرى[106].

بيسستراتوس الطاغية ومشكلة الأرض

في ظروف هذا الانقسام الطبقي والصراع الحزبي، وجدت ثلاثة تكتلات سياسية، تركزت جغرافيا في ثلاثة أقاليم طبيعية وعُرفت بمواقع تجمعها وفق تصوير أرسطو في كتاب «دستور الإثينيين» على النحو التالي:

1 - حزب الساحل وهو محافظ معتدل، ويغلب عليه رجال الأعمال.

2 - حزب السهل ويمثل كبار ملاك الأرض والأثرياء الأوليجاركيين.

3 - حزب الجبل وكثر فيه الفقراء من العامة (ثيتيس) وترأسهم بيسستراتوس Peisistratus زعيم الجبهة الشعبية، وكان يسعى إلى إقامة نفسه طاغية Tyrannos في الاصطلاح اليوناني.

وقد حاول بيسستراتوس فعلا الاستيلاء على الحكم بالقوة مرتين وفشل (العام 561 والعام 556)، وتفيَ بعد كل من المحاولتين حتى إذا كانت سنة 546 تمكن من تجميع قوة في الخارج وفي الداخل، وتغلب على المقاومة الضعيفة التي واجهته، وأقام حكما قويا دام 18 سنة حتى 528 [107]، وما إن استتب بيده الأمر، حتى فرَّت مجموعة من العائلات الغنية التي صادر ممتلكاتها[108]. استعان بيسستراتوس بتوزيع هذه الممتلكات المصادرة بين أنصاره من الفقراء، وبذلك أرضاهم من دون أن ينفذ ما كانوا يطالبون به من إعادة توزيع الأرض بين جميع المواطنين. ويضيف أرسطو أنه أعان الفقراء منهم بالمال ليتمكنوا من استصلاح واستثمار ما منحهم من أرض. «وأنه حقق بذلك عدّة أهداف. الأول أن يبعدهم من المدينة وينتشروا في الريف حيث الأرض التي منحها لهم. والثاني هو انشغالهم بالزراعة، بعيدا عن السياسة في المدينة. وثالثا فرض عليهم ضريبة تقدر بنسبة عُشْر المحصول كل سنة»[109].

وتروى في ذلك قصة، أن بيسستراتوس مَرَّ ذات يوم في الريف للتفتيش، فشاهد رجلا يكدح في فلاحة قطعة من أرض وعْرَة، أكثرها حجارة. فسأله كم يَجني من هذه الأرض؟

فأجابه الرجل «لا أجني سوى الألم والعناء، ومن هذا الألم والعناء، يلزم أن أدفع العُشْر لبيسستراتوس». قال هذا غير مدرك أن السائل هو بيسستراتوس نفسه.

أعجب بيسستراتوس بصراحته واجتهاده وأعفاه من الضريبة. لذلك سُميت تلك القطعة من الأرض «المزرعة المعفاة من الضريبة»[110].

اشتهر بيسستراتوس «بأنه باشر حكم الدولة بأسلوب يغلب عليه الاعتدال، وأنه كان أكثر دستورية من كونه طاغية» في عبارة أرسطو المشهورة[111] وقد حرص أولا على استتباب الأمن في الداخل، والمحافظة قدر المستطاع على تجنب الحرب في الخارج، مع إقامة علاقات ودية مع المدن ذات الأهمية التجارية على طريق الملاحة إلى البحر الأسود وهو أحد أهم مصادر القمح؛ وكذلك مع مدينة كورنثة إلى جنوب أثينا في اليونان باعتبارها أهم منفذ إلى أسواق غرب البحر المتوسط. كذلك حاول توثيق علاقة أثينا بالمدن الإيونية في بحر إيجة، واستجابة لوحي إلهي قام بتطهير جزيرة ديلوس، المقر الديني لعبادة الإله أبوللو بالنسبة إلى الإيونيين. لعله بذلك يكتسب مكانة باعتباره راعيا للرابطة الدينية الإيونية، التي كان مركزها مدينة ديلوس[112].

تعتبر هذه السياسة استكمالا لما بدأه صولون. وفي هذا الاتجاه وتلبية لمتطلبات السوق الخارجي أصدر بيسستراتوس وحدة مالية قيمتها أربع دراخمات tetradrachm على أساس وحدة الدراخمة التي كان قد أصدرها صولون[113]. كما استثمر كل المصادر المتوافرة داخل أتيكا وخارجها من مناجم الفضة، ومن أشجار الخشب الصالحة لبناء الأساطيل الملاحية. ساعدت هذه الإجراءات على نمو النشاط التجاري لأثينا في الخارج وفتح أسواق جديدة.

ومن حسن حظ بيسستراتوس أيضا أن صناعة الفخار في أثينا كانت قد تقدمت وتفوقت على فخار كورنثة، ولتوافق الوحدة المالية الجديدة التي قيمتها أربع دراخمات في البلدين، أخذت تجارة أثينا تنافس كورنثة وتحل محلها في الأسواق الخارجية. فوجدنا الفخار الأتيكي يصل إلى مواقع جديدة في منطقة البحر الأسود، وفي مدن إيونيا على ساحل آسيا الصغرى، وقبرص وسورية. وفي غرب البحر المتوسط انتشر تصدير الفخار الأتيكي بكميات كبيرة إلى إسبانيا[114].

الفخار والتجارة الخارجية

وقد نتساءل عن أهمية ارتباط صناعة الفخار بالتجارة العالمية بالنسبة إلى اليونان خاصة؟ ذلك أن الفخار كان يمثل الوعاء الأفضل لصادرات اليونان من السوائل ذات القيمة، مثل زيت الزيتون والنبيذ الممتاز وأنواع من عسل النحل ذات الشهرة. وحتى ذلك الوقت كانت أنواع الفخار اليوناني الجيدة تعتبر أفضل من سائر أنواع الفخار المحلية في كثير من البلاد التي كانوا يتعاملون معها. ومع ارتفاع قيمة وأهمية التجارة العالمية بالنسبة

إلى اليونان، وجدناهم يحرصون على العناية بجودة الأوعية الفخارية، والتأنق في صناعتها وتزيينها. ولم يكن غريبا أن نافست المدن اليونانية بعضها في الارتقاء بما تنتجه من أوعية فخارية. وكان من الطبيعي أن تفطن أثينا لهذا العنصر في اجتذاب أذواق الأسواق العالمية، وخصوصا في مناطق المستوطنات اليونانية المنتشرة على سواحل البحرين الأسود والمتوسط. فوجدنا صانع الفخار الأتيكي يعزف عن «الزخارف الهندسية» التي شاعت في القرنين الثامن والسابع، والتي يغلب عليها طابع التجريد والرتابة والجفاف، إلا في أرقى نماذجها، ويتحول في نقلة نوعية إلى فن أكثر حيوية وجرأة وهو الذي عُرف باسم «التشكيل باللون الأسود black-figure» في تصوير مشاهد نباتية وحيوانية وبشرية. وشاع هذا الفن منذ بداية القرن السادس. وفي ظروف الانتعاش الاقتصادي زمن بيسستراتوس (نحو العام 535)، نجد الفنان الأثيني يضيق بالتصوير باللون الأسود، وفي ثقة ومهارة فائقة يتحول إلى «التشكيل باللون الأحمر red- figure» المبهج والمفعم بالحيوية في محيط من اللون الأسود على باقي سطح الوعاء؛ وفي واقعية وحيوية مبهرة يشكل الشخوص المصورة بالأحمر لإظهار ملامح الوجه وثنايا الملابس بطرزها المتعددة. وسرعان ما استهوى فخار «التشكيل الأحمر» الجديد أذواق المشترين وانتشر في الأسواق العالمية[115].

هذه التطورات المعقدة خلال القرنين السابع والسادس ق.م. التي ربطت بين تأسيس المستوطنات والنمو الهائل في نشاط التجارة العالمية وتطور فن صناعة الفخار على نحو ما ذكرنا، نجد له أيضا صدى من نوع آخر في نشأة محاولات من الاستكشاف الجغرافي لسواحل مجهولة وراء مضيق جبل طارق. وكثيرا ما انعكست هذه المحاولات المبكرة في كتابات اختلط فيها الواقع بالخيال. مثل ما يرويه هيرودوت من أن ملاحا من جزيرة ساموس يسمى كولايوس (Colaeus/ Kolaeus) دفعته رياح شرقية عاتية بعيدا عن مساره إلى مصر في اتجاه الغرب وراء جبل طارق. أخيرا ألقى مراسيه عند مدينة مُبهرة تسمى تارتيسوس Tartessus، التي أحسن إليه ملكها الكريم، وردَّه معززا مكرما[116].

في موقع آخر يذكر هيرودوت أن في النصف الثاني من القرن السادس ق.م.، حاولت مستوطنة يونانية في جزيرة كورسيكا أن ترسل أسطولا بهدف أن يتجاوز مضيق جبل طارق غربا، ولكن الأسطول القرطاجي تصدى له ودمره تدميرا بعيدا [117]. وهكذا استأثر القرطاجيون بمعرفة ما وراء جبل طارق، وأشاعوا مبالغات وتهاويل عن عالم البحر المحيط المخيف وراء ذلك المضيق. من ذلك يتبين أن الإغريق كانوا مدركين أن هناك وجودا وراء المضيق، وكانوا يتوقون إلى معرفته. فنجد هيرودوت يروي أيضا أن الملاح اليوناني سكيلاكس Scylax of Coryanda - الذي كان يعمل في خدمة الملك الفارسي دارا الأول (522 - 495 ق.م.) - كتب وصفا لرحلة قام بها إلى الأقاليم وراء مضيق جبل طارق[118]. كذلك يجل هيرودوت

رحلات نبيل فارسي يسمى ساتاسبيس Sataspes حاول في زمن الملك الفارسي أحشويرش Xerxes (486 - 446 ق. م.) الدوران حول أفريقيا، مبتدئا من جبل طارق. وهي رحلة شبيهة برحلة حنون القرطاجي، وربما كانت محاكاة لها[119].

ثم بلغ الخيال اليوناني ذروته فيما سجله أفلاطون عن «دولة أطلانطس Atlantis «وما كانت عليه من قوّة ومنعة، ثم هبطت وانغمرت تحت أمواه المحيط الأطلسي وراء جبل طارق. وكان لما كتبه أفلاطون عن «أطلانطس» تأثير كبير على الخيال والعقل البشري قديما وحديثا[120].

لعل من المناسب هنا أن نورد ملاحظة لا تخلو من طرافة بشأن العلاقة بين الفخار والتجارة العالمية من ناحية، وتطور أنماط العملة التي أصدرتها أثينا فيما بين القرنين السابع والسادس من ناحية أخرى. ذلك أن أول نقود أصدرتها أثينا قرب نهاية القرن السابع، صُوِّرعليها وعاء الفخار المستخدم في تعبئة وتصدير الزيت، ويطلق عليه اصطلاحا أمفورا الزيت oil-amphora ويقدر تاريخها في 615 - 600 ثم أعقبتها عُملة أقل سُمكا مصور عليها نمط مختلف من أوعية الزيت شديدة الشبه بأمفورات عثر عليها في جنوب إيطاليا وبلاد اليونان؛ وجميعها صنعت في أثينا ويرجع تاريخها إلى ما بين 580 - 600، وهو تاريخ يتفق وفترة إصلاحات صولون، حين كانت وحدة العملة الأثينية السائدة قيمتها دراخمتان. تؤكد هذه الظاهرة العلاقة بين تطور فن صناعة الفخار والتجارة العالمية وسوق المال. وهو ما يعني أن وعاء «أمفورا الزيت» المستخدم في تصدير السلعة الأتيكية الأولى، كان يستخدم شعارا يُصوَّر على عملة الدولة الرسمية، وإعلانا عن تجارتها العالمية في ذلك الوقت.

بعد ذلك مباشرة، تظهر فجأة إلى جانب هذه العملة الرفيعة عملات جديدة مختلفة من حيث الوزن والصورة. فهي أكبر حجما وأكثر سمكا وتزن 4 دراخمات - بدلا من الدراخمتين في عملة صولون - ولها وجهان مُصوَّران: أحدهما فيه رأس الربة أثينة والآخر فيه طائرها المفضل (البومة) وبجانب الطائر غصن الزيتون المقدس مع الحروف الثلاثة الأولى من اسم الربة أثينة. هذه من غير شك هي نقود بيسستراتوس كما سبق أن ذكرنا. وسوف يُقدَّر لهذا النمط الجديد الاستمرار والانتشار[121].

يمكننا في ختام هذه المناقشة عن الفخار وعلاقته قديما بالتجارة العالمية أن نورد فقرة مهمة لهيرودوت التي يتحدث فيها عن مصر والمناطق المجاورة لها شرقا في جنوب سورية حين يقول:

«فالأرض الممتدة في جنوب فينيقيا حتى مدينة غزة يسكنها سوريون يسمون بالفلسطينيين، وجميع الموانئ من غزة حتى مدينة إينيسوس تتبع ملك العرب، وتنتمي إلى السوريين، البلاد من إينيسوس إلى بحيرة سربونس، التي يمتد جوارها جبل كسيون، والأرض وراء بحيرة سربونس هى أرض مصر. والمنطقة الممتدة من مدينة إينيسوس إلى جبل كسيون وبحيرة سربونس (مسيرة ثلاثة أيام) شديدة الجفاف».

بعد هذا الوصف لبعض أقاليم جنوب فلسطين وما يليها جنوبا وغربا، يورد هيرودوت في شيء من الاعتداد بالنفس ملاحظة شخصية له، فيقول: «سوف أذكر الآن أمرا قلما لاحظه أولئك الذين زاروا مصر. فقد كان يأتي إلى مصر في كل عام أوعية فخارية مملوءة نبيذا من كل بلاد اليونان وكذلك من كل البلاد الفينيقية، ومع ذلك يمكن أن يقال إنه لا يكاد يُرى هناك جرَّة (أمفورا) واحدة فارغة. ويمكننا أن نتساءل أين تذهب هذه الجرار؟ وهو ما سأبينه. كان على رئيس كل مقاطعة أن يجمع من مدينته جميع الجرار الفارغة ويرسلها إلى مدينة منف. وهناك في منف يملأونها بالماء ويصدرونها إلى تلك الأقاليم الجافة في جنوب البلاد السورية. وهكذا، فجميع الأواني الفخارية الجديدة التي تأتي من الخارج تفرغ من محتوياتها في مصر وتؤخذ إلى سورية حيث توجد الأواني القديمة»[122].

هذه الفقرة تقدم دليلا على أمرين لهما طرافتهما الخاصة: الأول أنها أقدم إشارة إلى تصدير مياه النيل من مصر إلى الأقاليم الجافة في جنوب فلسطين وشمال الجزيرة العربية وخصوصا في فصل الصيف، مما يمثل مساعدة حيوية على استمرار تجارة القوافل في ذلك الوقت. الأمر الثاني أنها تقدم دليلا على أهمية الجرار اليونانية التي كانت أمفورات أثينا تمثل نسبة كبيرة منها من حيث جودتها وشدة تحملها، فكان المصريون يعيدون استخدامها في تصدير مياه النيل إلى الأماكن الصحراوية. ومما يؤيد صحة ما ذكره هيرودوت هو شدة التماثل بين الأختام على أيدي الأمفورات اليونانية التي عثر عليها في مواقع جنوب فلسطين، وتلك التي وجدت في الإسكندرية وأنحاء متفرقة من الدلتا في مصر من ذلك التاريخ وما بعده[123].

الثورة الديموقراطية

كان لاعتدال بيسستراتوس في ممارسة السلطة مع شدة ذكائه وقوة شخصيته، أثره في إحكام سيطرته على الدولة طوال الفترة الأخيرة من حكمه حتى توفي عام 528. وخلفه في السلطة ابنه الأكبر هيبياس Hipias الذي تمكن من المحافظة على منصبه نحوا من 18 عاما، وذلك بفضل النظام الأمني المحكم الذي كان قد أقامه والده. ولعل عبارة ثوكوديدس في وصف حكم الطغاة تصدق عليه كما تصدق على غيره وهي قوله «إن أول ما يشغل عقل الطاغية، هو التمكين لسلطانه وسلامته الشخصية، وإعلاء شأن أسرته. لذلك كان الأمن هو المبدأ الأساسي لهذا النوع من الحكم»[124]. وكما يحدث أحيانا كثيرة، لم يكن الأبناء في مهارة والدهم، خصوصا أن الابن الأصغر هيبَّارخس Hipparchus كان يغلب عليه الغرور والكبرياء، كما حرص على اجتذاب حلقة من الفنانين والشعراء حوله. وكان لمسلكه الشائن أن تورط في مكيدة أخلاقية أودت بحياته، ويبدو أن تلك المؤامرة كان لها بُعد سياسي أيضا، مما جعل أخاه هيبياس يستشعر الريبة والشك فيما يحيط به، ويخشى المؤامرات في كل مكان. لذلك ركب متن

الشطط وانتابه سوء الظن. ومما زاد الأمر حرجا أن علاقاته الخارجية ازدادت تعقيدا، فتجدد النزاع مع جزيرة إيجينا، كما انتهزت إسبرطة فرصة تغير المناخ السياسي ضد حكم الطغاة بصفة عامة، خصوصا أنهم ازدادوا تقاربا ومسالمة للدولة الفارسية. لذلك عملت إسبرطة على تقويض حكمهم.

في ظل هذه التطورات، نشط الأثينيون الذين كان قد طردهم بيسستراتوس وازدادت أعدادهم في عهد ابنه وخليفته هيبياس. تمكن أحد هؤلاء المنفيين كليسثيس Kleisthenes - وهو من أكثر الأسر عراقة - أن يضُم حوله جميع الأسر المعادية للطغاة، سواء من المنفيين المبعدين أو من العناصر الشعبية في الداخل الذين بدأوا يضيقون بالإرهاب الذي مارسه هيبياس. كما وطد علاقاته مع المدن المعادية للطغاة وعلى رأسها إسبرطة؛ وكوَّن جيشا من المتطوعين، وأعلن التزامه بسياسة جديدة تحقق الديموقراطية في أثينا، وبذلك ضمن تعاون الطبقة الشعبية[125]. وفعلا قام بتحرير أثينا من الطغاة في العام 510. وعلى الرغم من أنه دخل أثينا دخول المنتصر، وعلى الرغم من كونه على رأس أسرة ألكميون الأرستقراطية ذات العراقة، فإنه واجه مقاومة من عدد من الأسر ذات النفوذ. وكان منطلق الخلاف يدور حول «المواطنة والمواطنين». ذلك أن أعدادا من الأجانب المقيمين في أتيكا كانوا قد اكتسبوا المواطنة الأثينية زمن صولون وبنسبة أكبر زمن حكم الطغاة. فطالب زعماء أسر الأقلية بمراجعة سجلات المواطنين واستبعاد من هم من نسل أجنبي. وكان الأرخون المسؤول في سنة 508 يسمى إزاجوراس Isagoras، وكان قد تعاون مع كليسثيس في محاربة الطغاة ثم اختلف معه وانضم إلى حزب الأقلية. في هذا الموقف الحرج اقترح كليسثيس وضع نهاية لمشكلة المواطنة، وذلك بإدخال تعديل على نص الدستور «يجعل الرجال الأحرار المقيمين في أتيكا بصفة دائمة مواطنين» بقرار من الجمعية العمومية / الإكليسيا. وكانت الأغلبية في الإكليسيا تخشى عودة سيطرة الأقلية الغنية، وفعلا وافقوا - ضد إرادة الأرخون إساجوراس ومؤيديه - على اقتراح كليسثيس. وهكذا توثقت الرابطة بين كليسثيس وحزب الشعب وأمكن تنفيذ مشروعه بإعادة صياغة الدستور على الأسس الديموقراطية التي كان قد أعلنها من قبل[126]. وليس هنا مجال الحديث عن الدستور وتفصيلاته فهو أدخل في التاريخ السياسي والدستوري لأثينا. ويكفي أن نقول إن هذا الدستور حقق للشعب الأثيني لأول مرة المساواة في الحقوق Isonomia، والمشاركة في كل الهيئات السياسية Isegoria، وفي ممارسة السلطة Isokratia[127].

ويصف هيرودوت تحول الأثينيين من حكم الطغاة إلى الديموقراطية بهذه العبارة القوية:

«هكذا ازداد الأثينيون قوة. فمن الجليّ أن الحرية شيء رائع، ليس في أمر واحد فقط ولكن في كل شيء. فمادام الناس تحت نير الطغاة لن يكونوا أفضل حالا عند القتال من الدول المجاورة

لهم؛ ولكن ما إن تخلصوا من رِبْقة الطغاة، أصبحوا أفضل الجند على الإطلاق. وهو ما يقوم دليلا على أنهم كانوا من قبل في حالة من التخاذل وكأنهم مسخَّرون في خدمة سيد مستبد. ولكن ما إن نالوا حريتهم صار كل واحد منهم مفعما حماسة ليكافح من أجل نفسه»[128].

ومن الطريف أننا نجد صدى لقول هيرودوت في عبارة مماثلة عند أرسطو يصور فيها حال الأثينيين العام 480 قبيل خوض معركة سلاميس الفاصلة ضد الفرس، فيقول:

«في هذا الوقت كانت الدولة (الأثينية) قد حققت تقدما عظيما، وذلك بزيادة تماسكها المتنامي في ظل الديموقراطية»[129].

ويمكننا أن نستشعر نمو الثقة بالنفس، وذلك التلاحم بين الأثينيين في أعقاب الثورة الديموقراطية التي تزعمها كليستنيس، وذلك في بزوغ نجم أحد أنصاره، وهو ثيمستوكليس Themistokles. ويبدو أنه من أصل مغمور وأن أمه لم تكن أثينية وربما كانت جارية [130] وهذا يعني أنه لولا تشريع كليستنيس الخاص بمنح المواطنة الأثينية لجميع الأحرار المقيمين في أتيكا لاستُبعِد من عداد المواطنين. وعلى الرغم من هذه الشبهات، فقد تميز بذكاء متوقد ومهارة سياسية متفردة وموقف صلب ضد الفرس؛ لذلك تم انتخابه الأرخون الرياسي العام 493، ونظرا إلى بعد نظره وضع نصب عينيه إعداد أثينا لمواجهة الغزو الفارسي المرتقب، فنجده يوحِّد خططه وجهوده مع شخصية قيادية أخرى من أعوان كليستنيس، وهو أرستيدس Aristeides عريق النسب. ويصف أرسطو هذا التعاون بين الزعيمين بهذه العبارة: «في هذا الوقت كانت زعامة الشعب لاثنين هما أرستيدس وثيمستوكليس. اشتهر هذا الأخير بالمهارة في فنون الحرب، أما الأول فقد اشتهر بالحنكة السياسية، لذلك منحوا أحدهما (أي ثيمستوكليس) القيادة العسكرية وجعلوا الآخر مستشارا. وعلى الرغم من كونهما متنافسين في مجال السياسة، فإنهما تعاونا في خطة تحصين أثينا وبناء أسوارها»[131]. علما بأن تشييد التحصينات كان شديد التكلفة، ويقع جانب كبير منها على عاتق النبلاء الأغنياء ومنهم أرستيدس.

في العام 483، تم الكشف عن طبقة غنية جديدة من الفضة في المناجم المعروفة باسم مأرونيا Maroneia (الواقعة في منطقة جبل لوريون Laurion) الغنية بهذا المعدن، مما أضاف مائة تالنتون من الفضة إلى ما كانت تستخرجه أثينا من قبل. ووفق دستور كليستنيس الديموقراطي، عُرض الأمر على الجمعية العمومية (الإكليسيا) لإقرار طريقة التصرف في هذا الدخل الإضافي من الفضة. فاقترح بعض المواطنين تقسيمها بين جميع الشعب بعد تحويلها إلى نقود ولكن ثيمستوكليس اعترض على هذا الاقتراح، واستطاع إقناع الإكليسيا بأن يخصص هذا القدر الإضافي من الفضة لبناء مائة سفينة حربية مستحدثة تسمى اصطلاحا trireme أي ثلاثية الطبقات من المجدفين[132]. فقد كان ثيمستوكليس من الدعاة لجعل أثينا

قوة بحرية كبرى. وفعلا، بفضل الأسطول الذي عمل على تنميته، انتصرت أثينا تحت قيادته حين حاصرها الفرس برا وبحرا في معركة سلاميس Salamis العام 480. ومما يؤكد روح التضحية والتضامن في ذلك الموقف الحرج، حين أسقط في يد القادة العسكريين على الأرض تقرر أن تكون المواجهة الحاسمة في البحر. وكانت السفن قد بُنيت ولكن كان يلزمها مزيد من البحارة لخوض المعركة. هنا وجدنا أعضاء مجلس الأريوباجس Areopagus معقل النبلاء ويضم الأراخنة السابقين - ومنهم ثيمستوكليس - يقدمون الأموال اللازمة بحيث تكفي منح ثماني دراخمات لكل ملاح، وبذلك تغلبوا على مشكلة استكمال تجهيز السفن للمعركة التي انتصروا فيها انتصارا ساحقا[133].

بعد معركة سلاميس بثلاث سنوات (أي العام 478 - 477) تم اختيار ثيمستوكليس أرخونا للمرة الثانية - وهو أمر نادر الحدوث في أثينا - وعن طريق تعاونه مع أرستيدس، قدرت المساهمات التي تقدمها كل مدينة من المدن الإيونية المنضمة إلى حلف ديلوس بقيادة أثينا، وذلك لأول مرة[134]. هذا الدعم المالي من المدن الإيونية في حلف ديلوس عاد على أثينا بالخير العميم، ليس فقط لأنها أصبحت تمتلك أكبر أسطول بحري في العالم اليوناني، ولكن تمكنت أيضا من تجميل المدينة ببناء أجمل المعابد وأروع المنشآت.

أثينا الإمبراطورية

نظرا إلى الدور القيادي الذي قامت به أثينا في تحرير مجموعة المدن الإيونية على الساحل الغربي لآسيا الصغرى من السيطرة الفارسية، ثم تعرضها بعد ذلك للعدوان الفارسي، وخروجها منتصرة كل مرة، المرة الأولى في معركة ماراثون البرية 490 والمرة الثانية في معركة سلاميس البحرية 480. لذلك تمكنت أثينا من تحويل الرابطة الدينية حول عبادة أبوللو في جزيرة ديلوس إلى حلف سياسي للمدن الإيونية تحت زعامتها. وتحت دعوى حماية المدن الأعضاء في هذا الحلف، فرضت عليهم أثينا جزية يدفعونها مقابل حمايتهم. وفي عبارة مشهورة لأرسطو، أصبح الأثينيون يتصرفون «باعتبارهم أسيادا لهؤلاء الحلفاء»[135].

نتيجة لهذه التطورات شعر حزب الشعب بأن هذه الأمجاد قد تحققت بفضل الديموقراطية، لذلك رأينا الحزب تحت زعامة اثنين من أشهر السياسيين، هما إفيالتيس Ephialtes وبريكليس Pericles يمضي قدما لتحقيق مزيد من الديموقراطية. فنجد إفيالتيس في 462 يشن حملة ضارية ضد مجلس الأريوباجُس معقل الأقلية، يسلبه كثيرا من اختصاصاته ويمنحها لكل من مجلس «الخمسمائة البوليه» والإكليسيا والمحاكم الشعبية. وبعد مقتل إفيالتيس خلفه بريكليس في الزعامة الذي واصل تحقيق مزيد من الديموقراطية. وفيما يتعلق بالشؤون المالية، يؤكد أرسطو «أن بريكليس كان أول من فرض دفع أجر لكل مواطن يكون

قاضيا في المحاكم الشعبية»[136]، ثم شاع بعد ذلك تقليد دفع أجر للمواطنين مقابل أدائهم خدمة عامة في الدولة بنسب مختلفة، مثل حضور جلسات الإكليسيا، واجتماعات مجلس البوليه، والمحاكم الشعبية، وأداء الخدمة العسكرية وقت الحرب، وتولي مناصب الحكم والإدارة[137].

يصور أرسطو هذا التطور في نظام الإدارة المالية في ظل حال الرخاء التي أصبح ينعم بها الشعب الأثيني، فيقول:

«ازدادت دولة الأثينيين ثقة بالنفس، ووفرة في الثراء... وعملا بما أراده أرستيدس نعمت الأغلبية بحياة رغدة. فمن حصيلة ما يجبى من ضرائب وإسهامات من الحلفاء، كان يرتزق أكثر من 20 ألف مواطن أثيني. فهناك 6000 من القضاة، 1600 من الرماة، 1200 من الفرسان، 500 أعضاء مجلس البوليه Boulé، 500 في حراسة الموانى، إضافة إلى 50 حارسا عند الأكروبول، ونحو 700 من رجال الإدارة في الداخل وكذلك 700 في الخارج[138]. هذا بالإضافة - في حال الحرب - إلى 2500 من المشاة ثقال التسليح، (وملاحين) يعملون في 20 سفينة للحراسة (مجموعهم 4000) عدا 2000 يتم اختيارهم بالقرعة للسفن التي تقوم بنقل الحراس. أخيرا هناك أيضا حراسة مقر الحكام، والأيتام وحراس السجون. جميع هؤلاء كانت تتكفل الدولة بالإنفاق عليهم»[139].

هذه الفقرة الإحصائية - على الرغم مما فيها من عدم الدقة الحسابية أحيانا - تقدم صورة عامة عن الأعباء المالية التي أصبحت الإدارة الأثينية تتحملها مع تحول مدن حلف ديلوس إلى إمبراطورية تابعة لأثينا. وفق هذه الإحصائية يكون مجموع المواطنين الذين أصبحوا يتقاضون أجورا من الدولة يبلغ نحو 19750 مواطنا، وهو ما يمثل نحو ثلثي العدد الكلي للمواطنين المشاركين في الحياة العامة والذي يقدر بنحو 30,000 مواطن أثيني، كما سبقت الإشارة. وهو تصور جديد في مفهوم الإدارة المالية، يختلف عما كان سائدا من قبل في ظل حكم الأقلية - كما سبق أن ذكرنا - حين كان تولي المناصب وأداء خدمات عامة يعتبر عملا تطوعيا من دون أجر. ولكن في ظل التطور الديموقراطي وتحول الجمعية العمومية (الإكليسيا) التي تضم جميع المواطنين إلى هيئة حاكمة ومتحكمة في السياسة الداخلية والخارجية على السواء[140]، كان لا بد من تعويض وتشجيع فقراء المواطنين على المشاركة في الحياة العامة الديموقراطية. وليس أدل على المشاركة الفعلية للعامة في الإكليسيا مما رواه كسينوفون عن سقراط أنه عنَّفَ أحد شباب الأوليجاركيين من تلاميذه على شعوره بالحرج من الخطابة في الإكليسيا، فيقول له: «هل تخشى الخبازين بينهم، أو الإسكافيين، أو النجارين، أو الحدادين أو الفلاحين والتجار أو البقالين؟ هؤلاء جميعا هم أعضاء الإكليسيا»[141].

ومع ذلك هناك انتقادان يوجهان عادة إلى الديموقراطية الأثينية: الانتقاد الأول، أن الديموقراطية الأثينية كانت تعتمد على الإيرادات من الجزية التي فرضتها أثينا على المدن

الخاضعة في إمبراطوريتها. والانتقاد الثاني، أن المواطنين الأثينيين كان باستطاعتهم أن يتفرغوا للمشاركة ومباشرة مسؤولياتهم في أجهزة الدولة والمؤسسات السياسية لاعتمادهم على عمل العبيد.

بالنسبة إلى الانتقاد الأول، فقد ثبت عدم صحته، لأن أثينا استمرت تمارس نظامها الديموقرطي في القرن الرابع بعد أن فقدت إمبراطوريتها نتيجة لهزيمتها في العام 404 أمام إسبرطة[142]. معنى ذلك أن دخل الدولة في القرن الرابع كان كافيا للإنفاق على كل مؤسسات الدولة ودفع الأجور للمواطنين مقابل الخدمات العامة التي يؤدونها. ويقدم جونز في هذا الصدد تحليلا إحصائيا لميزانية أثينا مبينا مصادر الدخل وأبواب الإنفاق[143].

أما موضوع العبيد، فلم تكن أثينا مختلفة في ذلك عن النظام السائد في العالم قديما وحديثا إلى القرن التاسع عشر. أما عن مدى اعتماد المجتمع الأثيني على العبيد فلا ينبغي المبالغة فيه. فما من شك أن الكثرة الغالبة من الأثينيين من عامة الشعب كانوا أصحاب حرف مختلفة أو فلاحين ومزارعين، كما هو واضح في عبارة سقراط سالفة الذكر. وهؤلاء لم يمتلكوا عبيدا عادة، فقد كانوا يعتمدون على رزقهم اليومي والحرف التي يمارسونها. ولكن في المقابل كان أثرياء رجال الأعمال وكبار ملاك الأرض يستخدمون العبيد بأعداد غير قليلة، كل وفق حاجته ومصلحته في استغلال المناجم وفي المصانع أو الضياع الكبيرة. ومع ذلك نسمع عن بعض السياسيين يدعون إلى تحرير العبيد جزئيا أو كليا. ففي 406 قبيل نهاية الحرب ضد إسبرطة تم تحرير العبيد من الرجال الذين في سن الجندية ومنحهم المواطنة الأثينية ليعملوا ملاحين في الأسطول الذي حقق انتصارا في معركة أرجينوسه Argenusae[144]. وفي عام 403 بعد هزيمة أثينا وعودة الديموقراطية، نجد ثراسيبولس Thrasybulus ذا النزعة الديموقراطية المتطرفة، يتقدم للإكليسيا بقرار يقضي بتحرير العبيد الذين حاربوا في جانب الديموقراطية، وعلى الرغم من إقراره مبدئيا، أوقف تنفيذه باعتباره غير قانوني[145]. وكذلك في محاولة ثالثة العام 383 لتحرير العبيد الصالحين للجندية، بهدف المشاركة في الحرب ضد مقدونيا، ولكن لم يمكن تنفيذه أيضا بسبب معارضة المحافظين[146].

في جميع هذه الحالات كان زعماء الديموقراطية هم أصحاب الدعوة إلى تحرير العبيد. وهو ما يدل على أن عامة الشعب أعضاء الإكليسيا، لم يشعروا بأي غضاضة أو استنكار نحو مبدأ تحرير العبيد ومنحهم المواطنة. ولكن كانت المعارضة من الأثرياء وأصحاب الأعمال الذين كانوا يمتلكون أعدادا كبيرة من العبيد. كما يدل أيضا على أن مبدأ تحرير العبيد لم ينظر إليه باعتباره كارثة عامة تهدد الدولة.[147].

يتضح من العرض السابق أن الإكليسيا والهيئتين المنبثقتين منها، وهما مجلس البوليه والمحاكم الشعبية بدرجاتها، كانت تمارس صلاحيات شبه كاملة في توجيه سياسة الدولة

وتنفيذها. فمع تضاؤل مكانة مجلس الأريوباجس، وكذلك الأراخنة - منذ أن أصبح اختيارهم بنظام القرعة - احتلت المؤسسات الشعبية المكانة العليا في الدولة، وأصبحوا يمارسون الجانب الأهم من السلطتين التشريعية والتنفيذية في السياسة الداخلية والخارجية. هذا هو مظهر التفرد والاختلاف عن الفكر الديموقراطي الحديث؛ فبدلا من أن تقوم الهيئات الشعبية حديثا بمهمة التشريع والمراقبة فقط للسلطة التنفيذية، كانت هذه الهيئات في الديموقراطية الأثينية تمارس وتشارك في التشريع والقضاء والتنفيذ. وبذلك تمثل الديموقراطية الأثينية تجربة فريدة من نوعها في تاريخ الإنسانية في السياسة والاقتصاد والاجتماع. وهي لذلك جديرة بالدراسة وإعمال الفكر في إيجابياتها وسلبياتها، خصوصا أنها أنتجت حضارة من أرقى ما شهدته الإنسانية في الأدب والفكر والفن.

الهوامش

1 Hamerow,Th.S., 1987. Reflections on History and Historians, Uni. of Wisconsin Press, pp. 166 ff.; Ladurie, Emmanuel Le Roy, 1978. Le territoire de l'historien II. Ed. Gallimard, Paris, translated by Ben and Sian Reynolds 1999,The Territory of the Historian,Pan ; idem. 1976 : La Crise et l'Historien, Communications, volume 25, no. 25, 429-449, Paris.

مصطفى العبادي «تأملات حول التاريخ والمؤرخين»، عالم الفكر، مجلد 20 عدد 1، 253 - 275.

2 Davies, John, K. 2005. Linear and Nonleniar Flow Models for Ancient Economies, in The Ancient Economy, eds. Manning , J.G. and Morris, I., Stanford U.P., Stanford, California, 127-156 ; The Cambridge Economic History of the Greco-Roman World 2007, eds. Scheidel, W.,Morris, I., Saller, R.,Cambridge ; Amemiya, T. 2007, Economy and Economics of Ancient Greece, Routledge; Finley, M.I. ,1999. The Ancient Economy, 3rd ed., Berkeley.

3 Rostovtzeff, M.I. 1926, 1957. Social and Economic History of the Roman Empire, Oxfords,10

4 Rostovtzeff, M.I. 1957, 538 ; cf. Morley, N. 2007. Trade in Classical Antiquity, Cambridge U.P. 4.

5 Weber, Max , 1896, repr. 1950. Die Sozialen Gründe des Untergangs der antiken Kultur, trans in Max Weber, ed. Eldridge, J.T. London 1971, 254-275 (quots. 256 ; cf.Cartledge, Paul 2002. The Economy (Economies) of Ancient Greece, in Scheidel,Walter & von Reden, Sitta eds. , The Ancient Economy, Routledge, 31

6 Weber, 1958. The City [originally 1920/21] , New York ; Braudel,F. 1982. The Wheels of Commerce, London ; cf.Morley , 2007, 7.

7 Finley, M.I. 1999. The Ancient Economy 3rd ed. Berkeley, [1st ed. 1973 , 2nd ed. 1985] 17-34.

8 Finley, ed. 1979. The Bücher-Meyer Controversy, Arno, New York.

9 Cartledge, 2002, 13-14.

10 Ibid. 18.

11 Ibid. 13.

12 Andreau, Jean 2002. Twenty Years After the Ancient Economy, in Scheidel & von Reden, op.cit. 34-5 , Trans. from the French Vignt ans d,apres L,Economie antique de Moses Finley, Annales: Histoire, Sciences Sociales, 5 (1995) 947-960.

13 Hopper, R.J. 1979 Trade and Industry in Classical Greece, Thames and Hudson, London, 12-13 ; cf. von Reden, Sitta, 2007. Classical Greece : Consumption, in Cambridge Economic History of the Greco-Roman World , 385-387.

14 Hesiod, Works and Days, 37- 42 ; 213 - 266

15 Herodotus. II. 166.

16 Plato, Republic , 369 b.

17 Aristotle, Politics, 1252 b ; 1253 a .

18 Plato, Republic, 415 D - 417 B ; Laws, VIII. 46.

19 Aristotle, Politics , 1263 A .

20 Plato, Laws, 737 E ; 745 A.
21 Aristotle, Politics, 1257 A.
22 Aristotle, Ethics, V. 5-14.
23 Michell,H. The Economics of Ancient Greece, Cambridge, Heffers (1957) 6.
24 Rostovtzeff, M. Greece, translated from Russian by J. D. Duff and edited by J Bickermann, Oxford Uni. Press, (1963) p.81.; Hammond, N.G.L. A History of Greece, Oxford, Clarendon press (1959) 1-17.
25 Thucydides, II. 15. 1-2 ; Plutarch, Theseus, 24 . 4 ; cf. Hammond, op.cit. 64-5.
26 Hignet, C. , A History of the Athenian Constitution, Oxford, Clarendon Press, (1967) 34-37.
27 Rostovtzeff, op. cit. , 81-82
28 Kleiner Pauly, Lexikon der Antike, 'Hisiodos', Deutscher Taschenbuch Verlag, München (1979) II.1114.
29 Hesiod, Works and Days, lines 376-380.
30 Ibid, lines 238-255.
31 Laws, 737 E
32 Politics, 1320 A.
33 Herodotus,V. 97, 2 (adult male population) ; Thucydides, VIII. 72 . 1 ; Aristotle, Athenian Constitution,30. ; cf. Gomme, A.W. More Essays in Greek History and Literature, Oxford, Blackwell (1962) 177-178 ; Hignett, C., A History of the Athenian Constitution, Oxford (1967) 273-4.
34 Athenaeus, vi. 272 B, C, D.
35 Strabo, viii, 6,16 (c. 375).
36 Michell, M. Economics of Ancient Greece, Cambridge, Heffer (1957) 19-20.
37 Demosthenes, 'Against Leplines', 31.
38 انظر: ميديمنوس أثيني يعادل 51.84 لترا
39 Oxford Class.Dict.3 ed (measures)

يميل كثير من الدارسين إلى التعامل إيجابيا مع هذه الأرقام مثل:

Jardé, A. 1925. Les Céreales dans l,Antiquité Grecque,Paris,45-7; Michell,op.cit.21; Hopper, 1979,89-90.

هناك من تشكك مؤخرا في أرقام دموستنيس بغير دليل مباشر، انظر:

Amemiya, T. 2007. Economy and Economics of Ancient Greece, Routledge, 62.

40 Michel, C., Receuil d'Inscriptions Grecque, Bruxelles (1900) no.581 (329/8 B.C.).
41 Jardé , A., Les Cereales dans L'Antiquité Grecque, Paris, (1925) 48.
42 Ibid. 45 ; Michell, op.cit. 21
43 Michell, op.cit.
44 Michell, op.cit.
45 Rostovtzeff, M.I. Social and Economic History of the Hellenistic World .Oxford

(1955) 95 & note 29 ; Jardé, op.cit. 45,48.
[Aristotle], Oeconomica, II, 1352 b 14-20. 46
[Demosthenes] , LVI. 47
Ibid. 7 ff. 48
Bacchylides, Carmina cum fragmentis, ed . Br. Snell. Teubner (1949), Fragmenta 20 B Lines 13-16. 49
Herodotus, V. 58 ; Aeschylus, The Suppliants, line 947 ; Athenaeus, I . 3,a. Cf, N.Lewis, L?Industrie du Papyrus dans l'Egypte Greco-Romaine, (1934) 80 ff. 50
Glotz, G. , Le Prix du Papyrus dans l'Antiquite Grecque, Annales d'Histoire Economique et Sociale, 1 (1929) 3 ff. 51
52 مصطفى العبادي، مصر من الإسكندر إلى الفتح العربي - القاهرة، الأنجلو المصرية (1995) 57 - 58.
Bickermannn, E. & Sykutris,J. Speusipps Brief an Koenig Philipp . Berichte der Säcks. Akad. der Wissenschaft Leipzig, philol.-Hist.Klasse, 80 (1928)iii.12-14. 53
Seltman, op. cit. 26 ; Head, B.V. , in Flinders Petrie, Naukratis I, 63 ff. 54
Hamond, op.cit. 82-88 ; Burn, op.cit. 60-63. 55
Herodotus,I. 143-146. 56
Thucydides, I.12.4. 57
Thucydides,I. 2.6. 58
Herodotus, I. 139 ; V. 58. 59
Snodgrass, A.M. 2000.The Dark Age of Greece, Edinburgh (1st ed. 1971), 2 & foreword to the new edition. 60
61 «أرستقراطي» كلمة يونانية الأصل، تعني «الأفضل» ولعلها تقابل الكلمة العربية «الشريف» التي اكتسبت معنى اجتماعيا في كثير من الأحيان.
Thucydides, I. 13 ; Aristotle, Politics, 1310 . 62
Aristotle,Politics , 1278 a - 1279 b. ; 1298 a - 1298 b. ; 1606 b. 63
Morris, I. , 2007. Early Iron Age, in The Cambridge Economic History in the Greco-Roman World, 235-241. 64
Cf. Hammond, op.cit. 84-86 : Burn, op.cit. 67-70. 65
Johnston, A.W.& Jones, R.E. 1978. The SOS Amphorae, Annual of the British School of Athens 73, 103-141, esp. 103,140 & plate 18 ; cf. Cook,R.M. 1997. Greek Painted Pottery, 3rd ed. , Routledge,75 ; Morley, 2007 , 5. 66
Osborne, R.1996 .Greece in the Making, London,121-2 ; Hammond, 109- 134. 67
Herodotus, II. 178 ; cf. Hammond, op.cit., 116 -124 ; 68
مصطفى العبادي، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي. القاهرة، الأنجلو (1995) ص 9 - 11.
[Demosthenes], 56. 69
Michell ,op.cit. 94-109. 70
Thucydides, I. 13. 71

72 Aristotle, Politics, 1267 b. 11.
73 Laws, 680 a.
74 Plato, Republic, 555 C.
75 Thucidides, I.13 ; Andrewes,A. The Greek Tyrants, London (1956) 43 ff.
76 من الجدير بالذكر أنه منذ اكتشافه، نُشر وحُقق مرارا في كثير من اللغات، كما ترجم إلى العربية أكثر من مرة. الأولى قام بها طه حسين بعنوان «نظام الأثينيين» لأرسطوطاليس. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1339هـ / 1921م. والثانية قام بها الأب أوغسطينس بربارة بعنوان «أرسطو، دستور الأثينيين» اللجنة الدولية لترجمة الروائع. بيروت 1967.
77 Aristotle, Athenian Constitution (A.C.), ch.2.1-3.
78 Finley, M.I., Studies in Land and Credit in Ancient Athens, Rudgers Uni.P. New Jersey (1951) 6.
79 Woodhouse, Solon the Liberator, Oxford (1938) 145 - 147.
80 Aristotle, A.C. , I - 2 ; Plutarch, Solon, 13,4.
81 Photius, s.v. 'Pelatai' ; Hesychius, s.v. 'hektemoroi'.
82 Sandys, J.E., Aristotle's Constitution of Athens, London (1895) 4-5. n.2 ; Freeman, K. The Work and Life of Solon, Cardiff, London (1926) 60-3 ; Woodhouse, Solon the Liberator, 45 ; Hammond, op.cit. 158 ff. ; Ehrenberg, V., From Solon to Socrates, Methuen, London (1967) 57 ff.
83 Freeman, op.cit. 178 ; Ehrenberg, op.cit. 55.
84 Hesiod, Works and Days, lines 216-221 ; 248-266.
85 Aristotle, Politics, 1274 b,15 ; Ehrenberg, op.cit. 55-56, n.18 (p.391).
86 Aristotle, A.C., 7.1 ; Plutarch , Solon , 17.2.
87 Tod, M.N. , Greek Historical Inscriptions, Oxford, 1946. no.87.
88 Aristotle, Politics, 1274 b 13 ; also cf. Hignett,op.cit.55,306-11 ; Oxford Classical Dictionary, 3rd ed. 1994. s.v. Dracon.
89 Hignett, op.cit. 316-321.
90 Aristotle, Athenian Constitution, 5. 1-2.
91 Aristotle, op.cit. 5.2.
92 Freeman, Solon, 168-178.
93 Aristotle, A.C., 11. 1 ; Plutarch ,Solon, 8-9 ; Diogenes Laertius, I. 62. ; cf. Freeman, op.cit. 155ff. ; 207 ff. (Solon,s poems) ; Ehrenberg,V. 1973. From Solon to Socrates, 2nd ed. , Methuen, London, 62-71.
94 Aristotle, ibid., 6.1.
95 Ibid. 6.2.
96 Ibid. 11.2-3.
97 Ibid. 9.1.
98 Ibid. 12.3
99 Ibid. 12.4. cf. O' Neil, J.L.,1995. The Origins and Development of Ancient Greek Democracy, Row-

man & Littlefield publishers, inc. London,15-21 ; Osborne,R.,2007, Archaic Greece, in The Cambridge Economic History of the Greco-Roman World, eds. Scheidel,W., Morris,I. & Saller,R., Cambridge U.P., 298-301.

Gomme, op.cit. 182. **100**

Aristotle, A.C., 10. 1-2 ; Plutarch, Solon, 22 ; cf. Seltman,op.cit. 44-6. **101**

Plutarch, op.cit. 22 ; Michell, op.cit. 11 . **102**

Plutarch, 24 ; Michell, op.cit. 148 **103**

Plutarch, op.cit. 24 ; cf. Ehrenberg, op.cit. 63,70 ; Hammond, op.cit. 159. **104**

Johnston & Jones, 1978. 140. **105**

Aristotle, A.C.,11. 1 ; 13. 1-5 **106**

Aristotle, A.C. , 13. 4. **107**

Herodotus, I .64 .3. **108**

Aristotle, A.C. 16.3-4; Hignett, op.cit.114. **109**

Aristotle, A. C. 16.6. **110**

Ibid. **111**

Herodotos, 5. 94. 1; Thucydides,3.104; cf. Hammond, op.cit. 180. **112**

Seltman, op.cit. , 48 f. **113**

Thucydides, I. 13.6 ; III. 104,2 ; Herodotus, 5.28 ; cf. Hammond, op.cit. 180-1. **114**

Burn, op. cit. pp.100-105. ; 123-125. **115**

Heodotus, 4, 152-3 ; cf. Braun, T. 2004. Hecataeus' Knowledge of the Western Mediterranian, in Lomas, K. ed., Greek Identity in the Eastern Mediterranean, Leiden, 287- 347, esp. 301. **116**

Herodotus, 1. 166 ; cf. Romm, J.S. 1992. The Edges of the Earth in Ancient Thought; Geography, Exploration, & Fiction, Princeton, 17 ff. **117**

Herodotus,4. 441 ; cf.Fowler , R. 1996. Herodotus & His Contemporaries, Journal of Hellenistic Studies, 116, 67. **118**

Herodotus, 4.43. **119**

Plato , Critias ; cf. Nesselrath , Heinz-Günther, 2005, Where the Lord of the Sea Grants to Sailors Through the Deep-Blue Mere No More : The Greeks and the Western Seas, Greece and Rome, 52, 2 ; idem. 2001. Atlantis und Atlantioi : von Platon zu Dionysius Skytobrachion, Philologus 145, 34-8 ; idem, 2001. Atlantis auf ägyptischen Stelen - Der Philosoph Krantor als Epigraphiker, Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphie 135, 33-35. **120**

Seltman, op.cit. 43-8. **121**

Herodotus , III. 5-7 **122**

Grace,V. , Stamped Handles of Commercial Amphoras, in Excavations at Nessana Vol. 1, ed. Colt, H.D., London, 1962, pp. 106 f. **123**

124 Thucydides, I. 17.

125 Herodotus, 5. 66, 69-74; Aristotle, A.C., 13.5 ; 20.1-4; Hammond, 187; Burn, 151-2.

126 Aristotle , Politica, 1275 b 36 ; A.C. 21 ; Herodotus, 5.69.

127 Herodotus, 3. 80,6 ; 142, 3 ; 5. 92.

128 Ibid., 5.78.

129 Aristotle, A.C. 23. 1

130 Ehrenberg, op. cit. 127 ; Burn, op. cit. 159.

131 Aristotle , A.C. 23. 3-4.

132 Aristotle, A.C. 22.7.

133 Ibid. 23. 1.

134 Ibid. 23. 5.

135 Ibid. 24. 2

136 Ibid. 27. 3 ; cf. O,Neil, 1995 , 67 & appendix 2 State Pay, 175-179.

137 A.H.M.Jones, Athenian Democracy, Blackwell, Oxford (1957) 5.

138 يبدو أن تكرار رقم 700 خطأ من الناسخ قديما، وأن مجموع العاملين في الداخل والخارج كان 700 مواطن انظر:
K.von Fritz & E.Kapp, Aristotle's Constitution of Athens, NY (1950)169 n.71.

139 Aristotle, A.C. 24.1&3.

140 A.W. Gomme, More Essays in Greek History and Literature, Blackwell,Oxford (1962) 178-9.

141 Xenophon, Memorabilia, III. Vii. 6

142 يقدم أرسطو في القرن الرابع ق. م. بيانا بتاريخ ظاهرة الأجور إضافة إلى النص المشار إليه في الحاشية 139 مقابل الخدمات العامة:
Aristotle, A.C. 41,3 & 62,2 ; cf. de Romilly, J. 1975. Problèmes de la Democratie Grecque, Collection Savoir, Hermann, Paris, 14-18.

143 Jones, op. cit 5- 7 ; cf. Möller, M., 2007 Classical Greece: Distribution, in Cambridge Economic History of the Greco-Roman World, 375-384.

144 Xenophon , Hellenica, I. vi. 24 ; Aristophanes, Frogs, line 693.4.

145 Aristotle, A.C. , 40. 2.

146 Plutarch ,Moralia, 849 A; cf. Jones, op.cit. 19.

147 Jones, op.cit. 19-20.

المصادر القديمة

- **Aeschylus**, The Suppliants.
- **Aristophanes**, Frogs.
- **Aristotle**, Athenian Constitution (A.C.).
- **Aristotle**, Ethics.
- [**Aristotle**], Oeconomica.
- **Aristotle**, Politics.
- **Athenaeus**, Deipnosophistae..
- **Bacchylides**, 1949. Carmina cum fragmentis, ed . Br. Snell. Teubner.
- **Demosthenes**, Against Leptines.
- [**Demosthenes**], 56.
- **Diogenes Laertius**, History of Ancient Philosophers.
- **Herodotus**, Histories.
- **Hesiod**, Works and Days.
- **Hesychius**, s.v. 'hektemoroi'.
- **Photius**, s.v. 'Pelatai' .
- **Plato** , Critias .
- **Plato**, Laws.
- **Plato**, Republic.
- **Plutarch**, Moralia.
- **Plutarch**, Solon.
- **Plutarch**, Theseus.
- **Strabo**, Geography.
- **Thucydides**, History.
- **Xenophon** , Hellenica.
- **Xenophon**, Memorabilia.

المراجع

- Amemiya, T., 2007. Economy and Economics of Ancient Greece, Routledge.
- Andreau, Jean, 2002. Twenty Years After the Ancient Economy, in Scheidel & von Reden, op.cit. 34-5, Trans. from the French Vignt ans d'apres L'Economie antique de Moses Finley, Annales: Histoire, Sciences Sociales, 5 (1995) 947-960.
- Andrewes, A. 1956. The Greek Tyrants, London.
- Braun, T. 2004. Hecataeus' Knowledge of the Western Mediterranian, in Lomas, K. ed., Greek Identity in the Eastern Mediterranean, Leiden, 287- 347.
- Braudel, F. 1982. The Wheels of Commerce, London.
- Bickermannn, E. & Sykutris, J. 1928. Speusipps Brief an König Philipp. Berichte der Säcks. Akad. der Wissenschaft Leipzig, philol.-Hist. Klasse.
- Burn A.R. 1990. The Penguin History of Greece, Penguin Books.
- The Cambridge Economic History of the Greco-Roman World, eds. Scheidel, W., Morris, I., Saller, R., 2007, Cambridge U.P.
- Cartledge, Paul 2002. The Economy (Economies) of Ancient Greece, in Scheidel,Walter & von Reden, Sitta eds. , The Ancient Economy, Routledge, 31.
- Cook, R.M. 1997. Greek Painted Pottery, 3rd ed., Routledge.
- Davies, John, K. 2005. Linear and Nonleniar Flow Models for Ancient Economies, in The Ancient Economy, eds. Manning ,J.G. and Morris, I., Stanford U.P., Stanford, California, 127-156.
- Ehrenberg, V., 1973. From Solon to Socrates, (1st ed. 1967) Methuen, London.
- Finley, M.I., 1999. The Ancient Economy, 3rd ed. [1st ed. 1973, 2nd ed. 1985], Berkeley.
- Finley, M.I. ed. 1979. The Bücher-Meyer Controversy, Arno, New York.
- Finley, M.I., 1951. Studies in Land and Credit in Ancient Athens, Rudgers University Press. New Jersey.
- Fowler , R. 1996. Herodotus and His Contemporaries, Journal of Hellenistic Studies, 116 .
- Freeman, K., 1926. The Work and Life of Solon, Cardiff, London.
- von Fritz,K. & Kapp, E. 1950. Aristotle,s Constitution of Athens, NewYork .
- Glotz, G. 1929. Le Prix du Papyrus dans l'Antiquite Grecque, Annales d,Histoire Economique et Sociale, Paris.
- Gomme, A.W. 1962. More Essays in Greek History and Literature, Blackwell, Oxford.
- Grace,V. , Stamped Handles of Commercial Amphoras, in Excavations at Nessana Vol. 1, ed. Colt, H.D., London, 1962, pp. 106 f.
- Hamerow,Th.S., 1987. Reflections on History and Historians, University of Wisconsin Press.
- Hammond, N.G.L. 1959. A History of Greece, Oxford U.P.
- Head, B.V. 1886. in Flinders Petrie, W.M., Naukratis I, 63 ff, Trubner, London.
- Hignet, C. 1967. A History of the Athenian Constitution, Oxford U.P.

- Hopper, R.J. 1979, Trade and Industry in Classical Greece, Thames and Hudson, London.
- Jardé, A. 1925. Les Céreales dans l'Antiquité Grecque, Paris.
- Johnston, A.W. & Jones, R.E. 1978. The SOS Amphorae, Annual of the British School of Athens 73, 103-141, Plate 18.
- Jones, A.H.M., 1957. Athenian Democracy, Blackwell, Oxford.
- Kleiner Pauly 1979. Lexikon der Antike, 'Hisiodos', Deutscher Taschenbuch Verlag, München.
- Ladurie, Emmanuel Le Roy, 1978. Le Territoire de l'Historien , Gallimard, Paris (trans. By Ben & Sian Reynolds 1999 ; The Territory of the Historian, Pan.
- Ladurie, Emmanuel Le Roy, 1976. La Crise et L'historien, Communications, volume 25, no. 25, 429-449. Paris.
- Lewis, N., 1934. L'Industrie du Papyrus dans l'Egypte Greco-Romaine, Paris.
- Michel, C., 1900. Receuil d'Inscriptions Grecque, Bruxelles.
- Michell,H., 1957. The Economics of Ancient Greece, Cambridge, Heffers.
- Möller, M., 2007. Classical Greece: Distribution, in Cambridge Economic History of the Greco-Roman World, 375-384.
- Morley, N., 2007. Trade in Classical Antiquity, Cambridge U.P.
- Morris, I., 2007. Early Iron Age, in The Cambridge Economic History in the Greco-Roman World, 235-241.
- Morris, I., ed., 2007. The Cambridge Economic History of the Greco-Roman World.
- مصطفى العبادي، مصر من الإسكندر إلى الفتح العربي - القاهرة، الأنجلو المصرية (1995).
- مصطفى العبادي «تأملات حول التاريخ والمؤرخين» عالم الفكر 20 - 1، 253 - 275.
- Nesselrath , Heinz-Günther, 2005, Where the Lord of the Sea Grants to Sailors Through the Deep-Blue Mere No More : The Greeks and the Western Seas, Greece and Rome, 52, 2.
- Nesselrath, Heinz-Günther, 2001. Atlantis und Atlantioi : von Platon zu Dionysius Skytobrachion, Philologus 145, 34-8 .
- Nesselrath, Heinz- Günther, 2001. Atlantis auf ägyptischen Stelen - Der Philosoph Krantor als Epigraphiker, Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphie 135, 33-35.
- O'Neil, J.L., 1995. The Origins and Development of Ancient Greek Democracy, Rowman & Littlefield publishers, Inc. London.
- Osborne, R., 2007. Archaic Greece, in The Cambridge Economic History of the Greco-Roman World, eds. Scheidel,W., Morris,I. & Saller,R., Cambridge U.P., 298-301.
- Osborne, R., 1996 . Greece in the Making, London.
- Oxford Classical Dictionary 3rd edition, 1996, Oxford.
- Von Reden, Sitta, 2007. Classical Greece: Consumption, in Cambridge Economic History of the Greco-Roman World, 385-387.

- De Romilly, J. 1975. Problèmes de la Democratie Grecque, Collection Savoir, Hermann, Paris.
- Romm, J.S. 1992. The Edges of the Earth in Ancient Thought; Geography, Exploration, & Fiction, Princeton.
- Rostovtzeff, M.I., 1963. Greece, translated from Russian by J. D. Duff and edited by Bickermann, J., Oxford U.P.
- Rostovtzeff, M.I., 1926, 1957. Social and Economic History of the Roman Empire, Oxford.
- Saller, R., ed., 2007. The Cambridge Economic History of the Greco-Roman World.
- Sandys, J.E., 1996. Aristotle's Constitution of Athens, (1st ed. 1895) Cambridge U.P.
- Scheidel, W., Morris, I., Saller, R., eds. 2007; The Cambridge Economic History of the Greco-Roman World.
- Seltman, C., 1933. Greek Coins. Methuen, London.
- Snodgrass, A.M. 2000. The Dark Age of Greece, Edinburgh (1st ed. 1971).
- Tod, M.N., 1946. Greek Historical Inscriptions, Oxford.
- Weber, Max 1958. The City [originally 1920/21], New York.
- Weber, Max , 1896, repr. 1950. Die Sozialen Gründe des Untergangs der antiken Kultur, (trans. in Eldridge, J.T. ed. 1971 : Max Weber, London , 254-275).
- Woodhouse W.J., 1965. Solon the Liberator, (1st ed. 1938), Oxford.

عالم الفكر
العدد 2 المجلد 38 أكتوبر - ديسمبر 2009

دراسات نقدية في التراجيديا الأثينية

د. فؤاد شرقاوي (*)

يلاحظ المتابع للدراسات النقدية بشأن التراجيديا الأثينية أنها تشغل أربعة اتجاهات رئيسة هي: اتجاه الفكر السياسي والاجتماعي، واتجاه القضايا الأخلاقية، واتجاه حرفية الكتابة التراجيدية، وأخيرا اتجاه دراسة لغة التراجيديا. وتختلف هذه الاتجاهات عما كان موجودا منها قبل الأعوام العشرين الماضية، إما في غزارة الإنتاج فيها، وإما في جدة القضايا، وإما في أسلوب الطرح أو التناول.

ومن الواضح أن البحث في الفكر السياسي والاجتماعي الأثيني يحتل مكانة مرموقة بين الدراسات المعاصرة للتراجيديا الأثينية. ففي دراسة بعنوان «علم اجتماع التراجيديا الأثينية»، يقول هيل إن أعظم الأساليب الجديدة في دراسة التراجيديا الأثينية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة يتمثل في الكشف عن مضامينها التاريخية والطوبوغرافية [1]، ويحدد جولد هيل مفهومه عن التراجيديا الأثينية في رفضه النظر إليها بوصفها تجربة جمالية أو شعورية أو طقسية، على الرغم من أنها تحتوي على هذه العناصر جميعها، بل يرى أنه يجب تناولها بوصفها حدثا يطرح للنقاش ما يطرأ على الحياة العامة من تغييرات متلاحقة في النظم السياسية والثقافية، وما ينجم عن ذلك من اضطرابات أو غموض [2].

ويؤكد بيكستون أن الحدث في التراجيديا الأثينية يتأثر بدرجة كبيرة بالظرف التاريخي الذي كانت تمر به أثينا، على أننا يجب ألا نتوقع أن يكون ذلك واضحا كل الوضوح، بل يجب

(*) أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية ووكيل كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - مصر.

أن نستنبطه من مادة التراجيديا الأسطورية في إطار ضوابط ثلاثة هي: أولا اتباع مذهب الانتقاء العملي من دون اللجوء إلى النظرية التجريدية، وثانيا الاعتماد بصفة تامة على النص التراجيدي من دون إقحام مفاهيم بعيدة عنه، وأخيرا الأخذ بمبدأ التناظر بين فعل التراجيديا أو سلوك شخصياتها وبين الواقع الاجتماعي المعيش [3].

وينادي لطفي عبدالوهاب بضرورة دراسة الأسطورة والتراجيديا من منظور حضاري، إذ يرى أن هناك تداخلا قديما بين الأسطورة والحضارة والتراجيديا قدم الكتابة التراجيدية ذاتها. ويذكر أن رؤية الكاتب التراجيدي لم تكن بأي حال رؤية شخصية فقط، أساسها هو التكوين النفسي أو المزاجي للشاعر، بل كانت تعكس إلى جانب ذلك، الهوية الحضارية للعصر الذي يكتب فيه، بما فيه من قضايا واهتمامات وتيارات فكرية واجتماعية، وهي الهوية التي تنعكس بالضرورة على المواقف الأساسية للكاتب التراجيدي في حياته وفكره، ومن ثم تظهر بشكل مباشر أو غير مباشر فيما يقدمه [4].

ومما يدل على أهمية البحث في مجال الفكر السياسي والاجتماعي، من خلال الأعمال التراجيدية الأثينية، ما نلمسه - حاليا - من غزارة في الإنتاج في ذلك المجال، في حين كان الأمر - فيما مضى - لا يتعدى عدة محاولات محدودة [5]. ولعل تلك الأهمية تتمثل أيضا في أن فترة ازدهار التراجيديا الأثينية قد واكبت تغيرات مختلفة في ظروف المجتمع الأثيني، التي عايشها التراجيديون الثلاثة إيسخولوس وسوفوكليس ويوربيديس، والتي كانت تتطور بسرعة ملحوظة على الرغم من أن الفترة الزمنية (القرن الخامس ق.م) تعد قصيرة نسبيا. ويمكن القول إن المواقف الفكرية المختلفة للشعراء التراجيديين الثلاثة كانت تعبيرا عن تصور كان موجودا لدى شريحة من المجتمع الأثيني، ولم يكن ينقصه إلا من يبلوره ويعبر عنه. ولا شك في أن هذا الموقف الفكري كان يقوم تجاه واقع ملموس، سواء كان هذا الموقف سلبيا أو إيجابيا أو موقفا متأرجحا، وبالتالي فإن دراسة التراجيديا الأثينية من هذه الزاوية ربما أعطت صورة أوضح للواقع السياسي والاجتماعي الذي يعيشه الكاتب. ومن ناحية أخرى قد تتخطى رؤية الكاتب السياسية والاجتماعية حدود الزمان والمكان فيعبر - عندئذ - عن موقف فكري أكثر رحابة وشمولية.

ومن الملاحظ في هذا النوع من الدراسات أن قضية وضع المرأة في المجتمع الأثيني في القرن الخامس ق.م قد طُرحت من جديد بين أصحاب اتجاه دراسة الفكر السياسي والاجتماعي من خلال الأعمال التراجيدية، بعد أن فجر تلك القضية جوم في الربع الأول من القرن العشرين، وتبعه كل من هاداس وسيلتمان وريختر وسارة بوميروي [6]، ولعل أول ما نلمسه من مظاهر الجدة في الدراسات المعاصرة أنها تنصب بصفة أساسية على العمل التراجيدي، بكل عناصره، في مناقشة هذه القضية.

ففي دراسة تحليلية لثلاث شخصيات تمثل أعمال كل من أيسخولوس وسوفوكليس ويوريبيديس، وهي - على التوالي - كليتمنسترا وأنتيجوني وميديا، تشير مارلين كتز إلى الخلاف البيِّن بين الواقع الاجتماعي وسلوك هذه الشخصيات، دونما تفاوت بين المؤلفين الثلاثة، وتؤكد أن ذلك لا يمثل سوى ذواتهن إذ ينفردن بسلوكيات غير مألوفة في المرأة الأثينية في القرن الخامس ق.م. وتفسر مارلين كتز تصوير المرأة على ذلك النحو بأنه يرجع إلى رغبة المؤلفين التراجيديين في التعبير من خلاله عن قضايا أكبر من ذلك بكثير، قضايا تتعلق بالفجوة العميقة بين الطبيعة والحضارة، وبين الأسرة والدولة، وبين أصحاب السلطة والدخلاء (7).

وفي دراسة تفصيلية لثلاثية الأورستيا، يضع جولد هيل أمامنا صورة غير مألوفة للمرأة الأثينية من خلال تحليل شخصية كليتمنسترا التي تناصر بالفعل والقول صلة الدم إلى حد رفض الصلة بالمجتمع، على خلاف زوجها أجاممنون الذي يتخلى عن صلة الدم، من أجل تأكيد وتعزيز صلته بالمجتمع. وتعد ربات الانتقام، في الجزء الأخير من الثلاثية، امتدادا لشخصية كليتمنسترا من حيث إنهن يتجاهلن حق المجتمع في مقابل مناصرة ذوي القربى. ومما لا شك فيه أن المشاهد الأخيرة من الثلاثية تنتصر للدولة ولمنطقها في السيطرة على النساء، وقوانين الزواج وإنجاب الأطفال الشرعيين، وحقوق المرأة المتشددة داخل الدولة. ويلفت جولد هيل الانتباه إلى أن الربة أثينا كانت وراء هذا التحول، في الجزء الأخير من الثلاثية، وهي بوصفها امرأة تقدم نموذجا مركبا للقواعد التي تحكم أدوار الذكر والأنثى. ومن ناحية أخرى، فإن تصوير الربة أثينا في هيئة رجل محارب وتميزها بالقدرة على الإقناع يضعانها في صورة موازية لكليتمنسترا، ما يوحي أنه حتى في حال ميل كليتمنسترا إلى سلطة الرجل أو صفاته، فإنها يجب أن تعمل من أجل الدولة من دون تهديد نظامها واستقرارها (8).

وفي دراسة عن المرأة في التراجيديا الأثينية تناقش هيلين فولي مشكلة التناقض - أيضا - بين الواقع الاجتماعي للمرأة وصورتها في التراجيديا الأثينية.

وترى - كما ذهبت مارلين كتز من قبل - أن الشعراء التراجيديين قد لجأوا إلى تصوير العلاقات التي تتسم بالصراع بين المرأة والرجل من أجل الكشف عن موضوعات دقيقة في تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في الدولة. وتتناول هيلين فولي ثلاث مساحات تعمل فيها البطلات التراجيديات مستقلة عن الرجل، وهي طقوس الموت والنواح ثم الزواج، وأخيرا ما يتعلق بالمرأة من قيم أخلاقية. وتتعرض الكاتبة لردود الأفعال تجاه القوانين الخاصة بالأسرة، وترى أن التراجيديا الأثينية تناقش من خلال عرضها القضايا العامة، في إطار الأسرة، إمكان إيجاد صيغة مشتركة للقيم العامة والخاصة (9).

والأمر الذي يسترعي انتباه المتابع لقضية وضع المرأة الأثينية في القرن الخامس ق.م لا يتمثل في اختلاف الآراء بشأن هذه القضية، بل في انشغال الباحثين بها طوال خمسين

عاما، واختلاف مناهجهم في دراستها - كما رأينا - ما يدل على أهمية هذه القضية في تلك الحقبة التي شهدت فيها أثينا تغيرات متلاحقة على جميع الصعد. على أن تلك القضية لم تكن موضع الاهتمام الوحيد عند أصحاب اتجاه دراسة الفكر السياسي والاجتماعي من خلال الأعمال التراجيدية، بل تناولوا قضايا أخرى مهمة لم تقتصر على كاتب واحد من كتاب التراجيديا، بل شملتهم جميعا.

فقد حظيت الأورستيا لأيسخولوس - وعلى وجه الخصوص في جزئها الأخير، الصافحات - باهتمام ملحوظ بين هؤلاء الدارسين. ففي مقال سيفورد الذي يحمل عنوان «جورج طومسون واليونان القديمة»، يؤكد الكاتب أهمية تناول الأعمال التراجيدية من منظور الفكر السياسي والاجتماعي، ويشيد بجهود جورج طومسون في هذا المجال، ويقدم دراسة تحليلية للصافحات يبين فيها أن هذه التراجيدية تؤكد أن تطور النظام القانوني هو العامل الرئيس لتطور الدولة [10].

وفي دراسة أخرى عن «الصافحات» قام بها سيدول، يوجه الكاتب الاهتمام إلى التناقض بين إشادة الربة أثينا بمجلس الأريوباجوس وسلطاته الواسعة وبين تقلص دوره نتيجة إصلاحات إفيالتيس Ephialtes في العام 1/462 ق.م. ويتساءل عما إذا كان أيسخولوس يعارض - هنا - هذه الإصلاحات أم يساندها، أم يحاول التوفيق بين الأحزاب المعارضة؟ [11].

وهناك دراسة شائقة عن الأورستيا قام بها جولد هيل يعرض فيها الفكرة المحورية التي تنتظم أجزاء الثلاثية وهي - في رأيه - الدور الاجتماعي للغة في دولة المدينة؛ فقد يتوقف استقرار المجتمع على حسن أو إساءة استخدام اللغة. فالإقناع، عن طريق التلاعب بالألفاظ، أداة تلجأ إليها كليتمنسترا للإيقاع بأجاممنون وتقويض أركان بيته، ثم يلجأ ابنا أجاممنون، أورستيس وإليكترا، إلى الأسلوب نفسه للإيقاع بكليتمنسترا وعشيقها أيجيسثوس. ومن ناحية أخرى، فإن الإقناع ضروري في ساحة القضاء، كما حدث مع الربة أثينا في الصافحات عندما تمكنت من التأثير في الربات المنتقمات وتحقيق براءة أورستيس. وعلى ذلك فإن إيسخولوس يصور مخاطر الإقناع، في مجتمع ديموقراطي، ويبين أن إساءة استخدامه قد تؤدي إلى العنف والفوضى [12].

أما عن دراسات الفكر السياسي والاجتماعي في تراجيديات سوفوكليس فلدينا مقالان وكتابان في هذا المجال. ففي مقال عن تراجيدية أوديبوس ملكا، ترى روث سكودل أن سوفوكليس يصور دولة في مواجهة خطر الفتنة أو التمرد στάσις والطغيان τύρανίς، وتوحي بهذه الفكرة اتهامات أوديبوس المتكررة لكل من كريون وتيرسياس (الأبيات 124, 139 - 140, 385 - 403)، وتهديد أوديبوس بنفي أو سجن كريون (الأبيات 658 - 659, 669 - 670)، كما تعبر مخاوف الكورس من التمرد والطغيان (الأبيات 873 - 910) عن الفكرة ذاتها [13].

ويطرح ناقد آخر، هو ديفيد كونستان، فكرة مشابهة في مقال بعنوان «الكلاسيكيات والصراع الطبقي» يذكر فيه أن فكرة الصراع الطبقي لم تكن بعيدة عن أذهان مؤلفي التراجيديا الأثينية، وغالبا ما كانت توظف بوصفها خلفية للحدث، أو تجيء في سياق حديث الشخصيات المتصارعة. ويرى ديفيد كونستان أن تراجيديا أنتيجوني تطرح هذه الفكرة بوضوح، فجمهور القرن الخامس ق.م كان يعلم تماما أن حصار المدينة أو اقتحامها لا يكلل بالنجاح إلا في حال وجود أعوان للجيش المعتدي خلف البوابات، وينطبق هذا على حملة بولينيكيس. ومن ناحية أخرى، فإن نص التراجيديا يوحي بهذه الفكرة، فكريون يشير إلى وجود معارضين لقراره حظر دفن بولينيكيس، ويعزو إليهم مخالفتهم ذلك القرار، كما أنه يتهم الحراس بتقاضي الرشوة من أولئك المعارضين. على أن الصراع المدني الذي يكمن خلف أحداث تراجيديا أنتيجوني لا يشير بوضوح إلى أي شخصية طبقية على وجه التحديد. فليس هناك ما يؤكد أن بولينيكيس أو إيتوكليس، أو حتى كريون منحاز إلى طبقة بعينها، بل تستهدف التراجيديا من إثارة المخاوف من الصراع المدني التحذير من طموحات الأمراء الشبان والقادة الذين يجمعون حولهم الأنصار دونما اهتمام واضح بقضايا سياسية أو اجتماعية ذات فائدة عامة. ولا شك في أن الصعوبات التي يواجهها كريون تتمثل في محاولته تطبيق النظام بعد الكارثة التي ترتبت على ذلك الصراع المدني مباشرة. وهنا يحذر سوفوكليس من المخاطر التي قد تواجهها الديموقراطية بسبب حاكم أوتوقراطي متشدد مثل كريون [14].

وفي مؤلف بعنوان «التراجيديا والحضارة، تفسير لسوفوكليس» يقدم شارلس سيجال دراسة تحليلية مستفيضة تشمل كل أعمال سوفوكليس، ويتناوله كمؤلف تراجيدي كبير، ومفكر جاد. ويستعرض سيجال - في تلك الدراسة - السلوك الإنساني في سعيه المتواصل، ونضاله المأساوي من أجل تحقيق الاستقرار، والحياة المتحضرة والقضاء على الوحشية والعنف [15].

وفي دراسة بعنوان «المقايضة والعذراء: الزواج في التراجيديا السوفوكلية» يتناول كيرك أورماند خمس تراجيديات تتضمن علاقات زوجية وهي «سيدات تراخيس»، «إليكترا»، «أنتيجوني»، «آياس» و«أوديبوس ملكا». ويبدأ سيجال دراسته بعرض الدعامات القانونية والاقتصادية التي يقوم عليها الزواج الأثيني. وفي القسم الثاني من الدراسة يناقش سيجال مفهوم الزواج في التراجيديات موضوع الدراسة، ويبين أنه نوع من المقايضة، وأن الزوجات مجرد أدوات تحاول، لكنها تفشل دائما، أن تكون شخصيات مؤثرة [16].

ومما لا شك فيه أن يوربيديس أكثر شعراء التراجيديا الأثينية شهرة بمواقفه الفكرية، وروحه الناقدة فيما مر به مجتمعه من تغيرات خطيرة نالت قدرا ملحوظا من اهتمامه، فانتقد كثيرا من سلبيات المجتمع، مثل سلبيات الحروب والأمراض الاجتماعية وظاهرة الزعماء

الديماجوجيين. وتشير إحدى الدراسات إلى قضية مهمة تناولها يوربيديس في تراجيديا أورستيس، وهي قضية التربية. فيوربيديس يعبر عن نظرة خاصة عن أصل φύσις أو تكوين الشخصية الإنسانية تختلف عن نظرة سوفوكليس، لكنها تتفق مع المفاهيم السائدة في عصر يوربيديس، وعند كل من بروتاجوراس وبروديكوس وأنتيفون على وجه الخصوص، فبينما يرى سوفوكليس أن النبل عامل مؤثر في تكوين الشخصية، فإن يوربيديس وفلاسفة عصره يرون أن التعليم Παιδεία هو العامل الأساسي، ولا تقتصر خطورة هذا العامل - عند يوربيديس - على الفرد فقط، بل تشمل أيضا الأسرة والمجتمع (17).

لم تقتصر دراسات الفكر السياسي والاجتماعي من خلال الأعمال التراجيدية - كما رأينا - على أعمال مؤلف واحد فقط، بل شملت التراجيديين الإغريق الثلاثة، وتنوعت في تناول القضايا المطروحة في أعمالهم. وربما نخرج من هذه الملاحظة بأن كتاب التراجيديا الأثينية قد التزموا - جميعهم - بالتعبير عن قضايا مجتمعهم، وأن المتغيرات المتلاحقة التي مرت بهم أعطتهم الفرصة للتنوع في التعبير عن الأفكار والموضوعات. ومن هنا تأتي أهمية دراسة الفكر السياسي والاجتماعي، من خلال الأعمال المسرحية، من حيث إنها تقدم صورة متكاملة عن المجتمع الأثيني في تلك المرحلة المهمة من تاريخه.

وهناك اتجاه آخر، في دراسة التراجيديا الأثينية، يتمثل في القيم الأخلاقية - بإيجابياتها وسلبياتها - وهو لا يبتعد كثيرا عن دراسة الواقع الاجتماعي، ذلك لأن القيم الأخلاقية مستمدة منه ومؤثرة فيه، وعلى ذلك فإن هذا النوع من الدراسات ضروري لاستكمال أركان الصورة العامة للمجتمع.

تعرض إحدى هذه الدراسات براعة يوربيديس في نقد القيم الأخلاقية المريضة التي سادت عصره، مثل الأنانية والفساد الخلقي والجشع والانتفاع. وفي هذه الدراسة التحليلية لتراجيديتي هيبوليتوس وهيكابي يبين ديفيد كوفاكس أن يوربيديس يعري شخصياته، ويكشف عن أخطائها ليحذر من الوقوع فيها (18).

وفي دراسة بعنوان «مؤازرة الأصدقاء، وإيذاء الأعداء، دراسة في تراجيديات سوفوكليس والقيم الأخلاقية الإغريقية» تحدثنا ماري بلندل عن أثر هذه القيم الأخلاقية في البناء الاجتماعي فتقول إن التخلي عنها يهدد بتقويض أركان العلاقات الاجتماعية. وتوضح أن وجوب إيذاء الأعداء له مردوده الإيجابي في البناء الاجتماعي، فروح العداء الجماعية قد تضمن صلابة جماعة من الجماعات في التصدي للدخلاء أو تجنبهم. وتبين ماري بلندل، في دراستها التحليلية لخمس تراجيديات، وهي آياس وأنتيجوني وإليكترا وفيلوكتيتس وأوديبوس في كولونوس، أن أكثر الصعوبات التي تواجه قيمة أخلاقية تقوم على المحبة φιλία هي صراع الولاء الذي ينشأ بين ثلاثة أنواع من العلاقات، هي العلاقة العائلية والمدنية والشخصية،

وهي صراعات كانت قائمة بالفعل في الحياة الاجتماعية الأثينية، ونجد صداها في تلك التراجيديات موضوع الدراسة [19].

وفي محاولة للمزج بين الواقع التاريخي والبعد الأخلاقي، تتناول راشيل فاينجان «الطاعون في الأدب الكلاسيكي» فتذكر أنه في حين أن ثيوكيديديس يتناوله بوصفه حادثة فعلية لها مظاهرها المرضية والاجتماعية في فترة الحروب البلوبونيسية، وينكر ما يتعلق به من تأويلات خرافية، فإنها، أي راشيل فاينجان، ترى فيه بعدا أخلاقيا، فالطاعون في مأساة «أوديبوس ملكا» هو إثم أو خطأ أخلاقي، ويتجلى ذلك في تناول شخصية أوديبوس الذي يظهر في بداية الأحداث في هيئة طبيب، في حين تسفر الأحداث عن أنه المريض، أو المذنب الوحيد [20].

وفي دراسة عن «الحظ والأخلاق في التراجيديا والفلسفة الإغريقية» تلقي مارشا نيسباوم الضوء على هذا الموضوع الذي كان موضع نقاش التراجيديين والفلاسفة، خصوصا أفلاطون، بشأن العلاقة بين الخير - متمثلا في فعل سديد وشخصية خيرة - وبين الحياة الطيبة متمثلة في السعادة والأزدهار. وفي حين تخالف نيسباوم الفلاسفة - خصوصا أفلاطون - الرأي بشأن هذه القضية، فإنها تتفق مع التراجيديين في أن الفعل السديد والتفكير الصائب قد لا يؤديان إلى الحماية من آلام أحداث الحياة الطارئة، بل قد يتمكن حظ سيئ من إفساد الشخصية ذاتها [21].

وننتقل إلى اتجاه معاصر ثالث من اتجاهات دراسة التراجيديا الأثينية وهو حرفية الكتابة التراجيدية. ومن الجدير بالذكر أن أرسطوفانيس كلما ذكر كلمة التراجيديا في «الضفادع»، ملهاة النقد الأدبي، يصحبها بكلمة فن أو حرفة τέχνη [22]، ما يدل على أهمية هذا الجانب في الكتابة التراجيدية. ونعرض في هذا المجال دراسة عن «كورس النساء في التراجيديا الإغريقية» تذكر فيها ماري ديفورست أن هناك أربعة وعشرين كورسا من النساء في الأعمال التراجيدية والكوميدية الإغريقية الأثينية التي يبلغ عددها ثلاثة وأربعين عملا في مقابل تسعة عشر كورسا من الرجال. وترى ماري ديفورست أن أسلوب استخدام كورس النساء يستهدف التعبير عن سمة التمرد والخديعة التي تغلب على الأعمال التي تتضمن كورسا من النساء [23].

وفي محاولة لإبراز حرفية مؤلف التراجيديا في صياغة الأحداث تحقيقا لأكبر قدر ممكن من متعة المشاهد أو القارئ، في ضوء معرفته المسبقة بالأسطورة، مادة التراجيديا الأساسية، ظهرت دراستان في هذا المجال تختص كلتاهما بتراجيديات سوفوكليس. في الدراسة الأولى وعنوانها «قراءات عن سوفوكليس» يقول نوكس إن المعرفة المسبقة بالقصة دفعت كتاب التراجيديا الأثينية، خصوصا سوفوكليس، إلى اللجوء إلى أسلوب السخرية الدرامية Dramatic Irony، فكل ما تنطق به الشخصيات في التراجيديا له عند الجمهور معنى يفوق بكثير معناه عند تلك الشخصيات، ذلك لأن الجمهور يفوقها معرفة، فهو يعرف حقيقة

الماضي والمستقبل. ويضفي ذلك الأمر على الحدث التراجيدي، بصفة عامة، قوة وتكثيفا وتعقيدا تشكل السمة الأساسية للتراجيديا الأثينية، ذلك لأن الجمهور يدرك كل شيء على مستويين مختلفين في آن واحد. فالجمهور يستغرق عاطفيا مع أوديبوس في جهده البطولي في البحث عن الحقيقة، ولكنه ينفصل عنه في الوقت نفسه بسبب معرفته، وإيمانه بالآلهة. ويقدم نوكس نماذج من السخرية الدرامية منها قول أوديبوس إنه لن يتوقف عن البحث عن قاتل لايوس، كما لو كان لايوس أباه فعلا [24].

أما الدراسة الثانية فتتناول الدراما داخل دراما Metatheatre في تراجيديات سوفوكليس، ويعرض فيها رنجر بعض هذه الصور في تراجيديات سوفوكليس مع التركيز على تراجيديا إليكترا. ونكتفي - هنا - بالإشارة إلى عملين مما قدم رنجر في هذه الدراسة. في تراجيديا آياس تدعو الربة أثينا أوديبوس إلى أن يستمتع بمشاهدة عدوه آياس بعد أن أصابته بالجنون (الأبيات 1 - 133). في هذا المشهد الذي يجمع الأطراف الثلاثة، الربة أثينا وأوديسيوس وآياس، يصبح أوديسيوس في موقف المتفرج، من دون أن يلحظه آياس، بعد أن وضعت الربة غشاوة على عينيه، وإن كان أوديبوس لا يواصل مشاهدة هذا المشهد القاسي إشفاقا على آياس. وفي تراجيديا إليكترا، يظهر أورستيس متخفيا حاملا جرة تضم رماد جثته دليلا على موته المزعوم. في ذلك المشهد الذي يعد دراما داخل دراما، يرقب المربي، كأنه أحد المتفرجين، تغير مشاعر إليكترا من الحزن واليأس والإحباط إلى الفرحة الغامرة، بعد أن يكشف لها أورستيس عن شخصيته، وعندئذ يدعو المربي إلى إنهاء هذا الموقف استعدادا لتنفيذ خطة القصاص المخادعة (الأبيات 1198 - 1371) ويمكن أيضا اعتبار هذا الموقف الجديد دراما داخل دراما تصبح فيه إليكترا في موقف المتفرج، وهي تنتظر نجاح شقيقها في تنفيذ خطته التي لا تلبث أن تعرف إليكترا نتيجتها حينما تسمع صرخة أمها كليتمنسترا، وهي تسقط صريعة (الأبيات 1372 - 1418)، ثم يعقبها وصول عشيق أمها أيجيستوس لمقابلة الغرباء فتدفعه إليكترا إلى دخول القصر حيث يلقى حتفه هناك (الأبيات 1442 - 1503) [25].

ثم نأتي إلى آخر ما لاحظناه من اتجاهات معاصرة في دراسة التراجيديا الأثينية، ويتمثل في الاهتمام بدارسة اللغة. ومما يلاحظ في هذا الصدد أنه قد طرأ تغير واضح في أسلوب دراسة اللغة في التراجيديا الأثينية في الربع الأخير من القرن العشرين. فبعد أن كانت معظم الدراسات اللغوية تنصب - فيما قبل - على تركيب الجملة ونحوها ولغتها الصرف [26]، باستثناء عدد محدود يتناول اللغة في السياق العام للعمل الفني [27] أصبح الاتجاه المعاصر في دراسة لغة التراجيديا الأثينية لا يعنى - فيما ظهر من أعمال حتى الآن - بغير علاقة الكلمة بمفردات العمل الدرامي من فعل وشخصية وفكر، أو يبحث في النسيج العام للكلمات المتكررة، أو ذات العلاقة الوثيقة، أو في نوع العلاقة الفنية بين جملة وأخرى، ومدى تأثير ذلك

في المشاهد أو القارئ، وما إلى ذلك من أمور أخرى تتعلق بالعمل الفني بأسره، ولا تقتصر على الكلمة بصورة مجردة.

ففي إحدى الدراسات التي تعبر عن ذلك الاتجاه المعاصر في دراسة لغة التراجيديا الأثينية تحدثنا روث بادل عن أثر اللغة في تحريك كل عناصر العمل التراجيدي من فعل وشخصية وإنشاد، مع التركيز على أثرها في إثارة عواطف المشاهدين والقراء. وتدلل روث على أهمية الحركة في العمل التراجيدي بأنها تتفق مع نظرة الإغريق في القرن الخامس ق.م إلى كل نواحي الحياة والأنشطة الفكرية، كما تعكسها كتابات الفلاسفة والمؤرخين. فهيراكليتوس يذكر أن كل شيء في حالة حركة، ويؤكد أفلاطون أن الحركة قاعدة التغير والحياة في الكون، والنواحي الإنسانية. ويحدثنا ثيوكيديديس عن الحروب البلوبونيسية فيقول إنها أكبر حركة Κίνησις بين الإغريق. وللحركة في التراجيديا الأثينية مظهران أحدهما خارجي والآخر داخلي، وكلاهما تعبر عنه اللغة، وهما يشيران إلى وجود خطأ ما لا علاج له سوى التوازن الداخلي [28]، وتعرض روث في أحد أقسام دراستها استخدام التراجيديين الإغريق بعض الكلمات التي ترد في التراجيديات الأثينية، وترى أنها تربط بين العالمين الخارجي والداخلي، ومن تلك الكلمات - على سبيل المثال - العين والأذن اللتان تستقبلان - في أحيان كثيرة - ما يثار في النفس من مشاعر أليمة. فأوديبوس يفقأ عينيه حتى لا يؤذي مشاعره بما يراه من واقع مرير، ويتمنى كذلك أن يفقد السمع (أوديبوس ملكا 1369 - 90)، ويلاحظ في تراجيديا هيبوليتوس أن صرخات هيبوليتوس ولعناته، حينما تصل إلى أذني فايدرا، تتسبب في شعور فايدرا بألم حاد يستولي على كيانها ويهزها بعنف شديد؛ ذلك لأن رفض هيبوليتوس حبها يجرح كبرياءها الداخلي وكرامتها أمام الناس (هيبوليتوس 572 - 573 - 568 ,577 ,582) [29]. وتلاحظ روث في قسم آخر من دراستها أن هناك كلمات متكررة في التراجيديا الأثينية ذات خلفية طبية معروفة لدى المشاهدين، وأنها ذات فائدة في التعبير عن المواقف والشخصيات وتحريك المشاعر. من ذلك تعبير إليكترا عن تأرجح حالتها النفسية بين اليأس والأمل، بعد عثورها على خصيلة شعر شبيهة بشعر شقيقها، وذلك في قولها إن قلبها يسيطر عليه شعور بالمرارة χολή (حاملات القرابين 184). وحينما يتحدث كورس في تراجيديا أجاممنون عن الألم يذكر أنه يهبط على القلب στάζει πρό καρδίας (أجاممنون 179)، كأنه مرض. كما يلاحظ أن وصف جنون آياس (آياس 257 - 259)، ينطبق كلية على وصف هيبوقراطيس لهذه الحالة المرضية. وتخرج روث من ملاحظتها للغة التراجيديا الأثينية الطبية بأن التراجيديا لا تقل فائدة عن الطب، إنها تتعرف على أمراض النفس البشرية، وتقدم العلاج الناجع [30]، ثم تتناول روث ألفاظا مستمدة من عالم الطبيعة والحيوانات، فهناك ألفاظ معبرة عن عناصر الطبيعة مثل الريح والعاصفة والنار تستخدم في سياق التعبير عن الانفعالات.

والمغزى الذي يكمن وراء هذا الاستخدام هو أن الإنسان الذي نجح منذ البدايات الأولى للحضارة في اتقاء هذه الظواهر الطبيعية، أو التغلب عليها، لم ينجح في السيطرة على عواطفه وانفعالاته حتى صارت مصدرا لشقائه. وتستخدم الحيوانات في لغة التراجيديا لأغراض عدة وفق أنواعها، فاستخدام الكلاب يعبر عن الجنون، كما في وصف هيئة ربة الجنون «ليسا» Λύσσα ، وربات الانتقام Ἐρινύες اللاتي يدفعن الضحية إلى الجنون. وفي حالات أخرى تستخدم الكلاب للتعبير عن الوفاء والإخلاص. أما الجياد والثيران أو الأبقار فتُستخدَم في لغة التراجيديا للتعبير عن القوة الغاشمة. فالجياد تعبر عن العنف المادي الذي لا يُقهَر، وهو الذي قضى على حياة هيبوليتوس. وتعبر الأبقار أو الثيران عن التفوق في القوة والحجم، وعن الطبع الحاد الذي لا يلين، كما هي الحال في ميديا عند يوربيديس. أما الجياد أو الأفاعي فتُستخدَم للتعبير عن تهديد يواجه الدولة، أو رب البيت، أو يصيب القلب أو العقل [31]، ومما يلاحظ أن روث قد تناولت اللغة في التراجيديا الأثينية من حيث علاقتها المركبة بالتراجيديا والفكر الإغريقي في فترة القرن الخامس ق.م، ولا شك في أن هذه العلاقة تعد ضرورة لا غنى عنها تضمن تحقيق وظيفة اللغة، وهي إثارة مشاعر المتفرج أو القارئ.

وفي دراسة عن لغة سوفوكليس يحدثنا فيلكس بيدلمان عن عمله فيقول: إن أحدا لم يسبقه - في حدود علمه - في تناول لغة سوفوكليس من هذه الزاوية، وهي أنها من الممكن أن تشغل متفرجين وقراء مختلفين في أزمنة مختلفة، وذلك أن تجعلهم، على نحو متكرر، يعرفون شيئا ما، ولا يعرفونه في الوقت نفسه، إذ تعطيهم - في أغلب الأحوال - قسطا من المعرفة، وتحجب عنهم في الوقت ذاته المعرفة الكاملة. ويطلق فيلكس على تلك الحالة العامة للمعرفة أو نقيضها بين الأشخاص المختلفين عبارة «اشتراك في الاختلاف»، فالناس مختلفون، ولا يملك كل شخص القدر نفسه من المعرفة. وهؤلاء الأشخاص المختلفون واثقون أو غير واثقين في أشياء كثيرة سواء عند مشاهدة أو قراءة سوفوكليس. ولا شك في أن مرجع ذلك هو اختلافهم في وجهات النظر الأخلاقية والسياسية، أو اختلافهم من الناحية الاجتماعية أو الجغرافية [32].

ويعرض علينا فيلكس في دراسته ثلاثة أساليب يستخدمها سوفوكليس في لغة تراجيدياته تحجب المعرفة الكاملة، وتجعل المتفرجين أو القراء المختلفين في حال اشتراك في الاختلاف. يتمثل الأسلوب الأول في التدخل أو الاعتراض Intervention، وهو عبارة عن استخدام جمل تثير بعض التوقعات تتبعها جمل أو كلمات مفاجئة تتعارض مع سابقتها من ناحية سياق العبارة. والأسلوب الثاني هو تغير الاتجاه Change of Direction، وذلك حينما يسير الحديث في اتجاه بعينه، فإذا به يأخذ مسارا آخر. أما الأسلوب الثالث فهو الغموض Ambiguity، وهو يتمثل في الجمل التي تنتهي من دون أن تحقق كل ما أثارته من توقعات، أو تتعارض معها [33].

ومن نماذج أسلوب التدخل أو الاعتراض Intervention، يعرض فيلكس الحوار التالي بين يوكاستا وأوديبوس من تراجيديا أوديبوس ملكا (الأبيات 739 - 741):

Io : τί δ' έστί σοι τουτ' Οίδίπους , ένθύμίον ;

Oi : μήπω μ' έρώτα τον δέ Λάιον φύσιν

τίν' είρπε φράζε , τίνα δ' άκμην ήβης έχων;

يوكاستا: ما الذي يحزن قلبك يا أوديبوس؟

أوديبوس: لا تسأليني وإنما هيئة لايوس.

أخبريني ما هي؟ وأي مرحلة بلغها من مراحل الرجولة؟

ومما يلاحظ في المثال السابق أن أوديبوس يقحم موضوعا مختلفا، هو هيئة لايوس، في إجابته عن سؤال يوكاستا عما يحزن قلبه. وعلى ذلك فإن هذا الحوار لا يقدم المعلومة كاملة، وبالتالي يصبح ذهن المشاهد أو القارئ مشغولا. ومن ناحية أخرى، فإن طرح كلمة φύσις قد يستولي على أذهانهم من حيث إنها توحي بموضوع المأساة، إذ تعني الكلمة - من بين ما تعني - «طبيعة أو أصل»، وبالتالي يمكن القول إن طبيعة أوديبوس وأصله يشكلان موضوع تراجيديا أوديبوس. وفوق ذلك، فإن سؤال أوديبوس عن هيئة φύσις لايوس لا يخلو من سخرية درامية، ذلك لأن طبيعة أو أصل φύσις أوديبوس - نفسه - هو الذي يحتاج إلى إجابة [34].

أما أسلوب تغير الاتجاه Change of Direction فهو شبيه بأسلوب التدخل أو الاعتراض Intervention، من حيث إنه تغير مفاجئ في مسار الحديث مخالف للتوقعات، لكن الفارق بين الأسلوبين هو أن التغير في أسلوب التدخل أو الاعتراض طارئ، أما في الأسلوب الآخر فهو تغير دائم. ويقدم فيلكس من نماذج أسلوب تغير الاتجاه قول أوديسيوس في مناصرة دفن جثمان آياس (1344 - 1345):

.... άνδρα δ' ού δίκαιον εί θάνοι ,

βλάπτειν τον έσθλόν , ούδ' έάν μισών κυρής

ليس عدلا أن تهين رجلا، إن لقي حتفه.

(رجلا) نبيلا، حتى إن كنت محقا في كراهيته.

ويرى «فيلكس» - في تعليقه على تلك الأبيات - أن البيت الأول يعتبر قولا شائعا: «ليس عدلا أن تهين رجلا، إن لقي حتفه»، ومن غير المتوقع إضافة شيء آخر إلى هذه العبارة، لذلك فإن كلمة τον έσθλον تمثل مسارا جديدا مفاجئا يشكل آياس موضوعه الأساسي، بينما كانت العبارة الأولى ذات صفة عمومية. ويمكن القول إن ذلك التغير المفاجئ في مسار الحديث يعبر عن تغير - نهائي - في مواقف الشخصيات، وفي النظرة إلى آياس في نهاية الأمر [35].

ومن نماذج أسلوب الغموض Ambiguity ، الذي يتمثل في أن العبارة أو الكلمة تحتمل التأويلات التي ينشغل بها ذهن المشاهد أو القارئ، يقدم فيلكس النموذج التالي من تراجيديا أوديبوس في كولونوس (62 - 63):

τοιαύτα σοι ταύτ᾽ έστιν, ώ ξέν᾽ ού λόγοις
τιμώμεν , άλλά τή ξυνουσία πλέον.

مثل هذه الأمور تخصك أيها الغريب، إن الكلمات.

لا تضفي عليها التقدير، وإنما عن طريق المعاملة يكون ذلك أفضل بكثير.

ويذكر فيلكس أن موطن الغموض في البيتين السابقين يتمثل في كلمتي τοιαύτα و υνουσια فالكلمة الأولى ينقصها اسم الإشارة ما يجعل الإشارة غير قاطعة، إذ يمكن أن تعود إلى كولونوس أو آلهتها أو أبطالها أو معالمها فكلها قد ينصب عليها التكريم أو التقديس. أما الكلمة الثانية ξυνουσια (المعاملة) فتحتمل التأويل أيضا، إذ من غير المحدد إن كان المقصود بالمعاملة الأشخاص أو الأفعال أو الأثنين معا. وعلى أي حال، فإن غموض الكلمتين يؤدي وظيفته في شغل أذهان المتفرجين أو القراء بشأن المعنى المقصود [36].

ويتبين - بعد هذا العرض - أن دراسة اللغة في التراجيديا الأثينية تحتاج إلى مزيد من الجهد الذي تفرضه أهمية هذا العنصر بين عناصر العمل التراجيدي الأخرى، وصلته العضوية بكل الاتجاهات المختلفة في دراسة التراجيديا الأثينية، سواء ما يتعلق منها بالفكر السياسي والاجتماعي والأخلاقي أو بنواحي الحرفية التراجيدية، فلا شك في أنها ترتبط بكل ذلك ارتباطا وثيقا. ففيما يتصل بعلاقة اللغة بالفكر السياسي والاجتماعي يقول جولد هيل إن لغة التراجيديا لغة عامة، جماهيرية، إنها إلى حد كبير لغة سياسية [37]. ويقول جولد هيل - كذلك - إن للغة دورا اجتماعيا، فهي قادرة على إيجاد نظام اجتماعي مستقر أو خلق حالة من الفوضى، والأمر في الحالتين مرهون بحسن أو إساءة استخدام اللغة [38].

ويحدثنا واتسون عن العلاقة بين اللغة وبين طرح القضايا الفكرية والأخلاقية فيقول: «نحن ندرك الدور الخطير للغة حينما نأخذ في الاعتبار أن كل فكرة أو حقيقة أو وجهة نظر في العمل التراجيدي يجب التعبير عنها بصوت عال. إن الحوار هو كل شيء في التراجيديا، فليس في وسع الكاتب أن يقحم نفسه من خلال تعليقات يُقيِّم فيها الموقف، أو يشرحه أو يصفه كما يفعل كاتب القصة. أما الحوار فهو الذي يدفع بفعل التراجيديا، ويلقي الضوء على الشخصية، ويهيئ الحالة أو النغمة الملائمة، ويُمكِّن الجمهور من استخلاص معنى العمل التراجيدي وفكرته الأخلاقية [39].

وتذكر جوديث مؤسمان أن اللغة تؤدي دورا حيويا في حرفية الكتابة التراجيدية، مثلما يلاحظ في أسلوب السخرية الدرامية، على أن الأمر يقتضي - إلى جانب اللغة - وجود جمهور متذوق قادر على تفهم كل ما تحمله اللغة من معان وإيحاءات. ولا شك في أن وجود هذا النوع من

الجمهور كان أحد العوامل المهمة التي ساعدت على ازدهار التراجيديا الأثينية، مع الأخذ في الاعتبار أن التأثير لم يكن واحدا بسبب التفاوت الطبيعي بين نوعيات الجمهور [40].

وفوق ما تقدم عن أهمية اللغة في التراجيديا، نذكر عبارة من كتاب فن الشعر لأرسطو، يدعو فيها إلى الاهتمام بالفعل التراجيدي من دون العرض التراجيدي فيقول:

ώστε τον άκούοντα τα πράγματα και φρίττειν καί έλεειν έκ των συμβαινόνττων [41].

إن من يسمع الأحداث يشعر بالخوف والشفقة مما وقع.

ويهمنا في هذه العبارة كلمة άκούοντα (من يسمع)، إذ إنها تشير إلى أهمية لغة النص التراجيدي ودورها في تحقيق وظيفة التراجيديا. وهناك إشارة أخرى إلى تأثير اللغة في العرض التراجيدي نستمدها من كتاب الأخلاق لأرسطو - أيضا - يقول فيها إنه قد جرت العادة حينما تستولي بعض أبيات التراجيديا على ألباب الجمهور في أثناء عرضها فإنهم يطلبون إعادتها صائحين بصوت عال αὖθις «مرة أخرى، أعد» [42]. ونقدم دليلا آخر في تأثير اللغة نستمده من وصف أفلاطون- على لسان أحد المنشدين - لمدى تأثير النص في الجمهور في قوله «حينما أنظر إليهم أجدهم يبكون، يحملقون في وجهي مفزوعين، تأخذهم الدهشة مما يسمعون» [43]. وفي فقرة أخرى من كتاب فن الشعر يشير أرسطو إلى أهمية اللغة بالنسبة إلى الشخصية التراجيدية بوصفها أداة للتعبير عنها [44]. ثم يبين أن الشخصية التراجيدية تستخدم - في لغتها - عدة أساليب هي البرهنة والتفنيد وإثارة المشاعر المختلفة، مثل الشفقة والخوف والغضب وغير ذلك من مشاعر أخرى [45]. والهدف من وراء استخدام تلك الأساليب - كما نستخلصه من عبارات أرسطو - أن تتمكن الشخصية التراجيدية من التأثير في غيرها من الشخصيات الأخرى ودفعها إلى تغيير مواقفها، وبالتالي يتحدد الخط الفكري في التراجيديا وتتبلور القضية المثارة فيها.

فإذا بحثنا - بين شخصيات التراجيديا الأثينية - عن شخصية بليغة تملك ناصية البيان والقدرة على التأثير في الآخرين، فإننا لا نجد أشهر من أوديسيوس في هذا المجال. ويبرز دور أوديسيوس، في ذلك المجال، في ثلاث من التراجيديات الأثينية هي آياس وفيلوكتيتيس لسوفوكليس وهيكابي ليوربيديس، إذ نلاحظ في تلك التراجيديات الثلاث أن لغة أوديسيوس تستخدم أسلوبين للإقناع، هما إثارة المشاعر أو القيم العامة، وتحريك المشاعر أو القيم الخاصة عند الشخصيات الأخرى بغرض التأثير فيها ودفعها إلى تغيير مواقفها. ولعلنا نستطيع القول إن المشاعر أو القيم الشخصية تحتل الصدارة عند يوربيديس، على عكس الحال عند سوفوكليس، ما يلقي الضوء على عصر سوفوكليس من حيث قوة الوازع الديني مقارنة بعصر يوربيديس من حيث ضعف هذا الوازع، وهو العصر الذي نجد وصفا له في حديث ثيوكيديديس عن الحرب والطاعون، حيث يذكر أن الناس قد أقبلوا على المتعة وانعدم

لديهم الخوف من الآلهة ومن القانون، وأخذ الشك في الآلهة ينتابهم مادام الموت لا يميز بين الأخيار والأشرار (46).

ونضيف - أيضا - أن اللغة تؤدي - في تصورنا - دورا حيويا في مشاهدة العرض التراجيدي في ضوء بعد المسافة بين المشاهد وخشبة المسرح الإغريقي، إذ تقدر المسافة - في مسرح إبيداوروس على سبيل المثال - بين الصف الأول من المشاهدين، وبين خشبة المسرح أو المنصة بخمسة وعشرين مترا تقريبا، وتقدر المسافة بينها وبين الصف الأخير بثمانين مترا تقريبا. وربما يمكن أن نفهم - في ضوء ذلك - سبب تسمية خشبة المسرح باسم λογίον أي «مكان الإلقاء». لأن بعد المسافة بين الممثل والمتفرج، خصوصا في الصفوف الخلفية، بالإضافة إلى استخدام القناع، قد حالا دون رؤية ملامح الوجه أو أي تعبيرات قد تطرأ عليها، لذلك كان من الضروري أن تنقل الكلمات هذه الصورة إلى المشاهدين، حيث يقوم الاستماع إلى كلمات الممثلين مقام مشاهدة تعبيراتهم بالحركة، أو مقام غيرها من حرفيات العرض التراجيدي. ونقدم، من بين الأمثلة الكثيرة في هذا الصدد، حوارا يدور بين ياسون وزوجته ميديا يقول فيه:

ما هذا؟ لمَ هذه الدموع التي تنهمر من عينيك؟
لم هذا الشحوب؟ لم تشيحين بوجهك؟ (47).

لاحظنا فيما أمكننا عرضه من دراسات نقدية بشأن التراجيديا الأثينية أنها قد شملت أربعة مجالات، هي: مجال الفكر السياسي والاجتماعي، ثم مجال القضايا الأخلاقية، ومجال حرفية الكتابة التراجيدية وأخيرا مجال اللغة. وقد بيّنا أن ذلك المجال الأخير تربطه بغيره علاقة حيوية تستلزم التوسع في دراسة اللغة أو تضمينها بين الدراسات الأخرى. ومازالت هناك مجالات أخرى يمكن أن يطرقها دارسو التراجيديا الأثينية، مثل مجال التحليل النفسي الذي شهد فترة مزدهرة في بداية النصف الأخير من القرن العشرين.

الهوامش

1 Hall, E., The Sociology of Athenian Tragedy, In Easterling (Ed.), 1997, p. 94.

2 Goldhill, Simon, Aeschylus, The Oresteia, Cambridge University, 1996, p. 21.

3 Buxton, Richard, Imaginary Greece, Cambridge University pr., 1995, pp. 71 - 77.

4 لطفي عبدالوهاب يحيى، الأسطورة والحضارة والمسرح في مأساة «أوديب ملكا» عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، 1985، ص 91.

5 نذكر من بين هذه الدراسات المعاصرة الوفيرة ما يلي مرتبة زمنيا:

- Scodel, Ruth, Hybris In The Second Stasimon Of The Oedipus Rex, CPH, 1982, pp. 214 - 223.
- Falkner, Thomas M., Coming Age In Argos: Physis And Paideia In Euripides Ortestes, CJ, vol 78, N. 4, 1983, pp. 289 - 300.
- Wiersma, S., Women In Sophocles, Memosyne, Fasc. 1-2, 1984, pp. 25 - 55.
- Euben, J.P. (Ed.), Greek Tragedy And Political Theory, Berkeley, Los Angeles And London, 1986.
- Easterling, P.E., And knox, B.M.W., (Eds), The Cambridge History of Classical Literature, vol. I, Part 2, Greek Drama, Cambridge University pr, 1989.
- Winkler, J.J. And F.I. Zeithin (Eds.), Nothing To Do With Dionysos; Athenian Drama In Its Social Context, Princeton, 1990.
- Scodel, Ruth, Theater And society In The Classical World, Ann Arbor, 1993.
- Sommerstein, A.H. Et al. (Eds), Tragedy, Comedy And The Polis: Papers From The Greek Drama Conference, Nottingham, 18 - 20 July, 1993.
- Katz, Marilyn A. The character Of Tragedy: Women And The Greek Imagination, Arethusa, vol. 27, N.1, 1994, pp. 81 - 100.
- Konstan, David, The Classics And Class Conflict, Arethusa, vol. 27, N. I, 1994, pp. 47 - 70.
- Buxton, Richard,Op., Cit.
- Goff, B. History, Tragedy, Theory: Dialogues On Athenian Drama, Austin, 1995.
- Zeitlin, Forma, Playing The Other: Gender And Society In Classical Greek Literature, University of Chicago Pr., 1995.
- Goldhill, Simon, Op., cit.
- Sidwell, Keith, The Politics of Aeschylus Eumenides, Classics Ireland, vol. 3, 1996, http // www Ucd ie- Classics Classics Ireland html, pp. 1-6.

- Silk, M.S., Tragedy And The Tragic: Greek Theatre And Beyond, Oxford, 1996.
- Pelling, C, Tragedy And The Historian, Oxford, 1997.
- Seaford, Richard, George Thomson And Ancient Greece, Classics Ireland, vol. 4, 1997, http / www . Ucd ie / - Classics / Classics Ireland. html, pp. 1-4.
- Ormand, kirk, Exchange And the Maiden: Marriage In Sophoclean Tragedy, University Of Texas pr., 1999.
- Segal, Charles, Tragedy And Civilization: An Interpretation of Sophocles, University of Oklahoma pr., 1999. -
Foley, Helen, Female Acts In Greek Tragedy (Martin Classical Lectures, New series) Princeton University Pr., 2001.

ويعد لطفي عبدالوهاب يحيى من أبرز الباحثين العرب الداعين إلى دراسة التراجيديا الإغريقية من منظور الفكر السياسي والاجتماعي، ويظهر ذلك - بوضوح - في دراسته المشار إليها من قبل.

6 Gomme, A.W, The Position of Woman In Athens In Fifth And Fourth Centuries, CPH, 20, 1925, pp. 1- 25.
- Hadas, Moses, Observations On Athenian Women, Classical Weekly, 39, 1936, pp. 97 - 100.
- Seltman, Charles, The Status of Women In Athens. GR, Series 2,2, 1955, pp. 119 - 24.
- Women In Antiquity, Thames And Hudson, London 1956.
- Richter, Donald C, The Position of Women In Classical Athens, CJ, 67, 1971, pp. 1-8.
- Pomeroy, Sarah, Goddesses, Whores, Wives, And Slaves, Women In Classical Antiquity, Schosken Books, New York, 1975.

وقد تناول حسين الشيخ هذه القضية في رسالة دكتوراه غير منشورة، «المرأة عند المجتمع الأثيني في القرن الخامس ق.م، من خلال الأعمال المسرحية فيه» 1982.

7 Katz, Marilyn A., Op., cit., p. 88.
8 Goldhill, simon, Op., cit., p. 42, 45.
9 Foley, Helen, op, cit.,
10 Seaford, Richard, Op,cit., p 1.
11 Sidwell, Keith, Op.cit., p 3.
12 Goldhill, Simon, Op.cit., p 60.
13 Scodel, Ruth, Op.cit., pp. 218 - 219, p 223.
14 Konstan, David, Op.cit., pp. 51 - 53.

Segal, Charles, Op.cit. 15
Ormand, Kirk, Op.cit. 16
Flakner, Thomas, Op.cit., pp. 292 - 93. 17
Kovacs, David, The Heroic Muse, Studies In The Hippolytus And The Hecuba of Euripides, Johns Hopkins University Pr., 1988, pp. 119 - 122. 18
Blundell,Mary Whitlock, Helping Friends And Harming Enemies, A study In Sophocles And Greek Ethics, Cambridge University pr., 1991, p. 58, pp. 261 - 62. 19
Finnegan, Rachel, Plagues In Classical Literature, Classics Ireland, 1999, http: // WWW. Ucd. Ie / Classics / 99. Finnegan. html, pp. 2-3. 20
Nussbaum, Martha C., The Fragility of Goodness: Luck And Ethics In Greek Tragedy And Philosophy, Cambridge University Pr., 2001. 21
Ar. Frogs v. 93, 766, 770. 22
Deforest, Mary, Female Choruses In Greek Tragedy, Didaskalia, vol. 3, N.1, p. 1, 5. 23
Knox, B.M.W, The Oedipus Legend, In Leone, Bruno (Ed), Readings On Sophocles, Greenhaven Pr., San Diego, CA, 1997, pp. 86 - 87. 24
Ringer, M., Electra And The Empty Urn. Metatheater And The Role Playing In Sophocles, Chapel Hill: The University of North Carolina Pr., 1998, pp. 31 - 49, 127 - 212. 25
Earp, F.R, The Style of Sophocles, Cambridge, 1944. Friis Johansen, H, Some Features of Sentence ? Structure, C & M, 15, pp. 1- 59. 26
27 من أبرز الدراسات في هذا المجال:
Coheen, R.F. The Imagery Of Sophocles' Antigone. A Study Of Poetic Language And structure, Princeton, 1951.
Long, A, Language And Thought In Sophocles: A Study Of Abstract Nouns & Poetic Technique, London, 1968.
Padel, Ruth, In And Out of The Mind, Greek Images of The Tragic Self, Princeton University Pr., 1992, pp. 65 - 68. 28
Ibid., pp. 62 - 64. 29
Ibid., pp. 82 - 83, p. 92. 30
Ibid., pp. 114 - 117, 123 - 125, p142. 31
Budelmann, Felix, The Language of Sophocles, Communality, Communication And Involvement, Cambridge University Pr., 2000, pp. 9-10. 32
Ibid., p. 30. 33
Ibid., pp. 31- 34. 34

Ibid., pp. 40 - 42. 35
Ibid., pp. 51 - 52. 36
Goldhill, Simon, The Language Of Tragedy: Rhetoric And Communication, In Easterling (Ed.), 1977, p. 128. 37
Idem, Reading Greek Tragedy, Cambridge University Pr., 1988, p.31. 38
Watson, G.J, Drama: An Introduction, Macmillan Pr. LTD, London, 1983, p. 13. 39
Mossman, Judith, Wild Justice, A Study Of Euripides; Hecuba, Clarendon Pr. Oxford, 1995, p. 4, 8. 40
Arist., Poetics, 1453 B 4- 6. 41
Arist., Ethics, X, 5. 42
Plato, Ion 535 E. 43
Arist., Poetics, 1450B 12 - 15. 44
Ibid, 1456A 37 - 1456 B 1. 45
Thuc. II.LIII.4. 46
Eur., Med., vv 922-924. 47

قائمة المراجع

أولا: المصادر

- Aristophanes, Frogs, Edited With an English Translation by B. B. Rogers (L.C.L.) 1941.
- Aristotles, N. Ethics, Edited With an English Translation by Christopher Rowe, Oxford Univ. Pr. 2002,
- Poetics, Edited by R. Kassel, Oxford University Press, 1968.
- Euripides, Medea, Edited With an English Translation by A. S. Way (L.C.L) 1980.
- Plato, Ion, Edited With Introduction and Notes by, John M. Cooper, Cambridge, 1997.
- Thucydides, Edited With an English Translation by, Charles Forster Smith, (L.C.L.), 1969.

ثانيا: المراجع العربية

- حسين الشيخ، المرأة عند المجتمع الأثيني في القرن الخامس ق.م، من خلال الأعمال المسرحية فيه، رسالة دكتوراه غير منشورة، 1982.
- لطفي عبدالوهاب يحيى، الأسطورة والحضارة والمسرح في مأساة «أوديب ملكا» عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، 1985، ص 99 - 108.

ثالثا: المراجع الأجنبية

- Blundell, Mary Whitlock, Helping Friends And Harming Enemies. A Study In Sophocles And Greek Ethics, Cambridge University Pr., 1991.
- Budelmann, Felix, The language Of Sophocles, Communality, Communication And Involvement, Cambridge University Pr., 2000.
- Buxton, Richard, Imaginary Greece, The Contexts of Mythology, Cambridge University Pr., 1995.
- Coheen., R.F., The Imagery Of Sophocles Antigone. A Study Of Poetic Language And Structure, Princeton, 1951.
- Deforest, Mary, Female Choruses In Greek Tragedy, Didaskalia, vol. 4, N. 1, 1997, pp. 1-8.
- Earp, F.R.,The Style Of Sopocles, Cambridge, 1944.

- Easterling, P.E., And Knox, B.M.W, (Eds),
The Cambridge History of Classical Literature, vol. 1, Part 2, Greek Drama Cambridge Pr., 1989.
- Euben, J.P. (Ed), Greek Tragedy And Political Theory, Berkeley, Los Angeles. And London, 1986.
- Faulkner, Thomas M., Coming Age In Argos: Physis And Paideia In Euripides Orestes, CJ, vol. 78, N.4, 1988, pp. 289 - 300.
- Finnegan, Rachel, Plagues In Classical Literature, Classics Ireland, 1999, http: // WWW. Ucd. Ie/ Classics/ 99 Finnegan. html.
- Foley, Helen, Female Acts In Greek Tragedy (Martin Classical Lectures, New Series) Princeton University Pr., 2001.
- Friis Johansen, H, Some Features of Sentence - Structure In Aeschylus' Suppliants, C & M, 15, pp. 1-59.
- Goff, B, History, Tragedy, Theory: Dialogues On Athenian Drama, Austin, 1995.
- Goldhill, Simon, The Language of Tragedy: Rhetoric And communication, In Easterling (Ed)., 1977.
- .... Reading Greek Tragedy, Cambridge University pr., 1988.
- .... Aeschylus, The Oresteia, Cambridge university Pr., 1966.
- Gomme, A.W., The Position of Woman In Athens In Fifth And Fourth Centuries, CPH, 20, 1925, pp. 1-25.
- Hadas, Moses, Observations On Athenian Women, Classical Weekly, 39. 1936, pp. 97 - 100.
- Hall, E., The Sociology of Athenian Tragedy, In Easterling (Ed), 1997.
- Katz, Marilyn A., The Character of Tragedy: Arethusa, vol. 27, N.1, 1994, pp. 81 - 100.
- Knox, B- M.W.,The Oedipus Legend, In Leone, Bruno (Ed), Readings on Sophocles, Greenhaven Pr., San Diego, CA, 1997.
- Konstan, David, The Classics And Class Conflict, Arethusa, vol., 27, N. I, 1994, pp. 47 - 70.
- Kovacs, David, The Heroic Muse, Studies In The Hippolytus And The Hecuba Of Euripides, Johns Hopkins University Pr., 1988.
- Long, A., Language And Thought In Sophocles: A Study Of Abstract Nouns And Poetic Technique, London, 1968.
- Mossman, Hudith, Wild Justtice, A study of Euripides' Hecuba, Clarendon

pr., Oxford, 1995.
- Nussbaum, Martha C., The Fragility of Goodness: Luck And Ethics In Greek Tragedy And Philosophy, Cambridge University Pr., 2001.
- Ormand, Kirk, Exchange And The Maiden: Marriage In Sophoclean Tragedy, University Of Texas Pr., 1999.
- Padel, Ruth, In And Out Of The Mind, Greek Images Of The Tragic Self, Princeton University Pr; 1992.
- Pelling, C, Tragedy And The Historian, Oxford, 1997.
- Pomeroy, Sarah, Goddesses, Whores, Wives, And Slaves, Women In Classical Antiquity, Schocken Books, New York, 1975.
- Richter, Donald C, The Position of Women In Classical Athens, CJ, 67, 1971, pp. 1-8.
- Ringer, M., Electra And The Empty Urn. Metatheater And The Role Playing In Sophocles, Chapel Hill: The University Of North Caroline Pr, 1998.
- Scodel, Ruth, Hybris In The Second Stasimon of The Oedipus Rex, CPH, 1982, pp. 214 - 223.
- .... Theater And Society In The Classical World, Ann Arbor, 1993.
Seaford, Richard, George Thomson And Ancient Greece, Classics Ireland, vol. 4, 1997, http/ www. Ucd/e/.Classics/Classics Ireland.html.
- Segal, Charles, Tragedy and Civilization: An Interpretation Of Sophocles, University of Oklahoma Pr., 1999.
- Seltman, Charles, The Status Of Women In Athens, GR, Series 2, 2, 1955, pp. 119 - 24.
- .... Women In antiquity, Thames And Hudson, London, 1956.
- Sidwell, Keith, The Politics Of Aeschylus' Eumenides, Classics Ireland, vol. 3, 1996, httpll www Ucd ie/ Classics/ Classics Ireland html.
- Silk, M.S., Tragedy And The Tragic: Greek Theatre And Beyond, Oxford, 1996.
Sommerstein, A.H., Et al. (Eds),Tragedy, Comedy And The Polis: Papers From The Greek Drama Conference, Nottingham, 18 - 20 July, 1993.
- Watson, G.J, Drama: An Introduction, Macmillan Pr. LTD, London, 1983.
- Winkler, J.J., And F.I.Zeithin(Eds), Nothing To Do With Dionysos: Athenian Drama In Its Social Context, Princeton, 1990.
- Zeitlin, forma, Playing The Other: Gender And Society In Classical Greek Literature, University of Chicago Pr., 1995.

عالم الفكر
العدد 2 المجلد 38 أكتوبر - ديسمبر 2009

أثينا.. المدينة والأسطورة

د. عبدالمعطي شعراوي (*)

يبدأ تاريخ مدينة أثينا منذ العصر الحجري الحديث. لم تكن المدينة سوى قلعة مرتفعة تقع فوق هضبة الأكروبوليس. حدث ذلك فيما بين الألفية الرابعة والألفية الثالثة قبل الميلاد[1]. تعتبر قلعة الأكروبوليس موقعا دفاعيا طبيعيا يمكّن مَنْ يسيطر عليه أن يفرض سلطانه على السهول المحيطة. تبلغ مساحة المنطقة نحو عشرين كيلومترا مربعا. تمتد من الخليج الساروني Saronic Gulf نحو الداخل في وسط سهل كيفيسيا Kephisia وهو واد خصيب محاط بالأنهار. يحده شرقا جبل هيميتّوس Hymettos، ويحده شمالا جبل بنتيليكوس Pentelikos.

منذ عصور سحيقة كان نهر كيفيسوس Kephisos يجري وسط المدينة. كانت المدينة محاطة بالأسوار. لم تكن المسافة المحاطة بالأسوار تزيد على كيلومترين فقط من الشرق إلى الغرب، وأقل من ذلك بقليل بين الشمال والجنوب. هذا بالإضافة إلى بعض الضواحي التابعة لها والواقعة خارج أسوارها، وإن كان ذلك لا يحدث إلا أثناء فترات ازدهارها. كانت الأكروبوليس تتوسط المنطقة الشمالية من وسط تلك المساحة المحاطة بالأسوار. في شمال الأكروبوليس كان يقع الأجورا agora، وهو المركز التجاري والاجتماعي للمدينة. كانت مساحته نحو أربعمائة متر مربع. في الطرف الغربي للمدينة كان يقع تل بنوكس Pnyx حيث كان مقر الجمعية العمومية التي تجمع سكان المدينة للتبادل التجاري أو تبادل الرأي[2].

(*) أستاذ اللغة اليونانية واللاتينية وآدابها - جامعة القاهرة - مصر.

ليست لدينا معلومات مؤكّدة عن عدد سكان مدينة أثينا منذ نشأتها[3]. لكن - طبقا لما جاء عند واحد من أشهر المؤرخين الإغريق - عند بداية الحرب البلوبونيسية (431 ق.م). كان عدد المواطنين البالغين نحو أربعين ألفا، بينما بلغ عدد أفراد عائلاتهم نحو مائة ألف. هذا بالإضافة إلى المقيمين metics في المدينة والذين لا يتمتعون بحقوق المواطنة، وكان يبلغ عددهم نحو سبعين ألفا. هذا أيضا بالإضافة إلى طبقة العبيد الذين كان يتراوح عددهم ما بين مائة وخمسين ألفا وأربعمائة ألف، وبالتالي فقد بلغ عدد البالغين من المواطنين الذكور - الذين لهم حق الانتخاب والترشّح في الجمعية العمومية - ما بين 6,5% و11% من مجموع سكان مدينة أثينا[4].

يبدو أن مدينة أثينا كانت في مكانة الصدارة منذ فجر التاريخ. منذ عام ألف وأربعمائة قبل الميلاد أصبحت أثينا مركزا قويا من مراكز الحضارة الموكينية. أثناء الغزو الدوري Doric في عام ألف ومائتين قبل الميلاد لم تتعرض أثينا للغزو، ولم يهجرها أهلها كما حدث لمدينة موكيناي ومدينة بيلوس Pylos. لذلك كان الأثينيون يؤكدون دائما أن الدماء التي تجري في عروقهم دماء أيونية خالصة وليس فيها أي عنصر دوري[5]. ربما يعود ذلك إلى علاقة مدينة أثينا الروحية بالربة حامية المدينة وراعيتها[6].

***

يقول المفكر أفلاطون[7] على لسان أستاذه الفيلسوف الأثيني سقراط: «إن مدينتنا تستحق المديح، ليس منا فقط بل من جميع أفراد البشر. ذلك لأسباب كثيرة. أولها وأهمها: أنها محبوبة لدى الآلهة. إن النزاع بين الآلهة الذين تنافسوا من أجلها والحُكم الذي أصدروه بشأنها لخير دليل على صحة قولنا».

يشرح كاتب الأساطير أبوللودوروس[8] (الذي عاش في القرن الثاني الميلادي) كيف تنافست الآلهة من أجل مدينة سقراط. قررت الآلهة أن يتخّذ كل منهم مدينة خاصة به، يحدوها بحمايته، ويدافع عنها، ويتولاها برعايته، وذلك حتى يستقل كل منهم بالتقديس الخاص به. حدث ذلك أثناء حكم الملك كيكروبس Kekrops أول حكام منطقة أتيكا[9]، وصل إلى أتيكا أولا الإله بوسيدون Poseidon. ضرب بشوكته الثلاثية سطح المنطقة الوسطى من هضبة الأكروبوليس. خرجت من قلب الصخرة نافورة من المياه المالحة. اتخذت لها مجرى مائيا يسمى مجرى إريختيس Erekhtheis، ثم وصلت بعده الربة أثينة[10]. طلبت من الملك كيكروبس أن يحضر ليشاهد بعيني رأسه المنافسة بينها وبين الإله بوسيدون. زرعت الربة لأول مرة شجرة الزيتون. احتدم النزاع بين الربة أثينة والإله بوسيدون. اضطر كبير الآلهة زيوس إلى التدخل لفضّ النزاع. عيّن زيوس هيئة محكّمين مكونة من اثني عشر إلها. استشهدت هيئة المحكّمين بالملك كيكروبس. أعلن الملك كيكروبس أن شجرة الزيتون أكثر نفعا من مجرى المياه

المالحة وقررت هيئة التحكيم أحقية الربة أثينة في الولاية على منطقة أتيكا[11]. عندئذ أطلقت الربة أثينة اسمها على المنطقة. غضب بوسيدون غضبا بالغا. غمر السهل بفيضان من المياه المالحة.

يشير الشاعر السكندري كاليماخوس[12] (الذي عاش في القرن الثالث الميلادي) في إحدى الشذرات الباقية من أعماله إلى مدينة أثينا قائلا: «تلك الأرض حصلت عليها الربة (أثينة) بفضل تصويت زيوس والآلهة الإثني عشر وشهادة الملك الأفعى (كيكروبس)».

يصف الرحّالة الإغريقي باوسانياس[13] (الذي عاش في القرن الثاني الميلادي) بعض التماثيل التي شاهدها فوق قلعة الأكروبوليس. من بين تلك التماثيل تمثال للربة أثينة وشجرة الزيتون، وتمثال آخر للإله بوسيدون والفيضان. كما شاهد أيضا في داخل معبد الربة أثينة رسوما بارزة تصور النزاع بين الربة أثينة والإله بوسيدون[14].

يؤكد مصدر مهم[15] من مصادر الأساطير الإغريقية (يرجع تاريخه إلى القرن الثاني الميلادي) قصة التنافس بين الربة أثينة والإله بوسيدون. يؤكّد المصدر أن كلا من الربة أثينة والإله بوسيدون أراد تأسيس مدينة جديدة تكون تحت رعايته. ذهب الاثنان إلى منطقة أتيكا. نشأ نزاع بينهما. يواصل ذلك المصدر رواية القصة نفسها حتى نهايتها المعروفة، وفي نهاية روايته يضيف معلومتين مهمتين، أولاهما: أن كبير الآلهة زيوس أمر - عن طريق رسوله هرميس - الإله بوسيدون ألّا يغرق منطقة أتيكا بالمياه المالحة، وثانيتهما أن الربة أثينة أنشأت مدينة أطلقت عليها اسمها، ويقال إنها أول مدينة أنشئت في العالم.

هكذا تجمع كل المصادر القديمة التي وصلتنا على أن هناك علاقة وطيدة بين مدينة أثينا والربة أثينة[16]. بل إن هناك تشابها كبيرا - إن لم يكن اتفاقا كاملا - بين اسم المدينة واسم الربة. يظهر اسم الربة في المصادر الإغريقية القديمة في صور مختلفة[17]. لكن الشكل الأعمّ للاسم هو эAθη/vη (Athene) كما يظهر عند هوميروس[18]، أو эAθεναι/η (Athenaie) كما يظهر في بعض المخطوطات[19]. كما يظهر أيضا في اللهجة الأتيكية في صورة эAθηναι/α[20] (Athenaia)، وفي اللهجة الدورية في صورة эAθα/να (Athana)[21]، وقد يظهر أيضا في صورة эAθαναι/α (Athanaià)[22]، وفي اللهجة الأيولية يكتب эAθανα/α (Athenaa)[23]. أما اسم المدينة فيكتب في اللهجة الأتيكية эAθη=ναι (Athenai)[24]، وفي اللهجة الدورية эAθα=ναι (Athanai)، وقد يشار إلى المدينة باسم الربة أثينة نفسه - أي эAθη=νη[25] (Athene). كما أنه في الأغلب الأعم يشير لفظ эAθη=ναι (Athenai) إلى منطقة أتيكا بأكملها[26].

هناك إذن صلة وثيقة بين مدينة أثينا والربة أثينة. صلة لغوية بين اسم كل منهما. الربة أثينة يأتي اسمها في صيغة المفرد المؤنث эAθη/νη (Athene)، بينما يأتي اسم المدينة في

صيغة الجمع المؤنث (Athenai) ϶Αθη=ναι، وقد اتبعت أغلب اللغات الأوروبية القديمة والحديثة الفارق اللغوي نفسه للتمييز بين كل من المدينة والربة. في اللغة اللاتينية - على سبيل المثال - اسم الربة Athena (مفرد مؤنث) واسم المدينة Athenae (جمع مؤنث). في اللغة الإنجليزية اسم الربة Athena (مفرد مؤنث) واسم المدينة Athens (جمع مؤنث). في اللغة الفرنسية اسم الربة Athene (مفرد مؤنث) واسم المدينة Athenes (جمع مؤنث). في اللغة الإيطالية اسم الربة Atena (مفرد مؤنث) واسم المدينة Atene (جمع مؤنث). في اللغة الإسبانية اسم الربة Atenea (مفرد مؤنث) واسم المدينة Atenas (جمع مؤنث). في اللغة الألمانية اسم الربة Athena (مفرد مؤنث) واسم المدينة Athen (جمع مؤنث).

هناك مدن إغريقية أخرى كثيرة ترد أسماؤها في حالة الجمع المؤنث[27]. مدينة طيبة /Θη βαι (Thebes) - على سبيل المثال - الواقعة على الحافة الجنوبية من السهل الشرقي لمنطقة بيوتيا[28]. تروي الأساطير أن هذه المدينة اكتسبت اسمها من اسم الربة Θη/βη (Thebe) وهي حورية محلية تزوجها الملك زيثوس Zethos. أصبحت الحورية ثيبي راعية لمدينة كادميا Kadmeia، وبالتالي تغيّر اسمها إلى مدينة طيبة (Thebai) Θη/βαι[29]. كذلك أيضا مدينة موكيناي (Mukenai) Μυκη=ναι الواقعة في الركن الشمالي الشرقي من سهل أرجوس. يشير إليها كل من هوميروس وثوكوديديس وغيرهما في صيغة الجمع المؤنث[30]، وإن كان يشار إليها أيضا في مصادر كثيرة أخرى في صيغة المفرد المؤنث[31]. كان المواطنون يعبدون الربة موكيني Μυκη/νη، وقد سميت المدينة موكيناي إشارة إلى العابدات اللائي كن يقمن على خدمة عبادة الربة موكيني. هناك أيضا مدينة دلفي الواقعة على المنحدرات الجنوبية لجبال برناسوس على ارتفاع ألفي قدم تقريبا فوق سطح مياه خليج كورنثا. يشير إليها أغلب الكتّاب الإغريق في صيغة الجمع المذكر (Delphoi) /Δελφοι على أنها مدينة[32] أو على أنها مجموعة السكان الذين يسكنون المدينة[33]. كما يشير المفرد المذكر (Delphos) Δελφοφ إلى شخص الملك الذي يحكم - أو يحمي - المدينة[34].

أصل لفظ أثينا (Athenai) ϶Αθη=ναι غامض، ويبدو أنه يعود إلى ما قبل العصور الإغريقية. بمعنى أن الربة أثينة - التي فرضت اسمها على اسم المدينة وفرضت حمايتها على أرض المدينة وسكانها - ليست إغريقية الأصل[35]. يرى جونتر نيومان Gunther Neumann أن من المحتمل أن يكون اسم الربة أثينة ذا أصل ليدي (نسبة إلى منطقة ليديا Lydia)[36]. من المحتمل أن يكون لفظا مركبا يتكون من المقطع ati ويعني «أمّ» واسم الربة الليدية «هاناهانا Hannahanna» الذي يُختصر في أماكن كثيرة في منطقة ليديا إلى «أنا Ana». كما كشفت بعض الحفريات في منطقة كنوسوس في العصر الموكيني عن نصّ نُقشت عليه العبارة: A-ta-na-po-ti-ni-ja يرجع تاريخه إلى أواخر العصر الموكيني[37]، وعلى الرغم من أن أغلب

الدارسين يقترح ترجمة عبارة Athana Potniya بعبارة «أثينة الأم» غير أنها قد تعني حرفيا - في رأي آخرين - Potnia of At(h)ana والتي قد تعني بدورها «سيدة أثينا»[38]، وعلى الرغم من ذلك فقد يرفض بعض الدارسين الاعتقاد في وجود علاقة بين مدينة أثينا ونص كنوسوس ويعتبرون ذلك شيئا غير مؤكد[39]، ولعلنا نلاحظ أيضا أن العبارة A-ta-no-dja-wa-ja الموجودة أيضا في نص كنوسوس قد تعني «أثينة المقدسة التي تجيد الغزْل والحرف اليدوية[40]». يشرح أفلاطون[41] في إحدى محاوراته على لسان أستاذه سقراط كيف كان قدماء الإغريق يفسرون اسم الربة أثينة. كانوا يعتقدون أنه مشتق من اللفظ Θεονο/α (α)، والذي شرحه الإغريق العقلانيون المتأخرون على أنه مركب من كلمتين: θεο/φ (إله) وνου/φ (عقل)، «عقل الإله» أو «الحكمة المقدسة». يضيف المؤرخ الرحالة الإغريقي هيرودوتوس[42] (الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) أن قدماء المصريين في مدينة سايس كانوا يعبدون ربة مصرية تعرف باسم نيس Neith، وأنهم كانوا يساوونها بالربة أثينة.

هناك أيضا جدال قديم حول تسمية المدينة: هل سُمّيت المدينة على اسم الربة، أم سُمّيت الربة على اسم المدينة[43]. مهما يكن الأمر فإن الروايات القديمة والحديثة على حد سواء تربط بين مدينة أثينا من جهة والربة أثينة والإله بوسيدون من جهة أخرى. فالإله بوسيدون منح المدينة مجرى مائيا - وهو رمز القوة البحرية، والربة أثينة منحت المدينة شجرة الزيتون - وهي رمز السلام والرخاء، وهكذا كانت مدينة أثينا دائما تتمتع بالقوة البحرية وتتميّز بحب السلام والرخاء.

***

لم يتوقف الجدل والنقاش حول تفسير اسم الربة أثينة فقط، بل امتدّ أيضا حول نسبها وكيفية مولدها ومسقط رأسها. تروي أغلب المصادر أنها ابنة كبير الآلهة زيوس. يشير إليها هوميروس على أنها ابنة زيوس من دون الإشارة إلى والدتها أو كيفية مولدها أو مسقط رأسها[44]. يروي هيسيودوس[45] (الذي عاش في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد) في قصيدته الشهيرة أنساب الآلهة Theogony أن كبير الآلهة زيوس تزوج الربة ميتيس Metis. الربة ميتيس هي الأحكم بين الآلهة والبشر. لفظ ميتيس يعني «المشورة الحكيمة». حملت ميتيس. أصبحت على وشك أن تضع مولودها. خدعها زوجها زيوس بكلماته المعسولة. غافلها. فغر فاه الواسع. ابتلعها. انزلقت ميتيس لتستقر في جوف كبير الآلهة زيوس. لم يفعل زيوس ذلك بلا سبب. السبب معروف. نصحته ربة الأرض جايا Gaia وإله السماء أورانوس Ouranos أن يفعل ذلك. نصحاه بذلك حتى لا يستطيع أيّ مخلوق آخر أن يبسط سلطانه على الآلهة الخالدين في قصر زيوس. إذ إن ميتيس سوف تنجب أطفالا أذكياء. أوّلهم الفتاة تريتوجينيا Tritigeneia ذات العينين البرّاقتين، التي سوف تساوي والدها زيوس في القوة وفي الفهم

الحكيم. لذلك ابتلع زيوس ابنته قبل أن تولد، واحتفظ بها في جوفه كي تسدي إليه النصيحة دائما وهي في جوفه.

يواصل هيسيودوس روايته عن مولد الربة أثينة[46]. تزوج كبير الآلهة زيوس ابنة أوكيانوس Okeanos وتيثوس Tethys (ميتيس) من دون أن تدري زوجته هيرا. خدع زيوس ميتيس على الرغم من حكمتها الواسعة. أخذها بين ذراعيه. ألقى بها في جوفه. كان يخشى أن تنجب مولودا يفوق الرعد (رمز الإله زيوس) في قوّته. لكن ميتيس كانت على الفور قد حملت في رحمها أثينة باللاس. لذا أنجبها كبير الآلهة زيوس من رأسه عل شاطئ نهر تريتو Trito، وظلت مختفية داخل أجزاء زيوس الداخلية رغما عن إرادة والدتها ميتيس التي تفوق الآلهة والبشر في الحكمة والاستقامة. عندئذ تسلّمت الربة أثينة أسلحتها التي فاقت بواسطتها كل الآلهة الخالدين الذين يسكنون فوق جبل أولمبوس، وهكذا أنجب زيوس الربة أثينة وهي مدجّجة بالسلاح ومستعدة للحرب[47].

يضيف هيسيودوس[48]. أنجب زيوس من رأسه - فور زواجه من هيرا - أثينة تريتوجينيا ذات العينين البرّاقتين (glaukopis) γλαυκω/πιφ، المرعبة (deine) /δεινη، المحبّة للنزاع (egrekudoimos) эεγρεκυ/δοιμοφ، قائدة الجيوش (agestratos) эαγε/στρατοφ، الملكة التي لا تتعب эατρυτω/νη πο/τνια. غضبت الزوجة الشرعية هيرا من زوجها زيوس. نشأ شجار بينهما. حملت ذاتيا من دون أن تقيم علاقة زوجية معه أو مع غيره. أنجبت بمفردها هيفايستوس الشهير، الذي فاق كل سكان السماء في مجال الحرف اليدوية.

يصف الشاعر الكورالي بنداروس[49] (الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) كيف خرجت الربة أثينة من رأس كبير الآلهة زيوس. تلك الأرض المحاطة بالماء[50] حيث أمطرها ذات مرة كبير الآلهة برذاذ من شرائح الذهب، هناك حدث ذلك حين استخدمت يد هيفايستوس الماهرة البلطة ذات الشفرة البرونزية. عندئذ خرجت أثينة من الجرح العلوي لجبهة والدها (زيوس). ملأت صيحتها المدوية كل أرجاء السماء الشاسعة. ارتعدت السماء (أورانوس) والأرض (جايا). هناك كان أيضا هيبيريوس العظيم (إله الشمس)، الذي يمنح الضوء لكل أفراد البشر. أمر أبناءه أن يقيموا للربة محرابا لامعا، وأن يضعوا أسس الشعائر المقدسة التي تُقدّم إليها، حتى يثلجوا صدر زيوس وابنته ذات الحربة القوية.

يروي الشاعر السكندري أبوللودوروس[51] رواية مشابهة إلى حدّ كبير. غيّرت ميتيس من هيئتها عدة مرات كي تهرب من مطاردة زيوس لها. لكنه تغلّب عليها في النهاية وعاشرها. غضبت منه. أخبرته أنها تحمل داخل رحمها مولودة أنثى، وبعد أن تضع مولودتها فسوف تنجب مولودا آخر سوف يصبح قادرا على السيطرة على السماء بأكملها. لذلك ابتلعها زيوس حرصا منه على مستقبله بوصفه حاكما للسماء، وعندما حان موعد ولادتها ضرب بروميثيوس

- أو هيفايستوس طبقا لبعض الروايات الأخرى - رأس زيوس ببلطة بالقرب من شاطئ نهر تريتون. خرجت من تحت تاجه الربة أثينة مدجّجة بالسلاح.

يأتي عالم الجغرافيا سترابو[52] (الذي عاش فيما بين القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي) ليعلّق على الشاعر الملحمي هوميروس. يعتقد سترابو أن الشاعر هوميروس أيضا كان يتذكّر الرخاء الذي كان يتمتع به أهل جزيرة رودوس منذ العصور القديمة حيث تأسست المدن الثلاث ومعابدها. إذ يقول هوميروس إن هناك استقرّت ثلاث مجموعات في ثلاث قبائل. كانت هذه القبائل تتمتع بحب زيوس كبير الآلهة وحاكم البشر، وكان ابن كرونوس (زيوس) يبعث إليهم بثروات هائلة. يواصل سترابو تعليقه فيقول إن هناك كتّابا آخرين يربطون بين ما جاء في أشعار هوميروس وأسطورة من الأساطير. إنهم يقولون إن الذهب هبط على أرض الجزيرة في شكل أمطار في الوقت نفسه الذي وُلدت فيه أثينة - كما يقول بنداروس - من رأس زيوس.

في مكان آخر من عمله الجغرافي يعلّق سترابو[53] على بلدة الالكوميناي Alalko- menai - الواقعة في منطقة بيوتيا - قائلا إن الشاعر هوميروس يذكر هيرا الأرجوسية (نسبة إلى مدينة أرجوس) وأثينة الألكومينية (نسبة إلى مدينة ألالكوميناي).

هناك في بلدة الالكوميناي يوجد معبد عتيق للربة أثينة حيث تلقى تكريما بالغا، ويقول أهل الالكوميناي إن الربة أثينة قد وُلدت في بلدتهم تماما كما وُلدت الربة هيرا في أرجوس، ولعل ذلك هو السبب الذي من أجله ذكر الشاعر (هوميروس) كلا من الربتين على أنهما تنتميان إلى هاتين المدينتين: أرجوس والالكوميناي.

يروي الرحالة باوسانياس[54] (الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد) أن مَنْ يدخل معبد الربة (أثينة القائم فوق قمة الأكروبولوس في مدينة أثينة) - الذي يطلقون عليه اسم البارثينون Parthenon - فإن كل الرسومات البارزة - التي يراها منقوشة على الإفريز الأعلى للمعبد - تشير إلى مولد الربة أثينة.

يواصل باوسانياس روايته قائلا[55]: إن بين الرسوم البرونزية البارزة - التي تزيّن معبد الربة أثينة القائم فوق الأكروبوليس في مدينة إسبرطة - توجد رسوم تصوّر مولد كل من الربة أثينة وأمفتريتي وبوسيدون - تلك الرسوم الضخمة التي يعتقد باوسانياس أنها أفضل ما هو جدير بالمشاهدة.

يواصل الخطيب فيلوستراتوس الأكبر[56] (الذي عاش في القرن الثاني الميلادي تقريبا) الحديث عن مولد الربة أثينة في معرض وصفه لرسم إغريقي قديم رآه في مدينة نابلي: هؤلاء الآلهة وتلك الربات، مخلوقات تثير الدهشة في نظر الرّائي، الكل كان حاضرا. فلقد صدرت الأوامر بألا يغادر أحد السماء، حتى حوريات الماء يجب أن يكُنّ على أتم الاستعداد هنّ والأنهار التي خرجْن منها. لقد أصيب الجميع برعشة عند مشاهدة أثينة، التي كانت قد خرجت في تلك اللحظة من رأس زيوس - وهي مدجّجة بكامل أسلحتها[57] - بفضل براعة

هيفايستوس كما تتطق بذلك البلطة. أما فيما يتعلّق بمادة صدريّتها الواقية فلا أحد يستطيع أن يبدي رأيا. فمثلما ألوان قوس قزح - التي يتغيّر بريقها بين لحظة وأخرى - تكون بزّتها العسكرية متعددة الألوان. لقد أُصيب هيفايستوس بالدهشة: أي هدية قد يستطيع أن يقدّمها ليكسب رضاء الربة! لقد ضاعت عليه الفرصة إذْ إنّ بزّتها العسكرية قد وُلدت معها. يشعر زيوس بسرور عميق كمن خاض معركة صعبة من أجل الحصول على جائزة. إنه ينظر إلى مولودته نظرة ممتلئة بالتأمّل، يشعر بفخر شديد نحو مَنْ أنجب. مع ذلك ليس هناك أي ملامح لعدم الرضا على وجه زوجته هيرا. بل إنها تشعر بالسعادة كما لو كانت أثينة ابنتها هي أيضا. يواصل فيلوستراتوس الأكبر حديثه قائلا إن شعبين يقدمان فروض الولاء والعبادة فوق قمة كل من مدينتيْهما: شعب مدينة أثينا وشعب جزيرة رودوس. الشعب الأول نبت من الأرض، والآخر خرج من البحر. يقدم أفراد أحد الشعبين (شعب رودوس) أضاحي غير مكتملة إذ إنها خالية من النيران. يقدم أفراد الشعب الآخر (شعب أثينا) النار - كما يظهر في الرسم - ولحما مشويّا حلو المذاق. لذلك ذهبت الربة إلى الآثينيين لأنهم شعب يمتاز بالحكمة ويقدم أضاحي فاخرة. مع ذلك فإن الذهب يتساقط من السماء على أهل رودوس ويملأ بيوتهم وشوارعهم الضيقة لأنهم اهتموا أيضا بتكريم الربة أثينة. كما يقف فوق قلعتهم إله الثروة بلوتوس Ploutos، الذي يظهر في الصورة في هيئة مخلوق ذي أجنحة يهبط من بين السحب، لونه ذهبي بسبب جوهره الذي يبدو من خلاله.

يكتب فيلوستراتوس الابن[58] (الذي عاش في القرن الثاني الميلادي تقريبا) قائلا: إن مَنْ يرغب في رسم صورة للربة أثينة - كما حاول الرسام فيدياس أن يفعل - فعليه أن يضع في حسبانه الأسلحة والوسامة والحرف اليدوية وكيف قفزت من رأس زيوس.

هكذا تنوّعت المصادر القديمة واختلفت فيما بينها حول تفاصيل مولد الربة أثينة[59]. ترى بعض المصادر أن بروميثيوس أو هرميس أو بالاماؤن Palamaon ساعد زيوس في عملية إنجاب الربة[60]. كما يقال: إن الشاعر ستسيخوروس Stesichorus (الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد) هو أول من روى أن الربة أثينة وُلدت من رأس زيوس وهي بكامل عدّتها العسكرية[61].

هناك من ينكر أبوّة كبير الآلهة زيوس للربة أثينة. يقول الرحالة باوسانياس[62] إنه عندما شاهد تمثال أثينة بجوار معبد إريخثيوس في أثينا لاحظ أن له عينين زرقاوين. عندئذ اكتشف أنهما كذلك طبقا للأسطورة الليبية. إذ إن لدى الليبيين أسطورة تقول إن الربة أثينة هي ابنة الإله بوسيدون من الحورية المائية تريتونيس Tritonis. لذلك فإن لها عينين زرقاوين مثل (لون مياه) بوسيدون (إله البحار والمحيطات). يروي مؤلف معجم سويداس البيزنطي[63] (يرجع تاريخه إلى القرن العاشر الميلادي) أن الإغريق يقولون إنها ابنة بوسيدون من حورية الماء بوليفي Polyphe ابنة إله المحيط أوكيانوس Okeanos، وإنها أول من استخدم العربة التي

تجرّها الخيول، ومن ثم أطلقوا عليها لقب هيبّيا Hippeia أي صاحبة (أو مربية) الخيول. هناك رواية طريفة سجلها المؤرخ الرحالة هيرودوتوس[64]. غضبت الربة أثينة - ابنة بوسيدون من تريتونيس - ذات يوم من والدها. فذهبت تشكو والدها إلى كبير الآلهة زيوس فاتخذها ابنة له. إن مثل هذه الرواية تكشف بوضوح أكثر من غيرها من الروايات كيف انتقلت الأساطير الإغريقية القديمة إلى ليبيا، حيث أصبحت تُعتبر فيما بعد مصادر الأساطير الهللينية[65]. بل أكثر من ذلك يقال: إن الربة أثينة الليبية تلقّت تدريبها على يديّ إله النهر تريتون حيث كانت تصاحبها ابنته باللاس[66]. هناك في ليبيا أيضا ابتكرت الربة أثينة الآلة الموسيقية الفلوت، حيث حاولت أن تقلد النغمات الحزينة التي كانت تطلقها أخوات ميدوسا بعد أن قتلها الملك برسيوس[67].

هناك عدد قليل من المصادر القديمة التي تنسب الربة أثينة إلى والد ثالث بالإضافة إلى زيوس وبوسيدون. تروي هذه المصادر أن والد الربة هو باللاس. تروي أغلب الأساطير أن باللاس هو عملاق مجنّح حاول أن يغتصب الربة وأن يدمّر عذريتها. صرعته الربة. سلخته. استخدمت جلده صدريّة واقية aegis لها، وربطت جناحيه في قدميها فاكتسبت سرعة الحركة[68]. هناك أيضا من يرى أن الربة أثينة هي ابنة إيتونوس Itonus ملك إيتون في مقاطعة فثيوتيس Phthiotis، وأنها شقيقة ابنته يوداما Iodama التي قتلتها الربة أثينة من دون أن تقصد[69]. كما أن هناك من يذهب إلى أبعد من ذلك فيرى أنها ابنة الإله هيفايستوس.

***

هناك جدال أيضا حول مسقط رأس الربة أثينة. إن ذكر العلاقة بين الربة أثينة من جهة والحورية تريتونيس وإله النهر تريتون من جهة أخرى قد سبب فيما بعد ظهور روايات مختلفة متعددة حول مسقط رأسها. فحيثما وُجد نهر أو مجرى مائي أو بئر أو عين جارية يحمل الاسم نفسه - كما في كريت وثساليا وبيوتيا وأركاديا ومصر وغيرها - فقد ادّعى سكان هذه المناطق أن الربة أثينة قد وُلدت هناك، وبسبب الرواية التي تقول إنها وُلدت عند نهر تريتون فقد أُطلق عليها لقب تريتو Trito أو تريتونيس Tritonis أو تريتوجينيا Tritogenia[70]. لكن لابد من ملاحظة أن ذلك اللقب يمكن أن يفسَّر تفسيرات مختلفة[71]. البعض يرون أنه مشتق من كلمة كريتية أو أيولية أوبيوتية - تريتو Trito - وتعني «رأس». هكذا يمكن أن يعني ذلك اللقب «الربة التي وُلدت من رأس (زيوس)». يحاول البعض الآخر تفسير ذلك اللقب بأنه تخليد لذكرى مولدها، إذ إنها وُلدت في اليوم الثالث من الشهر[72]. إن ذكر العلاقة بين الربة أثينة وتريتون قد أوحى بفكرة لبعض الدارسين في العصر الحديث[73]. كان أقدم موقع لعبادة الربة أثينة في بلاد الإغريق متمركزا على ضفاف نهر تريتون في بيوتيا، ثم غاضت مياه ذلك النهر وتحوّل إلى بحيرة عُرفت فيما بعد ببحيرة كوبياس kopias. كان على ضفاف ذلك النهر بلدتان

هما أثينا وإليوسيس، قيل إن مياه البحيرة غمرتهما وأغرقتهما. منذ ذلك الحين نقلت بنات ميناياس Minyas عبادة الربة أثينة إلى داخل منطقة أتيكا وليبيا وأماكن أخرى. هناك رواية أخرى تقول[74] إنه كان هناك في منطقة بيوتيا قرية صغيرة - واقعة عند سفح جبل غير شديد الارتفاع - تسمى قرية ألالكوميناي Alalkomenai نسبة إلى مواطن يدعى ألالكومينيوس Alalkomeneos قيل إنه هو الذي قام بتربية الربة أثينة وتنشئتها. هناك في قرية ألالكوميناي يجري نهر صغير يدعى نهر تريتون، وبسبب الروايات التي تشير إلى أن الربة نشأت وترعرعت على ضفاف نهر تريتون، فإن تلك الإشارات توحي بأن المقصود هو ذلك النهر الصغير، وليس ذلك النهر الذي ينبع من بحيرة تريتوس ويصب في البحر الليبي.

على الرغم من تعدد الروايات واختلافها في التفاصيل فإن أغلبها ترجّح أن الربة أثينة هي ابنة زيوس وميتيس. فإذا كان زيوس هو القوي القادر على كل شيء وميتيس هي أحكم الآلهة والبشر، فإن الربة أثينة تجمع في شخصها كلا من القوة والحكمة. يبدو ذلك واضحا فيما تمدّنا به المصادر القديمة حيث تظهرفي صورة ربة ذات نفس طاهرة ولا تمثل أي قوة غاشمة من قوى الطبيعة. تظهر حكمتها وقوّتها في كونها حامية لمدينة أثينا وراعية لسياسة الدولة ونظمها الاجتماعية والأسرية. إنها مسؤولة عن كل عمل من شأنه إعلاء شأن مدينة أثينا ومنحها القوة والرخاء في مجال الزراعة والابتكار والصناعة وأيضا في مجال حماية الدولة مثل الدفاع عن الأسوار والموانئ البحرية[75]. من هنا اكتسبت الربة أثينة ألقابا كثيرة.

***

من أهم هذه الألقاب لقب Πολια/φ (Polias) وهو مشتق من لفظ πολι/φ (polis) (ومعناه المدينة)، أي أنها «الحامية للمدينة»، ولقد استخدم الإغريق ذلك اللقب في الأغلب الأعم أثناء عبادتهم للربة بوصفها حامية لقلعة الأكروبوليس بوجه خاص[76]. كما استخدم فيما بعد اللقب نفسه أيضا أهل مدينة أرجوس[77] الواقعة في الجزء الجنوبي من سهل أرجوس عند حافة قلعة لاريسّا Larissa، وأهل جزيرة أمورجوس Amorgos[78] إحدى جزر الكوكلاديس الواقعة في جنوب بحر إيجة، وأهل مدينة ترويْزن Troezen[79] الواقعة في الطرف الشرقي من شبه جزيرة أرجوليس، وأهل مدينة إروثراي Erythrae[80] الواقعة على الشاطئ المواجه لجزيرة خيوس Chios، وأيضا في سميرنا في آسيا الصغرى[81]، وإبيداوروس[82]، وفينيوس[83]، وحتى في طروادة[84]. من هنا نلاحظ أنه كلّما امتد نفوذ مدينة أثينا وازدهرت قوتها انتشرت عبادة الربة أثينة وأصبحت حامية لمدن أخرى بالإضافة إلى مدينة أثينا نفسها، ولقد لوحظ من واقع الأساطير الإغريقية أن «حماية المدن» كانت في أغلب الأحيان مسؤولية الربات الإناث أكثر منها مسؤولية الآلهة الذكور. فالربة موكيني - على سبيل المثال - كانت تحمي مدينة موكيناي، والربة ثيبي كانت تحمي مدينة ثيباي (طيبة)، والربة هيرا زوجة كبير الآلهة زيوس كانت حامية

مدينة أرجوس[85]، كما كانت أيضا تقف جنبا إلى جنب مع رفيقتها الربة أثينة في الدفاع عن مدينة طروادة[86].

تأكيدا لحماية الربة أثينة لمدينة أثينا فقد اكتسبت ألقابا أخرى كثيرة[87]. اكتسبت لقب أجيليا (Ageleia) эΑγελε/ια[88] ويعني حامية البشر أو قائدة الناس. اكتسبت لقب نيكي (Nike) Νι/κη أي النصر[89] وكان لها معبد باسمها ولقبها فوق قلعة ميجارا. اكتسبت لقب بوليوخوس (Poliouchos) Πολιουξο/φ ويعني حامية المدينة[90] والذي انتشر في كل من أثينا وإسبرطة. اكتسبت لقب بروماخورما (Promachorma) Προμαξο/ρμα ويعني حامية الخليج[91] وكان لها محراب فوق بوبورثموس بالقرب من هرميوني. اكتسبت لقب ألالكومينيس (Alalkomeneis) эΑλαλκομε/νηιφ المشتق من اسم البطل ألالكومينيوس أومن اسم قرية ألالكوميناي الواقعة في إقليم بيوتيا والتي قيل إنها مسقط رأس الربة. كما يقال أيضا إنه من المحتمل أن يكون مشتقا من الفعل (alalkein) эαλαλκει=ν وبالتالي فقد يعني المدافع القوي[92]. اكتسبت لقب آريا (Areia) эΑρει/α والذي يعني المحاربة حيث كان الأثينيون يعبدونها تحت هذا اللقب في أثينا[93]، وكان تمثالها يقف جنبا إلى جنب مع تمثال كل من إله الحرب آريس ومساعدته إنيو (Enuo) /эΕνυω والربة أفروديتي في معبد آريس في مدينة أثينا[94]. يقال إن أورستيس بن أجاممنون هو الذي فعل ذلك لأول مرة بعد أن برّأه مجلس الأريوباجوس من جريمة قتل والدته[95]. إذ إن الربة أثينة آريا هي التي منحته صوتها بعد أن تساوى عدد أصوات أعضاء مجلس الأريوباجوس فرجحت كفة المنادين بالبراءة[96]، ولقد دفعت هذه الحادثة البعض إلى الاعتقاد بأنه ليس من الضروري أن يكون لقب آريا مشتقا من اسم إله الحرب آريس بل من الفعل (aresko) эαρε/σκω الذي يعني «يسترضي أو يستعطف»[97].

هذا بالإضافة إلى ألقاب كثيرة أخرى مثل: زوستيريا (Zosteria) Ζωστη/ρια[98] ويعني المحاطة بالأسلحة، وإروما (Eruma) эΕρυ/μα ويعني المدافعة، سوتيرا (Soteira) Σωτει/ρα[99] ويعني المنقذة، لايتيس (Leitis) Λει/τιφ ويعني التي توزع أسلاب الحرب، سثياس (Sthenias) Σθε/νιαφ ويعني القوية، بولياتيس (Poliatis) Πολια/τιφ ويعني المحافظة على المدينة، سالبينكس (Salpinx) Σαλπι/γχ ويعني نفير الحرب. هذا بالإضافة أيضا إلى بعض الألقاب التي ترد بكثرة عند هيسيودوس مثل δει/νη المرعبة، эεγρεκυ/δοιμοφ التي تهوى القتال، эαγε/στρατοφ قائدة الجيوش، эατρυτω/νη التي لا تكل ولا تتعب[100] وغيرها من الألقاب التي تؤكد أن الربة أثينة كانت حامية وراعية لمدينة أثينا، بل امتدت حمايتها إلى حلفاء المدينة أيضا[101]. كما اشتركت الربة أثينا أيضا في بعض الألقاب مع آلهة أخرى - مثل زيوس وهيرا وأفروديتي وآرتميس وآخرين. من بين تلك الألقاب لقب أكرايا эΑκρα/ια المشتق من كلمة эακρο/φ وتعني القمة[102]. فالمقصود إذن بلقب أكرايا هو حامية الأكروبوليس.

على الرغم من أن تلك الألقاب وغيرها تشير إلى قوة الربة أثينة العسكرية فإنها تختلف في طبيعتها عن طبيعة إله الحرب آريس أو ربة النزاع إريس شقيقته ورفيقته في ميدان القتال[103] أو مساعدته إنيو التي ترافقه أحيانا أثناء المعارك[104]. فالربة أثينة لا تحمل سلاحا فتّاكا في أغلب الأحيان، وعندما تريد أن تستخدم سلاحا فتاكا فإنها تستعير أسلحتها من والدها كبير الآلهة زيوس[105]. إنها تحاول دائما أن تمنع الناس من إراقة الدماء في وقت تكون فيه الحكمة مطلوبة[106]. تتصدّى لشهوة إله الحرب آريس نحو القتال، بل تتحدّاه وتنتصر عليه[107]. لا تحب الحرب من أجل الحرب بل من أجل ما يعود على مدينتها من مكاسب من جرّاء الحرب. لذلك فإنها تعضّد فقط تلك العمليات العسكرية التي تبدأ باستخدام العقل وتنتهي بنتائج محببة إلى النفس[108]. يبدو واضحا هنا تأثير الربة ميتيس في شخصية ابنتها الربة أثينة.

لم تكن الربة أثينة تدافع عن مدينة أثينا أثناء الحروب فقط، بل كانت أيضا تعالج الأثينيين أثناء الحرب وفي أوقات السلم على السواء. يروي المؤرخ الإغريقي بلوتارخوس[109] (الذي عاش فيما بين العامين 46 و120 ميلاديا) هذه القصة. أثناء إقامة معبد البارثينون[110] فوق هضبة الأكروبوليس في مدينة أثينا حدثت حادثة غريبة أثبتت أن الربة (أثينة) لم تكن كارهة لإقامة المعبد. بل أكدت أنها كانت مستعدة استعدادا تاما لكي تساعد وتعاون من أجل إتمام المبنى. أثناء عملية البناء سقط أحد العمال من ارتفاع كبير على الأرض. كان ذلك العامل أسرع وأمهر من كل العاملين. حاول الأطباء علاجه، لكنهم فقدوا الأمل في شفائه. أصبح العامل المسكين في حالة سيئة. حزن الحاكم بريكليس من أجله حزنا شديدا. ذات ليلة زارته الربة أثينة في المنام. أمرته أن يتبع نظاما معينا في علاج العامل المسكين. اتّبع بريكليس النظام نفسه الذي أمرته الربة أثينة أن يتبعه. سرعان ما تعافى العامل وأصبح في كامل الصحة. تخليدا لهذه المناسبة أقام بريكليس تمثالا من البرونز في القلعة بالقرب من المحراب المقدس، أسماه تمثال أثينة هيجيا (Υγει/α(Hygeia) أي «الشافية»[111]. هكذا يشرح المؤرخ الإغريقي بلوتارخوس لماذا اكتسبت الربة أثينة لقب «الشافية». اكتسبت أثينة أيضا لقب بايونيا -Παιω/νια (Paion-ia ويعني «المداوية». كان لها تمثال يحمل هذا اللقب في أثينا، كما كان لها محراب مقدس في معبد أمفياراوس في أوروبوس Oropus[112]. كما اشترك معها والدها زيوس وشقيقاها التوأم ديوسكوري في لقب Αναβυ/λια (Anabulia) والذي قد يعني «التي تؤخر (أو تتصدى) الموت[113].

لم تكتف الربة أثينة بالدفاع عن مدينة أثينا ضد الغزو الخارجي فقط، بل كانت سببا في كل ما وصلت إليه المدينة من مظاهر التقدم والازدهار في الداخل أيضا. ساهمت مساهمة فعالة في مجال الزراعة. منحت الأثينيين أول شجرة زيتون. أصبحت المدينة تشتهر بوفرة

منتجات الزيتون. قدمت شجرة الزيتون إلى الأثينيين فوائد جمّة، ثمار الزيتون غذاء شهي. زيت الزيتون يساعد في طهو الطعام. أخشاب شجرة الزيتون تمدهم بالوقود اللازم لإشعال النار. ابتكرت الربة أثينة المحراث والمدَمَّة[114]. علمت الأثينيين كيف يربطون الثيران في المحراث. علمتهم كيف يهتمون بتربية الخيول ورعايتها. ابتكرت اللجام وعلمتهم كيف يلجّمون الخيول. لذلك اكتسبت الربة أثينة مزيدا من الألقاب. اكتسبت لقب هيبيا (Hippeia) (Ιππια) (المشتق من لفظ (Hippos) (ιπποφ) أي المهتمة بالخيول. انتشرت عبادة الربة تحت هذا اللقب في كل من مدينة أثينا وتيجيا وأولومبيا[115]. اشترك معها في هذا اللقب الربة هيرا[116]، والإله بوسيدون[117]، والإله آريس[118].

ليس في البر فقط ساهمت الربة أثينة في ازدهار مدينة أثينا بل في البحر أيضا. إن أحد ألقاب الربة هوأيْثويا (aithuia) αι)θυι/α الذي يعني «الغطّاسة»[119]. عبدها تحت هذا اللقب سكان منطقة ميجاريا Megaria، قد يرمز هذا اللفظ هنا مجازا إلى السفينة[120]. فإذا كان الأمر كذلك فإن اللقب يشير إلى أن الربة أثينة هي التي علمت الأثينيين فن بناء السفن أو أرشدتهم إلى أفضل أساليب الملاحة[121].

لم تتوقف اهتمامات الربة أثينة عند الدفاع عن مدينة أثينا والعمل من أجلها في الخارج برا وبحرا، بل أيضا امتدت اهتماماتها لتشمل كل مجالات الأنشطة الداخلية للمدينة مثل العلوم والصناعات والفنون. لم تكن ابتكاراتها في هذه المجالات ابتكارات من النوع الذي يتوصل إليه المرء عن طريق المصادفة، بل عن طريق التفكير والتأمل[122]. في مجال الرياضيات ابتكرت الأعداد[123]. في مجال الموسيقى ابتكرت الفلوت[124]. في مجال الانتقالات ابتكرت السفن والعربات. في مجال الصناعة والحرف المهنية قيل إنها علمت الأثينيين كيف يستخدمون الوسائل التي تساعدهم في ممارسة الحرف المهنية مثل كيفية إشعال النار. قيل أيضا إنها ابتكرت كل أنواع الأعمال الفنية النسوية تقريبا، بل إنها هي أيضا كانت بارعة في القيام بمثل هذه الأعمال[125]. لذا يمكن أن يقال إن الربة أثينة - يشاركها الإله هيفايستوس في بعض الأعمال[126] - كانت الراعية الأولى لكل المهن اليدوية النافعة والفنون الجميلة[127]. في العصور التالية لعصر ازدهار مدينة أثينا جعلها الكتّاب والأدباء ربة الحكمة والمعرفة والفنون، وصوّروها جالسة على يمين والدها كبير الآلهة زيوس تساعده بمشورتها وآرائها السديدة[128]. بسبب ابتكاراتها المتعددة ومساهماتها الفعالة ونصائحها المفيدة اكتسبت الربة أثينة عدة ألقاب في هذه المجالات. اكتسبت لقب إرجاني (Ergane) эΕργα/νη أو إرجاتيس (Ergatis) эΕργα/τιφ - المشتق من الفعل эεργα/ζω بمعنى يعمل - بمعنى العاملة أي التي تشرف وتوجه البشر في كيفية ممارسة كل أنواع الفنون[129]. اكتسبت لقب ميخانيتيس (Mechanitis) Μηξανι/τιφ ويعني صاحبة الخطط والحيَل[130]، ولقب أوفثاليميتيس /Οφθαλμι

эΟχυδε/ρκηφ (Oxoderkis) ويعني ذات العيون، ولقب أوكسودركيس τιφ (Ophthalmitis) ويعني ذات البصر الحاد، ولقب جلاوكوبيس(Glaukopis)[131] Γλαυκω/πιφ ويعني ذات العينين البرّاقتين، ولقب بولوبولوس Πολυ/βουλοφ (Poluboulos) ويعني ذات الرأي السديد[132]، ولقب برونويا Προνοι/α (Pronoia) ويعني بعيدة النظر حيث كانت تعبد تحت هذا اللقب في دلفي[133].

لم يقف مجال رعاية الربة أثينة لمدينة أثينا عند هذا الحد فقط، بل تعدّاه إلى النشاط والسلوك الاجتماعي وتشكيل الحياة الاجتماعية في المدينة. كانت أثينة حامية القبائل والعائلات التي تشكّل العنصر الأساسي في كيان الدولة. كانت حامية للسلطة القضائية، والقائمة على تنفيذ القوانين وتحقيق العدالة. كانت تعمل دائما على حفظ النظام العام للدولة والمجتمع داخل المحاكم ودور القضاء وداخل المجالس النيابية مثل مجلس الأريوباجوس والجمعية العمومية. نشأت هذه الفكرة منذ قديم الأزل، منذ عصر هوميروس حيث نرى أن الربة أثينة تقف في وجه الغاصبين لقصر أوديسيوس ومملكته وزوجته وتساعده من أجل استرداد ملكه والقضاء على الغاصبين[134]. تروي بعض الروايات أن الربة أثينة هي التي أنشأت القاعة القديمة للأريوباجوس، وفي حالة تساوي عدد أصوات المحكّمين فإنها كانت تمنح صوتها للمتهم فترجح كفّة الأصوات التي تنادي ببراءته[135]. هكذا اكتسبت الربة أثينة لقب أكسيوبوينوس эαχιο/ποινοφ (axiopoinos)[136] أي التي تعاقب العقاب المستحق، ولقب أجوراريا эαγορα/ρια (agoraria) أي سيدة الساحة العامة[137]، وإن كان يشاركها في هذا اللقب بعض الآلهة الذين كانوا يعتبرون حماة المجالس النيابية مثل كبير الآلهة زيوس[138] والربة آرتميس[139] والإله هرميس[140]. كما اكتسبت أيضا لقب كسينيا Χε/νια (Xenia) والذي يعني التي تحافظ على قوانين الضيافة وحماية الغرباء[141].

إن كل هذه الاهتمامات التي كانت تبديها الربة أثينة نحو مدينة أثينا تؤكد العلاقة الوثيقة بين الربة والمدينة[142]. بالإضافة إلى ذلك فإن بعض المصادر القديمة تعتبر الأثينيين أنفسهم أحفاد - أوفي حكم أحفاد - الربة. منذ اللحظة الأولى، حيث حضرت الربة إلى أرض أتيكا كان يحكمها الملك كيكروبس. طلبت منه أن يكون حاضرا أثناء المنافسة بينها وبين الإله بوسيدون بشأن مستقبل المدينة. كانت شهادة الملك كيكروبس السبب الأوحد في انتصار الربة أثينة وهزيمة الإله بوسيدون. كيكروبس هو ملك أسطوري يرى الأثينيون أنه أول ملك تولى حكم أثينا فور أن أصبحت الربة أثينة راعية للمدينة. هناك إذن فضل متبادل بين كل من الملك والربة. هو الذي نصر الربة على بوسيدون بفضل شهادته، وهي التي منحت مدينته شجرة الزيتون رمز الخير والرخاء والسلام. لم تذكر المصادر القديمة أن له والدين[143]. كانت تعتبره «أوتوخثونوس autochthonos» أي «ابن الأرض»[144]. نبت من الأرض الأتيكية وتربى عليها

وأصبح مسؤولا عنها، وعندما أصبحت الربة أثينة حامية للمدينة أصبح هو أول ملك يتولى حكمها. تروي الأساطير أنه كان ذا طبيعة مزدوجة (diphues) διυη/φ، إذ إنه كان في شكل نصف بشر ونصف أفعوان[145]. تشير إليه المصادر القديمة كملك متحضر سنَّ مجموعة من القوانين المتحضّرة[146]. هو أول من أمر بعدم الزواج بأكثر من واحدة. هو أول من سجَّل نصوص الشعائر الجنائزية[147]. هو أول مَنْ أسس مجموعة من العقائد الدينية التي ظلت سائدة فيما بعد في المجتمع الأثيني. أنجب كيكروبس ثلاث بنات أجلاوروس Aglauros وباندروسوس Pandrosos وهيرسي Herse وولدا واحدا يدعى إريسيخثون Erythichthon[148].

تربط المصادر القديمة والحديثة بين الربة أثينة وبنات كيكروبس والبطل الأسطوري إريخثونيوس Erichthonios[149]. ذلك البطل الذي ارتبط اسمه بالأكروبوليس وعباداتها المتعددة وبأعياد كل الأثينيين وهي أعياد الباناثينايا Panathenaia، وكلّها ترتبط ارتباطا وثيقا بالربة أثينة. تروي بعض المصادر القديمة أن إريخثونيوس هو ابن الربة أثينة، كما تروي أيضا أنه مؤسس مدينة أثينا. فإن كان الأمر كذلك فلا بأس من أن يكون الأثينيون أحفاد الربة أثينة وليس غريبا أن تقف الربة أثينة دائما في جانب مدينة أثينا وسكانها الأثينيين.

يروي أبوللودوروس[150] (الذي عاش في القرن الثاني الميلادي) أن البعض يقولون: إن الملك إريخثونيوس هو ابن هيفايستوس من أتثيس Atthis ابنة كراناوس Kranaus، بينما يقول البعض الآخر إنه ابن هيفايستوس من الربة أثينة. يقولون إن الربة أثينة ذهبت ذات يوم إلى الإله هيفايستوس. سألته أن يصنع لها بعض الأسلحة. أعجب الإله الأعرج هيفايستوس بالربة أثينة. اتجه نحوها وقد استولت عليه رغبة عارمة. أدركت الربة خطورة الموقف. هربت منه. اقترب منها بصعوبة بالغة[151]. حاول اغتصابها. دفعته بعيدا عنها بإشمئزاز، إذ إنها عذراء طاهرة[152]. وهربت بعيدا عنه. حملت الأرض، أنجبت وليدا أصبح فيما بعد يسمى إريخثونيوس[153]، وهو اسم مركب من كلمتين «إريون» ومعناها صوف و«خثونوس» ومعناها أرض، أي أن الاسم يعني الطفل الذي وُلد من «الصوف على الأرض». حملته الربة أثينة إلى بقية الآلهة من دون أن تكشف لهم عن هويّته، كانت ترغب أن يصبح خالدا مثل الآلهة، وضعته في صندوق. سلّمت الصندوق مغلقا إلى باندروسوس إحدى بنات كيكروبس. حذرتها من أن تفتح الصندوق قبل أن تعود إليها. استولى حب الاستطلاع على بنات كيكروبس. فتحن الصندوق، وجدن في داخله حيّة تلتفّ حول جسد الطفل. قضت الحية عليهن كما يقول البعض. بينما يقول البعض الآخر إن الصدمة أصابتهن بالجنون بسبب غضب الربة أثينة منهن فألقيْن بأنفسهن من فوق هضبة الأكروبوليس. تعهّدت الربة أثينة نفسها برعايته والعناية به داخل المعبد. عندما شبّ عن الطوق طرد إريخثونيوس الملك أمفيكتيون وأصبح هو ملك أثينا [154]. عندئذ وضع تمثال أثينة الخشبي في الأكروبوليس، وأسس أعياد الباناثينايا.

يؤكد الشاعر السكندري كاليماخوس[155] (الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد) أن باللاس (أثينة) وضعت «النتاج القديم» لهيفايستوس (إريخثونيوس) في الصندوق. ذهبت به إلى صخرة أتيكا (الأكروبوليس) حيث سلمته إلى بنات كيكروبس. إنه مولود محاط بالأسرار والغموض. يقولون إن جايا (ربة الأرض) أنجبته لهيفايستوس.

يصف الرحالة باوسانياس[156] أحد التماثيل التي شاهدها في أموكلاي بأنه يصور الربة أثينة وهي تهرب من هيفايستوس الذي يطاردها، وفي أثينا يلاحظ باوسانياس وجود معبد للإله هيفايستوس[157]. عندئذ يعبر عن عدم دهشته حين يرى بجواره تمثالا للربة أثينة - هكذا يؤكد باوسانياس - لأنه يعرف قصة مولد إريخثونيوس.

يروي فيلوستراتوس[158] قصة قيل إنها حدثت في عصر الإمبراطور دوميتيانوس حيث يقول أبوللونيوس لمحاوره: «إنك تتخيل أن أثينة لا يمكن أن تنجب ولدا لأنها عذراء إلى الأبد. لكنك نسيت أنها أنجبت ذات مرة أفعوانا (إريخثونيوس) للأثينيين».

في القرن الثاني الميلادي يروي الكاتب الروماني هيجينوس[159] هذه القصة: لأن نبتونوس (بوسيدون) كان عدوًا لمينيرفا (أثينة) فقد حرّض فولكانوس (هيفايستوس) ليذهب إلى أثينة ويطلب الزواج منها. دخل عليها حجرتها. قاومته. دافعت بقوة عن عذريتها. بينما هما يتصارعان وقعت على الأرض بعض قطرات من السائل المنوي. من تلك القطرات وُلد مولود صبيّ، النصف الأسفل من جسده على شكل أفعوان. أطلقوا عليه اسم إريخثونيوس، لأن eris في اليونانية تعني «صراع» وchthon تعني «أرض». أعطته أثينة في صندوق مغلق إلى بنات كيكروبس: أجلاوروس وباندروسوس وهيرسي ليتعهّدنه بالرعاية. عندما فتحت البنات الصندوق كشف غراب السر الدفين. عندئذ أصابت الربة البنات بالجنون فألقيْن بأنفسهن في البحر.

في عمل آخر منسوب أيضا للكاتب الروماني هيجينوس[160] ينقل الكاتب هذه القصة عن الشاعر التراجيدي يوريبيديس. يروي يوريبيديس عن مولد الملك إريخثونيوس هذه القصة. اشتعلت نار الحب في قلب هيفايستوس نحو أثينة. طلبها للزواج. رفضت. اختفت في مكان يدعى هيفايستيون Hephaestion (يبدو أنه معبد للإله هيفايستوس في أثينا). قيل إن هيفايستوس أدركها هناك. حاول اغتصابها. عندما اشتدت رغبته كان على وشك أن يحتضنها. دفعته أثينة بكل ما أوتيت من قوة. سقطت قطرات من سائله المنوي على الأرض. شعرت أثينة بالخجل. أهالت التراب بقدمها فوق القطرات. من تلك القطرات وُلد الأفعوان إريخثونيوس الذي اشتق اسمه من لفظي «الأرض والصراع».

في القرن الأول قبل الميلاد يروي الشاعر الروماني أوفيديوس[161] قصة تحمل المعاني نفسها بوجه عام. ذات مرة وُلد الطفل إريخثونيوس من دون أم. أخفت باللاس (أثينة) الطفل

سالما في صندوق مصنوع من شرائح البوص المجدولة. سلمته إلى بنات كيكروبس غير المتزوجات مع تعليمات صارمة بألا تتجسّسن على ما في داخله. في مكان آخر من الديوان نفسه يؤكد أوفيديوس[162] المعلومات نفسها وخاصة أن الطفل إريخثونيوس قد وُلد من دون أم. أما الخطيب الروماني المفوّه شيشيرون[163] (الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد) فيرى أن هيفايستوس قد اشتهر بأنه والد إريخثونيوس الذي أنجبه من أثينة.

هناك نقطة مهمة نلاحظها في قصة الثالوث هيفايستوس - أثينة - إريخثونيوس. هذه النقطة هي دفاع الربة أثينة المستميت عن عذريتها. ليس هذا فقط بل إنها تعاقب مَنْ يفشي سر محاولة اغتصابها أو تبنّيها للمولود إريخثونيوس. في رواية أبولودوروس تعاقب الربة أثينة بنات كيكروبس. تصيبهن بالجنون وتدفعهن إلى الانتحار بأن تلقين بأنفسهن من فوق الأكروبوليس إلى قاع البحر[164]. في قصيدة كاليماخوس يؤكد الشاعر أن عقاب بنات كيكروبس جاء نتيجة معرفتهن للسر الدفين الذي أرادت الربة أثينة أن تخفيه حتى عن الطيور (طائر الغراب)[165]. في قصيدة أخرى للشاعر نفسه يخاطب الغراب الربة أثينة. إنه يشكو من أن كل فصيلة الغربان أصبحت مكروهة لدى الآلهة. يتمنى لو أنه كان قد فقد صوته قبل أن يفشي سر إريخثونيوس. يشكو من أن الربة أثينة تكره أصواتها ولا تطيق حتى أن تنطق باسمها، ثم ينصح الآخرين ألا يفقدوا رضاها أبدا، فإن غضب الربة أثينة لشديد. في رواية باوسانياس[166] يؤكد الكاتب أن أجلاوروس وشقيقتيها أعلنّ أن أثينة أنجبت إريخثونيوس. إن باندروسوس فقط هي التي أطاعت أوامر الربة بعدم فتح الصندوق. لذلك فقد أصيبت الشقيقتان أجلاوروس وهيرسي بالجنون وألقيا بنفسيهما من فوق قمة الأكروبوليس، ويؤكد القصّاص هيجينوس[167] ما فعلته بنات كيكروبس وما فعله طائر الغراب كما يؤكد سُويداس[168] أيضا القصة نفسها. يروي الشاعر الروماني أوفيديوس[169] القصة نفسها أيضا بشيء من التفصيل. يتحدث الغراب إلى محاوره. يطلب منه أن يلاحظ كيف كان من قبل وكيف أصبح الآن، ويتساءل إن كان يستحق ما جرى له أم لا. ذات مرة وُلد مولود بلا أم. أخفت باللاس أثينة الطفل في صندوق. سلمت الصندوق إلى بنات كيكروبس الثلاث غير المتزوجات. حذرتهنّ من فتح الصندوق. كان الغراب يختبئ بين أغصان شجرة الدردار غزيرة الأوراق. ظل يراقبهن ويلاحظ ما قد يفعلن بشأن الصندوق. كانت باندروسوس وشقيقتها هيرسي عند ثقة الربة. لكن أجلاوروس اتّهمتهما بالجبن، وفكّت الأربطة. عندئذ رأيْن حيّة تتمدد بجوار الطفل. أسرع الغراب وأخبر الربة أثينة بما رأى. «وكان جزائي» - هكذا يقول الغراب - «أن تأمرني بأن أغيب عن ناظريْها بدلا من أن تشكرني، وجعلتني في درجة أدنى من طائر الليل (طائر البوم)». إن ما لقيه طائر الغراب من عذاب لهو كفيل - هكذا يروي الغراب إلى محاوره - بأن يجعل الطيور تمسك ألسنتها ولا تغامر بالحديث[170]. سوف يظن محاوره

أنه بلا شك كان يزعجها بمصاحبته لها، لا، بل هي التي كانت قد اختارته لمصاحبتها، وللمحاور أن يسأل الربة أثينة نفسها. قد تكون غاضبة إلى حد ما، لكنها لن تكون كذلك لدرجة أنها لا تقول الحق. لقد سمحت له أثينة أن يكون رفيقا لها وهو بلا أخطاء. لكن هل من العدل أن يحلّ محلّه طائر الليل الذي تعرّض فيما مضى للمسخ بسبب خطيئة شنيعة ارتكبها!؟[171]، ثم يواصل أوفيديوس[172] حديثه عن انتقام الربة أثينة بمزيد من التفصيل. أحب الإله هرميس هيرسي إحدى بنات كيكروبس. ذهب لمقابلتها. نظرت إليه شقيقتها أجلاوروس بالعينين أنفسهما اللتين تجسست بهما منذ فترة طويلة من الزمن لمعرفة سر الربة أثينة. طلبت أجلاوروس كمية من الذهب من هرميس مقابل تسهيل مهمة مقابلته لمحبوبته هيرسي. نظرت الربة أثينة بعينيها الغاضبتين إلى الفتاة أجلاوروس. تنهّدت تنهيدة عميقة. ارتعش صدرها وصدريَّتها الواقية. تذكرت أن أجلاوروس هي التي كشفت بيديها النجستين عن ذلك السر بعد أن حنثت باليمين الذي أخذته على نفسها. رأت الطفل (إريخثونيوس) الذي أنجبه هيفايستوس والذي لم تنجبه أمّ، والآن سوف تحصل على مكافأة طيبة من الإله هرميس، ومن شقيقتها هيرسي أيضا، وسوف تصبح ثريّة عن طريق ما خططته من أجل الحصول على كميات ضخمة من الذهب. عندئذ تذكرت الربة أثينة إلهة الغيرة. ذهبت إليها في مقرها وطلبت إليها أن تصيب الفتاة باللعنة. خاطبتها الربة أثينة الممتلئة بالغضب قائلة: صُبّي دمارك على إحدى بنات كيكروبس - هذا ما أحتاج إليه منك - إنها أجلاوروس. على الفور ذهبت إلهة الغيرة إلى حجرة ابنة كيكروبس. نفّذت ما أُمرت به، وضعت يدها على صدر الفتاة، ملأت قلبها بالحقد والغيرة. عندئذ خرجت أجلاوروس من حجرتها. جلست أمام حجرة شقيقتها هيرسي. حاولت أن تمنع الإله هرميس من الدخول. غضب منها الإله هرميس. مسخها حجرا أصم.

هكذا كانت الربة أثينة تستميت في الدفاع عن شرفها. ترغب في أن تظل عذراء إلى أبد الآبدين. بل أيضا تدافع عن سمعتها بشراسة وعنف. ترفض أن ينفذ أحد إلى عالمها العذري ويكشف سرا أرادت أن تخفيه. فإذا حاول أحد أن يعتدي على عذريتها قاومته بشراسة وهزمته كما فعلت مع الإله هيفايستوس، وإذا حاول أحد أن يكتشف سر اهتمامها بالمولود إريخثونيوس وتبنّيها له والعناية به وتربيته دمّرته وقضت عليه كما فعلت مع بنات كيكروبس، وإذا حاول أحد أن يفشي سرها - حتى إن كان طائرا مقرّبا إليها - عاقبته وحرّمت عليه مصاحبتها كما فعلت مع طائر الغراب.

لم تكن الربة أثينة تغار وتثور من أجل عذريتها فقط، بل أيضا من أجل عذرية كل فتاة. كانت تعاقب كل فتاة لا تحافظ على عذريتها. ميدوسا Medusa فتاة جميلة. رائعة الجمال، طالما تغنّى الشعراء الغنائيون بوجنتيْها الجميلتين[173]. يرى الشاعر الروماني أوفيديوس[174] أن جمالها فاق كل حدود الجمال، جعلها مطمعا لكثير من الغاصبين. أجمل ما فيها خصلات

شعرها. كانت تعمل كاهنة في معبد الربة أثينة. أعجب بها إله البحر بوسيدون. لم تقاومه. استسلمت لرغباته. عاشرها داخل معبد الربة أثينة. أشاحت الربة بوجهها بعيدا عن ميدوسا. أخفت عينيها العذريّتين خلف درعها. عاقبتها عقابا يليق بما اقترفت من جرم. مسخت خصلات شعرها الجميلة فتحولت إلى حيّات ساعية. لم تكتف الربة أثينة بذلك بل حولت وجه ميدوسا الجميل إلى وجه مخيف يثير الفزع في قلب من ينظر إليه. بل يتحول الناظر بمجرد النظر إليه إلى كتلة من الحجر الأصم. بالإضافة إلى ذلك فقد ساعدت الربة أثينة البطل برسيوس من أجل القضاء نهائيا على ميدوسا. كان على برسيوس أن يفعل ذلك تلبية لأوامر من الملك بولوديكتيس Polydectes ملك سيريفوس Seriphos. منحت الربة أثينة البطل برسيوس الحذاء ذا الأجنحة الخاص بالإله هرميس، وطاقية الإخفاء الخاصة بالإله هاديس، وسيفا بتّارا ودرعا سطحه لامع كالمرآة يرى فيه ميدوسا بدلا من أن ينظر إليها مباشرة[175]. أنجز البطل برسيوس مهمته[176]. قطع رأس ميدوسا من دون أن تنظر عيناه إلى وجهها. عاد بها سالما إلى الملك بولوديكتيس[177]. تروي المصادر أن برسيوس أهدى بعد ذلك رأس ميدوسا إلى الربة أثينة، التي وضعتها بدورها على صدريَّتها aegis الشهيرة[178]. لقد فسر بعض المحدثين أسطورة ميدوسا تفسيرا نفسيا يدور حول عذرية الفتاة والاغتصاب وما يتصل بهما من تحولات نفسية وجنسية. رأوا فيها مثالا واضحا لاستخدام العنف ضد المرأة[179]. قد تجد قلة من المصادر سببا آخر لعقاب ميدوسا: كانت رائعة الجمال وكانت ترغب في مقارنة جمالها بجمال الربة أثينة[180].

يروي أبولودوروس[181] قصة فتاة أخرى عاقبتها الربة أثينة. أوجي Auge أميرة من أركاديا الواقعة في جنوب بلاد اليونان. كاهنة في معبد الربة أثينة في تيجيا Tegea. كان البطل هيراكليس في طريقه نحو أركاديا. هناك قابل الفتاة أوجي ابنة أليوس ملك أركاديا. أعجب بها. راودها عن نفسها. لم تقاوم. استسلمت لرغبته. أحست بثمرة اللقاء تتحرك في أحشائها. خشيت أن يكتشف أمرها. ذهبت سرا إلى معبد الربة أثينة. هناك وضعت مولودها. تركته داخل قدس الأقداس حتى لا يكتشف أحد وجوده. غضبت الربة أثينة. أرادت أن تعطي درسا للفتاة ووالدها. أصابت مملكة أركاديا بالدمار. أراد الملك أليوس أن يخفف من غضب الربة. ذهب إلى قدس الأقداس. انتزع المولود. ألقى به في العراء فوق جبل بارثنون. سلّم ابنته أوجي إلى الملك ناوبليوس بن بوسيدون. طلب إليه أن يبيعها في سوق الرقيق بعيدا عن البلاد. هناك أيضا قصة الفتاة إيسميني Ismene التي عاشرت عشيقها داخل معبد الربة أثينة فدفعت الربة البطل تيديوس Tydeus إلى قتلها جزاء تلك الجريمة.

لم تكن الربة أثينة تعاقب العذراء فقط التي لا تدافع عن عذريتها بل كانت تعاقب الرجل أيضا الذي يغتصب عذراء. أثناء الحرب الطروادية رأى البطل الإغريقي أياس كاساندرا ابنة

بريamos ملك طروادة وهي متعلقة بتمثال الربة أثينة الخشبي. تقدم نحوها - هكذا يروي أبوللودوروس[182]، اغتصبها. غضبت الربة أثينة من أجل جريمة أياس الشنعاء. دمّرت سفينته أثناء عودته إلى وطنه بعد انتهاء الحرب. أصابت وطنه لوكريس Lokris الذي يقع في وسط بلاد اليونان بوباء. استطلع أهل لوكريس النبوءة. نصحتهم أن يطلبوا الصفح من الربة أثينة، وأن يرسلوا إلى معبدها في طروادة فتاتين لاجئتين في كل عام ولمدة ألفي عام. ذهبت فتاتان في العام الأول، استقبلهما أهل طروادة استقبالا سيّئا. حاولوا الفتك بهما. اتخذت الفتاتان ملاذا عند المحراب المقدس. لم تقدرا على مغادرة المعبد. عاشتا كذلك شعثانتي الشعر مهلهلتيّ الثياب عاريتيّ الأقدام. عندما ماتت الفتاتان أرسل أهل لوكريس فتاتين أخريين. دخلتا المدينة تحت جنح الليل كي لا ينفَّذ فيهما حكم الإعدام إذا ما رآهما أهل طروادة خارج المعبد. بعد ذلك ظل أهل لوكريس يرسلون أطفالا مع مربياتهم. دامت تلك الحال لمدة ألف عام، بعدها توقف أهل لوكريس عن إرسال لاجئات.

يؤكد الناشر المجهول لإلياذة هوميروس[183] في تعليقه أن الربة أثينة أرغمت أهل لوكريس أن يرسلوا إلى طروادة فتيات يتم اختيارهن بالقرعة لمدة ألف عام متواصلة، ويواصل تعليقه قائلا إن هذه القصة وردت في قصيدة الأسباب Aitia للشاعر السكندري كاليماخوس. يضيف الشاعر السكندري كاليماخوس[184] في إحدى قصائده المفقودة قائلا: إن وباء انتشر في لوكريس بسبب اغتصاب أياس لكاساندرا. أمرت نبوءة الإله أبوللون أهل لوكريس بإرسال فتيات كل عام ولمدة ألف عام إلى طروادة. عندما كانت تصل الفتيات كن تلاقين حتفهن حيث كان الطرواديون يرجمونهن بالحجارة. أما الفتاة التي كانت تستطيع أن تهرب من الموت فإنها كانت تتسلل سرا إلى داخل معبد الربة أثينة وتصبح كاهنة المعبد إلى الأبد. يعلق العالم الجغرافي سترابو أيضا على هذه القصة. يروي أن الطرواديين (في عهده) يقولون: إن مدينتهم لم تُكتَسح تماما عندما اقتحمها الآخيون. لم تصبح مدينة مهجورة تماما. على أي حال، فإن فتيات لوكريس كنَّ يُرْسَلْن في كل عام. لم يذكر هوميروس هذه القصة، لأنه لم يكن يعرف شيئا عن اغتصاب كاساندرا. لذلك فإنه لم يذكر شيئا عن عملية الاغتصاب. كما أنه لم يذكر أن تدمير سفينة أياس قد حدث بسبب غضب الربة أثينة أو لأي سبب آخر[185].

***

لم يكن الاغتصاب فقط منبوذا لدى الربة أثينة، بل حتى مجرد النظر إلى فتاة عذراء كان أيضا منبوذا لديها. كان غير مسموح للرجال أن يشاهدوا الربة أثينة في وضع لا ترضاه. ذات مرة كانت تستحم في مياه عين جارية. تصادف أن مرّ هناك رجل - تريسياس -. نظر نحوها، وقع نظره عليها من دون أن يقصد ذلك. غضبت الربة. أصابته على الفور بالعمى. أصبح غير قادر على رؤيتها أو على رؤية أي فتاة غيرها[186]. أعرب تريسياس عن أسفه الشديد على

ما فعل من دون قصد. ندم على ما فعل. رقّ قلب الربة نحوه. لكنه لن يرى شيئا بعينيه أبدا. منحته القدرة على معرفة المستقبل. حرمته من البصر ومنحته البصيرة. أما قصة الملك إلوس Ilos فهي أغرب من كل ما فات من روايات[187]. أثناء الحرب الطروادية اشتعلت النيران في معبد الربة أثينة. اندفع الملك إلوس نحو الداخل. انطلق نحو تمثال الربة أثينة الذي كان قد هبط من السماء (بالبلاديون Palladion). أصابته الربة أثينة على الفور بالعمى. فقد بصره لأنه نظر إلى تمثال الربة أثينة. فلم يكن مسموحا لرجل أن يرى تمثال الربة أثينة من دون استئذان أو في أوقات غير مناسبة. ندم إلوس على ما فعل. توسل إلى الربة أثينة. سامحته. عاد إليه بصره.

مثلما كانت الربة أثينة تعاقب كل فتاة تستسلم لاغتصاب الرجل ولا تدافع عن عذريتها فقد كانت أيضا تدافع عن كل فتاة لا تستسلم بل تستميت في الدفاع عن عذريتها. كورونيس Koroneis - ابنة الملك كورونيوس Koroneus ملك فوكيس الواقعة وسط بلاد اليونان - فتاة رائعة الجمال، تعتز بعذريتها وتحافظ على شرفها. تروي العذراء كورونيس قصتها كما جاءت عند الشاعر الروماني أوفيديوس[188]: والدي - كما يعرف العالم جيدا - هو كورونيوس ملك فوكيس الشهير، وأنا كنت أميرة (فوكيس). لعلك تضحك حين أقول لك إنني تعرضت لإغراءات كثير من الرجال الأثرياء. كان جمالي نقمة عليّ. ذات يوم كنت على شاطئ البحر. أسير الهوينى بخطوات بطيئة. لمحني بوسيدون إله البحر، وقع على الفور في غرامي من دون علمي. طفق يطاردني. أسرعت الخطى. أصبح على وشك اللحاق بي. أراد أن يغتصبني. ضاعت محاولاته هباء. قاومت. أحسست بالإرهاق الشديد من شدة المقاومة. صرخت أطلب النجدة من الآلهة والبشر. لم يستمع أحد من البشر إلى صرخة استغاثتي. لم تثرْ صرخةُ عذراءٍ مكلومةٍ سوى قلب الربة العذراء أثينة. أسرعتْ على الفور لنجدتي. رفعتُ ذراعيّ نحو السماء. نبتت على الفور فوق ذراعيّ مجموعة من الرياش. حاولت أن أخلع عباءتي عن كتفيّ، وجدتها أيضا ممتلئة بالرياش الثابتة وجذورها عميقة في جلدي. حاولت أن أضرب صدري العاري بيديّ، لكنني وجدت نفسي من دون يديْن ومن دون صدر عارٍ. عندئذ بدأت أجري مسرعة. أحسست بأن قدميّ لا تلمسان رمال الشاطئ. شعرت بأنني أنزلق بسرعة فوق سطح الأرض، وبسرعة مذهلة ارتفعتُ عاليا في الهواء. أصبحت منذ ذلك الوقت منذورة للربة أثينة. أرافقها في كل مكان من دون أن يمسّني سوء. هكذا تحولت العذراء كورونيس إلى طائر الغراب ذي اللون الأبيض، إذ كان الإغريق يعتقدون أن طائر الغراب هو الطائر المفضل لدى إلهتهم العذراء أثينة وفي مصاحبتها على الدوام. حدث ذلك جزاء ما دافعت كورونيس عن عذريتها ولم تستسلم لاغتصاب الرجال حتى لو كانوا أثرى الأثرياء، أو حتى لو كان أحدهم إله البحر بوسيدون[189].

قصة أخرى ترويها مصادر متعددة وهي قصة بنات دناؤوس. كان لدناؤوس خمسون بنتا، ولشقيقه الملك المصري أيْجوبتوس خمسون ولدا. أراد أيجوبتوس أن يزوّج بنات أخيه لأولاده، وذلك لكي يضمن ثروته وثروة أخيه من الضياع. لم ترض بنات دناؤوس بذلك النوع من الاغتصاب الكامن خلف عنوان آخر (الزواج). علمت الربة أثينة بذلك. ساعدت دناؤوس في بناء سفينة، هرب على متنها مع بناته الخمسين إلى أرجوس، وعندما غُلبت بنات دناؤوس على أمرهن وأصبحن زوجات لأبناء عمّهن بالإكراه قتلن أزواجهن. حينئذ أسرعت الربة أثينة نحوهن، طهّرتهن وبرّأتهن من جريمة القتل دفاعا عن عذريتهن[190].

قصة ثالثة وليست أخيرة هي قصة الأميرة نوكتيميني Noktimene، تلك الأميرة الجميلة ابنة إيبوبيوس Epopeus ملك جزيرة لسبوس الواقعة في البحر الإيجي. بسبب جمالها منقطع النظير أصيب والدها نحوها بسهام رغبة آثمة محرّمة. لم تكن الابنة تتوقع من والدها أن يفكر - حتى مجرد التفكير - في اغتصابها. لكنه اغتصبها. أحسّت الابنة بخجل شديد. منعت نفسها من رؤية الآخرين. أخفت نفسها في الغابات. علمت الربة العذراء أثينة بأمرها. أشفقت عليها. حوّلتها إلى بومة. كما هو معروف فإن طائر البوم يختفي بالنهار ويظهر مع حلول الليل. تلك هي الرواية التي ترد عند القصاص هيجينوس[191]. يكمل الشاعر أوفيديوس القصة على لسان طائر الغراب[192]. إن نوكتيميني - التي تحولت إلى طائر البومة بسبب خطيئة ارتكبتها - تحل محل طائر الغراب في مصاحبة الربة أثينة. إن لها قصة معروفة في كل أنحاء جزيرة لسبوس: كيف اقتحمت نوكتيميني - على حد قول الغراب - حضن والدها. لقد تحولت إلى طائر تخشى ضوء النهار وترى بعينيها الآثمتين في الظلام خطيئتها غير المرئية. إنها مطرودة من ضوء السماء المبهر.

***

نتيجة لسلوكيات الربة أثينة من أجل احتفاظ العذراء بعذريتها والاستماتة في الدفاع عنها فقد اكتسبت لقبا من أهم وأشهر الألقاب التي أطلقها عليها الإغريق: لقب بارثينوس Παρθε/νοφ (Parthenos) أي العذراء[193]. نقش الأثينيون رأس الربة العذراء على عملة أتيكية[194]. شاركتها في هذا اللقب الربة آرتميس العذراء[195]. لا عجب في ذلك فقد اعترفت ربة الفتنة والإغراء أفروديتي أنها استطاعت أن توقع كل الربات في شباكها ماعدا الربة العذراء أثينة والربة العذراء آرتميس والربة العذراء هيستيا[196]. فقد اختارت كل من أثينة وآرتميس وهيستيا لأنفسهن أن يبقين عذراوات إلى الأبد[197].

أطلق الإغريق لقب بارثينوس أيضا على الفتاة العذراء إيفيجينيا ابنة أجاممنون عندما اختارتها الربة آرتميس كاهنة لها في معبدها الواقع في أرض التاوريين[198]. كما استخدموه أيضا في الإشارة إلى أي ربة عذراء من دون ذكر اسمها[199]. بالإضافة إلى ذلك فإن اللقب

نفسه قد استخدم أيضا ليصف أي فتاة عذراء كما يظهر- على سبيل المثال - عند كل من هوميروس[200]، وهيسيودوس[201]، وسوفوكليس[202]، وأريستوفانيس[203]، وثوكوديديس[204]. في العصر الروماني كان يستخدم اللقب نفسه للإشارة إلى جماعة دينية من الفتيات العذراوات اللائي كنّ في خدمة الإله[205]. إن أكبر وأفخم وأشهر معبد للربة أثينة هو المعبد القائم فوق هضبة الأكروبوليس ويحمل اسم معبد بارثينيون Patheneon أي معبد الربة العذراء.

هناك مصادر قليلة - يرجع تاريخها إلى عصور متأخرة - تشكك في عذرية الربة أثينة، وتصفها بلقب الأم Μη/τηρ (Meter). تروي تلك المصادر القليلة أن الإله أبوللون هو ابن هيفايستوس من أثينة[206]. ربما انتشرت هذه الأسطورة الغريبة عندما استقدم الأيونيون عبادة الإله ابوللون إلى منطقة أتيكا. ترى مصادر أخرى أن ليخنوس Lychnos هو ابن هيفايستوس من أثينة[207]. بل هناك أيضا مصادر تصفها بأنها ذكر وأنثى (ar- эα/ρσην και/θη=λυφ [208] sen kai thelus). بل إن هناك مَنْ يرى أن الأضاحي التي تقدم إليها أثناء العبادة لا بد أن تكون إناث الحيوانات ماعدا إناث الأغنام (النعاج)[209]. إن كلّ هذه الروايات القليلة غير الموثوق بها لا تقلل من حقيقة اعتقاد الإغريق الراسخة في عذرية الربة أثينة، فهي دائما وأبدا - في نظرهم - «الربة الرياضية العذراء التي لم تتزوج»[210].

لقب آخر من ألقاب الربة أثينة المتعددة هو باللاس Pallas. يظهر هذا اللقب دائما بجوار اسم الربة - باللاس أثينة - عند أغلب الكتّاب المبكرين[211]. لكن عند أغلب الكتّاب المتأخرين قد يظهر اللقب بمفرده بدلا من اسم الربة[212]. يرى أفلاطون أن ذلك اللقب مشتق من الفعل παλλει=ν (pallein) بمعنى يلوّح إذ إن الربة تلوّح بحربتها أو بدرعها[213]. أما أبوللودوروس[214] فيرى أنه مأخوذ من اسم العملاق باللاس الذي صرعته الربة أثينة. لكن من المرجح أن لفظ باللاس هو صورة أخرى من لفظ باللاكس Pallax ويعني عذراء[215].

رسم الكتّاب الإغريق في خيالهم صورة للربة أثينة حامية مدينتهم الخالدة. عيناها لونهما أخضر[216]. تزلزل الأرض عندما تمشي. ينبعث من بزّتها العسكرية ضوء يخطف الأبصار. على صدريتها التي لا تُقهر حيّات تنفث ألسنة من اللهب. تناطح ذؤابة خوذتها الضخمة السحب في السماء[217]. صدريتها شديدة اللمعان، شديدة الصلابة، بالغة الضخامة، تبعث الدهشة في صدور الآلهة. منقوش عليها وجه ميدوسا المفزع، حيث يخرج منه حيّات تنفث ألسنة من اللهب. عندما تستعير أسلحة والدها فإنها تنشر الظلام في وسط النهار[218]. دائما مكتملة الثياب[219]. عدّتها درع وحربة ذات سنّ حاد وخوذة على رأسها وصدرية تحمي صدرها[220]. رأسها مغطى بخوذة لامعة. متوّجة بإكليل من أغصان الزيتون. تحمل درعا وتلوّح بحربتها، تقوم بدور الربة المحاربة. يلازمها غلامان رفيقان أثناء القتال وهما الرعب Deinos والخوف Phobos. يتبعها عازف الفلوت الذي يعزف أنغاما عسكرية في المقام الدوري[221]. على

درعها رسم الأثينيون المعركة التي دارت بينهم وبين القبائل الأمازونية[222]. في منتصف خوذتها يبرز تمثال يشبه الهولة التي قابلت أوديب عند مدخل مدينة طيبة. تلبس عباءة تصل إلى قدميها، على صدرها رأس ميدوسا مشغولة من العاج. تمسك في إحدى يديها تمثال النصر وفي اليد الأخرى حربة. عند قدمها يرقد درع وبالقرب من الحربة أفعوان. قد يمثل هذا الأفعوان الملك إريخثونيوس[223].

***

هكذا ارتبط تاريخ مدينة أثينا بأساطير الربة أثينة. هكذا خرج التاريخ من عباءة الأسطورة، وخرجت الأسطورة من عباءة التاريخ - وإن كان من الصعب معرفة أيهما أسبق: الأسطورة أم التاريخ. أيهما أقدم: المدينة أم الربة. إن كل ما لدينا حتى الآن خليط من الحقائق التاريخية والأساطير المَرْوِيّة. من ذلك الخليط المتجانس أحيانا، المتنافر أحيانا، المتآلف أحيانا، المتناقض أحيانا، استطاع الدارسون على مدى الأجيال المتعاقبة أن يصوغوا شيئا عن جغرافية مدينة أثينا وتاريخها، عن الحياة الاجتماعية والسياسية للأثينيين، عن العادات والتقاليد التي سادت بينهم. لقد استطاعوا أن يرسموا صورة تكاد تكون كاملة عن العلاقة بين مدينة أثينا والربة أثينة.

الهوامش

1 Schneider (L.), Die Akropolis von Athen, pp.62-63.

2 Hurwit(J.),The Athenian Acropolis: History, Mythology, and Archaeology from the Neolithic Era to the Present, pp.35 sqq.

3 Bury (J.B.), A History of Greece, pp.390 sqq.

4 Wilson (Nigel G.), Encyclopedia of Ancient Greece, pp.214-215.

5 Morgan (Lewis), Ancient Society , pp.228-229.

6 Calame (Claude), Myth and History in Ancient Greece, the symbolic creation of a colony , pp.73 sqq.

7 Plato, Menexenus, 237c.

8 Apollodorus,iii,14; Ovid, Metamorphoses,vi,70 sqq.

9 Travlos (John), Pictorial Dictionary of Ancient Athens , pp.68 sqq.

10 لقد فضّلنا كتابة اسم الربة في اللغة العربية بالتاء المربوطة (أثينة) واسم المدينة بالألف (أثينا)، وذلك لسهولة التمييز بين اسم كل من الربة والمدينة. انظر كتابنا أساطير إغريقية، ج 3، ص 249.

11 يرى بعض الدارسين أن هذه الأسطورة من الأساطير «السياسية». انظر:
Graves (R.), Greek Myths, vol.i, p.62.

12 Callimachus, Hecale Fragment,I,2.

13 Pausanias,i,24,2.

14 Idem,i,24,5;i,27,1.

15 Hyginus, Fabulae,164.

16 Bell (Robert), Place-names in Classical Mythology, pp. 102 sqq.

17 Liddle & Scott , A Greek-English Lexicon , s.vv. ϶Αθη/νη and ϶Αθη=ναι.

18 e.g. Homer, Iliad, i,194.

19 Die Inscriften von Smyrna (edited by Petzel G.),739; Supp.Epigr.in LSJ (edited by Pleket H.W.),37,936.

20 Supp. Epig.in: LSJ (edited by Pleket H.W.),32,1086 ; Aeschylus, Eumenides, 288; Aristophanes, Equites, 763; Pax, 271.

21 Supp. Epigr.in: LSJ (edited by Pleket), 419,437.

22 Inscriptiones Graecae,i,499; Theocritus,15,80.

23 Alcaeus, 9 ; Theocritus,20,1.

24 Homer, passim and others .

25 Idem,Odyssey,vii,80.

26 Herodotus,ix,17; Thucydides,iv,5; Homer,Op.Cit, iii, 278.

27 Ruck (Carl), The world of Classical Myth: Gods and Goddesses , Heroines and Heroes , p.24.

28 Vian (F.), Les Origines de Thebes, p.158 sqq.

29 Rose (H.J.), Handbook of Greek Mythology, p.187.

30 e.g.Homer,Iliad,ii,569;iv,370;Thucydides,i,10 etc.

e.g.Homer,Op.Cit.,iv,52;Idem,Odyssey,iii,304;etc. 31

Homeric Hymn to Artemis,14; Sophocles, Oedipus Tyrannus,734; Thucydides, i,43;etc. 32

Herodotus, i,54; etc. 33

Aeschylus, Eumenides,16. 34

Nilsson, History of Greek Religion,p.26 ; Idem The Minoan-Mycenaean Religion,p.487; Farnell, 35
Cults of Greek States, vol.i,258 sqq.

Gunther (Neumann), "Der lydischen Name der Athena. Neulesung der lydischen Inschrift November, 36
40", Kadmos 6 (1967) .

Knossos V,52 (text 208 in:Ventris & Chadwick, Documents in Mycenaean Greek. 37

Palaima (Thomas), "Appendix One: Linear B Sources" in Trzaskoma (Stephen) and others editors of 38

: (Anthology of Classical Myth: Primary Sources in Translation, Hackett 2004) ,p.444. 39

Burkert (Walter) ,Greek Religion,p.44.

Ventris & Chadwick, Op.Cit.,p.91. 40

Plato, Cratylus,407b. 41

Herodotus, ii,170-175; Plato,Timaeus,21e. 42

Burkert (Walter), Op.Cit., p.139. 43

Homer , Iliad,v,880. 44

Hesiod, Theogony,886 sqq. 45

Ibid.,929. 46

Grimal (Pierre),The Dictionary of Classical Mytholo- logy,s.v. 47

Hesiod , Op.Cit.,924 sqq. 48

Pindar , Olympian Odes,vii,33 sqq. 49

المقصود هنا جزيرة رودوس. 50

Apollodorus ,i,20 . 51

Strabo,xiv,2,10. 52

Idem,ix,2,36. 53

Pausanias,i,24,5. 54

Idem,iii,17,3. 55

Philostratus the elder, Imagines,ii,27. 56

Harrison (J.E.), Prolegomena to the Study of Greek, Religion, p.302. 57

Philostratus, Life of Apollonius of Tyana,vi,19; cf. Pausanias ,i,24,2. 58

Graves (R.), Greek Myths, vol.i, pp.45 sqq. 59

Apollodorus ,i,4,6; scholium ad Pind.Olymp.,vii,66. 60

Tzetzes ad Lycophron,355; scholium ad Apollonium, iv,1310. 61

Pausanias,i,14,6. 62

Suidas, s.v.ι (πεα)Αθη/νη (Hippeia Athene). 63
Herodotus,iv,180. 64
Mark (P.O.), Classical Mythology,pp.41 sqq. 65
Apollodorus, iii,12,3. 66
Pindar,Pythian Odes,xii,19;etc. cf. Hyginus, Fabulae, 165;Apollodorus,i,4,2;Pausanias,i 24,1. 67
Tzetzes, ad Lycophron, 510 ; Cicero, De Natura Deorum, iii, 23. 68
Pausanias,ix,34,1;Tzetzes,ad Lycophron,355. 69
Homer, Iliad,iv,515; Idem, Odyssey, iii,367; Hesiod, Theogony,924; Pausanias ,ix,33,5. 70
Kerenyi (Karl), The Gods of The Greeks, pp.128 sqq. 71
Tzetzes, ad Lycophron,519. 72
Muller,Orchom.,p.355. 73
Pausanias,ix,33,5. 74
Burkert, Op.Cit.,pp.139-143. 75
Herodotus,v,82; Sophocles,Philoctetes,134;Aristopha -nes, Ares,828; Inscriptiones Graecae, i,304,6; Pausanias, i, 27,1 ; Arnobius, adv.Gent.,6,193;etc. 76
Mnemosyne, 1852,57,208. 77
Inscriptiones Graecae 12(7),386,43. 78
Pausanias,ii,30,6; 79
Idem,vii,5,9. 80
Strabo,iv,1,4. 81
Pausanias,ii,32,5. 82
Idem,x,38,5. 83
Homer, Iliad, vi,88. 84
Plutarch, Symposiaca,ix,6; Pausanias,ii,1,6; ii,15,15; ii,22,5. 85
Homer, Odyssey, passim. 86
Kerenyi, Op.Cit., pp.127-129. 87
Homer, Iliad,iv,128; v,765; vi,269; xv,213; Odyssey, iii,378. 88
Pausanias,i,42,4; Euripides,Ion,1529; Suidas,s.v. 89
Pausanias,iii,17,2. 90
Idem,ii,34,9. 91
Homer, Iliad, iv,8; Steph.Byz., s.v. Alalkomemion ; Muller, Orchom.,p.213. 92
Pausanias,i,28,5. 93
Idem,i,8,4. 94
Idem,i,28,5. 95
Aeschylus, Eumenides,753. 96

97 Cf. Homer, Iliad,ix,120; xxii,5; Theognis, 762 ; Sophocles , Antigone,500.

98 Steph.Byz., s.v. Zoster; Herodotus,viii,107.

99 Scholium ad Plato,p.90; Aristotle,Rhetorica,iii,18.

100 Hesiod ,Theogony, 925-926.

101 Athena Titles, www.Theoi.org.com.

102 Pausanias, i,1,3; ii,24,1; Apollodorus, i,9,20 ; Vitruvius,i,7; Spanheim,ad Callimachus Hymn in Jove 82.

103 Homer, Iliad, iv, 440-441; Hesiod, Theogony, 22 ; Cypria, passim.

104 Homer,Op.Cit.,v,333,592; Aeschylus, Seven Against Thebes,45; etc.

105 Homer, Op.Cit.,v,736 sqq.

106 Homer, Op.Cit.,i,199 sqq.

107 Homer, Op.Cit.,v,840 sqq.

108 Homer, Op.Cit.,x,244; etc.

109 Plutarch, Life of Pericles,13,8.

110 تروي بعض المصادر أن الملك إكتينوس هو الذي بنى البارثينون، وأن بريكليس هو الذي أشرف - فيما بعد - على عملية إعادة بنائه وتجهيزه. انظر: Strabo,ix,1,12;ix,1,16.

111 Pausanias, i,23,4.

112 Idem, i,2,4; i,34,2.

113 Idem, iii,13,4.

114 المِدَمَّة: أداة ذات أسنان تستعمل لجمع العشب أو تقليب التربة.

115 Pausanias,i,30,4; i,13,3; v,15,4; viii,47,2.

116 Idem,v,15,4.

117 Idem,vi,20,8; i,30,4; Livy,i,9.

118 Idem,v,15,4.

119 Idem,i,5,3; i,41,6; Lycophron Cass.359.

120 Smith (William), Dictionary of Greek and Roman Biology and Mythology ,p.51.

121 Tzetzes, ad Lycophron,530.

122 Athena : Greek Goddess of wisdom, www. Theoi. org.com.

123 Livy,vii,3.

124 Nonnus, Dionysiaca, xxiv, 35sqq.; Pindar, Pythian Odes,xii,7sqq.;Ovid,Fasti,vi,697 sqq.;Hyginus,Fabula,165.

125 Vergil, Georgics, iv,246 sqq.; Hymn to Aphrodite, v,9 sqq.

126 Hymn to Hephaistus ,i sqq.

127 Pausanias,i,24,3.

128 Homer,Odyssey,xxiii,160;xviii,190;Plutarch, Cimon, 10; Ovid ,Fasti, iii,833; Orphic Hymns,31,8; Spanheim ad Callimachus, p.643; Horace, Carmina,i,12,19.

Pausanias,v,14,5; i,24,3; Plutach, De defectu orac-ulorum, 99a; Hesyhchius,s.v. 129

Pausanias,viii,31,3;viii,36,3. 130

Homer,Odyssey,i,156; Sophocles,Oedipus Tyrannus, 706; Hesiod,Theogony,888,924; Strabo,xiii,1,38. 131

Homer,Iliad,v,260;Odyssey,xvi,282. 132

Demosthenes,25,34;Diodorus Siculus, xi,14;Parthen- ius, 25; Pausanias ,x,8,6; Plutarch,825b. 133

Homer, Odyssey,xiii,394 sqq. 134

Aeschylus, Eumenides,753; cf. Pausanias,i,28,5. 135

Pausanias,iii,15,4. 136

Idem,iii,11,8. 137

Idem,iii,11,8;v,15,6. 138

Idem,v,15,3. 139

Idem,i,15,1;ii,9,7;ix,17,1. 140

Idem,iii,11,9 ; Homer, Odyssey,xiv,389; Cicero, ad Quintum Fratrem,ii,12. 141

Trahman (C.R,), "Odysseus' Lies, Books 13-19", Phoenix, vol.6, no.2, (Classical Association of Canada), 1952, pp.32-34. 142

Loraux (N.),The Children of Athena,pp.37 sqq. 143

Pausanias,ii,12,4. 144

Kearns (E.), The Heroes of Attica (BICS Supplement 1989) pp.110-112,175-176; Kron, Phylenheroen, pp.84 sqq., 259 sqq. 145

Scholium ad Aristophanes Pluto 773; Tacitus, Annales, xi, 14,2; Cicero, De legibus,ii,63. 146

Sissa, ,The Daily Life of The Greek Gods, p. 147; pp.210-211. 147

Brule, La Fille d'Athenes, pp.31 sqq. 148

Graves (R.), Op.Cit., vol.i, p.97. 149

Apollodorus,iii,14,6. 150

لأنه كان أعرج فقد كان يسير بصعوبة بالغة. انظر: Seltman,The Twelve Olympians,p.93. 151

Seltman, Op.Cit., pp.51-52 . 152

Aeschylus,fragment 368; Euripides,Ion,21;Aristotle,fragment 635. 153

Apollodorus,iii,14,6. 154

Callimachus, Hecale Fragment,i,2. 155

Pausanias,iii,18,13. 156

Idem,i,14,6. 157

Philostratus, Life of Apollonius of Tyana,7,24. 158

Hyginus, Fabulae,166. 159

Idem, Astronomica,ii,13. 160

161 Ovid, Metamorphoses,ii,550 sqq.
162 Ibid.,ii,748 sqq.
163 Cicero, De Rerum Deorum,iii,22.
164 Apollodorus,iii,14,6.
165 Callimachus, Op.,Cit.,i,2.
166 Pausanias,i,18,2.
167 Hyginus, Fabulae,166.
168 Suidas, s.v. Drakaulos.
169 Ovid, Op.Cit.,ii,550 sqq.
170 كان طائر الغراب في بادئ الأمر أبيض اللون وكان يستمتع بمصاحبة الربة أثينة، ثم عاقبته الربة، فأصبح لونه أسود، وأصبح ممنوعا من الاقتراب من الأكروبوليس. انظر كتابنا أساطير إغريقية، ج 3، ص 263.
171 المقصود هنا هو طائر البوم الذي أصبح ملازما للربة أثينة بدلا من طائر الغراب. كانت البومة في بادئ الأمر فتاة تدعى كورونيس. حافظت كورونيس على عذريتها. كافأتها الربة أثينة بأن حولتها إلى بومة وسمحت لها بأن تلازمها في كل مكان.
172 Ovid, Metamorphoses, ii,748.
173 Pindar,Pythian Odes,xii,16 (ευ/παραο/υ Μεδοι/σοφ).
174 Ovid,,Op.Cit.,iv,790 .
175 Apollonius Rhodius,Argonautica,ii,37-41.
176 Pindar, Nemean Odes, x,4.
177 Apollonius Rhodius,Op.Cit.,iv,1515 sqq.; Ovid ,Op . Cit.,iv,770 sqq.; Lucan,Pharsalia,ix,820 sqq.
178 Milne(Marjorie J.),"Perseus and Medusa on an Attic vase",The Metropolitan Museum of Art Bulletin, New Series,4.5 (January 1946,pp.126-130),p.126-7.
179 Sigmond Freud, Das Medusenhaupt, z. Psychoanal. Imago. 25(1940),p.105; Seeling (B.J.),The Rape of The Medusa in The temple of Athena; Journal of Psycho-anal.,83(2002),pp.895-911;Pratt (A.),Archytypal empower -ment in poetry : Medusa, Aphrodite, Artemis, and bears, Bloomington Indiana University Press,1994, passim; Stephenson (A.G.), Endless the Medusa : a feminist reading of Medusa imagery, London 1997 passim .etc.
180 Apollodorus,ii,46.
181 Ibid.,ii,146.
182 Apollodorus,vi,20-22.
183 Scholium ad Homer Iliad xiii,66 (Callimachus, Aitia,fragment i,8).
184 Scholium on Lycophron 1141 (= Callimachus, Aitia , fragment ii,1.) .
185 فيما يتعلق بهذه القصة انظر أيضا: Tzetzes on Lycophron ; Polybius,xii,5;scholium ad Homer Iliad xiii,66;Iambilicus, De Pythagorica vita,viii,42;Servius on Vergi's Aeneid,i,41.
186 Callimachus,The Bathing of Pallas,57sqq.;Apollodo- rus,iii,6,7.

187 Plutarch, , Parallel Stories 17.
188 Ovid, Metamorphoses ii,569 sqq.
189 لم يمنع ذلك الربة أثينة من عقاب الغراب عندما أفشى سرها بحرمانه من مرافقتها، واستبدلت به البومة. انظر ص 19 أعلاه.
190 Aeschylus, Suppliant Women, passim; etc.
191 Hyginus,Fabulae,204.
192 Ovid,Op.Cit.,ii,289 sqq.
193 Pausanias,v,11,10;viii,41,5;x,34,8;Telestes,fragment 805(apud Athenaeus,Deipnosophistai).
194 Euripides,fragment 675.
195 Euripides, Hippolytus,17.
196 Homeric Hymn to Aphrodite,7 sqq.;see also Ovid, Op.Cit,v,375 sqq.
197 Diodorus Siculus,v,2,3,.
198 Herodotus,iv,103.
199 Inscriptiones Graecae i,108,48 and 54.
200 Homer, Iliad, xxii,127-128.
201 Hesiod, Theogony,514.
202 Sophocles, Oedipus Tyrannus,1462; Trachiniae,148.
203 Aristophanes, Equites,1302.
204 Theocritus,27,65.
205 Vestal Vergins : Plutarch,ii,89e;etc.; Dionysius Halicarnasius,i,69 .
206 Muller,Dor.,ii,2,13.
207 Spanheim, ad Callimachus,p.644.
208 Orphic Hymns, xxxi,10.
209 Eustathius, ad Homer Iliad, ii,550.
210 Orphic Hymn to Athena,32.
211 e.g. Homer,Iliad,xxii,127-128;etc.; Homeric Hymn to Athena,11and 39; Orphic Hymn to Athena,32.
212 Pindar, Olympian Odes,v,21.
213 Plato,Cratylus,406d.
214 Apollodorus,i,6,2 .
215 cf. Tzetzes, ad Lycophron,355.
216 Pausanias,i,14,6.
217 Quintus Smyrnaeus, Fall of Troy.viii,350 sqq.
218 Ibid.,xiv,386 sqq.
219 Philostratus, Imagines,8.

Ovid, Metamorphoses,vi,70 sqq. 220
Apuleius, The Golden Ass,x,30 sqq. 221
Pausanias,i,17,2. 222
Ibid.,i,24,5. 223

قائمة المراجع

- Bell (Robert), Place-names in Classical Mythology, Uni-versity of Mitchigen 1989.
- Bury(J.B.),History of Greece, Macmillan 1994.
- -- ,Women of Classical Mythology: A Biographical Dictionary, University of Mitchigen 1991.
- Brule(P.),La Fille d' Athenes ,Paris 1986.
- Burkert (Walter), Greek Religion, Harvard University Press 1985.
- Calame (Claude) & Berman (Daniel), Myth And History in Ancient Greece, The Symbolic Creation of a Colony, Princeton 2003.
- Duly(Georges),Pentel(Paulin Schmitt)and others,A History of Women in The West: From Ancient Goddesses to Christian Saints, Harvard University Press 1994.
- Farnell(C.G.S.),The Cults of The Greek States (5 vols.), Oxford 1896-1909.
- Freud (Sigmond),Das Medusenhaupt, Z. Psycoanalytical Imago,25 (1940),pp.101-106.
- Graves (Robert),The Greek Myths(2 vols.) revised edition, Penguin Books 1960.
- Grimal(Pierre)&Maxwell-Hystop(A.R.),The Dictionary of Classical Mythology , Blackwell ,1996.
- Gunther (Neumann),"Das lydische Name der Athena. Neu- lesung der lydischen Inschrift.November40",Kadmos 6, 1947.
- Harrison (Jane), Prolegomena to The Study of Greek Religion, Merlin Press London 1980.
- Handerson (J.), Comic Hero Versus Political Elite (in Sommerstien (A.H.) & Halliwell (S.) & Handerson(J.) & Zimmermann (B.), Tragedy, The Comedy and the Polis, Bari : Lavente editore 1993.
- Hurwit(Jeffrey),The Athenian Acropolis: History, Mytho-logy, and Archaeology from the Neolithic Era to the Present, Published by CUP Archaive 1999 .
- Kearns(E.),The Heroes of Attica, BICS Supplement 1989.
- Kerenyi (Karl), The Gods of The Greeks, Thames & Hudsun 1951.
- Loraux (Nicole), The Children of Athena (translated by Caroline Levine),Princeton 1993.
- Mark(P.O.)& Morford(R.J.), Classical Mythology, Oxford 1998 .
- Milne (Marjorie),"Perseus and Medusa on an Attic Vase, the Metropolitan Museum of Art Bulletin,N.S.45(January 1946),pp.126-130.
- Morgan(Lewis), Ancient Society, Chicago 1907.
- Nilsson(M.P.),A History of Greek Religion (translated by F.J.Fielden), Oxford 1920.
- ,The Minoan-Mycenaean Religion,Oxford 1925.
- Palaima (Thomas), "Appendix One:Linear B Sources." in Stephen Trzaskoma and others editors, Anthology of Classical Myth : Primary Sources in Translation, Hackett 2004.
- Pratt(A.), Archytypal Empowerment in Poetry : Medusa Aphrodite, Artemis and bears, Indiana University Press 1994.
- Rose (H.J.),A Handbook of Greek Mythology, Methuen London 1997.

- Ruck (Carl A.P.), & Staples (Danny), The World of Classical Myth: Gods and Goddesses Heroines and Heroes, Durham 1994.
- Schneider(Lambert) & Hoecker(Cristoph), Die Akropolis von Athen, Darmstadt 2001.
- Seeling (B.J.), The Rape of Medusa in The Temple of Athena, Journal of Pscho-Analysis,83 (2002),pp.895-911.
- Seltman(Charles),The Twelve Olympians ,Gods and God-desses of Greece(a modern view of ancient myth) Pan Books London 1952.
- Sissa(Guilia) & Detienne (Marcel), The Daily Life of The Greek Gods (translated by Janet Lloyd), California 2000.
- Smith(William),Dictionary of Greek and Roman Biology and Mythology , Boston 1867.
- Stephenson(A.C.), Endless the Medusa; a feminist reading of Medusa imagery, London 1997 .
- Trahman(C.R.),"Odysseus' Lies (Odyssey, Books 13-19)" in Phoenix , vol.6 ,No.2 (Classical Association of Canada), 1952,pp.31-43.
- Travlos(John), Pictorial Dictionary of Ancient Athens, Thames & Hudson ,London 1971.
- Tung(Anthony), Preserving The World's Great Cities : The Destruction and The Renewal of The Historic Metropolis, New York 2001.
- Ventris(Michael)&Chadwick(John), Documents In Myce- naean Greek ,Cambridge 1973.
- Vian (F.), Les Origines de Thebes, Paris 1963.
- Wilson (Nigel Guy), (Editor), Encyclopedia of Ancient Greece, Routledge 2006.

مقالة : الفن الأثيني

د. منى حجاج (*)

اجتمعت لمدينة أثينا عديد من العوامل الطبيعية التي ساعدت على أن تتبوأ هذه المدينة موقع الريادة في العالم اليوناني القديم، إذ يتمتع سهل أتيكا Attika بتربة خصبة صالحة لزراعة منتجات حيوية كالتين والزيتون والكروم، بالإضافة إلى مناطق عشبية واسعة تصلح للرعي.

وتحيط بالسهل مجموعة من الجبال، ففي الشمال الغربي تقع سلسلة جبال البارنيس Parnes وفي الغرب يقع جبل إيجاليوس Aegalius الذي ينحدر عند خليج سلاميس Sala-mis، أما في الشرق فيقع جبل هيميتوس Hymettus الذي قدم أحد أفضل أنواع الرخام الأبيض المعرق بالأزرق للبناء، وفي الشمال الشرقي قدم جبل بنتليكوس Pentellikus النوع الثاني من الرخام الأبيض المعرق الراقي، وكان جبل ليكابيتوس Lycabettus مصدر الحجر الجيري القوي المعروف باسم بوروس Poros. وفي الوقت الذي قدمت فيه هذه الجبال حماية طبيعية للسهل كان ممر ماراثون Marathon الشهير الواقع بين جبلي هيميتوس وبنتليكوس يقدم الفرصة للتحرك السريع لمواجهة أي اعتداء أو خطر يتهدد إقليم أتيكا. كما كان ميناء بيريوس Piraeus، وما يلحق به من موان مساعدة كميناء مونيخيا Munycheia وميناء سيا Zea، يصل بين الإقليم وجيرانه ويكسر عزلة أثينا عن العالم، ما ساعد على إنشاء قوة بحرية كبرى في المنطقة. وكان للمناخ المعتدل للإقليم أثره في سهولة الحياة وشحذ الطاقة العقلية والبدنية لسكانه؛ فظهرت بينهم عبقريات فذة أنتجت للإنسانية فكرا وفنا أصبحا الأساس الذي قامت عليه حضارة الغرب بوجه عام.

لا تختلف البدايات الأولى للحضارة الأثينية عن مثيلاتها في المواطن الأخرى من العالم اليوناني، فقد أطاح الغزو الدوري في الألف الثانية قبل الميلاد(**) بكل ما سبق من عمران.

(*) أستاذ الآثار اليونانية الرومانية بجامعة الإسكندرية ومستشار رئيس قطاع المكتبات بمكتبة الإسكندرية - مصر.

(**) جميع التواريخ المذكورة في هذا المقال يُقصد بها فترة قبل الميلاد ما لم يشر إلى غير ذلك.

وتشير بقايا الكتل الحجرية المعمارية المتناثرة حول هضبة الأكروبوليس Akropolis الأثيني إلى وجود سكني ترجع إلى العصرين الحجري الحديث Neolithic والبرونزي كانت من الأهمية بمكان ما دفع أصحابها إلى إحاطة موقعهم بأسوار ضخمة لحمايته. يُرجع الأثينيون تاريخ مدينتهم إلى آماد طويلة سبقت الغزو الدوري حكم فيها الإقليم ملوك تمتعوا بقوة ومهابة وصلت إلى حد التقديس. ويضم معبد الإرخثيون Erechtheon الذي أقامه الأثينيون في العصر الكلاسيكي (منتصف القرن الخامس) فوق الأكروبوليس محاريب عبادة لبعض هؤلاء الملوك الذين أحاطتهم العقلية الأثينية بكثير من الروايات الأسطورية فجعلت منهم أنصاف أرباب، ومنهم كيكروبس Kekrops أقدم هؤلاء الملوك، وإرخثيوس Erechtheos ربيب أثينا Athena ربة الحكمة وربة الدولة التي استمدت منها المدينة اسمها واتخذتها حامية لها.

وقد شهدت الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثامن ميلاد حقبة جديدة من النتاج الحضاري لبلاد اليونان، اختلفت في كثير من جوانبها عما عرفته الحضارتان المينوية Mi-noan والميكينية Mycenean اللتان شغلتا مناطق جزيرة كريت وشبه جزيرة البلوبونيس وجزر بحر إيجة. اعتاد العلماء المحدثون إطلاق اسم «عصر الظلام» على تلك الفترة نظرا إلى قلة ما لدينا عنها من معلومات، غير أن ما كشف من نتاج فكري ومادي يرجع إلى الفترة التالية مباشرة لما سمي عصر الظلام يوضح بما لا يدع مجالا للشك أن ذلك العصر كان عصر البناء والتعمير والتنوير لا الظلام. لقد شهدت الحضارة الإغريقية آنذاك تكوُّن اللغة اليونانية، ورسوخ الفكر الديني الذي يقوم على ما سمي الديانة الأولمبية بما تحتويه من أساطير تحكي للبشر حياة الآلهة وقدراتهم وخصائصهم بل وأشكالهم. تظهر في الأكروبوليس الأثيني بقايا كهوف العبادة القديمة التي ترجع إلى تلك الفترة. كانت الألف الأولى إذن فترة التآلف والتجانس في الفكر واللغة والدين وفي النتاج الحضاري لبلاد اليونان، بدءا من الساحل الغربي لآسيا الصغرى شرقا إلى جزر بحر إيجة فشبه جزيرة المورة وجزيرة صقلية غربا، بالإضافة إلى منطقة جنوب إيطاليا.

تميز النتاج الفني الأثيني في بداية العصر التاريخي بالنزوع نحو الخطوط والأشكال الهندسية التي تقدم صورة هيكلية لما يعتقد فيه القوم من فكر ديني ودنيوي معا. وما لبثت تلك الاتجاهات البسيطة أن تطورت إلى أشكال حيوانية وإنسانية تعبر عن فكرهم بشكل أقرب إلى المفهوم الحياتي الملموس.

تشير الأدلة الأثرية المكتشفة في مصر وبلاد اليونان إلى وجود نشاط تجاري واسع بين العالم اليوناني وحضارات الشرق وخصوصا مصر. ويبدو أن أثينا كانت تقود ذلك النشاط، إذ كان الفن الأثيني أقدم فنون الغرب تأثرا بالفن المصري القديم. ويبدو أن ملامح الحضارات العتيدة المستقرة في الشرق كالمصرية وحضارة بلاد النهرين قد هيمنت على النتاج الفني

الأثيني في أواخر القرن الثامن وأوائل السابع، ما دفع العلماء إلى إطلاق اسم «عصر الاستشراق» Orientalization Period على هذه الفترة.

بدت معالم هذا التأثر جليَّة في تحوُّل البنَّائين الأثينيين إلى استخدام الحجر في البناء وفي نحت التماثيل، وكانوا قبل ذلك يشيدون معابد أربابهم من اللَّبِن والخشب، ويصنعون لهم تماثيل صغيرة من الطين والخشب. صاحب ذلك النزوع إلى إقامة معابد ضخمة تغطيها سقوف ترتكز على أعمدة حجرية ضخمة فيما عرف بالطراز الدوري في البناء والذي كانت أثينا موطن ابتداعه.

تميز الطراز الدوري بضخامة أعمدته وبساطة زخارف الأجزاء المعمارية التي تستند على تلك الأعمدة والمسمّاة بعناصر ما فوق العمود Entablature والتي تتكون من شريط أفقي خال من الزخرفة يمتد فوق الأعمدة يسمى عارضة Architrave، ثم إفريز Frieze من كتل مزخرفة بثلاثة خطوط بارزة Triglyphs تفصل بينها لوحات مستطيلة تقرب إلى التربيع، متراجعة قليلا إلى الخلف للسماح بوضع المنحوتات البارزة فوقها، وتسمى اصطلاحا باللوحات الفاصلة Metopes. يعلو ذلك كورنيش Cornice أفقي بارز يحمل فوقه الهيكل الخشبي للسقف المسطح للبناء الذي يظهر من داخل البناء في شكل عوارض خشبية متقاطعة ومتعامدة تحصر بينها مربعات غائرة Coffers تزخرف بألوان زرقاء ونجوم مذهبة براقة تتلألأ كالنجوم في السماء. فوق الكورنيش الأفقي هيكل ثان من الخشب لسقف آخر مثلث أو جمالوني تغطيه ألواح من القرميد، تتكون معه الواجهتان المثلثتان Pediments في واجهة المعبد وخلفيته، وفوق هاتين الواجهتين قدم النحاتون أفضل ما لديهم من منحوتات بارزة.

أقيمت معظم منشآت العصرين المبكر أو الأرخي (600 - 480) Archaic والكلاسيكي (480 - 330) Classicفي أثينا وباقي أنحاء القسم الأوروبي من العالم اليوناني على الطراز الدوري. غير أن الأثينيين أدخلوا على مبانيهم الكلاسيكية بعض عناصر الطراز الأيوني الذي ابتدعته المدن الأيونية على الساحل الغربي لآسيا الصغرى. كان الطراز الأيوني يختلف في شكل أعمدته وعناصر ما فوق العمود عن الطراز الدوري، إذ كان يزخر بالزخارف والحليات المعمارية النباتية التي تنحت في أفاريزه وكرانيشه وفي تيجان أعمدته المتميزة بحلزونين كبيرين مع حليات من سعف النخيل. أما أبرز ما يميز الطراز الأيوني فكان الإفريز المستمر الذي يسمح بإضافة سلسلة من المنحوتات المستمرة التي تُمكِّن الفنان من عرض أسطورة كاملة الأحداث أو موكب ديني متكامل العناصر والأشخاص، كذلك الموكب الذي يزخرف الإفريز الداخلي لمعبد البارثنون Parthenon الشهير. ولما كان هذا الإفريز الممتد من المنحوتات يوافق ميلا لدى الفنانين الأثينيين في العرض الروائي لمنحوتاتهم، فقد كانت أثينا أولى دويلات المدن اليونانية اقتباسا له في القسم الأوروبي من العالم اليوناني،

الأمر الذي أدى إلى استخدامه ثم انتشاره في كل المواطن اليونانية إلى أن طغى على الطراز الدوري وحل محله.

يرجع العلماء نشأة كثير من تفاصيل الطراز الدوري إلى التأثر بالمعابد المصرية في عصر الدولة الحديثة، كما يعزى ظهور التماثيل الحجرية الضخمة لشبان وشابات إغريق إلى التأثر بفن النحت المصري آنذاك. لقد أخذت أثينا ما أخذته من الشرق تارة ومن الحضارة الميكينية تارة أخرى، ثم طوّعته وشكّلته بما يلائم الفكر الجديد فظهر فن جديد يمكن أن نطلق عليه «الفن اليوناني» أو بالأحرى «الفن الهلّيني» منطلقا من أثينا.

وافق البناء الضخم من الحجر خيال الأثينيين وتطلعهم إلى تحقيق التكوين المؤثر، فانطلقوا نحو التطوير والتحسين بغية الوصول إلى أبنية تصمد لآماد طويلة من الزمن، وتحقق التأثير الأعمق في نفوس رُوّادها. وكانوا في كل ذلك يلزمون أنفسهم بأنماط بعينها يعدُّونها رموزا لفكرهم ودينهم. على الرغم من المخطط البسيط للمعبد الإغريقي بوجه عام قدمت أثينا فكرة إحاطة المعبد بمجموعة من الأبهاء والأروقة داخل ساحة مقدسة محاطة بأسوار تفتح فيها بوابات ضخمة. ويقدم الأكروبوليس الأثيني نموذجا لمثل هذا المكان المقدس المنيع المهيب. يدخل إليه من بوابة ضخمة فيجد المرء نفسه أمام مجموعة من المعابد والمنشآت الدينية المبهرة في ضخامتها ومهابتها، والمذهلة من حيث ما قدمه فيها البنّاءون من محسنات بصرية حققت التوازن والثبات الهندسي مع الجمال والتناغم والقوة وتناسق الأبعاد في آن واحد.

أقيمت بوابة الأكروبوليس الكبرى المسماة بروبيلايا Propylaea في عصر بركليس Perikles فيما بين 437 و432 فوق بقايا البوابة القديمة التي أقامها بيزستراتوس -Peisistratos في القرن السادس، وكان المقصود بها أن تحل محل البوابات التسع التي كانت تفتح في الأسوار الميكينية القديمة. عهَد بركليس بمشروع بناء البوابة إلى منيسيكليس Mnesikles، وكان الأخير واحدا من عباقرة عصره في فن هندسة البناء في القرن الخامس. استخدم منيسيكليس في بنائه كلا من الطرازين الدوري والأيوني، كما جمع بين رخام بنتلكيوس الأبيض الفاخر مع الحجر الإليوسي Eleusinian الأسود لعمل القواعد وبعض التفاصيل بغرض إحداث نوع من التناقض بين الأبيض الناصع والأسود القاتم. والواقع أن بناء البروبيلايا قد توقف نتيجة لنشوب الحروب البلوبونيسية في العام 431 ولم يستكمل البناء بعد ذلك قط. كان يتقدم البوابة تمثال برونزي ضخم لربة الشفاء هيجيا Hygeia ابنة أسكلبيوس Asklepios، وتروى لذلك قصة بأنه أثناء العمل في بناء البروبيلايا وقعت حادثة أصابت أحد العمال المهرة من المشتركين في العمل بمرض صعُب على الأطباء علاجه، وذات ليلة حلم بركليس بالربة أثينا تخبره عن نبات ينمو فوق الأكروبوليس، فأمر بركليس بإحضار النبات وإعطائه للمريض الذي تعافى تماما. أمر

بركليس بإقامة مذبح وتمثال للإلهة أثينا ابتهاجا وشكرا لها على ما حدث، فصنعه النحّات الأثيني بيرّوس Pyrrhos ليوضع في هذا المكان.

يشغل مبنى البروبيلايا حيزا مربعا يتكون من ممرين يتقدم كلا منهما صف من ستة أعمدة Hexastyle. ويرى الصاعد من الجهة الغربية للأكروبوليس الممر الخارجي الدوري مسقوفا بسقف جمالوني يقف على أربع درجات. فإذا مرَّ الزائر بين عمودي الوسط وجد مسطحين إلى اليمين وإلى اليسار يقودان إلى جناحين، الشمالي منهما عبارة عن مبنى مستطيل يقف على درجات الردهة الخارجية نفسها، ويشبه في مخططه معبدا بردهة دورية يتقدمها صف من ثلاثة أعمدة. أطلق على هذا الجناح اسم Pinakotheke نظرا إلى أن جدرانه كانت مزينة بلوحات رسمها الفنان الأثيني بولينيوتوس Polygnotos، ويصف بوسانياس Pausanias روعة هذه الرسوم التي فقدت جميعا في الجزء الأول من كتابه (1.22.4). كانت مداخل البروبيلايا تغلق بأبواب خشبية مكسوة بالبرونز ومزخرفة بزخارف غنية. وكانت الأبواب تثبت في قوائم مائلة إلى الداخل تجعل الباب ينغلق ذاتيا كلما فُتح، وقد انتشرت هذه الخاصية الأثينية في مباني القرن الخامس المهمة على وجه العموم. زود الممر الرئيسي للبروبيلايا بقناة لتصريف مياه المطر حتى لا تقف في الأجزاء المنخفضة من البناء بالإضافة إلى تسوية الأرض بانحدار نحو الخارج.

وصلت عناصر الطراز الدوري إلى اكتمالها في النصف الثاني من القرن الخامس وقد ارتبط هذا الاكتمال بأزهى عصور النضج السياسي لمدينة أثينا في عهد زعيمها الديموقراطي بركليس (495 - 429) Pericles. كان الدمار الذي صاحب الغزو الفارسي قد طال منشآت الأكروبوليس المهمة فوضع بركليس مشروعا لإعادة بناء التل المقدس. كان المعماريان إكتينوس Ictinus وكاليكراتيس Callicrates من ألمع مهندسي المعمار آنذاك، فاشتركا معا في بناء أهم وأعظم معابد الإغريق على الإطلاق وهو معبد الإلهة أثينا العذراء المعروف بالبارثنون على الأكروبوليس الأثيني. يعدّ معبد البارثنون شاهدا على ما تمتعت به المدينة من ثروة وسطوة، وما قدمته من إبداع علمي وفني، كما يمثل ذروة نضج الطراز الدوري في العمارة بما نفذ فيه من محسنات بصرية أوضحت أن البنّاء قد تخطى مرحلة الإتقان الهندسي وتعداها إلى مرحلة الإبداع في خدمة الشكل المثالي الذي لا تجد فيه فرصة للخداع البصري الذي من شأنه أن يكسر الإحساس بالثبات والاستقامة والرسوخ في البناء.

بدئ في بناء البارثنون العام 447 وانتهى المهندسان من عملهما في نحو 438 ليتركا المعبد في أيدي أكبر فناني العصر بقيادة النحّات فيدياس Pheidias صديق بركليس الحميم، لينفذوا أعماله النحتية التي انتهت بعد ذلك بست سنوات، أي في نحو 432 ق. م. وقد أقيم البارثنون في موقع معبد قديم كان قد خطط لبنائه ووضعت أساساته في الموقع نفسه في زمن

كليستثيس (508/7-495؟) وكان يسمى Hecatonpedon أي المعبد، ذو المائة من الأقدام، ربما نسبة إلى مساحة قدس الأقداس أو الناووس Naos، والمعبد القديم كان محاطا بالأعمدة من جميع جوانبه بحيث يتقدمه صف من ستة أعمدة ومثلها في الخلف، بينما الجانبان الطويلان يحد كلا منهما صف من ستة عشر عمودا، وهو المخطط الذي يسمى «بالمعبد المحاط Perip-teral». توقف العمل في بناء الهيكاتونبيدون بهجوم الغزو الفارسي سنة 480 إلى أن تقرر استخدام أحجاره لبناء معبد جديد يقام ضمن مشروع إعادة بناء الأكروبوليس، يهدى للإلهة أثينا في عيدها الكبير المسمى الباناثايا Panathenaea.

البارثنون أيضا معبد محاط 8 × 17 يبلغ ارتفاع العمود فيه 5.48 متر وهو ما يساوي ضعف قطر العمود تقريبا، ويقل قطر العمود كلما ارتفعنا إلى أعلى بنسبة أكبر من المعهود في أعمدة المعابد الأخرى. ينقسم الناووس إلى نصفين غير متصلين لكل منهما مدخل يتقدمه صف من ستة أعمدة Hexastyle. الناووس الشرقي أكبر حجما وكانت مقرا لتمثال فيدياس الشهير لأثينا العذراء بارثنوس Parthenos الذي أحيط من ثلاث جهات بصفوف من الأعمدة الدورية في طابقين يفصل بينهما سطح خشبي، بينما تحوي الناووس الغربي أربعة أعمدة دورية تحمل سقفها. في أعلى الحوائط المحيطة بالناووسين نرى إفريزا إيونيا مستمرا منحوتا بمشاهد أعياد الباناثايا ومواكبها.

ظهرت في البارثنون بعض المظاهر الهندسية الجديدة المسماة بالمحسنات البصرية والتي تعد من أروع ما توصلت إليه فنون العمارة الإغريقية. من ذلك أن روعي في عملية تمهيد الأرض وتسويتها لبناء درجات قاعدة المعبد، أن تكون الدرجة الأخيرة Stylobate محدبة في منتصفها تحديبا طفيفا يسمح بانسياب مياه الأمطار ولا ترى بالعين لأول وهلة. كما روعي في التصغير المتصاعد لقطر العمود Diminution أن يصل القطر العلوي للعمود إلى ثلاثة أرباع قطره عند أسفل البدن لتفادي ظهور العمود نحيفا، بالإضافة إلى انبعاجة في وسط بدن العمود Entasis اعتادها البناءون من قبل البارثنون تجعل العمود يبدو كامل الاستقامة. روعي أن تميل أعمدة البارثنون إلى الداخل بنسبة ثابتة عن معدل إقامتها رأسية Inclination، كما نفذت عملية الميل إلى الداخل بالنسبة نفسها في حوائط البناء وذلك ليحدث نوع من التعادل مع ميل الخطوط الرأسية. جاءت أعمدة الأركان أكثر سمكا من باقي الأعمدة لتفادي خداع النظر. وتقل المسافة الفاصلة بين عمود الركن والعمود التالي له من كل جانب عن غيرها من المسافات، وذلك لإيجاد تناسب بين أعمدة الزوايا وباقي أعمدة الصف المحيط Pteron. كذلك نفذت اللوحات الفاصلة Metopes في وسط الإفريز أكبر حجما من غيرها تجنبا لخداع النظر. أما الجمالون فيميل إلى الداخل بدرجة لا تسمح بأن تلقي الكرانيش بظلها على المنحوتات الموجودة على حائط مثلث الواجهة Tympanum.

إذا كان البارثنون يقدم أفضل ما أبدعه المعماريون الأثينيون في الطراز الدوري فإن الإرخثيون يقدم مثالا على الإبداع الأثيني في الطراز الأيوني. الإرخثيون أكثر المعابد الإغريقية تعقيدا وضخامة وروعة في الوقت نفسه. يقع المعبد في الجانب الشمالي للأكروبوليس الأثيني في مواجهة البارثنون، أقيم على مستويين مختلفين في الارتفاع فرضتهما الطبيعة المتضرسة للهضبة. بدئ في بناء المعبد في نحو 421 ولكن ولأسباب غير معروفة توقف العمل فيه ليستأنف في نحو 409 وينتهي بعد ذلك بخمس سنوات أي في نحو 404. تعرض البناء للهدم غير مرة، ولكن في كل مرة كان يعاد بناؤه بدقة واهتمام، فظل باقيا مكانه حتى اليوم. استخدمت أنواع مختلفة من الأحجار في بناء المعبد تتفق مع التنوع في مستوياته وفي مخططه، فوجدنا الرخام والحجر الجيري الأبيض والحجر الأسود، وقد خصص الحجر الأسود للأفاريز التي ألحقت بها منحوتات من رخام أبيض فتظهر نوعا من التناقض الفني المحبب. يحتوي المعبد على عدد من المزارات المقدسة المخصصة لأكثر من إله كما تعقد مخططه في محاولات الإضافة والتعديل التي تعرض لها المعبد مرارا. يبدو أن المهندس الذي كلف بالبناء والذي لا نعرف اسمه قد قوبل برفض محاولات تسوية الأرض للحفاظ على مقدسات كانت موجودة في الموقع تشير إليها الأساطير، فاضطر إلى استخدام مستويين للبناء عليهما محاولا تقريب الارتفاعات اصطناعيا في الجزء الغربي، وهناك من يعتقد أن ارتفاع الجزء الغربي يرجع إلى وجود أساسات معبد أثينا الحامية Athena Polias في الموقع.

يقع المدخل الرئيسي للمعبد في الجانب الشرقي الذي يحوي الحجرة الرئيسية أو الناووس المخصص لأثينا العذراء، يتقدم الناووس صف من ستة أعمدة Hexastyle Prostyle، وهذا الناووس مغلق من الخلف بحيث لا يمكن الدخول منه إلى أي عنصر آخر من عناصر المعبد المعمارية. سُقف هذا الجزء بجمالون وعناصر ما فوق العمود أيونية. ويظهر في المدخل وجود نوافذ للإضاءة والتهوية بين الأعمدة والأكتاف، على جانبي الباب الأوسط للناووس. اضطر المهندس عند إقامته للجانب الغربي إلى أن يرفع أرضيته فوق حائط يمثل سورا مرتفعا من الحجر، وذلك كيما يحدث نوع من التوازن بين هذا الجانب ومقابله في الجهة الشرقية. أقام المعماري أربعة أعمدة أمامية ودعامتين أو عمودين مربعين Pilasters عند أول الصف وآخره. اتصلت الأعمدة بحائط تخترقه نوافذ الإضاءة والتهوية. يُدخل من بين صفوف الأعمدة إلى ناووس من ورائه حجرتان خلفيتان تتصلان بالناووس وبالمدخلين الشمالي والجنوبي للمعبد عن طريق أبواب. يتفق ارتفاع الجمالون في الجهة الغربية مع ارتفاعه في الجهة الشرقية بينما نجده مختلفا مع الجهتين الأخريين. الجانب الشمالي هو أكثر أجزاء الإرخثيون اتساعا وارتفاعا، يتقدمه صف من ستة أعمدة أربعة منها أمامية واثنين خلف عمودي الركنين، وتحمل هذه الأعمدة عناصر وجمالونا أيونيا. يدخل من بين هذه الأعمدة إلى الناووس الذي ينتهي

بحائط خلفي تخترقه ثلاثة أبواب، أحدها يؤدي إلى ناووس البطل الأسطوري باندروسوس Pandrosos والثاني يؤدي إلى الناووس الغربي بينما يؤدي الثالث إلى خارج المعبد. يقف الجزء الشمالي برمته فوق قاعدة من ثلاث درجات، ويتميز هذا الجزء بباب يمتلئ بالزخارف النباتية الأيونية. يعدّ الجانب الجنوبي أروع أجزاء المعبد، وهو عبارة عن شرفة سقفها محمول على ستة تماثيل لفتيات متدثرات برداء كثيف يقفن على مرتفع صناعي ويحملن فوق رؤوسهن تيجانا محلاة بزخارف نباتية، تحمل فوقها العارضة الأيونية الثلاثية. سميت الفتيات الحاملات للسقف باسم Caryatides وهي تسمية تعني حاملات القرابين. أقيم الإفريز فوق العارضة من الحجر الإليوسي الأسود وألحقت به منحوتات من رخام ملون، يقوم فوق العارضة والإفريز سقف مسطح بارتفاع سقف الجانب الشمالي.

يزخر المعبد بأنواع مختلفة من الزخارف النباتية Anthemion فظهرت فيه زخرفة نبات الأكانثوس Acanthus وربما كان ذلك مقدمة لظهور الطراز الكورنثي. استُعمل البرونز المذهب في الحلزون وطُليت عيون الحلزون بالذهب، كذلك استعملت الزخارف الأيونية المعروفة مثل البيضة والسهم egg & dart والمسبحة Bead & reel، كما ظهرت المؤثرات الشرقية في زهرة اللوتس وسعف النخيل التي زخرفت بعض الأعمدة. تخلو بعض أعمدة الإرخثيون من انبعاجة وسط البدن Entasis، واستخدمت القواعد الأتيكية بطبيعة الحال.

فن النحت الأثيني

سبقت الإشارة إلى أن استخدام الحجر في البناء قد صاحبه البدء في نحت تماثيل ضخمة من الحجر أيضا. بدأ ظهور هذه التماثيل في منتصف القرن السابع، وهي الفترة التي يحدثنا فيها هيرودوت وغيره من المؤرخين القدامى عن الاتصال المتزايد بين الإغريق ومصر. ولا عجب في أن تظهر أقدم هذه التماثيل في إقليم أتيكا الذي كان الأسبق في التعامل التجاري مع مصر. كانت تلك التماثيل تصور شبانا يقفون الوقفة المصرية حيث القدم اليسرى متقدمة والأذرع محاذية للجسم والأيدي مطبقة، الكتفان عريضتان والخصر نحيل تماما كالتماثيل المصرية. عرفت هذه التماثيل بتماثيل الشبان (Kouroi) وسارت معها جنبا إلى جنب تماثيل الشابات (Kourai) الواقفات بملابس كاسية ووقفة أمامية مع ابتسامة مصطنعة عرفت بالابتسامة الأرخية نسبة إلى اسم العصر الذي أنتجت فيه. مع تماثيل جالسة لنسوة متدثرات يجلسن جلسة أمامية بلا حراك مثلهن مثل الملكات والنبيلات المصريات.

مازال بعض الغموض يكتنف الغرض من نحت تلك التماثيل، فبعضها كشف فوق الأكروبوليس الأثيني بما يفيد أنها كانت تمثل أربابا وربات عبدت فوق الهضبة المقدسة، أما ما ظهر من تلك التماثيل داخل الجبانات فيفسر على أنه تماثيل جنائزية تخلد ذكرى الموتى

المدفونين في المقابر. بصرف النظر عن الغرض أو الأغراض الحقيقية وراء تنفيذ هذه التماثيل، فإن ما نعرفه من خلال سجل المنحوتات المختلفة عند الإغريق عبر عصور حضارتهم أن فن النحت قد سُخِّر في بدايته لخدمة الأغراض الدينية، بدءا من تماثيل العبادة التي تقام للأرباب داخل ناووس في المعبد، إلى زخرفة خارج المعبد بمنحوتات بارزة على الواجهات المثلثة والأفاريز. صنعت التماثيل أيضا لتقدم كقرابين مهداة للأرباب، وفي هذه الحالة قد يمثل التمثال الرب أو يمثل العابد المهدي. إلى جانب ذلك ظهرت المنحوتات الجنائزية في صورة تماثيل المتوفين أو منحوتات بارزة على شواهد القبور. كانت هذه هي موضوعات فن النحت في بداياته، ثم يقدم لنا الفنانون الأثينيون أنماطا أخرى من المنحوتات التي تواكب ما شهدته مدينتهم من متغيرات سياسية وعسكرية عبروا عنها في المنحوتات التذكارية التي صنعت لتخليد ذكرى انتصار ما أو بمناسبة إبرام معاهدة بين أطراف نزاع وما إلى ذلك مما يمكن أن نسميه منحوتات تاريخية. وكان الفنان الأثيني سبّاقا للتفاعل مع المتغيرات الاجتماعية فعبر عما يدور في مجتمعه الذي كان يتطور بسرعة مذهلة، فقدم الفنان منحوتات تعبر عن الرياضيين الفائزين في المسابقات الرياضية المهمة. وإن كانت هذه الأخيرة ترتبط بالدين في أساسها، ذلك أن عبادة الإغريق لأربابهم في صورة البشر دفعتهم إلى السعي نحو تقديم أفضل صورة للبشر الذي يحاول التشبه بآلهته، فكانت الاحتفالات الدينية تصحبها مسابقات رياضية على شرف المعبود المخصص له الاحتفال، يكون فيها الفائزون هم الأقرب إلى أربابهم، فيخلدهم الفنانون في تماثيل تصورهم في هيئة مثالية. وقد صاحبت هذه المثالية فن النحت الإغريقي طوال عصوره. من جانب آخر كان المجتمع يشهد نموا مطردا ينمو معه الشعور بأهمية الفرد ودوره في المجتمع. ولعل هذا الشعور المتزايد بأهمية الفرد هو الذي أثمر بتطوره انطلاق الفنان الأثيني إلى التعبير عن مظاهر الحياة اليومية للناس بعيدا عن الإطار الأسطوري أو الديني الذي هيمن على فن النحت لفترات طويلة، فصورت النساء والأطفال والخدم في مشاهد حياتية بسيطة. ساعدت الأساطير الإغريقية الغزيرة والمتشابكة الفنان الأثيني على إشباع موهبته الروائية فأبدع مشاهد أسطورية منحوتة تقدم قدرا كبيرا من الفن الروائي في انسيابية وتناغم. وعلى الرغم من الرحلة الطويلة للفنان الأثيني نحو الواقعية والفردية فإن تجارب العصرين الأرخي والكلاسيكي ظلّت محاطة بفكر مثالي يكسو نتاجهما الفني بالمثالية، الأمر الذي أخَّر نضج فن الصور الشخصية بشكل واقعي حقيقي إلى ما بعد هذين العصرين ليصبح فنا هلّينستيا في تطوره ونموه وإن ظلت نشأته أثينية كما سنرى.

استلهمت البدايات إذن من مصر، ولكن في الوقت الذي كانت فيه الطبيعة المحافظة للحضارة المصرية سببا في استمساك الفن المصري بمعالمه الأولى والنزوع إلى استبقاء الطرز الأولية التي أصبحت رموزا للفكر المصري على اختلاف مراحله، أبت الطبيعة الثائرة المجربة

للفكر الإغريقي أن تبقى على ما تقدمه من أنماط فنية، وفي غضون مائة عام انطلق النحاتون الإغريق رحلة تطوير وتجربة للوصول إلى الشكل المتحرك الذي يحاكي واقع الإنسان بديناميكيته وأحاسيسه.

تتمثل بداية الانطلاقة للخروج من نمط الكوروي والكوراي في تمثال حامل العجل الذي صنع في أثينا في نحو 575 - 550 والذي تظهر فيه معالم تماثيل الشبان الأساسية مع ظهور العجل محمولا على الكتفين من خلف فيظهر رأسه وأقدامه أمامية على جانبي رأس الشاب.

في النصف الثاني من القرن السادس بدأت محاولات دمج التقاليد القديمة مع التوجه نحو الواقعية تؤتي ثمارها، فظهرت تماثيل رشيقة ومتحركة بدأ فيها الفنان يعبر عن العضلات ونحت الركبة والقفص الصدري في إطار الوقفة والابتسامة والتقسيم التقليدي لجسم الشاب. وفي تماثيل الشابات اهتم النحّات شابة البيبلوس من الأكروبوليس الأثيني بتوضيح تعبيرات الوجه والتمييز بين ثيات الجلباب (الخيتون Chiton) الناعمة والعباءة (الهيماتيون Hymation) الكثيفة. وقد انعكس هذا التطور على تماثيل الربات الجالسات، التي كان من بينها التمثال الذي نحته الأثيني إندويوس (525 - 500) Endoios للربة أثينا والذي أقيم على الأكروبوليس. كما ظهر هذا التطور جليًا في تمثال ربة النصر نيكي Nike الطائرة الذي أهداها إيّاه الأثينيون بعد انتصارهم في موقعة ماراثون الشهيرة والذي يمثل علامة في تطور نحت الأشكال الطائرة بما قدمه من ثنيات متمايلة للملابس ورشاقة في الجسم وتعبير عن الحركة.

ويمكن القول بأن العصر الأرخي قد شهد محاولات متتابعة من النحاتين للخروج عن نمطية تماثيل الشبان والشابات بإضفاء شيء من الحركة وتعبيرات الوجوه والتمييز بين ثنيات أنواع الملابس المختلفة، أما محاولة توزيع ثقل الجسم على الأجزاء المختلفة من الكتلة الحجرية فقد ظلت محدودة بالوقفة الثابتة والأكتاف الأمامية. في الربع الأول من القرن الخامس بدا أن النحات قد اكتملت معرفته بطبيعة الجسم البشري وحركته، الأمر الذي بدأ يمارسه في الربع الثاني من القرن نفسه في تشكيلات جديدة ممتلئة بالحركة التي امتدت إلى جسم التمثال بأكمله، والمشاعر الواضحة في ملامح الوجوه، وفي التكوينات المتجانسة والانسيابية في حركة ثنيات الثياب. ورغم ذلك ظلت المنحوتات مكسوة بمسحة من الهيبة والثبات الفكري فظلت بعيدة عن الحقيقة رغم محاولات محاكاة الطبيعة. ويظهر الخروج عن السيمترية الأرخية التي أصرت على مبدأ التماثل بين نصفي الجسم، في عديد من أمثلة النصف الأول من القرن الخامس مثل تمثال المعبود أبولّون في أثينا المعروف بأبولّون أومفالوس حيث التوازن المتكامل والثقل المحمول على إحدى القدمين مع الاحتفاظ بهيبة وصلابة المعبود المصور.

أما تمثالا قاتلي الطغاة Tyrranicides فيقدمان مثالا واضحا على تفاعل المجتمع مع المتغيرات السياسية للمدينة ودور الفنان في تعزيز الفكر الجديد. ولهذين التمثالين قصة

طريقة، فبعد موت بيسستراتوس تولى ولداه هيبياس Hypeas وهيبارخوس Hyparchos الحكم، وقد بدا للأثينيين ميل هذين الأخوين إلى الطغيان والتعسف وقرروا التخلص منهما فقتلهما الأخوان هارموديوس Harmodios وأريستيجيتون Aristogeton، فجعل المجتمع من الأخيرين بطلين قوميين. نحت المثّال الأثيني أنتينور Antinor تمثالين للبطلين وأقيما متجاورين على الأكروبوليس، وحين سطا عليهما الفرس أثناء الغزو (480 - 479) قام المثّالان كريتيوس Kritios ونسيوتس Nesiotos بنحت تمثالين آخرين في 477 - 476. لم يكن هذان التمثالان فقط يمثلان رمزا لغلبة الإرادة الشعبية الأثينية على الطغيان بل كانا أيضا يمثلان مرحلة تطور خاصة في فن النحت اليوناني، فقد جمع التمثالان بين القدرة الجديدة لدى الفنان الأثيني على تحريك الجسم البشري بشكل متوازن مع التعبير عن القوة والجرأة والإقدام والعزيمة التي تبدو واضحة في أسلوب نحت الجسمين، وفي التعبيرات الواضحة في ملامح الوجهين. لذا فلا عجب في أن يمثل هذان التمثالان نهاية عصر فني وبداية عصر جديد، نهاية العصر المبكر أو الأرخي وبداية العصر الكلاسيكي.

بعد انتهاء الحروب الفارسية بدأت أثينا فترة من النقاهة والانتعاش وبدأت توظف مواردها المتعددة نحو مرحلة جديدة من الزعامة السياسية والعسكرية للعالم اليوناني، إلى جانب ما كان قد استقرّ لها من زعامة ثقافية. وحين تولى الزعيم الديموقراطي بركليس الحكم في أثينا (449 - 429)، وضع خطة مكثفة لإعادة بناء الأكروبوليس بمعابد ومحاريب وأبهاء تحل محل ما دمرته الحرب. صاحب ذلك طفرة في النحت قامت على أكتاف مجموعة من الفنانين الموهوبين ذوي الملامح الإبداعية الجديدة. كان على رأس هؤلاء النحات فيدياس Pheidias الذي كلفه بركليس بالإشراف على الأعمال الفنية التي تتم فوق كل الأكروبوليس. وقد نفذ مشروع بركليس الضخم في سنوات قليلة وقدم فيه المعماريون والنحاتون الأثينيون أروع نتاج فني عرفته بلاد الإغريق قاطبة. كانت منحوتات البارثنون تشغل جميع الأجزاء الظاهرة في البناء، فعلى الواجهة المثلثة الغربية صورت أسطورة الصراع بين أثينا وبوسيدون Poseidon على الهيمنة على أرض أتيكا، بينما صورت على الواجهة الشرقية أسطورة مولد أثينا ربة الحكمة من رأس زيوس Zeus كبير أرباب الأوليمبوس، وتجدر الإشارة إلى أن منحوتات هذه الواجهة قدمت لأول مرة أشكالا كاملة في الأركان الضيقة للمثلث وكانت لهليوس Helios رب الشمس وسيليني Selene ربة القمر. على الإفريز الأيوني المستمر في داخل المعبد صور موكب أعياد الباناثايا الذي خلا من النمطية والجمود الأرخي حيث أدمجت الأشكال المتحركة والهادئة في حيوية غير مسبوقة. على اللوحات الفاصلة للإفريز الدوري في خارج المعبد نحتت صراعات أسطورية متعددة كالصراع بين اللابيث Lapithoi والكنتاوري Kentauri، صراع الآلهة والعمالقة، صراع الإغريق والأمازونات Amazonai، كما صورت أسطورة سقوط

طروادة. ولا يغيب عن فطنة قارئ هذا المقال أن تصوير تلك الصراعات التي ترمز في الفكر الديني الإغريقي إلى الصراع الأبدي بين الخير والشر الذي لابد وأن ينتهي بغلبة الخير ولو بعد حين، كان يحمل رسالة لوفود الإغريق المشاركة في أعياد الباناثايا إلى أن انتصار أثينا في صراعها ضد الفرس إنما هو انتصار الخير على الشر وهو ما يخوّل لقوة الخير - أثينا - حق الزعامة بين دويلات المدن اليونانية، وهو الأمر الذي سعت إليه أثينا بعيد الحرب، وهو أيضا ما تسبب في الحرب الضروس التي عرفت في التاريخ بالحروب البلوبونيسية.

هكذا حملت منحوتات البارثنون رسالة سياسية مفهومة في إطار ديني أسطوري، أما من ناحية الطراز الفني للمنحوتات، فمن المؤكد أن فيدياس، وإن لم يكن هو منفذها بيديه، فإنه كان ولا ريب مصممها والمشرف على تنفيذها. هذا فضلا على أن الفنانين الذين قاموا بالعمل كانوا أبناء مدرسته الفنية ينفذون نصائحه ويعملون بتوجيهاته. فقدت مع الأسف جميع الأعمال الأخرى الفردية التي نحتها فيدياس وحدثنا عنها الكتاب القدامى بقدر كبير من الإعجاب، ولم يبق منها سوى بعض النسخ الرومانية وصور لها سكت على العملة والأحجار الكريمة بما يفيد أنها كانت علامات على عصرها ولا شك. كان لفيدياس ملامح خاصة من حيث المسلك الهادئ لتماثيله، التعبيرات الراقية للوجوه، ومفهوم الجلال والمهابة، بالإضافة إلى العمق والواقعية التي ظهرت في حركة الجسم وثنيات الملابس مع تقديم ذلك كله بدرجة عالية من الإتقان.

كان بركليس الزعيم الأعظم الذي عرفته أثينا في تاريخها القديم من دون منازع، ولا شك في أنه كان صاحب التأثير الأعمق في نفوس الأثينيين عامة والفنانين منهم خاصة، وربما كان أقدم الزعماء الذين يقرر الأثينيون إقامة صورة شخصية منحوتة له فوق الأكروبوليس ذي القداسة الخاصة، وقد نحت تمثال بركليس النحّات كرسيلاس Kresilas في العام 440، وهو التمثال النصفي الذي عرفنا نسخة رومانية له محفوظة حاليا في متحف الفاتيكان. يُظهر التمثال صاحبه مثاليا إلى حد بعيد، فقد كان كريسيلاس ينقل فكرة المجتمع عن الرجل بصرف النظر عن حقيقة ملامحه. والحقيقة أن تمثال بركليس هذا لم يكن الأقدم في سجل الصور الشخصية الأثينية، فقد ظهرت من قبل بضع محاولات لتصوير رجال الدولة والزعماء مثل تمثال تيموستوكليس Timostokles الذي نحت قبل بركليس ربما بأكثر من عقدين، وكان أيضا صورة مثالية للزعيم وليس صورة حقيقية له على الإطلاق. وعلى الرغم من محاولات النحّاتين الأثينيين، تقديم صور شخصية لرجال الفكر والإبداع خلال القرن الرابع كتماثيل سوفوكليس Sophokles، يوريبيديس Euripides، أفلاطون Plato وسقراط Sokrates، فإن المثالية التي هيمنت على فن النحت الكلاسيكي حتى في أكثر مراحله نضجا، ألا وهو القرن الرابع، قد أخرت فن الصور الشخصية الواقعية إلى ما بعد زمن الإسكندر المقدوني.

كانت المعاناة التي واجهها الأثينيون في الحروب البلوبونيسية سببا في ظهور فكر جديد أثراه شعراء وفلاسفة القرن الرابع. وقد أثمر ذلك الفكر الجديد اهتماما بالفرد ومعاناته ومشاعره الخاصة. انعكس الفكر الجديد بطبيعة الحال على النتاج الفني الأثيني للقرن الرابع فظهرت أعمال تعبر عن المشاعر الإنسانية بتنوعها وتفردها، وعرف الفن الإغريقي لأول مرة وجوها ناعمة حالمة، وأخرى حزينة واجمة وغير ذلك من العواطف والأحاسيس البشرية، وظهرت ملابس التماثيل أقرب إلى الطبيعة من دون مبالغات في شفافيتها أو كثافتها. ورغم اقتراب الفنان من الفرد ومشاعره الخاصة لم ينعزل عن مجريات أحداث وطنه بل طوّع قدراته ومعارفه الجديدة للتعبير عن هذا الوطن ولمواكبة مجريات الأحداث الجسام التي كان يمر بها، خصوصا أن الحروب البلوبونيسية كانت حينئذ حامية الوطيس. تمثلت الاتجاهات الجديدة للقرن الرابع في تمثال صنعه النحّات كفيسودوتوس Kephisodotos عقب انتصار أثينا على إسبرطة في 375، يصور تشخيص السلام أيريني Eirene تحمل طفلها بلوتوس Ploutos الذي يشخص الثروة. ولا يخفى ما لهذين التشخيصين من دلالة في زمن تأتي فيه الحروب على الأخضر واليابس، وعلى الرغم من بقايا الجلال والهيبة الظاهرة في وقفة المرأة وثنيات ملابسها والتي يقابلها عبثية الطفل العاري، فإن دفء المشاعر وحميمية العلاقة بين الطفل والمرأة لا يمكن أن تخطئهما العين. وضع كفيسودوتوس ملامح فن جديد شهدت عليه بضعة تماثيل أخرى اعتُقد أنه كان صانعها، ثم أتى من بعده براكسيتيليس Praxiteles الذي بدأ على نهج سلفه فقدم تمثال هرميس Hermes يحمل الطفل ديونيسوس Dionysos ولكنه وضع فيه ملامح شخصيته الفنية المتفردة. تميزت أعماله بالانسيابية والليونة والسطوح المصقولة، ووضحت في أعماله قدرة النحّات على التحكم في وزن المرمر في انحناءة الجسم البراكسيتيلية الشهيرة. وقد اكتملت مسيرة التطوير التي قادها براكسيتيليس بعد أن استجاب لطلب جزيرة كنيدوس Knidos بصنع تمثال العبادة لإلهة الجزيرة الحامية أفروديت Aphro-dite ربة الحب والجمال، فصنع الفنان تمثالا أصبح رمزا للجمال الأنثوي إلى وقتنا هذا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقدم فيها تمثال لربة عارية.

الفخار الأثيني

هكذا رأينا كيف كان لأثينا قصب السبق في الابتكار والتطوير في مجالي العمارة والنحت، وهما الفنان اللذان يشكلان معالم الوجه الحضاري للأمم قديمها وحديثها. كانت المدن اليونانية الأخرى، على الرغم من النزعة الانفصالية التي صاحبت تاريخ اليونان القديم في كثير من مراحله، تأخذ عن المعماريين والنحّاتين الأتيكيين خلاصة ما توصلوا إليه من ابتكار أو تجديد، ثم تضيف إليه أو تجدد فيه ما شاء لها أن تضيف أو تجدد. وأصبح تاريخ العمارة والنحت الأثينيين تاريخا

للعمارة والنحت في حضارة اليونان بوجه عام. أما في مجال صناعة الفخار وزخرفته فقد كانت أثينا حاملة لوائه وصاحبته إلى حد الاحتكار. لقد استطاع الفنانون الأتيكيون أن يجعلوا من صناعة الأواني الفخارية فنا يبدعون فيه، سواء من حيث تقنيات الصناعة أو من حيث الرسوم الزخرفية التي كست جدران الأواني. راحوا يقدمون فيه فكر دولتهم الديني والسياسي ويعبرون فيه عن قدراتهم الإبداعية، ويحوِّلون من خلاله الفن الروائي والتراث الأسطوري إلى مشاهد مرئية يتفاعل معها الناس بصفة يومية.

بدأت صناعة ورسم الفخار في العصر الهندسي أو الجيومتري (1000 - 700) بأوان جنائزية ضخمة، رسمت عليها شرائط من زخارف هندسية بطبيعة الحال مع ظهور لوحات على بطون الأواني تصور المتوفى ممددا على لوح ومن حوله الناحبون، ثم ظهرت مشاهد أخرى تعبر عن خروج الأثينيين للتجارة البحرية، فصورت السفن والمغامرات البحرية للأبطال الأسطوريين أمثال أوديسيوس Odysseos ورفاقه. ولما كانت أشكال الأشخاص في تلك الفترة البدائية لا تعبر عن أصحابها، فقد لجأ الرسامون في أواخر العصر الهندسي (الربع الثالث من القرن الثامن) إلى نقش اسم الشخص المصور بالقرب من صورته، وصاحبت هذه النقوش رسومَ الأواني لفترات طويلة بعد ذلك، الأمر الذي ساعد المحدثون على التعرف على كثيرٍ من الروايات الأسطورية المصورة.

رأينا سالفا ما كان للتجارة الأثينية مع الحضارات الشرقية من تأثير واضح في مجالي العمارة والنحت اللذين كان لمصر فيهما التأثير الأكبر. أما حضارات بلاد النهرين وسورية وفينيقيا فقد ظهر تأثيرها الحقيقي في رسوم الفخار الأثينية التي بدأت تستعير أشكال الحيوانات البرية والخرافية لتزخرف بها أوانيها الكبيرة. في منتصف القرن السادس ابتكر الأثينيون تقنية جديدة في رسم الأواني استعاضوا فيها عن الحزوز التي تحدد الصورة برسم الصورة مباشرة وقبل حرق الإناء بلون أسود فتزداد الصورة سوادا بعد الحرق وتبقى خلفيتها حمراء بلون الطين المحروق، وأحيانا كانت تضاف على الرسم بعض التفاصيل بلون أبيض أو أحمر. كان ذلك هو طراز الصورة السوداء الذي تربع على عرش رسوم الفخار زمنا طويلا، إلى أن قدمت أثينا في نحو 530 تقنية أخرى ترسم فيها حدود الصورة بالفرشاة بلون أسود وتطلى الأجزاء الخالية من الرسم جميعا باللون الأسود، وبعد الحرق تبقى الصورة حمراء بلون الطين المحروق بينما الخلفية سوداء، عرف هذا الطراز بالصورة الحمراء والذي بدأ يتطور وينتشر على حساب الصورة السوداء، ويصبح هو المفضل لدى الرسامين إلى آخر مراحل تطور هذا الفن.

في الربع الأول من القرن السادس بدأت الروايات الأسطورية تتسيَّد رسوم الأواني جنبا إلى جنب مع مشاهد ذات طابع روائي أيضا من الحياة اليومية للأثينيين. وقد ظهرت هذه الرسوم

الأثينية في أماكن متفرقة من العالم اليوناني بما يوضح رواجا كبيرا لتجارة الأواني الأتيكية المرسومة، وهو الأمر الذي استمر إلى نهاية عصور الفن الهليني.

في منتصف القرن الخامس أخذت المشاهد الأسطورية ومناظر الحياة اليومية تستقر وتتنوع وتصبح بمنزلة اللوحة الرئيسة على الإناء، تحيط بها من أعلى ومن أسفل أشرطة من زخارف متنوعة تشغل المساحات المتبقية من بطن الإناء، فوهته، رقبته، كتفيه ويديه. رسمت هذه المساحات بدوافع زخرفية وأنماط بعينها مثّلت علامات في الفن اليوناني حين استخدمها المعماريون كحليات معمارية تميز منشآتهم العامة، من ذلك كانت زخرفة المتاهة (مياندر Meander) والمسبحة Bead & reel، الأسنان، اللسان والأشكال النباتية وخصوصا تلك الشرقية منها كزهرة اللوتس وسعف النخيل. أما اللوحات الرئيسة للأواني فقد قدمت لنا معينا دفّاقا من الأساطير يكمل ما فُقد من كتابات الأدباء، ويقدم رؤية الفنان التشكيلي للأسطورة التي قد تختلف في بعض تفاصيلها عن رؤية الأديب. أما معلوماتنا عن الحياة اليومية فلا مراء أن رسوم الفخار تعدّ مصدرا أساسيا لها.

ظلت الرسوم إلى منتصف القرن السادس تصور الأشخاص بجذوع أمامية وأطراف جانبية، وأيضا عيون أمامية في وجوه جانبية. لم يكن الرسامون بعد بالقادرين على التعبير عن العمق أو المنظور أو عن الشكل الحقيقي للإنسان أو حتى الجمال. ولم يكن رسامو الفخار في ذلك مختلفين عن نظرائهم النحّاتين، فقد رأينا كيف كانت تماثيل العصر الأرخي (الكوروي والكوراي) بوقفاتها الثابتة وملامحها الجامدة تضفي مظهرا بدائيا على فنون العصر. ومع محاولات الفنانين المثابرة انطلق النحاتون في تطويرها إلى أن وصلوا بفن النحت آفاقا بعيدة. كذلك كان رسامو الفخار يحاولون تطوير رسومهم بغية الوصول إلى مشاهد واقعية معبِّرة. مع ابتكار طراز الصورة الحمراء بدأت رسوم الأشخاص تظهر استدارة في الجزء العلوي من الجسم مع استخدام ألوان إضافية لثنيات الملابس، وزاد إحساس الفنان بالمساحة والعمق فتعددت مستويات الرسم في المشهد الواحد كأن يصور شخص وراء آخر أو أبعد منه. في النصف الثاني من القرن الخامس عرف الفنان تصوير الأبعاد والأعماق فظهر الأشخاص بوقفات جانبية تامة وخطوط لينة في حركة أجزاء الجسم وثنيات الملابس التي تتحرك في كل اتجاه.

تم هذا التطور بمراحله المختلفة على يد صنّاع وفنانين عرفنا بعضا منهم بأسمائهم التي نقشوها على الأواني، وعرفنا آخرين من خلال طرز فنية بعينها تعبر عن موهبة وملامح فنية واحدة. في العصر الأرخي لمع اسم سوفيلوس Sophilos الذي كان أول من استخدم المنظور للتعبير عن الجموع الغفيرة التي تشهد المسابقات الرياضية. وكان كليتياس Kleitias صاحب أكثر الأواني الأثينية شهرة، وهو الإناء المعروف باسم إناء فرانسوا François Vase نسبة إلى

اسم مكتشفه. صنع إرجوتيموس Ergotimos الإناء ورسمه كليتياس في الربع الثاني من القرن السادس بطراز الصورة السوداء، صوَّر فيه أساطير مختلفة مرتبة في ستة صفوف متوازية على بطن الإناء. اشتملت أهم هذه المشاهد على حفل زفاف بليوس Peleus وثيتيس Thetis، ومَقْدِم الأرباب والربات لحضور ذلك الحفل الذي كان سببا في نشوب أعنف وأقسى حرب عرفها العالم القديم ألا وهي حرب طروادة. رسمت أيضا أسطورة رقصة الشبان والشابات ابتهاجا واحتفالا بالبطل ثسيوس Theseos الذي أنقذهم من براثن المينوتاور Minotauros، أسطورة صيد هيراكليس للخنزير الكاليدوني المتوحش، سباق العربات في الألعاب الجنائزية على شرف باتروكلوس Patroclos الأثير عند البطل أخيل Achilles، عودة هيفايستوس Hyphaestos رب الصناعة والحدادة إلى جبل أوليمبوس بعد لأْي، أياكس Ajax يحمل أخيل ميّتا، آرتميس Artemis سيدة البريّة وحيوانات ووحوش وأقزام. هكذا بدا إناء فرانسوا وكأنه معجم للأسماء والأشكال والأحداث، استطاع رسامه الفذ كليتياس أن يجمعها ويعبر عنها بأسلوب روائي يتسم بالسلاسة والبساطة قرَّبت عالم الأرباب والأبطال إلى عالم البشر وإلى مشاعر البشر.

في أواخر عصر بيسستراتوس ظهر طراز الصورة الحمراء كما سبقت الإشارة، واشتهر رسامون جدد، أمثال أندوكيديس Andokides، برعوا في تقديم رسوم متقنة التنفيذ وعالية التأثير في المجتمع، ولكنها ظلّت رسوما ثنائية الأبعاد صلبة تشبه تماثيل الكوروي تفتقر إلى العمق والحركة والسلاسة، وهي الخصائص التي لم تتحقق قبل استقرار طراز الصورة الحمراء، الأمر الذي حدث مع سقوط حكم الطغاة وبدء إصلاحات كليسثينيس Kleisthenes وبداية الديموقراطية الأثينية. بدأت رسوم الفخار تأخذ بعدا ثالثا على يد الفنانَين يوفرونيوس Euphronios وزميله يوثيميديس Euthymides، ثم تعزز البعد الثالث بالإنتاج الغزير الذي قدمه ماكرون Makron والذي أبدع فيه تكوينات متوافقة مشفوعة بعناصر من البيئة المحيطة. ويأتي بعد ذلك الفنان دوريس Douris وإبيكتيتوس Epiktetos وغيرهما. وقد لجأ المحدثون إلى إطلاق أسماء حديثة على الرسامين مجهولي الأسماء على أساس من وضوح في اتجاهاتهم الفنية التي تعبر عن شخصياتهم. وكان من بين أشهر هؤلاء رسام برلين الذي يعزى إليه تقديم شخصيات رشيقة بخطوط انسيابية مع الاهتمام بتفاصيل أجسام البشر.

كما كان عصر بركليس عصر بناء وتطوير شامل في فني العمارة والنحت، كان أيضا عصر الحرية والنضج لرسوم الفخار. قدم لنا فخار تلك الفترة صورة مصغرة للرسوم الجدارية التي فقدت جميعا مع الأسف. لقد امتلأت المشاهد المرسومة على سطوح الأواني بالحيوية والعمق. ثم أضاف الفنانون المعاصرون للحروب البلوبونيسية على تلك الحيوية وذلك العمق دفقا من المشاعر والأحاسيس الإنسانية التي توافقت مع الفكر الجديد الذي ساد في أواخر القرن

الخامس وبداية الرابع. أما في القرن الرابع فقد تراجعت الرسوم التقليدية للفخار أمام موجة جديدة من أوان زخرفت بمناظر بارزة مشكلة من الطين تمتلئ بالزخرف والألوان وتبتعد عن الشرائط التقليدية المرسومة بالمشاهد الأسطورية أو الجنائزية.

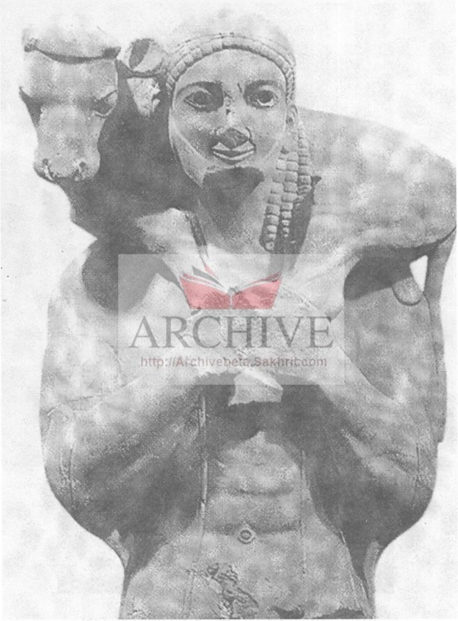
كانت هذه الموجة هي بداية النهاية لفن رسم الفخار ليفسح المجال أمام الأواني ذات الزخارف البارزة من الفخار أو من المعدن أو من المادة الجديدة التي بدأ العالم القديم يعرفها ويصنعها ألا وهي الزجاج. لم تكن تلك النهاية نهاية لنوع من الفنون أو لمرحلة من مراحل الحضارة الهلينية التي تربعت على عرشها مدينة أثينا فقط، بل كانت نهاية للفن الهليني الذي اندمج في فنون غير هلينية شرقية وغربية، شمالية وجنوبية، فيما سمي بالفن الهلينستي.



معبد الإرخثيون



جانب من منحوتات الإفريز الأيوني المستمر داخل البارثنون، وقد نقل اللورد إلجن البريطاني معظم منحوتات البارثنون إلى المتحف البريطاني حيث تعرض الآن تحت اسمه Elgin Marbles



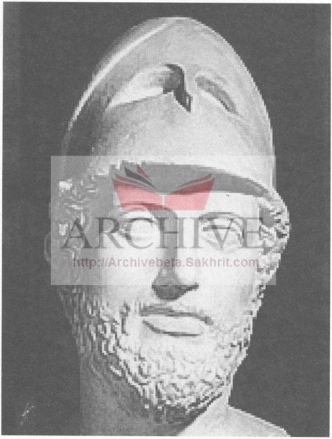
تمثال حامل العجل من الأكروبوليس الأثيني يرجع إلى نحو 575 - 550



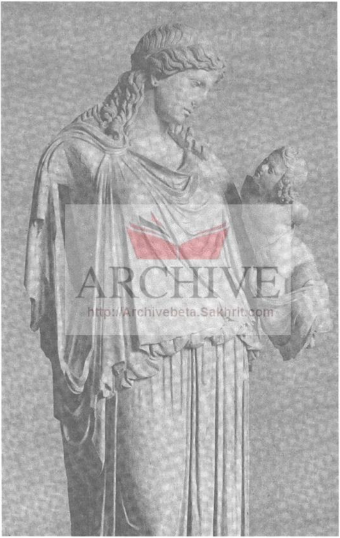
إحدى شابات العصر الأرخي 540 - 530 فوق الأكروبوليس الأثيني
عرفت باسم شابة البيبلوس Peplos، نسبة إلى نوع الرداء الذي تتدثر به



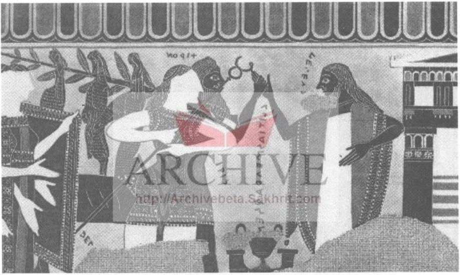
معبد البارثنون



رأس بركليس كما نحتها كريسيلاس الأثيني في العام 440 تقريبا،
وهذه نسخة رومانية محفوظة بمتحف الفاتيكان



نسخة رومانية من تمثال أيريني تحمل بلوتوس
للنحات كفيسودوتوس محفوظة بمتحف ميونخ



جانب من مشاهد أسطورية مرسومة على إناء فرانسوا يصور بليوس ليلة عرسه على ثيتيس، وهو يقف أمام قصره ليستقبل الأرباب المدعوين إلى الحفل. الإناء رسمه الفنان الأثيني كليتياس في العام 570 تقريبا، وهو محفوظ بمتحف فلورنسا.

آفاق معرفية

- الفساد : دراسة في الأسباب والآثار الاقتصادية
- الهوية الوطنية والتلفزيون : عشر أطروحات لتطليق المسلسلات

عالم الفكر
العدد 2 المجلد 38 أكتوبر - ديسمبر 2009

الفساد : دراسة في الأسباب والآثار الاقتصادية

د. كمال أمين الوصّال (*)

١ - مقدمة

لم يكن الرئيس السابق للبنك الدولي J. Wolfensohn يدري، حينما أعلن في عام 1996 أن مكافحة الفساد هي أحد الأهداف الرئيسية للبنك الدولي، أن خلفه سيضطر إلى التخلي عن منصبه بعد عشر سنوات إثر تورطه في فضيحة «فساد»، ويعكس هذا ضمن ما يعكس أنه حتى المنظمات التي تستهدف محاربة الفساد ليست محصنة ضده.

الفساد ليس بالظاهرة الجديدة على المجتمع الإنساني، فقد عانت المجتمعات القديمة الفساد كما تعانيه الآن المجتمعات الحديثة، فمنذ ما يقرب من 2500 عام أشارت إحدى المخطوطات الهندية إلى أثر الفساد في الإدارة الاقتصادية، وناشد كاتبها الحاكم أن يعمل على محاربة هذه الآفة. وفي العصور الوسطى أدرك المفكر الإيطالي دانتي Dante الآثار السلبية للفساد، ورأى أن المكان الطبيعي للفاسدين والراشين هو الدرك الأسفل من النار، وكذلك كان الفساد حاضرا في كثير من أعمال الأديب الإنجليزي وليم شكسبير Sakespear. وفي العصر الحديث نص الدستور الأمريكي صراحة على أن الرشوة هي إحدى جريمتين تبرران عزل الرئيس الأمريكي من منصبه [1].

وربما يعكس هذا الاهتمام بظاهرة الفساد إدراك المفكرين القدماء ما لم يدركه المفكرون المعاصرون من الآثار الخطيرة لهذه الظاهرة. وحتى وقت قصير لم تثر ظاهرة الفساد سوى

(*) مدير إدارة الدراسات الاقتصادية والمالية في الدائرة المالية بحكومة دبي - الإمارات العربية المتحدة.

قلة من الباحثين، ومن ثم ظلت أسئلة مثل: ما هي أسباب الفساد؟ كيف يؤثر الفساد في الأداء الاقتصادي؟ وغيرهما دون إجابة واضحة.

وعلى الرغم من أن الفساد كان ومازال جزءا لايتجزأ من الحياة الاقتصادية والسياسية في كثير من الدول إن لم يكن معظمها، سواء أكانت متخلفة أم متقدمة، فإن بعض الدراسات تشير إلى تنامي ظاهرة الفساد في السنوات الأخيرة وتعدد صورها، من رشوة موظفي الحكومة إلى إساءة استخدام الأموال العامة أو تبديدها واستغلال النفوذ السياسي لتحقيق منافع خاصة.

وحتى بداية الثمانينيات من القرن الماضي كانت معظم الدراسات التي تتناول ظاهرة الفساد تبحث في الجوانب الاجتماعية والثقافية والسياسية لها، وغاب عنها تقريبا التحليل الاقتصادي للظاهرة. وفي هذا الصدد، يرى (Tanzi,1995a) [2] أن دراسة «اقتصاديات» الفساد لم تلق الاهتمام الكافي من قبل الاقتصاديين الذين تجاهلوا الآثار المحتملة للفساد في المتغيرات الاقتصادية الكلية، مثل إجمالي الناتج المحلي وحجم الاستثمارات، وكذلك في عملية صنع القرارات والسياسات الاقتصادية، وفي هذا الخصوص تشير بعض الدراسات إلى أن بعض حكام الدول النامية يوجهون السياسات الاقتصادية الوجهة التي تمكنهم من استغلال الموارد الاقتصادية في بلادهم لتحقيق منافع خاصة، ما يؤدي إلى إعادة توزيع الدخل لمصلحة الطبقة الحاكمة على حساب بقية السكان، الأمر الذي يؤثر سلبا في إمكانات النمو المستقبلية لهذه البلاد.

ويرجع تأخر الاقتصاديين في الاهتمام بظاهرة الفساد إلى سببين رئيسيين:

الأول: عدم وجود اتفاق عام بين الباحثين على المقصود بـ «الفساد»، ويرجع ذلك إلى أن مصطلح «الفساد» يستخدم للإشارة إلى دائرة واسعة من الأنشطة والممارسات التي تتراوح بين الأشكال البسيطة لإساءة استخدام السلطة العامة من قبل صغار موظفي الحكومة وقيام بعض القادة السياسيين بالاستيلاء على أو استغلال الموارد الاقتصادية لبلادهم لتحقيق منافع خاصة، الأمر الذي يجعل من «الفساد» مصطلحا فضفاضا يصعب على الباحثين تحليل الجوانب الاقتصادية له.

الثاني: صعوبة استخدام النماذج الاقتصادية لتحليل ودراسة الأسباب والآثار الاقتصادية لظاهرة الفساد. غير أن الآثار الاقتصادية السلبية لظاهرة الفساد التي أعاقت عملية التنمية الاقتصادية في كثير من دول العالم، والتي باتت واضحة للعيان، لم تترك للاقتصاديين خيارا، ودفعتهم إلى تناول هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل.

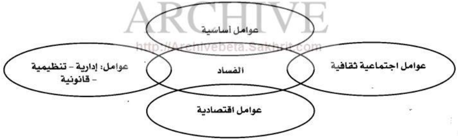
وتسعى هذه الدراسة إلى التعريف بالجوانب الاقتصادية لظاهرة الفساد من حيث الأسباب والآثار، وقد رؤي تقسيم الدراسة إلى ستة أقسام، يتناول الجزء الثاني التعريف بالفساد وأشكاله ويعرض الجزء الثالث لأهم المحاولات لقياس الفساد، أما الجزء الرابع فقد خُصص

لتحليل الأسباب الاقتصادية للفساد، مع الإشارة إلى الأسباب غير الاقتصادية التي تؤثر في مستوى الفساد في المجتمع، أما الجزء الخامس فيناقش أهم الآثار الاقتصادية للفساد، وتُختتم الدراسة بالخلاصة وبعض التوصيات.

2 - التعريف بالفساد وأشكاله

يرى بعض المحللين أن الفساد هو ظاهرة «اقتصادية» ذات أبعاد اجتماعية - ثقافية، بينما يرى البعض الآخر أن الفساد ظاهرة «اجتماعية» ذات أبعاد «اقتصادية»، ويرى فريق ثالث أنه لا يمكن إغفال البعد السياسي في تحليل ظاهرة مثل ظاهرة الفساد. والحقيقة أن ما من ظاهرة تداخلت فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية مثل ظاهرة الفساد. وتسعى السطور التالية إلى الاقتراب أكثر من هذه الظاهرة، وذلك من خلال عرض أهم تعريفات الفساد ثم يلي ذلك عرض مختصر لأهم أشكال الفساد.

الشكل (1)



2 - 1 - التعريف بالفساد

إن الطبيعة المعقدة لظاهرة الفساد جعلت مهمة تقديم تعريف للفساد مهمة غير يسيرة، ذلك أن العوامل التي تؤدي إلى تنامي هذه الظاهرة، والأشكال التي يتخذها الفساد تختلف باختلاف الإطار الاقتصادي - الاجتماعي - السياسي الذي يوجد فيه، وقد دفع هذا كثيرا من الباحثين، الذين درسوا الجوانب المختلفة لظاهرة الفساد، إلى تجنب القيام بتعريف الفساد، غير أن دواعي التحليل العلمي تتطلب ضرورة تعريف هذه الظاهرة، ليس فقط تلبية لمقتضيات الدراسة المنهجية، ولكن أيضا لأن التوصيف الدقيق لهذه الظاهرة يساعد على فهم الخصائص الأساسية لها، ومن ثم بحث الوسائل والسياسات الملائمة لعلاجها.

وعند تعريف الفساد ربما قد يكون من المفيد العودة إلى الوراء والتعرف على مساهمة أحد أشهر الفلاسفة الأغريق وربما أكثرهم تأثيرا في الفكر الغربي. وفي هذا الصدد، يرى أرسطو [3] أن هناك ثلاثة أنواع رئيسة للإدارة:

- إدارة الفرد لشؤونه.
- إدارة رب العائلة لشؤون رعاياه.
- إدارة الدولة (الطبقة الحاكمة) لشؤون رعاياها.

ويمضي أرسطو في تحليله موضحا أن لكل نوع من أنواع الإدارة الثلاثة هذه صور الفساد الخاصة به، فإدارة الفرد لشؤونه تتسم بالفساد إذا ما استسلم الفرد وأطلق العنان لرغباته وأصبح عبدا لنزواته، إذ غالبا ما يدفعه هذا إلى التعدي على حقوق الآخرين والتورط في ممارسات لاأخلاقية وكذلك قد يشوب إدارة العائلة الفساد إذا قام رب هذه العائلة - يفترض أرسطو أن يكون رجلا - باستغلال نفوذه لإشباع احتياجاته الخاصة من دون أن يعبأ بمصالح العائلة ككل ويلبي احتياجاتها. وبالمنطق نفسه يصيب الفساد إدارة الدولة إذا ما قامت الطبقة الحاكمة باستغلال سلطاتها لتحقيق مصالحها الخاصة أو لتحقيق مصالح فئة معينة من فئات الشعب على حساب الفئات الأخرى، ولم تعمل لتحقيق مصالح جميع فئات الشعب.

ويلاحظ أن مفهوم أرسطو للفساد يتعدى فكرة استغلال السلطة العامة لتحقيق مصالح خاصة، فالفرد ليس سلطة عامة والعائلة لا تمثل سلطة عامة، ومن ثم فإنه وفقا لأرسطو فإن الفساد قد يوجد عندما يساء استغلال أي سلطة، سواء كانت سلطة الفرد على «نفسه» أو سلطة رب الأسرة على أفراد الأسرة، وكذلك إذا ما أساءت الطبقة الحاكمة استخدام السلطة السياسية [4].

وعلى خلاف مفهوم أرسطو للفساد نجد أن معظم التعريفات الحديثة تحصر الفساد في مجال إساءة استخدام السلطة العامة أو الوظيفة العامة، وفي ذلك يقدم قاموس أكسفورد (Oxford English Dictionary) ثلاثة تعريفات للفساد، يشير أولها إلى الفساد المادي (التحلل المادي للمواد الطبيعية) وثانيها ينصرف إلى الفساد الأخلاقي (الانحلال الأخلاقي)، أما ثالثها فيدور حول ظاهرة الفساد الاجتماعي - الاقتصادي محور هذه الدراسة وهو الفساد الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بمجال الإدارة العامة والنشاط الحكومي. ووفقا لقاموس أكسفورد، يعرف الفساد بأنه «الانحراف عن مبادئ الأمانة في أداء الوظائف العامة أو القيام بممارسات يشوبها الفساد في مؤسسات الدولة أو الإدارات الحكومية، وذلك مقابل الحصول على رشوة أو تحقيق منافع خاصة» [5].

ولا يختلف تعريف (Heidenheimer et.al,1989) [6] للفساد كثيرا عن التعريف السابق، إذ يرى أن الفساد يتمثل في «معاملة تتم بين طرفين، أحدهما يمثل الدولة أو القطاع العام والآخر يمثل القطاع الخاص تحول من خلالها سلع أو خدمات أو منافع عامة إلى منافع خاصة على

نحو غير قانوني» وتسير (Rose-Ackerman,1978)[7] في الاتجاه نفسه، فترى أن «الفساد غالبا ما يظهر في المجالات التي يكون فيها تعامل بين القطاعين العام والخاص». وفي الإطار نفسه، يعرف (Colin Nye,N.Y., 1967) [8] الفساد بأنه «أي سلوك ينحرف عن الدور الرسمي المحدد للوظيفة العامة بغرض تحقيق منافع خاصة»، ويقدم (Mushtaq Khan,1996) [9] نسخة معدلة من التعريف السابق، إذ يرى أن الفساد هو «السلوك الذي ينحرف عن المبادئ القانونية والإدارية التي تحكم الدور الذي يقوم به من يتولون الوظائف العامة بسبب اعتبارات شخصية، مثل تحقيق المزيد من الثروة الخاصة أو السلطة والنفوذ»، لذا ليس من المفاجئ أن يتبنى كل من البنك الدولي ومنظمة الشفافية الدولية Transparency International التعريف التالي «الفساد هو استغلال السلطة العامة لتحقيق منافع أو مزايا خاصة» [10].

وبعد عرض بعض التعريفات للفساد تجدر الإشارة إلى ما يلي:

- باستثناء ما قدمه أرسطو، تعطي معظم التعريفات السابقة دورا محوريا للسلطة العامة في ظاهرة الفساد، حيث ترى أن بذور الفساد تنبت في مجالات التعامل بين مؤسسات الدولة والإدارات الحكومية والقطاع العام من ناحية، وأفراد المجتمع الطبيعيين والمعنويين من ناحية أخرى، فعلى جانب هناك بعض مسؤولي الدولة أو موظفي الحكومة «الفاسدين» Corrupted، وعلى الجانب الآخر هناك بعض أفراد المجتمع «المفسدين» Corrupter ، مسؤول الدولة/ أو موظف الحكومة «الفاسد» هذا قد يكون أي شخص، بداية من رئيس الدولة أو الحاكم أو من هم على قمة هرم السلطة السياسية (الفساد السياسي) مرورا بالوظائف العليا في الهيئات والمؤسسات الحكومية المختلفة، ونهاية بصغار الموظفين الحكوميين العاملين في المحليات (الفساد الإداري)، أما الطرف الثاني في ممارسات الفساد فقد يكون أحد أفراد المجتمع أو إحدى مؤسسات الأعمال الخاصة، سواء كانت محلية أو أجنبية [11].

- لا يقتصر الفساد فقط على المعاملات التي تتم بين مؤسسات الدولة والقطاع الحكومي وأفراد المجتمع ومؤسسات الأعمال الخاصة الموجودة داخل الحدود السياسية للدولة، بل قد يتعدى ذلك إلى المعاملات مع الأفراد ومؤسسات الأعمال التي توجد خارج الدولة. كما قد يكون طرفا المعاملة التي تتسم بالفساد من القطاع الحكومي ذاته.

- تنبغي التفرقة بين الأنشطة الريعية Rent-Seeking والفساد، فالأنشطة الريعية هي تلك الأنشطة التي تعتمد على وجود «ريع» وفقا للمفهوم الاقتصادي، وهو الفرق بين إجمالي الايرادات وإجمالي جميع أشكال التكاليف، أو ما يراه بعض الاقتصاديين «أرباحا احتكارية». وعلى نحو عام، يمكن القول إن الريع هو الزيادة فى الإيراد التي لا تقابلها زيادة في الإنتاج، لكنها تنشأ بصورة رئيسية نتيجة ندرة السلعة أو الخدمة المقدمة (البترول، الأراضي الزراعية الجيدة). وعلى الرغم من أن كثيرا من الاقتصاديين يرون أن الأنشطة الريعية هي أنشطة غير

منتجة في معظمها ولا تعكس كفاءة اقتصادية، فإن هذه الأنشطة لا تعد أنشطة غير قانونية أو أنشطة غير أخلاقية، كما أنها قد تكون ذات نفع اقتصادي كبير، إذ ما استثمر الريع في أنشطة إنتاجية (Coolidge and Rose-Ackerman,2000) [12]، أما الفساد فيتمثل في استغلال السلطة أو النفوذ لتحقيق منافع خاصة، علاوة على أن معظم ممارسات الفساد هي غير قانونية وغير أخلاقية.

وفي ضوء ما تقدم، يمكن تعريف الفساد [13] بأنه «استغلال السلطة (عامة أو خاصة) أو استخدامها على نحو يتعارض مع القواعد التي تحكم ممارستها لتحقيق منافع أو مزايا خاصة»، ويتميز هذا التعريف عن التعاريف الشائعة للفساد بأنه لا يقتصر فقط على استغلال السلطة العامة، بل يتضمن أيضا استغلال السلطة الخاصة وهو ما تجاهلته التعريفات السابقة، فيمكن لأحد المسؤولين في مؤسسة خاصة أن يسرب الأسرار الخاصة بمؤسسته لمنافسيها مقابل مزايا شخصية. غير أن هذا التعريف لا يشمل فساد الفرد أو سوء استخدام الفرد لسلطته على «نفسه»، إذ إن هذه مسألة تقديرية ويصعب الوصول إلى اتفاق عام بشأنها.

2 - 2 - أشكال الفساد

على الرغم من أن صور الفساد قد تتداخل وتتشابك بعضها مع بعض في كثير من الأحيان، فإنه من المفيد التمييز بين هذه الصور المختلفة للفساد. وفي هذا الخصوص يمكن تصنيف أشكال الفساد وفقا لعدد من المعايير أهمها:

1 - الكيفية التي يمارس بها الفساد.
2 - المستوى الوظيفي لمن يتورط في ممارسات الفساد.
3 - المجال الذي يمارس فيه الفساد.

2 - 2 - 1 - أشكال الفساد وفقا للكيفية التي يُمارَس بها

يرى (Amundsen,1999) [14] أن الصور الرئيسية للفساد تتمثل في الرشوة، المحسوبية، الابتزاز، الاختلاس، الاحتيال.

أ - الرشوة Bribery:

الرشوة هي إعطاء أو تلقي شيء ذي قيمة (نقدية أو غير نقدية) في إطار معاملة تتسم بالفساد، وعلى الرغم من أن الرشوة تقدم لتجاوز اللوائح والقوانين، فإنه أحيانا ما يقدمها الفرد (طبيعيا أو معنويا) مضطرا للحصول على حق من حقوقه لم يكن ليحصل عليه من دون تقديم الرشوة.

ويرى كثير من الباحثين أن عملية الرشوة هي جوهر ظاهرة الفساد، أو الشكل الرئيسي للفساد. وبوجه عام تعرف الرشوة بأنها «مبلغ ثابت أو نسبة معينة من قيمة صفقة ما، أو أي

شكل آخر من أشكال المنافع (نقدية أو غير نقدية) يقدم إلى أحد موظفي الحكومة الذي يتمتع بسلطات معينة تمكنه من منح مزايا لا يقرها القانون للفرد أو الجهة التي تقدم الرشوة». وتأخذ هذه المزايا صورا متعددة مثل: تجنب بعض الأعباء الضريبية (التهرب الضريبي)، الحصول على بعض المزايا الاحتكارية، الفوز بعقود ضخمة لتوريد سلع أو خدمات أو القيام بمشروعات حكومية، تراخيص الاستيراد والتصدير، عدم الالتزام بقوانين المحافظة على البيئة، حتى الدعم السياسي. لذا، أحيانا يطلق على الرشوة «النقود المسهلة» Speed or Grease Money [15].

إن التعريف السابق يشوبه بعض القصور، إذ إنه لا يأخذ في الاعتبار «الفساد الخاص» أو الفساد الذي يتم بعيدا عن نطاق الأنشطة الحكومية، مثال ذلك ممارسات الفساد التي تتم بين الأفراد وبعضهم البعض، أو التي تتم بين الأفراد الطبيعيين ومؤسسات الأعمال، أو بين مؤسسات الأعمال وبعضها البعض، ولذا تمكن إعادة تعريف الرشوة على النحو التالي: «الرشوة هي شيء ذو قيمة نقدية أو غير نقدية يقدم إلى فرد (أو أكثر)، يمثل الحكومة أو مؤسسة أعمال، يتمتع بسلطات معينة تمكنه من منح مزايا لا تقرها اللوائح والقوانين أو تمكنه من إقرار حق من الحقوق لم يكن الراشي ليحصل عليه من دون تقديم هذه الرشوة» [16].

ونظرا إلى أن الرشوة هي أكثر مظاهر الفساد انتشارا تصدر منظمة الشفافية الدولية ما يعرف «بمؤشر الرشوة» Bribery Index، وذلك للتعرف على مدى انتشار الفساد في المجتمعات المختلفة.

ب - المحسوبية Favouritism:

تتمثل المحسوبية في استغلال السلطة أو النفوذ للمحاباة أو التحيز لفرد أو جهة معينة على نحو يتعارض مع القوانين والتشريعات [17]، مثال ذلك أن يمنح بعض من يتمتعون بسلطة معينة (سواء في جهة حكومية أو مؤسسة خاصة) مزايا معينة أو تسهيلات لفرد أو جهة معينة بسبب وجود صلة قرابة أو صداقة أو علاقة خاصة. ويرى بعض الباحثين في علم الاجتماع أن «المحسوبية» تنشأ نتيجة ميل فطري في الإنسان إلى تفضيل أعضاء الأسرة أو الأقارب أو الأصدقاء [18].

وتمثل المحسوبية أحد أهم أشكال الفساد بما تسببه من آثار اقتصادية واجتماعية سلبية، مثل التوزيع غير العادل لموارد البلد وشغل الوظائف والمناصب بغير المؤهلين، ما يخلق الشعور بالظلم والقهر الاجتماعي.

وتعد «محاباة الأقارب» Nepotism صورة خاصة من صور المحسوبية، يفضل فيها متخذ القرار ويميز أفراد أسرته أو أقاربه على أسس غير موضوعية [19]، ومن الأمثلة الشائعة لمحاباة الأقارب اختيار كثير من حكام الدول النامية بعض أفراد أسرهم أو أقاربهم لتولي

مناصب سياسية واقتصادية وعسكرية من دون أن يكونوا مؤهلين لشيء إلا لتأمين السلطة وضمان الولاء.

ويمكن القول إن أخطر أشكال المحسوبية هي «المحسوبية الدستورية أو المحسوبية المقننة»، وذلك عندما يستغل الحاكم حقه «الدستوري» في اختيار من يتولون المناصب المهمة في الوزارات وأجهزة الأمن والدفاع والسلك الديبلوماسي والشركات المملوكة للدولة، والدفع بأفراد أسرته أو أقاربه أو أصدقائه لتولي هذه المناصب من دون سند من خبرة أو كفاءة، الأمر الذي يخلق بيئة مواتية لانتشار الفساد. ويلاحظ أن هذه الممارسات شائعة في معظم الأنظمة غير الديموقراطية السلطوية.

ج - الابتزاز Extortion:

الابتزاز هو قيام فرد أو جهة معينة بانتزاع شيء ذي قيمة (نقدية غالبا وليس دائما) قسرا مقابل عدم استخدام السلطة أو النفوذ أو العنف من قبل هذا الفرد أو الجهة على نحو يضر بالمبتزين أو مصالحهم [20]، والمقصود بالابتزاز هنا هو قيام بعض المسؤولين أو موظفي الحكومة بالحصول على مزايا أو منافع خاصة من أفراد طبيعيين أو مؤسسات أعمال مقابل عدم تعريض مصالحهم للخطر، مثال ذلك حصول موظف حكومي على مبلغ نقدي مقابل عدم عرقلة إجراءات الحصول على ترخيص معين من قبل مقدم طلب الحصول على ترخيص.

ويمكن التمييز بين نوعين من الابتزاز [21]:

- الابتزاز من أسفل (أدنى) From Below.
- الابتزاز من أعلى (من القمة) From Above.

أما النوع الأول (الابتزاز من أسفل) فيشير إلى عمليات الابتزاز التي تتم من قبل طبقات أو فئات غالبا ما ينظر إليها على أنها تمثل قاع المجتمع، مثل العصابات المنظمة Mafia Style والخارجين عن القانون، حيث تستخدم هذه الفئات التهديد والإكراه للحصول على ثمن الأمان أو عدم التعرض للأفراد أو مؤسسات الأعمال.

والنوع الثاني (الابتزاز من أعلى) يتم من قبل فئات تمثل قمة المجتمع، ويحدث هذا عندما يبتز بعض المسؤولين أو كبار موظفي الحكومة الأفراد أو مؤسسات الأعمال للحصول على منافع أو مزايا خاصة. وهناك صورة أخرى من صور الابتزاز من أعلى أكثر «تنظيما»، وفيها تقوم بعض الأجهزة الحكومية (مثل الأجهزة الأمنية) بعملية الابتزاز.

د - الاختلاس Embezzlement:

الاختلاس هو الاستيلاء على شيء ذي قيمة اقتصادية من قبل من يتولى إدارة أو المحافظة على هذا «الشيء» [22]. مثال ذلك أن يستولي أحد العاملين في شركة ما على أصول ذات قيمة

تمتلكها الشركة أو عندما يستولي أحد مسؤولي أو موظفي الحكومة على جزء من الأصول العامة (المملوكة للشعب) أو استغلالها لتحقيق مصالح خاصة.

وعلى الرغم من أن الاختلاس يعد أحد أشكال الفساد فإن معظم تعريفات الفساد لا تشمل هذا الشكل من أشكال الفساد. وتظهر صعوبة تتبع ومحاربة هذا الشكل من أشكال الفساد في مؤسسات الدولة أو الحكومة، فالقانون يكفل لصاحب أو أصحاب المؤسسة الخاصة الحق في المطالبة واسترداد ما اختلس، أما الموظف العام أو المسؤول الذي يختلس فلا تمكن ملاحقته إلا إذا توافرت الرغبة لدى القيادة السياسية أو السلطة التنفيذية في ذلك، فمن الناحية القانونية لا يحق لفرد من أفراد المجتمع ملاحقة من يختلس جزءا من المال العام، فالمال العام، لا يمثل ممتلكات فردية، ومن ثم فإن المواطنين أو أفراد المجتمع لا يتمتعون بالصفة القانونية التي تعطيهم الحق في المطالبة باسترداد ما اختلس أو سرق، وهو ما نبه بعض الأنظمة القانونية والتشريعية إلى هذه الثغرة وبالتالي جعلها تعطي أي فرد من أفراد المجتمع الحق في المطالبة باسترداد ومعاقبة من يختلس المال العام.

وتتطلب مكافحة هذا الشكل من أشكال الفساد وجود رغبة سياسية ونظام قانوني - قضائي مستقل يتمتع بالكفاءة والنزاهة. والاختلاس هو أحد أشكال استغلال السلطة، فغالبا لا يستطيع «المختلس» الاستيلاء على شيء ما إذا لم يكن يتمتع بسلطة إدارة هذا الشيء. وعلى الرغم من أن معظم الباحثين يرون أن الرشوة هي أخطر أشكال الفساد فإن الاختلاس قد يفوق الرشوة تأثيرا إذا ما تم من قبل الطبقة الحاكمة، فعندئذ يتحول الاختلاس إلى عملية نهب منظم واستنزاف مستمر وواسع النطاق للموارد العامة.

ويمكن القول إن أخطر صور الاختلاس هو «الاختلاس الضمني» أو «الاختلاس غير المباشر»، الذي يتمثل في استغلال أصحاب السلطة نفوذهم السياسي بشكل غير مباشر لتوسيع نطاق أعمالهم الخاصة على حساب المصلحة العامة.

هـ - الاحتيال Fraud:

الاحتيال هو جريمة اقتصادية تتضمن نوعا من الغش أو الخداع أو التحايل، وفي إطار ظاهرة الفساد يمكن تعريف الاحتيال بأنه «القيام بتشويه أو تزييف المعلومات والحقائق لتحقيق منافع خاصة» (23). وقد تتم عمليات الاحتيال بين الأفراد وبعضهم البعض، وقد تتم بوساطة مسؤولين سياسيين أو موظفي الحكومة. وبالطبع فإن عمليات الاحتيال التي تتم من قبل أعضاء السلطة التنفيذية هي الأكثر خطورة، إذ يكون جميع أفراد المجتمع «ضحية» هذا الاحتيال.

2 - 2 -2 - أشكال الفساد وفقا لمستوى السلطة التي يتمتع بها من يتورطون في ممارسات الفساد

وفقا لهذا المعيار يمكن التمييز بين شكلين رئيسيين من أشكال الفساد:

- الفساد السياسي (الفساد الكبير) Grand Corruption.
- الفساد الإداري (الفساد الصغير) Petty Corruption.

أ- الفساد السياسي:

الفساد السياسي هو ذلك الفساد الذي يمارس من قبل من هم على قمة الهرم السياسي أو قمة السلطة التنفيذية (القيادات السياسية ومتخذو القرارات السياسية، بدءا من رئيس الدولة أو الحاكم ومرورا بالوزراء وكبار المسؤولين)[24]، وهذه القيادات السياسية غالبا ما تتمتع بسلطات واسعة، ليس فقط فى تطبيق القوانين واللوائح نيابة عن الشعب، بل أيضا في صياغة هذه القوانين والتشريعات.

ويأخذ هذا النوع من الفساد صورا متعددة، أخطرها الشكل السافر للفساد السياسي الذي يتمثل في قيام القيادات السياسية بسرقة أموال الشعب على نحو مباشر، وذلك من خلال تحويل أرصدة مالية حكومية أو أصول مملوكة للدولة إلى ممتلكات خاصة لهم، وهنا تتلاشى الحدود بين أموال الشعب وأموال الفئة الحاكمة، وبالطبع يكون المستفيد الأكبر من ذوبان الحدود هذا هو الطبقة الحاكمة، وكذلك قد يستغل بعض المسؤولين السياسيين سلطاتهم ونفوذهم للحصول على رشى أو عمولات ضخمة من الشركات الوطنية و/ أو الأجنبية، وذلك مقابل إرساء بعض التعاقدات أو منح بعض الاستثناءات أو الاحتكارات.

وتكمن خطورة الفساد السياسي في أنه ليس مجرد خرق أو تجاوز لبعض اللوائح والقوانين أو انحراف عن القواعد المهنية والقيم الأخلاقية، إذ إنه يتعدى ذلك إلى التدخل في وضع السياسات وصياغة القوانين والتشريعات على نحو يحقق مصالح فئة معينة هي الفئة الحاكمة ومن يسير في فلكها أو يحقق مصالحها، وذلك على حساب مصالح الشعب (Theobald,2000) [25].

ويختلف الفساد السياسي عن غيره من أنواع الفساد في أنه غالبا ما يتم في مجالات بعيدة عن الحياة اليومية لأفراد المجتمع، بل في كثير من الأحيان يكون بصورة سرية من دون أن يعلم أفراد المجتمع عنه شيئا، كما يحدث فى الأنظمة غير الديموقراطية، على الرغم من أن آثاره قد تكون مدمرة ليس فقط للأجيال الحالية بل وللأجيال القادمة أيضا.

تجدر الاشارة إلى أن الفساد السياسي في الدول الديموقراطية غالبا ما يكون ذا طبيعة عرضية ويتم التعامل معه بشفافية من قبل منظمات المجتمع المختلفة والسلطات القضائية والتشريعية، وغالبا ما يلاحق ويعاقب من يثبت تورطهم في ممارسات الفساد، أما في الدول غير الديموقراطية فقد يصبح الفساد السياسي هو النمط الأساسي للإدارة السياسية والاقتصادية للمجتمع، وعندئذ يتحول الفساد من «فساد سياسي» إلى «فساد سياسي منظم»، ومثل هذا النوع من الفساد «الهيكلي» لا تمكن مكافحته أو القضاء عليه عن طريق إصلاح قانوني أو إصلاح إداري فقط، بل يتطلب الأمر القيام بإصلاحات جوهرية سياسية واقتصادية وتشريعية، وكذلك العمل على تعميق الممارسة الديموقراطية وتطوير منظومة القيم الثقافية والاجتماعية في المجتمع.

ويفرق بعض الباحثين (Huntington,1968) [26] بين «الفساد السياسي - الاجتماعي» و«الفساد الاقتصادي». يظهر «الفساد السياسي - الاجتماعي» عندما تكون فرص الترقي الاقتصادي قليلة، إذ يقوم البعض باستخدام السلطة أو النفوذ السياسي لتحقيق مزايا ومنافع اقتصادية خاصة، وفي المقابل يظهر الفساد الاقتصادي عندما تكون فرص الترقي السياسي أو الاجتماعي قليلة، حيث يقوم البعض باستخدام الثروة أو «النفوذ» الاقتصادي للتمتع بسلطة سياسية أو مكانة اجتماعية وكذلك لحماية «النفوذ الاقتصادي». وقد يفسر هذا تكالب كثير من رجال الأعمال وإنفاقهم الأموال الطائلة للحصول على شكل من أشكال الحصانة السياسية أو البرلمانية.

ب - الفساد الإداري:

الفساد الإداري أو «الفساد الصغير»، هو ذلك الفساد الذي يتم على مستوى الإدارات والوحدات الحكومية من قبل صغار موظفي الحكومة [27]، وهذا النوع من الفساد هو ما يواجهه أفراد المجتمع بشكل يومي عند التعامل مع جهات حكومية مثل إدارة الضرائب ووحدات منح التراخيص وأقسام البوليس والمستشفيات العامة وغيرها. ويطلق على هذا النوع من الفساد «الفساد الصغير» لأنه يكون غالبا في حدود مالية صغيرة نسبيا، وإن كان إجمالي المبالغ المالية التي يتضمنها قد يكون هائلا على المستوى الكلي. وعلى الرغم من أن الفساد الاداري قد يقع في غياب الفساد السياسي، وفي ظل حكومات ديموقراطية، فإنه في كثير من الأحيان يسير كل من الفساد السياسي والفساد الإداري جنبا إلى جنب، بل ويدعم كل منهما الآخر، وذلك في إطار من توزيع الأدوار بين «القمة» و«القاعدة»، حيث تنتشر «عدوى» الفساد من قمة الهرم السياسي - الإداري إلى القاعدة من صغار الموظفين، فيسلك صغار الموظفين المسلك نفسه الذي يسلكه كبار المسؤولين السياسيين، بل وأحيانا ما يتلقى صغار الموظفين التعليمات من هؤلاء (الكبار) بالقيام ببعض ممارسات الفساد، وعندئذ يكون الفساد السياسي هو «الراعي الرسمي» للفساد الإداري. وقد أوضحت تجارب بعض الدول أنه في الإمكان الحد من الفساد الإداري على نحو كبير وذلك إذا ما توافرت الرغبة والإرادة السياسية، وصاحبتها الإصلاحات اللازمة في المؤسسات التشريعية والتنفيذية والرقابية.

3-2-2 - أشكال الفساد وفقا للنطاق الذي تتم فيه ممارسات الفساد

يفرق بعض الباحثين بين الفساد العام والفساد الخاص:

أ- الفساد العام:

الفساد العام هو ذلك الفساد الذي يتورط فيه أحد مسؤولي الدولة أو موظفي الحكومة [28]، وذلك النوع من الفساد هو محور معظم الدراسات الخاصة بظاهرة الفساد، بل يرى البعض أنه حتى يكون الفساد «فسادا» يجب أن يكون «عاما» وأن تكون الحكومة ممثلة بأحد موظفيها أو العاملين بها.

ب - الفساد الخاص

يتمثل في ممارسات الفساد التي تتم بين طرفين ليس منهما موظف عام[29]، وقد يوجد هذا الشكل من أشكال الفساد بين مؤسسات الأعمال الخاصة وبعضها البعض، أو بين أحد أفراد المجتمع ومؤسسة خاصة، أو بين أفراد المجتمع وبعضهم البعض. ويأخذ هذا الشكل من أشكال الفساد صورا عديدة، مثل ضعف الولاء لدى بعض العاملين في مؤسسات الأعمال والرشوة والاحتيال، وقد يأخذ صورا أخرى مثل منح الهدايا وما يعرف بـ «البقشيش». ومما لا شك فيه أن هذه الممارسات، وإن كانت تتم في النطاق غير الحكومي، فإنها تفرض تكاليف إضافية على بعض مؤسسات الأعمال أو أفراد المجتمع، وتخلق بيئة اجتماعية - ثقافية تساعد على انتشار الفساد العام، وهنا يبرز البعد الثقافي لظاهرة الفساد.

ولا يجب بأي حال التهوين من خطورة «الفساد الخاص» وآثاره السلبية في البنيان الاقتصادي والسياسي والثقافي للمجتمع، ففي ظل انتشار الفساد تتراجع قيمة العمل واعتبارات الكفاءة وتحل محلها قيم الانتهازية والوصولية، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى انتشار الإحباط الاجتماعي وتراجع أداء الأفراد ومؤسسات الأعمال. وعلى الرغم من خطورة الفساد الخاص فإن معظم الدراسات عن ظاهرة الفساد تركز على الفساد العام استنادا إلى اعتقاد الباحثين أن الفساد العام هو أخطر أشكال الفساد وأن محاصرة الفساد العام هي شرط ضروري لمحاصرة الفساد الخاص.

وأيا كان الشكل الذي يتخذه الفساد فإن الفساد في النهاية «إفساد» للمنظومة الاقتصادية والسياسية والثقافية في المجتمع.

3 - قياس الفساد

تعكس محاولة قياس الفساد - أكثر من أي شيء آخر - الطبيعة المعقدة لهذه الظاهرة؛ إذ إن أول ما يتبادر إلى الذهن هو السؤال التالي: ما الشيء الذي ينبغي قياسه؟ إذا كانت الإجابة هي «الفساد» فإننا نكون بصدد إجابة يمكن أن تكون قد أدت إلى حسم أحد الأسئلة، غير أنها في الوقت ذاته أثارت كثيرا من الأسئلة الأخرى: كيف يمكن قياس الفساد؟ هل يمكن قياس الفساد بحجم الرشى التى يدفعها الراشون إلى المرتشين؟ هل يمكن قياس الفساد بعدد حالات الاختلاس أو التعدي على المال العام؟ أم بحجم الأموال التي اختلست أم قيمة المزايا التي منحت إلى من لا يستحق في إطار من المحسوبية؟ إذا كانت الاجابة عن هذه الأسئلة بنعم فإن هذه الاجابة بدورها تخلق مزيدا من الأسئلة: هل يمكن التقدير الدقيق لحجم الرشى أو الأموال المختلسة، ... وغيرها من الأسئلة، وفي هذا الخصوص ينبغي التسليم بحقيقتين:

الأولى: أن محاولة القياس الدقيق لحجم الفساد في مجتمع ما تتطلب الحصول على معلومات يصعب - أو إن أردنا الدقة - يستحيل الحصول عليها، ليس لقصور في كفاءة الجهة أو الجهات التي تتولى جمع هذه المعلومات بقدر ما هو بسبب الطبيعة المعقدة لهذه الظاهرة.

الثانية: ليست هناك «طريقة مباشرة» لقياس الفساد، وما هو متاح أمام الباحثين والدارسين والمهتمين بهذه الظاهرة هو عدد من الطرق «غير المباشرة» التي تستند إلى بعض المؤشرات التي تسعى إلى قياس مدى انتشار الفساد. (Tanzi,2000b) [30]، ونظرا إلى أهمية قياس ظاهرة الفساد في إطار التحليل العلمي لهذه الظاهرة ينبغي الوقوف على بعض المحاولات التي تمت في هذا الصدد، وبعض المؤشرات الموجودة لقياس ظاهرة الفساد.

3 - 1 - عدد قضايا الفساد

يرى بعض المحللين[31] أن «عدد قضايا الفساد» يمكن أن يستخدم كمؤشر جيد إلى مدى انتشار الفساد في مجتمع ما، غير أن ذلك ينطبق بصورة رئيسية على الدول التي تتمتع بوجود أجهزة رقابية وقضائية على مستوى عال من الكفاءة، إذ غالبا ما تتوافر لهذه الأجهزة الموارد البشرية والمالية اللازمة لاكتشاف وتعقب حالات الفساد، لكن هذا المؤشر يعاني مشكلتين أساسيتين:

الأولى: إن عدد حالات الفساد التي يحقق فيها أو تكتشف عادة ما يكون قليلا مقارنة بعدد الحالات التي لا تكتشف أو التي تتم في الخفاء، يضاف إلى ذلك أن عدم دقة أو اكتمال بعض المعلومات، أو قصور الإجراءات في بعض حالات الفساد قد يحول في بعض الأحيان دون إقامة الدعاوى القضائية أو إحالة المتورطين إلى القضاء كما يرى البعض أن أجهزة الأمن والبحث والتقصي قد تبالغ في عدد حالات الفساد أو مدى خطورتها بهدف إعطاء الانطباع بأنها تؤدي وظيفتها بكفاءة واقتدار، لذا يرى كثير من الباحثين أنه لا يمكن التعويل على عدد قضايا الفساد التي يحقق فيها كمؤشر لحجم الفساد في مجتمع ما.

الثانية: صعوبة استخدام هذا المؤشر لأغراض المقارنة الدولية، ويرجع ذلك إلى أن عدد حالات الفساد التي تكتشف ويحقق فيها يعكس في المقام الأول أولويات السلطة السياسية وكفاءة الأجهزة الرقابية والأمنية والقضائية أكثر مما يعكس مدى انتشار الفساد، وقد جرت بعض المحاولات الجادة لتنقيح وتعديل البيانات الخاصة بعدد حالات الفساد التي يحقق فيها في دول مختلفة، وذلك بغرض المقارنة، غير أن هذه المحاولات اصطدمت بحقيقة أن ارتفاع عدد قضايا الفساد في بلد ما قد لا يعني بالضرورة أن هذا البلد أكثر فسادا من غيره من البلدان التي يقل فيها عدد قضايا الفساد فقد أوضحت البيانات أن دولا مثل سنغافورة وهونغ كونغ - وفقا لهذا المؤشر - أكثر فسادا من دول أخرى لا خلاف على أنها تعاني الفساد أكثر بكثير مما تعانيه هاتان الدولتان.

3 - 2 - التقارير الصحافية والإعلامية عن الفساد

عادة ما يتمكن الصحافيون والإعلاميون من الحصول على معلومات قد لا تتوافر لكثير من الباحثين والدارسين، إذ يتاح للصحافيين الاحتكاك والاقتراب من مصادر معلومات تكون بعيدة المنال بالنسبة إلى الآخرين. ولأن مبادئ العمل الاعلامي والصحافي تفرض على العاملين في هذا المجال التعامل مع المعلومات بحذر والتدقيق فيها، وذلك تجنبا للمساءلة القانونية والإساءة إلى الأبرياء، يرى البعض أنه ينبغي ألا نقلل من أهمية التقارير الإعلامية والتحقيقات الصحافية كمصدر مهم للمعلومات عن ظاهرة مثل ظاهرة الفساد، الأمر الذي يساعد الباحثين على الدراسة العلمية لهذه الظاهرة. وتزداد جاذبية هذه المعلومات بالنسبة إلى الإعلاميين، إذا ما ارتبطت برجال السياسة أو أعضاء السلطة التنفيذية، حيث تنظر وسائل الإعلام إلى هذه المعلومات بوصفها مصدرا مهما للفضائح السياسية والشخصية، ومن ثم فإنه يمكن اعتبار وسائل الإعلام مصدرا مهما لاكتشاف أحد أخطر أنواع الفساد وهو الفساد السياسي، والواقع أن أهمية وسائل الإعلام في هذا الصدد لا ترجع فقط إلى فضحها كثيرا من ممارسات الفساد وملاحقة المتورطين فيها، ولكنها ترجع أيضا إلى أهمية الدور الذي تلعبه في تشكيل الرأي العام وتشكيل نظرة المجتمع إلى الفساد.

إن النظرة المدققة توضح أن التقارير الصحافية والإعلامية - كمؤشر لقياس الفساد - تعاني عددا من العيوب أهمها:

- تسعى وسائل الإعلام بوجه عام إلى الإثارة لجذب مزيد من القراء أو المشاهدين، لذا فإنها تميل دائما إلى التركيز أو إعطاء أولوية لحالات الفساد الأكثر إثارة بغض النظر عن أهميتها الحقيقية وحجم الفساد الذي تنطوي عليه، فقد تكون هناك حالات من الفساد أكثر خطورة وأكبر أثرا لكن لايتوافر فيها عنصر الإثارة بالقدر الكافي، ومن ثم لا تمنحها وسائل الإعلام الاهتمام الكافي أو لا تهتم بها من الأساس، الأمر الذي يقلل من مصداقية التقارير الصحافية والإعلامية كمؤشر عن مدى انتشار الفساد في المجتمع.

- يتأثر عدد حالات الفساد التي تنشرها وسائل الإعلام بمجموعة من العوامل أهمها مدى الحرية التي تتمتع بها وسائل الإعلام، ومدى توافر مصادر المعلومات، ومستوى كفاءة ونزاهة العاملين في مجال الإعلام، بالإضافة إلى مدى إدراك أفراد ومؤسسات المجتمع لخطورة ظاهرة الفساد وتبعاتها، ويؤدي ذلك إلى صعوبة أن تعكس عدد حالات أو قضايا الفساد التي تنشرها وسائل الإعلام الحجم الحقيقي لظاهرة الفساد في المجتمع، وعلاوة على ذلك فإن ما تنشره وسائل الإعلام يخضع لكثير من الاعتبارات التي قد تحجب بشكل مقصود أو غير مقصود حقيقة ما يحدث بالفعل، لذلك فإن عدد حالات الفساد التي تنشرها وسائل الإعلام كمؤشر لقياس لفساد لم يلق اهتماما كافيا من قبل الباحثين والمنظمات الدولية.

وأمام هذه المعضلة وصعوبة العثور على مقياس دقيق لحجم الفساد لم يكن أمام الباحثين والدارسين لظاهرة الفساد سوى خيارين:

الأول: أن يعتمد الباحثون على البيانات التي تصدر عن الأجهزة القضائية والأمنية ووسائل الاعلام - والتي تعاني كثيرا من العيوب ولا تتمتع بكثير من المصداقية العلمية، كما سبق توضيحه - وذلك بعد تنقيحها وتعديلها وتحديد نسبة الخطأ فيها، وهو الأمر الذي دونه عدد من الصعاب، خصوصا عند تحليل ظاهرة بالغة التعقيد ومتعددة الأبعاد مثل الفساد.

الثاني: أن يتجنب الباحثون التحليل الكمي لظاهرة الفساد نتيجة عدم التأكد الذي يحيط بالبيانات المتاحة وعدم ملاءمتها للدراسات العلمية المنهجية.

وحتى وقت قريب ركن الباحثون والدارسون إلى الخيار الثاني، غير أنه عند منتصف التسعينيات ظهر عدد من الدراسات التطبيقية التي اعتمدت على مؤشرات تقديرية تقيس مدى انتشار الفساد في البلدان المختلفة، وكانت أولى هذه الدراسات وأكثرها تأثيرا دراسة (Mauro,1995) [32]، التي طرق من خلالها بابا لم يطرقه أحد قبله في دراسات النمو الاقتصادي، وهو اعتبار الفساد أحد العوامل التفسيرية التي تحدد مستوى الأداء الاقتصادي، فقد استخدم Mauro الأساليب القياسية لتحليل أثر الفساد في معدل النمو الاقتصادي، وقد أوضحت دراسته أن انتشار الفساد يؤثر سلبا في معدلات النمو الاقتصادي.

3 - 3 - مؤشرات الفساد

اعتمد Mauro في الدراسة سابقة الذكر بصورة رئيسية على بيانات جمعتها «مؤسسة الأعمال الدولية» Business International عن 52 دولة في العام 1980، وذلك من خلال مسوح واستقصاءات عن كثير من المتغيرات شملت المخاطر الاقتصادية والسياسية، ومن بينها مدى انتشار الفساد، وتجمع مؤسسة الأعمال الدولية هذه البيانات وتحللها من خلال شبكة دولية من المراسلين، تشمل صحافيين واقتصاديين ومحللين متخصصين في مجال الأعمال. ويقدر هؤلاء المراسلون مستوى الفساد في البلدان المختلفة وفقا لمؤشر تتراوح قيمته بين الصفر وال 10.

ولم تكن مؤسسة الأعمال الدولية هي الجهة الوحيدة التي سعت إلى رصد مستويات الفساد في البلدان المختلفة، فقد كان هناك عدد من المؤسسات التجارية والمنظمات غير الربحية التي سعت أيضا إلى تقديم مؤشرات مماثلة، والآن يعد «مؤشر مدركات الفساد» Corruption Perception Index (CPI) الذي تنشره «منظمة الشفافية الدولية» International Transparency منذ نهاية التسعينيات المؤشر الأكثر شيوعا واستخداما، ليس فقط في الدراسات الاقتصادية، لكن في جميع الدراسات والتقارير المهتمة بتحليل ظاهرة الفساد.

أ - مؤشر مدركات الفساد Corruption Perception Index:

يعد مؤشر مدركات الفساد [33] الذي تنشره سنويا منظمة الشفافية الدولية أكثر مؤشرات الفساد، الكمية المتاحة شمولا، حيث يغطي معظم دول العالم، علاوة على أنه يتناول الجوانب المختلفة لظاهرة الفساد، إذ يقدر مدى انتشار الأشكال المختلفة للفساد مثل مدى انتشار الرشوة بين موظفي الحكومة والعمولات غير القانونية التي تصاحب المشتريات الحكومية واختلاس الأموال العامة. ويقدر مؤشر مدركات الفساد مستوى الفساد من خلال مقياس تتراوح قيمته بين صفر و 10 ويعني اتخاذ هذا المؤشر القيمة 10. أن البلد المعني خال تماما من الفساد، بينما يشير اتخاذ المؤشر القيمة صفر أن الفساد يبلغ أقصاه في البلد المعني.

وتحتسب قيمة مؤشر مدركات الفساد استنادا إلى 17 استقصاء واستطلاعا تقوم بها عشر منظمات مستقلة عن منظمة الشفافية الدولية، والجدير ذكره أن هذه الاستقصاءات لا تستهدف فقط التعرف على مدى انتشار الفساد، بل تشمل أيضا عددا من المتغيرات التي تؤثر في بيئة مزاولة الأعمال، غير أن منظمة الشفافية الدولية تستخدم البيانات والمعلومات الخاصة بالفساد فقط، وعلى هذا فإن مؤشر مدركات الفساد الذي تصدره منظمة الشفافية الدولية هو بمنزلة «مسح لعدد من المسوح».

وتعتمد الاستقصاءات التي تستند إليها منظمة الشفافية الدولية على آراء خبراء ومحللين ورجال أعمال عن مدى انتشار ممارسات الفساد في البلاد التي تشملها الاستقصاءات، وعادة ما يمثل الخبراء والمحللون نصف من تشملهم هذه الاستقصاءات، بينما يمثل النصف الآخر طبقة الإدارة العليا والوسطى في كل من الشركات المحلية الخاصة والشركات متعددة الجنسية.

وعلى الرغم من انتشار وشيوع استخدام هذا المؤشر، فإن البعض [34] يرى أنه يعاني عددا من النقائص أهمها:

- تختلف أحجام العينات والأساليب الإحصائية التي تعتمد عليها الاستقصاءات التي يستند إليها تقدير مؤشر مدركات الفساد.

- تعتمد هذه الاستقصاءات على تعريفات أو مفاهيم مختلفة للفساد، ومن ثم يثور التساؤل عما إذا كانت هذه الاستقصاءات تتناول الظاهرة نفسها.

- تسعى هذه الاستقصاءات إلى التعرف على «حجم أو مدى الفساد»، غير أن المقصود بكلمة «حجم أو مدى» غير واضح. هل المقصود هو مدى تكرار ممارسات الفساد أم حجم الأموال المدفوعة كرشى أم حجم الأموال المختلسة؟

- لا تفرق هذه الاستقصاءات بين كل من الفساد السياسي (الفساد الكبير) والفساد الإداري (الفساد الصغير) فهي تختزل جميع أشكال الفساد في شكل واحد هو «الفساد».

وعلى الجانب الآخر يرى محللون آخرون(35) أن هذه النقائص لا تؤثر كثيرا في مصداقية مؤشر مدركات الفساد وذلك للأسباب التالية:

- هناك درجة عالية من التشابه بين نتائج الاستقصاءات التي يستند إليها مؤشر مدركات الفساد، ويعني هذا ضمنيا أن هناك قدرا كبيرا من الاتفاق بين الفئات المختلفة التي تشملها الاستقصاءات عن مستويات الفساد في البلدان المختلفة، وقد يرجع هذا - بدرجة كبيرة - إلى وجود اتفاق ضمني حول مفهوم الفساد أو تعريفه.

- حتى في ظل اختلاف مفهوم الفساد بين الفئات التي تشملها الاستقصاءات فإنه من المجدي تجميع آراء مجموعة كبيرة ومتباينة من الخبراء والمحللين ورجال الأعمال حول مدى انتشار الفساد في البلدان المختلفة واختصار هذه الآراء في مؤشر واحد.

- إن اعتماد مؤشر مدركات الفساد على مصادر متعددة للمعلومات أمر يزيد من مصداقية المؤشر ولايقلل منها.

- على الرغم من أن مؤشر مدركات الفساد لا يعكس بالضرورة «المستوى الفعلي» للفساد - إذ إن الاستقصاءات التي يعتمد عليها تستكشف «انطباعات» الخبراء والمحللين عن مستوى الفساد - فإنه يعد أفضل المؤشرات المتاحة.

- يتمتع مؤشر مدركات الفساد بميزتين رئيسيتين: الأولى أنه يمكن من تتبع تطور مستوى الفساد عبر الزمن. والثانية أنه يمكن من قياس مستوى الفساد في بلد ما مقارنة بغيره من البلدان.

ب - مؤشر دفع الرشى (The Bribe Payers Index (BPI

استقصت منظمة الشفافية الدولية في عام 1999 عن مدى انتشار الرشوة، وذلك للتحقق من صحة الادعاء القائل إن الفساد المحلي الموجود في الدول الأقل تقدما هو السبب الرئيسي للفساد «الدولي»(*) أو الفساد الذي يتم بين أفراد طبيعيين أو معنويين من أكثر من دولة. وقد وضع هذا الاستقصاء حجر الأساس لمؤشرين جديدين هما:

- مؤشر دفع الرشى (Bribe Payers Index (BPI، الذي يقيس مدى استعداد الشركات متعدية الجنسية لدفع الرشى والعمولات غير القانونية بهدف الفوز بتعاقدات أو صفقات.

- مؤشر انتشار الرشوة في قطاعات الأعمال Bribery in Business Sectors، ويستهدف تقدير أي من قطاعات الأعمال أكثر استعدادا لدفع الرشى بهدف تسهيل الأعمال أو الحصول على تعاقدات.

وتتراوح قيمة كل من المؤشرين بين صفر و 10، ويعني اقتراب قيمة المؤشر من الصفر أن هناك استعدادا كبيرا لدفع الرشى، بينما يعني اقتراب قيمة المؤشر من الـ 10 أن هناك استعدادا ضعيفا لدفع الرشى.

(*) يشير إلى ممارسات الفساد التي تتضمن أفرادا طبيعيين أو معنويين من أكثر من دولة.

4 - أسباب الفساد

يمكن القول إن القطع بما إذا كان الفساد سببا أو نتيجة لمتغيرات أخرى ليس بالأمر اليسير، فقد يكون الفساد نتاج تفاعل عدد من العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بقدر ما هو سبب لها، أو بمعنى آخر هناك كثير من العوامل تؤثر في الفساد بقدر ما تتأثر به، ومن هنا فإن علاقة الفساد بكثير من المتغيرات هي علاقة «دائرية» يصعب فيها تحديد ما السبب وما النتيجة.

وعلى الرغم من صعوبة تحديد الأسباب الرئيسية للفساد فإن هناك قدرا كبيرا من الاتفاق بين الباحثين - يدعمه عدد من الدراسات التطبيقية - على أن عوامل مثل انخفاض متوسط نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي، وانخفاض مستويات أجور موظفي الحكومة، وطبيعة النظام الاقتصادي والتشريعات الاقتصادية وتواضع كفاءة المؤسسات السياسية والرقابية هي عوامل إن لم تؤد إلى ظهور الفساد فهي تساعد على انتشاره. وعلى الرغم من تداخل الأبعاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية لظاهرة الفساد فإن فهما أفضل لها يتطلب التمييز بين الأسباب الاقتصادية والأسباب غير الاقتصادية (السياسية والاجتماعية - الثقافية) للفساد.

4 - 1 - الأسباب الاقتصادية للفساد

على الرغم من الاهتمام الكبير الذي حظيت وتحظى به الآثار الاقتصادية للفساد فإن العوامل الاقتصادية المسببة له لم تلق الاهتمام نفسه، غير أن الفهم الواعي لهذه العوامل يُعد مطلبا أساسيا لمواجهة الآثار الاقتصادية السلبية لهذه الظاهرة، ومن هنا كان من الضروري التعرف على أهم الأسباب الاقتصادية للفساد بشيء من التفصيل.

4 - 1 - 1 - انخفاض مستوى المعيشة وتردي الظروف الاقتصادية

يمكن النظر إلى الفساد «كسلعة» ذات طلب وعرض. وبوجه عام يمكن القول إن الطلب على هذه السلعة يأتي من قبل الأفراد والمؤسسات التي تسعى إلى التحايل على اللوائح والقوانين لتحقيق مكاسب غير قانونية أو غير مشروعة، وإن عرض هذه السلعة يأتي من قبل أولئك الأفراد (موظفي الحكومة أو الدولة بصورة رئيسية) الذين يتمتعون بسلطة اتخاذ قرارات معينة تمكنهم من منح مزايا لأفراد أو مؤسسات على نحو غير قانوني.

وعلى جانب العرض لهذه السلعة (الفساد)، يرى Alderfer [36] أن انخفاض مستويات المعيشة وتردي الأوضاع الاقتصادية يجعلان أفراد المجتمع، خصوصا أولئك الذين يواجهون مصاعب مالية (أكثر استعدادا) للتورط في بعض السلوكيات غير القانونية أو غير الأخلاقية لتحقيق بعض المكاسب المالية أو المادية التي تعينهم على مواجهة تردي الظروف الاقتصادية

التي يعيشونها، وعلى الرغم من أن Alderfer لم يذهب أكثر من ذلك في تحليله، فإنه يمكن الادعاء أن انخفاض مستويات المعيشة وتردي الأوضاع الاقتصادية يؤديان إلى زيادة «الميل الحدي للفساد» وفقا للمصطلحات الاقتصادية.

وليس من الصعب تدعيم هذا التحليل، إذ يؤدي تفاقم الأزمات الاقتصادية - في كثير من الأحيان - إلى تهديد مقومات البقاء (مأكل ومشرب ومأوى)، ولأن إشباع هذه الحاجات الأساسية يتطلب مستوى معينا من الدخل فإن انخفاض الدخل عن هذا المستوى «المعين» يجعل الأفراد أكثر استعدادا وميلا لتحمل «مخاطر» القيام ببعض الممارسات غير القانونية (مثل الرشوة والاختلاس والابتزاز) لمواجهة «مخاطر» أخرى أشد قسوة تهدد بقاءهم.

ووفقا لهذا التحليل فإن انخفاض متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، أو انخفاض مستويات دخول موظفي الحكومة يجعلهم أكثر استعدادا لقبول أو طلب رشى تمكنهم من توفير الدخل اللازم لإشباع متطلبات الحياة «الكريمة» لهم ولأسرهم. ولأن انخفاض مستويات المعيشة قد يرجع إلى ارتفاع معدلات التضخم (انخفاض القوة الشرائية للنقود)، أو ارتفاع معدلات البطالة واتباع سياسات اقتصادية واستراتيجيات تنموية غير ملائمة فإن[37] Getz-Volkenu يرى أن مستوى الفساد غالبا ما يزداد مع تردي الأوضاع الاقتصادية وظهور الأزمات الاقتصادية، ويقل مع تحسن مستويات التنمية الاقتصادية وارتفاع مستويات الدخول الفردية حيث تزداد «المناعة الاقتصادية» لدى موظفي الحكومة على نحو خاص وأفراد المجتمع على نحو عام ضد التورط في ممارسات الفساد، وبمعنى آخر فإن «الميل الحدي للفساد» يقل مع ارتفاع مستويات الدخول.

ويأخذ (Paldam,1999a) بالتحليل السابق منحى آخر، إذ يرى أن «الأمانة» تعد سلعة ذات مرونة داخلية مرتفعة بالنسبة إلى الأفراد، حيث يزداد طلب الأفراد على «الأمانة» بزيادة مستويات الدخل، ويقل الطلب عليها بانخفاض مستويات الدخول، ومن ثم فإن انخفاض مستويات المعيشة يمثل بيئة ملائمة لممارسات الفساد حيث يزداد الطلب عليها، وبالعكس يؤدي ارتفاع مستويات الدخول وتحقق معدلات عالية للنمو الاقتصادي إلى زيادة الطلب على سلعة «الأمانة»، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى تقلص ظاهرة الفساد[38].

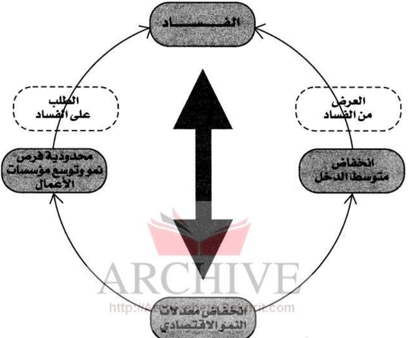
ويذهب بعض الباحثين إلى أبعد من هذا، وذلك بتحليل الآثار الاجتماعية لعملية النمو والتطور الاقتصاديين، إذ يروا أن الأبعاد الاجتماعية الإيجابية للتنمية الاقتصادية قد تؤدي إلى تراجع مستوى الفساد، ويستند منطق هذا الفريق من الباحثين إلى أن النظرة الاجتماعية إلى ممارسات الفساد تتغير بتغير مستوى التطور الاقتصادي، ففي المجتمعات الأقل تقدما من الناحية الاقتصادية لا تكون فيها الحدود واضحة بين «الخاص» و«العام» ومن ثم لا يمكن التمييز فيها بوضوح بين الرشوة والهدية على سبيل المثال. وفي مثل هذه

المجتمعات تكون نظرة المجتمع أقل رفضا أو استهجانا لممارسات الفساد، الأمر الذي يؤدي إلى إيجاد بيئة أكثر تقبلا للفساد. أما في المجتمعات المتقدمة اقتصاديا والتي تكون فيها الحدود فاصلة - إلى حد كبير - بين الخاص والعام يكون الرفض الاجتماعي لممارسات الفساد قاطعا ولا لبس فيه، ومن ثم تكون البيئة الاجتماعية أكثر رفضا لممارسات الفساد، ومن هنا يرى هذا الفريق من الباحثين أن النمو/ التقدم الاقتصادي يؤدي إلى انحسار ظاهرة الفساد Ekpo,1979 (39).

وعلى جانب العرض، يمكن القول إن تردي الأوضاع الاقتصادية وانخفاض مستويات النشاط الاقتصادي يؤديان إلى تضاؤل فرص النمو والتوسع أمام مؤسسات الأعمال، بل أحيانا ما يؤديان إلى صعوبة البقاء في مجال الأعمال، الأمر الذي يدفع بمؤسسات الأعمال إلى طرق جميع الأبواب - سواء كانت قانونية أو غير قانونية - للحصول على الصفقات والعقود ومن بين هذه الأبواب بالطبع «باب الفساد»، ومن هنا يزداد العرض من سلعة «الفساد» مع تدهور الأحوال الاقتصادية في المجتمع. ويضيف Paldam إلى ما سبق أنه في ظل ارتفاع معدلات النمو الاقتصادي وارتفاع مستويات المعيشة وتوافر فرص النمو والتوسع أمام مؤسسات الأعمال تصبح «الأمانة» أداة جيدة لتوفير الوقت والمال اللذين تتطلبهما ممارسات الفساد (الوقت اللازم للاتفاق على المزايا غير القانونية التي يمكن الحصول عليها وحجم الرشى المقابل لها)، ومن ثم فإن الطلب على سلعة الأمانة يزداد مع زيادة النمو الاقتصادي، وهو الأمر الذي يعني في الوقت نفسه انخفاضا في العرض من سلعة الفساد ويذهب Paldam في تحليله إلى أبعد من ذلك، إذ يرى أن «الأمانة» في مثل هذه الظروف تعد أحد عناصر الإنتاج (40).

وعلى المستوى التطبيقي، شهدت السنوات الأخيرة عددا من الدراسات الاقتصادية التي استخدمت الأساليب القياسية - الإحصائية التي أيدت الفرض القائل إن انخفاض مستويات المعيشة وتردي الأوضاع الاقتصادية يؤديان إلى زيادة مستوى الفساد، فقد أوضحت هذه الدراسات - استنادا إلى بيانات شملت عددا كبيرا من الدول - أن العامل الأكثر أهمية في التأثير في مستوى الفساد هو مستوى التنمية الاقتصادية مقيسا بمتوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي (Paldam,1999a and Treisman,2000)، غير أن هناك دراسات أخرى بينت أنه من الصعب تحديد اتجاه العلاقة بين النمو الاقتصادي ومستوى الفساد إذ تتسم هذه العلاقة بـ «الدائرية»، فإذا كان انخفاض مستويات الدخول ومعدلات النمو الاقتصادي يؤديان إلى زيادة مستوى الفساد فليس هناك ما يمنع من أن يؤدي انتشار الفساد إلى مزيد من تردي الأوضاع الاقتصادية (41).

العلاقة الدائرية بين الفساد والنمو الاقتصادي



المصدر: الباحث

وأيا كانت طبيعة العلاقة السببية بين النمو الاقتصادي ومستوى الفساد، وإن كان هناك بعض الشكوك حول اتجاه هذه العلاقة السببية، فمما لا شك فيه أن هناك ارتباطا وثيقا بين مدى انتشار الفساد في مجتمع ما ومستوى التنمية الاقتصادية.

4 - 1 - 2 - التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي

ترتبط ظاهرة الفساد ارتباطا قويا بحجم وطبيعة التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي، حتى أن أحد حائزي جائزة نوبل في الاقتصاد (*) يرى أنه «لا يمكن القضاء على الفساد إلا بإلغاء دور الدولة في النشاط الاقتصادي»، وذلك لأن المركز الاحتكاري والسلطة السيادية اللذين تتمتع بهما الحكومة عند تدخلها في النشاط الاقتصادي يتيحان لبعض

(*) جاري بيكر الحائز جائزة نوبل في الاقتصاد لعام ١٩٩٢ .

موظفيها إمكان استغلال سلطاتهم لتحقيق مكاسب خاصة. غير أن القول بإلغاء دور الدولة في النشاط الاقتصادي هو أمر يتجاهل عددا من الحقائق أهمها أن دور الدولة في المجتمع الحديث لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال، حيث تقوم الدولة بكثير من الوظائف التي لا يمكن لسواها القيام بها. كما أن الفساد لا يوجد فقط في القطاع الحكومي أو القطاع العام، بل يوجد أيضا في القطاع الخاص، وعلاوة على ذلك فإن الادعاء بأن التدخل الحكومي هو السبب الرئيسي للفساد يتعارض مع حقيقة أن بعض الدول الأقل فسادا في العالم (مثل كندا والدنمارك وفنلندا وهولندا والسويد) هي دول تتميز بوجود قطاع عام ضخم نسبيا مقيسا بنسبة كل من الإيرادات الحكومية أوحجم الانفاق العام إلى الناتج المحلي الإجمالي، لذا فإن القول بإلغاء دور الحكومة للتخلص من الفساد هو تبسيط للأمور بأكثر مما يجب، فالقضية الأساسية لا تتعلق بحجم الدور الحكومي في النشاط الاقتصادي بقدر ما تتعلق بكيفية أداء هذا الدور وكفاءة الأجهزة الرقابية وطبيعة الإجراءات والقوانين المنظمة لعمل الأجهزة الحكومية، وكذلك مستوى الشفافية في المجتمع. وللتدليل على ذلك نورد أهم المجالات المرتبطة بالتدخل الحكومي التي يتسرب من خلالها الفساد إلى المجتمع:

1 - دعم أو التدخل في توزيع بعض السلع والخدمات

لأسباب اقتصادية واجتماعية تقوم حكومات بعض الدول أحيانا بتوفير عدد من السلع والخدمات بأسعار تقل عن الأسعار السوقية لها، ومن الأمثلة على ذلك الكهرباء والمياه والوقود والخدمات التعليمية والصحية والإسكان الحكومي والأراضي المملوكة للدولة والائتمان والنقد الأجنبي. وفي ظل غياب الرقابة والمساءلة، يمثل قيام الحكومة بدعم هذه السلع والخدمات مجالا مناسبا لظهور الفساد حيث يستطيع بعض الأفراد تحقيق أرباح ضخمة إذا ما تمكنوا - بطريقة أو بأخرى، غالبا غير قانونية - من الحصول على السلع والخدمات المدعومة وإعادة بيعها بأسعار السوق.

وفي بعض الأحيان قد تؤدي محدودية العرض من بعض السلع والخدمات إلى ظهور فائض في الطلب عليها، الأمر الذي يدفع الحكومة إلى تقنين أو توزيع هذه السلع والخدمات، وبالطبع يتم ذلك بوساطة العاملين في الأجهزة والإدارات الحكومية، ولأنه في أي مجتمع هناك دائما من يرغب في التحايل أو تجاوز اللوائح والقوانين لتحقيق مكاسب خاصة فقد يظهر من يرغب في دفع رشى أو عمولات للحصول على أكثر مما يستحق من هذه السلع والخدمات، ولأن هناك أيضا من يرغب، أو هو على استعداد لتلقي هذه الرشى والعمولات لتسهيل هذه الممارسات، وفي ظل غياب الرقابة والمساءلة، فلن يكون من المستغرب ظهور بعض ممارسات الفساد في مثل هذه الأنشطة الحكومية.

2 - إدارة الإنفاق الحكومي

إن مستوى الفساد في مجتمع ما لايتأثر بحجم التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي ولا حجم الإنفاق الحكومي فقط، بل يتأثر - وأحيانا بدرجة أكبر - بكيفية وضع قرارات الإنفاق الحكومي موضع التنفيذ كما يتبين مما يلي:

أ - المشروعات الاستثمارية ومشروعات البنية التحتية:

عندما تقرر الحكومة إقامة مشروعات استثمارية (مثل مشروعات البنية التحتية: طرق ، كباري، محطات توليد كهرباء وغيرها) تمنح بعض المسؤولين الحكوميين أو كبار موظفي الحكومة سلطات واسعة في توزيع الإنفاق الحكومي بين المشروعات المختلفة، وكذلك تختار من ينفذ هذه المشروعات، سواء كان من الشركات المحلية أو الشركات الأجنبية. وفي ظل عدم وجود إجراءات واضحة تتسم بالشفافية في تحديد حجم الإنفاق المخصص، وكذلك اختيار من ينفذ، يجد كثير من هؤلاء المسؤولين الفرصة سانحة لاستغلال سلطاتهم لتحقيق منافع خاصة على حساب المصلحة العامة، وذلك من خلال إرساء «العطاءات» أو «المناقصات» على شركات بعينها دون غيرها، ليس لاعتبارات الكفاءة أو الخبرة أو أفضلية العطاءات المقدمة، ولكن مقابل عمولات يحصل عليها هؤلاء المسؤولون، وبالطبع تحاول هذه الشركات التي رست العطاءات عليها تعويض ما دفع من عمولات من خلال التوفير في التكاليف، الأمر الذي ينعكس على تدني مستوى التنفيذ وكفاءة المشروعات الحكومية، بل إنه أحيانا ما تُتخذ القرارات بإقامة مشروعات دون مبررات اقتصادية أو اجتماعية كافية لكن فقط لكونها توفر الفرصة للحصول على مزيد من العمولات أو الرشى، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى تدني العوائد الاقتصادية والاجتماعية للإنفاق الحكومي (Tanzi,2000b) (42).

ب - المشتريات الحكومية:

يمثل بند المشتريات الحكومية من السلع والخدمات أحد أهم بنود الإنفاق الحكومي وبالطبع تتولى بعض الجهات الحكومية اتخاذ القرارات المتعلقة بكميات ونوعيات هذه السلع والخدمات، ليس هذا فقط بل يقوم بعض موظفي الحكومة بتحديد الشركات التي تورد هذه السلع والخدمات، وهنا يجد بعض موظفي الحكومة الفرصة سانحة لتحقيق مكاسب خاصة، وذلك من خلال اختيار شركات معينة للتوريد دون غيرها، و/أو القبول بأسعار مبالغ فيها، و/ أو التجاوز عن متطلبات السلامة وشروط الجودة وذلك مقابل عمولات أو مزايا مادية أخرى.

ج - بنود الإنفاق غير المدرجة في الموازنة العامة:

هناك عدد من بنود الإنفاق الحكومي والإيرادات الحكومية التي لا تُدرج في الموازنة العامة للحكومة تحت دواع السرية واعتبارات الأمن القومي، أو بغرض تجنب الرقابة أوالمساءلة السياسية، ومن الأمثلة على ذلك الإنفاق العسكري، الإنفاق على التسلح، الإنفاق على أجهزة

المخابرات والأجهزة الأمنية، والمعونات الأجنبية. وحصيلة إيرادات الموارد الطبيعية مثل النفط والمعادن الثمينة في جانب الإيرادات. وفي معظم البلدان، خصوصا البلدان غير الديموقراطية، حيث تغيب الشفافية والمساءلة والرقابة، ويوجه جزء كبير من بنود الإنفاق هذه إلى مشروعات حكومية متدنية أو حتى عديمة العائد الاقتصادي والاجتماعي، وكذلك قد يجد جزء كبير من هذه الإيرادات طريقه إلى الحسابات الخاصة لبعض كبار المسؤولين الحكوميين أو حتى صغارهم (Tanzi,2000b) [43].

3 - طبيعة النظام الضريبي

قد يمثل النظام الضريبي بما يتضمنه من قوانين ضريبية وإجراءات للتحصيل، أحد المصادر الأساسية للفساد في المجتمع، غير أن المشكلة لا تكمن في وجود نظام ضريبي أو وجود ضرائب، بل تكمن في طبيعة هذه القوانين الضريبية والكفاءة التنظيمية والإدارية لتحصيل الضرائب، فقد أوضح عدد من الدراسات التطبيقية أنه بينما يقل حجم الفساد في تلك البلدان التي تتمتع بأنظمة ضريبية تتسم بالعدالة وتعتمد على قوانين ضريبية واضحة لا لبس فيها، والتي لا يتطلب فيها تحصيل الضرائب اتصالا مباشرا بين دافعي الضرائب ومحصلي الضرائب من موظفي الحكومة، نجد أن حجم الفساد يزداد في تلك البلدان التي تتسم فيها الأنظمة الضريبية بالتعقيد والغموض والتقديرات الجزافية، ويكون فيها لموظفي الإدارات الضريبية سلطات واسعة في تقدير قيمة الضرائب، إذ تصبح إدارات الضرائب والجمارك في تلك البلدان من أهم معاقل الفساد في المجتمع.

وعلى نحو أكثر تحديدا يمكن إجمال أهم الأسباب التي تؤدي إلى انتشار الفساد في الإدارات الضريبية والجمركية في ما يلي:

- تعقد وصعوبة فهم القوانين الضريبية وتعدد تفسيراتها، الأمر الذي قد يدفع أو يجبر - في معظم الأحيان - دافعي الضرائب إلى الاستعانة بـ «البعض» لتفسير هذه القوانين، وبالطبع إذا كان هذا «البعض» يتمثل في موظفي الضرائب فإن المساعدة قد تتخطى عملية تفسير القوانين إلى الحصول على بعض المزايا غير القانونية مقابل حصول موظفي الضرائب على منافع خاصة مالية أو غير مالية.
- الاحتكاك المباشر بين دافع الضرائب والقائمين على تقدير حجم الضرائب وتحصيلها غالبا ما يسهل ويشجع على ممارسات الفساد.
- انخفاض مستويات أجور ومرتبات العاملين في الإدارات الضريبية يجعلهم أقل «مناعة» ضد الإغراءات المالية التي قد يقدمها بعض دافعي الضرائب للحصول على مزايا أو تخفيض مقدار ما يدفعون من ضرائب.
- عدم مراعاة معايير الأمانة والنزاهة في اختيار العاملين في الإدارات الضريبية والجمركية.

- تمتع بعض العاملين في الإدارات الضريبية بسلطة اتخاذ بعض القرارات المرتبطة بمنح بعض المزايا أو الإعفاءات الضريبية يتيح الفرصة لاستغلال هذه السلطة للحصول على رشى أو مزايا خاصة.

- ضعف الرقابة الحكومية على وضع اللوائح التنفيذية والتفسيرية لقوانين الضرائب، وكذلك على المسؤولين عن تنفيذ هذه اللوائح والقوانين.

- التستر على ممارسات الفساد التي يتورط فيها بعض العاملين في الإدارات الضريبية والجمركية، والتراخي في اتخاذ الإجراءات الرادعة ضد من يتورطون فيها يساعدان على انتشار هذه الممارسات.

وقد حدث في بعض البلاد(*) أن انتشر الفساد إلى الحد الذي دفع حكومات هذه البلاد إلى التخلص من الإدارات الضريبية والجمركية الموجودة بالكامل واستبدال إدارات جديدة بها، بل إن بعض الحكومات كلفت شركات أجنبية متخصصة للقيام بعمل الإدارات الجمركية المحلية.

4 - تمتع بعض موظفي الحكومة بسلطة اتخاذ قرارات سيادية

في كثير من الدول يتمتع بعض كبار المسؤولين الحكوميين بسلطة اتخاذ بعض القرارات السيادية التي قد تمنح أو تحجب كثيرا من المزايا الاقتصادية، وأحيانا ما يتم ذلك تحت مظلة قانونية، وذلك عندما يتضمن القانون بندا يسمح للمسؤول الحكومي أن يستثني من يراه «جديرا» بهذا الاستثناء من أحكام القانون، الأمر الذي لا يتعارض فقط مع مضمون القانون، لكن أيضا يؤدي إلى ظهور نوع غريب من الفساد هو ما يمكن أن يطلق عليه «الفساد القانوني»، حيث يوفر القانون حماية للمسؤول الذي يستخدم هذا الاستثناء لتحقيق مزايا خاصة، ومن الأمثلة على ذلك النوع من القرارات السيادية:

- تمتع بعض موظفي الحكومة بسلطة اتخاذ قرارات تتعلق بتخصيص أو بيع أراضي الدولة، أو تغيير نوعية الأنشطة الاقتصادية المسموح القيام بها على هذه الأراضي، مثال ذلك السماح باستغلال الأراضي الزراعية (التي غالبا ما تكون القيمة السوقية لها منخفضة نسبيا) في أغراض صناعية أو اقامة مبان سكنية عليها (والتي غالبا ما تكون قيمتها السوقية مرتفعة نسبيا).

- القرارات التي تتعلق بمنح حق استغلال بعض أراضي الدولة لأغراض معينة، مثل منح التراخيص باستغلال الأشجار في الغابات المملوكة للدولة أو حقوق التنقيب عن البترول واستخراج المعادن.

- القرارات الخاصة بنقل أو تحويل ملكية المشروعات المملوكة للدولة (القطاع العام) إلى القطاع الخاص، أو ما يعرف بعملية «الخصخصة»، مثال ذلك طريقة وشروط بيع وتحديد قيمة أصول القطاع العام، وتحديد النشاط المستقبلي لهذه المشروعات، وقد وجد كثير من المسؤولين الحكوميين في عملية الخصخصة هذه فرصة ذهبية لتحقيق مكاسب مالية ضخمة،

(*) من أهم الأمثلة على ذلك أوغندا وبيرو.

الأمر الذي حول عملية «بيع» أصول القطاع العام فى كثير من الدول إلى عملية «نهب» للقطاع العام. وتشير كثير من التقارير الصحافية إلى أن مبالغ مالية هائلة قد نهبت في إطار عملية الخصخصة في الدول النامية.

- القرارات الخاصة بمنح بعض مؤسسات الأعمال، سواء كانت محلية أو أجنبية، مزايا احتكارية في بعض الأنشطة الاقتصادية، مثل التجارة الخارجية وعملية استيراد وتصدير بعض السلع.

- القرارات الخاصة بمنح مزايا أو إعفاءات ضريبية، سواء على دخول الأفراد أو مؤسسات الأعمال، وفي بعض الأحيان تبلغ القيمة النقدية لهذه المزايا والإعفاءات ملايين الدولارات، ما يغري بعض المسؤولين على استغلال ما يتمتعون به من سلطات لتحقيق منافع خاصة.

ولا شك في أن هذه القرارات السيادية تنطوي على أهمية كبيرة لدى بعض الأفراد ومؤسسات الأعمال، وذلك بما تمنحه من مزايا وفرص كبيرة للتربح، ومن ثم فليس من المستغرب أن يحاول هؤلاء الأفراد ومؤسسات الأعمال التأثير في متخذي هذه القرارات للحصول على بعض المزايا الاقتصادية. وتتراوح محاولات التأثير بين استغلال الصلات والعلاقات الشخصية إلى دفع الرشى، بل وأحيانا المشاركة في الأرباح. وقد ييسر من محاولات التأثير هذه انخفاض مستويات دخول متخذي هذه القرارات الأمر الذي يجعل «سعر إغرائهم» Tempetation Price لخرق القوانين واللوائح منخفضا نسبيا أو أقل قيمة مما يستطيعون منحه من مزايا لدافعي «سعر الإغراء» هذا.

وفي ضوء ما تقدم، يمكن القول إن الفساد قد يتسرب إلى معظم مجالات التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي، لذا يرى كثير من الباحثين أن التدخل الحكومي يمثل أحد المنابع الرئيسية للفساد في المجتمع. وقد أيدت دراسة قام بها (La Palombara,1994) هذه الفرضية حيث بينت وجود ارتباط قوي بين مستوى الفساد والموازنة الحكومية كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي كمقياس للتدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي، غير أن هناك عددا من الانتقادات التي وجهت إلى هذا المقياس استنادا إلى أنه لا يعكس مدى التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي، الذي يمكن قياسه من خلال ما تقوم به الدولة من دور في عملية إعادة توزيع الدخل والثروة، والذي عادة ما يُقاس بإجمالي المدفوعات التحويلية والإعانات الحكومية وليس بنسبة الموازنة الحكومية إلى الناتج المحلي الإجمالي. ولتلافي أوجه القصور في مقياس La Palonbara للتدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي قام (La Porta et.al,1999) [44] بدراسة أثر التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي - مقيسا بإجمالي المدفوعات التحويلية والإعانات الحكومية - على مستوى الفساد. وقد أوضحت نتائج الدراسة أن هناك ارتباطا طرديا بين مدى التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي ومستوى الفساد، غير أن

(Rose-Ackerman,1999) [45] ترى أن هذا الارتباط الإحصائي بين حجم التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي ومستوى الفساد قد يكون مضللا، ويدعم هذا الرأي دراسة قام بها (Elliott,1997) [46]، مستخدما عينة من 83 دولة أوضحت نتائجها أن هناك ارتباطا عكسيا بين التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي ومستوى الفساد. وفي ضوء هذا «التضارب» الإحصائي، ترى Rose-Ackerman أن التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي قد يوفر بيئة «مناسبة» لظهور الفساد، غير أن «طبيعة» هذا التدخل الحكومي تمثل العنصر الحاسم في تحديد ما إذا كان هذا التدخل الحكومي يمثل سببا رئيسيا لظهور الفساد أم لا، وبمعنى آخر، فإنه إذا كان التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي يمثل شرطا «ضروريا» لظهور الفساد فإن الشرط «الكافي» يتمثل في وجود صور معينة للتدخل الحكومي تجعل من ظهور الفساد أمرا محتوما.

4 - 1 - 3 - انخفاض مستويات الأجور والمرتبات في القطاع الحكومي

لا شك في أن انخفاض مستويات الأجور والمرتبات في القطاع الحكومي يمثل أحد العوامل الرئيسية التي تساعد على انتشار الفساد في المجتمع، وذلك لأن موظف الحكومة يسعى، مثله مثل جميع الأفراد، إلى توفير وسائل الحياة الكريمة له ولأسرته، وعندما لا يكفي دخله الوفاء بهذه الغاية يبدأ في البحث عن مصادر دخل إضافية، ولأن استغلال سلطته لن يكلفه أعباء إضافية يتبدى لبعض موظفي الحكومة أن استغلال السلطة مقابل تحقيق بعض المكاسب الخاصة أسهل الطرق لزيادة الدخل، وقد يبرر بعض العاملين في القطاع الحكومي هذا المسلك بإلقاء اللائمة على الحكومة التي لم توفر لهم الدخول الكافية. وبغض النظر عن مدى منطقية أو شرعية هذا التبرير فإن التحالف بين انخفاض مستويات الأجور/ المرتبات الحكومية من ناحية، وتمتع بعض موظفي الحكومة بسلطات تمكنهم من التأثير في مصالح الأفراد ومؤسسات الأعمال من ناحية أخرى، يمثل أحد الأركان الأساسية لمنظومة الفساد في القطاع الحكومي، ويدلل Assar Lindbeck [47] على ذلك بالقول إن الارتفاع في مرتبات كبار موظفي القطاع الحكومي في السويد في القرن الماضي (بلغ ما يتراوح بين 12 و15 ضعفا متوسط مثيله في القطاع غير الحكومي) كان أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى انحسار ظاهرة الفساد.

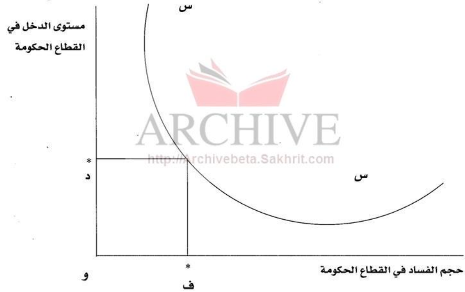
وعند الربط بين مستويات أجور/ مرتبات موظفي الحكومة والفساد ينبغي التمييز بين شكلين من الفساد:

الأول: الفساد الاضطراري - من وجهة نظر من يتورطون فيه - وهو الفساد الذي تخلقه الحاجة أو يرجع إلى انخفاض مستويات الأجور والمرتبات الحكومية (الفساد الناشئ عن الحاجة).

الثاني: الفساد الاختياري، وهو الفساد الذي يرجع إلى جشع وطمع بعض موظفي القطاع الحكومي، الذين تتوافر لهم وسائل الحياة الكريمة ويحصلون على دخول كافية ولكنهم يطمعون في المزيد (الفساد الناشئ عن الطمع).

ويمكن توضيح الفرق بين نوعي الفساد السابقين بالاستعانة بالمنحنى س س في الشكل (2)، يوضح منحنى س س علاقة عكسية بين حجم الفساد ومستويات الدخول في القطاع الحكومي، وكما يتبين من الشكل يزداد مستوى الفساد مع انخفاض مستويات الدخول في القطاع الحكومي ويقل بارتفاعها.

ويمكن توضيح الفرق بين نوعي الفساد سابقي الذكر (الفساد الناشئ عن الحاجة والفساد الناشئ عن الطمع) باستخدام الشكل(2).



الشكل (2): العلاقة بين حجم الفساد ومستوى الدخل في القطاع الحكومي

بافتراض أن مستوى الدخل الذي يوفر حياة كريمة لموظف الحكومة هو (و د*) فإنه يمكن القول أن مستويات الفساد الأعلى من (و ف*) تنشأ بسبب الحاجة (انخفاض مستويات دخول موظفي الحكومة)، أما مستويات الفساد الأقل من (و ف*) فتنشأ بسبب الطمع أو الجشع، ويتضح أيضا من الشكل (2) أنه حتى في ظل مستويات الدخل الأعلى من (و د*) سيستمر الفساد في القطاع الحكومي، ويمكن تفسير ذلك بأحد عاملين أو كليهما الأول: تردي

أخلاقيات بعض موظفي القطاع الحكومي وجشعهم وطمعهم. والثاني أن قيمة ما يقدم إلى موظفي الحكومة من رشى أو مزايا خاصة يكون من الكبر بحيث يصعب عليهم رفضه. ويقودنا هذا إلى استنتاج أن ارتفاع مستويات دخول موظفي الحكومة يمكن أن يؤدي إلى انخفاض حجم الفساد، غير أنه لا يكفي وحده للقضاء على الفساد في القطاع الحكومي.

وقد أيد عدد من الدراسات التطبيقية العلاقة العكسية بين الفساد ومستويات دخول موظفي القطاع الحكومي، وفي هذا الخصوص يرى Van Rijckegham and Weder [48] أن زيادة مستويات دخول موظفي القطاع الحكومي قد تؤدي إلى تقليل حجم الفساد في المجتمع، غير أن الوصول بالفساد إلى حده الأدنى يتطلب زيادات ضخمة في مستويات دخول موظفي القطاع الحكومي، الأمر الذي يعني أن مكافحة الفساد باستخدام سلاح زيادة الدخول فقط سيكون أمرا باهظ التكلفة، كما أنه لن يؤدي إلى القضاء على الفساد تماما كما سبق توضيحه، لأنه حتى عند المستويات الأعلى من الدخول يوجد الفساد الناشئ عن جشع بعض موظفي الحكومة، وهذا الجشع لن يختفي عند زيادة الأجور، وعلاوة على ذلك يرى بعض الاقتصاديين أن ارتفاع مستويات دخول موظفي القطاع الحكومي قد يؤدي إلى تقليل «عدد ممارسات الفساد»، لكن ليس من الضروري أن يؤدي إلى انخفاض قيمة المعاملات المالية التي تتضمنها ممارسات الفساد هذه، وبمعنى آخر قد يؤدي ارتفاع مستويات الدخول في القطاع الحكومي إلى انخفاض عدد موظفي الحكومة الذين قد يتورطون في ممارسات الفساد، لكن سيبقى دائما هناك بعض موظفي الحكومة الذين هم على استعداد للتورط في ممارسات الفساد بغض النظر عن ارتفاع مستويات الدخول، وهذا «البعض» من موظفي الحكومة قد يزيد قيمة الرشى أو المكاسب التي يطلبها، ويعني هذا أن عدد ممارسات الفساد قد يقل، ولكن حجم الأموال التي تتضمنها ممارسات الفساد يبقى كما هو أو قد يزيد. ويمكن تفسير قيام هذا «البعض» من موظفي الحكومة بزيادة قيمة الرشى بارتفاع تكلفة الفرصة البديلة أي الدخل الذي سيفقده إذا اكتشفت هذه الممارسات وأدين المسؤول المرتشي.

والخلاصة فيما سبق هي أن زيادة مستويات دخول موظفي الحكومة قد تؤدي إلى تقليل عدد ممارسات الفساد، غير أنها لا تؤدي إلى القضاء على الفساد تماما، كما أنها لا تؤدي بالضرورة إلى نقص في قيمة الأموال المدفوعة كرشى، لذا ينبغي النظر إلى زيادة أجور ومرتبات موظفي الحكومة على أنها إحدى الوسائل التي يمكن استخدامها لمكافحة الفساد، لكن في إطار استراتيجية شاملة متكاملة تتضمن عددا من الوسائل الأخرى التي تأخذ في الاعتبار الأسباب الاقتصادية الأخرى والعوامل السياسية والاجتماعية التي تغذي ظاهرة الفساد.

وإدراكا لأهمية تأثير انخفاض مستويات الأجور في القطاع الحكومي في حجم الفساد في المجتمع، شهدت السنوات الأخيرة محاولات عدد من الدول (الأرجنتين وبيرو وسنغافورة) اتباع

سياسة زيادة دخول موظفي الحكومة، خصوصا في بعض الإدارات الحكومية الحساسة، مثل إدارات الضرائب والجمارك، وذلك بهدف الحد من الفساد في القطاع الحكومي وجذب الأفراد الأكثر تأهيلا وأمانة، حتى أن مرتبات كبار المسؤولين والوزراء في سنغافورة وصلت إلى مستويات قياسية جعلتها الأعلى بين دول العالم، الأمر الذي ساهم على نحو ملحوظ في الحد من الفساد فيها (Tanzi,2000b)[49].

4 - 1 - 4 - غياب البيئة التنافسية

تقرر النظرية الاقتصادية أن توافر بيئة تنافسية يدفع الأفراد ومؤسسات الأعمال إلى رفع مستوى الكفاءة في استغلال مواردهم الاقتصادية، وفي مثل هذه البيئة، وفي ظل توافر بعض الشروط مثل تمتع الهيكل الإنتاجي بدرجة معينة من التطور، يتراجع دور الأنشطة الاقتصادية الريعية وتنخفض أهمية الريع كمصدر من مصادر الدخل، ويؤدي هذا إلى جعل مؤسسات الأعمال أقل استعدادا لتقديم الرشى والعمولات غير القانونية، كما أنه يضعف دافع بعض موظفي الحكومة لاقتناص جزء من الريع المتحقق. واستنادا إلى هذا التحليل يرى بعض الاقتصاديين أن هناك علاقة عكسية بين مستوى الفساد ومدى ما يتمتع به اقتصاد ما من حرية اقتصادية، فالاقتصاد الحر الذي يعتمد على بيئة تنافسية يمثل بيئة غير مواتية للفساد. وعلى الجانب الآخر قد تشجع القيود التي تفرضها الحكومة على الحرية الاقتصادية على ظهور الفساد وانتشاره [50].

وللتحقق من مصداقية التحليل السابق، قامت بعض الدراسات القياسية (Brunetti and Weder,1998) [51] بدراسة العلاقة بين مستوى الفساد ومؤشرات الحرية الاقتصادية، وقد أوضحت هذه الدراسات وجود علاقة عكسية بين مستوى الفساد ومؤشر الانفتاح الاقتصادي على العالم الخارجي (مقيسا بنسبة الواردات/ الناتج المحلي الاجمالي)، كمقياس لمدى الحرية الاقتصادية وتوافر البيئة التنافسية. غير أن (Lambsdorff,1999) [52] ينتقد هذه الدراسات استنادا إلى أن نسبة الواردات/ الناتج المحلي الإجمالي لا تعكس مدى الحرية الاقتصادية التي يتمتع بها بلد ما بقدر ما تعكس عوامل اقتصادية وديموجرافية أخرى مثل حجم السكان ومتوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي ومدى تطور الهيكل الاقتصادي وكفاءة الجهاز الإنتاجي، ومن ثم يرى Lambsdorff أن علينا التعامل بحرص مع نتائج هذه الدراسات، فقد يتمتع بلد ما بوجود درجة عالية من الحرية الاقتصادية على الرغم من انخفاض نسبة الواردات/ الناتج المحلي الاجمالي نتيجة عوامل أخرى مثل اتساع حجم السوق المحلية على سبيل المثال.

وعلى الجانب الآخر، سعت دراسات أخرى إلى دراسة العلاقة بين الفساد والحرية الاقتصادية، لكن باستخدام مؤشرات أخرى للحرية الاقتصادية، مثل عدد سنوات انفتاح بلد

ما للتجارة الخارجية (Leite and Weidmann,1999,Paldam,1999a) [53] أو مؤشر «الهيمنة على السوق» Market Dominance، و«قوانين الحد من الاحتكار» Anti-Trust Laws (Ades and Di Tella,1995)، وبينما يقيس مؤشر الهيمنة على السوق مدى سيطرة عدد محدود من الشركات على نشاط إنتاجي معين فإن مؤشر قوانين الحد من الاحتكار يعكس أثر قوانين الحد من الاحتكار في الممارسات التي تحول دون وجود بيئة تنافسية، وقد أيدت هذه الدراسات النتائج السابقة، حيث أوضحت أن هيمنة عدد قليل من الشركات على السوق، وغياب أو عدم فاعلية قوانين الحد من الاحتكار يوفران بيئة ملائمة لانتشار الفساد. وتتفق هذه النتائج مع الفرض القائل إن وجود قوى احتكارية في الاقتصاد تحصل على مستويات عالية من الريع الاقتصادي يدفع بعض موظفي الحكومة إلى السعي إلى الحصول على جزء من هذا الريع في صورة عمولات أو رشى كما سبق توضيحه.

4 - 1 - 5 - درجة الانفتاح على العالم الخارجي ومدى أهمية التجارة الخارجية

تؤثر درجة انفتاح اقتصاد ما في العالم الخارجي وتتأثر بعدد من العوامل مثل مستوى التطور الاقتصادي، وطبيعة الهيكل الإنتاجي، ومتوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، وحجم السكان،... وغيرها من العوامل الأخرى، لكن هل يمكن الربط بين مستوى الفساد ودرجة انفتاح اقتصاد ما على العالم الخارجي؟ للإجابة عن هذا السؤال يرى (Wei,2000) [54] أنه ينبغي التمييز بين مكونين رئيسيين لانفتاح بلد ما على العالم الخارجي: الأول ما تمكن الإشارة إليه بـ «الانفتاح الطبيعي» Natural Openness، وهو ذلك القدر من الانفتاح على العالم الخارجي الذي يرجع إلى عوامل تتسم بالثبات النسبي أو التطور البطيء، مثل العوامل الجغرافية واللغة وحجم السكان، أما المكون الثاني فهو «الانفتاح المتبقي» Residual Openness، ويشير إلى ذلك القدر من الانفتاح على العالم الخارجي الذي يرجع إلى عوامل تتسم بالديناميكية أو التغير مثل السياسات الاقتصادية وبصفة خاصة سياسة التجارة الخارجية. وقد أوضحت دراسة لـ Wei، اعتمدت على عينة كبيرة من البلدان أن 60% من الاختلافات بين الدول في درجة انفتاحها على العالم الخارجي يرجع إلى عوامل طبيعية مثل اللغة والعوامل الجغرافية، وفي هذا الخصوص يرى Wei أن زيادة درجة «الانفتاح الطبيعي» للمجتمع على العالم الخارجي تؤدي إلى زيادة الكفاءة في استخدام الموارد الاقتصادية وتشجيع النمو الاقتصادي وتوفير موارد كافية لإنشاء مؤسسات حكومية قادرة على القيام بوظائفها، الأمر الذي يحول دون انتشار الفساد في المجتمع، ومن ثم يرى Wei أن الزيادة في درجة الانفتاح «الطبيعي» للمجتمعات على العالم الخارجي غالبا ما تصاحبها مستويات أقل من الفساد. ويضيف إلى ذلك أن البلدان التي تكون منفتحة على العالم الخارجي بدرجة أكبر - نتيجة لعوامل طبيعية - يمكن أن تحقق مكاسب أكبر في حربها ضد الفساد عن تلك البلدان

المنعزلة نسبيا عن العالم الخارجي، وهكذا وفقا لـ Wei فإن مدى الانفتاح الطبيعي للمجتمع هو العنصر الذي يجب التركيز عليه عند دراسة العلاقة بين درجة الانفتاح على العالم الخارجي ومستوى الفساد في المجتمع.

وجاءت نتائج دراسة (Wei,2000) لتدعم ما ذهب إليه في تحليله السابق، حيث أوضحت أن هناك علاقة عكسية بين مستوى الفساد مقيسا بكل من مؤشر مؤسسة الأعمال الدولية Business International ومؤشر منظمة الشفافية الدولية، وبين درجة الانفتاح «الطبيعي» على العالم الخارجي، وذلك مع الأخذ في الاعتبار الاختلاف في درجة التنمية الاقتصادية، وعلاوة على ذلك أوضحت الدراسة أيضا أن الانفتاح «المتبقي» الذي يرجع إلى عوامل خاصة بالسياسات الاقتصادية وسياسة التجارة الخارجية لا يُعد من العوامل الرئيسية التي يمكن أن تفسر ظهور وانتشار الفساد إذا ما أُخذ الانفتاح «الطبيعي» في الاعتبار، غير أن هذا قد يعني أن كثيرا من الدول قد تقع فريسة للفساد لا لشيء إلا لكون الطبيعة حالت بينها (نتيجة الموقع الجغرافي أو صغر حجم السكان) وبين الانفتاح على العالم الخارجي بدرجة كبيرة، لذا أوضح Wei أن هناك عوامل أخرى غير تلك التي تضمنتها دراسته تؤثر تأثيرا واضحا في «درجة الانفتاح الطبيعي» لمجتمع ما.

تفرض كثير من دول العالم عددا من القيود على التجارة الخارجية (الواردات والصادرات)، وتتراوح هذه القيود بين قيود قيمية، مثل الرسوم الجمركية، وقيود كمية، مثل نظام الحصص، علاوة على القيود الإدارية ومتطلبات السلامة الصحية، وهناك أيضا قيود على الصادرات وإن كانت أقل حدة. ويتيح وجود هذه القيود على الواردات والصادرات «فرصة ذهبية» لبعض موظفي الجمارك في بعض الدول لابتزاز المصدرين والمستوردين للحصول على رشًى أو إتاوات، خصوصا أن عنصر الوقت يحتل أهمية نسبية أكبر في مجال التجارة الدولية عن غيره من الأنشطة الاقتصادية الأخرى، لذا غالبا ما نجد أن إدارة الجمارك والضرائب هي أكثر القطاعات فسادا في كثير من الدول.

وفي هذا الخصوص، يرى (Gatti,1999) [55] أن هناك علاقة مباشرة بين الفساد والقيود على التجارة الخارجية (خصوصا الواردات). وللتدليل على صحة هذا الرأي، درس Gatti العلاقة بين طبيعة ومدى شدة القيود المفروضة على الواردات وبين مستويات الفساد في عينة شملت 35 دولة توافرت عنها البيانات المطلوبة، وقد أوضحت هذه الدراسة أن هناك علاقة طردية بين حجم وطبيعة القيود المفروضة على التجارة الخارجية وبين مستوى الفساد في المجتمع بوجه عام وفي الإدارات الحكومية بوجه خاص.

ويمكن تفسير هذه النتائج استنادا إلى أن وجود قيود على التجارة الخارجية يقدم الفرصة لموظفي الجمارك للقيام بمزيد من التعنت وفرض متطلبات وشروط إضافية للموافقة على

مرور السلع من أو إلى الدولة، وفي محاولة للتقليل من أو حتى تجاوز القيود المفروضة واختصار الإجراءات والوقت قد لا يجد المصدرون أو المستوردون خيارا إلا تقديم الرشى لموظفي الجمارك، وعلى الرغم من سلامة المنطق الذي يستند إليه التحليل السابق وتوافر الأدلة العملية والبيانات التي تبين حصول موظفي الجمارك في الدول الأكثر فسادا على نصيب كبير من إجمالي الرشى، فإن الطرق الاقتصادية القياسية والإحصائية لم تؤكد هذه العلاقة بين حجم الفساد والقيود على التجارة الخارجية.

لكن، كيف يمكن تفسير غياب «الدليل» الإحصائي أو «القياسي» على وجود مثل هذه العلاقة؟ تتعدد التفسيرات لغياب هذا «الدليل الاحصائي» غير أن أهمها:

- في جميع الأحوال، وحتى في ظل انخفاض معدلات الرسوم الجمركية (الأمر الذي يعني انخفاض حجم القيود على التجارة الخارجية) يجب أن تخضع السلع المستوردة لكثير من عمليات الفحص والتفتيش قبل السماح بدخولها البلاد، الأمر الذي يتطلب كثيرا من الوقت، وبالطبع قد يستغل بعض موظفي الجمارك هذه الإجراءات البيروقراطية للضغط على المستوردين للحصول على رشى قد تفوق ما قد يدفعه المستوردون في حالة وجود رسوم جمركية مرتفعة، الأمر الذي يعني أنه برغم انخفاض معدلات الرسوم الجمركية ومن ثم انخفاض حجم القيود على التجارة الخارجية فإن ممارسات الفساد توجد على نطاق واسع، وهكذا قد يكون مستوى الفساد مرتفعا في ظل انخفاض القيود على التجارة الخارجية.

- قد يؤدي ارتفاع معدلات الرسوم الجمركية إلى تقليل درجة انفتاح البلد على العالم الخارجي وانخفاض حجم الواردات وتقليل عدد المعاملات المرتبطة بها، الأمر الذي يؤدي إلى انخفاض مستوى الفساد، ومن ثم فإن زيادة القيود على التجارة الخارجية لا تصاحبها زيادة في مستويات الفساد.

- قد تكون معدلات الرسوم الجمركية مرتفعة في دول تعاني انخفاض مستوى كفاءة الإدارات الجمركية بها فتزداد عمليات تهريب السلع المستوردة بعيدا عن موظفي الجمارك، الأمر الذي يؤدي إلى تقليل ممارسات الفساد، ومن ثم ينخفض مستوى الفساد في ظل زيادة القيود على التجارة الخارجية.

وأخيرا يجدر التنبيه إلى أن زيادة القيود على التجارة الخارجية، وإن كانت تهيئ بيئة مناسبة لممارسات الفساد، فإن وجودها لا يؤدي بالضرورة إلى انتشار الفساد، فهناك عوامل أخرى لا تقل أهمية في الهيئات والإدارات الجمركية، منها الكفاءة الإدارية ونظم الرقابة والمساءلة، إضافة إلى مستوى الفساد في المجتمع ككل.

وقبل التعرف على الأسباب غير الاقتصادية للفساد يجدر التنويه إلى أن الأسباب الاقتصادية ليس لها التأثير نفسه في المجتمعات المختلفة، فقد نجد في مجتمع ما أن

انخفاض متوسط دخل الفرد، وعلى وجه الخصوص موظفو الحكومة، هو العامل الأهم وراء ظاهرة الفساد، بينما نجد في مجتمع آخر أن تعقد اللوائح والقوانين هو العامل الأكثر أهمية، غير أنه في جميع الأحوال لا يمكن تفسير ظاهرة معقدة مثل ظاهرة الفساد بعامل أو اثنين، أو حتى بالاقتصار فقط على الأسباب الاقتصادية، ففي بعض الأحيان لا تقل العوامل غير الاقتصادية أهمية عن العوامل الاقتصادية في تفسير هذه الظاهرة.

4 - 2 - الأسباب غير الاقتصادية للفساد

لا شك في أن حجم ونطاق الفساد في مجتمع ما هو محصلة تفاعل عدد من العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية والإدارية، علاوة على العوامل الاقتصادية التي سبقت مناقشتها. فعند دراسة ظاهرة الفساد، لا يمكن تجاهل عوامل مثل طبيعة النظام السياسي ومدى احترام حقوق الإنسان وكفاءة النظم الإدارية ونزاهة النظام القضائي وطبيعة القوانين واللوائح المنظمة لشتى مجالات النشاط الاقتصادي.

ويمكن تقسيم العوامل غير الاقتصادية المؤثرة في الفساد إلى ثلاث مجموعات فرعية:

- العوامل السياسية.
- العوامل الإدارية والتنظيمية.
- العوامل الثقافية.

تؤدي عناصر المنظومة السياسية دورا كبيرا، ليس فقط في تحديد مستوى الفساد في المجتمع، بل في تحديد الأشكال التي يتخذها هذا الفساد، إذ لا يمكن تجاهل تأثير عوامل مثل مدى الالتزام بمبادئ الديموقراطية، وطرق تمويل الأحزاب السياسية ونزاهة القيادة السياسية في دراسة ظاهرة مثل ظاهرة الفساد.

وعلى الرغم من تعقد العلاقة بين الديموقراطية والفساد فإن الاتجاه العام بين الباحثين - في هذا الخصوص - أن الفساد يميل إلى أن يكون أقل في المجتمعات الديموقراطية مقارنة بالمجتمعات الدكتاتورية والشمولية (Diamond and Platter,1993) [56]، إذ تؤدي الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدنية دورا حيويا في عملية الرقابة على المسؤولين السياسيين وكبار موظفي الدولة، بل تستطيع أيضا ممارسة الضغوط عليهم، بل وعزلهم إذا ما ثبت تورطهم في ممارسات للفساد، كما أن التنافس السياسي بين الأحزاب السياسية يعزز الحافز لديها للكشف عن حالات الفساد، خصوصا إذا ما تورط فيها أعضاء في المعسكر المضاد، علاوة على ذلك فإن الحرية التي تتمتع بها وسائل الإعلام، خصوصا الصحافة في المجتمعات الديموقراطية، تمكن من الملاحقة والكشف عن حالات استغلال السلطة السياسية.

ومن العوامل التي تؤثر في مدى انتشار الفساد أيضا طبيعة النظام السياسي، وما إذا كان نظاما مركزيا أو نظاما فدراليا (لا مركزيا)، وبينما يرى فريق من الباحثين أن النظم الفدرالية

تكون أقل فسادا (Weingast,1995; Breton,1996; Goldsmith,1999) (57) يرى فريق آخر أن النظم اللامركزية تكون أكثر عرضة للفساد مقارنة بالنظم المركزية (Wilson, 1989a; Manor,1999) (58)، كما يرى فريق ثالث أن كلا من النظم السياسية شديدة المركزية وشديدة اللامركزية تكون أقل عرضة للفساد مقارنة بالدول ذات النظم «متوسطة» المركزية (Shleifer and Vishny,1993) (59). ومن مراجعة الدراسات والكتابات في هذه القضية يبدو أن السؤال عما إذا كانت النظم المركزية أقل فسادا أو أكثر من النظم اللامركزية سيظل سؤالا بلا إجابة حاسمة.

تُعد قضية تمويل الأحزاب السياسية من أهم القضايا التي تثير كثيرا من الجدل حول مدى كفاءة النظم الديموقراطية وكونها نظما «ديموقراطية» بالفعل أم لا. فلا شك في أن إمكان التأثير في القرارات السياسية من خلال «التبرعات» التي تقدم لتمويل أنشطة الأحزاب السياسية يمكن أن يقوض أهم دعائم النظم الديموقراطية، لأنه يمثل أحد المداخل لتسرب الفساد إلى أكثر مؤسسات المجتمع حساسية، وهي المؤسسة السياسية، ومن ثم فإن توافر موارد مالية «عامة» لتمويل الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني، في إطار من الشفافية، يحمي هذه الأحزاب من التعرض لكثير من التدخلات والضغوط.

ولعل من أهم العوامل السياسية - إن لم يكن أهمها - تأثيرا في الفساد هو مدى ما تتمتع به القيادة السياسية من نزاهة، وكذلك رؤية هذه القيادة لظاهرة الفساد، فعندما لا يقدم السياسيون المثال الجيد - إما لأنهم أنفسهم متورطون في ممارسات الفساد، وإما لأنهم يغضون البصر عما يقوم به حلفاؤهم السياسيون أو أقاربهم من ممارسات للفساد - من الصعب أن نتوقع قيام موظفي الحكومة بممارسة وظائفهم على نحو يتسم بالأمانة والنزاهة.

ومن ناحية أخرى لا يمكن إغفال أهمية العوامل الإدارية والتنظيمية المؤثرة في الفساد. وبوجه عام كلما زادت كفاءة الجهاز الإداري الحكومي واتسمت اللوائح والقوانين بالبساطة وعدم التعقيد وتوافرت آليات الرقابة والمساءلة مدعومة بنظم فعالة للجزاء والعقاب، كانت المجتمعات أقل عرضة وأكثر قدرة على مقاومة الفساد.

وأخيرا فإنه لا يمكن تحليل ظاهرة الفساد دون الأخذ في الحسبان «البعد الثقافي» لهذه الظاهرة، ذلك البعد الذي دفع البعض إلى القول إن «الفساد» هو مشكلة ثقافية - اجتماعية في الأساس فسلوك الأفراد وقراراتهم بالتورط في ممارسات للفساد يتحددان بشكل رئيسي بمجموعة القيم والمعتقدات الدينية والثقافية التي يؤمن بها هؤلاء الأفراد. وبرغم صعوبة التسليم بالمقولة السابقة فإنه لا يمكن إغفال عدد من العوامل الثقافية، مثل معايير الترقي الاجتماعي - الاقتصادي، والميل إلى الاستقرار وتجنب المخاطر وقيمة العمل الفردي مقابل العمل الجماعي، ومدى سيطرة الثقافة الذكورية Muscline Cultores.

وفي هذا الخصوص، تشير بعض الدراسات إلى أن المجتمعات التي تتميز بالحراك المستمر، والتي لا تعتقد بوجود حدود صارمة بين الطبقات الاجتماعية، تكون أقل عرضة للفساد، وذلك على عكس المجتمعات التي تتميز بجمود القيم الاجتماعية والثقافية، والتي ترى صعوبة في الخروج عن هذا الجمود ومقاومة ما استقر عليه العرف الاجتماعي. وبرغم اختلاف الباحثين حول إذا كانت المجتمعات ذات الثقافات الفردية أو المجتمعات ذات الثقافات الجماعية أكثر استعدادا لقبول ممارسات الفساد فإن تجارب كثير من الدول توضح أن الفساد يمكن أن ينتشر في كل منهما، وأخيرا يرى Getz and Volkema [60] أن هناك علاقة إيجابية بين سيادة قيم الثقافة الذكورية التي في ظلها تمثل قيمة الإنجاز الذي يحققه الفرد في المجالات المادية المعيار الرئيسي في تحديد مكانته في المجتمع من دون الالتفات كثيرا إلى «وسائل» تحقيق هذا الإنجاز من ناحية، وبين الفساد من ناحية أخرى، غير أن Getzand and Volkema وغيرهما كثيرون يرون أن أثر العوامل الثقافية يكون أكثر قوة في ظل الأزمات الاقتصادية، الأمر الذي يعود بنا إلى حقيقة أن العوامل الاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية تتفاعل مع بعضها البعض لتحديد مستوى الفساد والأشكال التي يتخذها في مجتمع ما من المجتمعات.

5 - الآثار الاقتصادية للفساد

لا تقتصر آثار الفساد على الأوضاع الاقتصادية فقط بل تتعدى ذلك - وربما بدرجة أكثر خطورة - إلى الأوضاع الاجتماعية والسياسية، بل يمكن القول إن هناك شبه إجماع بين الاقتصاديين وعلماء السياسة والاجتماع على أن الفساد يعوق التطور الاقتصادي، بقدر ما يعوق التطور السياسي والاجتماعي، بما يسببه من سوء استغلال للموارد الاقتصادية وانهيار القيم الاجتماعية، وتحلل المنظومة السياسية، ولأن الآثار الاجتماعية والسياسية للفساد تقع خارج حدود هذه الدراسة فستقتصر المناقشة التالية على أهم الآثار الاقتصادية للفساد.

5 - 1 - الفساد والنمو الاقتصادي

هل هناك علاقة بين الفساد والنمو الاقتصادي؟ وإن كانت هناك علاقة فهل يؤثر الفساد سلبيا في عملية النمو الاقتصادي؟

على الرغم من أن البعض قد يرى أنه لا مجال لطرح هذا السؤال من الأساس، إن القول بأن الفساد يؤثر سلبا في النمو الاقتصادي هو من قبيل الإقرار بالحقائق وعلى الرغم من أن البعض الآخر قد يرى أن «الحقائق» قد تتغير فيجب ألا ننظر إلى النظريات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية كقوانين ثابتة صالحة وصحيحة في كل زمان ومكان.

يوضح الجدول التالي (الجدول 1) متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي في الدول العشر الأكثر والأقل فسادا وفقا لمؤشر مدركات الفساد الذي تصدره منظمة الشفافية الدولية. وكما يتبين من الجدول فإن الدول العشر الأكثر فسادا تقع ضمن مجموعة الدول منخفضة الدخل (الدول الأقل تقدما)، وأن الدول العشر الأقل فسادا تقع ضمن مجموعة الدول مرتفعة الدخل أو (الدول الأكثر تقدما)، وإن كان هذا لا يعني - بأي حال من الأحوال - أن الفساد هو السبب الأوحد لانخفاض متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، فهناك عدد من العوامل الاقتصادية والمؤسسية وراء ذلك - فإنه يوضح أن هناك علاقة وارتباطا قويين بين الفساد وانخفاض متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي.

وإذا كان متوسط دخل الفرد الحقيقي يمثل أكثر المؤشرات الاقتصادية استخداما لـ «مستويات المعيشة» Standards of Living، فإن معظم دراسات التنمية الاقتصادية الحديثة أصبحت تستخدم مؤشرات إضافية للتعرف بشكل أكثر دقة على مستويات المعيشة في مجتمع ما، ومن أمثلة هذه المؤشرات الإضافية مدى توافر وجودة الخدمات الصحية والتعليمية، ومدى عدالة توزيع الدخل، وكذلك إمكان الحصول على سلع معينة، مثل عدد الثلاجات لكل 1000 شخص، متوسط استهلاك الفرد من الكهرباء والمياه النظيفة، متوسط العمر المتوقع للفرد.

الجدول (1): الدول العشر الأكثر والأقل فسادا في العالم ومتوسط نصيب الفرد الأعوام (1995 - 2007)

الدول الأقل فسادا				الدول الأكثر فسادا				
الدولة	قيمة مؤشر مدركات الفساد	الترتيب الدولي	متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالدولار (أسعار سنة 2000)	الدولة	قيمة مؤشر مدركات الفساد	الترتيب الدولي	متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالدولار (أسعار سنة 2000)	العام
المكسيك	3.18	32	4.891	نيوزيلندا	9.55	1	12.634	١٩٩٥
إيطاليا	2.99	33	17.565	الدنمارك	9.32	2	26.599	١٩٩٥
تايلاند	2.79	34	2.086	سنغافورة	9.26	3	19.358	١٩٩٥
الهند	2.78	35	371	فنلندا	9.12	4	18.899	١٩٩٥
الفلبين	2.77	36	912	كندا	8.87	5	20.169	١٩٩٥

الدول الأقل فسادا				الدول الأكثر فسادا				
الدولة	قيمة مؤشر مدركات الفساد	الترتيب الدولي	متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالدولار (أسعار سنة 2000)	الدولة	قيمة مؤشر مدركات الفساد	الترتيب الدولي	متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالدولار (أسعار سنة 2000)	العام
البرازيل	2.70	37	3.613	السويد	8.87	6	23.374	١٩٩٥
فنزويلا	2.66	38	5.119	أستراليا	8.80	7	21.088	١٩٩٥
باكستان	2.25	39	514	سويسرا	8.76	8	31.614	١٩٩٥
الصين	2.16	40	658	هولندا	8.69	9	20.427	١٩٩٥
إندونيسيا	1.94	41	826	النرويج	8.61	10	32.213	١٩٩٥
موزمبيق	2.2	81	233	فنلندا	10.0	1	23.543	٢٠٠٠
كينيا	2.1	82	406	الدنمارك	9.8	2	29.992	٢٠٠٠
روسيا	2.1	83	1.775	نيوزيلندا	9.4	3	13.654	٢٠٠٠
الكاميرون	2.0	84	635	السويد	9.4	3	27.286	٢٠٠٠
أنجولا	1.7	85	655	كندا	9.2	5	23.559	٢٠٠٠
إندونيسيا	1.7	86	800	آيسلندا	9.1	6	30.876	٢٠٠٠
أذربيجان	1.5	87	655	النرويج	9.1	6	37.472	٢٠٠٠
أوكرانيا	1.5	88	635	سنغافورة	9.1	6	23.018	٢٠٠٠
يوجوسلافيا	1.3	89	1.192	هولندا	8.9	9	24.179	٢٠٠٠
نيجيريا	1.2	90	368	المملكة المتحدة	8.7	10	24.142	٢٠٠٠
طاجكستان	2.1	150	233	آيسلندا	9.7	1	35.959	٢٠٠٥
أنجولا	2.0	151	927	فنلندا	9.6	2	26.329	٢٠٠٥
ساحل العاج	1.9	152	560	نيوزيلندا	9.6	2	15.098	٢٠٠٥

الدول الأقل فسادا				الدول الأكثر فسادا				
الدولة	قيمة مؤشر مدركات الفساد	الترتيب الدولي	متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالدولار (أسعار سنة 2000)	الدولة	قيمة مؤشر مدركات الفساد	الترتيب الدولي	متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالدولار (أسعار سنة 2000)	العام
غينيا الاستوائية	1.9	152	133	الدنمارك	9.5	4	31.596	٢٠٠٥
نيجيريا	1.9	152	428	سنغافورة	9.4	5	25.967.8	٢٠٠٥
هاييتي	1.8	155	402	السويد	9.2	6	30.123	٢٠٠٥
ماينمار	1.8	155	-	سويسرا	9.1	7	34.902	٢٠٠٥
تركمانستان	1.8	155	-	النرويج	8.9	8	40.597	٢٠٠٥
بنجلاديش	1.7	158	400	أستراليا	8.8	9	23.030	٢٠٠٥
تشاد	1.7	158	273	النمسا	8.7	10	25.300	٢٠٠٥
غينيا الاستوائية	2.1	151	7.470	فنلندا	9.6	1	27.660	٢٠٠٥
أوزبكستان	2.1	151	724	آيسلندا	9.6	1	36.283	٢٠٠٦
بنجلاديش	2.0	156	419	نيوزيلندا	9.6	1	15.199	٢٠٠٦
تشاد	2.0	156	266	الدنمارك	9.5	4	32.484	٢٠٠٦
الكونغو	2.0	156	91	سنغافورة	9.4	5	27.125	٢٠٠٦
السودان	2.0	156	502	السويد	9.2	6	31.178	٢٠٠٦
غينيا	1.9	160	406	سويسرا	9.1	7	35.760	٢٠٠٦
العراق	1.9	160	-	النرويج	8.8	8	41.446	٢٠٠٦
ماينمار	1.9	160	-	أستراليا	8.7	9	23.262	٢٠٠٦
هاييتي	1.8	163	406	هولندا	8.7	9	25.678	٢٠٠٦

المصدر: World Development Indicators (2008) CD-Rom, World Bank Transparency International

وبالطبع فإن وجود وانتشار الفساد في مجتمع ما لن يقتصر تأثيره على انخفاض معدلات النمو الاقتصادي وانخفاض متوسط نصيب الفرد من الدخل الحقيقي، بل سيتعدى ذلك إلى عدم كفاية وتردي مستوى الخدمات الصحية والتعليمية والكهرباء والمياه وغيرها من المؤشرات المكملة لمتوسط نصيب الفرد من الدخل الحقيقي كمقياس لمستوى المعيشة.

بل ويمكن القول إن آثار الفساد تتجاوز مؤشرات مستويات معيشة الأفراد إلى مؤشرات جودة الحياة Quality of Life التي يعيشها الأفراد والتي تأخذ في الاعتبار، ليس فقط المؤشرات المادية لمستويات معيشة الأفراد، لكن أيضا مؤشرات أخرى تحدد جودة الحياة التي يعيشها أفراد المجتمع، مثل مدى توافر وجودة وسائل الترفيه وخدمات الأمن والإطار الثقافي ونوعية البيئة والحياة الاجتماعية [61].

ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين بدأت في الظهور بعض الكتابات والتحليلات التي ترى أن الفساد ليس هذا «الشر الاقتصادي الخطير» كما تتصوره الأغلبية من الاقتصاديين، فقد يكون له من الآثار الايجابية ما يفوق آثاره السلبية، فالفساد قد يؤدي إلى زيادة الكفاءة الاقتصادية إذا ما ساعد على تجاوز وتخطي الجمود الذي تفرضه اللوائح والقوانين الحكومية المعقدة التي تعوق الاستثمار وتحول دون تحقيق الكفاءة في استخدام الموارد الاقتصادية، وهنا يكون الفساد بمنزلة «الزيت اللازم لتسيير العجلات» Oils Mecha-nism or Greases the Wheal كما يرى كل من (Leff,1964; Huntington,1968) [62]، بل إن قيام مؤسسات الأعمال بدفع الرشى يخلق حالة من التنافس (Bidding Competition) المحمود، ففي ظل هذا التنافس لن تستطيع البقاء إلا الشركات الأكثر كفاءة، وهي الشركات التي تستطيع دفع رشى ضخمة وتحقيق ربح مرتفع في الوقت نفسه، ومن ثم فإن الرشوة هي آداة مهمة لاستبعاد الشركات الأقل كفاءة من الساحة الاقتصادية والإبقاء على الشركات الأكثر كفاءة (Lien,1986) [63].

ويرى آخرون أن هناك مزيدا من الجوانب «الإيجابية» الأخرى للفساد، إذ يرى (Lui,1985) [64] أن قيمة «الوقت» تختلف من فرد إلى آخر، ومن ثم فإن الأفراد الذين تكون لديهم تكلفة الفرصة البديلة للوقت مرتفعة نسبيا سيقدمون الرشوة لموظفي الحكومة رغبة في قضاء مصالحهم أو الحصول على الموافقات والتراخيص في وقت أقل، ويعني هذا أن الرشوة قد أدت إلى زيادة الكفاءة لأنها وفرت لمن ترتفع لديهم قيمة الوقت، ولا يمثل هذا آخر الجوانب «الإيجابية» للفساد حيث يرى (Tullock,1996) أن الفساد قد يؤدي إلى تخفيف العبء الضريبي على الوحدات الاقتصادية في المجتمع الأمر الذي يساعد على تشجيع النمو الاقتصادي، ففي ظل وجود الرشى لن تكون الحكومة في حاجة مستمرة إلى فرض مزيد من الضرائب لتمويل زيادة رواتب موظفي الحكومة، فهذه الرشى تمثل دخلا إضافيا لموظفي

الحكومة ذوي الدخول المنخفضة، ومن ثم تنتفي الحاجة لدى الحكومة لفرض مزيد من الضرائب لتمويل الزيادة في مرتبات موظفي الحكومة.

ويذهب Graziano [65] إلى أبعد من ذلك، إذ يرى أن الفساد قد يؤدي إلى تحقيق نوع من «التماسك السياسي» Political Glue حيث يوفر للأحزاب والجماعات السياسية الموارد المالية التي تمكنها من البقاء والاستمرار، ومن ثم تتوافر الديناميكية السياسية - الاجتماعية اللازمة لتحقيق النمو الاقتصادي.

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول إن الفساد قد يعمل بمنزلة «آلية: Mechanism» تساعد على تسريع عجلة النمو الاقتصادي.

وربما لم تلق هذه الكتابات والتحليلات كثيرا من الاهتمام إلى أن ظهر ما يعرف بـ «المعجزة الآسيوية» وبزوغ نجم عدد من بلدان جنوب شرق آسيا مثل إندونيسيا والفلبين وتايلاند، وهي البلاد التي حققت معدلات نمو اقتصادي غير مسبوقة، على الرغم من تفشي الفساد فيها أو كما يرى أصحاب التحليل السابق «نتيجة» تفشي الفساد فيها، فقد عمل الفساد في هذه الدول على الحد من عدم التأكد الذي يسود بيئة ممارسة الأعمال ومن ثم يرى أعضاء هذا الفريق أن «تنظيم» الفساد أو جعله «مؤسسيا» Institutionalizing Corruption يؤدي إلى الحد من آثاره السلبية، ففي ظل هذا الفساد «المؤسسي» يعرف المرء أين يذهب وكم يدفع للحصول على ميزة أو خدمة معينة، وذلك على العكس من الفساد «العشوائي» الذي يؤدي إلى ضياع كثير من الجهد والوقت.

وهكذا أضفت تجربة دول جنوب شرق آسيا بعض «المصداقية» على التحليل السابق، غير أنه برغم ما قد ينطوي عليه هذا التحليل من «بريق» قد يبدو «منطقيا» عند البعض فإن هذا البريق لا يصمد كثيرا أمام النظرة المتفحصة وذلك لما يلي:

- القول إن الفساد يساعد على تجاوز جمود اللوائح والقوانين الحكومية يتناول ظاهر المشكلة وليس جوهرها، فجمود اللوائح والقوانين ليس قدرا محتوما أو نتيجة لأسباب «وراثية» لا يمكن تغييرها، فالمجتمع لا «يولد» بمثل هذه اللوائح والقوانين الجامدة، فقد وضعت هذه اللوائح والقوانين إما عن جهل، وإما نقص في كفاءة واضعيها، وإما عن قصد لتمكين بعض موظفي الحكومة من استغلال سلطاتهم لتحقيق منافع خاصة والحصول على رشى، وعلى هذا فإن تبسيط هذه اللوائح والقوانين هو ما يجب القيام به وليس الاستسلام لجمودها وتعقيدها.

- ليس بالضرورة أن تكون مؤسسات الأعمال الأكثر قدرة على دفع رشى أكبر هي الأكفأ اقتصاديا بل العكس من ذلك يرى Shleifer and Vishny [66] أن انتشار الرشوة قد يدفع مؤسسات الأعمال إلى التحول من الأنشطة الإنتاجية الحقيقية الأعلى عائدا اقتصاديا واجتماعيا إلى الأنشطة الريعية الأقل عائدا اقتصاديا واجتماعيا ما يعوق النمو الاقتصادي، ويزداد الأمر سوءا

إذا ما كان عدد هذه المؤسسات الكفؤة في مجال الأنشطة الإنتاجية الحقيقية قليلا نسبيا في المجتمع حيث ستكون آثار هذا التحول إلى الأنشطة الريعية أكثر خطورة [67].

– القول إن الرشوة أو ما يُطلق عليه أحيانا «النقود المنجزة أو المسهلة» Speed Money تؤدي إلى اختصار الوقت اللازم لإنهاء الإجراءات الإدارية مردود عليه، وذلك لأن هذا التوفير يتحقق فقط لمن يدفعون الرشى، وليس كل من يتعاملون مع الهيئات والإدارات الحكومية، كما أن هذا يتم على حساب من لا يدفعون، ما يؤدي في النهاية إلى زيادة متوسط الفترة الزمنية اللازمة لإنهاء الإجراءات الإدارية بل إن الوقت اللازم لإنهاء هذه الإجراءات، حتى لمن يدفعون الرشى قد يكون أطول من الوقت اللازم من دون رشوة، وهذا ما أوضحته دراسة (Kaufmann and Wei,1999) التي اعتمدت على بيانات عدد كبير من الدول، إذ يقضي ممثلو الشركات التي تدفع رشى وقتا طويلا في الاتفاق مع موظفي الحكومة، على كيفية الالتفاف على اللوائح والقوانين الحكومية وكذلك الاتفاق على قيمة الرشوة [68].

– أما القول إن الرشوة تمثل دخلا إضافيا لذوي الدخول المنخفضة من موظفي الحكومة، وكذلك بأن الفساد قد يوفر التمويل اللازم للأحزاب السياسية ويحقق نوعا من التماسك السياسي والاجتماعي فالرد على ذلك هو أنه إذا كان هذا الادعاء صحيحا في الأجل القصير فإنه غير صحيح في الأجل الطويل، وذلك لما تخلقه ممارسات الفساد من مشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية تحول دون التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في المجتمع.

وفي ضوء ما سبق يمكن القول إن حجج القائلين إن للفساد إيجابيات قد تفوق سلبياته لا تصمد أمام التحليل العلمي المنطقي ولدحض ما تبقى من منطق قد تستند إليه هذه الحجج ظهر عدد من الدراسات التطبيقية التي حاولت استكشاف طبيعة العلاقة بين الفساد والنمو الاقتصادي.

فقد أظهرت نتائج دراسة قام بها (Mauro,1995) [69] أن للفساد تأثيرا سلبيا في النمو الاقتصادي مقيسا بمعدل نمو الناتج المحلي الإجمالي، غير أن هذا التأثير كان ذا معنوية إحصائية منخفضة نسبيا، الأمر الذي دفعه إلى إعادة الكرة مرة أخرى (Mauro,1997a)، لكن باستخدام مؤشرات أخرى للفساد. وقد أوضحت الدراسة الأخيرة أن الفساد يؤثر سلبيا في معدل النمو الاقتصادي، وأن هذا الأثر يتمتع بمعنوية إحصائية ويفسر (Lambdorff,1999a) [70] هذا «الغموض» الإحصائي بأن تأثير الفساد في حجم الاستثمارات وتراكم رأس المال أقوى من تأثيره في إنتاجية الاستثمارات، ولأن النمو الاقتصادي يعتمد بدرجة أكبر على إنتاجية الاستثمار أحيانا ما لا تكون العلاقة بين الفساد والنمو الاقتصادي بالوضوح الكافي.

وسعيا وراء الهدف نفسه درس (Brunetti, Kisunko and Weder,1997) [71] العلاقة بين الفساد وكل من مستوى الناتج المحلي الإجمالي ومعدل نمو هذا الناتج، وقد أوضحت نتائج

هذه الدراسة أن للفساد تأثيرا سلبيا في كلا المتغيرين، غير أن تأثيره أقوى في حجم الناتج المحلي الإجمالي.

وبرغم وجود قدر كبير من «الاتفاق» على الأثر السلبي للفساد في النمو الاقتصادي يبقى قدر من الغموض يحيط بطبيعة العلاقة السببية بين كل من الفساد والنمو الاقتصادي، فعلى حين يرى (Paldam,1999a) أن هذه العلاقة تسير من التخلف الاقتصادي إلى الفساد، أي أن التخلف الاقتصادي هو سبب ظهور الفساد وليس العكس، يرى (Lambsdorff,1999a) أنه من الصعوبة بمكان حسم هذه المسألة.

وفي هذا الخصوص، يشير (Hall and Jones,1999) إلى أن كثيرا من المشاكل الإحصائية التي تعانيها الدراسات الاقتصادية التي تتناول ظاهرة الفساد يرجع إلى حقيقة أن جميع مؤشرات الفساد المتاحة والمستخدمة في هذه الدراسات يعتمد على الإدراك/ الملاحظة، وقد يكون هذا الأسلوب مقبولا إذا ما كانت البلدان محل الدراسة تمر بمرحلة التنمية الاقتصادية نفسها، وتختلف مستويات الفساد فيها، أما إذا كانت هذه البلدان تمر بمراحل مختلفة من التنمية الاقتصادية، فإنه لا يمكن التعويل على أسلوب الإدراك لتحديد مدى انتشار الفساد، الأمر الذي يقلل من مصداقية مؤشرات الفساد في هذه الحالة.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات الإحصائية، فإن بعض الدراسات (Paldam,1999a; and Lambsdorff,1999a) حاولت التعرف على ما إذا كان النمو الاقتصادي - مقيسا بمعدل نمو إجمالي الناتج المحلي - يتأثر أكثر بـ«حجم» الفساد الموجود في المجتمع أم «التغير النسبي» في حجم الفساد الموجود، وقد أوضحت نتائج هذه الدراسات أن النمو الاقتصادي يتأثر بـ «التغير النسبي» في حجم الفساد بأكثر مما يتأثر بـ «حجم» الفساد الموجود بالفعل [72].

وقد تقودنا نتائج الدراسات السابقة إلى التساؤل عن الآلية/ الآليات التي يؤثر من خلالها الفساد في النمو الاقتصادي. وفي هذا الصدد يمكن القول إن القناة الرئيسية التي يؤثر من خلالها الفساد في النمو الاقتصادي تتمثل في جودة/ نوعية الاستثمارات Quality of Investments، حيث تؤدي جودة الاستثمارات دورا أساسيا في تحديد إنتاجية رأس المال، ومن ثم معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي، وهذا ما أوضحته دراسة (Tanzi and Davoodi,1997) التي بينت نتائجها أن انتشار الفساد تصاحبه زيادة في حجم الاستثمارات الحكومية وانخفاض في إنتاجية أو عوائد هذه الاستثمارات، وكذلك انخفاض في الإيرادات الحكومية، وفي دراسة أخرى استخدمت عددا من الصيغ الإحصائية أوضح (Lambsdorff,1999a) أن الفساد يؤثر سلبيا وبشكل واضح في الإنتاجية المتوسطة لرأس المال، ومن ثم في معدل النمو الاقتصادي، ووفقا لهذه الدراسة فإن انخفاض مستوى الفساد مقيسا بمؤشر مدركات الفساد الذي تصدره منظمة الشفافية الدولية بمقدار ست نقاط في بلد مثل كولومبيا يمكن أن يؤدي إلى زيادة الناتج المحلي الإجمالي بمعدل 20%.

لكن هل جودة أو إنتاجية الاستثمارات هي القناة الوحيدة التي يؤثر من خلالها الفساد في النمو الاقتصادي؟ الإجابة عن هذا السؤال تتطلب مناقشة العلاقة بين الفساد والاستثمار [73].

5-2 - الفساد والاستثمار

تعد دراسة (Mauro,1995) أولى الدراسات الاقتصادية القياسية - وربما أكثرها تأثيرا - التي سعت إلى استكشاف أثر الفساد في الاستثمار وتحديد الآليات التي يؤثر من خلالها الفساد وغيره من العوامل المؤسسية في النمو الاقتصادي، وللقيام بهذه المهمة اعتمدت دراسة Mauro على ثلاثة مؤشرات مختلفة لعناصر المخاطرة والعوامل المؤسسية، يعكس المؤشر الأول مستوى الفساد الذي عرف بأنه «مدى تضمن المعاملات الاقتصادية ممارسات تتسم بالفساد أو تكون مثيرة للشبهات»، ويعكس المؤشران الثاني والثالث كفاءة النظام القضائي والكفاءة الإدارية في القطاع الحكومي على التوالي. وقد اختزل Mauro هذه المؤشرات الثلاثة في مؤشر واحد أطلق عليه «مؤشر الكفاءة الإدارية - البيروقراطية»، وقد أوضحت نتائج هذه الدراسة أن الفساد يؤثر سلبيا ليس فقط في الاستثمار كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي، بل أيضا في معدل نمو الاستثمارات، كما بينت الدراسة أن زيادة كفاءة الجهاز الإداري الحكومي ستنعكس بشكل واضح على حجم الاستثمارات، ووفقا للنتائج الكمية للدراسة، فإن دولة مثل بنجلاديش إذا استطاعت أن تصل بكفاءة الجهاز الإداري الحكومي إلى مستوى مثيله في أورجواي فإن حجم الاستثمارات فيها سيزداد بمعدل 5% تقريبا.

وعلى هدي (Mauro)، ظهر عدد من الدراسات التي سعت نحو الهدف نفسه (دراسة العلاقة بين الفساد وكل من النمو الاقتصادي والاستثمار) لكن باستخدام مؤشرات مختلفة للفساد، وكانت نتائج هذه الدراسات متفقة إلى حد كبير مع نتائج دراسة (Keefer and Knack,1995, Brunetti,Mauro ،Mauro, Kisunko, and Weder,1997; Mauro,1997a; and Brunetti and Weder,1998) [74].

وعلى الرغم من هذا التأييد الذي حظيت به نتائج دراسة Mauro الأولى فقد أثار (Wedeman,1997) [75] عددا من التساؤلات حول مدى دقة هذه النتائج وإمكان تعميمها، إذ يرى Wedeman أن أثر الفساد في الاستثمار لا يتحدد فقط «بحجم الفساد»، لكن أيضا وربما بدرجة أكبر بـ «أشكال» هذا الفساد، فربما تكون الآثار السلبية للفساد في النمو الاقتصادي والاستثمار واضحة في تلك الدول التي تعاني مستويات منخفضة من الفساد، غير أن الأمر قد يختلف تماما في البلدان التي تعاني مستويات مرتفعة من الفساد، ولذا فإنه وفقا لـ Wedeman لا يمكن قبول الفرض القائل إن «الفساد يعوق النمو الاقتصادى من خلال تأثيره السلبي في الاستثمار على إطلاقه. ويضيف Wedeman أن المشكلة الرئيسية في دراسة Mauro تكمن في أنه تعامل مع الفساد على أنه ظاهرة نمطية Undifferentiated Phe-nomenon، الأمر الذي يغفل بعدا مهما في تحليل ظاهرة الفساد، فآثار الفساد لا تعتمد فقط

على حجم الفساد الموجود في المجتمع، بل وربما بشكل أكبر على تلك الصور التي يتخذها هذا الفساد، وللتدليل على صحة ما ذهب إليه، يميز Wedeman بين شكلين من أشكال الفساد:

الشكل الأول: يتمثل في فساد الطبقة الحاكمة الذي قد يتجسد في عمليات اختلاس و/ أو استغلال السلطة أو النفوذ لخلق اختلالات هيكلية أو أزمات اقتصادية تمكن هذه الطبقة الحاكمة من الحصول على ريع أو عمولات أو مزايا خاصة. وفي هذه الحالة يؤدي الفساد إلى انخفاض مستوى كفاءة استخدام الموارد الاقتصادية للمجتمع، الأمر الذي يعوق عملية التنمية الاقتصادية.

أما **الشكل الثاني** فيتمثل في الفساد الإداري، وفي هذه الحالة يكون الفساد عنصرا ضمنيا أو غير معلن في استراتيجية تحقيق التنمية الاقتصادية، حيث يقوم الفساد بدور «إيجابي» في تخطي بعض العقبات التي تعوق عملية التنمية الاقتصادية، مثل الروتين الحكومي، ومن ثم لا يكون من المستغرب عندئذ تحقق معدلات مرتفعة من النمو الاقتصادي في ظل شيوع الفساد، وفي ذلك يستشهد Wedeman بتجربة دول جنوب شرق آسيا التي حققت معدلات نمو اقتصادي عالية - وأحيانا غير مسبوقة - وعلى الرغم من انتشار الفساد فيها، وهكذا فإن أثر الفساد في النمو الاقتصادي والاستثمار لا يتحدد فقط بـ «حجم» الفساد الموجود ولكن بـ «الطبيعة» أو «الصور» التي يتخذها.

ولم يمض وقت طويل حتى ظهر عدد من الدراسات يسعى إلى مواجهة التحليل السابق لـ Wedeman، وكانت أولى هذه الدراسات دراسة (Campos et.al.,1999) [76] التي اعتمدت على بيانات يصدرها البنك الدولي عن الفساد لعينة مما يقرب من 70دولة، وقد اتفقت نتائج هذه الدراسة مع تحليل Wedeman. وبالإضافة إلى أن أثر الفساد في الاستثمار يختلف باختلاف أشكال الفساد الموجودة، أوضحت الدراسة أيضا أن الآثار السلبية للفساد تكون أقل إذا ما كان هناك «توقع» بوجود الفساد من قبل المستثمرين عما إذا كان هذا «التوقع» غير موجود، وكان الفساد «غير متوقع» أو «مفاجئ» للمستثمرين، وكذلك تكون الآثار السلبية للفساد أقل إذا ما كان هذا الفساد «منظما» و«متفقا عليه» ضمنيا، عنه إذا كان الفساد «عشوائيا» أو غير «منظم». وهكذا، فإنه في ظل توقع المستثمرين وجود الفساد، ومع اتخاذ هذا الفساد شكلا منظما، ليس هناك من تعارض بين انتشار الفساد في دول جنوب شرق آسيا ونجاحها في تحقيق معدلات عالية من النمو الاقتصادي.

وقد قام Wedeman، استنادا إلى نتائج الدراسة السابقة بالتمييز بين ثلاث مجموعات من الدول:

الأولى: تشمل تلك الدول التي تعاني ارتفاع مستوى الفساد فيها، ويتوقع المستثمرون وجود مستوى منخفض نسبيا من الفساد فيها، وفي هذه الدول تبلغ الآثار السلبية للفساد مداها وتعجز عن جذب الاستثمارات.

الثانية: تشمل تلك الدول التي تعاني مستويات مرتفعة من الفساد، ولا تختلف توقعات المستثمرين كثيرا عما هو موجود بالفعل، وهذه المجموعة من الدول تكون أفضل حالا من المجموعة السابقة، إذ لا تكون الآثار السلبية للفساد فيها بمثل حدة المجموعة الأولى، كما أنها تستطيع جذب بعض الاستثمارات حيث إن التقارب بين توقعات المستثمرين عن الفساد والفساد الموجود بالفعل يجعلهم أكثر استعدادا للتعامل معه، ومحاولة استغلاله على النحو الذي يحقق مصالحهم، وتقع دول جنوب شرق آسيا ضمن هذه المجموعة كما يرى Wedeman.

الثالثة: هي تلك المجموعة من الدول التي يتوقع المستثمرون ارتفاع مستويات الفساد فيها برغم أن مستويات الفساد الموجودة بالفعل تقل عن توقعات هؤلاء المستثمرين، وهذه هي المجموعة الأكثر حظا بين المجموعات الثلاث ليس فقط نتيجة انخفاض مستويات الفساد الفعلية بها لكن أيضا نتيجة السهولة النسبية التي يتوقع أن يواجهها المستثمرون في التعامل مع الفساد.

وهكذا يدلل Wedeman على صحة فرضه القائل إن الفساد أحيانا تفوق إيجابياته سلبياته، بل وقد يساعد على الإسراع في عملية التنمية الاقتصادية، كما حدث في دول جنوب شرق آسيا. وبرغم ما قد يبدو للبعض من «وجاهة» نظرية في تحليل Wedeman فإن تحليله لا يصمد كثيرا في مواجهة المنطق الاقتصادي والتجربة العملية وذلك للأسباب التالية:

- إن الادعاء بأن الفساد «المنظم» و«المتوقع» يساعد على التغلب على تعقيدات الروتين والبيروقراطية الحكومية، ومن ثم لا يعوق التنمية الاقتصادية، يتنافى مع أبسط مبادئ المنطق، فالفساد هو الفساد، سواء أكان منظما أم غير منظم، بما له من آثار اقتصادية واجتماعية خطيرة في ضياع موارد كان يمكن أن تستخدم على نحو أفضل، وتقديم دعم لمؤسسات أعمال قد لا تتمتع بالكفاءة وانهيار القيم الأخلاقية وسيطرة العوامل الشخصية والمصالح الخاصة على النشاط الاقتصادي. وحتى إن كان ادعاء Wedeman صحيحا في الأجل القصير، فإنه ليس كذلك في الأجل الطويل نتيجة الاختلالات الهيكلية التي قد يسببها الفساد في الأجل الطويل، مثل سيطرة الأنشطة الريعية والأنشطة ذات الربحية العالية والسريعة التي لا تحقق أهداف التنمية الاقتصادية في الأجل الطويل، ثم ماذا لو خرج هذا الفساد «المنظم» من عقاله وأصبح فسادا غير منظم.

- القول إن «الفساد الإداري» أخف وطأة من فساد الطبقة الحاكمة، وإن كان صحيحا، ليس هناك ما يضمن ألا يتسرب هذا الفساد من القاعدة (صغار موظفي الحكومة) إلى القمة (كبار المسؤولين والطبقة الحاكمة) «فعدوى» الفساد لا تفرق بين مسؤول حكومي صغير أو كبير، علاوة على أن الادعاء بأن الفساد الموجود في دول جنوب شرق آسيا يقتصر فقط على «الفساد الإداري» هو قول يجافي الحقيقة فماذا عن الفضائح المالية لحاكم إندونيسيا الراحل سوهارتو ونظيره ماركوس في الفلبين.

- أثبتت الأزمة المالية التي هزت اقتصادات دول جنوب شرق آسيا 1997 - 1998صعوبة «التعايش» السلمي بين الفساد والنمو الاقتصادي، فقد أظهرت هذه الأزمة مدى ضعف العوامل المؤسسية في هذه الدول، والتي أوضحت معظم الدراسات التي تناولت هذه الأزمة أنها المسؤول الرئيسي عن حدوث الأزمة، ومن ثم فإن الادعاء بإمكان هذا «التعايش»، كما يرى Wedeman يتنافى مع حقائق الأمور.

- وأخيرا فإن نجاح دول جنوب شرق آسيا في تحقيق معدلات نمو اقتصادي مرتفعة على الرغم من انتشار الفساد فيها هو استثناء من القاعدة لا يمكن تعميمه، وإلا فلماذا لم تنجح التجارب التنموية في كثير من الدول التي ينتشر فيها «الفساد الإداري»؟

وفي ضوء ما تقدم يصعب رفض الفرض القائل إن الفساد يؤثر سلبيا، ليس فقط في حجم الاستثمارات، ولكن أيضا في كفاءة هذه الاستثمارات والعوائد المتحققة منها، ومستوى الكفاءة في استخدام الموارد الاقتصادية بوجه عام، وإن كان هذا التأثير أكثر وضوحا في الأجل الطويل عنه في الأجل القصير.

لكن هل تقتصر الآثار السلبية للفساد على الاستثمارات المحلية فقط؟

5 - 3 - الفساد والاستثمار الأجنبي

هناك عدد من العوامل التي تؤثر في الاستثمارات المحلية بقدر ما تؤثر في الاستثمارات الأجنبية، غير أن هناك بعض أوجه الاختلاف بين الاستثمارات الأجنبية والاستثمارات المحلية أهمها:

- أن الاستثمار الأجنبي غالبا ما يكون أكثر حساسية أو تأثرا بالعوامل الاقتصادية والسياسية والإدارية مقارنة بالاستثمار المحلي.

- أن هناك العديد من الخيارات المتاحة أمام الاستثمار الأجنبي التي لا تتوافر للاستثمار المحلي، فالمستثمر الأجنبي يفاضل بين كثير من «الأماكن» أو الدول التي يمكن أن تستضيف استثماراته، بينما المستثمر المحلي يفاضل بين عدد من الأنشطة، ولكن في المكان نفسه.

وبرغم أنه قد يبدو من الصعب التسليم بأن الفساد «يحول» دون تدفق الاستثمارات الأجنبية فإنه ليس من الصعب القبول بأن الفساد قد «يعوق» تدفق هذه الاستثمارات. وتأتي صعوبة التسليم بالفرض الأول من حقيقة أن هناك كثيرا من العوامل التي تؤثر في تدفق الاستثمار الأجنبي من بينها الفساد، ومن أمثلة هذه العوامل الاستقرار السياسي والاقتصادي، ومعدلات النمو الاقتصادي المتوقعة، ومدى تطور البنية التحتية والخدمات الحكومية، وتكاليف مزاولة الأعمال، والفرص الاستثمارية المتاحة، وحجم السوق، والقوانين المنظمة للاستثمارات الأجنبية. وفيما يتعلق بالفساد، فمما لا شك فيه أن مستوى الفساد والأشكال التي يتخذها وكذلك مدى قدرة واستعداد المستثمرين الأجانب على التعامل مع، بل واستغلال الفساد على

النحو الذي يحقق مصالحهم كلها تؤدي دورا رئيسيا في تحديد حجم ونوعية الاستثمارات الأجنبية في البلد المضيف.

ولعل تعدد وتنوع العوامل التي تؤثر في الاستثمارات الأجنبية انعكس - بشكل ما - على نتائج الدراسات الاقتصادية القياسية التي سعت إلى استكشاف العلاقة بين الفساد والاستثمارات الأجنبية، فبينما فشلت بعض الدراسات في إيجاد علاقة ذات معنوية إحصائية بين الفساد والاستثمارات الأجنبية (Alesina and Weder,1999) (77)، نجحت دراسات أخرى في إثبات أن هذه العلاقة تتمتع بمعنوية إحصائية (Lambsdorff,1999b). ووفقا لدراسة(78) Wei، فإن زيادة مستوى الفساد في سنغافورة إلى مستوى نظيره في المكسيك يعادل زيادة معدل الضرائب في سنغافورة بما يفوق 20%، ووفقا لدراسة Lambsdorff فإن ارتفاع مستوى كفاءة ونزاهة الجهاز الإداري الحكومي في كولومبيا ليعادل نظيره في المملكة المتحدة يؤدي إلى زيادة صافية في تدفقات الاستثمارات الأجنبية تبلغ 3% من الناتج المحلي الإجمالي في كولومبيا.

وبالإضافة إلى عوامل الجذب والطرد في الدول المتلقية للاستثمارات الأجنبية فإن الظروف السائدة في الدول المصدرة للاستثمارات تؤدي دورا مهما في تحديد حجم وطبيعة ووجهة هذه الاستثمارات، فقد أوضحت دراسة (Hines,1995) أن تفضيل المستثمرين الأمريكيين للاستثمار في الدول الأقل فسادا زاد على نحو ملحوظ بعد عام 1977، وقد فسر Hines ذلك أن عام 1977 هو العام الذي شهد صدور القانون الخاص بتجريم ممارسات الفساد في الدول الأجنبية Foreign Corrupt Practices Act (FCPA) في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ناحية أخرى بينت الدراسة أن المستثمرين اليابانيين ليس لديهم هذا التحفظ الذي يتمتع به أقرانهم الأمريكيون تجاه الدول الأكثر فسادا، فهم يستثمرون في جميع الدول، سواء أكانت أقل فسادا أم أكثر فسادا مادام هذا يحقق النمو والتوسع المطلوبين لأعمالهم، ويفسر Hines هذا السلوك من قبل المستثمرين اليابانيين بعدم وجود قوانين تجرم ممارسات الفساد في الدول الأجنبية (79).

5 - 4 - الفساد والتجارة الخارجية

لا يقتصر تأثير الفساد على نمط العلاقات الاقتصادية داخل الدولة فقط، بل يتعدى ذلك إلى التأثير في العلاقات الاقتصادية بين الدول، وبالإضافة إلى تأثير الفساد في حجم وطبيعة الاستثمارات الأجنبية قد تكون للفساد آثار ملموسة في التجارة الخارجية. فمع زيادة الاهتمام بظاهرة الفساد وتنامي الجهود لمكافحتها أصدر عدد من الدول قوانين تجرم على شركاتها الوطنية التورط في ممارسات للفساد في الدول الأجنبية، مثل دفع رشى أو عمولات غير قانونية للحصول على صفقات أو للتحايل على اللوائح والقوانين في الدول الأخرى.

وفي ضوء ذلك ليس من المستغرب أن تتجنب الشركات العاملة في الدول التي تجرم ممارسات الفساد مع الدول الأجنبية التعامل مع الدول الأكثر فسادا، أو على الأقل يكون حجم أعمالها مع هذه الدول أقل مقارنة بحجم أعمالها مع الدول الأقل فسادا، وهذا ما أيدته بعض الدراسات (Lambsdorff,1998 and Lambsdorff,1999). في هاتين الدراستين درس Lambsdorff العلاقة بين الفساد والتوزيع الجغرافي للتجارة الدولية، وذلك من خلال بيانات التجارة الخارجية للبلاد الأكثر تصديرا واستيرادا في العالم، وذلك بعد الأخذ في الاعتبار أثر المسافات الجغرافية والمزايا النسبية والتكتلات التجارية. وقد أوضحت نتائج الدراستين السابقتين أن دولا مثل إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وهولندا وكوريا الجنوبية يزداد حجم التبادل التجاري بينها وبين مجموعة من الدول التي يرتفع فيها مستوى الفساد على حجم التبادل التجاري بين دول مثل أستراليا والسويد مع المجموعة ذاتها. ويرى Lambsdorff أن هذه النتائج يمكن تفسيرها - جزئيا - بوجود أو عدم وجود قوانين تجرم ممارسات الفساد في الدول الأجنبية، بالإضافة إلى الاختلافات في مدى استعداد المصدرين والمستوردين لدفع رشى لتسهيل الحصول على صفقات أو لتسهيل معاملاتهم، وانتهى Lambsdorff من ذلك إلى أنه لا يمكن إعفاء بعض الدول الصناعية المتقدمة من مسؤولية انتشار ممارسات الفساد في التجارة الدولية.

5 - 5 - مضاعف الفساد و«مضاعفاته»

ليس أخطر من الفساد إلا التعايش معه، ذلك أن الفساد لا يقف عند حد معين أو مؤسسة واحدة، فالفساد كالوباء ينتشر بين الإدارات والهيئات الحكومية وبعضها البعض، ومنها مؤسسات الأعمال، وشيئا فشيئا يصبح نظام حياة، وهنا تكمن خطورته، فالفساد يتمتع بآليات انتشار وآثار متتابعة تؤثر بصورة واضحة في المنظومة الاقتصادية للمجتمع وكذلك في النسيج الاجتماعي - السياسي له.

ولتوضيح هذه الفكرة تمكن الاستعانة بإحدى أهم النظريات الاقتصادية التي قدمها الاقتصادي الإنجليزي الأشهر كينز - «مضاعف الاستثمار» - لقليل من الوقت، إذ يمكن الحديث عن مضاعف آخر، لكن للفساد [80]، تتشابه آلياته مع مضاعف الاستثمار، وإن اختلفت المجالات التي يعمل فيها.

أوضح كينز - وأتباعه من بعده - أن زيادة معينة في حجم الاستثمار ستنتج عنها زيادات متتالية من الاستثمار الذي يمثل أحد أنواع الإنفاق، وأن هذه الزيادات المتتالية من الاستثمار - الإنفاق يقل حجمها تدريجيا حتى تتلاشى، عند هذا الحد يكون الدخل القومي قد زاد بأضعاف هذه الزيادة الأولية.

وبرغم صعوبة القياس الكمي للفساد - كما سبق توضيحه - فإنه لا ضرر من محاولة تفسير المقصود بـ «مضاعف الفساد». ويشير مضاعف الفساد هنا إلى التغير في حجم الفساد

في المجتمع الناشئ عن تغير معين في الدخول المتولدة عن طريق الفساد، وهنا يجدر التنبيه إلى أن المقصود بالتغير في حجم الفساد هنا هو التغير الناشىء عما تفعله هذه الزيادة المعينة في الدخول المتولدة عن الفساد في المحيط «الاقتصادي» والاجتماعي والثقافي في المجتمع، وليس المحيط الاقتصادي فقط. ويمكن التدليل على أن قيمة هذا المضاعف أكبر من الواحد كما في مضاعف الاستثمار، أي أن هذه الزيادة المبدئية في الدخول المتولدة عن طريق الفساد تؤدي إلى زيادات مضاعفة في حجم الفساد، وذلك لأن هذه الزيادة المبدئية سيكون لها من الآثار في الأجلين القصير والطويل ما يفوق هذه الزيادة المبدئية.

لكن كيف يعمل هذا المضاعف؟

لنفترض حدوث زيادة معينة في حجم الدخول المتولدة عن طريق ممارسات الفساد (قد تكون ناتجة من دخول أعضاء جدد في دائرة الفساد أو قيام أعضاء حاليين بتوسيع نطاق أعمالهم) ولنحاول تتبع آثارها في المجتمع.

البعد الاقتصادي: تمثل هذه الزيادة ارتفاعا في دخول بعض أفراد المجتمع (موظفي الحكومة) فيزداد الطلب على السلع والخدمات، ويمكن الادعاء بأن هذه السلع والخدمات ستكون في الأغلب من السلع والخدمات الكمالية/ الترفيهية، لكن ما هو أهم من هذه الزيادة في الطلب، والتي قد تكون آثارها الاقتصادية ضئيلة، هو شعور أعضاء الفريق الآخر - ممن لم يتورطوا بعد في ممارسات الفساد - بانخفاض مستوى الدخل النسبي لهم مقارنة بأقرانهم «الفاسدين»، ما يمثل ضغطا اقتصاديا عليهم يزيد من حدته أثر «التقليد والمحاكاة» المعروف، ولذا فإن تمكن البعض من الصمود أمام هذا الضغط الاقتصادي فمن المؤكد أن البعض الآخر لن يستطيع، ومن ثم سيزداد «العرض» من الفساد.

ومن ناحية أخرى، وعلى جانب الطلب على هذا «الفساد»، الذي غالبا ما يأتي من قبل مؤسسات الأعمال، نجد أن هذه الزيادة الأولية في حجم الدخول المتولدة عن طريق ممارسات الفساد غالبا ما تتم من خلال معاملة يكون أحد طرفيها موظف الحكومة والطرف الآخر قد يكون شخصا طبيعيا أو شخصا معنويا (مؤسسة أعمال)، وبرغم تشابه الآثار فإنه لأغراض التوضيح سنفترض أن الطرف الآخر هو شخص معنوي/ مؤسسة أعمال. قدمت هذه المؤسسة رشوة أو عمولة للموظف الحكومي للحصول على صفقة أو تعاقد معين بصورة غير قانونية، وبالطبع لم تكن هذه المؤسسة هي الأكفأ اقتصاديا للحصول على هذه الصفقة أو التعاقد.

كيف سيؤثر هذا في مجموعة مؤسسات الأعمال التي تعمل وفقا لمبادئ الكفاءة والالتزام بالطرق القانونية؟ سيؤدي هذا إلى خروج هذه المؤسسات من دائرة هذا النشاط، حيث لن تقوى على المنافسة، أو ستصبح أكثر استعدادا لسلوك الطريق التي سلكتها المؤسسة التي فازت بالتعاقد، وذلك للحصول على صفقات أو تعاقدات مستقبلية، ومن ثم تتسع دائرة الفساد.

البعد الاجتماعي - الثقافي: لا تقل الآثار الاجتماعية - الثقافية لهذه الزيادة المبدئية في الدخول المتولدة عن الفساد خطورة عن الآثار الاقتصادية، بل ربما تفوقها وذلك لأن دخول أطراف جديدة إلى دائرة الفساد يمثل مزيدا من التراجع في منظومة القيم في المجتمع ويضفي قدرا من «المشروعية العملية» على ممارسات الفساد المرفوضة قانونيا واجتماعيا، الأمر الذي يدفع بعض الأفراد «الحديين» بالمفهوم الاقتصادي - أي من يقفون على حافة التردد بين البقاء بعيدا من دائرة الفساد أو الدخول فيها - إلى الدخول في هذه الدائرة ويزيد من الضغط على هؤلاء بإشعارهم بأنه لا مجال لزيادة دخولهم إلا عن طريق وجودهم في هذه الدائرة، وهنا تتفاعل الاعتبارات الاقتصادية مع الاعتبارات الاجتماعية، وعلاوة على ذلك فإن تورط المزيد في ممارسات الفساد قد يزيد من جرأة من لم يتورطوا بعد على الالتفاف أو خرق القوانين والدخول في الدائرة، خصوصا إن لم يكن هناك نظام رادع للجزاء والعقاب أو كان هذا النظام غير مطبق بفعالية. ومع اتساع دائرة الفساد يتآكل الرادع الاجتماعي، حيث لا يعد غريبا أن يكون الموظف فاسدا ويصبح الغريب ألا يكون كذلك.

- **البعد الإداري - التنظيمي**: في ضوء ما سبق، وفي إطار تفاعل البعدين الاجتماعي والاقتصادي يتراجع، بل قد يتوارى، دور اللوائح والقوانين التي تنظم حركة النشاط الاقتصادي والعمل في الدوائر والهيئات الحكومية، ليحل محلها تدريجيا نظام يقوم على إنجاز الأعمال والحصول على الحقوق المستحقة أو غير المستحقة عن طريق الرشوة والعمولات.

ومع تكرار هذه التداعيات يدخل مزيد من الأفراد ومؤسسات الأعمال وموظفي الحكومة إلى دائرة الفساد فتكتمل منظومة الفساد ويشيع الانطباع بأن الفساد هو الأصل في التعامل، ويصبح الفساد سلوكا مستقرا ومتعارفا عليه في دوائر الحكومة ومؤسسات الأعمال، وبدلا من أن يقاومه الضمير العام في هذه الحالة فإنه سيتغاضى عنه بل وقد يعمل على حمايته ومجاراته.

وهنا قد يطرح التساؤل: ما هي العوامل المحددة لاتساع دائرة الفساد هذه؟

هناك عدد من العوامل التي تحدد التغيرات التي تطرأ على دائرة الفساد في المجتمع ويمكن اختزال هذه العوامل فيما يمكن أن يطلق عليه «الميل الحدي للفساد»، والذي يشير إلى «التغير في مدى استعداد الأفراد ومؤسسات الأعمال للانخراط في ممارسات الفساد الناشئ عن تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في المجتمع». وهذه الظروف أو العوامل هي نفسها الأسباب التي تؤدي إلى انتشار الفساد - نوقشت سابقا - غير أن ما يعنينا الآن هو التغير الذي يطرأ على هذه العوامل، ومن بين هذه العوامل:

- انخفاض مستوى المعيشة وتردي الأوضاع الاقتصادية.
- التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي.

- انخفاض مستويات الأجور والمرتبات في القطاع الحكومي.
- غياب البيئة التنافسية.
- درجة الانفتاح على العالم الخارجي ومدى أهمية التجارة الخارجية.
- سيادة مبادئ الديموقراطية.
- طرق تمويل الأحزاب والجماعات السياسية.
- نزاهة القيادة السياسية.
- كفاءة الجهاز الإداري الحكومي.
- تعقد اللوائح والقوانين الحكومية.
- مدى توافر آليات الرقابة والمساءلة.
- العوامل المحددة للمكانة الاجتماعية.
- سيادة قيم العمل الفردي مقابل العمل الجماعي.

وبوجه عام تميل آثار الفساد إلى أن تكون أخطر وأعم، وكذلك مضاعف الفساد كلما كان الميل الحدي للفساد لدى الأطراف الفاعلة في المجتمع من أفراد ومؤسسات أكبر.

6 - الخلاصة والتوصيات

سعت هذه الدراسة إلى تقديم تحليل اقتصادي - مدعم بالدراسات التطبيقية القياسية - لأهم أسباب وآثار ظاهرة الفساد، ولأن الدراسة اقتصادية في الأساس كان من الطبيعي أن يتم التركيز على الجوانب الاقتصادية لظاهرة الفساد، غير أن هذا لا يرجع بأي حال من الأحوال إلى كون العوامل غير الاقتصادية أقل أهمية، بقدر ما يرجع إلى مراعاة حدود هذه الدراسة.

وقد تبين من الدراسة أن عددا من العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تؤدي إلى انتشار الفساد في المجتمع، فلا يمكن تجاهل الدور الذي تؤديه عوامل مثل انخفاض مستويات المعيشة، وأجور موظفي الحكومة، والإفراط في التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي وطبيعة هذا التدخل، وانخفاض مستوى كفاءة الجهاز الإداري الحكومي، وتعقد اللوائح والقوانين، وغياب الديموقراطية، وتدني مستوى نزاهة القيادات السياسية، لا يمكن تجاهل هذه العوامل عند الحديث عن ظاهرة الفساد.

ولذا فإن مكافحة الفساد تتطلب الفهم الواعي لأبعاد هذه الظاهرة ووضع استراتيجية شاملة تأخذ في الاعتبار الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أفرزت هذه الظاهرة. وهذا الفهم الواعي يقتضي الاعتراف بعدد من الحقائق أهمها:

- أن الفساد موجود بدرجات متفاوتة في كل دول العالم، فلا محل للسؤال عما إذا كان الفساد موجودا أو لا، والفرق بين مجتمع وآخر يتمثل في مدى اتساع دائرة الفساد في المجتمع وطريقة التعامل معه.

– الإيمان بخصوصية كل مجتمع من حيث أشكال الفساد الموجودة والأسباب التى تكمن وراء الفساد، وهنا ينبغي بأي حال من الأحوال ألا نغفل الأهمية الكبيرة للأبعاد الاجتماعية - الثقافية والسياسية لظاهرة الفساد، فإهمال هذه العوامل قد يحكم بالفشل على أي جهود تسعى إلى مكافحة هذه الظاهرة.

– لم ولن يوجد مجتمع خال من الفساد، فالفساد قديم قدم النشاط الإنساني، فهناك دائما قدر من الفساد في أي مجتمع غير أن هذا لا يعني التقاعس عن مواجهة هذه الظاهرة، ولكن يجب العمل على الوصول بهذا القدر إلى الحد الأدنى.

وفي ضوء هذه الحقائق الثلاث يمكن الحديث عن بعض الشروط التي يجب توافرها لتحقيق أسباب النجاح لأي استراتيجية أو جهود تسعى إلى مكافحة الفساد، ويمكن إجمال أهم هذه الشروط فيما يلي:

– أول شروط النجاح أن يشخص المرض على نحو صحيح، وهنا تكمن أهمية، ليس فقط التعرف على أسباب انتشار الفساد في المجتمع ولكن أيضا على تحديد الأهمية النسبية لهذه الأسباب، فالأهمية النسبية لهذه الأسباب تختلف من مجتمع إلى آخر ومن ثم لا يجب التعامل مع أسباب الفساد سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية بصورة مجردة، وفي هذا الصدد يمكن القول إن التشخيص الدقيق للأسباب يعد شرطا ضروريا لنجاح أي جهود تستهدف الحد من الفساد.

– إن انتشار وتفشي ظاهرة الفساد في مجتمع ما يتطلبان قيام هذا المجتمع بوضع برنامج شامل للإصلاح قد تكون أهم عناصره:

– **الإصلاح السياسي**: إرساء مبادئ الديموقراطية والمساءلة.

– **الإصلاح الاقتصادي**: الإسراع في جهود التنمية الاقتصادية ورفع مستويات المعيشة، وإرساء مبادئ لنظام اقتصادي يقوم على اعتبارات الكفاءة وتكافؤ الفرص.

– **إصلاح تشريعي وقضائي**: تتمثل عناصره الرئيسية في تبسيط إجراءات التقاضي وتبسيط التشريعات والقوانين.

– **إصلاح إداري**: يستهدف رفع كفاءة الجهاز الحكومي وتفعيل آليات الرقابة والمساءلة.

– العمل على حشد تأييد ودعم جميع القوى الفاعلة في المجتمع من وسائل إعلام ومنظمات المجتمع المدني وغيرها، وذلك لتوفير الدعم الكافي من قبل أفراد المجتمع.

– المراجعة المستمرة لعناصر برنامج الإصلاح، وذلك لتقييم الأداء والتوصل إلى أوجه القصور، التي قد تظهر مع التنفيذ، والعمل على علاجها.

– إنشاء كيان مستقل لغرض مكافحة الفساد تتوافر له الإمكانات البشرية والمادية والسلطة

الكافية لمواجهة العناصر الفاسدة في المجتمع، أيا كان موقعها، وبغض النظر عما تتمتع به من سلطة سياسية أو نفوذ اقتصادي.

أخيرا، أو على وجه الدقة أولا وقبل أي شيء إيمان وجدية القيادة السياسية في مكافحة الفساد، وربما قبل ذلك نزاهة هذه القيادة السياسية، فكم من برامج واستراتيجيات لمكافحة الفساد وضعت غير أن آثارها ظلت حبيسة الأدراج إما لعدم نزاهة القيادة السياسية، وإما لعدم جديتها في محاربة الفساد، وإما لكلا السببين.

الهوامش

1 Rose-Ackerman, Susan: Corruption and Government: Causes, Consequences, and Reform, Cambridge University Press, U.K, 1999.
2 Tanzi, V. "Corruption: Arm's-Length Relationships and Markets", in Granulose Florential and Sam Peltzman (eds.) The Economics of Organized Crime, Cambridge: Cambridge University Press, 1995, pp. 161-180.
3 Noonan, John T. Jr, Bribes, New York: Macmillan, 1984.
4 Ibid, P.127.
5 Oxford English Dictionary, Oxford University Press, 2nd Ed.1989.
6 Heidenheimer, Arnold J; M. Johnston and V.T. Le Vine: Political Corruption: A Handbook. New Brunswick: Transaction Publishers, 1989.
7 Rose-Ackerman, Susan, Corruption: A study in Political Economy, London/ New York: Academic Press, 1978.
8 Nye, J.S, Corruption and Political Development, American Political Science Review, vol.6, no.2, 1967 pp.417-427.
9 Khan, Mushtaq, A Typology of Corrupt Transactions in Developing Countries, IDS Bulletin, vol. 8, no. 5. 1996.
10 http://www.transparency.org/policy_research
11 Ibid, P.123.
12 Coolidge, Jacqueline and Susan Rose - Ackerman, Kleptocracy and Reform in African Regimes: Theory and Examples, Chapter 3 (pp.57-86) in Hope and Chikulo (eds.) Corruption and Development in Africa Lessons from Country Case - Studies. New York: ST. Martin's Press: 2000.
13 تعريف الباحث.
14 Amundsen, Inge, Political Corruption: An Introduction to the Issues- Working Paper 99: 7, Bergen: Chr. Michlsen Institute, 1999.
15 Ibid, P.171.
16 تعريف الباحث.
17 Ibid, P.43.
18 Ibid, P.44.
19 Ibid, P.45.
20 Ibid, P.46.
21 Ibid, P.47.
22 Ibid, P.49.
23 Ibid, P.50.
24 Ibid, P.162.

Theobald, Robin: Corruption, Development and Underdevelopment. London: The MacMillan Press Ltd. 1990. 25

Huntington, S.P.:"Modernization and Corruption", in Political Order in Changing Societies, Samuel P. Huntington, New Haven, Connecticut: Yale University Press. Pp 59-71, 1968, (Re-Published in Political Corruption: A Handbook, Heidenheimer et al., New Brunswick, Transaction Publishers, Chapter 23, 1989. 26

Eskeland, G. and H. Thiele: "Corruption under Moral Hazard", World Bank Policy Research Working Paper, No.2204, 1999. 27

Doig, Alan and Robin Theobald, "Corruption and Democratization" London: Frank Cass,2000 . 28

Gambetta, D. "The Sicilian Mafia: The Business of Private Protection" Cambridge, Massachusetts; Harvard University Press, 1993. 29

Tanzi, V.: "Fiscal Federalism and Decentralization: A Review of Some Efficiency and Macroeconomics Aspects", in Proceedings of the Annual World Bank Conference on Development Economics, Washington D.C.: The World Bank, chapter 14, pp.231-263, 2000. 30

Andvig, Jens C., Fjeldstad, Odd-Helge; Amundsen, I.; Sissener, T.; Soreide, T. Research on Corruption: A Policy Oriented Survey (CMI) and (NUPI), 2000. 31

Mauro, Paolo, Corruption and Growth, Quarterly Journal of Economics, CX/3 (August): 681-712, 1995. 32

http://www.transparency.org/policy_research/surveys_indices/cpi. 33

Ibid, P.149. 34

Ibid, P.159. 35

Alderfer, C.P. ?Existence, Relatedness, and Growth: Human Need in Organizational Settings. New York: Free Press, 1972. 36

Getz, Kathleen A. and Volkema, Roger J. Culture, Perceived Corruption, and Economics: A Model of Predictors and Outcomes- Business & Society. Vol.40 No.1, 2001, PP 7-30. 37

Paldam, M, The Big Pattern of Corruption: Economics, Culture and the Seesaw Dynamics, Working Paper No.1999-11, Department of Economics, University of Aarhus. 1999. 38

Ekpo, M.U. "Gift-Giving and Bureaucratic Corruption in Nigeria", in Bureaucratic Corruption in Sub-Saharan Africa: Toward a Search for Causes and Consequences. M.U. Ekpo, ed, Washington D.C.: University Press of America, 1979. 39

Ibid, P.105. 40
Treisman, Daniel: "The Causes of Corruption: A Cross National Study", Journal of Public Economics, vol. 76, 2000, pp. 399-457. 41
Ibid, P.413. 42
Ibid, P.417. 43
La Potra, R., F. Lopez - de - Silanes, A, Schleifer and R.W. Vishny, The Quality of Government, Journal of Law, Economics and Organization, Vol. 15, no. 1, 1999, pp. 222-279. 44
Rose-Ackerman, Susan, Corruption and Government: Causes, Consequences and Reform, Cambridge: Cambridge University Press, 1999. 45
Elliot, K. A, Corruption as an International Policy Problem: Overview and Recommendations, In Corruption and the Global Economy. K.A. Elliot, ed. Washington D.C: Institute for International Economics, 1997, pp. 175-233. 46
Lindbeck, Assar -Swedish Lessons for Post - Socialist Countries- Unpublished Manuscript, 1998. 47
Van Rijckeghem, Caroline, and Beatrice Weder -Corruption and the Rate of Temptation: Do Low Wages in the Civil Service Cause Corruption IMF Working Paper 97/73, Washington: International Monetary Fund, 1997. 48
Ibid, P.227. 49
Ibid, P.39. 50
Brunetti, A. and B. Weder, Investment and Institutional Uncertainty: A Comparative Study of Different Uncertainty Measures, Weltwirtschaftliches Archiv, CXXXIV, 1998, pp, 513-533. 51
Lambsdorff, Johann Graf, The Transparency International Corruption Perception Index 1999 - Framework Document, Transparency International, Berlin, WWW. Transparency. De E.1999. 52
Leite, C. and J. Weidmann: Does Mother Nature Corrupt- Natural Resources, Corruption, and Economic Growth, International Monetary Fund Working Paper 99/85 July, 1999. 53
Wei, S.-J, Bribery in the Economies, Working Paper, Brookings, 2000. 54
Gatti, R., Corruption and Trade Tariffs, or a Case for Uniform Tariffs, World Bank Policy Research Working Paper, No. 2216, November, 1999. 55
Diamond, L. and M. F. Platter, The Global Resurgence of Democracy, Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1993. 56
Weingast, B.R, The Economic Role of Political Institutions: Market- 57

preserving Federalism and Economic Development, Journal of Law, Economics and Organization, vol. 11, no. 1, pp. 1-31,1995.
58 Wilson, James, "Corruption: The Shame of the States", in Political Corruption. A Handbook, Hedienheimer et al., eds, New Brunswick/London: Transaction Publishers. 1989.
59 Shleifer, Andrei and Robert W. Vishny, "Corruption", The Quarterly Journal of Economics, 108 (August), pp. 599-617, 1993.
60 Ibid, P.22.
61 Max-Neef, M. "Economic Growth and Quality of Life" Ecological Economics, 15,115-118, 1995.
62 Leff, Nathaniel H. "Economic Development through Bureaucratic Corruption", American Behavioral Scientist, 8/3 (November), pp. 8-14, 1964; (Republished as chapter 24 in Political Corruption: A Handbook. Heidenheimer et al, New Brunswick, 1989, Transaction Publishers.
63 Lien, D, A Note on Competitive Bribery Games, Economics Letters, 337-341, 1986
64 Lui, Francis T., An Equilibrium Queuing Model of Bribery, Journal of Political Economy, vol. 93, no. 4 , pp. 760-81, 1985.
65 Ibid, P.11
66 Shleifer, Andrei and Robert W. Vishny, Corruption, Quarterly Journal of Economics, 108, 1993, pp. 599-617.
67 Ibid, P772.
68 Kaufmann, Daniel and Chang-Jin Wei, Does "Grease Money" Speed up the Wheels of Commerce?,- NBER Working Paper, no. 7093, 1999.
69 Ibid, P 53.
70 Lambsdorff, Johann Graf, Corruption in International Research - A Review, Transparency International Working Paper, Berlin. www. Transparency. De., 1999.
71 Brunetti, A., G. Kisunko and B. Weder, Credibility of Rules and Economic Growth: Evidence from a Worldwide Private Sector Survey, Background Paper for the World Development Report, 1997, Washington D.C.: World Bank, 1997.
72 Ibid, P.56.
73 Ibid, P.56.
74 Keefer, P. and S. Knack, Institutions and Economic Performance: Cross-Country Tests Using Alternative Institutional Measures, Economics and Politics, vol.7, No.3, Pp. 207-227, (1995.

75 Wedeman, A, Looters, Rent-Scrapers, and Dividend-Collectors: Corruption and Growth in Zaire, South Korea, and the Philippines, The Journal of Developing Areas, 31: 457-478,1997.

76 Campos, J. and Edgardo, Donald Lien and Sanjay Pradhan, The Impact of Corruption on Investment: Predictability Matters, World Development, Vol. 27, No.6. Pp. 1059-1067, 1999.

77 Alesina, A. and B. Weder, Do Corrupt Governments Receive Less Foreign Aid? NBER Working Paper 7108, Cambridge MA, 1999.

78 Ibid, P.45

79 Ibid, P.375.

80 تناول د. محمود عبدالفضيل في كتابه «تأملات في المسألة الاقتصادية المصرية»، دار المستقبل العربي، 1983، فكرة مضاعف الفساد لكن من منظور مختلف.

المراجع

· أولاً - المراجع العربية

عبدالفضيل، محمود، تأملات في المسألة الاقتصادية المصرية، دار المستقبل العربي، 1983.

ثانياً - المراجع الأجنبية

- Alderfer, C.P. (1972) Existence, Relatedness, and Growth: Human Need in Organizational Settings. New York: Free Press.
- Alesina, A. and B. Weder (1999) "Do Corrupt Governments Receive Less Foreign Aid?" NBER Working Paper 7108, Cambridge MA.
- Amundsen, Inge (1999) "Political Corruption: An Introduction to the Issues" Working Paper 99: 7, Bergen: Chr. Michlsen Institute.
- Andvig, Jens C., Fjeldstad, Odd-Helge; Amundsen, I.; Sissener, T.; Soreide, T. (2000) "Research on Corruption: A Policy Oriented Survey" (CMI), (NUPI).
- Brunetti, A. and B. Weder (1998) "Investment and Institutional Uncertainty: A Comparative Study of Different Uncertainty Measures" Weltwirtschaftliches Archiv, CXXXIV, Pp, 513-533.
- Brunetti, A., G. Kisunko and B. Weder (1997) "Credibility of Rules and Economic Growth: Evidence from a Worldwide Private Sector Survey", Background Paper for the World Development Report, 1997, Washington D.C.: World Bank.
- Campos, J. and Edgardo, Donald Lien and Sanjay Pradhan (1999) The Impact of Corruption on Investment: Predictability Matters, World Development, Vol. 27, No.6. pp. 1059-1067.
- Coolidge, Jacqueline and Susan Rose - Ackerman "Kleptocracy and Reform in African Regimes: Theory and Examples" Chapter 3 (pp.57-86) in Hope and Chikulo (eds.) Corruption and Development in Africa Lessons from Country Case - Studies. New York: ST. Martin's Press.
- Diamond, L. and M. F. Platter (1993) The Global Resurgence of Democracy, Baltimore: Johns Hopkins University Press.
- Doig, Alan and Robin Theobald (2000) "Corruption and Democratization" London: Frank Cass.
- Ekpo, M.U. (1979) "Gift-Giving and Bureaucratic Corruption in Nigeria", in Bureaucratic Corruption in Sub-Saharan Africa: Toward a Search for Causes and Consequences. M.U. Ekpo, ed, Washington D.C.: University Press of America.

- Elliot, K. A (1997) "Corruption as an International Policy Problem: Overview and Recommendations", In Corruption and the Global Economy. K.A. Elliot, ed. Washington D.C: Institute for International Economics. pp. 175-233.
- Eskeland, G. and H. Thiele (1999): "Corruption under Moral Hazard", World Bank Policy Research Working Paper, No.2204.
- Gambetta, D. (1993) "The Sicilian Mafia: The Business of Private Protection" Cambridge, Massachusetts; Harvard University Press.
- Gatti, R. (1999) "Corruption and Trade Tariffs, or a Case for Uniform Tariffs", World Bank Policy Research Working Paper, No. 2216.
- Getz, Kathleen A. and Volkema, Roger J. (2001). "Culture, Perceived Corruption, and Economics: A Model of Predictors and Outcomes" Business & Society. Vol.40 No.1 PP 7-30.
- Goldsmith, Arthur. A. (1999) "Slapping the Grasping Hand: Correlates of Political Corruption in Emerging Markets", American Journal of Economics and Sociology, Vol.58, No.4,PP 866-883.
- Heidenheimer, Arnold J; M. Johnston and V.T. Le Vine (1989) Political Corruption: A Handbook, New Brunswick: Transaction Publishers.1989.
- Huntington, S.P.(1989) "Modernization and Corruption", in Political Order in Changing Societies, Samuel P. Huntington, New Haven, Connecticut: Yale University Press. Pp 59-71, 1968, (Re-Published in Political Corruption: A Handbook, Heidenheimer et al., New Brunswick, Transaction Publishers, Chapter 23.
- Kaufmann, Daniel and Chang-Jin Wei, Does (1999) "Grease Money" Speed up the Wheels of Commerce- NBER Working Paper, no. 7093.
- Keefer, P. and S. Knack (1995) "Institutions and Economic Performance: Cross- Country Tests Using Alternative Institutional Measures" Economics and Politics, vol.7, No.3, Pp. 207-227.
- Khan, Mushtaq (1996) A Typology of Corrupt Transactions in Developing Countries, IDS Bulletin, vol. 8, no. 5.
- Lambsdorff, Johann Graf (1999) The Transparency International Corruption Perception Index 1999 - Framework Document, Transparency International, Berlin, www. transparency.org.
- .... (1999) "Corruption in International Research- A Review" Transparency International Working Paper, Berlin. www. transparency.org.

- La Potra, R., F. Lopez - de - Silanes, A, Schleifer and R.W. Vishny (1999) "The Quality of Government" Journal of Law, Economics and Organization, Vol. 15, no. 1, pp. 222-279.
- Leff, Nathaniel H. "Economic Development through Bureaucratic Corruption", American Behavioral Scientist, 8/3 (November), pp. 8-14, 1964; (Republished as chapter 24 in Political Corruption: A Handbook. Heidenheimer et al, New Brunswick, 1989, Transaction Publishers.
- Leite, C. and J. Weidmann (1999) "Does Mother Nature Corrupt? Natural Resources, Corruption, and Economic Growth" International Monetary Fund Working Paper 99/85 .
- Lien, D. (1986) A Note on Competitive Bribery Games, Economics Letters, pp337-341.
- Lindbeck, Assar (1998) "Swedish Lessons for Post" Socialist Countries- Unpublished Manuscript.
- Lui, Francis T. (1985) "An Equilibrium Queuing Model of Bribery", Journal of Political Economy, vol. 93, no. 4 , pp. 760-81.
- Mauro, Paolo (1995) "Corruption and Growth", Quarterly Journal of Economics, cx/ 3.pp681 - 712.
- Max-Neef, M. (1995) "Economic Growth and Quality of Life" Ecological-Economics, 15,115-118.
-Nye, J.S (1967) "Corruption and Political Development" American Political Science Review, vol.6, no.2, pp.417-427.
- Noonan, John T. Jr (1984), Bribes, New York: Macmillan.
- Oxford English Dictionary, Oxford University Press, 2nd Ed.1989.
- Paldam, M (1999) "The Big Pattern of Corruption: Economics, Culture and the Seesaw Dynamics", Working Paper No.1999-11, Department of Economics, University of Aarhus.
- Rose-Ackerman, Susan (1970) Corruption: A study in Political Economy, London/New York: Academic Press.
- .... (1999) Corruption and Government: Causes, Consequences, and Reform, Cambridge University Press, U.K.
- Shleifer, Andrei and Robert W. Vishny (1993) "Corruption", Quarterly Journal of Economics, 108, pp. 599-617.
- Tanzi, V. "Corruption: Arm's-Length Relationships and Markets", in Granulose Florential and Sam Peltzman (eds.) The Economics of Organized Crime,

Cambridge: Cambridge University Press, 1995, pp. 161-180.
- .... "Fiscal Federalism and Decentralization: A Review of Some Efficiency and Macroeconomics Aspects", in Proceedings of the Annual World Bank Conference on Development Economics, Washington D.C.: The World Bank, chapter 14, pp.231-263, 2000.
- Theobald, Robin (1990) Corruption, Development and Underdevelopment, London: The MacMillan Press Ltd.
- Treisman, Daniel (2000) "The Causes of Corruption: A Cross National Study", Journal of Public Economics, vol. 76, pp. 399-457.
- Tullock, Gordan (1996) "Corruption Theory and Practice", Contemporary Economic Policy, Vol.14, PP 6-13.
- Van Rijckeghem, Caroline, and Beatrice Weder (1997) "Corruption and the Rate of Temptation: Do Low Wages in the Civil Service Cause Corruption" - IMF Working Paper 97/73.
- Wedeman, A, Looters (1997) "Rent-Scrapers, and Dividend-Collectors: Corruption and Growth in Zaire, South Korea, and the Philippines" The Journal of Developing Areas, 31: 457-478.
- Weingast, B.R (1995) "The Economic Role of Political Institutions: Market-preserving Federalism and Economic Development", Journal of Law, Economics and Organization, vol. 11, no. 1, pp. 1-31.
- Wei, S.-J (2000) "Bribery in the Economies", Brookings Working Paper.
- Wilson, James, "Corruption: The Shame of the States", in Political Corruption. A Handbook, Hedienheimer et al., eds, New Brunswick/London: Transaction Publishers. 1989.

عالم الفكر
العدد 2 المجلد 38 أكتوبر - ديسمبر 2009

الهوية الوطنية والتلفزيون: عشر أطروحات لتطليق المسلمات

د. نصر الدين لعياضي (*)

مقدمة:

إن الحديث عن «الهوية الوطنية» لم يعد مقتصرا على المجتمعات التي سعت إلى تكوين دولة وطنية بعد «استقلالها السياسي»، وإخفاقها في بناء اقتصادها المستقل، وشق طريقها التنموي بعيدا عن التبعية لدول «المركز» أو القوى التي استعمرتها. والجدل المتوتر بشأن موضوع الهوية أصبح يثار في الدول المتقدمة والنامية، على حد سواء، طارحا هاجسا كونيا. فكلما اشتد النقاش بشأن العولمة ونتائجها يثار، بإلحاح، موضوع الهوية بكل ما تحمله من عناوين: هوية وطنية، هوية ثقافية، هوية فردية، هوية جماعية... وكأن هناك علاقة تناقضية بين العولمة والهوية.

قليلة هي الدول التي لم تعش توترات ناجمة عن الهوية، التي إن لم تفرزها الجغرافيا أحياها التاريخ أو أيقظها الحاضر. فبعض الدول أصبحت تشدد على مُكون واحد لهوية مواطنيها، مثل: الدين، العرق، اللغة، الانتماء الجغرافي، بل تختصرها فيه، بحثا عن أرضية للتوافق والانسجام بين مواطنيها وتمتين شرعيتها. وبعض الدول العظمى، والتكتلات الدولية والإقليمية تقوم بالشيء ذاته لزعزعة استقرار بعض الدول خدمة لمصالحها الجيو - استراتيجية.

إن كان هاجس الهوية حاضرا، بشكل أو بآخر، في جل دول العالم، تقريبا، في مطلع الألفية الحالية، فإن الإحساس بها وإدراك مصاعبها وآثارها يختلف من دولة إلى أخرى. ففي فرنسا،

(*) كلية الاتصال - جامعة الشارقة - الإمارات العربية المتحدة.

على سبيل المثال، التي تشكلت هويتها في ظل سلطة الدولة المركزية القوية، وفي خضم النزاعات المسلحة عبر التاريخ، نمت الخشية من ذوبان هذه الهوية نتيجة تراجع الدور التاريخي للدولة[1].

كما أن موضوع الهوية قد طُرح، بحدة، في المكسيك بعد توقيعها على اتفاقية التبادل التجاري الحر في يناير 1994 مع الدولتين المتجاورتين: الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. إن هذه الاتفاقية رسمت آفاق تطور المكسيك ضمن تكتل إقليمي تحكمه قوانين عولمة الاقتصاد والخدمات، ما أثار حركة احتجاج واسعة عبرت عن توجس جزء من المواطنين من إبعاد الثقافة الأهلية (ثقافة السكان الأصليين) بوصفها مكونا أساسيا للهوية المكسيكية بفعل تسليع الثقافة والإعلام وفق معايير السوق الكونية. وفي فيتنام تطرح مسألة الهوية في سياق مختلف، إذ إن الفيتناميين الذين خاضوا حربين متتاليتين على مدار عشرين سنة لم يكن لهم أدنى فكرة عن كيفية إدارة بلد. فالتصنيفات التي كانت تقسم المجتمع الفيتنامي إلى أخيار (عمال وفلاحين...) وأشرار (الإقطاع والبرجوازية) قد زالت، وزالت معها كل القيم التقليدية، إذ ظهر التدافع جليا نحو نمط المعيشة المادي والمتعي، بل أصبح مشروعا. أما في كندا، فإن مسألة الهوية تُثار في ظل تعاقب موجات الهجرة، والاحتقان اللساني الذي أوجدته الازدواجية اللغوية المتبعة في البلد (استعمال اللغتين: الإنجليزية، والفرنسية) ذات التأثيرات الخطيرة في وحدة التراب الكندي. وحتى الدول - الأمة الكبرى، التي تظهر للبعض بأنها محصنة ضد مخاطر العولمة، ومحمية من أي تهديد يستهدف تفكيك هويتها، وتبدو أقل «مطالبة بهويتها»، سواء خوفا من النزعة القومية التي ازدهرت في الماضي بكل أوزارها الأليمة أو لصعوبة التفكير في خصائص ثقافتها الوطنية اليوم[2]، تقف في حيرة مما يخبئ لها الغد، خصوصا بعد أن بدأ مفهوم الخدمة ينسحب من حقل الثقافة تاركا المجال لمفهوم السلعة، التي تعني عمليا الفرز والإقصاء الذي يؤول إلى خلخلة التجانس الاجتماعي.

وفي الدول العربية استفحل هاجس الهوية نتيجة تعاضد بعدين أساسيين متداخلين: البعد الأول تاريخي نما بعد أن أخضع الاستعمار جل الدول العربية لسيطرته، وحاول إعادة صياغة مجتمعاتها اقتصاديا وثقافيا، وإن كان لم يحقق النجاح المأمول إلا في بعض الدول القليلة، لكنه زرع الشك والحذر لدى قطاع واسع من الشعوب العربية تجاه أي ارتباط بالدول الغربية وتوجهاتها. والبعد الثاني راهني يتمظهر في انشقاق الوعي العربي بين مطالب الهوية والحداثة[3]. فمطالب الهوية لدى بعض النخب العربية أصبحت تعني، عمليا، الحفاظ على الخصوصية والعودة إلى الماضي، وإحداث قطيعة مع الغرب و«ثقافته». أما مطالب الحداثة لدى بعض النخب الأخرى، فتقترن بالتجرد من الهوية، والتنكر للماضي الذي يمد «الذات» العربية بعناصر الخصوصية.

إن زوال الحدود الجغرافية والثقافية أمام غزارة تدفق الأموال، والمنتجات، والسلع والخدمات والتصورات والأفكار وسرعة تبادلها، وما ترتب عليها من نتائج على الصعيدين المادي أو الرمزي، دفع بعض الباحثين إلى المطالبة بإعادة النظر في تعريف بعض المفاهيم الأساسية التي شكلت مركز ارتباط وانتماء، مثل: الأمة، والهوية التي تعيش أزمة عميقة وممتدة. إنها أزمة شرعية الدول في احتوائها للهوية[4].

إذا كانت العوامل التي نمت الإحساس بالخوف على الهوية الوطنية أو الهويات المحلية أو القومية، معروفة، فإن تلك التي تصنع الخوف من الهويات الوطنية أو القومية تظل مخفية أو متسترا عليها في ظل تزايد بؤر التوتر والنزاعات المسلحة في العالم، التي لا تُفسر، في الأغلب، بقدر ما تُبرر بمصوغات أيديولوجية.

حقيقة، إن بروز ظاهرة الدولة - أمة في التاريخ البشري وما واكبها من تنامي النزعات القومية قد أدى إلى مآس مازالت البشرية تحمل ندوبها، ما أدى، اليوم، إلى الريبة من كل حديث أو فعل لتعزيز الثقافة الوطنية أو القومية، لكن تجاهلها لمصلحة ثقافات أخرى «حديثة» ومعولمة، أو نكرانها أو مقاومتها أو دفعها إلى الاندثار قد يجعلها مصدرا للتوتر والعنف[5]. إن لم يحولها إلى «هويات قاتلة» على حد تعبير الروائي أمين معلوف.

إن الحديث غير المباح عن أسباب نشوء ظاهرة الخوف من الهويات قد يبعد التفكير الرصين والعلمي عن البحث في صلة الوصل بين الخوف على الهويات ومنها، وانقلاب الخوف الأول إلى الخوف الثاني. هذا إذا استبعدنا، طبعا، كل مبالغة وتهويل في الخوفين لأسباب متعددة.

بعد هذه المقدمة العامة، يمكن التساؤل عن علاقة وسائل الإعلام المعاصرة، والقنوات التلفزيونية تحديدا، بالهوية الوطنية أو الهويات المحلية، هل هذه الوسائل تعمل على تعزيز الهويات وتجديدها، أو تسعى إلى تهميشها واندثارها؟ هل تعمل وسائل الإعلام على تعزيز الخوف على الهوية أو تشجع الخوف منها؟ ولو افترضنا، تجاوزا، أن العولمة تعمل على تجريد البشرية من هويتها، فما دور القنوات التلفزيونية في الدفاع عن هذه الهوية المهددة؟ ولو آمنا بأن تشكّل هوية ما وتطورها أو اندثارها لا يتم بين عشية وضحاها، بل يأخذ مسارا طويلا ومعقدا، فما دور التلفزيون في إثرائه أو إفقاره؟ وما انعكاسات الهوية على التفاعل مع التلفزيون؟ وبماذا يمكن أن تساعدنا النظرية الاجتماعية الخاصة بصياغة المعنى من مشاهدة البرامج التلفزيونية وعلاقتها بالهوية الوطنية؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة يجب التريث قليلا لتعريف ما «الهوية»، وما خصائصها، حتى يكون مسعانا في الحديث عن علاقتها بوسائل الإعلام، أو العكس، واضحا ومبنيا على توصيف محدد. فالحديث الغامض عن الهوية يجعل علاقاتها بوسائل الإعلام الحديثة أكثر غموضا، ولا يضيف شيئا ذا قيمة معرفية سوى اجترار الصور النمطية التي لا تفلت من

التناقض، حيث تقدم «هويتنا» في صورتها المتماسكة والمشرقة التي أثارت شهية الأطماع للنيل منها، طورا، أو إبرازها، تارة أخرى، في حالة احتضار تستعد لتوديع العالم ولا يفيدها أي شيء سوى كلمات التأبين، التي تأخذ مظهر جلد الذات.

محددات تعرف الهوية

إذا كانت الإشارة إلى «الهوية» قد بدأت في الخمسينيات من القرن الماضي، فقد تم تداولها في العلوم الاجتماعية والتحليل الاجتماعي في منتصف الستينيات في فرنسا، ومنه انتقلت إلى الخطاب العمومي[6].

وبعد أكثر من نصف قرن من التداول في الحقول المعرفية المختلفة (الفلسفة، علم النفس، علم الاجتماع، علم الأنثروبولوجيا) مازال مفهوم الهوية يعاني من الغموض والتباين. وإزاحته من خانة البدهيات التي قادته إليها الكتابات الصحافية المستعجلة والخطب السياسية ذات النبرة الاستعمالية يحتاج إلى جهد نظري لتوضيحه، أو إعادة تعريفه تماشيا مع التطور الاجتماعي الذي يفرض على التفكير العلمي أن يجدد إدراكه للمفاهيم التي يشتغل عليها أو يشتغل بها، وذلك لأن الهوية تشكل، كغيرها من المفاهيم، وحدات للممارسة الاجتماعية والسياسية، وأيضا، وحدات للتحليل الاجتماعي والسياسي[7].

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول إن مفهوم الهوية لا يشكل موضوع إجماع في تعريفه وغاياته، لأنه يطرح بعض القضايا المرتبطة بجوهر الوجود الفردي والجمعي والوطني، ويحدد خصائص الأنا مقارنة بالآخر، لذا لا بد من الاستعانة ببعض المحددات التي تساعدنا في فهم الهوية، والتي نذكر منها، على وجه الخصوص، ما يلي:

1 - **محدد «الأنا»**: نقترب من فهم الهوية إذا حاولنا البحث عن القسمات التي تميز الأنا وتكشف عن خصائصها الجوهرية. لقد حاول الناطقون باللغة الفرنسية استجلاء معنى الهوية Identité انطلاقا من الاشتقاق اللغوي، والذي نُحتت منه كلمة Identique، والتي تعني الوحيد؛ الأصيل؛ أي الذي لا يوجد شبيه له، فالوحيد يتحول إلى فريد؛ أي متميز عن الآخر (unicité)[8]. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المتميز لا يعني الأفضل، كما درج استعماله لدى العامة، والذي يكتنز حكما قيميا إن لم يحتو على تضمين عنصري، بل يدل على الشيء المختلف فقط.

يجري الحديث، في الأغلب، عن الهوية كأنها الصورة التي نملكها عن ذاتنا وعن بلدنا، ومن النادر أن يُبنى هذا الحديث على نتائج البحث الميداني الذي يستنطق الأشخاص وسلوكهم لتفكيك بنية الهوية إلى العناصر الأساسية التي تشكلها، أو يستجمع القسمات الأساسية التي تكونها.

لقد رام معهد العالم العربي في باريس هذا المبتغى، حينما جمع نفرا من المثقفين العرب، قبل أكثر من عقد من الزمن، حول السؤال التالي: ماذا يعني أن تكون عربيا في نهاية القرن

الماضي، وكانت الإجابات جد متنوعة تعكس تباين الرؤية للهوية العربية أو تعدد الهويات وتنوعها داخل الهوية الواحدة[9]. وبهذا ندرك أن الهوية ليست معطى مركبا من دين ولسان وتاريخ مشترك فقط، بل إنها ذات مضمون متعدد ومتجدد. إن الهوية تحيلنا إلى مفهوم الخصوصية الغني بالتضمينات الذي يستعصي الإمساك به، لأنها ذات قابلية للتجزئة والانشطار المتجدد على عدة مستويات: جغرافية واجتماعية وتاريخية وثقافية وحضارية.

لقد كانت الدراسات الأنثروبولوجية والإثنية (Anthropologic and ethnic studies) في القرنين الثامن والتاسع عشر تتسم بنزعة استعلائية، وتحمل تضمينات سلبية لارتباطها بالمشاريع الاستعمارية القائمة على معرفة الأقليات العرقية وخصائصها السلوكية ومعتقداتها للسيطرة عليها ومسح خصوصيتها. أما في الظرف الحالي فقد أعيد الاعتبار لهذه الدراسات من أجل الحفر في مكونات الأنا وتحريرها من عقدة الإحساس بالدونية، والكشف عن مميزاتها وخصوصيتها أمام الآخر في ظل زيادة الاهتمام بالنسبية والتنوع الثقافيين.

2 - **محدد الآخر**: إن الوعي بالهوية لا يتم بالاستناد إلى إدراك خصائصها فقط، بل يتحقق من خلال الوعي بالآخر[10] أي بالنظر إلى خصائص هوية الآخر. إن جماعة بشرية ما أو أمة معينة تكون من دون هوية أو فاقدة الإحساس بها إذا عجزت عن الرؤية أو الإقرار بما لدى أمة أخرى ولا يوجد لديها، أو لم تستطع أن ترى ما لديها وهو غير موجود لدى أمة أخرى. فالشعور بالهوية الذي يغمر المرء ويملأه إعزازا أو يمده بالثقة والقوة لا يتم، في الأغلب، إلا بالنظر إلى هوية الآخر، أو إلى صورته لدى الآخر.

نميل إلى الاعتقاد بأن أحد مصادر التوتر والقلق في الهوية العربية الإسلامية يأتي من عدم التشخيص الموضوعي للآخر. فصورة الآخر في هذه الهوية تبدو حُبلى بكثير من الإسقاطات الذاتية والنزعات الأيديولوجية. إن العدو، بصرف النظر عن قوميته أو دينه، يتمظهر في الدراما التاريخية العربية، على سبيل المثال، في صور بعيدة عن الواقع، وقريبة جدا من الكاريكاتير: عاجز، غبي، من دون أخلاق، ماجن، يجالس النساء وسكير. ويا ليت هذه الصور بقيت في ذمة التاريخ؛ إنها حاضرة، بهذا القدر أو ذاك، في الخطاب العربي السائد في العصر الحالي، ولم تتغير كثيرا.

3 - **محدد الذاكرة**: إن مفهوم الهوية يفترض وجود الأنا في الزمان والمكان، وهنا تبرز علاقة الهوية بالذاكرة. ففي الذاكرة تترسب الهوية لتبقى، وتحافظ على استمرار وجودها، من دون أن تذوي تحت وطأتها. فإذا قلنا إن الهوية هي ما يربط مجموعة بشرية عاشت تجارب مشتركة وتستعيدها في تعاملها مع الواقع اليومي، ندرك أن الذاكرة هي النسغ الذي يحدث التماسك في بناء هويتنا ويحافظ عليها من الاندثار، ويجعلها معيشة. فالشعوب التي تفقد الذاكرة يصعب عليها أن تحدد ماهيتها، ووجودها في الزمان والمكان. وفي هذا المقام يمكن أن نستجلي مظاهر التوتر في

الهوية العربية الإسلامية مع ذاكرتها. والتي يرجعها البعض إلى الحقيقة التي يسعى القول الشائع، وغير العلمي، إلى إثباتها بتأكيده أن الحامل الاجتماعي للهوية المذكورة لا يقرأ تاريخه. إن مثل هذا التأكيد يتستر على الكتابة الانتقائية لهذا التاريخ، التي تحفل بجانبه البطولي وتخفي جانب الإخفاق والضعف فيه. ويتجاهل الدور الاجتماعي والثقافي المتضائل الذي تمارسه المتاحف، وكل الحوامل المادية والرمزية للذاكرة، في الحياة الاجتماعية في المنطقة العربية(*).

4 - **الهوية بوصفها معطى منجزا:** إن الهوية ليست معطى جاهزا وكامل البناء، فالخصائص الجوهرية التي تبني الهوية أو تركبها لا تتشكل إلا عبر جملة من التراكمات المعقدة، أي في ظل تطور تاريخي، وذات الصلة بالواقع الحالي. لذا يبدو أن الوعي بالهوية يجعل التاريخ حيا، يتحرك في الحاضر، يُستلهم أو يُستنجد به كلما ظهرت الحاجة إلى ذلك[11]. إن الاستنجاد بالتاريخ لا يعني أبدا أن الهوية منجز تاريخي كامل ومنغلق على ذاته في وجه المؤثرات الخارجية. فالهوية ليست كيانا ماضويا خالصا مثل التراث.

إن الترجمة العملية للتعريف الذي تقدم به المفكر المغربي محمد عابد الجابري للهوية، والذي يلخصها في «الوعي المتجدد بذاتنا»[12]، تعني أن «الهوية» تحيل الناس إلى ما يملكونه، وما يبحثون عنه، وما يبنونه، ويتفاوضون من أجله[13].

إذن الهوية لا تملك طابعا ثابتا، وقارا، إنها تتحرك، تتكيّف، وتتطور، وذلك لأن مصالح حامليها بوصفهم مجموعات أو جماعات لا تتوافق، في بعض الأحيان، فتنتج نظاما تراتبيا متحوّلا. وتطورها ينجم، أيضا، عن التلاقي أو التصادم مع المجموعات البشرية والثقافات المختلفة الناتج عن تعدد قنوات التواصل والاتصال وانتقال أنماط السلوك و«استهلاك» الرموز الثقافية، وتزايد موجات الهجرة بحثا عن الرزق أو العلم أو الربح الوفير أو السريع بالنسبة إلى الشركات التي أعادت انتشار مصانعها في الكرة الأرضية.

لعل النقاش الذي يثار بشأن وسائل الإعلام والهوية في الفضاء العربي يكمن في ثقل التاريخ في فهم هذه الأخيرة، والاقتناع بوجود تفاوض حول مكونات الهوية وتجدّدها أو ضمان «نشأتها المستأنفة» أو التوجه نحو استبدالها بما يفيض به اقتصاد السوق وتكنولوجيات الاتصال الحديثة من مثل ورموز، فتعيش تجربة «إعادة نشأتها المبتورة»؟

(*) كنا في مهمة علمية إلى ألمانيا في إطار جامعي، ونظم لنا الألمان جولة سياحية إلى مدينة درسدن. فمررنا، على عجل، على ساحة كبرى في المدينة مرصوفة بالحجارة التي تعبق برائحة التاريخ. فاستوقفنا مرافقنا مشيرا بإصبعه إلى حجرة ناتئة قليلا في الساحة، لم ينتبه إلى وجودها أحد من وفدنا، وسألنا قائلا: هل تعرفون لماذا أخذت هذه الحجارة وضعها العالي في هذه الساحة؟ لم يكن أحد منا يملك الإجابة. فرد قائلا: فوق هذه الحجرة وقف نابليون بونابرت مخاطبا جيشه الذي اكتسح المدينة. وقد حاولنا رفعها قليلا، تخليدا للحدث. فكم من أحداث مريرة عاشتها المنطقة العربية منذ فجر التاريخ، وكيف تم تخليدها؟

5 - **الهوية والمتخيل**: اقترنت الهوية بالشعور بالانتماء، وبوشائج الارتباط بكيان أو مجموعة بشرية أساسية، مثل الأمة. لذا يقال بأن الهوية تعاني من أزمة لأن الأمة ذاتها تعيش أزمة بفعل السوق العالمية التي تعمل على إزالة كل الحواجز الطبيعية والثقافية التي تقف عائقا أمام امتدادها. لكن ما هو التعريف المعاصر للأمة الذي يمكن أن يقربنا من إدراك الهوية؟

يعرف الباحث: بنديكت أندرسون (Benedict Anderson) الأمة بأنها مجموعة سياسية خيالية ومتخيلة Imaginaire et imagée وذلك لأن أعضاء أي أمة، حتى الصغيرة، لا يعرفون أغلبية مواطنيهم، ولا يلتقون بهم، ولا يسمعون عنهم على الرغم من أن في ذهن كل واحد منهم تعيش صورة مجموعاته: الوطنية أو القومية[14]. لذا يرى البعض أن ما هو متصور بوصفه فعلا ثقافيا يملك أهمية في تطور الأمة يعادل أو يزيد على أي عامل طبيعي، مثل: اللغة أو العرق أو الدم. لكن الأمة تفقد عوامل استمرارها من دون هوية تعّد، في آخر المطاف، نتيجة فاعلية عقلية ووجدانية، أي ذاتية. أي ما نتصوره عن ذاتنا، وما نشعر به وندركه ويدفعنا إلى التضامن أو الفعل الجماعي.

لعل هذا التزاوج بين المحسوس والمتصور في الهوية، وبين الوجداني والعقلي في تشكلها يدفع إلى اعتبار الهوية بوصفها فكرة لا يمكن أن نفكر فيها بالطريقة القديمة، والتي من دونها لا يمكن أن تكون بعض الأسئلة الأساسية مفكرا فيها أصلا[15].

القنوات التلفزيونية والهويات المحلية أو الوطنية:

قبل الاقتراب من تحليل علاقة القنوات التلفزيونية بهوية الشعوب والأمم تبدو الحاجة ماسة إلى تأكيد المعطيات التالية:

1 - من الصعب أن نستبعد مضمون ما تبثه القنوات التلفزيونية المختلفة في حقل التصور، والصور التي ينتجها الأشخاص عن ذاتهم وكيانهم الجماعي، وما يكتسبونه من انطباعات أو أحكام ورؤى للآخر. فالجمهور أصبح طرفا منتجا للمعنى انطلاقا مما تقدمه له وسائل الإعلام. هذا بصرف النظر عن مدى مطابقة ما تبثه وسائل الإعلام من تمثلات مع الواقع اليومي الذي يتغير باستمرار. فالإعلام المرئي يقدم تمثلات لما يجمعنا للعيش معا.

إن عملية إنتاج المعنى، وليس التقاطا لها، مما يُشاهد في التلفزيون أو يُقرأ في كتاب، تخضع لجملة من المتغيرات المترابطة، يتداخل فيها الشخصي والجماعي. وهي عملية ديناميكية تتلون بتلوّن السياقات، فالمعنى المستخلص من مشاهدة فيلم سينمائي لأول مرة، على سبيل المثال، يكون مختلفا، بهذا القدر أو ذاك، عن مشاهدته للمرة الثانية بعد أشهر أو سنوات.

2 - من الصعب النظر إلى موضوع التلفزيون والهوية من كوة مضمون ما يبثه فقط، والتعامل مع العُدّة التكنولوجية الناقلة للمضامين الإعلامية والثقافية والترفيهية بمرجعياتها الفكرية والقيمية كأجهزة محايدة، وليس وسائط تمارس مفعولها في الوجود الاجتماعي للفرد

والجماعات البشرية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يصعب التسليم بوجود الفرد أو الجماعات التي تتخذ الوضع الساكن، ولا تتفاعل مع هذه الوسائط عبر جملة من الظواهر المعقدة ذات الدلالات المختلفة من ثقافة إلى أخرى، والتي اختصرت في الثالوث التالي: التمثل Representation للوسيط، واستملاكه appropriation، واستخدامه Usage[16].

3 - إن الحديث غير الحذر عن العلاقة بين الهوية والتلفزيون أو وسائل الإعلام قد يجر بعض المتحدثين إلى عزلها في إطار ثنائي مغلق يغفل دور الوسائط الاجتماعية والثقافية الأخرى (المدرسة، الجامعة، المسجد، الشارع، الأسرة، موقع العمل، النادي والملعب، المسرح، السينما، والإذاعة، والصحف، وشبكة الإنترنت،...) وتحييد علاقاتها بالهوية.

إذن، علاقة القنوات التلفزيونية بالهويات المحلية أو الوطنية قائمة وديناميكية ومتبادلة تتم على مستويين: الحاوي والمحتوى. والخلاف في رؤيتها يكمن في طبيعتها ومفعولها وآلياتها. وهنا يمكن أن نستعرض الاتجاهات الثلاثة المحددة لمحتواها ورهاناته:

الاتجاه الأول: وسائل الإعلام الحديثة الكونية كماح للهويات المحلية والوطنية

ازدادت سطوة كثير من وسائل الإعلام الحديثة بعد أن ولجت مؤسسات وشركات كونية سوق المال لطرح أسهمها المالية للتداول، وبعد أن شكلت قطاعا لتمركز رأس المال والاستثمار. وبهذا تحولت إلى أنموذج ناجح في نظر كثير من الدول والمؤسسات الإعلامية «الوطنية»، التي ظلت تتعامل مع المادة الإعلامية بوصفها خدمة عامة، وحقا أساسيا من حقوق المواطن. إن هذا النجاح الذي يعتمد على المعيار التجاري، فقط، أصبح أكثر إغراء فعجّل في تراجع دور الدولة في مجال الإعلام والثقافة، بعد أن شرعت في التنصل من دورها في مجالي التربية والصحة في ظل الليبرالية الجديدة.

يعتقد كثيرون أن وسائل الإعلام الكبرى ليست كيانات مستقلة تنشط في فراغ. إنها جزء من النسيج الاقتصادي والاجتماعي، فهي سلاح العولمة الذي توظفه لنشر قيمها وأنماطها السلوكية. فوسائل الإعلام الكونية تسعى إلى تحقيق مرامي العولمة بوصفها نظاما يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع إلى التفتيت والتشتيت، ليربط الناس بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة[17].

وبهذا تبدو وسائل الإعلام بوصفها أداة لمعالجة التناقض، الذي ما انفك الفيلسوف المغربي عبد السلام بنعبد العالي يشير إليه، بين المفهومين: التواصل والانفصال في مجالي الاقتصاد والثقافة: فالاقتصاد المعولم ينشد التواصل، لأنه يحدث التجانس في الطلب، ويوحد المنتجات والسلع وفق معايير كونية ترمي إلى تذويب الخصوصيات الاستهلاكية والثقافية. أما الثقافة التي نشأت وتطورت ضمن بعدين: المكاني والزمني فإنها تنشد الانفصال، من خلال التمسك بالسلوكيات والأذواق والقيم الخاصة بالشعوب والأمم والحفاظ عليها. إن التوفيق بين منطق الانفصال والتواصل في زمن العولمة، إذا وجد فعلا، أفرز ثقافة كونية ليست وليدة مكان بعينه، أو قومية

بذاتها، بل إنها وليدة اللامكان، ومتجاوزة الزمن المحلي. وأسهم في إنتاجها أشخاص يحملون جنسيات دول معينة لكنهم ينتمون إلى قوميات متعددة توحدهم نزعة واحدة: تلبية متطلبات السوق.

تأسيسا على ما سبق، تزايد عدد المعتقدين بمقدرة وسائل الإعلام الكونية على محو الهويات ذات الطابع الوطني، التي كانت سائدة في مطلع القرن الماضي، والتي تكبح شهية السوق العالمية بمنتجاتها وحمولاتها الرمزية، وتعمل على إحداث التجانس في الثقافات وتوحيدها بما يتماشى ومتطلبات هذه السوق.

على الرغم من الهيمنة الأمريكية في مجال المنتج الثقافي والتلفزيوني تحديدا، فإن الاستثناءات الثقافية مازالت قائمة وتتمتع بحيوية ملحوظة في التعبير، بهذا القدر أو ذاك، عن الهويات المحلية. فالمسلسلات المكسيكية (Telenova)، وأفلام الكارتون، وأفلام الرياضة القتالية اليابانية، على سبيل المثال، لم تمح من شبكة البرامج التلفزيونية المحلية، بل صُودرت إلى القنوات التلفزيونية الأجنبية (الأوروبية، والأمريكية، والعربية...) وازدادت شعبيتها. هذا إضافة إلى أن هذه الشبكة مازالت تراهن على البرامج المحلية لجذب أكبر عدد من المشاهدين في زمن ذروة البث التلفزيوني.

إن القنوات التلفزيونية «الوطنية» تبث، فعلا، فيضا من البرامج التجارية الأجنبية المستوردة من دول محدودة، وإن كان جلها أمريكيا. وبالموازاة لها توجد برامج تلفزيونية لا تجتاز الحدود لأنها تعبر بكثافة عن الثقافة الوطنية، وتعدّ منتجا وطنيا خاصا. فالمنوعات والألعاب الإيطالية لا يوجد ما يضاهيها في أوروبا، الشيء ذاته يقال عن برامج التسلية والفكاهة الإنجليزية، والبرامج الأدبية الفرنسية أو ما بقي منها[18]، كما أن التمثّلات والصور النمطية للهوية الدينية للطبقة الوسطى الحضرية الهندية تتحكم في البرمجة التلفزيونية في القنوات التلفزيونية الهندية.

خلاصة القول، إن هذا الاتجاه يستند في رؤيته إلى علاقة التلفزيون بالهوية إلى مقاصد أو نوايا منتجي المادة التلفزيونية والقائمين على توزيعها أو بثها، والعوامل التي تتدخل في صياغة مضمونها، ولا يأخذ بعين الاعتبار المتلقي، بل يغفل دوره النشيط في تأويل ما يشاهده في الشاشة الصغيرة ويوظفه في حياته اليومية. لذا يعجز هذا الاتجاه عن تفسير ما يعتقد أنه متناقض في سلوك المشاهد العربي، الذي يحرص على مشاهدة برنامج «هزي يا نواعم» (برنامج على نموذج تلفزيون الواقع يعرض مسابقة في الرقص الشرقي) الذي تبثه قناة LBC اللبنانية، ويشاهد بالحرص ذاته برامج قناة « اقرأ» التلفزيونية.

الاتجاه الثاني: وسائل الإعلام عنصر ديناميكي يسهم في تشكيل هوية جديدة

ينطلق كثير من علماء الأنثروبولوجيا، مثل: أرجون أبدوراي Arjun Appadurai، وأريك شويمر Eric Schwimmer، وميخائيل هيرزفيد Michael Herzfeld، وألف هنيرز Ulf Han-nerz، وجنثن فريدمن Jonathan Friedman، وغيرهم من المنظور Paradigm الذي يؤكد أن

العولمة ليست مرادفا للتجانس الثقافي الكوني وتنميطه. لذا، تبنوا، بهذا القدر أو ذاك، المقاربة العلمية التي تسعى إلى تفنيد الرأي المحذر من ضياع «الهويات البدائية» أو اضمحلالها في مجهول الثقافة التي تتعولم، أكثر فأكثر.

من هذا المنظور Paradigm صاغ الباحث أرجون أبدوراي فرضيته الأساسية التي تؤكد أن الجماعات الاجتماعية، والأقليات العرقية والثقافية، التي تبدو في الظاهر ضحايا سلبية لقوى القرية الكونية والعولمة، والدولة - أمة، قادرة على استعمال الأشكال اللينة واللبقة لمقاومة الثقافة الكاسحة، واستظهارها[19].

إن أي تأويل للنموذج النظري المذكور، آنفا، لا يسمح باعتبار العولمة قوة محايدة وغير فاعلة في الهويات الفردية والجماعية والوطنية والقومية، لأنها تؤدي إلى ميلاد «هويات جديدة» معقدة، تنتج خليطا يتضمن عناصر من الهوية المحلية أو الوطنية أو القومية، وعناصر مكتسبة من الثقافة المعولمة. ويذهب الباحث أرجون أبدوراي إلى تشخيص القوتين الأساسيتين اللتين توجهان ديناميكية الهويات في ظل العولمة، وهما: حركة البشر وانتقالهم عبر الدول (بوصفهم مهاجرين أو منفيين أو لاجئين سياسيين، أو طلاب علم، أو عمالا مؤقتين) ووسائل الإعلام المختلفة: السينما، والتلفزيون، وأخيرا الإنترنت.

إذا كانت الهوية هي الصورة التي نملكها عن ذاتنا فإن وسائل الإعلام تعمل على إعادة إنتاجها أو تعميمها أو تطويرها أو تحويرها أو نفيها، مستفيدة من مكانتها بوصفها وسيطا يربط بين مختلف شرائح جمهورها ويوحد تجاربهم العاطفية والاجتماعية، ويعزز انتماءهم إلى مجموعة أو جماعة أو أمة، ويتمتع بمقدرته العالية على التغلغل في شرايين المجتمعات والاندساس في روتين الحياة اليومية.

في رصده لتأثير وسائل الإعلام في الهوية يستعمل الباحث ذاته مصطلح «ميديا سكوب» Mediascapes[20] لتأكيد عدم وحدوية هذا التأثير ونمطيته من جهة، وللإشارة إلى قوة الرصيد الذاتي في رؤية ما تعرضه وسائل الإعلام وتأويله، والذي يختلف من شخص إلى آخر، ومن جماعات اجتماعية إلى أخرى.

وتفصح قوة هذا الرصيد عما أطلق عليه أرجون أبدوراي تسمية: التخيّل L'imagination والذي يعرفه بأنه فضاء يبحث فيه الأفراد أو الجماعات لإلحاق ما هو عالمي بممارساتهم اليومية[21].

إن التخيّل عملية معقدة تتغذى من عدة وسائط اجتماعية، منها وسائل الإعلام. ولا تفضي، دائما، وفق الباحث ذاته، إلى تهجين الهوية (الخوف على الهوية)، بل تؤدي، أيضا، إلى المقاومة التي قد تصل إلى المطالبة بالاستقلال السياسي والثقافي الذي يأخذ، في بعض الأحيان، طابعا عنيفا (الخوف من الهوية).

يبدو أن مقاومة الثقافة المعولمة لم تحظ بالاهتمام العلمي الكافي، سواء لعدم اكتسابها الشرعية السياسية المطلوبة، أو لرسوخ الاعتقاد بأنها «عاجزة لطوباويتها» ولا تفي بما تعد به. فمقاومة الأقليات الثقافية والعرقية والدينية في الدول - الأمم (في الدول الأوروبية مثلا) توصف بأنها رفض الاندماج في المجتمع ونبذ مؤسسات الدولة وقيمها. أما مقاومة الثقافة المعولمة في الدول النامية فتوصف، تارة بتخلف قومها، وطورا برفضهم التقدم والحداثة. لذا لم تتأكد آليات المقاومة بقدر آليات التهجين. فالباحث ميخائل هيرزفيد Michael Herzfeld يركز على مفهوم «Disemia» ويقصد به التوتر الشكلي أو المرمز بين التمثل الذاتي الرسمي والحياة الخاصة[22]. والذي يترّجم عمليا بالتفاوض الفردي أو الجماعي الضمني بين «الحميمية الثقافية Intimité Culturelle» والثقافة المهيمنة.

إن الحجة العلمية لهذا الاتجاه تستمد من الإيمان بالطابع الديناميكي والمتجدد للهوية، والذي يفضي إلى تشكل «الهوية الجديدة»، بصرف النظر عن اسمها: هجينة، واعتبارها مسارا بدهيا في صيرورة الهويات.

أعتقد أن مركز الاختلاف والجدل في فهم علاقة التلفزيون بالهوية لا يكمن في نكران طابع التجديد والتحوّل الذي يسم الهوية، فقط، بل يمتد إلى سرعة التجديد في العصر الحالي، والذي يخلق نوعا من الارتباك والقلق في تعامل الأنا الجمعي مع التغيرات العاصفة في العالم المعاصر، حيث إنها لا تسمح للحوامل الاجتماعية للهوية باستيعاب ما يجري حولها من تحولات، والتمتع بالوقت الكافي للتكيّف معها. لقد اعتادت هذه الحوامل، في القرن الماضي، أن تتعامل، ببطء، مع المستجدات، وتهضم ما تريد هضمه وتلفظ ما تريد لفظه، بعد أخذ ورد، وبعد مسار طويل وبطيء من التفاوض العملي، والذي يكون في الأغلب نتيجة تدافع وصراع بين القوى الاجتماعية المختلفة بشأن المضامين المتجددة للهوية.

الاتجاه الثالث: ليس كل مضمون وسائل الإعلام يتدخل في تشكيل الهوية الوطنية

يحتدم النقاش بشأن مدى علمية هذا الاتجاه في الدول التي تعرف تنوعا لغويا، مثل: سويسرا، بلجيكا، وكندا التي تطرح هويتها كإشكالية نتيجة التوتر اللساني بين الناطقين باللغة الإنجليزية، واللغة الفرنسية. لقد اعتبر بعض الباحثين الكنديين أن استهلاك البرامج التلفزيونية الأمريكية يشكل عائقا أمام نمو الهوية الكندية. وقد وجدوا شرعية علمية لهذا الاقتناع في الدراسة الميدانية التي أنجزها الباحثان: ت. مكفيل T. McPhail، وج. برنت G. Barnett واللذان لاحظا أنه كلما ازداد حجم مشاهدة طلاب من مدينة أوتاوا للبرامج التلفزيونية الكندية ارتفع لديهم مؤشر الوطنية الكندية، خلافا لحجم مشاهدتهم للبرامج التلفزيونية الأمريكية الذي إذا ارتفع انخفض لديهم مؤشر هذه الوطنية[23].

إن رفض هذا الاستنتاج استدعى نقاشا نظريا محتدا بشأن ماهية التلفزيون وما إسهاماته في صياغة أو إعادة صياغة الهوية الوطنية، إذ شكك فيما كان يعتبر، في السابق، من المسلمات. لقد كان الاعتقاد ومازال بأن التلفزيون يوجه ثقافة مشتركة إلى جميع مشاهديه، ويعمل على إدماجهم وتوحيد رؤيتهم لذاتهم، ويجدد انتماءهم إلى جماعة معينة عبر مختلف البرامج التي ينتجها أو يعرضها، بصرف النظر عن نمط تلفظها Pronunciation Types: النمط الدرامي، واللهوي، والإخباري، والنمط الوثائقي.

يطعن بعض الباحثين، مثل: رشارد كولنز Richard Collins، وفيليب شلينسنجر Philip Schlesinger، وغيرهم في هذه الحقيقة، ويذهبون في تحليلهم إلى الاعتماد على النمط التلفظي الإخباري في التلفزيون، من دون غيره من الأنماط المذكورة، في بناء أو إعادة بناء الهوية، حيث يعتقد أن الإعلام المتلفز يشكل القاعدة التي يبنى عليها معنى الحياة الجماعية، فلا وجود لهوية وطنية إلا إذا كان الأشخاص يحكمون على الواقع بالمرجعيات ذاتها. والإعلام المتلفز يحافظ على هذه الرؤية المشتركة للمجموعة المحلية أو الوطنية بمنحها شبكة للقراءة المتجانسة لفهم الأحداث وتنشيط الشعور بالانتماء إليها. فالأخبار تؤثر في استظهار «الحياة الوطنية» من خلال تقطيع الرؤية للعالم عبر تقسيم الأحداث إلى وطنية وأخرى دولية، ما يرسخ في الذهن التمييز بين الـ «نحن» والـ «هم»[24].

نميل إلى الاعتقاد أن لـ «الخصوصية» الكندية دورا في بروز هذا الاتجاه الذي لا يرى، ضمنيا، أي فروق كبرى بين النسق الثقافي الكندي والأمريكي. إن التمييز الواضح والجلي بين كندا والولايات المتحدة الأمريكية يكمن أساسا في الدولة وطبيعة مؤسساتها، لذا يجنح الحديث عن الهوية في كندا نحو طابعها السياسي أكثر من الثقافي، واللساني تحديدا، بغية الحفاظ على الإجماع الوطني بين الناطقين باللغتين الإنجليزية والفرنسية.

إن الباحث ريتشارد كولانز Richard Collins يرى إمكان فصل الثقافة عن الهوية الوطنية. ويؤكد أن إحداهما لا تختصر في الثانية باعتبار أن الهوية تتميز أساسا بطابعها السياسي[25].

من الصعب الاقتناع بأن الهوية ظاهرة سياسية عقلانية، ومن الأصعب تجريدها من المضمون الثقافي. فالهوية تنتمي إلى حقل التخيل الذي يعد فعلا اجتماعيا وثقافيا تزن فيه الذاتية بكل ثقلها لتوجه التأويل الوجداني للحقائق الموضوعية. إن الثقافة تعّد في نظر كثير من الدارسين حاملا للهوية ومن مكوناتها الأساسية، لأنها تملك تراثا، وتاريخا، ومُثلا، وتصورات للزمان والمكان والمستقبل.

إن القول بأن الأخبار المتلفزة هي وحدهاالتي تتدخل في تشكيل الهوية الوطنية هو إغفال بأن الهوية تعبر عن ذاتها عبر عُدّة رمزية: سياسية، وأدبية، وفنية، ومزاجية، وخيالية... وإذا

كانت الهوية نتاج إجماع بين الجماعات البشرية بشأن المرجعيات، فهذا الإجماع يتحقق في الحقل الثقافي بشكل أيسر وأمتن من الإجماع الذي يتحقق في الحقل السياسي، والذي يتميز بتقلباته الظرفية وحساباته المؤقتة.

كما أن التقليل من أهمية نتائج النمط التلفظي الدرامي واللهوي والوثائقي على الهوية الوطنية أو تجاهلها، يعني التنكر للعقد الإعلامي Contrat médiatique[26] الذي يبين أن الجمهور يكون أكثر يقظة وحذرا في تلقيه الأخبار المتلفزة من مشاهدته البرامج التلفزيونية الدرامية والألعاب، حيث يكون في حال استعداد لتقبل بعض الأخبار أو رفضها أو التشكيك في صحتها لأنها ذات صلة بالواقع، بينما تظل المواد الدرامية: الأفلام والمسلسلات والمسابقات والألعاب التلفزيونية، تتسلل، بحمولاتها الرمزية، في غفلة منه، إلى لاوعيه الجمعي لأنها تعد أكثر بعدا عن الواقع من الأخبار.

لعل كثيرين يعلمون أن البرازيل - بوصفها دولة معاصرة - لم تتشكل على أساس وحدة العرق والدين واللغة. فاللغة البرتغالية التي جمعت البرازيليين ووحدتهم هي لغة المستعمر. والسكان الأصليون أصبحوا يشكلون أقلية مقارنة بالأعراق البشرية التي استوطنت البرازيل قادمة من مشارب عدة، وآمنت بمعتقدات دينية مختلفة. إن الرابط السحري الذي صهر كل هذه الأعراق وأعطاها هوية واحدة، ليس الجريدة المصورة في التلفزيون البرازيلي ذات المنشأ الحديث، على الرغم من أهميتها. لقد أسهمت فيه، بفاعلية، كل المنتجات الرمزية: الأغاني والموسيقى والرقص، والرسم، والمسلسلات التلفزيونية وأفلام السينما، والأدب وفنون السرد الشفهي، وكل أشكال الفلكلور.

كان النقاش بشأن وسائل الإعلام وتأثيرها المؤكد والحاسم في الهوية والثقافة الوطنية أسير الرؤية الوظيفية التي تمنح لوسائل الإعلام الكفاءة اللازمة للتأثير المباشر في الأشخاص وهوياتهم، وظل سجين الرؤية المعيارية الضابطة للثقافة الجماهيرية التي جاء بها رواد مدرسة فرانكفورت Francfort school ومجددوها؛ بمعنى أن الهوية كانت تبرز باعتبارها كائنا ساكنا ومتجانسا وضعيفا، ووسائل الإعلام تمارس عليها تأثيرها الأحادي القوي وغير المحدود.

لقد رأى الباحث البريطاني فيليب شلنسنجر Phillip Schlesinger أن العلاقة بين وسائل الإعلام والهوية تحتاج إلى رؤية مغايرة، وطالب بإعادة النظر في النقاش المذكور بالشروع أولا في التساؤل عن ماهية هذه الهوية الوطنية أو تلك، وعلى ضوء الإجابة تحلل أهمية وسائل الإعلام والاتصال في تشكلها أو «إنشائها المستأنف»[27].

لتبسيط هذه الرؤية، أكثر، يمكن القول إن الاكتفاء برؤية التلفزيون ومفعول برامجه المختلفة على الهوية التي تصور في حال ساكنة ومنغلقة على ذاتها، يعد بمنزلة إضافة الماء إلى البحر،

بمعنى أنه لا يقدم جديدا إلى ما هو معروف منذ عقود عدة من الزمن، بل يمكن أن يضلل النظر إلى العلاقة القائمة بين التلفزيون والهوية إن لم يضللها للاعتبارات التالية:

1 - تعتبر هذه الرؤية لا تاريخية إذ تتعامل مع التلفزيون في صيغته المنفردة والمتجانسة، وتتجاهل التطور الذي عاشه في عدد من مناطق العالم، والذي اتسم بانتقاله من مرحلة التلقين والتربية إلى مرحلة إشراك المتلقي ضمن معادلة جديدة في التواصل يتجرد فيها الصحافي- المذيع من دور الناطق الرسمي باسم المؤسسة ليقوم بدور المحاور والمتصل. ولا تأخذ بعين الاعتبار البروز اللافت للنظر للقنوات التلفزيونية الغرضية (المتخصصة) وتفتيتها للجمهور، وإسهامها في إحداث تراتبية ثقافية قد تلتقي، بهذا القدر أو ذاك، مع التراتبية الاجتماعية ما ينبئ بتباين التمثّل الاجتماعي للهوية.

2 - إذا سحبنا هذه الرؤية على المشهد التلفزيوني العربي فنجدها تقفز على الاختلافات بين القنوات التلفزيونية المتعددة، وتظهرها كأنها تصب في وعاء واحد بمضامين واحدة ذات مفعول مؤثر واحد، بشكل حاسم، في تفكيك الهوية أو إعادة بنائها؛ بمعنى أنها لا ترى أي دلالة للاختلاف القائم بين قناة روتانا طرب، وقناة «جرس» وقناة «المنار» التابعة لحزب الله، وقناة «اقرأ» التلفزيونية، على سبيل المثال، ولا تلمح الفرق بين القنوات التلفزيونية التي كان يُعتقد أنها شديدة التقارب، مثل التلفزيون المغربي والجزائري على سبيل المثال. فالتلفزيون المغربي(M2)، الذي يبث باللغتين العربية والفرنسية، يخصص وقتا أكثر لبث الإنتاج الثقافي المغربي: المسرحيات، الفرق الموسيقية والغنائية. ويشرك قطاعا واسعا من الباحثين والمؤرخين والمثقفين والصحافيين للكشف عن الجوانب المجهولة في التاريخ الفني والموسيقي، والسينمائي، والمسرحي والأدبي للمغرب. وحتى برامج الطبخ التي يبثها تجوب مختلف المناطق المغربية لإحياء الطبخ الشعبي ونفض الغبار عن بعض الأكلات الشعبية التي غارت في الذاكرة الشعبية. بينما التلفزيون الجزائري لا يبث حتى المسرحيات الجزائرية القليلة التي حصلت على جوائز التقدير! أما الغناء والطرب والفنون الشعبية فمن النادر أن تتجاوز إطار الاستعراض أو الاحتفال، ولم تشكل مادة للنقاش والرصد الثقافي من طرف المؤرخين، والدارسين والنقاد والفنانين. إن الجمهور الجزائري في الخارج يكتشف بدهشة سارة نوعية المادة الثقافية والفنية التي تقدمها بعض الفرق الشابة المتخصصة في الموسيقى الشعبية، والغناء، والرقص الشعبي... المغمورة في أرجاء الجزائر أثناء جولاتها خارج الوطن، بينما يجهل أغلب الجزائريين وجودها أصلا.

3 - إن الرؤية المذكورة تسقط من حسابها القوى الفاعلة والمؤثرة في رؤية التلفزيون للهوية في المنطقة العربية. لقد ظلت الدولة القوة الوحيدة المنظمة التي تملك سلطة الحديث عن الهوية عبر التلفزيون قبل التسعينيات من القرن الماضي، وتقدم الوشائج الرمزية المتلفزة التي

تجمع المشاهدين، بل لم تكن تتعامل مع هؤلاء على أساس أنهم مشاهدو تلفزيون، بل تخاطبهم باعتبارهم مناضلين أو «قوى شعبية». لكن الوضع تبدل، ومكانة التلفزيون القانونية تغيرت في المنطقة العربية، وتدخل عدد من القوى المالية والاجتماعية والسياسية لترفع الاحتكار عن التعبير عن الهوية تلفزيونيا، لتقدم تصورها «للوعي المتجدد بذاتها» عبر أكثر من قناة تلفزيونية وأكثر من منبر ثقافي.

4 - إن الرؤية المذكورة تعزل التلفزيون «الوطني» عزلا تاما عن المنظومة الثقافية لمنتجي برامجه أو متلقيها، بمعنى أنها لا تتعامل مع بعض المضامين التي يبثها بوصفها جزءا من المنتج الثقافي الوطني. وبهذا تفصل فصلا تاما بين الواقع الرمزي الذي تمثله وسائل الإعلام، والتلفزيون تحديدا، والواقع الموضوعي العيني[28]. فهل تنظيم حفل غنائي في ملعب رياضي يختلف من ناحية الجوهر في تفعيل الإدراك بالهوية أو تغيبه عن نقله عبر التلفزيون؟

5 - تُحمّل هذه الرؤية التلفزيون مسؤولية كل الصعوبات التي تعاني منها الهوية في التعبير عن ذاتها، وفرض وجودها بتفاعلها مع بقية حواملها الاجتماعية. إن الحد من تعدد الزوجات بطريقة شرعية ظاهرة متجذرة لدى سكان الصحراء في المغرب العربي، ولدى قبيلة الرقيبات تحديدا، على سبيل المثال، إذ يشترط كثير من أبنائها من الزوج أثناء عقد الزواج الالتزام بمقولة: «لا سابقة ولا لاحقة، وإذا حدث فأمر الزوجة بيدها»؛ أي يجب ألا تكون له زوجة سابقة وألا يتزوج بزوجة أخرى بعدها. إن المرأة في هذه المنطقة تتمتع بقدر كبير من الحرية، وتتساوى مع الرجل، إذ تتعلم منذ الصغر شأنها شأن الذكر، وتقوم بما يقوم به الزوج أثناء غيابه، وتدير شؤون خيمتها.. هذه الحقيقة قادت الجغرافي الفرنسي Camille Douls إلى تأكيد، في منتصف القرن 19، وجود قواسم مشتركة بين المرأة في هذه المنطقة والمرأة الأوروبية في وضعيتها الاجتماعية كما شرعتها المؤسسات الحديثة[29]. على كل حال لم يغامر أي باحث جاد في الأنثروبولوجيا ويربط التلاشي التدريجي للمجتمع الأموسي في هذه الرقعة من الوطن العربي بتأثير التلفزيون، مستبعدا العاملين الاقتصادي والاجتماعي اللذين أديا إلى حدوث تغيرات داخل بنية الأسرة في هذه المنطقة.

إن الرؤية المذكورة تدرج الصعوبات، التي تعاني منها الهوية في تأقلمها مع مستجدات العصر، في خانة المسكوت عنه أو اللامفكر فيه، والمتمثل في دور الفرد أو الجماعات في صياغة المعنى مما يشاهدون في التلفزيون والسلوك الذي يسلكونه على ضوء أفق المعنى المقترح، وشكل إدارته ضمن محيطهم اليومي. لتقريب هذه الفكرة أكثر من الفهم يذكر الباحث تومتوا بمبريج Tamatoa Bambrige[30] أن التلفزيون قد استُملك من طرف أبناء منطقة بولينزني الفرنسية بالمعنى التقليدي، حيث كانت صوره موضع مسار من الاستبعاد Distanciation، ليس بالمفهوم البريختي، بل الاستبعاد النقدي الذي تتجلى مظاهره في الضحك أو السخرية أو الرقابة

الاجتماعية. إن هذا المسار يغذي التقاليد أكثر مما يبعثرها. هذا في المناطق الريفية. أما في المناطق الحضرية التي تعاني بنيات هويتها من الوهن، فإن تقمص الخطاب الذي يروجه التلفزيون كان أكثر وضوحا وأسهم في تغيير علاقة المجتمع البوليزيني بالثقافة. ويستخلص الباحث من هذا المثال أن استملاك أو استبطان البرامج التلفزيونية يتم وفق أولوية الثقافة البوليزينية التي تتدخل في تغيير ظروف تلقي ما تبثه وسائل الاتصال الجماهيري.

إن بث الصور التلفزيونية، التي لا تنتمي إلى العالم الرمزي للجمهور، لا يستلزم أبدا انخراط هذا الأخير في هذه الصور أو تبنيها. هذا ما تؤكده لنا تمثلات برامج تلفزيون الواقع عبر الثقافات(31)، ويفسر لنا التباين في مستويات آثار برامج القناة التلفزيونية الواحدة، ولتكن القناة اللبنانية LBC، على سبيل المثل، في الحياة اليومية في صنعاء والرياض وبيروت، بل في مناطق داخل الدولة الواحدة، مثل الجزائر العاصمة ومحافظة تندوف في أقصى الجنوب الغربي الجزائري.

كما أن النظرة التي تحمّل التلفزيون مسؤولية الصعوبات التي تعاني منها الهوية، لا تساعد الدارس في فهم سر الإقبال الجماهيري المتزايد على البرامج التلفزيونية الدرامية المحلية أو الوطنية. إن مبرمجي القنوات التلفزيونية في عدد من دول العالم مازالوا يراهنون على هذه البرامج ويمنحونها الأهمية اللازمة في شبكة برامجهم، ويبثونها في ساعات الذروة Prime Time، بل تحولت إلى «ذخيرة حية» في حرب المنافسة بين القنوات التلفزيونية. وتخفي النظرة المذكورة ما تمارسه الهوية الوطنية من تأثير في بعض قنوات التلفزيونات الوطنية. لقد بادرت بعض هذه القنوات ببث بعض البرامج التي أطلق عليها تسمية «برامج تلفزيون الواقع الإسلامية»، من باب تأكيد خصوصية التلفزيون ومتلقيه. كما أنتجت بعض القنوات التلفزيونية رسوما متحركة (أفلام الكارتون) مستوحاة من التراث الثقافي العربي أو من البيئة الثقافية المحلية، ولقيت استحسانا كبيرا من طرف الجمهور والنقاد.

على ضوء هذا المنظور Paradigm، الذي يقتضي الانطلاق من الهوية لفهم جدلية تفاعلها مع التلفزيون، نصوغ مجموعة من الأطروحات التي تروم الابتعاد عن المسلمات، وهي كما يلي:

الأطروحة الأولى: تبدو الهوية العربية الإسلامية باعتبارها بنية في غاية التعقيد إلى درجة يصعب تحديدها، ليس لتداخل مكوناتها: الوطني والقومي والإثني والديني فقط، بل لكونها تعكس تنوع الشعوب التي تعترف بانتمائها إليها أو تشعر به، والذي يتجلى في تعدد لهجاتها المحكية، وتباين ثقل اللغات الأجنبية المختلفة (الإنجليزية، الفرنسية، الإسبانية...) في تواصل أبنائها العلمي والعملي في حياتهم الاجتماعية، واختلاف تجاربهم التاريخية، واتساع الرقعة الجغرافية التي يعيشون فوقها وما ترتب عليها على صعيد نمط المعيشة والأمزجة، واختلاف المدارس العقائدية والمذهبية وتأثيرها في العلاقات الاجتماعية والممارسة السياسية. لقد وصف

أحد المستشرقين الجدد[32] امتدادات هذه المدارس في الحياة اليومية بـ «الإسلام الثقافي».

فيمكن الإشارة، من باب التوضيح، إلى ذاك التنوع، الذي يراه البعض اختلافا، في قلب الإمبراطورية الإسلامية بين الأتراك وخلفاء الدولة العباسية بشأن موضوع المرأة. ففي حين كان الأتراك لا يترددون في منح مناصب إدارية حيوية للمرأة، تمس مباشرة إدارة دواليب أجهزة الدولة، ظل خلفاء الدولة العباسية يرفضون ذلك. وقد ترك هذا التنوع ظلاله على موقع المرأة في الحياة العامة إلى غاية القرن التاسع عشر. ففي تركيا صدر القانون الذي ينص على إلزامية تدريس الذكور والإناث إلى غاية بلوغ 12 سنة في العام 1869، بينما ظلت بعض الدول العربية الإسلامية ترفض إلزامية تدريس الإناث إلى غاية المنتصف الثاني من القرن العشرين.

مهما تعددت أوجه الثراء والتنوع في الثقافة العربية الإسلامية فلا تهدد قاسمها المشترك. لكن طغيان الهاجس الأيديولوجي على الرؤية للهوية العربية الإسلامية محا كل مؤشرات تنوعها وتعددها، وأبرزها في صورة متجانسة وثابتة. وبهذا حمّل وسائل الإعلام التي تعبر، بهذا القدر أو ذاك، عن هذا التنوع مسؤولية تعريض هذه الهوية إلى التفكيك والاندثار.

كما أن بث بعض الفضائيات، التي تزعم أنها تتوجه إلى المشاهد العربي حيثما يوجد، بهذه اللهجة المحلية أو تلك، أو الاستعانة بلغة أجنبية على حساب اللغة العربية الفصحى، والتركيز على هذه الدولة العربية أو تلك (تاريخها، مؤسساتها، وفنانيها، وحياتها السياسية والثقافية والرياضية...) يعزز الشعور بمحاولة اختصار الهوية العربية في البعد الوطني فقط، والسعي إلى القضاء على ثرائها وتنوعها.

الأطروحة الثانية: يبدو أن الهوية العربية الإسلامية أصبحت تعيد إنتاج خصائصها الجوهرية بدرجة أضعف من عملية ضم العناصر الجديدة من الثقافات الأجنبية أو الثقافة الكونية التي حل كثير منها محل العناصر النابعة من هذه الهوية. هذا ما يتجلى في تزايد مكانة اللغات الأجنبية في المجتمعات العربية، وانتقالها من أدوات تعبير إلى أنماط معيشية، والتحلي بقيم جمالية بديلة، إضافة إلى الموسيقى، والغناء والرقص، ومواد الزينة والتجميل، واللباس، والأكل والشرب، وغيرها من مظاهر السلوك الاجتماعي. لعل وسائل الإعلام المعاصرة، خاصة التلفزيون، يبدو أكثر تأهيلا لإدخال العناصر الجديدة المذكورة واستبدال القديمة، وذلك لمقدرته على نقل الصور ودسها في روتين الحياة اليومية وتذويبها في الواقع المعيش.

يمكن تفسير عجز الهوية العربية الإسلامية عن تجديد ذاتها بعاملين تاريخيين: أولهما القطيعة الأنطولوجية التي حدثت في الحضارة العربية - الإسلامية، فما وصل من تراثها المكتوب: شعر، بلاغة، وفقه، وتصوف، وفلسفة، الذي يعتبر ناقلا لبعض أوجه الهوية إلى الأجيال الحالية، يُعد قليلا. ونشر في الفترة الممتدة من 1850 إلى 1930 التي شكلت مرحلة الانتقال من نمط الاتصال الشفهي إلى المكتوب[33]، وتحقق بنظرة انتقائية وإقصائية تتماشى

ورغبات القوى السياسة التي أشرفت عليه. هذا إضافة إلى تراجع مكانة النمط المكتوب في ثقافة الأجيال الجديدة، وعدم المقدرة على إحداث التلاؤم بين ما وصلنا من تراث مكتوب والحياة اليومية ومتطلباتها. وثانيهما، أن الحامل البشري لهذه الهوية قد خضع للظاهرة الاستعمارية أو كان ضحية لها. وبخضوعه شاعت العبارة المعروفة التي اكتسبت قوة القول المأثور: «المستعمر مولع بتقليد المستعمِر».

نعتقد أن العاملين يملكان مقدرة تبريرية أكثر منها تفسيرية لهذه الظاهرة، بدليل أن المجتمع الجزائري الذي عاش تحت نير الاستعمار لمدة تزيد على القرن لم ينصهر في الثقافة الاستعمارية، وظل متمسكا بهويته أكثر مما هو عليه الآن بعد ما يربو على نصف قرن من نيل استقلاله!

إن المسألة إذن، ترتبط بوضع الأمة العربية الإسلامية التي عانت من الانتكاسات والهزائم فكفت، في اعتقادنا، عن إنتاج ما يشحذ طموح الأجيال الجديدة، ويشكل مصدر حلمها وآمالها، ويثري مخيالها، فانكفأت على الماضي للاحتماء به، أكثر من مواجهة الحاضر وتحدياته.

إن الخوف على الهوية ينبع من إحساس، يحتاج إلى تأكيد، بأن هذه الهوية لم تعد تملك قيمة مرجعية أساسية وقوية للحكم والتفاعل مع ما تبثه القنوات التلفزيونية العربية والأجنبية. لقد أكدت البحوث الاجتماعية أن ما تتضمنه الأفلام والمسلسلات التلفزيونية والبرامج اللهوية لا تدرك معانيه ودلالاته إلا على ضوء الخلفيات الثقافية والاجتماعية والفكرية للمتلقي. لذا نلاحظ أن المسلسل التلفزيوني الأمريكي «دالاس» الذي ذاع صيته، اكتسب أكثر من معنى ودلالة بتعدد المرجعيات الثقافية للمتلقي. فإذا كانت المرجعيات الثقافية العربية - الإسلامية قد بدأت بالتراجع فهل تستطيع الاستمرار في استجلاء معاني المواد الثقافية التي تطفح في القنوات التلفزيونية الأجنبية، واستبطان متخيلاتها، من دون الاستعانة بالمرجعيات «الجديدة» الدخيلة التي «يشتد عودها» من يوم إلى آخر؟ وهل استجلاء معاني المواد الثقافية الطافحة في التلفزيون المحلي والأجنبي يعزز روح الهوية الوطنية؟

الأطروحة الثالثة: إن المجتمع، في مختلف مؤسساته، المالك لمقومات التجديد والتطور لا يخشى من الذوبان في هوية أخرى أو الاندثار. إن الهند، على سبيل المثال، القوية بتعدديتها والثرية بلغاتها (تملك 1562 لغة محكية، و76 لغة تدرس في المدارس الهندية)، وبدياناتها (توجد بها ستة توجهات دينية)[34] وأساطيرها، ومعتقداتها، وتقاليد سردها الشفوي، وأنظمتها المعمارية والطبية والزراعية وممارستها الثقافية، لم تشعر بأي قلق على مستقبل هويتها. فالسينما التي دخلت إلى الهند في الوقت الذي شهدت أوروبا ميلادها رسخت، بسرعة، في التقاليد الثقافية الهندية، وتحولت إلى رافد أساسي لبقية المؤسسات الثقافية: الإذاعة، التلفزيون. ووسعت بعض الممارسات الثقافية وأثرتها، مثل الغناء، والموسيقى والرقص الفولكلوري. وعلى الرغم من الهيمنة الثقافية الأمريكية في مجال السينما، التي اشتكى من

أضرارها أكثر من بلد صناعي متطور، لم تشعر الهند أبدا بأن إنتاجها السينمائي مهدد من قبل سينما هوليوود[35].

إن هذا الوضع سمح للهند واليابان، وبعض الدول الآسيوية القليلة، بتبني سياسة منفتحة على المنتج الثقافي الأجنبي، خلافا للدول التي تبنت نظاما من الحماية لمنتجها الثقافي تحت مسمى: الاستثناء الثقافي، مثل فرنسا، وكندا.

إن قوة الهوية تمد المنتمين إليها بنوع من الثقة بالنفس والاعتزاز في تعاملهم مع الثقافات والحضارات الأجنبية. فالمادة السمعية البصرية التي تحمل تصورا وقيما أقوى من قيم «مستهلكها» ستنتهي، في آخر المطاف، إلى فرض ذاتها عليه. لعل هذه الحقيقة تساعدنا في فهم سبب عدم تأثر اليابانيين، وحتى رفضهم للمسلسل التلفزيوني الأمريكي المذكور آنفا، والذي اخترق القارات قبل البث التلفزيوني المباشر، وتحول إلى «صنم» في وثنية المنتج السمعي- البصري[36].

الأطروحة الرابعة: إذا اتفقنا مع ما ذهب إليه البعض في تأكيدهم أن الهوية تطرح في الأغلب في صيغة بعيدة عن أي نفعية، وتستدعي مفاهيم ومعاني مبدئية - لا أداتية -، ناظمة للفعل الاجتماعي والسياسي[37]. فكيف تستطيع عديد من وسائل الإعلام، والقنوات التلفزيونية، تحديدا، خدمتها وتطويرها، من دون أن تزعزعها أو تكيّفها وفق متطلبات السوق؟

إن اقتصاد السوق قد غمر قطاع الإعلام والثقافة، وبدأ بـ «تحريره» من منطق الخدمة العمومية، بعد أن «أُجبرت» الدول على إعادة النظر في دورها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، والتسليم بمقدرة السوق على تنظيم الإنتاج والتوزيع الثقافي والإعلامي. فالسوق كما يرى الكاتب أكتوفيو باتز Octavio Paz تملك النجاعة لكنها تفتقد الوعي والرحمة. والنتيجة التي ترتبت على هذا الأمر أن الفيلم، والمسلسل التلفزيوني، والفيديو كليب، وغيرها من المواد التي يعرضها التلفزيون تسلعت؛ أي أصبحت سلعة تستمد قوتها ومبرر وجودها من قيمتها التبادلية. ليس هذا فقط، بل إن القيم والمثل والتصورات التي تحملها هذه المنتجات قد تسلعت بدورها. إن التضحية، والنخوة، والعاطفة النبيلة، أصبحت، كغيرها من القيم، تملك قيمة تجارية أكثر منها إنسانية في برامج «تلفزيون الواقع»، التي استشرت في المشهد التلفزيوني العربي والأجنبي. إن حمى المنافسة بين القنوات التلفزيونية التجارية وما أفرزته من سياقات قد دفعت إلى التعامل مع المُثل والتصورات وكأنها مواد إعلانية. و«استنبتت» قيما جديدة، وأعطت محتويات عدوانية وعنيفة للقيم القديمة من أجل توسيع دائرة الفرجة التي أصبحت مرادفا للربح المادي.

إن التناقض بين المنطق «اللانفعي» الذي يحرك الهويات، والمنطق النفعي والربحي الذي يتحكم في «رقاب» القنوات التلفزيونية قد يؤدي إلى الخوف على الهويات، التي لا تملك طاقة

كبيرة على التجديد والمقاومة، أو الخوف من الهويات التي تصطدم مع المنطق النفعي، وتختار المقاومة، وتميل إلى التمرد والانفصال عن المنظومة الثقافية والسياسية المهيمنة. وإذا أردنا، تجاوزا، أن نتخطى وضع الاصطدام، ومن باب التأكيد أن المرء في أموره على ما تعود، يمكن القول إن «العقل العربي» تعود على تصور معين للهوية الوطنية في عصر التلفزيون الذي يخضع لمتطلبات الخدمة العمومية في مجال الإعلام والثقافة الذي يختلف عن التلفزيون الذي يؤمن بالخدمة العمومية، بل يخضع في نشاطه لمنطق السلعة. لذا من المفروض أن يرتقي في فكره لعقلنة السلعة من جهة، وقراءة تأثيرها في مكونات الهوية ورهاناتها من جهة أخرى.

الأطروحة الخامسة: إذا آمنا بدور الذاكرة في بناء الهوية، كما أوضحنا آنفا، فإن القنوات التلفزيونية تجنح نحو إنهاكها. فالنقلة النوعية التي حدثت في المجال الثقافي بفضل البث التلفزيوني المباشر قد قلصت وجود ثقافة الرأي Culture éditoriale - لمصلحة توسيع رقعة تدخل «الثقافة الطافحة» Culture du flot التي يستولي اللهوي والاستعراضي على مكوناتها. إن ثقافة الرأي التي مدت التيارات السياسية والثقافية بأطر فكرية وحركت الطبقة السياسية والمجتمع المدني بمؤسساته المختلفة، ووحدت انشغالات الفنانين، والكتاب والشعراء، والرسامين والتشكيليين، والموسيقيين، وعمال السينما، تقوم على مبدأ التراكم والاستمرارية اللذين لا يحدثان إلا عبر الزمن والذاكرة الجمعية. فهذه الثقافة تكاد تنسحب تاركة المجال لسيطرة الثقافة الطافحة التي تتكئ على نمط الاتصال البصري، والتلفزيوني تحديدا، وتنتمي إلى ما هو ظرفي يتسارع تحت إيقاع الحياة المعاصرة وضغط تكنولوجيات الاتصال التي تلغي الفاصل الزمني الذي يبعد بين البشر. إنها ثقافة اللحظة التي لا تملك ذاكرة ولا انتماء ولا وعيا اجتماعيا ولا فكرا نقديا، وثقافة الاستعمال المؤقت Culture jetable، على حد تعبير الكاتب جيرارد بوشارد (Gérard Bouchard)[38].

فكيف تتعامل الهوية الوطنية مع هذه الثقافة التي تُطلِّق الذاكرة، ويشعر حاملها البشري بأنه متحرر من أثقال الماضي والتجارب الجماعية، وطليق اليد في ولائه للمكان ووشائجه الاجتماعية والعاطفية: الجماعة، الأمة...؟

الأطروحة السادسة: إن المفاهيم المرتبطة بموضوع الهوية مثل: الأمة، الوطن، الثقافة، الاتصال، التلفزيون... تنتمي إلى حقول في غاية الديناميكية: الاقتصاد، والتكنولوجيا، والسياسة، وتطورها يتخذ سمة وظيفية أو معيارية ضابطة. لذا أصبحت تغطي واقعا جديدا يختلف عما تآلفنا معه وسلمنا بوجوده. ففي ظل التكتلات الإقليمية والقارية على مختلف المستويات، تراجع مفهوم الدولة والوطن والأمة كما عاشتها البشرية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، ليحل محلها كيان قاري جديد ذو توجهات ومثل أكبر من الدولة الواحدة. وتعدى مفهوم الهوية الوطن الواحد، وأصبح مرتبطا بعدة أوطان. هذه ما تعبر

عنه «الهوية الأوروبية» على سبيل المثال. وعلى هذا الأساس لم تعد المواطنة مقترنة بوطن بعينه أو مرتبطة بإقليم محدد. والمكان تماهى في امتداداته بعد أن اختزلت المسافات وتوحدت التشريعات في المجال الجمركي، واكتسحت برامج تلفزيونية بعينها الفضاءات الخاصة والعامة في عديد من الدول، بصرف النظر عن لغتها، وثقافتها ونظامها السياسي، بعد أن شرعت التلفزيونات الوطنية والدولية في «استيراد» أفكار البرامج، وقوالبها (فورماتها) Format، مثل: برامج «تلفزيون الواقع»، بجانب استيراد المواد التلفزيونية الجاهزة للبث.

حقيقة، يحاول بعض الباحثين أن يخفف من روع بعض الساسة والمثقفين والمربين من هذا الضرب من الاستيراد ودوره في تحريك مخيال المشاهد، بالقول إنه يتيح المجال للخصوصية الثقافية والاجتماعية من التعبير عن ذاتها، مثلما هو الأمر في الطبعات المختلفة لـ «تلفزيون الواقع» كبرنامج «الأخ الأكبر Big Brother»، على سبيل المثال[39]. بالفعل، إن القراءة الأولى لهذه البرامج تؤكد اختلاف طبعاتها عبر التركيز على التفاصيل، مثل: عدد المتنافسين، قيمة الجائزة التي يحصل عليها الفائزون، اختيار المتنافسين وفق مبدأ التمثيل الاجتماعي والثقافي والعرقي لشرائح المجتمع، كما هو الأمر في البرازيل أو أفريقيا الجنوبية، لكن القراءة الثانية تحفز أكثر على التساؤل: هل تلغي هذه التفاصيل، على أهميتها، فلسفة الحياة والتصور للعلاقات الاجتماعية الجاثمة في الفكرة الأساسية التي استمدت منها هذه البرامج وجودها؟

على الرغم من الاعتقاد بأن لبرامج تلفزيون الواقع الفضل في توسيع حقل الفضاء العام العربي ليشمل القضايا الحميمية ويضم الفئات والأقلية التي كانت مقصاة من النقاش العام[40]، وعلى الرغم من مساهمتها في القضاء على نمطية الحوار التلفزيوني المحتكر من طرف منتجي الخطاب الرسمي أو «محترفي الكلام»، فإن المعطيات الميدانية تؤكد أن جزءا من الجمهور العربي الذي يتابع برامج تلفزيون الواقع في القنوات التلفزيونية العربية يدرك، بهذا القدر أو ذاك، أنها مستقاة من التجارب الغربية لكنه يتابعها هروبا من واقعه وبحثا عن واقع أفضل شبيه بذاك الذي يعيشه المشاركون فيها[41].

لعل هذه الحقيقة تلفت انتباهنا إلى عمق المشكل الذي تعاني منه القنوات التلفزيونية العربية، بدرجات متفاوتة، والمتعلق بمسألة استيراد البرامج التلفزيونية الأجنبية.

يمكن القول إن استيراد البرامج كفكرة أو أنموذج أو قالب يُعد أقل ضررا لأنها تسمح للتلفزيونات العربية باحتواء قدر من الخصوصية، كما سبق أن ذكرنا آنفا. لكن ماذا عن بقية أشكال الاستيراد للمنتج التلفزيوني الأجنبي؟

على الرغم من لجوء جل القنوات التلفزيونية العربية إلى إعادة بث القسط الأكبر من مجمل ما تنتجه، الذي لا يتعدى 3 آلاف ساعة سنويا، فإنها تحتاج إلى نحو 25 ألف ساعة من

المواد التلفزيونية وتحاول أن تغطيها بالاستيراد من الدول العربية والأجنبية (الأمريكية، البريطانية، الفرنسية، والبرازيلية والمكسيكية، واليابانية، والكورية)[42].

إن الأنواع التلفزيونية التي تستورد أكثر، تكاد تختصر في المواد الدرامية، على الرغم من زيادة الإنتاج الدرامي العربي وتحسن نوعيته، خصوصا ذاك المرتبط بالجانب التاريخي، وبرامج الأطفال، والأفلام الوثائقية. إن التسابق من أجل إنتاج البرامج الترفيهية، و«التوك شو» وبثها عبر الفضائيات العربية قد ترك فراغا في إنتاج الفيلم الوثائقي الذي لا يسد سوى عبر الاستيراد من الدول الأجنبية. لكن هذا النوع من الاستيراد يعد كلاسيكيا أمام استيراد «قنوات تلفزيونية» بأكملها. ولتبسيط هذه الفكرة يمكن القول إن بعض القنوات التلفزيونية العربية المتخصصة تقوم بدور عارض للمنتج الأجنبي المدبلج على مدار البث مثل: MBC2، وMBC4 وOne[43]. فما الغاية من هذا الاستيراد؟ لماذا تُطلق قنوات تلفزيونية عربية لتبث برامج أجنبية يمكن لأي راغب أن يشاهدها في سماء تزدحم بالقنوات التلفزيونية الأجنبية؟ هل لتحقيق أرباح أو لغاية سياسية؟ وما هي رهانات هذا الاستيراد؟

إن الهوية هي تصور أو صورة للذات وللغير، كما أوضحنا ذلك أعلاه. وتزايد استيراد البرامج التلفزيونية الأجنبية للبث في القنوات التلفزيونية العربية، يعني، بشكل آخر، التراجع عن إنتاج صورة الذات وصورة الغير. ففي هذه الحالة ألا تتوقف النظرة إلى الذات وإلى الغير، بهذا القدر أو ذاك، على الصور التي ينتجها الآخر عنا وعنه، ونستهلكها ونحاول أن نستخلص من خلالها المعنى من وجودنا وماهيتنا؟

لقد بدأ الوعي بهذه الحقيقة يتبلور عبر المبادرات الكثيرة التي انطلقت في مجال الكتاب والترجمة في المنطقة العربية، إذ تزايدت المشاريع المشجعة على إنتاج الكتاب الروائي والفكري والمعرفي وترجمته إلى اللغات الأجنبية، ونقل الإنتاج المكتوب لمختلف الشعوب إلى اللغة العربية. ونحن في انتظار أن يمتد هذا الوعي إلى المجال التلفزيوني، فيُنظر إلى مسألة التلفزيون من زاوية الإنتاج وليس البث فقط. فلتتعدد المشاريع الثنائية والمتعددة الأطراف لسد النقص في الإنتاج التلفزيوني العربي، وللحد من التبعية في مجال الصورة.

الأطروحة السابعة: إذا كانت الهوية الوطنية لا تتكئ على الإعلام المتلفز فقط، من دون سائر المنتجات الرمزية في تطورها وتجددها، فلا يمكن أن نغفل دوره أو نقلل من شأنه. فإذا تحررنا من سطوة أسطورة الموضوعية التي تعتم الرؤية للبرامج الإخبارية التلفزيونية، ومثيولوجية المرآة العاكسة بدقة للواقع التي التصقت بالصحف التلفزيونية، فإننا ندرك أن هذه الأخيرة تقدم هذا الواقع بوصفه بناء ذاتيا يتجلى في تمثل ما يعتقد أنه الواقع بعد تبسيطه واختزاله. إن مقدرة هذه الصحف تكمن في مزجها بين الإعلام والوساطة الاجتماعية La médiation social، لكن حول ماذا تتم هذه الوساطة في الصحف التلفزيونية العربية؛ أي ما مادتها؟

إذا كان من اليسير التأكيد أن الحيز الجغرافي والاجتماعي والسياسي الذي تغطيه هذه الصحف قد اتسع بفعل التطور التكنولوجي، وبتزايد مصادر الأخبار وتعددها، فإن هذا التوسع جري ويجري في اتجاه الخارج وليس نحو الداخل! أي ليس داخل الدولة أو المجتمع الواحد.

يشتكي كثير من المهنيين أن القنوات التلفزيونية العربية لا تعرف ما الخبر المحلي أو الوطني، بدليل أن هذا الخبر يقتصر على إبراز تحرك الهيئات الرسمية ومسؤوليها فقط. وعندما تشح الأنشطة الرسمية في موسم الإجازات الصيفية تضطر الصحف المصورة العربية إلى افتتاح طبعتها بالأخبار الدولية وإلغاء الأخبار الوطنية برمتها، كأن لا شيء يحدث في هذا البلد العربي أو ذاك. إن تحليل هذه الحقيقة لا يقودنا إلى غياب الـ «نحن»، التي من المفروض أن تقدمها الأخبار الوطنية، أمام الـ «هم» الذين يسجلون حضورا طاغيا في الصحف المصورة، بل يؤكد اختصار الـ «نحن» في الأنشطة الرسمية فقط. وبهذا يُغيَّب كل ما يعتمل في ثنايا المجتمع (مشكلات وصعوبات، إنجازات، آمال وطموحات، خيبات وانكسارات...) فأي هوية هذه التي تصنع في ظل تغييب المجتمع الذي يعد حاملها الديناميكي ومعمم مكوناتها ومرسخها. ويمكن القول بعبارة أخرى إن علامات الهوية التي تنقلها الصحف المصورة تتمثل: في العلم، والنشيد أو السلام الوطني، واجتماعات مجلس الوزراء والمجلس النيابي، وممثلي المؤسسات الرسمية... وهي أقرب إلى رموز الدولة، أو لنقل تجاوزا إنها تختزل الهوية في بعدها السياسي. وهذا يحيلنا إلى التأكيد أن القنوات التلفزيونية العربية قد انخرطت، لأسباب تاريخية وأخرى سياسية راهنة، في إشكالية بناء دولة وليس بناء مجتمع[44].

إن التاريخ المعاصر قد برهن على أن بناء دولة ما، خصوصا إذا كانت فتية، قد يؤدي إلى طريق مسدودة، وإلى تعرض مؤسساتها إلى التفكيك نتيجة أي هزة تفكك المجتمع، في ظل غياب التفكير في بناء مجتمع.

إن القنوات التلفزيونية العربية التي انخرطت في إشكالية بناء دولة على حساب الاهتمام بإشكالية بناء المجتمع قد انتهت إلى تسلم قطاع واسع من جمهورها التواق إلى الإحساس بنبضات مجتمعه في الشاشة الصغيرة إلى القنوات التلفزيونية الضحلة التي تترصد ذكاء المشاهد وعواطفه.

قد يقول قائل إن ولوج الحياة الخاصة في الفضاء العمومي في المنطقة العربية بفضل التلفزيون، وبرامج «تلفزيون الواقع» تحديدا تشكل الأسمنت الذي يصقل الهوية الوطنية ويثريها. إن قيمة هذا الرأي تكمن في توجيه نظر الباحثين إلى أهمية الذاتي والحميمي في صياغة أو إعادة صياغة الهوية الفردية، ومن ثمة الجماعية أو الوطنية، بيد أنه بحاجة إلى فحص ونقد في النسق الثقافي للمجتمعات العربية.

لقد بدت آثار صعود البرجوازية في الدول الغربية تتجلى في المجالات الاجتماعية والثقافية والحقوقية ونجم عنها الفصل الواضح بين الشأنين الخاص والعام، بينما لم يفصل بين هذين المجالين بكل وضوح في المنطقة العربية، لذا يخشى أن تشكل «الحياة الحميمية الخاصة» التي تستعرضها برامج التلفزيون إلى مدخل للعب مع الواقع وبه، وليس تأمله ومناقشة دلالاته في بناء الوعي بالذات الجماعية، وذلك لأن الثقافة الغربية تشكلت في ظل النقد والنقد الذاتي، واكتسبت الحيوية والتجدد انطلاقا من توسيع أطر ممارسته. بينما غيب النقد وقبول الاختلاف في الثقافة العربية، حيث يتحول الخلاف في الرأي، بسرعة، إلى نزاع. وينتهي، في الأغلب، إلى إقصاء وتهميش ما يشجع الثقافة العربية على الانغلاق على ذاتها.

الأطروحة الثامنة: إن الرؤية للتلفزيون في الدول العربية من الكوة السياسية لم تجدد التفكير في مكانته الاجتماعية في الفضاء الثقافي العربي، ولم تسهم في ترقية أدائه المهني، وذلك لأن الرؤية السياسية تنطلق من فهم ناقص لطبيعة العمل التلفزيوني، وتختصره في النشاط الموضوعي فقط، بينما همزة الوصل بين الهوية والتلفزيون تكمن في التمثلات غير المحررة من الذاتية، والتصورات التي يصعب القول إنها مطهرة من الإسقاطات اللاشعورية، والصور الذهنية. إن القنوات التلفزيونية العربية لا تتحرك في فراغ، بل في ظل منافسة القنوات التلفزيونية الأجنبية، التي احتلت المواقع المتقدمة في أرضية «الصور النمطية». لذا يمكن القول إن التركيز على إبراز الجوانب الإيجابية في حضارتنا أو ثقافتنا لا يفي بالغرض من دون التفكير في تطويع الأدوات المنتجة لصورتنا، والتعامل الواعي، غير المزاجي والانفعالي، مع الصور التي تروجها وسائل الإعلام الغربية عن الهوية العربية - الإسلامية، لأن الهوية تتحدد بنظرة الآخر إلى هويتنا.

كما أن العمل على إنتاج المواد السمعية - البصرية وفق الفكرة المستوردة وبصيغ تعبيرية وتصويرية مشروطة، أو كمادة جاهزة للبث، قد يعجل، أكثر، في القطيعة بين أشكال التعبير الفني والثقافي الشعبي وأشكال التعبير المرئية المستوردة.

لقد تطورت أساليب التعبير التلفزيوني في العالم إلى درجة أن الصحف الإخبارية في التلفزيون أصبحت تخضع لمعايير ورؤى الإنتاج الدرامي، بينما ظل بعض الإنتاج الدرامي العربي يرزح تحت ثقل معايير ورؤى الإنتاج الإخباري التلفزيوني! وهذا يزيد في حذر المشاهد منه، ويشك في نواياه. ويمكن القول إن هذا الأمر توارثه المهنيون والقائمون على القنوات التلفزيونية عن الأحادية الحزبية كتنظيم سياسي أو كذهنية، وعن ممارسات السلطة المطلقة.

الأطروحة التاسعة: ازدادت القنوات التلفزيونية العالمية ارتباطا بالفاعلين الاقتصاديين والسياسيين في الساحة الدولية، وبدأت تحتل مواقع متقدمة في المنظومة السياسية والأيديولوجية المهيمنة في العالم. وبهذا انصرفت إلى تضخيم الخطر من الطوائف العرقية والثقافية والدينية التي شعرت بوطأة الصعوبات في تكيفها مع التحولات السريعة التي تجري

في العالم والتي امتدت آثارها إلى حياتها اليومية. لقد شعر هؤلاء الفاعلون بأن هذه الطوائف تشكل خطرا على مشاريعهم ومصالحهم. في ظل هذا الوضع تسابقت هذه القنوات التلفزيونية إلى إعادة صياغة الوقائع والحقائق وفق المقولة الخاطئة التي ترى أن الشعور بالانتماء إلى هذه الطوائف يزيد في التوتر السياسي والثقافي بين الشعوب والأمم والدول، بينما الصدمة الثقافية أو الخلاف الثقافي والاصطدام السياسي هو الذي يؤجج الشعور بهذا الانتماء، كما تؤكد النزاعات العنيفة التي جرت أخيرا في يوغسلافيا سابقا، وليبيريا[45].

إن المطالبة بالتمسك بهذه الهوية الوطنية أو تلك التي تحركها عوامل داخلية وضغوط خارجية، تولدت نتيجة تجاهل القنوات التلفزيونية العالمية، ومن ورائها مصادر تمويلها وإخبارها التي تمثلها القوى المالية والسياسية المؤثرة دوليا وإقليميا ووطنيا، مظاهر الغبن والإحباط، والظلم واللامساواة التي يشعر بها المنتمون إليها. وبهذا يُوجَّه التفكير في مسألة الهوية التي تزداد تعقيدا بنوع من الاستسهال والتبسيط الذي توفره الصور النمطية التي تروج لها بعض القنوات التلفزيونية العالمية المتنفذة.

إن التوتر والتشنج اللذين يعبران عن حيرة وخوف على الهوية، يتحولان بفضل القنوات التلفزيونية وغيرها من أدوات الدعاية، إلى الخوف من الهوية، ويجب أن يتم التصدي لها بالأساليب العنيفة وحدها. وبهذا تسهم القنوات التلفزيونية في إحداث الانفصال بين السياسة والإعلام! أو على الأقل تنفي المقولة التي تلح على أن الإعلام هو التعبير المكثف عن السياسة. إن دعوة وسائل الإعلام إلى العنف للقضاء على التوتر المذكور هو القضاء على السياسة (باعتبارها فن التعايش والتعاقد)[46].

بل إن التلفزيون في هذه الحالة يناصب العداء حتى للاتصال. فالدعوة إلى العنف حتى وإن كان لفظيا لا يشجع على الاتصال، الذي يعتبر في لغة النحاة فعلا متعديا يعني، من جملة ما يعنيه، «جعل الشيء مشتركا»، والعتبة الأولى والضرورية للحوار والتبادل. (تبادل المعلومات والآراء والأفكار وتدويرها).

الأطروحة العاشرة: كان الاعتقاد السائد، منذ منتصف القرن الماضي، أن وسائل الإعلام هي بنت البيئة التي تطبع أو تبث فيها فان ديناميكية الواقع فندت هذا الاعتقاد في زمن تزايد فيه التباين بين قدرات الدول في إنتاج صورتها الإعلامية، والتلفزيونية تحديدا، وفي عصر تزايد فيه انفتاح البيئة المحلية على العالم الخارجي، وتداخل «الحدث الإعلامي» المحلي والوطني والدولي، وتعولت الأخبار التلفزيونية، أكثر فأكثر. وفي ظرف لم تعد القنوات التلفزيونية تتهافت على استيراد البرامج التلفزيونية الجاهزة للبث، أو الأفكار التلفزيونية القابلة للتصنيع والبث المحلي فقط، بل تدافعت إلى استيراد «نماذج تلفزيونية» أجنبية ناجحة تجاريا في الخارج بكل ما تتطلبه من عدة تنظيمية وفلسفية! وهكذا تماهت عديد من القنوات التلفزيونية التابعة للقطاع العام مع القنوات التجارية، وطلقت خصوصيتها وتخلت عن وظائفها وأدوارها.

لقد برهنت التجربة على أن أنموذج التلفزيون التجاري محكوم عليه بتكرار برامجه لجذب أكبر عدد ممكن من المشاهدين لأطول فترة ممكنة. إنه لا يغامر بطرح الجديد وغير المسبوق ثقافيا وجماليا، بل يعرض ما هو مألوف ومجرب ومضمون في سوق المشاهدة لأن الجمهور اختاره وتعود عليه(47).

أمام زحف السوق في تنظيم القطاع السمعي - البصري في عدد من الدول، قامت الدول بتنظيم أنشطتها، وشعرت الأمم الضعيفة والدول التي تعاني من إشكالية معقدة في هويتها بضرورة إصدار ترسانة من القوانين، وتبني مجموعة من الآليات التي تشجع القنوات التلفزيونية للإسهام في الحفاظ على وجودها الثقافي واللساني والفني والأدبي، وتسند دوره في إنتاج وإعادة إنتاج ما يعزز الانتماء إلى ثقافة وحضارة الأمة أو الدولة. فكندا، على سبيل المثال، أصدرت قانونا خاصا بالإذاعة والتلفزيون سنة 1991 يعمل على رفع إسهامهما في تعزيز الهوية الوطنية أمام التشنجات اللسانية، والخلل الثقافي والإعلامي في المادة الإعلامية والثقافية المتلفزة بين الأقاليم الكندية، وبين المنتج الكندي والأجنبي. وعينت هيئة مستقلة تشرف على احترام تطبيقه. وأصدرت دولة المكسيك، من جهتها، قانونا خاصا بالإذاعة والتلفزيون يوم 24 مارس 2002 قننت فيه إسهام القنوات التلفزيونية في إحياء وتطوير ثقافة السكان الأصليين بوصفها مكونا أساسيا للهوية الوطنية المكسيكية. وانفردت فرنسا بكثرة قوانينها ومؤسساتها العاملة على ترقية الهوية الفرنسية، بدءا من ترقية اللغة الفرنسية في الداخل والخارج (يمكن أن نلاحظ أن جل الألعاب التلفزيونية الفرنسية، خصوصا تلك التي تبثها القنوات التلفزيونية العمومية، تركز على ترقية استخدام اللغة الفرنسية، مثل: Les chiffres et les Lettres، وMotus، Pyramides، وغيرها). والأغنية الفرنسية، والفيلم الفرنسي، والإنتاج الأدبي الفرنسي.

تأسيسا على ما سبق، هل يمكن الحديث عن الحفاظ على الهوية الوطنية أو العربية - الإسلامية أو ترقيتها في ظل غياب سياسة ثقافية دقيقة، وغياب الإرادة التي تحدد جوانب القوة والضعف في هذه الهوية، وتحدد أولويات التدخل وآلياته القانونية والمادية والمؤسساتية لتعزيز حضور هذه الهوية في مختلف المجالات، وخصوصا القنوات التلفزيونية الوطنية؟

هل يمكن للخطاب الوعظي، وحتى الاحتجاجي على تزايد القنوات التلفزيونية العربية التي تكتفي ببث شريط الرسائل القصيرة المشبوهة، وأغاني الفيديو كليب والتنجيم والشعوذة، في ظل شبه فراغ قانوني، أن يسهم في الحفاظ على الهوية الوطنية أو العربية الإسلامية من الضياع؟ هل تستطيع هذه القنوات التلفزيونية التي عجزت عن امتلاك هوية مرئية خاصة بها أن تخدم الهوية الوطنية؟

لو سلمنا مسبقا بأن الهوية الوطنية لا تندثر وتمحى من الوجود نهائيا، بل تتغير وتتبدل بفعل احتكاكها، وتفاعلها، أو لنقل تداخلها مع الثقافات الأجنبية، أو الثقافة العالمية، فهل نملك العُدّة اللازمة في مجال وسائل الإعلام المرئي للتدخل الواعي في توجيه هذا التغير أو التبدل؟

الهوامش

1 ليس غريبا أن تحتدم الحملة الانتخابية للرئاسة الفرنسية التي جرت في أبريل العام 2007 بشأن موضوع «الهوية الفرنسية»، وتنتهي إلى إنشاء وزارة للهوية والهجرة:
Voir l'interview de Pierre Nora (2007): "le nationalisme nous a caché la nation", accordée à Sophie Gherardi, le quotidien Le monde, France, du 17mars.

2 Dominique Wolton (2001): L'identité culturelle française, face à la mondialisation de la communication, Intervention lors de la séance du lundi 28 mai, l'académie des sciences morales et politiques, Paris, in http://www.asmp.fr/travaux/communications/2001/wolton.htm, consulté le 17-02-2003.

3 برهان غليون (2007): إشكالية الأزمة العربية: التاريخ ومظاهر الحلول، حوار أدلى به إلى مارك حامدي، مجلة الرافد، الشارقة، عدد 118 - يوني (ص 11 -15).

4 Jean-Michel Frodon (1998): La Projection Nationale - Cinema Et Nation, des lumieres au reseau mondial, edition Odile Jacob, Paris, p 46.

5 Dominique Wolton, op cité

6 Philip Gleason, (2001): "Identifying Identity: A Semantic History", cité par Rogers Brubaker: au- delà de "l'identité, actes de la recherche en sciences sociales- Paris no 139 avril (p 66-85).

7 Idem (p 66-85).

8 Indira Yakovenko (2004): L' identité russe à travers le marche international de l'audiovisuel et cinématographique, les éditions électroniques, in ComPosite, revue électronique des jeunes chercheurs et chercheuses en communication, http://commposite.org/v1/2004/articles/yakove.pdf, consultée le 13-12-2005.

9 نقلا عن مداخلة الشاعر والناقد الجزائري جمال الدين بن الشيخ غير المنشورة، التي قدمها في معهد العالم العربي بباريس يوم 19 نوفمبر 1993، بعنوان: «أن تكون عربيا وأنتَ في العشرين من العمر».

10 محمد عابد الجابري: (2007) كلام في مسألة الهوية، وجهات نظر، صحيفة الاتحاد الإماراتية، 28 أبريل.

11 المصدر ذاته.

12 المصدر ذاته

13 Rogers Brubaker, op cité (p 66-85).

14 Benidict Anderson (1996): l'imaginaire national, Paris, la découverte, p19.

15 Stuart Hall, "Introduction: Who Needs "Identity?" Cité par Rogers Brubaker, op cite (p 66-85)

16 انظر على سبيل المثال إلى المقاربة الميدانية لهذا الثالوث:
- عبد الوهاب بوخنوفة: المدرسة، التلميذ والمعلم، وتكنولوجيات الاتصال الحديثة: دراسة في التمثل والاستخدامات، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علوم الإعلام والاتصال، غير منشورة، قسم علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، ديسمبر 2007، 370 صفحة.

17 محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات - مجلة فكر ونقد، عدد 6 - 18.

18 نصر الدين لعياضي: التلفزيون، البرمجة، المشاهدة (1998): أراء ورؤى، دراسات اجتماعية «38»، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ص 14.

19 Fabien Granjon (2002): Note de lecture de l'ouvrage: Après le colonialisme. Les conséquences culturelles de la globalisation, Paris: Payot, (2001) 322 p. de Appadurai Arjun, in COMMposite, La revue électronique des jeunes chercheurs et chercheuses en communication, http://commposite.org/index.php/revue/article/view/115/93.

20 Natacha gagné (1999): Identité et mondialisation, regards d'anthropologue Mémoire de (Ma) en anthropologue, Faculté des études supérieurs Laval (Canada) P 85.

21 Idem, P 89.

22 Idem, P 67.

23 Cité par Denis Mornière & Julie Fortir (2000): Radioscopie de l'information télévisée au Canada, Collection "politique et économie", les presses de l'université de Montréal (Canada), p 10.

24 Idem, P 11.

25 Richard Collins (1990): Culture, Communication and National Identity: the Case of Canadian Television, Toronto, University of Toronto Press, in DenisÅMornière, Julie Fortir , op cité, p 13.

26 استعمل هذا المصطلح الباحث باتريك شارودو - انظر:
Annik Dubied (2000): Rencontre avec Patrick Charaudeau, revue Médiatique, publication de l'Observatoire du récit médiatique, Université catholique de Louvain , Belgique. N 20- Juin (p 42-48).

27 Philip Schlesinger (1990): "L'identité nationale. De l'incantation à l'analyse, Revue; Hermès, France; n ° 8-9 (p 201-239).

28 للاطلاع أكثر على الواقع الإعلامي والواقع الموضوعي العيني - انظر:
عبد الرحمن عزي (2003): دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص 15.

29 Camille Douls (1888): A travers le Sahara occidental et le sud marocain, bulletin de la société de géographie, septième série, Tome neuvième, édition la société de géographie, Paris, P 461.

30 Tamatoa Bambridge (2001): Traditions en mutation, le développement des médias en Polysénie française, l?année sociologique, France, Puf, février Vol.51, p 368.

31 برامج تلفزيون الواقع في المنطقة العربية بين التجانس الثقافي والنسبية الثقافية (2008) انظر: «ثورة الصورة: المشهد الإعلامي وفضاء الواقع» مؤلف جماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ص (137 - 173).

32 يقصد بها كريستيان ترول - انظر دراسته المعنونة: الفكر التقدمي في الإسلام المعاصر: نظرة تقدمية، ترجمة: حامد فضل الله، (2007): المستقبل العربي، بيروت، عدد 340 - يونيو (ص 6 - 23).

33 علي أومليل: الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون - معهد الإنماء العربي، لبنان، بدون تاريخ، ص 23.

34 Mira Kapil Desai (2002): La télévision indienne dans l'ère de la mondialisation: Unité, diversité ou disparité? Traduit de l'anglais par Catherine Martin, Quaderns del CAC: (Conseil de l?audiovisuel de Catalunya- Numéro 14 sep décembre (p 63-75).

35 Idem (p 63-75).

36 لم يكلل مشروع إنشاء حديقة «ديزني لاند» في اليابان بالنجاح. والسبب في ذلك يكمن في الإجابة عن هذا السؤال. ماذا تضيف هذه الحديقة للياباني من دهشة وسحر وهو الذي تغذى منذ صغره على الأساطير التي تفيض سحرا وغرابة؟ وهو الذي يعاني من إشباع في السرد الشفهي الذي ملأ مخيلته؟

37 الطيب بوعزة (2007): رؤية نقدية.. دلالات مفهوم الهوية في العلوم الإنسانية، الملحق الثقافي لصحيفة الخليج الإماراتية، الصادرة يوم 21 أبريل.

38 Gérard Bouchard (2002): Un monde à repenser, la crise des imaginaires, la mondialisation et les petites nations colloque Panaméricain Industries culturelles et dialogue des civilisations dans les Amériques , GRICIS, Montréal, du 22-24 avril in:
http://www.er.uqam.ca/nobel/gricis/actes/panam/Bouchard.pdf, consulté le 20-2-2005.

39 Elodie Kredens(2006): La téléréalité entre adaptabilité des formats et spécificités nationales, le cas de l'émission"Big Brother" Colloque International " mutations des industries de la culture de l?information et de la communication" France, septembre in:
http://www.observatoire-omic.org/extranet/pict/Kredens%202_2%20colloque%20ICIC.pdf, consulté le 15-02-2007.

40 منصف العياري، نهوند القادري عيسى، خالد زعموم (2008): ظاهرة تلفزيون الواقع وامتدادها العربي، سلسلة بحوث ودراسات إذاعية - عدد 65 - اتحاد الإذاعات العربية، تونس، ص 12.

41 المصدر ذاته: ص 128.

42 نصر الدين لعياضي، يوسف تمار (2007): فن البرمجة وإعداد الخريطة البرامجية في القنوات التلفزيونية العربية: جدلية التصور والممارسة، سلسلة بحوث ودراسات إعلامية، - عدد 59، اتحاد الإذاعات العربية، تونس، ص 148.

43 المنصف العياري، محمد عبدالكافي (2006): القنوات التلفزيونية المتخصصة، سلسلة بحوث ودراسات إعلامية، عدد 56، اتحاد الإذاعات العربية، تونس ، ص 41.

44 نصر الدين لعياضي (2001): وسائل الاتصال الجماهيري، القاعدة والاستثناء، سلسلة كتاب الرافد، الدائرة الثقافية للشارقة، ص 78.

45 Bertrand Badie(2007): "Il n'existe pas d'ordre territorial idéal", L'intégralité du débat avec Bertrand Badie, Le monde, France 12 juin.

46 Idem.

47 هذا ما صرح به مسؤول البرمجة في القنوات التلفزيونية التي يملكها السيد برلسكوني في إيطاليا. نقلا عن:

Armand Mattelart (2002): La diversité culturelle: entre histoire et géopolitique colloque panaméricain et 2001 Bogues gricis- Montréal 24 - 27 avril in http://www.infoamerica.org/documentos_pdf/Mattelart2.pdf, consulté 3-4-2004.